

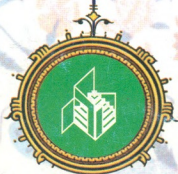


الأنوار

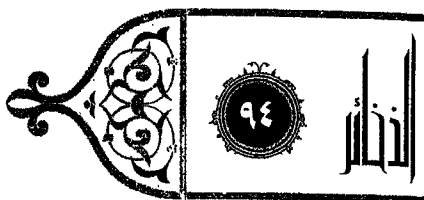
فالكهت الخلفاء، ومفالكهت الظرفاء،

تأليف
أحمد بن محمد بن عرب شاه
(٧٩١-٨٥٤ هـ / ١٣٩٢-١٤٥٠ م)

تقديم وتحقيق وشرح
أ.د. محمد رجب النجار
أستاذ الفولكلور العربي
جامعة الكويت



الهيئة العامة لقصور الثقافة



فالكه الخلفاء، ومفالكه الظرفاء،

تأليف
أحمد بن محمد بن عرب شاه
(٧٩١ - ٨٥٤ هـ / ١٢٩٢ - ١٤٥٠ م)

تقديم وتحقيق وشرح
أ.د. محمد رجب النجار
أستاذ الفولكلور العربي
جامعة الكويت





الهيئة العامة
للقصص والثقافة

سلسلة الذخائر (٩٤)

نصف شهرية

إصدار

منتصف أبريل

فاكهة الخلفاء ومفاكهة الطرقاء

تأليف / أحمد بن محمد بن حرب شاه

تقديم وتحقيق وشرح

أ.د. محمد رجب النجار

تصميم الغلاف للفنان

محمد بغدادجي

رقم الإيداع : ٨٥٤٤ / ٢٠٠٣

التراقيم الدولي :

I.S.B.N. 977 - 305 - 440 - 3

الشركة الدولية للطباعة ٦ أكتوبر

د. : ٨٣٣٨٢٤٠

المراسلات باسم مدير التحرير على العنوان التالي

١٦ أ عن أمين سامي قصير المهدي - القاهرة

رقم بريدي ١٢٥٦١

الخاتمة

رئيس مجلس الإدارة	رئيس التحرير
أنس الفقى	أ.د. عبد الحكيم راضى
أمين عام النشر	مدير التحرير
محمد السيد عيد	د. محمود فؤاد
الإشراف العام	سكرتير التحرير
فكرى النقاش	جمال العسكرى

الإشراف الفنى العام
غريب نـدا

مستشارو التحرير

أ.د. إبراهيم عبد الرحمن	أ.د. عبد الله التطاوى
أ.د. حسنين محمد ربيع	أ.د. عبده على الراجحي
أ.د. حسين نصار	أ.د. محمد حمدى إبراهيم
أ.د. السباعى محمد السباعى	أ.د. محمد عونى عبد الرؤوف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تعريف

عزيزى القارئ . . هذا كتابٌ يهْمُ كلُّ من له صلة بدراسة الأدب والفكر والاجتماع والسياسة والتاريخ . . ومجالات أخرى كثيرة .

يتخذ الكتابُ من حيث بنيته شكل العمل القصصى القائم على الحكاية والسُّرد ، فهو - من هذه الزاوية عمل قصصى ، ولكنه ينحاز إلى شريحة خاصة من الأعمال القصصية التى اتخذت شخوصها من عالم الحيوان والطير ، وقد عرف الأدب العربى عددًا من الأعمال التى تنتمى إلى هذه الشريحة أشهرها كتابُ (كليلة ودمنة) الذى نقله عبد الله بن المقفّع (ت ١٤٢) من اللغة الفارسية إلى اللغة العربية ، والذى هو فى أصله نتاجٌ هندى نُقِلَ من قبل إلى اللغة الفارسية .

ومن هذه الأعمال أيضا ما يُنسَبُ إلى سهل بن هارون الأديب الفارسى الأصل (ت ٢١٥) ، إذ ينسب إليه كتابان أحدهما بعنوان (ثعلبة وعفراء) والآخر - ونسبته إليه فيها نظر - بعنوان (النمر والثعلب) وفيهما يظهر التأثير بكتاب كليلة ودمنة فى حيلة اتخاذ الأبطال والشخص من عالم الحيوان والطير .

كذلك ساهم إخوان الصفا (ق ٤) فى اتخاذ شخوص الحكايات من عالم الحيوان فى بعض مواضع من رسائلهم ، هذا إلى تخصيصهم رسالة مستقلة فى الحيوان ، هى الرسالة الثانية والعشرون ، وفيها يدخل - ضمن شخوص الحكاية - عنصر الجنّ إلى جانب عنصرى الإنسان والحيوان .

وإذا كان كلٌّ من الكتب اللاحقة على (كليلة ودمنة) - مثل (ثعلبة وعفراء) و(النمر والثعلب) ورسالة إخوان الصفا - قد تأثر به فإنّ ترجمة ذلك الكتاب ونظمه والتأثر به لم يتوقف ، إذ نجد له نظمًا بعنوان (نتائج الفطنة فى نظم كليلة

ودمنة) لابن الهيثارية (ت ٥٠٤) الذى يُنسب إليه كتاب (الصاحح والباغم) أيضا ، وهو يحمل أثر كل من كليلة ودمنة ورسائل إخوان الصفا . كما نظمه جلال الدين النقاش (ق ٧) . كما نجد لمحمد بن أحمد بن ظفر . كتاب (سلوان المطاع فى عدوان الأتباع) وهو كتاب نثرى تحمل فيه حكايات الحيوان صبغة دينية كما تحمل أثرا من كليلة ودمنة .

ثم يجئ كتاب ابن عرب شاه (فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء) الذى نقدّمه للمقارئ فى هذه الحلقة من الذخائر ، وهو أقرب إلى الترجمة الحرة التى جرى فيها كثير من التصرف والإضافة إلى كتاب (مرزيبان نامه) الذى دُوّن فى القرن الرابع وتُرجم إلى الفارسية الحديثة فى أوائل القرن السابع .

يتراوح مغزى هذه الكتب - التى هى أعمال أدبية قصصية فى الأساس - بين المغزى السياسى والاجتماعى والفلسفى والدينى ، وإن غلب عليها الفكر السياسى والاجتماعى ، كما تشترك فى اتخاذها من الحيوان والطير - والجنّ حيناً - أفتنة ترمز إلى الشخصوس والمبادئ والأفكار ، فى ظلّ مناخات سياسية واجتماعية يتردد فيها صدى القهر الداخلى ، أو يخيم عليها كابوس الغزو الخارجى ، بدءاً من الظروف التى حملت يديها الحكيم الهندى على الاستعانة بحيلة اتخاذ الرموز من عالم الحيوان والطير ، احتماء بها من القهر الداخلى ، إلى الظروف التى دفعت ابن عرب شاه إلى اصطناع نفس الحيلة إيماءً إلى مزايا الحوار والتفاهم فى الداخل تنبيهاً على خطورة الزكون إلى الدعة أو الاطمئنان إلى انحسار الهجوم من الخارج ، وضرورة التسلّح فى جميع الأحوال بالديمقراطية والعدل دغماً للبناء الداخلى ، والتسلّح بالاتحاد والقوة العسكرية ردعاً للعدو من الخارج .

وذلك - أعنى التنبيه على خطورة الضعف إزاء العدو الخارجى - ما يظهر جلياً فى كتاب ابن عرب شاه الذى يحمل صدى ما كان قد ألمّ بالعالم العربى من آثار الهجمة المغولية الشرشة على بغداد أولاً ثم على دمشق وحلب ، وهو الهجوم الذى تركز بعد ذلك بقيادة تيمورلنك سنة ٨٠٣ حين كان المؤلف

لا يزال صبيًا في الثانية عشرة من عمره يعيش في بلده دمشق التي تعرضت تحت سمعه وبصره لكل صور الوحشية من تدمير وإحراق وهتك للعرض وعبيث بالمحارم واستباحة للأموال والأنفس . بل إن هناك من يذكر أن المؤلف قد أخذ أسيرًا في تلك الحرب وعانى بشخصه ويلاتٍها قبل أن يُقלט من محنته . والراجح أن كل تلك المعاناة كانت وراء تأليفه لكتاب (عجائب المقدور في نوائب تيمور) سنة ٨٤١ هـ ، ثم تأليف كتاب (فاكهة الخلفاء . . .) سنة ٨٥٢ هـ ، وقبلهما كان قد ترجم كتاب (مزيان نامه) . وكأنه وقد سمع عما فعله هولاءكو ببغداد ودمشق سنة ٦٥٦ هـ ، ثم رأى ما فعله بعد ذلك تيمورلنك بدمشق وحلب . . أراد أن يحذر أمته من الاستئمان إلى الضعف أو الثقة بفترة من الأمان إذ ماتزال الأرض تُنبث الشجر

ليصنع الإنسان من غضونها قنا الرماح
ولا يزال جوفها يموج بالحديد والحجر
لكن يزود القناة بالسنان

ويُضرم النيران في الزروع والزهور من شرارة الحجر
ومما له دلالة أن تتم مجموعة الأعمال التي سبق ذكرها في مصر ، بعد أن نزل بها ابن عرب شاه سنة ٨٤٠ هـ واتخذها دار إقامة إلى أن توفي بها سنة ٨٥٤ هـ .

وكانه وقد نعم بالطمأنينة في رعاية السلطان المملوكي جقمق قد عادت إلى ذاكرته أصداء تلك الفظائع فراح يستدعيها مع دوافعها وسبل الوقاية منها - على طريقته كصاحب قلم - مرة بالترجمة ، ومرة بالتأريخ لها ، ومرة في هذا العمل الإبداعي (فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء) .

قلت إن الكتاب يهّم كل من له صلة بدراسة الفكر والاجتماع والسياسة والتاريخ والأدب . ولعلك - عزيزي القارئ - توافقني - بعد أن تقرأ الكتاب - على أن فيه من كل ذلك ، فهو صدى لحقبة من جفّ التاريخ قابلة لأن تتكرر (وهي تتكرر الآن بالفعل) وشخصه زُمور لأنماط من العقول والحكم

وشرائح من الناس ، ووقائعه تحمل الكثير من الدروس فى الاجتماع والسياسة ، كما أنه - قبل كل ذلك وي بعده - نصّ أدبى روائى لافتٌ ببنيته وأسلوبه ولغته .

ويعد .. فلقد أحسن الأستاذ الدكتور محمد رجب التّجار صنعا بتقديم هذا الكتاب محققا هذا التحقيق العلمى الدقيق .

والدكتور النجار أستاذ علم الفولكلور بجامعة الكويت ، وهو خريج جامعة القاهرة ، ومنها حصل على الدكتوراه فى الأدب الشعبى العربى سنة ١٩٧٦ . وهو عضو باتحاد الكتاب بجمهورية مصر العربية ، وعضو فى عدد من جمعيات الفولكلور الدولية ، وحائز على جائزة الدولة التشجيعية فى الأدب الشعبى العربى سنة ١٩٩٦ .

ومن مؤلفاته :

- جحا العربى ، شخصيته وفلسفته فى الحياة والتعبير . عام ١٩٧٨
- حكايات الشطّار والعيّارين فى التراث العربى عام ١٩٨١
- التراث القصصى فى الأدب العربى ، مقاربات سوسيو سرديّة ١٩٩٥
- النثر العربى القديم من الشفاهية إلى الكتابة .
- ومن تحقيقاته :

كتاب فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء

الذى يسعد سلسلة الذخائر أن تقدمه إلى قرائها الأعزاء .

عبد الحكيم راضى

مقدمة ودراسة

بقلم المحقق

[١] القصص وتشكيل الوعي

الحكى ، أو فعل السرد ، اكتشاف قولي. / لغوي واكب الإنسان منذ أقدم العصور التى كان يحبو فيها خطواته الأولى على مدارج الحياة البشرية ، إبان طفولتها الشعرية ، ليس لأن الحكى فن الطفولة الأول ، جمالها وتربويا ، أو لأنه كان الأداة للمعرفة الأولى التى عرفها الإنسان القديم سبيلا الى صوغ تصوراته الدينية وأفكاره السياسية والتربوية والعملية ، أو لأنه الأداة الأبلغ أثرا والأبعد تأثيرا فى تشكيل الوعي الإنسانى (فى بوتقة القص) وإدراك الحياة ، أو لأنه الوعاء الأقدم لرصيده الثقافى والحضارى الذى احتفلت به الذاكرة الجمعية ، يوم كان الفرد فى المجموع ، والمجموع فى الفرد ، حيث فرد خارج الجماعة ، أو لأن القصّ ذاكرة الشعوب التاريخية ، يوم كان القص تاريخا والتاريخ قصا ، فحسب ، ذلك أن الإنسان كائن قصصيّ بالقوة بقدر ما هو كائن ثقافى / اجتماعى بالفعل ، الحكى نفسه فطرة إنسانية باعتباره يلي نزوعا إنسانيا يستحيل تجاهله ، فى كل العصور التاريخية وفى كل المراحل العمرية للإنسان وفى كل الثقافات والحضارات ، وعند كل الأجناس والشعوب ، وفى كل الديانات السماوية وغير السماوية ، فضلا عن رغبة دنيئة - واعية أو لا واعية - عند الإنسان فى امتلاك العالم عن طريق الحكى وإعادة تشكيله كما يحلم به ويصبو إليه .

لقد كان الحكيم (أسطوريا أو لا أسطوريا) أول درس تعليمي في تاريخ البشرية ، استطاع - بفضل طابعه القصصي - أن "يقولب" الواقع ، وأن يجعله مرغوبا فيه ومنطقيا ومقبولا ، ولهذا ليس من المبالغة في شئ حين نقول إن السرد - وهو مقلوب درس - كان المؤسسة الاجتماعية الأولى ، الشعبية والمجانية ، التي عرفتها كل الشعوب والثقافات والحضارات ، ومن ثم لا غرو أن يقال "إن أول ما أنشأ الإنسانية هو السرد" حيث الإنتاج القصصي في هذه المؤسسة (الاجتماعية أو القصصية) هو "الحلم" الذي يمكن أن يتحول الى رمز ، وهو "العلم" الذي يمكن أن يتحول الى حقيقة . هذه المؤسسة التي ظلت - الى جانب مؤسسات أخرى ، رسمية وشعبية ، لاحقة - مشرعة الأبواب ، عبر العصور والثقافات ، ولم يحدث أن توقفت عن العطاء ، والتطور والنماء ، يتماهى فيها الخيال بالواقع ، والتاريخ بالأسطورة ، والحلم بالعلم ، والمتع بالمفيد ، والجمالي بالتربوي ، والترفيهي بالتثقيفي ، والسرد بالتعليمي ، فالقصة قديمة قدم الإنسان ، ومن ثم لا غرو أن تكون هذه المؤسسة القصصية / السردية هي أقدم أشكال التعبير ، وهي بحكم طبيعتها المرنة ، وبعدها عن الوصاية النقدية قد استطاعت أن تطور نفسها ، وأن تستوعب في إطارها - الأكثر تشويقا - كل فنون القول والمعارف والإيديولوجيات عبر العصور .

[٢] العرب والإبداع القصصي

فإذا ما انتقلنا من العام إلى الخاص ، إلى التراث العربي ، وجدناه تراثا حكايا (سرديا) في جانب كبير منه ، فالعرب ليسوا بلعبا بين الشعوب ، حيث الحكيم ظاهرة متأصلة في الذات العربية ، ومتجذرة في تراثها القومي - عبر الزمان والمكان - بل لا نظن أن موروثا حكايا شغل فضاء سرديا في تراث الشعوب قدر

ما شغل الموروث الحكائي العربي فضاء التراث العربي، بشقيه الشفاهي والكتابي، الشعبي والرسمي حتى لا يمكن القول بأن العرب ظاهرة حكاية بالمعنى الإيجابي. ولعل عودة عقل إلى كتاب الفهرست للنديم الوراق تؤكد ما نذهب إليه من ثراء الموروث الحكائي العربي، كما وكيفا. بل يحق للتراث الحكائي العربي أيضا أن يتباهى في مجال القصص والحكايات الخرافية بامتلاكه كتاب ألف ليلة وليلة، وكذلك الأمر في مجال قصص الحيوان الرمزية بامتلاكه كتاب كليلة ودمنة في صياغته العربية العالمية لابن المقفع.

ومن الجدير بالذكر أن هذا الموروث الحكائي العربي بشقيه الشعبي والرسمي (الشفاهي والكتابي) هو الذى عرف طريقه الى العالمية عن طريق الترجمة إلى كثير من اللغات الحية في العصور الوسطى والحديثة، ولا ينكر باحث منصف من المستشرقين أن هذا الموروث الحكائي العربي قد ترك بصماته الفنية على فنون السرد العالمية آنذاك.

[٣] قصص الحيوان أو الحكاية / القناع

والحكاية على لسان الحيوان نمط من الأنماط القصصية التي عرفتها آداب العالم، ومن بينها الأدب العربى، منذ أقدم العصور. ولعل أهم ما يميز حكاية الحيوان بين الأجناس الأدبية / القصصية، أن الحيوان هو الذى يلعب دور البطولة فيها، مهما تعددت أشكالها السردية (قصص الحيوان التعليلية، قصص الحيوان التعليمية أو الرمزية، رواية الحيوان، ملحمة الحيوان) ويعتينا هنا أن نقف بإيجاز عند قصص الحيوان التعليمية أو الرمزية Fable (باعتبارها الشكل القصصى الذى ينتمى إليه كتاب فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء ..) فإذا هو حكاية رمزية محدودة الأحداث، يلعب الحيوان فيها دورا إنسانيا رمزيا - بالمعنى العام للرمز - ولها

مغزى تعليمي ، وتتسم بعدد من السمات ، منها أنها تحكى نثرا أو شعرا .. ومنها أنها إنسانية الطابع ، أو المضمون ، ذلك أنها قادرة - ببساطتها ورمزيتها ، وبثرائها في التأويل وعبريتها الجمالية - على أن تنفذ إلى الملتقي ، على اختلاف مراحل العمرية ، ومستوياته الثقافية . وهي عالمية الانتشار ، فهي قادرة على كسر حواجز اللغة والزمان والمكان ، ولذلك تسهل هجرتها وترجمتها وذيوها بين الشعوب والثقافات المختلفة .. وظاهرها هو وباطنها حكمة ، واللهو هنا ليس إلا السرد القصصي على لسان الحيوان وعجائبيته أو غرائبيته ، وشيوع روح الفكاهة ، وفيه تكمن قيمتها الجمالية / الإمتاعية (في قالبها السردى الخيالي) وحيث تكمن أيضا وظائفها الفكرية وغاياتها التعليمية والتحريضية (الأخلاقية والتربوية والاجتماعية والسياسية) .

والتراث العربى حافل بهذا النوع من الحكايات الرمزية ، نثرا وشعرا ، منذ العصر الجاهلي ، تحت أسماء متعددة ، منها "خرافة الحيوان" ومنها "الخرافة على ألسن السباع والطير والبهايم" ومنها "نوادير من حيل الحيوان" ومنها الأمثلة القصصية ALLEGORY . وقد ظلت هذه القصص الرمزية - على لسان الحيوان - تروى شفاهيا كنوع من أنواع السرد الشفاهي حتى بدايات الدولة العباسية ، عندما ألّف عبد الله بن المقفع (ت ١٤٥ هـ) كتابه الذائع الصيت عريسا وعالميا : كتاب كليله ودمنة^(١) ، في عهد الخليفة أبي جعفر المنصور ، وفي هذا الكتاب تجلّت وظائف قصص الحيوان في التراث العربى ، أعنى الوظائف السياسية والتربوية والأخلاقية (والتعليمية بوجه عام) فضلا عن الغايات الجمالية / الإمتاعية

(١) حول عروبة هذا الكتاب ، باعتباره من إبداع ابن المقفع وتأليفه ، انظر أكتابنا : التراث القصصى فى الأدب العربى - مقاربات سوسيو - سردية ص ١١١ - ١٢٩ . ذات السلاسل - الكويت ، ١٩٩٥ .

التي تحول دون وقوع الكاتب في خطائية الوعظ أو النصح المباشر ، ولأن الكاتب أيضا يتخذ من الحيوان - بطل الحكاية - رمزا من ناحية ، وقناعا من ناحية أخرى ، يخفى وراءه مقاصده وغاياته البعيدة (السياسة خاصة أو التحريضية) فإنه يمكن أيضا وصف هذا النوع من السرد على لسان الحيوان ، بأنه ضرب من الحكاية / القناع .

[٤] فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء

(آخر العنقود)

إذا كان كتاب كليله ودمنة - بشهرته العربية والعالمية الطاغية - هو أول كتاب فى تراثنا القصصى ينتقل بقصص الحيوان الرمزية العربية من مرحلتها الشفاهية إلى مرحلتها الكتابية ، فإن كتابنا فاكهة الخلفاء هو آخر كتاب فى التراث العربى على لسان الحيوان ، قبل العصر الحديث^(٧) . وبالرغم من شهرة الكتاب فى عصره ، وشهرة مؤلفه ، فإن أحداً من المعنيين بتحقيق التراث العربى لم يقيم بتحقيقه ، وربما لانتمائه لأدب العصر المملوكى الذى لم نخفل به حتى الآن ، على مستوى الدرس الأكاديمى والبحث العلمى ، بحجة أنه عصر انحطاط . وعلى الرغم مما تنطوى عليه هذه المقولة من مسلمات خاطئة ، فقد آن الأوان للعناية بأدب هذا العصر ، لأنه - شئنا أم أبينا - جزء من تاريخنا القومى والثقافى والأدبى . وفيما بين البداية (كليله ودمنة) والنهاية (فاكهة الخلفاء) ظهرت عشرات الكتب القصصية على لسان الحيوان ، وقد تم تحقيق معظمها ، إن لم يكن جميعها ، مما عثر عليه ، باستثناء كتابنا هذا . وفيما بين الكتابين أيضا تجسدت - على مستوى الإبداع الأدبى - التجربة التاريخية للحضارة العربية الإسلامية فى يزوغها وأقولها ، وشتان ما بين

(٧) انظر : محمد غنيمى هلال ، الأدب المقارن ، ص ١٨٧ ، دار العودة - بيروت ، ١٩٨٧ .

الحاليين . كما تبلورت - فيما بينهما أيضاً - التجربة السياسية للحضارة العربية الإسلامية إبان ازدهارها وأقولها .. وعلى الرغم من أن كتابنا فاكهة الخلفاء ومفاكهة الخلفاء صرخة فنية من أجل إنقاذ هذه الحضارة الآفلة ، وعلى الرغم من أنه كذلك يضاهي كليلته ودمنة قيمة ووظيفة وغاية ، فإنه لم تُقلّر له الشهرة السياسية والأدبية التى حظى بها سلفه .. ربما لأنه ظهر فى مرحلة الأفول الحضارى ، حين كانت حضارة العرب فى طريقها لأن تُلغظ أنفاسها نهائياً على يد ابن عثمان ، سليم الأول - بعد سنوات قليلة - فجاء الكتاب صرخة فى البرية .

ومن الجدير بالذكر أن مؤلفه ابن عرب شاه^(٧) كان معاصراً لابن خلدون ، وارتحل مثله فى الممالك الإسلامية ، وكان شاهداً - مثله - على أحداث عصره السياسية ، وقد عبر عنها فى كثير من مؤلفاته التاريخية والأدبية .. ولكن أحداً لم يعن بهذا الكاتب العناية التى تليق به ومؤلفاته^(٨) إلا قليلاً ، كما سنرى وشيكا ، فى ترجمته ، ولم يقم أحد بتحقيق هذا الكتاب الأكثر أهمية من بين مؤلفاته ، على الرغم من طباعته - طبعات تجارية سيئة وغير محققة - فى نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين .

وهذا الكتاب ، بعنوانه المراوغ "فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء"^(٩) لا يفصح عن موضوعه الحقيقى ، بسهولة ، بل يوارى مضمونه الإنسانى والفكرى والسياسى وراء حيل الحيوان .. ومن ثم فهو ليس كتاب طرائف ونوادر كما توهم البعض ، بل هو - مثل كليلته ودمنة - كتاب فى الأدب السياسى ، يعكس طبيعة العلاقة

(٧) انظر ترجمته فى نهاية هذا التقديم .

(٨) انظر مؤلفاته فى ترجمتنا له .

(٩) غنى عن البيان العلاقة بين الفاكهة والمفاكهة أو الفكاهة ، فهما من جذر لغوى واحد هو فكة .

بين السلطة والثقافة ، أو السيف والقلم ، ويرصد وقائع الصراع بين السلطتين في عصره ؛ على نحو إبداعي يتجلى في مئات القصص الرمزية - بالمعنى العام - التي يحفل بها الكتاب على لسان الحيوان Beasts وتجلياتها الأدبية من حكايات تعليمية Fables أو أمثولات Allegories . والكتاب - بهذا العنوان المراءوِغ يعمد أيضا إلى دفع قارئه للتفكير والتفكُّه في آن ، أو كما يقول المؤلف في خطبة الكتاب : "فيتفكَّه السامع تارة ويتفكَّر أخرى" .

[٥] موضوع الكتاب وغاياته ووظائفه

بداية يتكون الكتاب من خطبة وعشرة أبواب هي . كما ذكرها المؤلف :

الباب الأول : في ذكر ملك العرب ، الذي كان لوضع هذا الكتاب السبب .

الباب الثاني : في وصايا ملك المعجم ، المتميز عن أقرانه بالفضل والحكم .

الباب الثالث : في حكم ملك الأتراك ، مع حخته الزاهد شيخ النساك .

الباب الرابع : في مباحث عالم الإنسان ، مع العفريت جان الجان .

الباب الخامس : في نوادر ملك السباع ، وتلميذ أمير الثعالب وكبير الضباع .

الباب السادس : في نوادر التيس المشرقي ، والكلب الأفرقي .

الباب السابع : في ذكر القتال بين أبي الأبطال الرئال ، وأبي دغفل سلطان الأفيال .

الباب الثامن : في حكم الأسد الزاهد ، وأمثال الجمل الشارد .

الباب التاسع : في ذكر ملك الطير العقاب ، والحجلتين الناجيتين من العقاب .

الباب العاشر : فى معاملة الأعداء والأصحاب ، وسياسة الرعايا والأحباب ،
ونكت وأخبار ، وتواريخ أخبار وأشرار .

والأبواب الثمانية الأولى يلعب دور البطولة فيها الحيوانات ، والباب التاسع
يلعب دور البطولة فيه الطيور ، ويتحول بعضها الى راوية فى الباب العاشر ، فى
محاولة ساذجة من المؤلف لربط هذا الباب بالكتاب .. ذلك أن الباب العاشر ، لا
يظهر فيه الحيوان - البطل الرئيسى فى قصص الحيوان الرمزية التى ينتمى إليها
الكتاب - بل هو ضرب من السرد التاريخى ، إضافة المؤلف ليس تعسفا ، كما يبدو
للوهلة الأولى ، بل إضافة - فيما نزع - باعتباره صورة واقعية حية ، وتاريخية
تؤكد "مصادقية" الرؤى والمقولات السياسية التى انطوت عليها الأبواب التسعة
السابقة بشخصيتها الحيوانية الرمزية .

ودون مصادرة على القارئ ، فإن الكتاب فى أهم غاياته ووظائفه يتمحور حول
محورين كبيرين : أحدهما العدل ، بمعناه الشامل ، السياسى والأمنى والاقتصادى
والاجتماعى ؛ ابتغاء رسم مدينة فاضلة وحاكم مثالى . والآخر العقل .. ويرى أن
العقل مقدم على النقل .. وإلا تحقق تغييب وعى الحاكم والرعية جميعا . فالعدل
أساس الملك ، والعقل أساس الوعى .. وبهما معا يتحقق المجتمع المثالى الذى ينشده
الكتاب .

وهذه الغايات والوظائف طاغية على الكتاب كله .. بكل أبوابه أو قصصه
الرئيسية وحكاياته الفرعية ... وقد تجلّت على نحو صريح ومباشر مرتين ، وعلى
نحو حرقى تقريبا ، مرة فى خطبة الكتاب ، ومرة فى منتصف الكتاب ، ربما لانعاش
ذاكرة المتلقى بالتأكيد ، حتى لا تستهويه الوظيفة الامتاعية أو سحر السرد ، على
الوظيفة الإبداعية للكتاب . والمؤلف فى الحالين متأثر بالقصص القرآنى عامة

وقصص الحيوان فى القرآن خاصة ، ومن ثم لا يلبث بين الفينة والأخرى ، وخاصة فى خطبة الكتاب وخواتيم معظم الفصول أن يردد الآية الكريمة ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ، وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ﴾^(١) واضعاً بذلك القرآن الكريم - بما يفيض به من قصص على لسان الحيوان - نصب عينيه باعتباره مرجعية مقدسة ، وأدبية فى آن واحد .

ثم يشرع فى الحديث عن أسباب تأليف هذا الكتاب ، وتحديد قارئه .. مشيراً إلى أن الإنشيان عند بطبعه ، ويفرض النصائح المباشرة ، كما أن الحكيم والعبر (يعنى المقولات السياسية المنتشرة فى كتب الآداب السلطانية والأدبيات السياسية السائدة قد فقدت تأثيرها الفكرى والسيكولوجى فى معاصريه لأنهم اعتادوا عليها ، وبذلك تكون قد فقدت دهشتها ، فالعادة تقتل الدهشة ، والآدب القصصى على لسان الحيوان ، فى نظره ، هو الدهشة عينها .. ومن ثم يقول فى خطبة كتابه : "قصد طائفة من الأذكىاء ، وجماعة من حكماء العلماء إبراز شيء من ذلك على ألسنة الوحوش ... " حيث "أصغت الأذان إلى استماع أخبارها ، ومالت الطباع إلى استكشاف آثارها ، وتلقنتها القلوب بالقبول ... لكونها منسوجة على منوال عجيب .. فى صنع بديع غريب" إنها إذن العجائبية والغرائبىة التى تمثل شعريه هذا النوع من القصص ، وتشير فى الوقت نفسه إلى إيفار الكاتب لهذا النمط القصصى ..

والحق أن ثمة سببا آخر ، هو الذى دفع المؤلف - مثله مثل ابن المقفع هو طبيعة المتلقى هنا ومستواه الطبقي ، ومكانته السياسية من ناحية ، وعجز المثقف - آنذاك - عن مواجهة السلطة ، وانتقادها بشكل مباشر ، من ناحية

^(١) قرآن كريم ، سورة العنكبوت آية : ٤٣ .

أخرى .. فلم يبق أمامه إلا أن يقول ما يقول في ذكاء وكياسة ، وأداته إلى ذلك الرمز على لسان الحيوان . إن المثلقي هنا كما حددهم ابن عرب شاه نفسه هم "الملوك والأمراء ، وأرباب العدل والرؤساء ، والسادة الكبراء" بكل جيروتهم السياسي والعسكري في مواجهة القلم .

وفي سخرية لازعة يحلو للمؤلف أن يقارن بين عالم الحيوان ، وعالم الإنسان ، فينتصف للأول على الآخر .. يتجلى ذلك في مواضع كثيرة من الكتاب ، في خطبته ، وفي مواضع أخرى من أبواب الكتاب ، نكتفي هنا بقوله في نهاية الفصل السادس ، كاشفا في الوقت نفسه عن غاياته السياسية :

" ... وعاش في ظل عدلهم كل ضعيف من الحيوان ، وتقلبوا في رياض الأمانى على بساط الأمان . وفائدة هذه الحكايات ، تنبيه أشرف جنس المخلوقات وألطف طائفة المكونات ، وهو نوع الإنسان ، الذي اختصه الله تعالى بأنواع الإحسان ، وأيده بالعقل ، وأمد بالنقل ، على أنه إذا كان هذا الفعل الجليل ، يصدر في التنظير والتمثيل ، من أحسن الحيوانات ، وما لا يعقل ، من الموجودات ، فلأن يصدر من أولي النهى ، وأولي الفضل والمكارم والعلا ، أو لى وأخرى لاسيما من رفع الله في الدنيا مقداره ، وأعلى على قمم الخلائق منساره ، وحكمه في عبيد المستضعفين ، واسترعاه على رعية سامعين مطيعين ؛ وسلطه على دمائهم وأموالهم ، وبسط يده ولسانه في رفاهيتهم ونكاهم " .

وإذا كانت الغايات والوظائف السياسية هي الطاغية على الكتاب ، فإن الوظيفة الشعرية ، أو الجمالية أو الوظيفة الامتاعية ليست غائبة. عن الكتاب^(٣) ، بل تبدو

^(٣) حول تفصيل هذه الوظائف في قصص الحيوان عموما ، انظر كتابنا : التراث القصصى في الأدب العربي -

مقاربات سوسيو - سردية . ص ١٥٥ - ١٦١ . ذات السلاسل - الكويت ، ١٩٩٥ .

طاغية هي الأخرى في الكتاب منذ اللحظة التي نقرأ فيها عنوان الكتاب : "فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء" من حيث هو نسق إشارى دال ، إذ جمع بين الفاكهة والفكاهة فى نسق دال والجذر اللغوى واحد فى الحالين هو فِكَة . والمرسل إليه وهو الخليفة - الرمز السياسى الأكبر - لم يغب عن العنوان أيضا .. ولذلك لا غرو أن يكون الكتاب ظاهره هو ، وباطنه حكمة . واللهو هنا ليس إلا السرد القصصى وعجائبيته وغرائبيته وشيوع روح الفكاهة كما ذكرنا ، وهلى ثمة من عجيب وغريب . - على حد تعبير المؤلف - أكثر من جعل الحكمة تنساب على ألسن البهائم والسباع والطير ، خلافا للحكمة على لسان الإنسان - وقد فقدت دهشتها وادهاشها - !!! هنا - بين اللهو واللعب - تتجلى الحكمة فنقبلها طامعين وتعلمها مختارين .. انه التعلّم من خلال اللعب (الأدبى) والحكمة من خلال اللهو (القصصى) ..

[٦] البنية القصصية للكتاب

(أ) المتن الحكائى

يتكون الكتاب من عشرة ابواب قصصية تضمها حكاية إطارية كبرى وتحقق له وحدته الشكلية والبنائية ، على غرار الحكاية الإطارية فى ألف ليلة وليلة ، حكاية شهریار وشهرزاد ، وعلى غرار الحكاية الإطارية فى كليلة ودمنة ، حكاية ديشليم الملك (بيدبا الفيلسوف) .. وهذه الأبواب العشرة - وقد أشرنا إليها من قبل - هى التى تشكل المتن الحكائى للكتاب . وفى كل باب منها يتضمن حكاية قصصية رئيسية أو أصلية ، قائمة بذاتها فى باب بذاتها ، غير أنها تتضمن بدورها عدداً من الحكايات الفرعية المتداخلة أو المتوالدة ، حيث تلد الحكاية الفرعية ذاتها حكاية أخرى ، وهكذا على شكل صناديق متداخلة - على غرار كليلة ودمنة - وقد بلغ

بمجموع هذه الحكايات الفرعية قرابة سبعين حكاية ، إضافة إلى القصص الرئيسية (و لم تحسب. هنا التضمينات القصصية ، لأنها حكاية. لم تكتمل باعتبارها معروفة لدى القارئ الضمني في الحكاية ، وهو الملك أو الوزير أو غيرهما بحسب السياق السردى للحكى) والسياق الثقافي للمتلقي . فكيف ربط ابن عرب شاه بين هذه الحكايات الرئيسية والفرعية على هذا النحو الفنى للتماسك البنية ؟ وأين تكمن عبقرية التكتيك السردى فى كتابه ؟

(ب) المبنى الحكائى

يمكن القول بأنه ربط بينها - بنائيا - على مستويين ؛ أحدهما على مستوى بنية الكتاب نفسه ، فقد جمعه على صعيد واحد - من البداية حتى النهاية - فيما يمكن تسميته بالبنية الكبرى للكتاب ، والآخر ، على مستوى الباب الواحد (القصة المحورية) ، فيما يمكن تسميته بالبنية الصغرى للباب ، وهذا هو موضوع هذه الفقرة :

البنية الكبرى للكتاب

تشبه بنية الكتاب البنية الأمّ الذائعة فى كتاب كليله ودمنة (ومثلها فى ألف ليلة وليلة) أي أن ثمة حكاية إطارية كبرى تجمع شتات الكتاب - بفصوله العشرة المستقلة - فى بنية سردية متماسكة .. ومجمل هذه الحكاية الإطارية التى تبدأ مع بداية الباب الأول وتنتهى مع نهاية الباب العاشر والآخر للكتاب : أن ملكا يتآمر عليه إخوته طمعا فى الاستيلاء على السلطة ، وتلوح فى الأفق بوادر فتنة مدمرة .. فيخشى أخوهم الأصغر - واسمه حسيب ، وكان أعقلهم - عواقب هذه الفتنة .. ولما لم يكن بمقدوره أن يوقفها ، فقد اضطر إلى اعتزال العمل السياسى ، بحجة الانقطاع لتأليف كتاب (إنجاز ثقافى) ويطلب الإذن من أخيه الملك بالسماح له ،

غير أن أخاه - بتحريض من الوزير - يرفض ذلك خشية أن يكون الانقطاع لعمل
سياسى سرى (حشد الحشود وجمع الجنود) تضامناً مع إخوته ، وتكون حجة
الرفض أن أحداً لم يعهد عليه مثل هذه الرغبة من قبل ، ومن أين له تحصيل
العلم ... إلخ . ومن ثم فلن يسمح له بالقيام بذلك إلا إذا ناظر الوزير - فى محفل
عام - حتى يتبين صدق ما يقول .. ويشرع عندئذ الحكيم حسيب فى السرد -
على لسان الحيوان - طيلة الأبواب العشرة .. حتى اذا ما انتهى من ذلك ، بين
انبهار الملك وذهول الوزير من حكمته وثقافته وبعده نظره (السياسى) قام الملك
فقبل عينيه ، وقام الوزير فقبل قدميه .. اعترافاً بفضله حكيماً وفيلسوفاً بارعاً .
تتجلى حكمته فى بعد نظره (السياسى) و (الإنسانى) ويعتذر إليه هو والوزير ،
ويعهد اليه الملك بمهمة سياسية - باعتباره مفاوضاً بارعاً أيضاً - هى أن يقوم بدور
حمالة السلام بينه وبين إخوته الثائرين .. وينجح فى مهمته الدبلوماسية ، وتهدأ
ناثرة الفريقين ، ويعم السلام ، والأمن والأمان ، على حد تعبير ابن عرب شاه ...
بعد أن اعترف الجميع بفضل الحكيم الحسيب باعتباره "مالك أزيمة الإنشاء وملك
الكلام" .

فى هذه الحكاية الإطارية أو البنية الخارجية للكتاب يلعب الحكيم حسيب دور
بيدبا الفيلسوف ، وشهرزاد .. وعلى مستوى التكنيك السردى يلعب دور السارد
الضمنى .. أما الراوية ، فكان شخصية خيالية أخرى تدعى الأديب الأريب أبا
الحاسن حسان ..

البنية الصغرى للكتاب

فإذا ما انتقلنا إلى المبنى الحكائى ، لكل باب على حدة (الباب هنا وحدة قصصية
أو سردية قائمة بذاتها ، نطلق عليها القصة المحورية) وجدنا هذا الباب يتكون من :

(أ) قصة محورية أو رئيسية

هى فى الوقت نفسه ، قصة إطارية للباب الذى وردت فيه ، لأنها عادة ما تستخدم إطارا لما يليها من حكايات وتكون حيثئذ بمثابة "الوحدة القصصية الأساسية" فى هذا الباب .

(ب) حكايات فرعية قصيرة

تشكل فى الوقت نفسه ، أجزاء القصة الرئيسية وتكون حيثئذ بمثابة "وحدات قصصية فرعية ، بعضها تولد من رحم القصة القصيرة: ، وبعضها توالد من رحم الحكايات الفرعية ذاتها .

أما وظيفة القصة الرئيسية أو الإطارية ، فهي تحنيد الموضوع أو المشكل أو القضية التى يعالجها الباب كله (القصة المحورية) ، كما تقوم بتحديد مستوى السرد ؛ إنه "السرد الابتدائي" ، وأما وظيفة الحكايات الفرعية فهي متنوعة بتنوع وظائف العملية السردية عموما .

وهذا يعنى - فى إيجاز - أن الكتاب يجمع بين نسقين من أنساق التعبير هما نسق التأطير ونسق التنضيد ، على غرار كليلة ودمنة وألف ليلة وليلة ومثل هذا النسق السائدة فى السرديات العربية قديما يساعد على إدماج المزيد من المواد القصصية فى جسم الكتاب ، دون أن ينوء بحملها ، كما يسمح - فى الوقت نفسه - بحذفها دون أن يشعر المتلقى بذلك .. وهو ما حدث بالفعل فى طبعة الموصل ، فهى تقل عن المطبوعة القاهرية بحوالى ٢٠٪ من المادة القصصية ، دون أن يشعر أحد من القراء بذلك ..

ومثل هذه الأنساق السردية هنا إلا أن تكون أنساقاً كتابية ، أى أن المعلن الحكائى هنا لابد أن يكون كذلك مقروءاً ... ذلك أن طول النص / الباب لا يسمح للتقاليد الشفوية بربط الأجزاء - الحكايات الفرعية - اعتماداً على وسائل مشابهة لأنساق المتن الكتابي ... ولذلك فالكتاب موجه للصقفة القارئة ..

[٧] أسلوب الكتاب ولغته

أسلوب الكتاب هو أسلوب العصر المملوكى المتأخر حيث هيمنت مدرسة النثر الملقنى على أساليب التعبير الأدبى وغير الأدبى .. بكل خصائصها الفنية المعروفة^(٨) ومن ثم فالكتاب وضع الشعر نصب عينيه معياراً لنثره .. فاستخدم آليات الشعر وأدواته فى التعبير ، فجاء أسلوب الكتاب ضرباً من الشعر المنشور على حد تعبير محمد غنيمى هلال^(٩) . فقد عمد الكاتب إلى استخدام أساليب الشعر وموازينه فى منثوره ، من كثرة الأسجاع والتزام التقفية فى التعبير ، فلا توجد جملتان أو تعبيران بلا تقفية على امتداد الكتاب كله . متوسلاً فى ذلك بالتزام السجع المصنوع بكل أنواعه (الترصيع ، التوازي ، التوازن ، المطرّف .. إلخ) والجناس المصنوع بكل أنواعه أيضاً .

كما عمد الكاتب إلى تهجين نصه النثرى ، على نحو لافت للنظر من خلال تداخل أو تناسل مباشر مع الخطابات والأشكال الأدبية الأخرى (كالشعر - وبعضه من تأليف ابن عرب شاه نفسه - والحكم والأمثال والأقوال المأثورة ، وآيات القرآن الكريم والحديث النبوى ... إلخ) واقتباسها وتضمينها نصّه وترصيعه بها .

^(٨) خول هذه التقاليد الفنية ، انظر كتابنا : النثر العربى القديم ص ٣١٧ - ٣٨١ دار الكتاب الجامعى ، الكويت ، ١٩٩٦ .

^(٩) الأدب المقارن ، ص ١٨٧ دار العودة - بيروت ١٩٨٧ .

أيضاً يتسم أسلوب الكتاب باعطاء الأولوية للفظ على حساب المعنى ، الأمر الذى ترك بصماته السلبية على العملية السردية: برمتها .. فاللفظ هنا هو منطلق المعنى السردى وليس العكس ، كما هو مفترض . وكان الوفاء لهذه الصنعة اللفظية معياراً لشعرية النص ، ودليل إبداعه . وقد أدى الوفاء لتقاليد هذه المدرسة أيضاً إلى الإطناب فى التعبير ، واصطناع التعقيد واستخدام المفردات المعجمية (الوحشية الغريبة) باعتبار ذلك أيضاً معياراً من معايير الفصاحة والبيان من ناحية ، ووفاء لمتطلبات السجع وضرورات البديع ولاسيما الجناس .

ولولا حيوية الإبداع السردى لسقط الكتاب فى هوة البلاغة اللفظية البحتة ، شأنه - فى ذلك - شأن النتاج الثرى التقليدى: (الأدب الرسائل) فى هذه الفترة التاريخية من تاريخ النثر العربى القديم .

تبقى بعد ذلك ثلاث ملاحظات : إحداها أن الكتاب مليء بالمشاهد الوصفية المعلّبة وهى مشاهد مسجوعة بكاملها ، كان يرددها الكاتب كثيراً ، منها وصف النساء المختبرات ، ووصف الأبطال ، ووصف الحروب ، ووصف الطبيعة .. إلخ . والثانية أن ثمة مسكوكات تعبيرية مسجوعة تملأ الكتاب ، وتفسر لنا كيف تمكن ابن عرب شاه من الوفاء بحق "التقفية" فى أساليبه .. وطول نفسه التعبيرى المسجوع ، على امتداد الكتاب كله .. وعلى نحو يذكرنا تماماً بنظرية الصيغ الشفاهية المعروفة .

أما الملاحظة الثالثة والأخيرة ، وتبدو حقاً ملاحظة طريفة ، وهى أن الكتاب - برغم ذلك كله - احتوى على عشرات التعابير العامية (خاصة المصرية) كان يقتضيهما الحوار بين الشخصيات .. الأمر الذى أدى إلى حيوية الحوار من ناحية ، وإضفاء لمسة واقعية عليه من ناحية أخرى ..

وكنْتُ أثناء تحقيق الكتاب قد استخرجت الكثير من هذه المشاهد الوصفية المعلقة ، والمسكوكات السجعية والتعابير العامية .. ولكن المقام لا يسمح بالاستشهاد بها خشية الإطالة .. وسوف يصادفها القارئ بنفسه أثناء قراءة الكتاب .

[٨] الأصول الأولى للكتاب ، وعرويته :

للوهلة الأولى تبدو الحكايات الرئيسية للكتاب منقولة عن كتاب "مرزبان نامه"^(١٠) الذى قام ابن عرب شاه نفسه بترجمته من اللسان الفارسى - وقيل التركى - أثناء إقامته فى القاهرة ، بتكليف من الملك الظاهر جقمق (حكم من سنة ٨٤٢ - ٨٥٧ هـ / ١٤٣٨ - ١٤٥٣ م) وكان أحد السلاطين المماليك العظام الذين يشجعون العلم والعلماء .

أما الحكايات الفرعية السائدة فى الكتابين ، مرزبان نامه وفاكهة الخلفاء ، فهي - فى جوهرها - حكايات شعبية سائدة فى الثقافتين العربية والفارسية آنذاك وكثير منها مكرر فى الكتابين .. فهل يعنى هذا أن ابن عرب شاه ، بعد أن قام

^(١٠) مرزبان نامه كتاب قصصى على لسان الحيوان ، كتبه لأول مره ، باللغة الطبرستانية أصفهيد مرزبان بن رستم بن شروين برهم ، فى أواخر القرن الرابع المحرى ، ثم ظهرت له ترجمتان أخريان بعد ذلك ، الأولى ، بعنوان : روضة العقول لمحمد بن غازى للملطوى ، فى سنة ٥٥٩ هـ ، مع بعض التعديلات والإضافات . وقد ترجمه إلى اللغة الفارسية الدرية . ثم ظهرت الترجمة الثانية بعد ذلك بعشرين عاما ، قام بها سعد الدين الوراوى ، باللغة الفارسية الدرية أيضا . وهى الترجمة التى نقلها ابن عرب شاه للملك الظاهر . ومن الغريب أن النسخة الأم للكتاب - باللغة الطبرستانية - لم بعد لها وجود اليوم .. ويشير غنيمى خلال إلى أن ابن عرب شاه قد نقل عنها ، وبذلك تكون الترجمة العربية قد حفظتها من الضياع كليا (انظر الأدب المقارن ص ١٨٧ ، دار العودة ، ١٩٨٧ ، أما الباحث محمد شمس الدين ، فبى ، مع غراسانى ، أن ابن عرب شاه ترجم مرزبان نامه الوراوى (انظر كلمة ودمته لمحمد إبراهيم ص ١٧١ وما بعدهما) دار الفكر العربى - القاهرة ١٩٨٦ .

بترجمة مرزبان نامه ترجمة حرفية ، قد عاد فادّعاء لنفسه ، كما يزعم بعض الباحثين المحدثين^(١١) ، وإن كان بعضهم قد افترض حسن النية ، وذكر أن فاكهة الخلفاء ليس إلا "ترجمة أدبية حرة" لكتاب مرزبان نامه^(١٢) أو قام باقتباسه عنه ، وإضافة بعض الحكايات التاريخية إليه^(١٣) .

وعلى الرغم من أوجه الشبه بين الكتابين ، فإن ابن عرب شاه لم يكشف بإضافة بعض الأبواب إلى كتابه ، مثل قصة جنكيز خان. التاريخية التي تصل إلى قرابة مائة صفحة ، أو إضافة كثير من القصص الفرعية العربية .. أو التزم بترتيب الأبواب والحكايات ، بل أعاد صياغة الكتاب برمته صياغة جمالية مغايرة سداتها السجع والحسنات والجناس ، ولحمتها الاستشهاد بالنصوص القرآنية والأحاديث النبوية ومئات أبيات الشعر - من التراث العربي أو من إبداعه وتأليفه ، ومئات الأمثال والحكم والأقوال العربية المأثورة .. وبالرغم من أن حكاية الحيوان الرمزية ، مهاجرة بطبيعتها تنتمي إلى طراز الحكايات العالمية المهاجرة International Tale Types الذائعة في تراث الشعوب ، وتشكل إرثا إنسانيا مشتركا ، فلا يسعنا في هذه العجالة إلا القول بأن صنيع ابن عرب شاه هنا يماثل صنيع ابن المقفع مع البانج تنرا - وذلك في ضوء نظرية إعادة الانتاج Reproduction Theory حيث شرع ابن عرب شاه يعيد انتاج الكتاب بروح عربية تتفق والنظم السياسية السائدة آنذاك والمعطيات الثقافية للعصر (القرن التاسع الهجري)؛ وهو أمر يقتضى إعادة بناء النص

(١١) ذكر جرجي زيدان أن فاكهة الخلفاء منقول بالكامل من كتاب مرزبان نامه ، انظر تاريخ آداب اللغة العربية ٢ : ١٦٤ ، بيروت ، ١٩٦٧ .

(١٢) انظر على سبيل المثال : محمد غنيمي هلال ، الأدب المقارن ، ص ١٨٦ - ١٨٧ ، دار العودة بيروت ١٩٨٧ فاروق سعد ، كلية ودمنة ، مقدمة المحقق ص ٧٧ ، بيروت ١٩٧٩ .

(١٣) محمد غفراني الخراساني ، عبدا لله بن المقفع ص ٤٢٧ الدار القومية بالقاهرة ١٩٦٥ .

القصصى وإخضاعه - سوسيولوجيا - للبيئة الجديدة حتى يكون القارئ مشدوداً إلى الإبداع الجديد ، ولأفشلت العملية السردية برمتها ، وسقط الكتاب واكتفى الناس بالنص المترجم .

ثمّة أمر آخر ، إن المفاهيم والمدارس الأدبية السائدة فى العصر المملوكى - عصر الصنعة البديعية - كانت تعلّى من شأن الصياغة لا المضمون .. وهو أمر بالغ الأهمية فى بعض المناهج النقدية الحديثة .. كالمناهج الجغرافى التاريخى الذى طبقه العلماء فى البحث عن أصول حكايات الحيوان ومنابعها العالمية ، إذ لم يتمكن رواه من الوصول إلى حقائق ثابتة فى هذا المضمار ، الأمر الذى تطور معه هذا المنهج على يد المدرسة الفنلندية (النظرية التاريخية الجغرافية) وكذلك العلماء الروس ، حيث انتهت هذه النظرية إلى الإيمان بأن استعارة موضوع ما (من ثقافة أخرى) لا يعنى أن هذا الموضوع ليس قومياً (عربياً هنا) أو ينبغى إزالته من الثقافة القومية ، لسبب بسيط أنه ليس هناك استعارة لموضوع ما دون صياغة مبدعة ، هذه الصياغة التى لا تتجاهل دور العبقرية الفردية فى إبداع العمل القصصى هى جوهر الفعل الأدبى .

وهذا يعنى أيضاً وببساطة أن صنيع ابن عرب شاه - فى ضوء هذه النظرية التاريخية الجغرافية هو إبداع أدبى ، وليس ترجمة "حرة أو غير حرة" الأمر الذى تؤكد - مرة أخرى - نظرية العوالم الثقافية فى الدراسات للمقارنة التى يسند معها كتاب فاكهة الخلفاء ومفاكهة الخلفاء لمرّة إلامتراج أو التداخل الثقافى Cross Culture السائد آنذاك بين تراث مجموعة من العوالم الثقافية ، العربية والتركية والفارسية .. والمؤلف قد قضى عمره بين هذه الثقافات الثلاث ، واتقن لغاتها ونظم بها على نحو ما سنعرف وشيكاً فى ترجمته .

ومن اللافت للنظر أن ابن عرب شاه نفسه قد صرح فى خطبة الكتاب بأنه مؤلف الكتاب لا مترجه ، وقرن كتابه بكتاب كليله ودمنة ، وكتاب سلوان المطاع ، وكتاب الصادح والباغم - وكلها كتب ذات مضمون سياسى - وأنه إنما صنف كتاب - بمعنى جمعه وألفه - مما بلغه من نقلة الأخبار وحملة الآثار ورواة الأسفار ، وذكرها جميعا على لسان راويته الخيالى ، أبى المحاسن حسان .. إلخ . وذكر أيضا أنه تأثر بمن سبقوه ، وأنه يطمح إلى اقتفاء أثرهم وآثارهم .

فى ضوء ذلك كله ، لا نجافى الحقيقة العلمية ولا نعتسفها إذا ذهبنا مع القدماء بأن الكتاب من تأليف ابن عرب شاه .. وإن كان قد استلهم فيه كتاب مرزبان نامه .. الفارسى ، بلليل أنه فى خطبة الكتاب المترجم (مرزبان نامه) ذكر صراحة أنه نقله (ترجمه) من الفارسية إلى العربية ولم يذكر أنه وُضِعَ أو تصنيف أو تأليف ، وهى المفاهيم الشائعة فى عصره للإبداع العلمى والأدبى . ومن ثم لا غرو أن يحظى كتاب فاكهة الخلفاء ومفاكهة الخلفاء فور صدوره بنجاح أبهر معاصريه^(١٤) ، واعترفوا له فيه بالفضل ، على النقيض من كتابه المترجم مرزبان نامه بالعربية^(١٥) .

وليس محض مصادفة أن يكون هذا الكتاب ، فاكهة الخلفاء ومفاكهة الخلفاء - هو آخر (أو من أواخر) ما كتبه ابن عرب شاه .. ويبدو من شيوع العامية المصرية أنه كتبه فى القاهرة فى أخريات أيامه بعد سنة ٨٥٠ هـ ، وقبيل وفاته بأربع سنوات .

(١٤) انظر الضوء اللامع للسحاي ١ : ١٣١ .

(١٥) يذكر جرجى زيدان أن هذا الكتاب مرزبان نامه الذى ترجمه ابن عرب شاه إلى اللغة العربية ، قد طبع فى

مصر طبعة حجرية سنة ١٢٨٧ هـ . انظر تاريخ آداب اللغة العربية ٢ : ١٦٥ .

[٩] طبعات الكتاب السابقة (غير محققة، جميعها)

طبع الكتاب لأول مرة سنة ١٨٦٩ م (١٢٨٥ هـ) في الموصل (مطبعة دير الآباء اللومينيكان) ثم طبع في مصر - طبعة حجرية - سنة ١٩٠٧ م (١٣٢٥ هـ) في المطبعة اليمنية (لصاحبها مصطفى البابي الحلبي)^(١٦) وبهامشه طبع أيضا كتاب كليلة ودمنة .. وهاتان هما الطبعتان "الأم" التي صورتها الطبعات اللاحقة وبالأخطاء نفسها .. فقد أعيد طبع الكتاب في بيروت ، تصويرا عن طبعة الآباء اللومينيكان ، دون الإشارة إلى ذلك ، ولم يكن التصوير واضحا أيضا .

ولما كنت أمتلك النسختين ، نظرا لاهتمامي بالتراث القصصي في الأدب العربي القديم ، فقد دفعني ذلك إلى مراجعة الطبعتين ، فوجدت أن نسخة الآباء اللومينيكان غير كاملة بل مختصرة^(١٧) مقارنة بالنسخة المصرية التي تحفل أيضا بالأخطاء الطباعية ، ومطبوعة طباعة سيئة بحرف صغير يكاد لا يرى (لأن على هامش الكتاب مطبوع أيضا كتاب كليلة ودمنة) وليست في هذه الطبعة علامات ترقيم على الإطلاق فلا تُقرأ إلا بشقّ الأنفس ، فضلا عن ندرة الحصول عليها ، مما يجعلها في حكم المخطوط ، لتقادم عهد طباعته ، وغيابه وبعده عن القارئ المعاصر .

^(١٦) هناك طبعة مصرية أخرى - على الحجر - صدرت سنة ١٣٠٦ هـ أي منذ مائة عام ونيف . ذكرها الباحثون غير أننا لم تتمكن من العثور عليها . وقد ذكر حرجي زيدان أن للكتاب طبعة أخرى في بون سنة ١٨٣٢ . انظر تاريخ آداب اللغة العربية (٢ : ١٦٥) .

^(١٧) تم حذف حوالي ٢٠٪ من الحكايات الفرعية على الأقل ، كما حُلِفَت معظم النصوص القرآنية والأحاديث النبوية وأقوال بعض الصحابة ، مما يعني أن ثمة اعتبارات دينية كاسنة وراء هذا الاختصار .

ومع أنه قد مضى حوالي ١٣٠ سنة على طبعة دير الآباء الدومينيكان التي سطت عليها بعض مطابع بيروت تصويرا ونشرا ، ومضى كذلك على الطبعة المصرية أكثر من ٩٠ عاما ، ثم أعيدت طباعتها في بدايات هذا القرن أيضا - كما هي - على نحو تجاري سيء ، فإن أحدا من المحققين لم ينتبه إلى هذا الكتاب العظيم ، ويفطن إلى تحقيقه علميا معتمدا ، يراعى فيه أصول التحقيق المتعارف عليها أكاديميا .. تتجنب الكثير الكثير من الأخطاء الطباعية والنحوية واللغوية ، ناهيك عن التصحيح الكثير الذى وقع فيه النساخ - على مستوى المخطوط - ووقع فيه الكتاب المطبوع أيضا ، على الرغم من أن الطبعة المصرية خضعت للتصحيح الطباعى بإشراف مصحح يدعى محمد الزهرى الغمراوى رحمه الله .. بل إن الآيات القرآنية نفسها لم تخلُ من أخطاء فى الضبط والطباعة . أما أخطاء التصحيح فى الأعلام وأسماء المدن ، وخاصة فى الباب العاشر فهى أكثر من أن تحصى ، وتحول دون الوصول إلى الوقائع التاريخية الصحيحة . واللافت للنظر أن ثمة أخطاء كثيرة مشتركة بين الطبعة الموصلية والطبعة القاهرية ، مما يعنى أنهما منقولان عن أصل واحد مخطوط .

أما المخطوطة التى أتيت لى امتلاكها ووضعها فى الاعتبار عند التحقيق ، فهى نسخة مصورة عن مخطوطة الكتاب فى المكتبة الظاهرية برقم ٣١٩٧ (١١١٨ م ك مجموع ٣) وتقع فى ٣٢٦ ورقة (٢١ سطراً فى كل ورقة ، وهى مكتوبة بخط جيد) واضح وضوح المطبوع - باستثناء التصحيح والأخطاء النحوية التى وقع فيها الناسخ شهاب الدين أحمد بن محمد العجلونى ، رحمه الله .

من هنا شرعت فى الكتابة عن هذا الكتاب والتنويه به مرارا فى السنوات الأخيرة فى عدد من كتبى ، لعل أحدا يسعى إلى تحقيقه ، دون جدوى .. فوجدت لزاما

عليّ أن أقوم بهذا العمل بتشجيع من دار سعاد الصباح للنشر في الكويت ، فلها وللقائمين عليها الشكر كل الشكر .

[١٠] منهج التحقيق القصصى

بداية لم أشأ أن أنقل الكتاب بحواشى الخلافات والأخطاء المتباينة بين النسخ المطبوعة ، أو بينها وبين النسخ المخطوطة ، وإنما سعت إلى إعداد نسخة كاملة ، تقارب النص الأصيل ، إذ ليس من الأهمية بمكان ذكر مثل هذه الأخطاء اللغوية أو الإملائية أو النحوية أو الطباعية فى كل نسخ النص ، الأمر الذى يجعل القارئ مشتتاً : عيّن على المتن وعيّن على الحاشية .. وهو ما تغاضينا عنه ، خاصة فى تحقيق نص قصصى يقوم فى جوهره على التشويق السردى ومتابعته دون قطع أو توقف ، ثم هى خلافات وتصحيفات - فى ظنى - لا تعنى القارئ فى قليل أو كثير ، بقدر ما يعنيه وجود نصّ سردي متكامل مقروء ، خالٍ من الأخطاء - قدر الإمكان - ومضبوط بنائياً (صرفياً) ومشكول نحويًا ومشروح لغويًا واصطلاحياً .

إن لذة القصّ تقتضى ألا تقطع النصّ حاشية من حواشى التصحيف أو خطأ طباعى أو إملاي . هنا أو هناك ، وإلا فما معنى تحقيق نصّ قصصى ، هو فى روحه نصّ شفاهي^(١٨) برغم كونه نصّاً مكتوباً ، وأزعم أن القارئ لا يعنيه إلا نصّ متكامل بالمعنى السابق ، ومن ثم فإن جهد المحقق هنا ينحصر فى :

١ - تكامل النصّ وخلوه - قدر الامكان - من النقص أو الغموض الذائع بين النسخ ، وقد اعتبرتُ النسخة الشاهد هنا هى النسخة المطبوعة فى مصر ..

(١٨) يقصد بروح الحكى الشفاهى آلياته ، انظر كتابنا التراث القصصى ص ٣١ - ٦٩ .

لأنه ورد فى ذيل الكتاب أنها منقولة عن نسخة كتبت سنة ٨٥٦ هـ ، أى بعد وفاة المؤلف بعامين فقط ، ولما محاولة معاصرة لتصحيحها .

٢ - ضبط بنية الكلمات صرفيا ، كلما اقتضى للمقام (المعنى) ذلك .
٣ - الضبط الإعرابى أو النحوى ، وهو فى مثل هذا الكتاب - أمر على غاية الأهمية ، وذلك أن ضرورات الإيقاع السجعى - إذا صح التعبير - كانت تقتضى من المؤلف فصلا بين الفاعل والمفعول - على سبيل المثال - مجموعة من الجمل الفاصلة أو العبارات التى يقتضيتها سحر السجع ، وقد تصل الى ثمانى جمل فاصلة ، الأمر الذى يربك القارئ فى فهم النص ، ويقطع عليه لذة القص . إن الضبط هنا ليس ضرورة صرفية أو نحوية فحسب ، بل ضرورة سردية فى مثل هذا العمل الذى يقوم فى صميم بنيته الأسلوبية على السجع والجناس .. فهو إذن ضرورة اقتصادية أيضا قياسا إلى الجهد القرائى ، وقد استثنينا من الضبط كلمات أو آخر الجمل ، لأن الأصل فى حالة السجع - الوقوف بالسكون عليها ، ومن ثم فسوف توجد كلمات تقتضى النصب بالآلف مثلا ، ولكن المؤلف آثر الضرورة السجعية - إذا صح التعبير - على الضرورة النحوية فلم ينصبها استحابة لضرورة السجع .. وقد جاريناه فى ذلك حرصا على إيقاع الجمل . وقد اقتضت ضرورات السجع والجناس أيضا أن يقوم المؤلف - أحيانا بتغيير بنية المفردة أو الكلمة ، بحذف حرف أو إضافة آخر أو تخفيف مهموز إلخ ، مما قد يصرف القارئ عن المعنى المقصود .. فاضطررنا إلى تفسير ذلك فى الحاشية أحيانا .

٤ - علامات الترقيم ، فالنسخ جميعها ، المطبوعة والمخطوطة خلو منها ، وعلامات الترقيم - كما نعلم - ليست ترفا ، بل هى جزء لا يتجزأ من سيميولوجية

القراءة ، وخاصة فى كتاب يسود فيه الحوار السردى كثيرا .. ويتعدد السارد فيها .

٥ - فى محاولة دؤوبة ومرهقة عرضت مفردات الكتاب على المعاجم اللغوية ، تأكيداً لصحة النصّ ، وترجيحاً لما بين النسخ من أخطاء التصحيف وما بينها من خلاقات .

٦ - توثيق النصوص القرآنية التى استشهد بها المؤلف ، بعد أن طالتها الأخطاء الطباعية فى النسخ المطبوعة .

٧ - شرح وتفسير ما يزيد على ألفي كلمة من مفردات الكتاب - فى لغته المملوكية التى اختلفت دلالاتها وتباينت عما هى عليه الفصحى المعاصرة ، ليس ذلك فحسب ، بل لأن دواعى السجع ، والشّرّ على الجناس ، والمحسنات البديعية ، دفعت المؤلف إلى استخدام مفردات معجمية غير ذائعة الاستعمال (مهجورة ، وحشية بلغة القدماء) ولم يكن الأمر سهلاً ، عن طريق المعاجم ، ولكن كيف تبحث عن المعانى التى تتفق والسياق الدلالى والسردى معاً .

٨ - ضبط الأعلام التاريخية ، والأماكن الجغرافية ، والتعريف بها جميعاً على كثرتها . وخاصة فى الباب العاشر .

٩ - تعريف المصطلحات الإدارية والعسكرية المملوكية والتركية والفارسية التى يحفل بها الكتاب ، وكانت شائعة فى عصر المؤلف ، ولم يعد لها اليوم وجود فى حياتنا اليومية .

١٠ - وضع عناوين مرقومة للحكايات الفرعية فى كل باب من أبواب الكتاب حتى يسهل الاستدلال عليها من فهرس الكتاب مباشرة .

أما ما يتعلق بالنصوص الشعرية والحكم والأمثال العربية (القديمة) والشعبية (المولدة) والأقوال المأثورة عن الرسل وبعض الصحابة ، فكلها "مرويات شفاهية" وقد اعتمدها المؤلف كذلك (أى بصورتها المروية أو الشفاهية) ، لذلك لم يكن دقيقا فى نسبتها لاسيما الشعر ، وكونها مرويات شفاهية فهذا يعنى احتمال تعدد الرواية ، وهو أمر معترف به فى التراثين الشعبى والقصصى القديم ، ومن ثم لم نحفل بتوثيقها .. وإنما عنيينا بتصحيحها وضبطها إملايا ونحويا ، لا عروضيا^(١٩) وحسبنا فى النهاية أن تقدم نصا سهلا قراءته بجهد قرائى أقل وتتحقق فيه لذة القص ومتعته الجمالية المرتقبة فى آن ، دون عوائق تذكر .

[١٩] ترجمة حياة المؤلف ومؤلفاته

كتب ابن تغرى بردى (ت ٨٧٤ هـ - ١٤٧٠ م) فى كتابه المنهل الصافى^(٢٠) :
هو أحمد بن محمد بن عبد الله بن إبراهيم ، الشيخ ، الإمام ، العالم العلامة ، البارع
المفنى ، الأديب ، الفقيه ، اللغوى ، النحوى ، المؤرخ ، شهاب الدين أبو العباس

^(١٩) أحيانا يروى المؤلف البيت الشعرى الواحد بروايتين مختلفتين .

^(٢٠) المنهل الصافى تأليف يوسف بن تغرى بردى الأتابكى ، جمال الدين أبى المحاسن ج ٢ ص ١٣١ - ١٤٥ ،

تحقيق محمد أمين ، القاهرة ، ١٩٨٤ وانتظر فى ترجمته أيضا :

- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة لابن تغرى بردى أيضا ج ١٥ ص ٥٤٩ - ٥٥١ .

- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع للمؤرخ الناقد محمد بن عبد الرحمن السخاوى ج ١ ص ١٢٦ - ١٣١ .

بيروت . ب . ت .

- شذرات الذهب لابن العماد ، م ٩ ص ٤٠٩ - ٤١٣ ، تحقيق عبدالقادر الأرناؤوط ، دمشق ، ١٩٩٣ .

وكتب أخرى مثل الدليل الشافى ، وحوادث الدهور ، والتبر المسبوك ، نظم العقيان ، ومعظمها قد نقل

عن ابن تغرى بردى .

الدمشقي المعروف بابن عرب شاه .. كان إمام عصره فى المنظوم والمنثور . ولما كان ابن تغرى بردى صديقا ومريداً للمؤلف ، فقد نجح فى است كتابه ترجمة ذاتية بقلمه ، وذلك عندما استجازه - علميا - وقد ضمنها كتابيه المنهل الصافى ، والتجوىم الزاهرة .. ونعلم من خلال هذه الإجازة / الترجمة أن ابن عرب شاه قد ولد فى دمشق فى أواخر سنة ٧٩١ هـ - ١٣٩٢ م .. وبها نشأ وتلقى تعليمه الدينى .

ثم حدثت نقلة كبرى فى حياته عندما اضطر إلى مغادرة وطنه ، هو ووالدته وأخوته وابن أخته إلى سمرقند وبلاد ما وراء النهر فى سنة ٨٠٣ هـ - ١٤٠٠ م .. وقد اختلف المؤرخون فى أسباب ذلك ، فذكر بعضهم أنه هاجر إلى بلاد الروم ، ومنها إلى سمرقند هرباً من "كائنة تيمور" فى "زمن الفتنة" عندما غزا تيمولنك بلاد الشام آنذاك . وقيل إنه وقع أسيراً هو وأهله .. - على خلاف بين المؤرخين - وأيا كان الأمر فقد قدر له أن يعيش ستين طويلة هناك . حيث تنقل بين سمرقند وخوارزم وقيريم (إقليم القرم) وغيرها من بلاد ما وراء النهر ، واجتمع بعلماء هذه البلاد وكبار شيوخها ، حيث تلقى عنهم علومه الدينية واللغوية والبلاغية ، وتعلم أيضاً اللسان الفارسى والخط الموغولى وأتقنها ، كما ملك اللسان الفارسى والتركى إلى جانب اللسان العربى ، وبرع فى ذلك كما براعة .

ثم كانت النقلة الثانية فى حياته عندما رحل :- بعد بضعة عشر عاماً إلى بلاد الروم (الأناضول والبلقان) إلى مملكة ابن عثمان (الملك حمد الأول بن أبى يزيد)^(١) حيث عمل فى خدمته عشر سنوات ، تولى خلالها ديوان الإنشاء وكتب عنه إلى ملوك الأطراف ، عريبها وفارسيتها وتركيها ، كما نقل (ترجم) له بعض الكتب

(١) تولى الحكم سنة ٨٠٥ - ٨٢٤ هـ - ١٤٠٣ - ١٤٢١ م .

التفيسة من اللسان الفارسي إلى التركي ، منها كتاب جامع الحكايات ولامع الروايات من الفارسي إلى التركي فى نحو ست مجلدات ، ومنها تفسير الإمام أبى الليث السمرقندى ، ومنها تعبير الرؤيا لنصر بن يعقوب الدينورى القادري ، من العربية الى التركية نظماً .

ثم كانت النقلة الثالثة فى حياته - بعد وفاة السلطان - حيث عاد إلى وطنه القديم ، بعد واحد وعشرين عاماً من الاغتراب ، فوصل حلب سنة ٨٢٤ هـ - ١٤٢١ م ، ولبث بها قليلاً ثم انتقل إلى دمشق سنة ٨٢٥ هـ - ١٤٢٢ م ، وأقام بها فترة ، تقلد خلالها عدداً من الوظائف الدينية أهمها ولاية قضاء حماة .

ثم كانت النقلة الرابعة والأخيرة فى حياته عندما نزع إلى القاهرة فى سنة ٨٤٠ هـ - ١٤٣٦ م ، واتصل بالملك الظاهر جقمق^(٢٢) ، وترجم له - بتكليف منه - كتاب "مرزيان نامه" كما اتصل بكبار علمائها وأدبائها وشعرائها ، وظل مقيماً بها - معظم وقته - حتى وافته المنية فى سنة ٨٥٤ هـ - ١٤٥٠ م ، ودفن بها فى خانقاه سعيد السعداء بالقاهرة ، عن اثنين وستين عاماً وستة أشهر وعشرين يوماً ، غريباً عن أهله وأولاده على حد تعبير صديقه ومريده ابن تغرى بردى .

ومن شهادات معاصريه :

قال ابن تغرى بردى :

" وكان إماماً بارعاً فى علوم كثيرة مفنناً فى الفقه والعربية ، وعلمي المعانى والبيان ، والأدب والتاريخ ، وله محاضرة حسنة ومذاكرة لطيفة مع أدب وسكون وتواضع ، وله النظم الرائق الفائق الكثير المليح ، وكان يقول الشعر الجيد

^(٢٢) تولى الحكم سنة ٨٤٢ - ٨٥٧ هـ - ١٤٣٨ - ١٤٥٢ م .

باللغات الثلاث : العربية والعجمية والتركية ، وله مصنفات كثيرة مفيدة فى غاية الحسن^(٢٣) .

وقال المؤرخ والناقد ، معاصره شمس الدين السخاوى : "وتقدم فى غالب العلوم ، وإنشاء النظم الفائق والنثر الرائق"^(٢٤) ونقل عن المقرئى وصفه لابن عرب شاه - فى ترجمته - بأنه "بحر بلاغة وفصاحة" وعلى الرغم من كونه مؤرخا وفقها ولغويا ، فإن الغالب عليه الأدب نظما ونثرا ، كما يقول السخاوى ، الذى يعمضى فيقول "ركان أحد الأفراد فى إحادة النظم باللغات الثلاث ، العربية والعجمية والتركية ، جيدة الخط"^(٢٥) .

أما مؤلفاته وتصنيفاته ، فهى على النحو التالى :

إذا تجاوزنا مترجماته المنظومة والمنثورة ، وقبدها كان إماماً فى المنظوم والمنثور ، المترجم والمصنف ، كما ذكر المؤرخون ، إلى مؤلفاته التاريخية والأدبية ، فقد ذكروا من تصنيفاته (مؤلفاته) الثرية ما يلى :

- تاريخ تمرلنك ، أو عجائب المقدور فى نوابب تيمور^(٢٦) .
- غرة السير فى دول الترك والتتر .
- خطابات الإهاب الناقب وجواب الشهاب الناقب^(٢٧) .
- التأليف الطاهر فى شيم الملك الظاهر (جقمق) .

^(٢٣) شلرات الذهب جـ ١٥ ص ٥٤٩ .

^(٢٤) الضوء اللاع ١ : ١٢٨ .

^(٢٥) الضوء اللاع ١ : ١٢٩ .

^(٢٦) طبع مرارا فى مصر ، ونقل إلى اللاتينية ، وطبع فى ليدن وباريس وأكسفورد ، وأعيد طبع محققا فى القاهرة ، تحقيق على محمد عمر ، ١٩٧٩ .

^(٢٧) نشر فى بيروت محققا ، تحقيق أحمد فائق الحمصى .

- الترجمان المترجم، منتهى الأرب في لغة الترك والعجم والعرب .
- فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء .
- برهان الفارض بقول المعارض (٢٨) .

وإلى جانب مترجماته الشعرية والنثرية ، له شعر كثير جدا ، على حد تعبير شمس الدين السخاوى .. وله أيضا منظومات أو مطولات شعرية تعليمية كثيرة منها :

- منظومة جلوة الأمداح الجمالية فى حلقيّ العروض والعربية .
- منظومة العقد الفريد فى علم التوحيد .
- منظومات أخرى فى علم النحو ، وعلم الصرف .. وغيرهما .
- وعقيدة النصيحة فى تاريخ بعض رجالات عصره ، وشرحها فى مجلدة .

ومن اللافت للنظر أن منظوماته التعليمية قد اتخذت إطاراً غزلياً ، حيث نظمها "بطريقة الغزل" حتى يحدّ من جفاف المادة العلمية أو برودة النظم التعليمي . وكما؛ المنظوم : مرآة الأدب فى علمي المعاني والبيان (والبدیع) تقع فى نحو ألفي بيت يقول السخاوى : "وسلك فيه أسلوباً بديعاً نظم فيه التلخيص ، عمّله قصائد غزلية ، كل باب منها قصيدة مفردة ، على قافية أشار إليها شيخنا بقوله : وأوقفني على منظومة فى المعاني والبيان أجاد نظمها ، وجعل كل باب قصيدة مستقلة غزلاً ، يؤخذ منه مقصد ذلك الباب " .

[١٢] شكر ووفاء

ثمّة كلمة حق ووفاء ينبغي أن تقدم الى الاستاذ الدكتور عبدالله أحمد المهنا الرجل والعالم الذى فتح أمامي نافذة الأدب المملوكى على مصراعها ، فكانت

(٢٨) انظر : هداية العارفين ١ : ١٣٠ .

دراساتى المتعددة فى الأدب المملوكى بشقيه الشعبى والرسمى ، الشفاهى والمدون ..
ومنها هذا الكتاب .. ومن ثم فسوف يبقى هذا الفضل العلمى دينا فى عنقى له
مدى الحياة .

وثمة كلمة شكر .. كل الشكر ، إلى زوجتى الفاضلة التى لولا صبرها الطويل
وتبجييعها المتواصل ما ظهر هذا الكتاب فى هذه الفقرة الوجيهة .

وأخيرا ، يبقى القلم عاجزاً عن الشكر للابن العزيز محمد مصطفى خضر الذى
قام بكتابة هذا الكتاب ثلاث مرات على الحاسب الآلى ، مرة لفك طلاسم النسخ
المطبوعة والمخطوطة ، ومرة للضبط الصرفى والنحوى ، ومرة للشرح والتفسير ..
بإذلاً فى ذلك أقصى جهده حتى يرى الكتاب النور خالياً من الأخطاء الطباعية ما
أمكن ، جزاء الله خيراً عن العلم والعلماء .

والحمد لله من قبل ومن بعد

محمد رجب الفجار

الكويت فى ١٦/٦/١٩٩٧

خطبة الكتاب

الحمد لله الذي شهد الكائنات بوجوده ، وشمل الموجودات عظيم كرمه
وجوده ، ونطق الجمادات بقدرته ، وأعربت العجماوات عن حكمته ، وتخطبت
الحيوانات بلطف صناعته ، وتناغى الأطيّار بتوحيده ، وتلاغت وحوش الغفار
بتفريده ، كلٌّ باذل جهته ، وإن من شيء إلا يُسبح بحمده ، بل المكان ومن فيه
والزمان ، وما يحويه من نامٍ وجامد ، ومشهود وشاهد ؛ تشهد بأنه إله واحد ،
منزه عن الشريك والمعاد ، مقتس عن الزوجة والولد والوالد ، مبرا عن المعاند
والمناد^(١) ، مسبح بأصناف الحمد . أحمدته حمدا تنطبق به الشعور والجوارح ،
وأشكره شكراً يصيد نعمه صيد المصيد بالجوارح . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده
لا شريك له ، ربّ أودع أسرار ربه في برّيته^(٢) ، وأظهر أنوار صمديته^(٣) ،
في جواني^(٤) بحره وبرّيته^(٥) ، فبعض يعرب بلسان قاله^(٦) ، وبعض يعرب بلسان
حاله ، وتسبحه السموات بأطيظها والأرض بغطيطها^(٧) ، والأبحر بخيرها ، والأسد
بزئيرها ، والحمام بهديرها ، والطير بتغريدها ، والرياح بهبورها ، والبهاائم

(١) المخالف

(٢) الخلق

(٣) صمد : ثبت وصمد إليه : قصده . والصمد : المقصود لقضاء الحاجات ، واسم من أسماء الله تعالى .

(٤) الظلمات (والأنوار)

(٥) البر ، الأرض

(٦) القول

(٧) أظ وغطّ : صوّت .

بهيبيها^(٨) ، والهوامُ بكشيبيها^(٩) ، والقلورُ بنشيبيها^(١٠) ، والخيَلُ بضبيها^(١١) ،
والكلابُ بتبيها ، والأقلامُ بصريها^(١٢) ، والنيرانُ بزفيريها ، والرعوذُ
بعمجيها^(١٣) ، والبغالُ بشجيها^(١٤) ، والأنعامُ برغائها^(١٥) ، والذبابُ بطنينها ،
والقسيّ برنينها^(١٦) ، والنياقُ بمجنيها^(١٧) . كلٌّ قد علم صلاته وتسيبته ، ولازم في
ذلك غبوقه وصبوحه^(١٨) ، وعمّروا بذلك أجسادهم وأرواحهم ، ولكن لا تفقهون
تسيبتهم . وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله ، الذي من صدّقه تم سؤله^(١٩) ،
أفضل من بعث بالرسالة ، وشملت عليه الغزاة ، وكلمه الحجر ، وآمن به المدثر ،
وانشق له القمر ، ولّبت دعوته الشجر ، واستجار به الجمل ، وشكا إليه شدة
العمل ، وحنّ إليه الجذع ، ودّرّ عليه يابسُ الضرع ، وسبّحت في كفّه
الحصباء^(٢٠) ، ونيع من بين أصابعه الماء ، وصدّقه ضبُّ البرية ، وخاطبته الشاةُ
المصلية ، صلى الله عليه صلاة تنطق بالإخلاص ، وتسعى لقايلها بالخلاص ، وعلى

(٨) بصياحها وهياحها (للضراب)

(٩) كش كشيشا : صوت .

(١٠) صوت الغليان .

(١١) ضبح الخيل : صوت أنفاسها في جوفها حين العدو .

(١٢) صوت القلم (من البوص) عند الكتابة .

(١٣) صوت الرعد .

(١٤) صوتها الغليظ .

(١٥) ضجيحها .

(١٦) صوت القوس عند إنباضها .

(١٧) حنّ الناقة : نذت صوتها شوقاً إلى ولدها .

(١٨) صياحه ورساه ، والأصل في الصبح مأثرب أو يؤكل في الصباح . وهو خلاف الغروق .

(١٩) السؤل والسؤل : ما سأته .

(٢٠) صغار الحجارة .

آله أسود المعارك ، وأصحابه شמוש المسالك ، وسلّم تسليما ، وزاده شرفاً وتعظيماً .

أما بعد فإنّ الله المُقَسَّسَ في ذاته ، المُنَزَّهَ عن سماتِ النقص في صفاته ، قد أودع في كلّ ذرّة من مخلوقاته ، من بديع صنّعه ولطيف آياته ، ومن الحكّم والعبر ، ما لا يدركه البصر ، ولا تكادُ تهتدى إليه الفكر ، ولا يصلُ إليه فهُمُ ذوى النظر ، ولكن بعض ذلك للبصر بالرصد ، ظاهر يدركه كلّ أحد . قال الله تعالى ، وجَلَّ ثناؤه جلّالا ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ، وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾^(٢١) . وقال تعالى ﴿سُتْرِبِهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ﴾^(٢٢) وقال عزّ من قائل ، في كلامه الطائل ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاعْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفَلَكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾^(٢٣) . وقال الشاعر :

ففي كلّ شيءٍ له آيةٌ تدلُّ على آله واحد

لكن لما كثرت هذه الآيات والحكّم ، وانتشرت أزهار رباضيها في وهاد العقول والأكّم^(٢٤) ، وترادف مافيه من العجائب والعبر ، وتكرّر ورود مراسيمها على رعايا السمع والبصر ، وعادتها النفوس ، ولم يكن كثرت بوقوعها القلبُ الشَّمُوس^(٢٥) ، ولم يستهجن من وجودها ، ولم يلتفتن إلى جدورها ، فكثُر في

^(٢١) قرآن كريم ، سورة المائدة : ٢١ .

^(٢٢) سورة فصلت : ٥٣ .

^(٢٣) سورة البقرة : ١٦٤ .

^(٢٤) يعني : في الأرض المنخفضة للتلال والحقول .

^(٢٥) النور .

ذلك أقوالُ الحكماء ، وتكررت مقالاتُ العلماء ، فلم تصُغ الأسماعُ إليها ، ولا عرَّلت الأفكارُ عليها ، فقصد طائفة من الأذكياء ، وجماعة من حكماء العلماء ، مِمَّنْ يعلمُ طُرُقَ المسالك ، إبرازَ شيءٍ من ذلك ، على ألسنة الوحوش ، وسكان الجبال والعروش ، وما هو غيرُ مألوفٍ للطباع ، من البهائم والسباع ، وأصنافِ الأطيَّار ، وحيثان البحار ، وسائرِ الهوام ، فيسندون إليها الكلام ، لتميلَ لسماعه الأسماع ، وترغبَ في مطالعته الطباع ، لأن الوحوشَ والبهائم ، والهوامَ والسوائم ، غيرُ معتادةٍ لشيءٍ من الحكمه ، ولا يُسندُ إليها أدبٌ ولا فطنة ، بل ولا معرفة ولا تعريف ، ولا قولٌ ولا فعلٌ ولا تكليف ، لأنَّ طبعها الشُّمس (٢٦) ، والأذى والافتراس ، والإفسادُ والنفور ، والعدوانُ والشرور ، والكسرُ والتفريق ، والنهشُ والتمزيق .

فإذا أسند إليها مكارم الأخلاق ، وأخبر بأنها تعاملت فيما بينها بموجب العقلِ والوفاق ، وسَلَكَتْ - وهي مجبولةٌ على الخيانة - سُبُلَ الوفاة ، ولازِمَتْ - وهي مطبوعةٌ على الكلورة - طُرُقَ الصِّفاء ، أَصْغَتْ الأذانَ إلى استماع أخبارها ، ومالت الطباعُ إلى استكشافِ آثارها ، وتَلَقَّتْها القلوبُ بالقبول ، والصدورُ بالانشراح ، والبصائرُ بالاستبصار ، والأرواحُ بالارتياح ، لكونها أخباراً منسوجةً على منوالٍ عجيب (٢٧) ، وآثاراً أُسْلِيَتْ لُحْمَتُها في صنعٍ بديعٍ غريب ، ولا سِيَمًا الملوكُ والأمراء ، وأربابُ العدلِ والرؤساء ، والسادةُ والكبراء ، وأبناءُ الرِّفَّة والنعم ، وذوو المكارمِ والكرَم ، إذا قرَّعَ سمعهم قولُ القائل : صار البغلُ قاضياً ، والتمرُّ طائعاً لا عاصياً ، والقرْدُ رئيسَ المَمَالِك ، والتعلبُ وزيراً لذلك ، والدبُّ

(٢٦) الجموح والعنوان .

(٢٧) يعني منسوجة على لسان الحيوان (قصص الحيوان الرمزي) .

مورخاً أدبياً ، والحمازُ منجماً طبيياً ، والكلبُ كريماً ، والحجلُ نديماً ، والغرابُ دليلاً ، والعقابُ خليلاً ، والحدأةُ صاحبة الأمانة ، والفأرةُ بكاتبة الخزائنة ، والحيةُ راقية ، والبومةُ ساقية ، وضجكُ النمرُ متواضعا ، وغداُ الأسدُ لإرشاد الذئبِ سامعا ، ورقصُ الغزالُ فى عرسِ القنفذ ، وغنّى الجبديُّ فطرب الجدد^(٢٨) ، وتصادقُ القطُ والجُرذان^(٢٩) ، وصار السرحانُ^(٣٠) راعى الضان ، وعانقُ اللَّيْثُ الحَملَ ، والذئبُ الحَملَ ، ورفع الباشقُ^(٣١) الحمامةَ على رقبته وحَمَلَ ، ارتاحت لذلك نفوسُهم ، وزال عبوسُهم ، وانشرحت خواطِرُهم ، وسرت سرائرُهم ، وأصغت إليه أسماعُهم ، ومالت إليه طباعُهم ، وأدى طيشُهم إلى أن طاب عيشُهم .

ولكنْ أهلُ السعادة ، وأربابُ السيادة ، ومنْ هو مُتَصَنِّدٌ لفصلِ الحكومات ، والذى رَفَعَهُ اللهُ الدرجات ، فانتصبَ لإغاثةِ الملهوفين ، وخلصِ المظلومين من الظالمين ، والمتنبِّهون - بتوفيقِ الله تعالى - للدقائقِ الأمور ، وحقائقِ ما تجرى به الدُّهور ، إذا تأملوا فى لطائفِ الحُكَم ، والفرائدِ التى أودعتْ فى هذا الكَلِم ، ثم تفكروا فى نُكَّتِ^(٣٢) العيَر ، وصفاتِ العدلِ والسير ، والأخلاقِ الحسنة ، والقضايا المستحسنة ، المسندةِ إلى ما لا يعقلُ ولا يفهم ، وهم من أهلِ القولِ الذى يشرف به الإنسانُ ويكرُم ، يزدادون مع ذلك بصيرة ، ويسلكون بها الطُّرُقَ المنيرة ، فتتوقَّرُ مسرَّاتهم ، وتتضاعفُ لذَّاتهم ، وربما أدى بهم فِكْرُهم ، وانتهى بهم فى أنفسهم أمرُهم ، أنْ يَثِلَ هذه الحيوانات ، مع كَوْنِها عجماءات ، إذا اتَّصفت بهذه

(٢٨) الجدد : طائر صغير يشبه الجراد .

(٢٩) الكبير من الفئران .

(٣٠) الذئب .

(٣١) نوع من جنس البازى ، من فصيلة العقاب النسرية ، وهو من الجوارح ، يشبه الصقر .

(٣٢) جمع نكتة ، زُمى الفكرة اللطيفة المؤثرة فى النفس ، أو الغاية الخفية ، يتوصل إليها بدقة وإتمام فكر .

الصفة ، وهى غير مُكَلَّفة ، وصدر منها مثل هذه الأمور الغريبة ، والقضايا الحسنة العجيبة ، فنحن أولى بذلك ، فيسلكون تلك المسالك .

وقد ضَرَبَ الله ذر الجلال ، فى كلامه العزيز الأمثال ، فقال : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾^(٣٣) . وقال سبحانه بعد ذلك : ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾^(٣٤) . وقال سبحانه ما أعظم شأنه : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مَثَلٍ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ ، ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾^(٣٥) وقال تعالى : ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾^(٣٦) . وقال تعالى : ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ . ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سَبِيلَ رَبِّكَ ذَلَّلَا بِخُرُوجِ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(٣٧) . وقال تعالى : ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾^(٣٨) . وقال تعالى : ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾^(٣٩) .

^(٣٣) قرآن كريم ، سورة العنكبوت : ٤١ .

^(٣٤) قرآن كريم ، سورة العنكبوت : ٤٣ .

^(٣٥) قرآن كريم ، سورة الحج : ٧٣ .

^(٣٦) قرآن كريم ، سورة البقرة : ٢٦ .

^(٣٧) قرآن كريم ، سورة النحل : ٦٨ .

^(٣٨) قرآن كريم ، سورة الأحزاب : ٧٢ .

^(٣٩) قرآن كريم ، سورة فصلت : ١١ .

أسند سبحانه وتعالى الأفعال والأقوال إلى الجمادات بعدما وَجَّه الخطاب إليها .
 وقال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ
 وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدُّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ
 وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾^(١٠) . وكلُّ ما جاء في هذه الطريقة ، فإنه بالنسبة
 إليه تعالى حقيقة ، لأنه قادرٌ على كلِّ شيء ، وسواء عنده الميت والحَيّ ، ولا فرق في
 كمال قدرته بالنظر إلى قدرته ومشيتته ، وتصوير كمال عظمته وهيبته ، بين الناطق
 والصامت ، والنامي والجامد ، والشاهد والغائب ، والآتي والذاهب ، كما لا فرق
 في هذا الكمال ، بين الماضي والاستقبال ، وقال تعالى : ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ
 وَالْأَرْضُ﴾^(١١) . وقال : ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ﴾^(١٢) . وقال تعالى :
 ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾^(١٣) . وقال في الملهد : ﴿فَقَالَ
 أَحْطَ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾^(١٤) . وقال الشاعر :

* ولو سكتوا أثنت عليك الحقايب *

وقالت العربُ في أمثالها : " قال الجدارُ للوتدِ لِمَ تشقني ؟ قال : سَلَّ مَنْ
 يدقني ، قل لمن ورائي يتركني ورائي " . وقالوا : " أكرم من الأسد " ، ومن أشهر
 أمثالهم قالوا : " إن الأرنبَ التقطتْ ثمرةً ، فاختلسها الثعلبُ فأكلها ، فانطلقا إلى
 الضبِّ ، فقالت الأرنب : يا أبا الحُصَيْن . قال : سمياً دعوتِ . قالت : أتيناك
 لنحصم إليك قال : عادلاً حكمتما قالت : اخرج إلينا . قال : في بيته يؤتَى

^(١٠) قرآن كريم ، سورة الحج : ١٨ .

^(١١) قرآن كريم ، سورة الدخان : ٢٩ .

^(١٢) قرآن كريم ، سورة الكهف : ٧٧ .

^(١٣) قرآن كريم ، سورة النمل : ١٨ .

^(١٤) قرآن كريم ، سورة النمل : ٢٢ .

الحَكَم . قالت : إني وجدتُ ثمرةً . قال : حلوة فكلّوها . قالت : فاختملسها منى
 الثعلب . قال : لنفسيه بقى الخير . قالت : فلطمته . قال : بمحلك أخذت . قالت :
 فلطمنى . قال : حُرُّ انتصر لنفسيه . قالت : فأقضى بيننا . قال : قد قضيتُ .
 فذهبتُ هذه الأقوال كلها أمثالا . وقالوا : تحككتُ العقربُ بالأفعى^(١٥) . وقال
 الشاعر :

قام الحمامُ إلى البازي يُهلّدهُ واستصرختُ بأسود البرِ اضبَعهُ

وهذا أمره مستفيضٌ مشهور ، معروفٌ بين الأنام غير منكور . والحصص في هذا
 المعنى يتعسر ، والاستقصاء يتعذر ، وإنما الأوفى التمثيلُ والتنظير ، والاستدلالُ
 بالقليلِ على الكثير ، فيتفكّه السامعُ تارةً ويتفكرُ أخرى ، ويتنقلُ فى ذلك من
 الأَخْفَى إلى الأَحْلَى ، ويتوصلُ بالتأملِ فى معانيه من الأدنى إلى الأعلى . ومن جملة
 ما صنف فى ذلك ، واشتهر فيما هنالك ، وفاق على نظائره بمخيره ومنظيره وحاز
 فنونَ الفطنة : كليلة ودقنة ، والمتمثلُ بحكمة الطباع كتاب سلوان المطاع ،
 والمفحّمُ بنظمه العجيب ، كلُّ شاعرٍ وأديب ، معجزُ الضراغم الصادح والباغم .
 وفى غير لسانِ العرب ، ممن يتعاطى فنَّ الأدب ، جماعة وضعوا أفاويقه ، وسلكوا
 من هذا النمط طريقه ، لكنّ نقادهم عصرهم ، واشتهر أمرهم ، وتكرّر ذكرهم ،
 وصارت مصنفاتهم مطروقة ، وعتاقُ بحابها فى ميدانِ التأملِ عتيقة ، ففلذتُ^(١٦)
 من دهرى فلذة ، وعَمِلْتُ بموجب : لكلِّ جديدٍ لذة ، وسَيَّرْتُ فارسَ الأفكار ،
 فى ميدانِ هذا المضمار ، وقصدتُ من الفائدة ما قصده ، ومن العائدة فى الدارين
 ما رصده ، وجمعتُ ما بلغنى عن تَقَلُّةِ الأخبارِ ، وَحَمَلَةِ الآثَارِ ، وَرَوَاةِ الأسفارِ ،

(١٥) مثل يقال لَمَنْ يَنَازِعْ مَنْ هُوَ أَقْدَرُ مِنْهُ .

(١٦) فلذت فلذة : انحطعت قطعة أو جزءاً من الزمن لتأليف هذا الكتاب .

على لسان شيخ اللطائف ، ومنبع المعارف ، وإمام الطوائف ، وجمع العوارف ،
 ذى الفضل والإحسان أبى المحاسن حسان ، ووضعت هذا الكتاب ، نزهة لبنى
 الآداب ، وعمدة لأولى الأبواب ، من الملوك والنواب ، والأمراء والحجّاب ، وجعلته
 عشرة أبواب ، ومن الله أستمدّ الصواب ، وأستغفره من الخطأ فى الجواب ، إنه
 رحيمٌ توابٌ ، كريمٌ وهّابٌ ، وبسميته :

فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء .

فإن يفيض بحر علمى تُهدّ منه على	درّ ينير عيون العقلى فى السدّ ^(١٧)
البسّته من خلاعات انتهى خلجاً	وربما ازدان عقد الشّرّ بالخزف
والفضل يحتاج فى ترويض سلجّه	إلى الخرافة والمقول للخسوف
فأعثر إلى البحر تجرّ الشّرّ منه ولا	يلهيك عن ذرّه أضحوكة الصدف

* * *

- الباب الأول : فى ذكر ملك العرب ، الذى كان لوضع هذا الكتاب السبب .
- الباب الثانى : فى وصايا ملك العجم ، المتميز عن أقرانه بالفضل والحكم .
- الباب الثالث : فى حكم ملك الأتراك ، مع حخته الزاهد شيخ النساك .
- الباب الرابع : فى مباحث عالم الإنسان ، مع العفريت جان الجان .
- الباب الخامس : فى نوادر ملك السباع ، وندميه أمير الثعالب وكبير الضباع .
- الباب السادس : فى نوادر التيس المشرقي ، والكلب الأفرقي .

^(١٧) ظلمة الجهول .

الباب السابع : فى ذكر القتال بين أبى الأبطال الرئال ، وأبى دغفل سلطان
الأفبال.

الباب الثامن : فى حكم الأسد الزاهد ، وأمثال الجمال الشارد .

الباب التاسع : فى ذكر ملك الطير العقاب ، والحجلتين الناجيتين من العقاب .

الباب العاشر : فى معاملة الأعداء والأصحاب وسياسة الرعايا والأحباب ، ونكت
وأخبار وتواريخ أخبار وأشرار .

الباب الأول

فِي ذِكْرِ مَلِكِ الْعَرَبِ

الَّذِي كَانَ لَوْضَعِ هَذَا الْكِتَابِ السَّبَبِ

قال الشيخ أبو المحاسن^(١) : بلغني عن ذي فضلٍ غيرِ آسن ، إنه كان فيما غَبَرَ من الزمان ، قِيلَ^(٢) من الأقبال ، غزيرُ الأفضال ، عزيزُ الأمثال ، وارثُ المعارف ، حائِزُ الفضائل واللطائف ، وافرُ السيادة ، كاملُ السعادة ، ذو حكمٍ مطاع ، وجنيدٍ وأتباع ، وممالكٍ واسعة ، ذاتِ أطرافٍ شاسعة ، تحت أوامره ملوكٌ عدّة ، ذو سَطَوَاتٍ وَنَجْدَةٍ ، وله من الأولادِ الذكور ، خمسةٌ أنفارٍ كلُّهم بالسيادة مذكور ، وبالعلم والحلم والحكم مشهور ، ومشكور ، مُتَوَسِّحٌ للسلطنة ، مُتَوَلٍّ من والدِهِ مكاناً من الأمكنة . وكان أسعدُهم عند أبيه - وهو متميزٌ على إخوته وذويه ، شمسي المنظر ، إياسي المخير - ذا فهم مصيب ، واسمه في فضله " حسيب " ، قد حصل أنواعاً من العلوم ، وأدركها من طريقي المنطوقِ والمفهوم ، وكان لهذا الفضلِ الجسيم ، يدعى بين الصغيرِ والكبيرِ الحكيم ، فلما دعا أباهم داعي الرحيل ، وَعَكَمَ^(٣) إلى دارِ البقاءِ أجمالَ التحميل ، استولى على السريرِ^(٤) أكبرُ أولاده ، وأطاعه إخوته ورؤوسُ أمرائه وأجناده ، وصار السعدُ يراقبه ، والمُلْكُ بلسانِ الحالِ يخاطبه :

(١) شخصية خيالية. تقوم هنا بدور الراوية ، أو السارد الضمني .

(٢) القيل : لقب يطلق على الملك من ملوك اليمن في الجاهلية ، دون الملك الأعظم ، والجمع أقبال .

(٣) عكم : شدّ .

(٤) العرش .

لجؤهم سماء كلما القض كوكبٌ بدا كوكبٌ تاوى إليه كواكبٌ

واستمر إخوته فى خدمته ، مغتربين أيادي طاعته ، رافلين فى خيلج محبته ومودته ، ومضى على ذلك برهة ، وهم فى أرغد عيش ونزهة . ثم إنه حصل فى خواطر الإخوة ، ماخطر فى خواطر الألداء من الجفوة ، وقلوب الحساد من الصد والنبوّة ، فداخلتهم النفاسة ، وطلبوا كآخيهم الرياسة ، فقلبوا لأخيههم أظهر الميحن^(٥) ، وأظهر كل ما أكنن ، وقال فيه ما آجن ، وأراد شق العصا ، وأن يشهر عنه أنه عصى . غير أن أخاهم الحكيم ، تفكر فى هذا الأمر الوخيم ، وأمنن فيه النظر ، وساورته الوسوس والفكر ، فإنه وإن كان أغزرهم ذكاء ، وأوفرهم وفاء ، فهو أصغرهم عمراً ، وأحقهم قدراً ، لا طاقة له على الاستبداد ، ولا أن ينحاز إلى أحد من ذوى العناد ، إذ الانحياز إلى أحدهم ترجيح بلا مرجح ، وتصحيح لأحد التاويلين بلا مصحح . فأداة اجتهاده إلى الانخزال ، وتقليد مذهب الاعتزال ، والقول بوجوب رعاية الأصلح ، ومن أمكنه العزلة ، خصوصاً فى زمن الفتنة ، فقد أفلح . فأخذ يفكر فى تعاطى أسباب الخلاص ، وكيفية التفصى^(٦) من عهده هذا الاقتصاد ، واستنهض الفكرة الخائرة ، لتطفر به من سور^(٧) هذه الدائرة ، وتأخذ به على جهة واحدة ، إلى أن ينجلي غبار هذه المناكدة ، ثم اتبع الكتاب ، فى مشاورة الأصحاب ، فاستشار ثقة من أهل المقة^(٨) ، وعرض عليه العزلة ، وكيف يتمكن من هذه النعمة الجزلة ، فقال له بعد أن استصوب رايه ، طريق التوصل إلى الانفراد ياذا الدراية ، أن تستأذن فى تأليف تصنيف ، وترصيف تأليف ، يشتمل

(٥) الميحن : الزس .. ويقال : قلب له ظهر الميحن أى عاداه بعد مودة ، وطرح الحياء ، وفعل ما شاء .

(٦) الخروج - التخلص .

(٧) القضب - المارق .

(٨) أهل المقة : أصحاب الراى الحاسم ، الواضح والمستتير ، والميحن بغير غرض .

على فنون من الحكمة ، وأنواع من دقائق الأدب والفطنة ، ولطائف التهذيب
وإخلاص العباد ، ويكون عوناً على اكتساب مصالح المعاش والمعاد ، وتوقُّر به
مكارم الأخلاق والشيم ، وعوالم تهذيب النفس وظرائف الفضل والحكم ، فيظهر
بذلك غزارة علمك ، ويشتهر بين الخاص والعام نباهة فضلك وحلمك ، ولا يقف
أحد في طريقك ، ولا يقدر أحد أن يتصدى لتعويقك . ويحصل بذلك فوائد
جمّة ، أدناها الخلاص من ورطة هذه الغمة^(٩) ، إلى أن ينجلي دُجّها ، وتتجلى
شمس الاستقامة وضّحّاها .

فاستقر رأي الحكيم حسيب ، على العمل بهذا الرأي المصيب ، ثم توكّل على
الله واعتمده ، وتوجّه إلى ما قصده . ودخل غير مرتبك على الملك ، وقبل
الأرض ، ووقف في مقام العرض ، وذكر ما عزم عليه ، أو توجّه قصده إليه ،
بعبارة رقيقة ، وألفاظ رشيقة ، فتأمّل الملك في خطابه ، وتوقّف في جوابه ، وكان
للملك وزير ، ذو فضل غزير ، في غاية الحصافة ، والمعرفة والظرافة ؛ إن لطّف^(١٠)
كان رافق^(١١) ، وإن كُفّ^(١٢) كان آفة ، بعيد الغور ، إن رفع أبلغ إلى الثريا وإن
وضّع أنزل إلى الثور ، بينه وبين الحكيم ، من سالف العهد القديم ، عداوة مؤكدة ،
وشبهة مؤبّدة ، وتحاسد الأكفاء غلّ قمل^(١٣) ، وعداوة النظراء جرح لا يندمل ،
فبلغه ما أنهى الحكيم ، إلى مسمع الملك الكريم ، فتصدى للمعارضة ، ونهياً

(٩) الغمة : الغم ، يقال أمر غمة : مُبهم ملتبس ، وإنه لفي غمة من أمره : إذا لم يهتد للمخرج .

(١٠) تعاطف ورقة قلبه .

(١١) رافق : غلف رافق .

(١٢) كفّ : غلظ رحقد .

(١٣) القمل (بكسر الفين) : الحقد والحسد والعداوة الكامنة . وفتح الفين : القيد . والعبارة تشير إلى ضراوة الحقد

وشدة الحسد ..

للمعاكسة والمناقضة ، وأقبل يرفلُ في ثوبِ المكر ، وقد شدَّ دهاءَ الختلِ والختر^(١٩) ،
حتى وقفَ في مقامه ، واستطردَّ إلى قضية الحكيم في كلامه ، فأجرى الملكُ كلامَ
أخيه ، واستشارَ الوزيرَ فيه ، فاعتمتِ الفرصة ، وأرادَ إلقاءه في غُصَّة ، بإيرادِ مثلٍ
قصدَ به إيذاءه وقصته . ثم قال : أما ما قصده الحكيمُ من العزلة فهو رأيٌ قويم ،
وفكرٌ مستقيم ، لأنَّ الأعداءَ إذا تفرَّقوا تشقَّقوا ومتى قلَّوا ذلَّوا ، وقد قيل :

وما بكثيرُ ألفِ خيلٍ وصاحبٍ وإنَّ صدواً واحداً لكثيرُ

وإذا نقصَ من أعداءِ الملكِ واحد ، سيما مثل اللقيم ، حسيب الحكيم ، فهي نعمة
طائلة ، وسعادةً واصلة ، ودولةٌ مُستعصبة ، وكما قيل نعمةٌ غيرُ مُترقبة ، ويتوصل
من ذلك إلى تشتيتِ أمرهم الحالِك وتصارُمِ أقوالهم ، وتخالُفِ أحوالهم ، واضطرابِ
رأيهم وأفعالهم ، وقد قيل :

وتشتَّت الأعداءُ في آرائهم سببٌ لجمعِ خواطرِ الأحاب

وأما قصده وضمع الكتاب ، فإنه خطأ لا صواب ، وتعبيره بأنَّ فيه فوائدَ
وحِكماً ، وأقوالَ العلماءِ والحُكَماءِ ، وأن يرفعَ به للعلمِ علماً ، فإنه مَكْرٌ وخديعة ،
من سوءِ السريَّةِ وخُبثِ الطبيعة ، يريدُ أن يَسْتَرْجِهَ ، وأن يُظْهِرَ على فضلِ الملكِ
قُضْلَه ، ويشتمِلَ بذلكِ الوسواس ، على قلوبِ الناسِ ، فتتصرفِ الوجوهُ إليه ،
وتقبلِ الرعايا عليه . ولكن يامولانا الملك ، لا تمنعُ ذلكِ المنهيك ، وأجبهُ إلى ما
سأل ، وطالبه بما بذل ، وألزمه بالانفراد ، ودعْه وما أراد ، فإنَّ عَدَمَ اجتماعهِ
بالناس ، لنا فيه أمنٌ من البأس ، فيشتغل حينئذٍ بنفسه ، ويتقلبُ في طرده وعكسه .
وأسأل مولانا السلطان ، ذا الأيادي والإحسان ، قبل الإذنِ له ، وشروعه في
المسألة ، أن يجمعَ بيني وبينه ، لأبيِّنَ شينَه وزيفه ، وأظهرَ لمولانا السلطانَ زوره

(١٩) الختل والختر : الخداع والمكر

ومِئْتَهُ ، فَيُتَحَقَّقُ دَسَائِسُهُ ، وَمَا بَنَى عَلَيْهِ وَسَاوِسُهُ ، وَأَدَّى إِلَيْهِ فِكْرُهُ ، وَوَصَلَ إِلَيْهِ خَدَاغُهُ وَمَكْرُهُ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَصْدُرُ أَمْرُهُ الشَّرِيفُ ، بِمَا يَقْضِيهِ رَأْيُهُ الْمُنِيفُ . فَأَجَابَهُ إِلَى سَوَالِهِ ، وَأَمَرَ طَائِفَةً مِنْ رَجَالِهِ ، فَسَيَّرَهُمْ إِلَى الْآفَاقِ ، بِمَرَاثِمٍ جَمَعَهَا الْإِتْفَاقُ ، إِلَى رُؤَسَاءِ مَمْلَكَتِهِ ، وَكِبَرَاءِ دَوْلَتِهِ ، فَاسْتَدْعَى الْعُلَمَاءَ ، وَذَوِي الْفَضْلِ وَالْحِكْمَاءَ ، وَأَوْلَى الْأَرْوَاحِ وَالصَّلَاحِ ، وَمَنْ يُشَارُ إِلَيْهِ بِالْفَضَائِلِ ، وَيَتَسَمَّى بِسَمَةِ مِنَ الْفَوَاضِلِ ، وَكُلُّ أَدِيمٍ أَرِيبٍ ، مِنْ بَعِيدٍ أَوْ قَرِيبٍ ، وَقَاطِنٍ وَغَرِيبٍ ، وَبَيْنَ هُمْ مَكَانًا يَجْتَمِعُونَ إِلَيْهِ ، وَزَمَانًا لَا يَتَأَخَّرُونَ عَنْهُ وَلَا يَتَقَدَّمُونَ عَلَيْهِ .

فَاجْتَمَعَ الْقَوْمُ ، فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ ، حَسَبَ مَا بَرَزَ الْمُرْشُومُ ، فِي الْمَكَانِ الْمَعْلُومِ ، وَجَلَسَ الْمَلِكُ فِي مَجْلِسٍ عَامٍ ، وَحَضَرَ الْخَاصُّ وَالْعَامُّ ، وَاسْتَدْعَى أَخِيَاهُ الْحَكِيمَ ، وَقَابَلَهُ بِالاحْتِرَامِ وَالتَّكْرِيمِ ، وَأَنْوَعَ الْإِحْسَانَ وَالتَّعْظِيمَ ، ثُمَّ قَالَ : أَيُّهَا الْأَخُ الْكَرِيمُ ، وَالْفَاضِلُ الْحَكِيمُ ، كَانَ تَقَدَّمَ مِنْكَ الْإِتِمَاسُ ، بِالِإِذْنِ فِي تَصْنِيفِ كِتَابِهِ يَنْفَعُ النَّاسَ ، مُشْتَمِلٍ عَلَى الْفَوَائِدِ ، وَفُنُونِ الْحُكْمِ الْفَرَائِدِ ، يَكْتَسِبُ الثَّوَابَ الْجَزِيلَ ، وَيَحْتَلِّدُ الذِّكْرَ الْجَمِيلَ ، فَأَحْبَبْتُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ بِحَضْرَةِ الْعُلَمَاءِ ، وَبِمَجْمَعِ الْأَكْبَابِ وَالْفُضَلَاءِ ، وَاتِّفَاقِ آرَاءِ الْحُكَمَاءِ ، وَأَرْبَابِ الدَّوْلَةِ وَالْمَنَاصِبِ ، وَذَوِي الْوُضَائِفِ وَالْمَرَاتِبِ ، وَأَهْلِ الْحِلِّ وَالْعَقْدِ ، الْمُتَصَرِّفِينَ فِي الْحُكْمِ وَالْأُمُثَالِ وَالنَّقْدِ ، لِيَأْخُذَ كُلُّ مَنْهُمْ حِظَّهُ ، وَيُشْتَفَّ مِمَّعِهِ وَيُزَيَّنَ لِفِظِهِ وَلِحِظِهِ ، فَتَعَمَّ الْفَائِدَةُ ، وَتَشْمَلَ الْعَائِدَةُ ، وَيَتَحَقَّقَ كُلُّ سَامِعٍ وَقَائِلٍ ، مَا لَكَ مِنَ الْفَضَائِلِ وَالْفَوَاضِلِ ، وَتَتَمَيَّزُ عَلَى أَقْرَانِكَ ، وَرُؤَسَاءِ زَمَانِكَ ، وَيَبْلُغُ الْأَطْرَافَ ، وَسَائِرُ الْأَكْتِنَافِ ، مَا لَدَيْكَ لِلنَّاسِ مِنْ إِسْعَافٍ ، وَمَا قَصَدْتَ لَهُمْ مِنْ إِحْسَانٍ وَالْطَّافِ ، فَيَتَوَقَّرُ لَكَ الدُّعَاءُ ، وَيَكْثُرُ لَكَ الشُّكْرُ وَالنِّسَاءُ ، لِعَظَمِ فَضْلِكَ وَحُسْنِ آدَابِكَ فِي تَقْلِيدِكَ . وَقَدْ أَدْنَا لَكَ فِي الْكَلَامِ ، وَسَلَّمْنَا إِلَى يَدِ تَصْرِيفِكَ فِيهِ الزَّمَامَ ، لَعَلَّمْنَا أَنَّكَ فَارِسٌ مِيدَانِهِ ، وَفِي بَيَانِ مَعَانِيكَ بَدِيعٌ

بيانه ، ولسان فصاحتك يدحرج كُرَّةَ البلاغة ، كيف شاء بصولجانه ، فقل ما بدا لك ، أحسن الله حالك .

فهض الحكيم من مكانه ، وحسّر طرف إثمه ، وبادر إلى الأرض بالتثامه ، وقال : حيث أذن مولانا السلطان ، وتصدق بالإذن في حسن البيان ، فلائذ من إتمام الإحسان ، وذلك بالإصغاء ، وحسن الرعاية والإرعاء ، فإن حُسن الاستماع ، هو طريق الانتفاع ، وهو الدرجة الثانية ، وهى مرتبة سامية ، فإن حُسن الأداء هى المرتبة الأولى ، وتليها أيها الملك المطاع ، مرتبة حُسن الاستماع ، ثم تليها فى الزيادة ، مرتبة الاستفادة ، والمرتبة الرابعة ، وهى الجامعة النافعة ، درجة العمل ، وبها الفضل اكتمل ، وأما الغاية القصوى والدرجة العليا والمرتبة الفاعرة ، فهى الإخلاص فى العمل وطلب الآخرة ، واتباع رضا المولى ، بترك السمعة والربا ، ثم لنحط العلوم الوضيحة ، أن النصيحة من حيث هى نصيحة ، تتميز القلوب غيظاً منها ، وتنفر النفس عنها ، لأن النفس مائلة إلى الفساد ، والنصيحة داعية إلى الرشاد ، والنصيحة محض خير وبر ، والنفس مطبوعة على الأذى والشر ، فيبينهما تناقض من أصل الخلق ، وتباين من نفس الفطرة ، والنفس تميل إلى ما جيلت عليه ، والنصيحة تجذب إلى ماتدعو إليه . قال العزيز الجبار ، حكاية عن الكفار : ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النِّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ . تَدْعُونَنِي لَأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾^(١٥) فالسعيد من تأمل فى معانى الحكيم ، وسلك السبيل الأقوم ، وتدبر فى عواقب الأمور بالاعتبار ، وتلقى الأشياء من طرف الاعتبار ، وقد قيل :

إذا لم يغي قول النصيح بقول فإن معاريض الكلام فضول

^(١٥) سورة غافر : ٤٦ .

ثم عِشْ واسْلَمْ ، وتيقنْ واعلمْ ، ياملك الزمان ، أن أفضلَ شيءٍ حلَّ في وجود الإنسان ، وأحسنَ جوهرٍ تزيّنَ بها عقْدُ تركيبه ، العقلُ الدّاعى إلى كيفية تهذيبه ، في أساليبه ، وأفضلَ درةٍ ترصّع بها تاجُ العقلِ في تزيينه وترتيبه ، الخلقُ الحسن الذى فضّلَ الله به خيرَ خلقه في تعليمه وتأديبه ، وعصا طَبِّ بذلك نبيّه الكريم ، فقال : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(١٦) وبالخلقِ الحسنِ ينالُ شرفَ الذّكرِ فى الدارين ، ولا يضعُ الله الخلقَ الحسنَ إلّا فيمنَ اصطفاه من الثّقائين . وأفضلُ جنسِ الإنسان ، بعدَ الرسولِ الرفيع الشان ، الملكُ الذى يُحمى أحكامَ شريعته ، ويمشى على سُنّته وطريقته ، وإذا كان الملكُ حَسَنَ الخلقِ والِفِعال ، فهو فى الدرجة العُلَيَا من الكمال . قال الرسولُ النّجيب ، صاحبُ التاج والقضيب ، محمّدُ المصطفى الحبيب ، ﷺ يَمْسِكُ بِأَذْيَالِهَا الطّيب ، ويَرْفَعُ لِنِسْمَاتِ قُبُولِهَا الغُصْنُ الرّطيب : "أَلَا أُعَبِّرُكُمْ عَلَى مَنْ تَحْرُمُ النَّارُ ؟ عَلَى كُلِّ هَيْنٍ لَسَيْنٍ سَهْلٍ قَرِيبٍ" ، وروى أن ذلك السيّدَ السديد ، الكاملُ المُكَمَّلُ الرشيد ، أتى برجلٍ فكلمه ، فأَرْعَدَ ، فقال : هَوْنٌ عَلَيْكَ فَإِنِ لَسْتُ بِمَلِكٍ وَلَا جَبَّارٍ ، وَأَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ ، كَانَتْ تَأْكُلُ القديد .

ومن جُمَلَةِ حَسَنِ الخلقِ العَدَلُ ، والشفقةُ على الرعية والفضل ، وإذا حَسَنَ خُلُقُ الملوِكِ العَلِيَّة ، صَلَحَتْ بِالضَّرُورَةِ الرعيّة ، طاعةٌ أو كارهة ، وَسَعَتْ فى ميدانِ الطّاعةِ فارها ، فَإِنَّ النَّاسَ عَلَى دِينِ مُلُوكِهِمْ ، وسالكون طرائقِ سُلُوكِهِمْ . وأرْذَلُ عادةِ الملوِكِ الطّيشُ والخفّة ، وأن يكونَ ميزانُ عَقْلِهِ خاليَ الكفة ، وأنَّ عَدَمَ الثّباتِ والوقار ، من عادةِ الأطفالِ والصّغار ، والرجلُ الخفيفُ القليلُ الحيلة ، لا يقدِرُ على تدبيرِ الأمورِ الجليلَةِ ، ولا بابٌ يوجِدُ له ولا طاقة ، للدخولِ فى الأشغالِ الشّاقة ،

^(١٦) قرآن كريم ، سورة القلم : ٤ .

ولا يستطيع أن يتحمل ثقل الرئاسة ، ويتعاطى الإيالة والسياسة ، ولا قدرة له على فصل الحكومات المشككة ، والقضايا العريضة المغضلة ، ولا الوصول إلى إثبات السيادة ، ولا الدخول فى أبواب السعادة ، فإن تدبير الممالك ، وسلوك هذه المسالك ، يحتاج إلى رجل كالجبل فى السكوت والوقار ، أو أن الثبات ، وكألبحر الهائج والسيل الهامر أو أن الحركات . واعلم ياذا العلاء ، والمالك المال والدما ، أنه يجب على المليك الكبير ، اجتناب الإسراف والتبذير ، فإنه حافظ دماء الناس وأموالهم ، مراقب مصالحهم فى حالتي حالهم ومآلهم . والمال الذى فى خزائنه ، قد اجتمع من وجوه مكانه ، ومن خراج مملكته ومن أعدائه ومعادنه ، إنما هو للرعية ، لينهب عنهم البلية ، ويصرفه فى مصالحهم ، وما يحدث من حوائجهم وجوائجهم ، فهو فى يده أمانة ، وصرفه فى غير وجهه خيانة ، فكما لا ينبغي أن يتصرف فى مال نفسه بالتبذير ، كذلك لا يتصرف فى أموالهم بالإسراف والتفكير . ومصدائق هذا المقال ، قول ذى الجلال ، جل كلاما ، وعز مقاما : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامٌ﴾^(١٧) .

فينبى للمليك بل يجب ، أن لا يستتر عن الرعية ولا يحتجب ، وأن لا يبادر بحرسوم ، إلا بعد تحقيق المعلوم ، ولا يبرز مرسومه ، ما لم يتحقق فيه معلومه ، وذلك بعد التأمل والتدبر ، وسر عورة القضية والتفكير . وهذا لأن مرسوم السلطان ، على فم أبناء الزمان ، وهو بمنزلة القضاء ، النازل من السماء ، وإذا نزل القضاء ، وقبحت له أبواب السماء ، فلا يرد ولا يصد ، ولا يعوقه عن مضيئه عند ولا عد ، ولا حيلة فى منعه لأحد . وأمر أول الأمر ، على زيد وعمر ، كالسهم الخارج من الوتر ، بل شبه القضاء والقدر ، تعجز عن إدراك سره قوى البشر ،

(١٧) قرآن كريم ، سورة الفرقان : ٦٧ .

فَكَمَا أَنَّهُ إِذَا أَنْفَذَ سَهْمَ الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ ، لَا يَمْنَعُهُ تَرَسٌ مُحِيلَةٌ وَلَا يَصُدُّهُ دِرْعٌ حَازِرٌ ،
فكَذَلِكَ أَمَرَ السُّلْطَانُ ، لَا يَثْبُتُ لِرَدِّهِ حَيَوَانٌ ، وَلَا يُمْكِنُ تَلْقِيهِ إِلَّا بِالْإِنْخِصَاءِ
وَالْإِذْغَانِ ، فَإِذَا لَمْ يَتَدَبَّرْ قَبْلَ إِبْرَازِهِ ، فَسَى عَوَاقِبُ مَالِهِ وَأَعْجَازُهُ ، رِمَا أَدَّى إِلَى
النَّدَمِ ، وَالتَّاسُّفِ حَيْثُ زَلَّتِ الْقَدَمُ ، وَلَا يَفِيدُ التَّلَافِي بَعْدَ التَّلَافِ ، وَلَا يَرُدُّ السَّهْمُ
إِلَى الْقَوْسِ وَقَدْ حَرَقَ الشَّغَافُ . وَكَمَا أَنَّ الْمَلِكَ سُلْطَانُ الْإِنَامِ ، كَذَلِكَ كَلَامُهُ
سُلْطَانُ الْكَلَامِ ، وَكُلُّ مَا يَنْسَبُ إِلَيْهِ فَهُوَ سُلْطَانُ جَنْسِهِ ، فَيَجِبُ عَلَيْهِ حِفْظُ كَلَامِهِ
كَحِفْظِ نَفْسِهِ .

[١/١] لطيفة الملك أنوشروان مع السائس

وحسبك ياملك الزمان لطيفةً للملك أنوشروان فبرزت المراسيمُ الشريفة ، ببيان
تلك اللطيفة ، فقال الحكيم : ذَكَرَ أَهْلُ السَّيْرِ وَنَقْلَةُ الْأَثَرِ : أَنَّ الْمَلِكَ أَنْوَشْرَوَانَ ،
كَانَ رَاكِبًا فِي السَّوْيَانِ ، فَجَمَحَ بِهِ فَرَسُهُ ، وَقَوَّى عَلَيْهِ نَفْسُهُ ، فَاسْتَحَفَّ شَانَهُ ،
وَجَبَدَ عَيْنَانَهُ ، فَهَمَزَهُ وَلَكَزَهُ ، وَضْرَبَهُ وَوَحَزَهُ ، فَنَزَادَ جُمُوحًا ، وَمَادَّ جُمُوحًا ،
فَتَحَاذَبَا الْعَيْنَانَ فَانْقَطَعَ ، وَكَادَ أَنْوَشْرَوَانُ أَنْ يَقَعَ ، فَلَاطَفَ الْفَرَسَ فَاسْتَكَانَ ، وَنَجَا
بَعْدَ أَنْ كَادَ يَدْخُلُ فِي خَيْرٍ كَانَ ، فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى عَجَلٍ وَلَايَتِهِ ، وَاسْتَقَرَّ رَاجِفٌ قَلْبِهِ
مِنْ مَخَافَتِهِ ، دَعَا بِسَائِسِ الْمَرْكُوبِ ، فَلَبِسَى دَعْوَتَهُ وَهُوَ مَرْعُوبٌ ، فَلَعَنَهُ وَشَتَمَهُ ،
وَأَرَادَ أَنْ يَقْطَعَ يَدَهُ وَقَدَمَهُ ، وَقَالَ : تُلْجِمُ هَذِهِ الدَّاهِيَةَ ، بِلِجَامِ سَيُورِهِ وَاهِيَةَ ،
فَانْقَطَعَتْ فِي يَمِينِي ، وَكَادَ الْفَحْلُ يَرْمِينِي ، ثُمَّ دَعَا بِالْمُقَارِعِ ، وَبِالْجَلَادِ لِيُقْطَعَ مِنْهُ
الْأَكْوَاعُ . فَقَالَ السَّائِسُ الْمُسْكِينُ : أَيُّهَا الْمَلِكُ الْمَكِينُ ، وَصَاحِبُ الْعَدْلِ
وَالْتَّمُكِينِ ، أَسْأَلُكَ بِاللَّهِ الَّذِي رَفَعَكَ إِلَى هَذَا الْمَقَامِ ، أَنْ تَسْمَعَ لِي هَذَا الْكَلَامَ ،
فَقَالَ : قُلْ وَلَا تَطِيلْ . قَالَ : كَأَنَّ هَذَا الْعَيْنَانَ يَقُولُ : وَكَلَامُهُ فَضْلٌ لَا فَضُولَ ،
وَمَقُولُهُ قَرِيبٌ مِنَ الْعُقُولِ : الْمَلِكُ أَنْوَشْرَوَانُ سُلْطَانُ الْإِنْسِ ، وَفَرَسُهُ سُلْطَانُ هَذَا

الجنس ، وقد يجاذبني قوة سلطانين ، فأين لي طاقة هذا الثبات لهما ومن أين ؟ لاجرم ذهب مني الخيل ، فتمزقت بين سلطان الإنس وملك الخيل . فأعجب أنوشروان من السائس هذا البيان ، فأنعم عليه وأطلقه ، ومن رق عِقابه وعذابه أعتقه .

ولما أوردت هذا البيان ، ليتحقق مولانا السلطان ، أن حركاته ملكة الحركات ، وُصفاته سلطانة الصفات ، وكلامه ملك الكلام ، فلا يصرفه في كل مقام ، ويُصننه بالتأمل قبل القول ، ويُحسّن ليروزه ويحفظه بالصدق والطول ، وإذا أمر بأمر فلا يرجع فيه ، بل يستمر على ما أمر به ، لئلا يُقال سفيه . ثم أعلم باملك الرقاب ، أن كلاً من الثواب والعقاب ، له حد معلوم ، ومقدار مفهوم ، ينبغي للملك أن لا يتعدى لذلك حداً ، وعلى الملك أن يصغي للنصيحة ، ممن مودته صحيحة ، وقد جرب منه الصدق ، وعلم منه الإخلاص في النطق ، ولا سيما إذا كان ذا عقل صحيح ، وود صريح ، ولا ينفر من خشونة النصيحة ومرارتها ، فبرودة الخاطر وسلامة القلب حرقه حرارتها ، فإن الناصح المشفق ، كالطبيب الخاذق ، فإن المريض الكتيب ، إذا شكاً إلى الطبيب ، شدة ألمه ، من مرارة فيه ، يصف له دواءً مرّاً ، فيزيد حرارته حرّاً ، فلا يجثد بدأ من شربه ، وإن كان في الحال ينهض بكره ، لعلمه بصدق الطبيب ، وأنه في الرأي مصيب ، وما قصد بالدواء المر ، زيادة الضر ، وإنما قصد بألمه عود الخلاوة إلى فمه ، ولا يستحقّر النصيحة ، إن كانت صادقة صحيحة ، ولا الناصح ، خصوصاً الرجل الصالح . فإن سليمان - وهو من أجل الأنبياء الكرام ، عليهم الصلاة والسلام ، وأحد من ملك الدنيا وحكم على الجن والإنس والطير والوحش والهوام - استشار غلة حقيرة ، فنجح في أمره ، وخالف وزيره آصف بن برخيا ، فأبلى بفقره ، وسلب جميع ما ملك ، وصار - كما قيل - أجيراً لصياد السمك .

ثم قال الحكيم حبيب : أيها الملك الحبيب ، وأنا لما رأيت أمور المملّكة قد
اختلّت ، ومباشري مصالح الرعية قلوبهم اعتلت ، ولعبوا بالثقل والخفيف ،
واستطال القوي منهم على الضعيف ، ومدّوا أيديهم إلى الأموال بالباطل ، وأظهروا
الحالي في حيلة العاقل ، وخرجوا عن دائرة العدل ، وأطرحوا أهل العلم والدين
والفضل ، وتولّى المناصب غير أهلها ، ونزّلت المراتب إلى غير علّها وحُرّم
المستحقّون ، وأبطلَ المحقّقون ، إلى أن وقع الاختلال ، وعمّ الفساد والضلّال ،
وقويت أعضاؤ الظلمة على العباد ، وسائر القرى والبلاد . وهذا لا يليق بشرف
مولانا الملك ولا بأصله ، ولا يجوز في شرع المروعة أن يكون الظلم طراز عدله ، إذ
قدره العلي وأصله الزكيّ ، أعظم مقاماً من ذلك ، ولا يحسن أن يتشرّ إلا صبيته
رافته في الممالك ، وعلى الخير مضى سلفه الكرام ، وانطوى على مآثرهم صجائف
الأيام ، وقد قيل :

فإن الظلم من كل قبّح وأبّح ما يكون من الشيء

وقيل :

ولم أر في عيوب الناس شيئاً كقص القادرين على التمام

ماوسعى إلا الانحياز إلى العزلة ، والتعلّق بذيل الانفراد والوحدة ، وما أمكنني أن
أعمل شيئاً ولا أقطع دون العرض على الآراء الشريفة ، وامتنال ما تبرزه مراسيمها
للنيمة . فقد قال الناصح في بعض النصائح : لا تخاطب الملوك ، فيما لم يسألوك ،
ولا تقديم على ما لم يأمروك . فلما أذن في الكلام قمتُ هذا المقام ، فقلت قطرة
من بحور ، وذرة من طور ، ورأيت ذلك واجباً عليّ ، ونفعه عبداً إليّ ، وذكرت
بعض ماوجب على سائر الناصحين ، ولزم ذكره جميع المسلمين ، من طريق
واحدة ، ولزمني أنا من طرق متعددة ، أدناها طريق المروءة ، وأعلها بل أغلاها
وثيق الأخوة ، التي هي أقوى الأسباب ، وأعظم الوصلات في هذا الباب ، فإن

لُحْمَةُ الْقَرَابَةِ هِيَ السَّبَبُ الَّذِي لَا يَقْطَعُهُ سَيْفُ الْحَدَثَانِ ، وَالْبِنْيَانُ الَّذِي لَا يَهْدُمُهُ
مِغْوَلُ الزَّمَانِ وَأَسَاسُ الْأُخُوَّةِ عُنْوَانُ الْفُتُوَّةِ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ، وَعَزَّ جَمَالًا ، وَتَقَلَّسَ
كَمَالًا : ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾^(١٨) وَقَالَ الْقَائِلُ :
أَخَاكَ أَخَاكَ إِنْ مَنْ لَا أَخَا لَهُ كَسَاعٍ إِلَى الْهَيْجَا بغيرِ سِلَاحٍ

[٢/١] قصة الولي مع الضحّاك

وَنَاهِيكَ يَا زَيْنَ الْمَلَاكِ بِقِصَّةِ الْوَلِيِّ مَعَ الضَّحَّاكِ ، قَالَ : أَخْبَرْنَا أَيُّهَا الْحَكِيمُ ،
بِذَلِكَ الْحَدِيثِ الْقَدِيمِ . قَالَ الْحَكِيمُ : بَلَّغْنَا عَنِ التَّارِيخِ ، الْبَاذِخِ الشُّمَارِيخِ ، أَنَّ
الضَّحَّاكَ كَانَ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ سِيرَةً ، وَأَصْفَاهُمْ سِرِيرَةً ، قَدْ فَاقَ النَّاسَ فَضْلًا ،
وَبَلَغَ ذِكْرَهُ الْآفَاقَ عَدَلًا ، فَتَزَيَّا لَهُ إِبْلِيسُ ، فِي صُورَةِ النَّهَاءِ وَالتَّلْبِيسِ ، فَرَعَمَ ذَلِكَ
الطَّبَاحُ^(١٩) ، أَنَّهُ طَبَاحٌ ، وَصَارَ كُلُّ يَوْمٍ يَهْيِيءُ لَهُ ، مِنْ أَطْيَبِ الْأَطْعِمَةِ ، وَلِذِيذِ
الْأَغْلِيَّةِ ، مَا يَعْجُزُ بِهِ غَيْرُهُ ، وَلَا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَسِيرَ سِيرَهُ ، وَلَكِنْ يَأْخُذُ عَلَى ذَلِكَ
جَرَاةً فَبَلَغَتْ مَرْتَبَتَهُ عِنْدَهُ النِّهَايَةَ ، وَاسْتَمَرَ عَلَى ذَلِكَ مُدَّةً مَدِيدَةً ، وَأَيَّامًا عَدِيدَةً .
وَالنَّاسُ تَكْرَهُ ، أَنْ تَحْدُثَ بغيرِ أَجْرٍ ، خُصُوصًا فِي هَذَا الزَّمَانِ ، رُؤْسَاءُ الْأَعْيَانِ .
فَقَالَ لَهُ الْإِمَامُ ، فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ ، لَقَدْ أَوْجَبْتَ عَلَيْنَا يَدًا وَشُكْرًا ، وَمَا سَأَلْتَنَا عَلَى
ذَلِكَ أَجْرًا ، فاقترح ما تختار ، أَكَاغُفَكَ يَا مَهَارَ^(٢٠) . فَقَالَ : تَمْنِيْتُ عَلَيْكَ أَنْ أَقْبَلَ بَيْنَ
كَفَيْكَ ، فَأَنَّى لِي بِذَلِكَ ، أَنْ يُقَالَ قَبْلَ بَذَنِ الضَّحَّاكَ . فَأَعْجَبَهُ ذَلِكَ وَأَجَابَهُ وَحَسَرَ
عَنْ بَدْنِهِ ثِيَابَهُ ، وَأَدَارَ ظَهْرَهُ إِلَيْهِ ، فَقَبَّلَ لَوْحِي كَتَفَيْهِ ، ثُمَّ غَابَ عَنْ عَيْنِهِ ، وَلَمْ يَقِفْ
عَلَى أَثَرِهِ وَلَا عَيْنَهُ ، فَبَشَّحَرَدَ مَا لَتَّمَهُ ، وَمَسَّ قَمِيَّهُ جِسْمَهُ أَخَذَتْهُ حَكَّةٌ وَشِكَّةٌ ،

(١٨) قرآن كريم ، سورة القصص : ٣٥ .

(١٩) الذي لا يحير يرحى مطلقاً من ورائه ، يعني : إبليس .

(٢٠) للمهّار : الخادق في صنعتِهِ .

وَمَوْضِعٌ لَتَعْمِيهِ شَكُّهُ ، ثُمَّ عَرَجَ مِنْ مَوْضِعٍ فِيهِ سِلْعَةٌ^(٢١) ، تَلَذَّعَهُ شَرُّ لَذْعَةٍ ، وَتَلَسَّعَهُ أَجْرٌ لَسْعَةٍ ، ثُمَّ صَارَا حَيْثَيْنِ ، أَشْبَهَتَا كَيْتَيْنِ^(٢٢) ، فَصَارَ يَسْتَغِيثُ ، وَلَا مُغِيثَ ، فَطَلَّبَ الْأَطْبَاءَ ، فَأَعْيَاهُمْ هَذَا الدَّاءَ ، ثُمَّ لَمْ يَقُولْهُ قَرَارَ ، وَلَكِنْ يَأْخُذُهُ سُكُونٌ وَلَا اضْطِجَارَ ، إِلَّا بِدِمَاعِ الْإِنْسَانِ ، دُونَ سَائِرِ الْحَيَوَانِ ، فَمَدَّ يَدَ الْفَتَكِ ، وَلَاجِلِ الْأَذْمَغَةِ اسْتَعْمَلَ السَّفَكَ ، فَضَجَرَ النَّاسَ ، لِهَذَا الْبَاسِ^(٢٣) وَصَاحُوا وَنَاحُوا ، وَغَدُوا مُسْتَغِيثِينَ وَرَاحُوا . فَوَقَعَ الْإِتْفَاقُ ، بَعْدَ الشَّقَاقِ ، عَلَى الْإِقْتِرَاعِ ، لِنَقْعِ النَّزَاعِ ، فَمَنْ عَجَزَتْ قُوَّتُهُ ، كَسِيرَتْ قُرْعَتُهُ^(٢٤) ، وَأُخِذَ دِمَاغُهُ ، وَحَصِلَ لغيرِهِ فِرَاقُهُ ، فَعَاجَلُوا بِهِ الْكَيْتَيْنِ ، وَغَدُوا بِهِ الْحَيْثَيْنِ ، فَيَبُرُّ الْأَلَمُ ، وَيَنْفُ السَّقَمُ .

فَفِي بَعْضِ الْأَدْوَارِ ، خَرَجَتْ الْقُرْعَةُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَنْفَارٍ ، فَرَبَطُوا بِالْأَغْلَالِ ، وَدَفَعُوا إِلَى النَّكَالِ ، لِيَجْرِيَ عَلَيْهِمْ مَا جَرَى عَلَى الْأَمْثَالِ ، فَبَيْنَمَا هُمْ فِي الْحَبْسِ ، بَيْنَ طَالِعِ وَنَحْسِ ، وَطَرْدِ وَعَكْسِ ؛ وَقَفَ لِلضُّحَّاكِ امْرَأَةٌ وَضِيَّةٌ ، وَاسْتَغَاثَتْ بِهِ فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ ، فَأَدْنَاهَا ، وَسَأَلَ مَا دَهَاها ، فَقَالَتْ : ثَلَاثَةُ أَنْفَارٍ مِنْ دَارِ ، لَا صَبْرَ لِي عَنْهُمْ وَلَا قَرَارَ ، وَحَاشَى عَذْلُ السُّلْطَانِ ، أَنْ يَرْضَى بِهَذَا الْعُدْوَانِ : وَلَكِنِّي كَبَيْدِي ، وَأَخِي عَصْدِي ، وَزَوْجِي مُعْتَمِدِي ، وَكُلُّ مَسْجُونٍ يُسْقَى كَأْسَ الْمُنُونِ . فَرَفَقَ لَهَا الضُّحَّاكِ ، وَقَالَ : لَا يَعْصِمُهُمُ السَّهْلَاكُ ، فَاذْهَبِي يَامُغَاثَةً ، وَاخْتَارِي وَاحِدًا مِنَ الثَّلَاثَةِ ، وَجَهِّزِي إِلَى الْحَبْسِ ، لِيَقَعَ اخْتِيَارُهَا عَلَى مَنْ يَدْفَعُ اللَّبْسَ . فَتَصَدَّتْ لَهَا الزَّوْجَ وَتَمَنَّى الْخُلَاصَ مِنْ ذَلِكَ الْبُوجِ^(٢٥) فَتَذَكَّرَتْ مَا مَضَى ، مِنْ عَيْشِهَا مَعَهُ

(٢١) السِّلْعَةُ : دُودُ الْعَلَقِ ، وَهُوَ دُودٌ أَسْوَدٌ يَمْتَصُّ الدَّمَ .

(٢٢) كَوَاهِ كَيَا وَكَيْةٌ : أَحْرَقَ جِلْدَهُ بِجَدِيدَةِ عَمَّاءَ ، وَكَوَتْ الْعُقُوبَ فَلَانَا : لَدَخَتْهُ .

(٢٣) الْبَاسُ : تَخْفِيفُ الْبَاسِ ، وَهُوَ الشَّدَّةُ أَوْ الْحَنَةُ .

(٢٤) قُرْعَتُهُ بِضَمِّ الْقَافِ : النَّصِيبُ ، أَوْ الدُّورُ . وَيَفْتَحُ الْقَافُ : الرَّأْسُ .

(٢٥) الْبُوجُ : الشَّدَّةُ وَالْمَصِيبَةُ ، وَمِنْ مَعَانِيهَا أَيْضًا التَّعَبُ وَالْعَاقَبَةُ .

وانقضى ، واستحضرت طيبَ اللذات ، والأوقاتِ المستلذات ، فأتتْ إليه ، ومالتْ عليه ، فتحركتْ الأنفسُ الإنسانية ، والشهوةُ الحيوانية ، فهتتْ بطلبه ، وتعلقتْ بسببه ، فوقعَ بصرُها على ولدها ، فلذتْ كبدِها ، فرأتْ صباحةَ خدّه ، ورشاقةَ قدّه ، فتذكرتْ طفولتَيْه وصباه ، وتربيتَها إياه وحمله وإرضاعه ، وتناغيه وأوضاعه فعطفتْ عليه جوارحُها ، ومالتْ إليه جوارحُها ، فقصدتْ أن تختاره ، وتريحَ أفكاره ، فلمحتْ أحوالها باكية ، مطرقاً عانياً ، قد أيسَ من نفسه ، وتيقنَ الإقامة بحبسه ، لأنه يعلمُ أنها ، لا تركُ زوجها وأبنها ، ولا تختارهُ عليهما ، ولا تميلُ إلاّ إليهما . فأفكرتْ طويلاً ، واستعملتْ الرأيَ الصائبَ دليلاً ، ثم أدّاهَا الفِكْرُ الدقيق ، وأرشدَها التوفيق ، وقالتْ : اختارُ أخى الشقيق .

فبلغ الضحكُ ما كانَ من أمرِها ، واختيارِها لأخيها بِفِكْرِها ، فدعاها ، وسألها عن سببِ اختيارِها أحوالها ، وقالَ إِنَّ أَنتَ بِجوابِ صواب ، وهبُها إِيَّاهم مع زيادةِ الثواب ، وإنْ لم تأتِ بفائدةٍ قاطعة ، وعائدةٍ فى الجوابِ نافعة ، كانتْ فى قتلِهِم الرابعة . فقالتْ : اعْلَمُ ، واسْلَمْ ، إِنىَ ذكرْتُ زوجى وطيبَ عَشْرَتِهِ ، وأوقاتِ معانقَتِهِ ولذتِهِ ، وما مَضَى معه من حُسْنِ العيش ، وانقضَى من خَفَّةِ الأحلام والطيش ، فَمِلْتُ إِلَيْهِ ، وعولْتُ فى الطلبِ عليه ، ثم أبصرتُ ابْنى ، فتذكرْتُ مقامَهُ فى بَطْنى ، وما مضى عليه من عاطفة ، وشفقةٍ عامَةٍ فى الأيامِ السالفة ، فَهَيَّمَتْنى حُبُّهُ القديم ، وشكلُهُ القويم ، فَمِلْتُ إِلَى اخْتِيَارِهِ ، وخلصه من بَوَارِهِ ، ثم لَحْتُ أَخى المتقدمَ عليهما ، فَمِيسْتُ مقامَهُ بالنظرِ إليهما ، فقلتُ إِنى امرأةٌ مرغوبة ، قينةٌ عاقلةٌ مطلوبة ، إِنَّ راحَ زوجى فعنه بَدَل ، وَإِنْ حَصَلَ الزَوجُ وَجِدَ الوَلَدُ وحصل ، فَتَهَيَّأَ الفَرَضُ ، وَوَجِدَ عنهما العِوضُ ، وأما الأخُ الشقيق ، فما عنه

عِوَضٌ فِي التَّحْقِيقِ ، لِأَنَّ أَبَوَيْنَا مَاتَا وَفَاتَا ، وَصَارَا تَحْتَ الْأَرْضِ رُفَاتَا ، فَهَذَا الَّذِي
 آذَى إِلَيْهِ افْتِكَارِي ، وَوَقَعَ عَلَيْهِ اخْتِيَارِي ، وَأَنْشَدَهُ لِسَانُ الْقَالِ ، فِيمَا قَالَ :
 وَكَمْ أَبْصَرْتُ مِنْ حُسْنٍ وَلَكِنْ عَلَيْكَ مِنَ الْوَرَى وَلَقِيَ اخْتِيَارِي
 قَالَ : فَاسْتَحْسَنَ الضَّحَّاكُ هَذَا الْكَلَامَ ، وَوَهَّبَهَا جَمَاعَتَهَا مَعَ زِيَادَةِ الْإِنْعَامِ .

قَالَ الْحَكِيمُ وَإِنَّمَا أَوْرَدْتُ هَذَا الْمَثَلَ ، لِمَوْلَانَا الْمَلِكِ الْأَجَلِّ ، وَعَرْضْتُهُ عَلَى
 الْحَضَرِ ، وَمَسَامِعِ النَّظَّارِ ، لِيَقْلَمَ أَنَّ لِي عَنْ كُلِّ شَيْءٍ بَدَلًا ، وَأَمَّا عَنْ مَوْلَانَا
 السُّلْطَانِ فَلَا ، كَمَا قَالَ ، مَنْ أَحَادَ فِي الْمَقَالِ :

وَقَدْ تَقَوَّضْتُ عَنْ كُلِّ بِمُشَبِّهِهِ فَمَا وَجَدْتُ لِإِيَّامِ الصَّبَا عِوَضًا

وَلَيْسَ لِي عِوَضٌ إِلَّا فِي بَقَاءِ ذَاتِكَ الْخَرُوسَةِ ، وَدَوَامِ حَيَاتِكَ الْعَزِيزَةِ الْمَأْنُوسَةِ ، ثُمَّ
 إِنَّمَا أَخَافُ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ تَعَالَى أَنْ هَذِهِ الْفَتَنُ الَّتِي قَدْ أَقْبَلَتْ ، وَالْحَرَكَاتُ الدَّاهِيَةُ الَّتِي
 وَجَّهَ الْخِلَاصَ مِنْهَا قَدْ أَشْكَلْتُ ، تَسْتَأْصِلُ شَأْفَةَ أَسْلَافِنَا الْكِرَامِ ، وَتَقْرُضُ شَرَفَ
 أَجْدَادِنَا الْمُلُوكِ الْعِظَامِ ، فَاخْتَرْتُ الْعِزَّةَ لَذَلِكَ ، فَإِنَّهَا أَسْلَمُ الطَّرِيقِ وَالْمَسَالِكِ . قَالَ
 الْمَلِكُ لَقَدْ صَدَقْتَ ، إِذْ نَطَقْتَ ، وَتَحَرَّيْتَ الصَّوَابَ ، فِي الْخُطَابِ ، وَأَنَا أَتَحَقَّقُ حُسْنَ
 نِيَّتِكَ ، وَخُلُوصَ طَوِيلَتِكَ ، وَحُسْنَ وَفَائِكَ ، وَيُؤْمِنُ أَرَائِكَ ، فَإِنَّكَ أَخٌ شَقِيقٌ ،
 وَصَدُوقٌ صَدِيقٌ ، وَلَكِنْ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْوَزِيرَ ، رَجُلٌ خَطِيرٌ ، وَرَأْيُهُ مُسْتَتِيرٌ ، وَفَضْلُهُ
 غَزِيرٌ ، وَهُوَ مِنْ أَصْلٍ كَبِيرٍ ، وَلَهُ عَلَيْنَا حَقٌّ كَثِيرٌ ، وَأُرِيدُ أَنْ يَقَعَ مَا عَزَمْتَ عَلَيْهِ ،
 وَتَقَوَّضَتْ فِكْرَكَ الْمَصِيبَ إِلَيْهِ ، مَعَ مَحَاوِرَتِهِ ، وَمَنَاظِرَتِهِ ، وَمَشَاوِرَتِهِ ، فَإِنْ كُلاً
 مِنْكُمَا نَاصَحٌ مُشْفِقٌ ، وَحَكِيمٌ مُدَقِّقٌ ، وَعَالِمٌ مُحَقِّقٌ ، وَفِي مِثْلِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ ، إِذَا
 اتَّفَقَتْ الْأَرَاءُ ، وَطَالَ النَّفْسُ ، تَكَاشَفَ نَسْرُ الْقَبَسِ ، وَسُعِدَ الْبَهْجَتِ ، وَتَمَكَّنَ
 التَّخْتِ ، وَصَحَّ الْحَقُّ ، وَوَضَحَ الْأَصْدُقُ ، وَلَا سَيْمًا إِذَا كَانَ الْكَلَامُ بَيْنَ عَالِمَيْنِ ،
 وَالسُّوَالُ وَالْجَوَابُ مِنْ فَاضِلَيْنِ كَامِلَيْنِ .

قال الحكيم : أيها الملِكُ العظيم ، إذا قام الإنسانُ فى صَدْرِهِ المعارِضةُ ، وتصدَّى فى البحثِ إلى المعاكسةِ والمناقضةِ ، لاسيَّما إن كان من أهلِ الفصاحةِ واللَّسَنِ ، وساعدهُ فى ذلك الإذرائكُ الحسنُ ، لا يعجزُ أن يقابلَ الإيجابَ بالسَّلبِ ، والاستقامةَ بالقُلبِ ، والعكسَ بالطَّردِ ، والقبولَ بالردِّ ، ويكفى فى جوابِ المتكلمِ ، إذا أوردَ مسألةً لا نسلمُ ، وقد قيلَ فى الأقاويلِ : لا تنفعُ الشفاعةُ باللَّجاجِ ، ولا النصيحةُ بالاحتجاجِ . أمّا أنا فقد بذلتُ جهدي ، وأديتُ فى النصيحةِ ما عندى ، وكشفتُ عن غُدُرَاتِ التحقيقِ أسرارَ السَّيِّئِ ، وكرَّرتُ على محكِّ التصديقِ آثارَ الحكِّ ، فإِنْ وَعَيْتُمْ كلامى بسمعِ حَيٍّ ، فقد تبيَّنَ الرشدُ مِنَ الغيِّ ، وإنْ أَعْرَضْتُمْ عن عَيْنِ اليقينِ ، فلا إكراهَ فى الدينِ . فتصدَّى الوزيرُ للكلامِ ، وحَسَرَ عن ثِيَرِ بيانهِ اللُّثامَ ، وبرزَ فى ملابسِ الملاينةِ والخداعِ ، وسلكَ بِخُبْثِ الطُّبَّاعِ ، طرقَ المِلاطفَةِ والاضطِناعِ ، ودسَّ السُّمَّ فى الشَّهَدِ ، ونزلَ من البِغاعِ إلى الوَهْدِ ، وقال : الحمدُ للهِ الكريمِ ، الذى مَنَّ على مولانا الملِكِ بهذا الأخِ الحكيمِ ، الفاضلِ الحليمِ ، الكاملِ العليمِ ، الناظرِ فى العواقبِ ، ذى الرأىِ المصيبِ والفكرِ الثاقِبِ . فلقد بالغَ فى النصيحةِ ، بعباراتِهِ الصحيحةِ ، وإشاراتِهِ المليحةِ ، وكلُّ شيءٍ أبداه ، إلى المسامحِ وأنهاء ، هو الذى يرتضيه العقلُ ، ويرضه العدلُ ، ويقبله الطبعُ القويمُ ، إذ هو للنهْجِ المستقيمِ ، يترتبُ عليه الذُّكْرُ الجميلُ ، ويحصلُ به الثوابُ الجزيلُ ، لكنَّ الذى نعرفه فى حفظِ الرِّياسَةِ ، وإقامةِ ناموسِ السِّياسَةِ ، هو الذى عليه القسومُ ، فى هذا اليومِ ، وجرى عليه عاداتُ الأكابرِ ، وانخرط فى سُلُوكِهِ الأصاغرِ ، فإنَّ الزمانَ فَسَدَ ، والفضلُ فيه كَسَدَ ، وزاد فيه الحقدُ والحسدُ ، وتَشَرَّبَ المكرُ والأذى الروحُ والجسدُ ، وكلُّ فى الروغانِ ثعلبُ ، وفى العدوانِ أسدُ . وصار هذا مقتضى الحالِ ، والحمودُ من الخصالِ ، والمطلوبُ من الرجالِ ، والناسُ يدورون يزمانهم ، بقدرِ مكانهم وإنكانهم . وقد قيل : الناسُ يزمانهم ، أشبهُ منهم بأبائهم ، وبعضُ

السياسات ، عند أهلِ الرياسات ، يقتضى العقوبة بالتغريم ، وأخذَ المالَ بالترسيم ، لولا عفوُ الملكِ عن المجرم ، ما طَمِعَ كُلُّ مؤذٍ مُجرم ، ومن الحماقةِ والبَلَه ، معاقبةُ مَنْ لا ذنبَ لَهُ فَإِنَّ وَضَعَ الأشياءِ فى محلِّها ، وزِمَامَ الأمورِ والمناصبِ فى يَدِ أهلِها ، هو أخذُ قوانينِ الشرعِ والسياسة ، ومقتضى العقلِ والكياسة ، والعدلِ والرياسة ، والعقلِ والفِراسة ، والفضلِ والنفاة ، وناهيكَ أيها الحكيمُ الفاضل ، قولُ القائل :
وَمَنْ لَا يَذُّدُ عَنْ حَوْضِهِ بِسِلَاحِهِ يَهْتَمُّ وَمَنْ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ يَظْلَمُ
وما قيل :

لَا يَسْلُمُ الشَّرَفُ الرَّفِيعُ مِنَ الْأَذَى حَتَّى يُسَاقَ عَلَى جَوَانِبِهِ الْمُدْمُ
ومن مقالاتِ الملكِ أتابك ، أردشير بن بابك " رَبُّ إِرَاقَةِ دِمٍ تَمْنَعُ مِنْ إِرَاقَةِ دِمٍ "
وفى أمثالِ العربِ " الْقَتْلُ أَنْفَى لِلْقَتْلِ " وقيل :
لَقَدْ غَشِبَكَ عَمُودَ عَوَاقِبِهِ وَرِمَا صَحَّتِ الْأَجْسَادُ بِالْعِلَلِ
وهذا كُلُّهُ مصداقُ قوله تعالى ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ (٢١٦) .

[٣/١] قصة قابوس بن بشكمير

وناهيكَ ياذا القدرِ الخطير ، قصَّةُ قابوسَ بنِ بشكمير^(٢٧) . قال الحكيمُ للوزير :
أخبرنى أيها الدستورُ الكبير ، بكيفيةِ ما أنتَ إليه مُشير . قال الوزير : ذُكِرَ أَنَّ
قابوسَ بنَ بشكمير ، ذاكَ الأسدَ المنير ، قَبَضَ عليه جماعة ، كانوا جَبَدُوا أَيْدِيَهُمْ مِنْ
الطاعة ، مِنْ أَرْكَانِ دَوْلَتِهِ ، وَبُنَيَانِ صَوْلَتِهِ ثُمَّ قَبَلُوهُ وَحَبَسُوهُ ، وَأَقَامُوا وَلَدَهُ مَقَامَهُ

^(٢٧) قرآن كريم ، سورة البقرة : ١٧٩

^(٢٨) قابوس بن بشكمير أو وشكمير ملك من ملوك الديلم على جرجان وطبرستان ، قام بأعْيَاءِ الملكِ سنة ٣٦٦ هـ ولقبه الخليفةُ الطاهقُ لله "شمسُ المعالي" وقد اشتهر بالفصاحة والبيان ، وله رسائلُ خاتمة بين معاصريه ، قتل فى السجن سنة ٤٠٣ هـ .

وَأَجْلَسُوهُ ، ثُمَّ إِنَّهُمْ لَمْ يَأْمَنُوا غَوَائِلَهُ ، وَأَفْكَارَهُ الصَّائِلَةَ ، فَتَأَمَّرُوا أَنْ يَسْبِكُوهُ^(٢٨) ، وَيَعْبُدُوا إِلَى دَمِهِ فَيَسْتَفْكُوهُ ، فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ قَاتِلًا ، فَوُثِبَ إِلَيْهِ سَائِلًا ، وَقَالَ لَهُ : مَا سَبَبُ قَتْلِي ؟ وَمَنَايِهِمْ مِنْ أَجْلِي ، مَعَ كَثْرَةِ إِحْسَانِي إِلَيْهِمْ ، وَانْسِيَالِ ذَيْلِ إِكْرَامِي وَانْعَامِي عَلَيْهِمْ ، وَتَرْبِيتِي إِيَّاهُمْ كَالْأَوْلَادِ ، وَفُلْذِ الْأَكْبَادِ ، وَصَوْنِي لِإِيَّاهُمْ ، عَمَّنْ آذَاهُمْ ؟ فَقَالَ : كَثْرَةُ إِرَاقَةِ الدَّمَاءِ ، أَهَاجَتْ عَلَيْكَ الْغُرْمَاءُ ، وَكَثُرَتْ لَكَ الْخِصَمَاءُ ، لَمَّا تَغَيَّرَتْ خَوَاطِرُهُمْ عَلَيْكَ خَافُوا ، وَقَبِلَ أَنْ تُخَيَّفَ عَلَيْهِمْ خَافُوا . فَقَالَ قَابُوسُ : وَاللَّهِ مَا سَبَبُ هَذَا النُّكْرِ وَالْبُوسِ ، وَإِثَارَةُ هَؤُلَاءِ الْخِصَمَاءِ ، إِلَّا قَلَّةُ إِرَاقَتِي لِلدَّمَاءِ ! يَعْنِي لَوْ أَرَاكَ دَمَاءَ الْقَائِمِينَ عَلَيْهِ ، لَمَا وَصَلَ هَذَا الْمَكْرُوءُ إِلَيْهِ ، فَلَمَّا أَبْقَى عَلَيْهِمْ أَقْنُوهُ ، وَحِينَ تَرَكَ آذَاهُمْ آذَوْهُ .

وَلَمَّا أَوْرَدْتُ هَذَا التَّنْظِيرَ ، لِيَقِفَ خَاطِرُكَ الْخَطِيرَ ، عَلَى أَنَّ أُمُورَ الرِّيَاسَةِ ، وَقَوَاعِدَ السِّيَاسَةِ ، كَانَتْ تَقْتَضِي السُّبُكَ^(٢٩) ، وَأَحْرَى بِالْعَفْوِ وَالزَّكِّ ، وَأَمَّا الْآنَ فَذَلِكَ الْحُكْمُ قَدْ انْتَسَخَ ، وَالْفَسَادُ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ رَسَخَ ، وَقَدْ قِيلَ :

تُلْجِي الضَّرُورَاتُ فِي الْأُمُورِ إِلَى سُلُوكٍ مَا لَا يَلِيْقُ بِالْأَدَبِ
وَمَزَاجُ الزَّمَانِ قَدْ تَغَيَّرَ ، وَالْمَعْرُوفُ مِنْهُ قَدْ تَنَكَّرَ ، وَقَدْ أَعْرَضُوا عَنْ طَاعَةِ السُّلْطَانِ ، وَاتَّبَعُوا مَخَادَعَةَ الشَّيْطَانِ ، وَكُلُّ مِنْهُمْ قَدْ شَرَّخَ ، وَبَاضَ الشَّيْطَانُ فِي أُذُنِهِ وَفَرَّخَ ، وَتَصَوَّرَ لِحَيَالِهِ الْفَاسِدَةِ وَمُحَالَاتِهِ الْكَاسِدَةِ ، أَنَّهُ بِمَا يَكِيدُ ، يَبْلُغُ مَا يَرِيدُ ، وَهِيَئَاتِ وَشَتَانِ :

لَقَدْ هَزَلْتُ حَتَّى بَدَأَ مِنْ هَزَالِهَا كَلَامًا وَخَتَّى سَاقَهَا كُلُّ مُفْلِسٍ

(٢٨) أَنْ يَسْبِكُوهُ : أَنْ يَسِيلُوا دَمَهُ .

(٢٩) إِرَاقَةُ الدَّمَاءِ أَحْيَانًا بِنَاءٌ عَلَى مَقُولَةِ "الْقَتْلُ أَتَى لِلْقَتْلِ" .

وهذا كما قال الله تعالى ﴿يَعْبُدُهُمْ وَيَمْنِيهِمْ وَمَا يَعْبُدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾^(٣٠) وَمَا شعروا أَنَّ الملوكَ والسلاطينَ يَمْنَنُ اختاره الله تعالى ، وألبسه من خِلَعِ جَبْرُوتِهِ كَمَالاً وجَلالاً ، وجعلهم بِأَمْرِهِ قائمين ، وبِعَيْنِ عَنَانِيهِ مَلْحُوظِينَ ، وكما أَنَّ الرُّسُلَ والأَنْبياءَ ، والسادةَ الأعلامَ الأصفياءَ ، هم صفوةُ اللهِ مِنْ خَلْقِهِ ، ومُختاروه من خَيْرِ بَرِيَّتِهِ ، من غيرِ كَدٍّ ولا جَهْدٍ ، ولا سَغْيٍ مِنْهُمْ ولا حَدٍّ ، مَا بَرَّطَلُوا عَلَى النُّبُوَّةِ والرسالة ، ولا رَشَّوْا عَلَى نَيْلِ هذه الكرامةِ والنبالةِ ، إنما هو محضُ فضلٍ من الله تعالى وعنايته ، والله أعلمُ حيثُ يجعلُ رسالاتِهِ . كذلك الملوكُ والسلاطينَ ، والقائمون بِإقامةِ شعائرِ الدينَ ، هم مِنْ اختاره الله على خَلْقِهِ ، وأجرى على يديه لهم بِحَارِ كَرَمِهِ ورزقه . والسلطانُ ظُلُّ اللهِ فِي أرضِهِ ، يجرى بين عبيدِهِ شريعةُ نَفْلِهِ وفرضِهِ ، قال مَنْ لَهُ الخَلْقُ والأمرُ ﴿أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرُّسُلَ وَأُولِي الْأَمْرِ﴾^(٣١) وقد غفل أهلُ هذه الممالكَ ، عن السلوكِ فِي هذه المسالكَ ، وعن دركِ هذه الحقائقَ ، وأعرضوا عن الدخولِ فِي أحسنِ الطرائقَ ، وهى طريقُ المحاشمةِ ، والصفحِ والمكارمةِ ، وعدتوا المكْرَ مِنْ أحسنِ الرياسةِ ، والعقلِ والكياسةِ ، والتَّحِيلِ لأكلِ أموالِ الناسِ مِنَ الذِّكَاءِ ، ومظالمِ العبادِ مِنْ خِلَالِ الصَّدَقِ والصفاءِ ، ومملَقِهِم للملوكِ والسلاطينَ مِنْ أسبابِ الوصولِ إِلَى الأغراضِ ، مع تحسِينِ الظواهرِ وفِي البواطنِ أمراضَ ، فظواهرُهم ظواهرُ الإنْسِ ، تشتملُ عَلَى المودَّةِ والأنسِ ، وما فِيهِمْ تحتِ الثيابِ ، إِلَّا كِلَابٌ وذئابٌ ، ولأجلِ هذا سَلَطْنَا اللهُ عَلَيْهِمْ ، وَمَدَّ يَدَ بَطْشِنَا إِلَيْهِمْ نَعْمَلُهُم بِالْفِرَاسَةِ ، ونَعْمَلُ عَمَّا تَقْتَضِيهِ الكِيَاةُ وتصوُّبِهِ الآراءُ السلطانيةُ مِنْ قواعدِ السِّيَاسَةِ .

^(٣٠) قرآن كريم ، سورة النساء : ١٢٠ .

^(٣١) قرآن كريم ، سورة النساء : ٥٩ .

قال الحكيمُ حسيب ، بعدما أدرك ما فى هذا الكلام من فكر غير مُصيب : اعلمُ أيها الوزيرُ النافعُ الناصح ، والدستورُ الشفيقُ المصالح ، أنَّ الرعيةَ بمنزلةِ السرج ، والملكُ بمنزلةِ الشمسِ فى البرج ، وإذا تلاًلأ على صفحاتِ الأكوان ، وأنارَ فى وجهِ الزمانِ والمكان ، أشعةُ نورِ الشمسِ الوهاج ، فأَيُّ شعاعٍ ووجودٍ يبقى للسراج ، وأنَّ أنوارَ قلوبِ الرعايا ، وما يحصلُ لها من إشراقٍ ومزايا ، إنما هي من فيضِ أشعةِ ملوكهم ، وأنَّ الرعيةَ تتبعُ الملوكَ فى سلوكهم ، فإذا صفتُ مرأةُ قلبِ السلطان ، أشرقتُ بالطاعةِ قلوبُ الرعايا والأعوان ، بل الزمانُ والمكانُ تابعان ، لما يُضمُرُهُ وينويه السلطان . وقد قيل : إذا تغيَّرَ السلطانُ تغيَّرَ الزمان .

[٤/١] واقعة الرئيس مع بهرام جور

وهل أتاك أيها الدستور واقعة الرئيس مع بهرام جور ؟ قال الوزير : أخبرنا يا باقعة ، كيف كانت تلك الواقعة ؟ قال الحكيم : أخبرنى شيخٌ عليم ، بالفضلِ مشهور ، إن بهرامَ جور ، وكان ذا أيدٍ ، عزم على الصيد ، فخرج فى عسكرٍ حرار ، واستوى فى الصحارى والقفار ، وبينما هم قد تفرقوا فَمَا شعر ، إلَّا وقد حركت يدُ الشمالِ غربالَ المطر ، ثم تراكمَ من السحاب ، على وجهِ عروسِ السماءِ النقاب ، وانهلَّ الغمامُ المدرار ، وصارت الدنيا جناتٍ تجرى من تحتها الأنهار ، وأقبلتُ سوابقُ السيول ، تجرى فى مضمارها الخيول ، فتشتتُ العساكر ، وتشوشتُ الخواطر ، فقصد بهرام جور ، كفرأ من الكفور ، وطلب القرى من تلك القرى ، منفرداً عن عسكره ، مخفياً من خبره ، فنزل بيتَ الرئيس ، وهو رجلٌ خسيس ، فلم يَقمْ من حقِّه بالواجب ، لأنه لم يعلمْ ذلك الراكب فتشوشَ خاطره ، وتكدَّرتُ ضمائرُهُ ، وتغيرتْ عليهم نيَّته ، وإن لم تتغيرْ بشرئته . فلمَّا أقبلَ الليل ، جاء الراعى وهو يدعو بالوئيل ، ويشكو كثرةَ المحن ، من قلةِ اللبن ، وذكر أنَّ

المواشي لم تدرّ ضرعا ، مع أنّ رعيّتها كانت أحسن مرعى ، ولا وقفَ لذلك على سبب ، ولا درى كيف حالّ حالها وانقلب . وكان للرئيس بنتٌ منصوبةُ العقل على التمييز ، نبيهةٌ فى فكرها ، بديهةٌ فى قولها ، تحجّل الاقمار بخدّها ، وتقصفُ الأغصانَ على قدّها . فلما سمعتُ كلامَ الراعى ، قالت : والله أنا أعرفُ السببَ والداعى ، وهو أن السلطانَ الذى يُؤتّى حفظُ أوطاننا تغيّرت نيّته علينا ، وتقدّم ضميره بالسوء إلينا ، فظهرَ النقصُ فى ماشيتنا ، وسيتعدى ذلك إلى أنفسنا وحاشيتنا .

وقد قيل : إذا همّ الحاكمُ بالجورِ على الرعايا أدخلَ اللهَ النقصَ فى أموالهم حتى الزروع والضروع . قال أبوها : فإذا كان الأمرُ كذلك ، فلا مقامَ لنا فى هذه الممالك ، فالأركلى أن تتحوّلَ عن هذا المكان ، إلى مقامٍ لا يُضْمِرُ فيه سوءاً لرعيّته السلطان ، ونسريح فى ظلِّ حاكمه ، ونرعى فى مسارح مكارمه . كلّ هذا وبهرام ، يصنّى إلى هذا الكلام ، فقالت البنت : إن كان ولا بُدَّ من الانتقال ، واقتعادِ مطيّةِ الارتحال ، فما نصنعُ بهذه الأثقال ، والأزوادِ الثقّال ، نقدم لهذا الضيفِ منها ، يحصلُ التخفيفُ عنها ، ويقعُ بذلك فائدتان : إحداهما حسنُ المضيف ، وثانيتهما التخفيف . فامتثل أبوها أمرَ بنته ونَقَلَ إلى الضيفِ ماحواه ببيتته ، من طعامٍ وشراب ، ونَقَلَ وكباب ، وبَسَطَ بِساطَ النشاط ، وأخذَ فى دواعى الانبساط ، وانتقل من الحاشمة ، الى المكاملة والمنادمة ، وعمل بموجب ما قيل :

وما بقيت من اللسّاتِ إلا أحاديثُ الكرامِ على المُدام

فلما هجم جيشُ السكر ، وهزمَ جُنْدُ العقلِ والفكر ، تذكّر بهرامُ مجالسته وموانسته فيها ، ومخادته وما فيها ، من مغازلة الغزلان ، وأصوات الأغاني والقيان ، فأبانَتْ حشمةُ السلطنةِ عن مضمرها ، وتَفَسَّوه بشيءٍ يلوّحُ بمخيرها ، وشاقتْ نفسه إلى

معتادها ، فأعربَ شطحُها عن مرادها ، وقال للرئيس : أيها النديمُ الكيسُ ، لو كان لنا مَنْ يُطربُنَا بصوته ويهجنُنَا بصورته ، ولو أنها وصيفةٌ ، أو ذو صورةٍ لطيفة ، ولا نطلبُ زيادةً عن النظر ، وحُسنِ المفاكهةِ والسمَر ، والمنادمةِ إلى السَّحَر ، نزالَتْ وَخْشَةُ الاغتراب ، ودَهْشَةُ حِلَّةِ الشراب ، فإنه قيل : الشرابُ بغيرِ نَعَمٍ غَمٌ ، وبغيرِ دَسَمٍ سَمٌ ، وإنَّ مذهبنا ما قيل :

أَتَأْتُونَ لِحَبِّ فِي زِيَارَتِكُمْ فَإِنكُمْ فِي مَحَلِّ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ
لَا يَضْمُرُ السُّوءُ إِنْ طَالَ الْجُلُوسُ بِهِ عَفَا الضَّمِيرُ وَلَكِنْ قَامِيقُ النَّظَرِ
فنهضَ الرئيس ، وترك مذهبه الخسيس ، واستعمل المروءة ، وسلك سبيلَ الفتوة ، وأنشد يقول :

وكلُّ قِيَادَةٍ لَأَخٍ وَجَحِيلٍ بَلَا جَحِيلٍ فَتَلِكُ مِنَ الْمَرْوَةِ^(٣٧)
وَأَخْطَرُ الْبَالِ ، مائِظُمُهُ الشَّاعِرُ وَقَالَ :

بِالْإِظْمِ الشَّعْرِ فِي مَقَامٍ لَنِي يَقُودُ فَاسْمِعْ مَقَالَةَ الظُّرْفَا
أَلْفِ هَذَا حُرُوفُهُ سَمَحَتْ هِمَّةُ هَذَا فَالْفِ الْحُرْفَا

وَمِنْ مَذْهَبِ الْجَوْس ، إِبَاحَةُ فَرْجِ الْعُرُوس ، فَدَخَلَ فِي بَيْتِهِ ، وَذَكَرَ مَا جَرَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ ضَيْفِهِ لَبِيتِهِ ، وَقَالَ : أَيُّ رَبِيبَةٍ الْحَسَنِ وَالْإِحْسَانَ ، أَظُنُّ أَنْ ضَيْفَنَا مِنْ أَكَابِرِ الْأَعْيَانِ ، وَمَقَرَّهُ فِي حَضْرَةِ السُّلْطَانِ ، وَقَدْ التَّمَسَّ مِنْهُ مَا يَزِيدُ سُرُورَهُ وَيَفِيدُ حُضُورَهُ ، حُبُورَهُ ، وَلِيَهِيهِ بِمُفَاكِهِتِهِ ، وَحُسْنِ مَنَادِمَتِهِ ، وَمَاعِنَدُنَا مَنْ يَصْلُحُ لَذَاكَ ، أَيُّ مَادَةِ السُّرُورِ سَوَاكَ ، وَأَنَا أَعْرِفُ بِعَقْلِكَ وَنَزَاهَتِكَ ، وَحُسْنِ مَحَاضِرَتِكَ وَمُفَاكِهِتِكَ ، وَصِيَانَةِ رَأْيِكَ ، وَرِزَانَةِ عَقْلِكَ وَذِكَاكَكَ ، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تُتَمَعِّيهِ بِالنَّظَرِ إِلَى جَمَالِكَ ، وَتَفْتِيهِ بِعُجْجِكَ وَدَلَالِكَ ، وَلَوْ بِلَحْظَةٍ أَوْ بِلَفْظَةٍ ثُمَّ تَعُودِي إِلَى

(٣٧) الجعل : ما جُئِلَ عَلَى الْعَمَلِ مِنْ أَجَرٍ أَوْ رَشْوَةٍ .

كِتَابِكَ^(٣٣) ، بين أهليك وناسيك ، فقالت : الأمر منك وإليك ، وما أريدُ أنْ أَشُقَّ عليك ، وليس في ذلك عار ، ولا في خدمة الضيف وإكرامه شئ ، فأجابت أباها ، وكان ذلك عن رضاها ، بل جلّ قصيها ومناها ، فأقبلت إلى خدمة الضيف ، ولعبت معه من لحاظها وقدها بالرمح والسيف ، إلى أن صادته بلحظها المكسور ، فأمسى قلبه وهو في يديها مأسور ، وكان قد خرج للصيد فصيد ، وصار - مع سلطانه - لها من جملة العبيد ، ثم إنه أنشد يقول :

أرى ماءً وبى عطشٍ شديد ولكن لا سبيل إلى الزود

ثم قرّر في ضميره أنه إذا وصل إلى سريه ، يطلب هذا الرئيس ويصايره ، ويقطعه هذه القرية ويعاشره ، ويجعل بنته خُونَه^(٣٤) ، ويسلم إلى أبيها جُنْدَه ، فما استتم هذا الخاطر الخطير ، حتى جاءهم الراعى المستجير ، وقال : إن الغنم التي ما بقّت^(٣٥) بقطرة ، ولا ذرت ذرة ، قد امتلأت ضرعها القاحلة ، فها هي دارّة حافلة ، قد صارت كالسيول على السايلة ، فلم يبق وعاء إلا امتلأ ، وقد روى من الجيران الماء ، وهامى تشعب وتسيل ، وفاضت فأروت الحقيم والجليل ، وأغت الجيران ، وكأنها غدران . فقالت بنت الرئيس : لله الحمد والتقدير ، الذى أصلح نيّة سلطانتنا ، حتى استقرنا فى أوطانتنا ، وعاد علينا ما سُلِّتناه ، ورجع إلينا ما طلبناه . فعجّب بهرام جور ، من هذه الأمور ، ولما أصبح الصباح ، وركب فرسه وراح ، استقرّ فى ولايته الزاهرة ، وأمضى ما كان أنواه من

(٣٣) الكتاب : ماوى أو بيت الغلبى .

(٣٤) الخوند فى الفارسية : السيد العظيم أو الأمير ، استعملت فى العربية لقباً بمعنى السيد أو السيدة ، وتستعمل

أكثر فى مخاطبة النساء بمعنى الأميرة .

(٣٥) بقّت النعجة : رشح ضرعها بالحليب .

المصاهرة ، وأسبل عليه ذيل الإنعام ، وزاد له من الإكرام ، ما انتظم به أمره واستقام .

ولما أوردتُ هذا الخبر ، لتعلموا أن الزمان في الجحى والممر ، مطيع لما أضمر السلطان وما أظهر ، وما أحلاه في أمر رعيته وما أمر ، وقد قيل : عدل السلطان ، خير من عصب الزمان . وإذا لم يكن الملك برعيته شفيقا ، ولا باراً ولا رفيقا ، ولم يتجاوز عن مسيئهم متلهفاً لدعائهم ، مشغولاً بمحبتهم ، محسناً لمحسنهم ، قائماً بحفظ مآمنهم ، فالأولى بهم أن يهاجروا عن مملكته ، ويخرجوا عن إقليم ولايته . قال رب العالمين لنبيه وحبيه سيد المرسلين : ﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ ^(٣٦) فينبغي للحاكم أن لا يواخذ أحداً ، بجريرة أحد أبداً . قال الله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ ^(٣٧) ولو طلب أحد ، بجريرة أحد ، ولحق العرى بسبب المذنب عقوبةً ونكد ، لفسدت المملكة ، وانتشرت المهلكة ، واضطربت الرعية ، وانخرمت القواعد العلية ، ولو فعل ذلك المتقدم من الملوك ، لكلك الصعلوك ، وانسد الطريق للسلوك ، وانخرمت القاعدة على المالك والملوك ، ولم يبق للتاجر شيء ، ولا على وجه الأرض حي ، ويجب على من باشر عند الملوك أمرا من الأمور ، أو حكماً على الجمهور ، أن يكون في دينه متيناً ، وعلى الناس أمينا ، سديد الفكر ، قوي النظر ، صدوق النطق ، ظاهر الصدق ، دائراً مع الحق يقظان مراقب ، في خواتيم أمره والعواقب ، عادلاً بين الأحصام ، شفيقاً على الخاص والعام ، ثابتاً في التوازل ، معدوداً في البوازل ، مشغولاً بتهديب نفسه متذكراً يومه في غيه وأممه ، متميزاً بالشمائل المرضية على أبناء جنسه ، واضعاً

^(٣٦) قرآن كريم ، سورة آل عمران : ١٥٩ .

^(٣٧) قرآن كريم ، سورة الأنعام : ١٦٤ .

الأشياء في محلها ، مُتَفَحِّصاً بنفسه عن جلّها وقلّها ، مقيماً كلّ أحدٍ في مقامٍ لا يتعداه ، ومنصبه معلوم لا يتخطاه ، حتى تستقيم بذلك أمورُ المملكة ، وتصلّ من الوقوع في مهاوى التهلكة ، ويطمئنّ خاطرُ مخلّديه ، ويركنَ إليه في منطوقِ قوله ومفهوميّه ، فيُقبَلُ قوله وفعله ، ويُعرفُ فصله وفضله . وكذلك يجبُ أن يكونَ الملكُ كريمَ الأعراق ، لطيفَ الأخلاق شريفَ الأعلّاق ، وأن يكونَ في جميعِ أحواله متمسكاً بذيلِ أفضاله ، مراعيّاً سيرةَ أجداده من الملوك ، سالكاً طريقةَ الملوك من حُسنِ السلوك ، لأن من لا يشيدُ أركانَ أسلافه ، ولا يقوى بُنيانُ أشرافه يصيبه مثل ما أصاب الذئب ، مع الجذّي المغنى المصيب . فسأل الملكُ من أخيه ، أن يذكرَ ذلك المثلَ وينتهيه .

[٥/١] حكاية الذئب مع الجدى

فقال : بلغنى يامليك الأراض ، أنه كان في بعضِ الغياض ، لذئبٍ وجار^(٣٨) ، وأهلٍ وجار ، فخرج يوماً لطلبِ الصيد ، ونصبَ لذلك شباك الكيد ، وصار يحولُ ويصول ، ولا يقفُ على محصولٍ فأنثرَ فيه الجوعَ واللُّغوب^(٣٩) وأذنت الشمسُ بالغروب ، فصادف بعضَ الرعيان ، يسوقُ قطيعين من الضان ، وفيهما بعضُ جديان ، فهَمَّ عليها لشيئَةِ الجوعِ بالهجوم ، ثم أدركه من عَوَفِ الراعى الوجوم ، لأنه كان متيقظاً ، وعلى ماشيته متحفظاً ، فجعلَ يراقبه من بعيد ، والحرصُ والشرّةُ يزيد ، والراعى سائق ، والذئبُ عائق ، فتخلفَ جدّي ضيّ ، غفل عنه الراعى الدكيّ ، فأدركه الذئبُ النشيط ، واقتطعه بأملٍ بسيط ، وبشَرِّ نفسه بالظفر ، وطار بالفرح واستبشر ، فلمّا رأى الجدّي الذئب ، علم أنه أصيب ، بيوم عصيب ، وظفر

(٣٨) الجوار : شُرّ الضبع والأسد والذئب .

(٣٩) اللُّغوب : التعب والإعياء .

منه بأوفر نصيب ، فتدارك نفسه بنفسه ، واستحضر حيلة جأشيه^(٤٠) وحده ، ومكره بما أضمره فى نفسه ، وعلم أنه لا ينجيه من هذه الورطة الويلة ، إلا مغيث الخلداع والحيلة ، وأذكر الخاطر ، ما قال الشاعر :

ولكن أخو الخرم الذى ليس نازلاً به الخطب إلا وهو للقصد يبصر

فتقدم بجاش صليب ، وقبل الأرض بين يديّ الذيب ، وقال : مُجِّك الرعى ، لجنايك داعى ، يُسَلِّم عليك ، وقد أرسلنى إليك ، يَشْكُرُ صداقتك وشفقتك وحشمتك ومرافقتك ، ويقولُ قد تركت بحسن آدابك عادة أجدادك وآبائك ، فلم تعرض لمواشيه ، وحفظت بنظرك حواشيه ، وقد حصل لضعافها الشيع ، وأمست بجوارك أمنة من الجوع والفزع ، وحصل لها الأمن من الجزع ، فالله يجعل جوارك وغياضك أحسن مجتمع ، لأن عجاف ماشيته شبعن ورويت ، واستعشت وقويت ، فأراد مكافأتك ، وتطلب مصافاتك ومصادقتك ، فأرسلنى إليك لتأكلنى ، وأوصانى أن أطربك بما أغنى ، فبأنى حسن الصوت والغناء ، وصوتى يزيد فى شهوة الغذاء ، فإن اقتضى رأيك الأسعد ، غنيتك غناء يُنسى أبا اسحق^(٤١) ومعبد^(٤٢) ، وهو شيء لم يظفر به أبائك ولا أجدادك ، ولا يناله أعقابك وأولادك ، يقوى كرمك ، وشهوتك وقرمك ، ويطيب مأكلك ، ويسنى ماملك وإن صوتى اللئيد ، ألد للجائع من حذى حنيد ، بخبز سميذ ، وللعطشان من قدح نبيذ ، ورأيك أعلى ، وامتالك أولى . فقال الذئب : لا بأس قد أجبت سؤالك ، فغنّ ما بدا لك ، فرفع الجدّي عقيرته ، ورأى فى الصباح خيرته ، وملاً الدنيا عياطاً ، وأعقبه ضراطاً ، وأنشد :

(٤٠) الجاش : النفس أو القلب .

(٤١) اسحق الموصلى (٧٦٧ - ٨٥٠ م) عمدة المغنين ورواة الألحان فى العصر العباسى .

(٤٢) معبد بن وهب (ت ٧٤٣ م) إمام المغنين فى العصر الأموى .

وعصفورُ الهوى يَهْوَى جِراةَ كما عشقَ الحروفُ أبا جَعادة^(٤٣)

فاهتز الذئبُ طرباً ، وممايلُ عَجَباً وَعَجَباً ، وقال : أحسنتَ يا زينَ الغنم ، ولكن هذا الصوتُ من البهم^(٤٤) فارفعْ صوتَكَ فى الزئير ، فقد أخصجتَ البلابلَ والزرازير ، وزدنى ، يامغنى ، قولى :

أَقْرُ هذا الزمانُ عَيْبى بالجمع بين المثنى والمثنى

ولیکنْ ياسيدى المغنى ، هذا من أَوْجِ الحُسْنَى^(٤٥) ، فاغتنمِ الجَدْيَ الفرصة ، وأزاحْ بعباطه الغصّة ، وصرخْ صرخةً أخرى ، أذكره الطائفةَ الكبرى ، ورفعْ الصوت ، كَمَنْ عابنَ الموت ، وخرجْ من دائرة الحجازِ إلى العراق ، وكاذْ يحصلُ له من ذلك الانفتاق ، وقال :

فَسُوا نَمْ أَنْظَرُوا حَالِى أبومَذْقَةَ أَكْثَالِى^(٤٦)

فَسَمِعَهُ الراعى يشئو ، فأقبلَ بالمطراقِ يعلو ، فلمْ يشعر الذئبُ الذاهل ، وهو لحسنِ السماعِ غافل ، إلّا والراعى بالعصا على قفاه نازل ، فرأى الغنيمة فى النجاة ، وأخذ فى طريق النجاة ، وترك الجَدْيَ وأفلت . ونجا من سيفِ الموتِ المصلت ، وصعد إلى تلٍّ يتلفت ، بعد أن تفلّت ، فألقى يَأْكُلُ يَدْيِهِ ندامة ، ويخاطبُ نفسه بالملامة ، وقال : أيها الغافلُ الذاهل ، والاحمقُ الجاهل ، متى كان على سماءِ السرحان ، الغناء والأوزان ، وأيُّ جَدٍّ لَكَ قَانِى ، وأبى مفسدٍ جاني ، كان لا يَأْكُلُ إلّا بالأغاني ، وعلى صوتِ المثالِ والثانى ، فَلَوْلَا أَنْكَ مَا عَدَلْتَ عَنْ طَرِيقِ

^(٤٣) أبو جَعادة : كنية الذئب .

^(٤٤) البهم : الوتر الغليظ من أوتار المرد ، ويقابله فى آلة العود الحديثة : العشريان .

^(٤٥) الأوج : لحن من ألحان الموسيقى . والحسنى : الذى يبلل فيه أقصى الجهد والغاية والتحسين .

^(٤٦) أبومذقة : كنية الذئب .

آبائك ، ما فاتك لذيقُ غذائك ، ولا أُنسيتُ جائعاً تتلوى ، وبجمر فواتِ الفرصة
تتكوى ، وبات يحرّكُ ضرسه ونابه ، ويخطبُ نفسه لما نابه ، ويقول :
وعاجزُ الرأي مضياً لفرصته حتى إذا فات أمرُ عاتب القنطرة

وإنما أوردتُ هذا النظر ، لمولانا الملك والوزير ، ليعلم أنَّ العدولَ عن طرائق
الأصولِ ليس إلّا داعية الفضول ، ولا يساعدُه معقولٌ ولا منقول ، وأموره ذميمة ،
وعاقبته وخيمة ، وناهيك ما هو كالعلم ، ومن يشابهه أبه فما ظلم . ويؤخذُ من
مفهوم هذا الحكم ، أنَّ مَنْ لم يُشابهه أبه فقد ظلم ، خصوصاً الملوك والسلاطين
الذين اختار رفعتهم ربُّ العالمين ، وذلك لئلا يدخل على قواعدِ المملكة ، من
حركات الاختلال والاختلافِ حركته ، والله يا ذا الإحسان ما قيل فى شأن الملك
أنشروان :

للهِ ذرُ أنشروان من رجلٍ ما كان أغرفه بالوغد والسفل
نَهَاهُمْ أَنْ يُسُوا عنده قلماً وأن يدلّ به الأحرارِ بالعمل

وكلُّ هذا من عدم التدبّر ، والتأملِ فى العواقب والتذكّر ، ومَنْ ترك التأملَ
والافتكار ، أصابه ما أصاب ابن آوى مع الحمار . فقال الملك : أفدنا أيها المختار ،
كيفية هذه الأخبار .

[٦/١] قصة ابن آوى مع الحمار

قال الحكميم : كان فى جوارِ بستانٍ مأوى لابنِ آوى ، وكان ذلك البستان ،
كانه قطعة من الجنان ، غفل عنها رِضْوَان ، كثيرُ الفواكه والرطب ، خصوصاً
التين والعنب ، وكان ابنُ آوى يدخلُ البستانَ من مجرى الماء ، ويأكلُ الثمارَ
كيفما أحب وشاء ، وينصرفُ ذلك الخبيث ، يأخذُ فى الفسادِ ويعيثُ ، كأنه
ذميمٌ تركَ الذمام ، أو لئيمٌ من بني اللعام . فتضرّر البستاني ، من أضرار ذلك

الجانى ، وعجزَ عن صيده ودفع كيده ، فراقب دخوله ، لينجّله ويفعله ، إلى أن رآه يوماً دخل ، وفى البستانِ حصّل ، وبأكل العنبِ اشتغل . فبادرَ إلى نقرةِ الماءِ فسَلّها ، وسدَّ الطرقَ التى أعلّتها ، ودخل إلى الباغى ، وحصل ذلك الطباغى ، وحصره وأوهنه وضربه ، إلى أن أنحنه ، فذهبت قواه ، وشلت يداؤه ورجلاه . فتصوّر أنه مات ، لما سكّنت عنه الحركات ، فأشحطه بذنبه ورماه ، وعلى العظامِ الرفاتِ ألغاه . فاستمر لا يفيق ، ملقى على الطريق ، إلى أن تراجعت إليه نفسه ، وقوي جاشه وحسه ، فتحرّك وهو هشيم ، وتنفس وهو سقيم ، ثم تدحرج إلى منزله ، وقد أحاط به سوء عمله ، إلى أن صحَّ فهمه ، وقوي جسمه . فافتكر فيما جرى من الجارِ القديم ، عليه من العذابِ الأليم ، فقال : إذا كان جارُ العمر ، وقرينُ الدهر ، قصده دمارى ، ولم يرعَ لى حقَّ جوارى ، لأجل قوتِ فضلٍ عن أقواته ، وأثبتَ أجره فى ديوانِ حسناته ، وشدَّ لحتفى على حلقي مسدَّ الطّيب ، ولم يعملْ بقوله تعالى : ﴿والجارِ الجنب﴾^(١٧) بل لو رمى ، فى بلدى أدنى رَمَق ، أو أقلَّ حركة ، لما تركه ، فلا يخير لى فى جواره ، ولا قرب داريه ، فإن سلّمتُ هذه المرة ، فما كلُّ مرّةٍ تسَلَّمُ الجرة ، والأليق بالحالِ الرجال ، وطلبُ الرِّزْق ، بالتوكّلِ والرفق ، والذي شقَّ الأشدّاق ، تكفّل لها بالأرزاق ، وأن إله الخلق ، لم يعذبْ بقطع الرِّزْق ، ثم إنه افتكرَ فى جهةِ السفر ، وأين يكونُ المستقر .

وكان لأبيه الذميمة ذنب ، وهو صاحبٌ قديم ساكنٌ فى بعضِ الغياض ، المجاورة للودج والرياض ، فتوجّه إليه ، وترامى عليه ، وتوسل بصحابةِ أبيه لديه . وقال : صداقةً فى الآباء ، قرابةً فى الأبناء ، وذكرَ له حاله ، وما جرى له ، وأن حارّه خائنه ، ولم يرعَ حقّه ومكانه ، فقصده أن يكونَ تحتَ ظله ، نازلاً فى علّه ، ليفوزَ

(١٧) قرآن كريم ، سورة النساء : ٣٦ .

عجالسيته ، ويحظى بموانسته ، ويقضى باقي عُمره في خدمته ، ولا يفارقُ وفا حتى يحصلَ في حفرته ، فتلقيه بالقبول والإقبال ، والفضل والإفضال ، والبش والباشاشة ، والأُسْرُ والهاشاشة ، ويسط له فراشه ، وأزال قبضه وانكماشه ، ودهنه واستيحاشه ، وألبسه ريشه ، وتذكر والده ، وجدّد معاهدته ، وأسدى إليه م إحسانه ، ما أنساه ذكْر أوطانه ، انحصوباً جوارِ حاره وبستانه ، وأنشدته بديها :

فاهلاً بمحبوبٍ قديمٍ وداده وسهلاً بمن قنذ كان واللّه أبى

تقكّم على مالى وروحي ومسكى وأهلى وأولادى وجاهى ومنصى

ولم يكن عند الذئب ما يطعمه ضيقه ، ويشبع خوفه ، فاستعدّ للكيد ، وعزم على الاصطياد . فقال ابن آوى : أين تريد ، وتتركنى وأنا وحيد . فقال : أينثُ خوفك ، فأريد أن أشبع خوفك ، ومن المعلوم ، أن عدم الضيافة لوم . فقال : لاتعب : فانا أذهب ، فلى صاحب حمار ، كأنه تيس مستعار ، يُصغى إلى قولى ، ويعتمد على قوتى وحولى ، فإنى أخدعه ، وإلى دارك أشيعه ، فأوثقه حبالك ، وافعل معه ما بدا لك ، فصير لى طعاما ، فإنه يكفينى أياما . فاستصوب الذئب ، رأى ذلك المريب ، وتوجه ذلك الغدار ، ليأتيه بالحمار ، وصعد تلاً ينظره ، ويرتقب ما يكون خبره .

ولما توجه ابن آوى لطلب الزبون ، انتهى فى سيرة إلى طاحون ، وإذا بحمار قد أوثقوه حبلاً ، وأوسعوه ذلاً ، وعلى ظهره حمل قد قصم ظهره ، وأدّمس دبره ، فطرحوا حملة ، وأصلحوا جلّه ، وتركوه يسعى ، وفى المرح يرمى ، فتقدّم ابن آوى إليه ، وسلّم سلام مغرقة عليه ، وأظهر له المحبة والوداد ، وسأله عن أهله والأولاد . فقال له : آئى أهلى و ولد ، وأنا فى هذا البؤس والنكد ، ما بين حمل ثقيل ، وجوع طويل ، وركوب وسخر ، ومصائب أخر ، هذا يركب ، وهذا يضرب ، وهذا يسحب ، وهذا يحمل حملة ، وهذا ينخس بالمسلة ، وهذا يحبس

على الجوع والذلة ، وهذا يقودُ بحيله ، وهذا يردُّ بقله ، وهذا يجودُ ولكن بكلامٍ ثقیل ، فكأنِّي في مشاقِّي كما قيل :

ولا يقيمُ على ضنومٍ يُرادُ به
إلاَّ الأملان : غيرُ الحَيِّ والوَسَدِ
هذا على الحَسْبِ مربوطٌ برمتِه
وذا يُشَيِّحُ فلا يرى له أحد

فتفتح ابنُ آوى وتوجع ، وخوَّلَق^(٤٨) واسترجع^(٤٩) والتهبَ واضطربَ ، وأظهرَ التحرقُّ لما رآه من الألم ، وأخذَ يلومه على صحابةِ بني آدم ، والمصابرةِ على ما يُلجته إلى الندم ، من إيدائهم وجفائهم ، وتحملِ بلائهم ، وعدمِ وفائهم . وقال له : حَتَّامَ هذا الذلِّ ، والتطوُّقُ بها الغُلِّ ، وتحملِ أنواعِ الهوانِ من البعْضِ والكُلِّ ؟ وإلَّا مَ هذا العطشُ والجوع ، وعدمُ القرارِ والمجوع ، وأرضُ الله واسعةُ الفضاء ، شاسعةُ الأرجاء ؟ وحَتَّامَ تلوب ، من اللُّغوب ، تحتَ هذا الحِمْلِ الثقيل ، والجورِ العريض الطويل ؟ فقال : لو وجدتُ ملجأً أو مسرحاً ، أو مدخلاً أو مطرحاً ، أو مغاراتٍ أو منجحاً ، لو تَّيْتُ إليه وأنا أجمح ، وتخلَّصْتُ من هذا البلاءِ العظيم ، والشقاءِ الجسيم ، ولو رأيتُ أحداً شقيقاً ، أو مصافياً صديقاً ، يهدى إلى الخلاصِ طريقاً ، لاستغنيْتُ بآرائه ، ولاستغنيْتُ لدائي بدوائه .

قال ابنُ آوى : يَأْكُمُهُ^(٥٠) إني أعرفُ بالقربِ أجمةً ، أزهارُها فائحة ، وأنوارُها لائحة ، وأنهارُها بالضفءِ غاديةٌ ورائحة ، غياضُها نضرة ، ورياضُها خضرة ، وربابُها حصينة ، وذُرَّاهَا أَمِينَةٌ ، وأنا ساكنٌ فيها ، آمنٌ في ضواحيها ونواحيها ، فإن اقتضى رأيك ذهبتُ بك إليها ، لتقفَ عليها ، فإن أعجبكَ سَكَنُها ، ووقيتَ النَّوَابِ وأمنتها ، فإنها معزلةٌ عن السباعِ الجواسيرِ ، والضباعِ الكواسيرِ ، والجوارحِ

(٤٨) خولق : قال : لا حول ولا قوة إلا بالله (منحوتة) .

(٤٩) استرجع : قال : إنا لله وإنا إليه راجعون (منحوتة) .

(٥٠) كمة الرجل : عمي .. والأكمة هنا : الأعمى .

النواير ، لا يطرُقها إنسان ولا يدخلها حيوان ، وسرى منى حَيَرَ حار ، وحسن الجوار ، وسحمد عاقبة مقالى ، وما تراه من أفعالى ، وتخلص من جفاء بني آدم ، وتبقى فى نعيم دائم ، وتعيش معنا فى عيش رغيد ، وعمر هنيئ سعيد ، وتحصل الموائسة ، ويُمنّ المعاشرة والمجالسة ، وأما أنا فلا أجِدُ رفيقاً مثلك ، وليس لى إلى صديق غيرك مَسَلَك . فلما سمع الحمار ، هذا الحوار رَغِبَ فى الخلاص ، من الاقتناص ، والبلاء الذى هو فيه ، والشقاء الذى يولمّه ، ويؤذيه ، فسَلِمَ قيادَه إلى ابن آوى ، وقال : سِرْ بنا إلى ما ذكرْتُ من مَوى^(٥١) لئلا يرانا رَصَد^(٥٢) ، أو يشعَرَ بنا أحد . ثم أَعَجَلَا فى السير ، وأشبها فى سيرهما الطير ، فتقدّم الحمار سابقا ، وأعيا ابن آوى لأحقا ، فخلدَغَ وغالطَ وخلطَ وبالط ، ونادى الحمار : إِيَّيْ إِنْ كُنْتُ تَعَبْتُ فارْكَبْ عليّ . فقال الحمار : بل أنت اركَبْ ، ولا تتعب ، فطَفَرَ ابنُ آوى على الجمار ، وصار لا يقرُّ له قرار ، وابنُ آوى يهديه الطريق ، وهو فى نهيقٍ وشهيق ، فلما قَرَّبَا من الأجمة ، فتح عينه ذلك الأكمه ، ورفع أذانه وبصره ، فرأى الذئب قاعداً منتظره ، فعرفَ أن تلك مكيدة ، نصبها ابنُ آوى ليصيده ، فقال :

* تَابِي الْخُطُوبُ وَأَنْتَ عَنْهَا نَائِمٌ *

ثم استحضِرَ عقله المفقود ، واستعمل عقله الموجود ، وعرف أنه غَفَلَ عن نفسه ، وقد سعى برجله إلى رَمِيهِ ، وانتقل من المرض الذى هرب منه إلى نُكْسِهِ^(٥٣) ومن خموله وذله إلى تعبهِ ونُكْسِهِ^(٥٤) فردّد متفكرا ، وأقام مُتَحَرِّبًا متحيرا . فقال له ابنُ آوى : مالك ؟ اسرِعْ فقد أحسنَ الله حالك ، وأمنَ فكرَكَ

(٥١) موى : خلف مَوى .

(٥٢) الرصد : الجاسوس أو العين أو البصّاص .

(٥٣) النكس - بضم النون - عود المرض بعد النّقه .

(٥٤) النكس - بكسر النون - الضعف والشقاء .

وانعشَ بآلك ، وجعل إلى عاقبة الخير مآلك ، لعلَّ يدركنا أحد ، أو يلحقنا ضررٌ ونكد . فقال الحمار : يا أخى شاهدتُ قُذُودَ أغصانِ رَشِيقَةٍ^(٥٥) ، ونَشَقْتُ روائحَ رِيحِ عِيقَةٍ ، وسمعتُ خريزَ الأنهار ، وأصواتَ البلابِلِ والمزَارِ ، فَنَدِمْتُ حيثُ لم أقطعُ علاقتي ، وأودَعَجَ جارى ومُرافقى ، وأبَتَ مالى من التعلّقات ، وأجىءُ وما ورائى التفات ، وأنا إنْ وَبِجْتُ هذه الغيضة ، ورعيتُ مروجَ هذه الرُوضة ، ورأيتُ ما فيها من المتنزّهات ، ألَهَتْنِي عَمَّا لى من تعلّقات ، فتَضَيَّعُ إذْ ذاك مصلحتى ، وتذهبُ عند جيرانى ودائعى وذخيرتى ، ولا أقدرُ على مفارقةِ هذ المقامِ النَّزْه ، ومجاورةِ مثلك أيها الجارُّ الفَكِيه . وقد عزمْتُ على الرجوع ، لأصحبَ مالى من مالٍ وأثانٍ بجموع ، وأجىءُ وقلبي مطمئنٌ ، وخاطرى عن الالتفاتِ مستكنٌ .

قال ابنُ آوى : اتركْ مآلك ولا تؤخِّرْ أوقاتَ السرور ، وساعاتِ الفراغِ والخبور ، وما خلَّفَته فهو لك ، وتلافيه أمرٌ مستدرِك ، ولا بأسُ أنْ تدخَلَ هذا المكان ، وتدورَ فى هذا البستان ، وتتعاَهده ولو مرة ، وتشاهدَه ولو نظرة ، ثم تعود ، وتفعل ما تريد . وبالجملَةِ فتأخِّرْ أوقاتِ السرور ، غيرَ محمودٍ ولا مشكور ، فقال الحمار : الأمرُ كذلك ، وقاك اللهُ شرَّ المهالك ، ولكنَّ أقوى الدواعى فى هذه القضية ، والحاملُ على الرجوعِ وإنْ كان بليّة ، وصيّةٌ من أبى كانت عندى خفيّة ، كنتُ أعملُ بها ، وأمشى فى دربها ، ولا أفارقُها فى نومى ولا يقظتى ، وكنتُ جعلْتُها حرزاً أعلقُه فى رقبتي ، وإذا لم تكنْ معى فى مسيرى ومضجعى ، لا يقرُّ لى قرار ، ولا يأخذُنِي اصطبار ، ويعتزُّ بِنِي شَبَةُ الأوامِ^(٥٦) ،

^(٥٥) رَشِيقَةٌ : رَشِيقَةٌ منصبة .

^(٥٦) الأوام : النُّزَار .

وأرى خيالاتٍ فاسدةً في المنام ، وتغلبُ على دماغى فنونُ السوداء^(٥٧) ، ولا أجدُ منها دواءً لذلك الداء ، وفيها وصايا نفيسة ، لروح العقلِ بمنزلةِ الأعضاءِ الرئيسة ، فإذا حصلتُ على تلك الوصيةِ المعينة ، ففضيئةٌ ما سواها هيئة ، ثم ألوى راجعاً ، لا سامعاً لابنِ آوى بل طائعاً ، فافتكر ابنُ آوى أنه إذا تركَ الحمارَ وحده فَوَتَّه قصده ، وخيَّبَ اللهَ كده ، وأبطلَ حيلهَ وجهده ، فرأى لنفسه المنفعة أن يرجعَ معه ، فرعاً ينجع سعيه ، ويسلبُ من الحمارِ وعيه . فقال : يا أخى شوقتنى بهذه القضية ، إلى الإطلاع على تلك الوصية ، لأستفيدَ منها ، وأخذَ حظي من الفضلِ عنها ، فلا يُدُّ من مصاحبتك ، والذهابِ معك ومرافقتك . فقال الحمار : لا دافع ولا مشاقق ، ولا مانع أن تكونَ لى مرافق . فقال ابنُ آوى : فهل فى حفظك منها شيء ، فإن كان فآلِّقْه إليّ ، ليتذاكرَ فى الطريق ، ولا يؤثرَ فىنا التعب والضيقة . فقال : نصيحةٌ واحدة ، هى بصدقى شاهدة ، وهى كلمةٌ مجملة ، فوائدها فيها جملة ، وهى : إنَّ أبى قال لى إيتاك أن تفارقَ هذه الوصية ، فإن فارقَها وقعت فى بلية ، وسأعبرُك بسائرِها فى المسير ، إذا تذكَّرتُ أيها البصير ، ثم سار قليلاً ، وأفكر طويلاً ، وقال : وهذه أخرى سنحها ذكرى ، وارتضاها فكرى ، وهى إذا وقعت فى شدة ، ورمت للخلاص منها عذة ، فتصوّرَ أصعبَ منها ، يحصلُ لك التفتى^(٥٨) عنها ، وتهنُّ عليك ، وتعلّمها نعمةٌ أُسليتُ إليك ، فتشتغلُ بشكرِها ، وتستأنسَ بذكرِها . فقال ابنُ آوى : أحسنتَ يا حمار ، وهذا مقامُ الأخييار ، والصالحين والأبرار . ثم سار سيرةً رائدة ، وقال : والله هذه نصيحةٌ ثالثة ، فقال : قل ، واسلمَ وظلَّ . فقال لا تحسبُ أنَّ الصديقَ الجاهل ، خسرَ من العدوِّ العاقل ،

^(٥٧) السوداء : أحد الأخطا الأربعة التى اعتقد الأقدمون أن الجسم تهيأ عليها ، بها قوامه ، ومنها صلاحه وفساده ، وهى الصقراء ، والدم ، والبغم ، والسوداء .

^(٥٨) التفتى : التخلص ، والخروج منها ، والتهورين من شأنها .

فإنَّ عِلْمَ العدوِّ العاقل ، خيرٌ لك من جهلِ الصديقِ الجاهل . فقال ابنُ آوى : ما أحلى كلامك ، وأعلى في اللطفِ مقامك ، وأنزلة منادمتك ، وأفكّه مكانتك . بالله شُفِّ المسامح ، فإنِّي لك بقلبي وجوارحي سامع . فقال مهلاً حتى أتذكرها ، وأتصورها كما ينبغي وأفكرها . وانتهى أمرُ ابنِ آوى على تعسبه ، وساقه القضاء إلى رُمسِه ، فوصلَ إلى الضيعة ، وقد وقع ابنُ آوى في ضيعة ، فألح على الحمار ، فقال : أخبرني ممَّا بقي لي اصطبار ..

فقال : قال لي أبي ، بكلامٍ فصيحٍ عربي : لا تجعلَ مقامك ومقيلك ، بمكانٍ يكون فيه ابنُ آوى دليلك ، والذئبُ فيه جارك وخليك ، وإن جعلتَ لك في مثلِ هذا المكانِ ساحة ، فما ترى يكونُ لك فيه من الراحة ، وإن أردتَ أن تخلصَ من هذا المكان ، فانصبِ الآذان ، وارفعْ ذكراً لله بالآذان ، فإنه يُنجيك من الضيق . ثم رفعَ عقيرته^(٩٩) بالنهي ، فسمعه معارفُه من الكلاب ، فسارت إليه مستبشرةً بحُسنِ الإياب ، وسارعت إليه ، واجتمعت حواليه ، ممَّا شعر ابنُ آوى ، إلا وهو متورطٌ في البلوى ، فطَفَرَ للهرب ، فأدركهُ من الكلابِ الطلبُ ، فاحتوشته ، وانتوشته ، واحتطفتَه ، واقتطفتَه ، وزرَعته ومزَعته ، ومرشته ، وقرشته ، فلمْ تَبَقِ منه عَيْناً ولا أثراً ، وذهب دمه في تدبيره هدرًا .

وإنما أوردتُ هذا للثال ، وعرضته على الرأي العال ، ليعلمَ أن الاختارَ بالكلامِ محال ، والإصغاء إلى الحكاياتِ والقولِ البطال ، من غيرِ تنقُّلٍ من ألفاظها إلى معانيها ، وتأمُّلٍ في مآلِ مقاصدها وفحوايها ، والاعتمادِ على القضايا المزخرفة ، والركونِ إلى الأمور المسفسة ، لا يفيدُ سوى الندم ، وزلةِ القَدَم ، والأصلُ في

(٩٩) العقيرة هنا : الصوت ، جمع عقائر ، وهي أيضا الساق المقطوعة .

الولاياتِ والمناصبِ ، التفكّرُ في الخواصِّ والتأملُ في العواقبِ ، وإلاّ فليس في ذلك ، سوى إضاعةِ العمرِ والمصيرِ إلى المهالكِ ، وقلت شعرا :

واسعدُ مَنْ يَكْسِي الْوِلَايَةَ مَنْ إِذَا نَظَا ثَوْبُهَا يُكْسِي النَّاءَ الْمَطْرُزَ^(١٠)

فلما انتهى الكلام ، إلى هذا ، المقام ورأى الوزير ، برأيه المنير ، مافى هذه الفصول من الفضلِ دونَ الفضولِ ، اعترفَ للملكِ حسيب ، بالفضلِ الحسيبِ والرأيِ المصيبِ ، وحسنِ النصيحةِ والبيانِ ، وصحةِ الدليلِ والبرهانِ ، فأذعنَ للحقِّ ، وأتاب إلى الصديقِ وقال لقد أتيتَ النصيحةَ من بابها ، وأوصلتَها إلى طُلابِها ، وكلَّ كلامٍ قررتَه ، وبيانٍ خَرَّرتَه ، إنما هو شكرٌ أحرزْتَه ، وطريقٌ سدادٍ يَبْتَنِيها ، وسبيلٌ رشادٍ أَوْضَحْتَهَا ، وبابٌ صوابٍ فَتَحْتَه ، وميزانٌ إحسانٍ أَرَجَحْتَه ، وعلى كُلِّ عاقلٍ ، ومستمعٍ وناقلٍ ، أن يقتديَ بهذه النصائحِ ، ويوصلَها إلى السامعِ والسامعِ^(١١) ، ويغنمَ فوائدها ، وعوائلدها وموائدها ، ويعملَ بموجبها ، ولا يخرجَ عن منهجها .

ثم إن الملكَ لما أصغى إلى هذا الفصل ، وفهمَ ماتضمنته من حِكْمَةٍ وفضلٍ ، أفرغَ على أخيه ، وأهله وذويه ، لباسَ الإتياعِ ، وَوَفَّاهُ بمزيدِ الإكرامِ ، وقال : لقد قمتَ أيها الأخُ الشقيقُ ، في تدقيقِ النصيحِ بالتحقيقِ ، وحلَلْتَ المُشْكَلَ ، وجلَّوْتَ الطريقَ ، وأدَيْتَ حقَّ الفتوةِ ، وواجِبَ المروءةِ ، وشرائطَ الأخوةِ . والآنَ قد حَكَمْنَاكَ فِي وِلَايَتِنَا ، وَوَلَّيْنَاكَ عَلَى حُكَّامِنَا وَقُضَّائِنَا ، وبسطنا يَدَكَ فِي الْأَقَالِيمِ ، وأطلقنا لسانَكَ فِي التَّعْلِيمِ ، فَتَحَكَّمْ فِي الرُّؤُوسِ وَالْأَطْرَافِ ، واحكَمْ فِي الْأَفَاقِ وَالْأَكْثَافِ واشرَعْ فيما أنتَ بصديده ؛ ولا تنقيدُ بالمخالفِ وَلَدَيْهِ ، وَكُنْ مَنْشَرَحَ

(١٠) نظا الثوب : سلعه أو نزعها وقلعه .

(١١) السامع : اليعبد .

الصدر ، قويّ الظهر ، قريح العين ، مبسوط اليدين ، مبارك الطلعة ، حسن السيرة ، صبيح الوجه ، طيب القلب والسريرة ، طويل العضد والساعد ، ممدوحاً عند الغائب والشاهد ، خليّ البال ، هنيّ الحال ، فإتاك من بطن كريم ، وفخذ على الطاعة مستقيم ، وفي الفضائل ذو قدم وصدق ، وفي الصناعة ذو صنم وحذق . فلا تتوان فيما عزمت عليه ، وقصدت إليه ، من النصائح الملوكية ، والفصول العلمية والعملية ، وأتحنأ بتلك الحكيم السنية ، والخصال البهية ، والشمال للرضية ، فإنها لذة الأشباح ، وغذاء الأرواح ، والطرأ المضيء على خلج المساء والصباح .

فنهض الحكيم من محبته^(١٢) ، وقبل ثغر الأرض بنغر جبينه وفيه ، وامتلأ المراسيم الشريفة ، واشتغل بتأليف هذه الحكيم الظرفية ، وترتيبها بالعبارات اللطيفة ، واستطرد في تأليف هذه الحكيم ، من حكايات ملك العرب إلى وصايا ملك العمم . والله سبحانه وتعالى أعلم .

والحمد لله على كرمه الأتم ، وإحسانه الأعم

وطلأ الله على سيدنا محمد

وآله وصحبه وسلم

^(١٢) الجهم : المجلس حيث يلزم المجلس الأرض أو المكان ولا يورح إلا بإذن ، فهو جهم .

الباب الثاني

فِي وَصَايَا مَلِكِ الْعَجَمِ

المتميز على أقرانه بالفضل والحكم

وقال الراوى حَسَّان ، معدُّ الظرافة والإحسان : فتوجَّه الحكيمُ حسيب ،
الأديبُ الأريب ، إلى إيرادِ الأخبار ، عن الهداةِ الأخيار ، فحكى أنَّ ملكاً من ملوكِ
الأمصار ، وسلاطينِ العجمِ يُدعى شهریار ، كان من المنعم ، وكان في الجودِ
واللطفِ والكرمِ ، أمةً من الأممِ ، مثلكهُ عظيم ، وفضلهُ جسيم ، ولأيته في أحسنِ
إقليم ، حسن السياسة ، وافر الكياسة ، ثاؤه عاطر ، وعطاؤه ماطر ، ووابلُ
الحشمة من سحابهِ هبته عاطر ، وله من الأولاد ، وَلَدٌ الأَكْبَاد ، ستّة رجال ، إلى
المجدِ والكرمِ عِجال ، وكلُّ له في الفضلِ والإفضال ، أوسعُ مجال ، مشهورٌ
بالزعامة ، مخبورٌ بالشَّهامة ، كَفَّهُ سَخِيٌّ ، وكنفه أَرْحِيٌّ ، ذو شجاعةٍ باسلة ،
وبراعةٍ كاملة ، وحشمةٍ وافرة ، وهيبةٍ زاجرة ، وهمّةٌ أبْحَرُها بالمكارمِ زاجرة ، مع
رفقٍ ولين ، للصعلوكِ المسكين ، وصلابةٍ في الدين ، وكان الأكبرُ سناً منهم ،
مُتَمِّزاً في هذه السَّيَمِ عنهم ، وأعطرَ طيباً ، وأوفرَ نصيباً ، فكانه في شأنه قيل :

هذا الذي دانت الدنيا لطلعه
والدينُ والملكُ والأيامُ والأممُ

فلما دَنَّتْ شمسُ عمرِ أبيهم للأفول ، وقاربَ غُصْنُ عَيْشِهِ الذبول ، وعزمَ فِرَاشُ
الأجلِ على طيِّ بساطِ حياته ، وأوردَ بريدُ الغناءِ منشورَ تسليمه إلى متولَّى وفاته ،
أحضرَ بنيهِ ، وأكابرَ ذويه ، وقال : اعلّموا يا بنيَّ أني استوفيتُ ، نصيبى من
الدنيا وارتقيتُ ، من لذائِها إلى الدرجة العُلَيَا ، وذقتُ خُلُوها ومرَّها ، وعايَنتُ

حَرَّهَا وَقَرَّهَا^(١) وعرفتُ خَيْرَهَا وَشَرَّهَا ، ومع ارتقائى فيها إلى المنازلِ الفاخرة ، عملتُ بمقتضى "واتبغ فيما آتاك الله الدارَ والآخرة" . فترَوَدْتُ بما وصلتُ إليه اليَد ، وما أُنَحِرْتُ عملَ اليومِ إلى الغد ، ولم تلهنى الغفلة ، ولا إرخاءُ المهلة ، عن الاستحضارِ لساعةِ الرحلة ، بل لم أزلْ للرحيلِ مستوفزاً^(٢) وللتحوُّلِ والانتقالِ متجهِّزاً ، وأنا اليومَ عنكم راحل ، وسفينةُ عمرى أرسَتْ بالساحلِ ، وهذا سفرٌ لارجعةٍ فيه ، ولا عودةٍ لمسافرِكمُ إليكم تنبيه ، وهذا أمرٌ محتوم ، وقدَّرَ معلوم ، وقضاءٌ قلَّدهُ فى الأزل ، ربُّ لا يزالُ ولم يزلْ ، سلطانٌ مُلكُه لا يبيد ، وكلُّ الملوكِ تحتَ أمرِهِ عبيد ، لا رادٌ لما قضاه ، ولا مانعٌ لما أمضاه ، ولا هادٍ لما بناه ، ولا صائدٌ لما سواه ، حَكَمَ بالموتِ على مخلوقاته وساقه ، لا بابَ قوِّوفى رَدُّه ولا طاقة ، وقد خَفَّفَ مِن وَجْدى ، أَنْ لى مثلكم يجدى ، وَأَنْكُم خَلَقى ، وَمُحِبُّو سَلَفى ، وفِكم مَن يقومُ مقامى ، ولا يحوُّ أَيْامى ، ولا يدرسُ آثارى ، ولا يطفىءُ نارَ أنوارى ، وها أنا أعهْدُ إليكم ، واستخلفُ اللهَ عليكم ، وإن كنتم إلى الوصيةِ غيرَ محتاجين ، ولكن الذكرى تنفعُ المؤمنين ، واعلموا أَنَّ أَرْكَسَى زَهْرٍ تَنبُوْزُ بِهِ بصائرُ النقلِ فى رياضِ العبوديةِ وَرَدُّ الشكرِ ، وَأَرْكَسَى عِطْرِ تَعَطَّرَ بِهِ مجامرُ العقلِ فى غياضِ الحريةِ وَرَدُّ الفِكرِ ، وَأَنَّ الشكرَ قَيْدُ النِّعَمِ ، وسببُ لازديادِ الفضلِ والكرمِ . قال الله تعالى ، وَجَلَّ جَلالاً : ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾^(٣) وقد قيل : مَنْ شَكَرَ القليلَ ، استحقَّ الجزيلَ ، وَأَنَّ الفِكرَ يُعلي المقامات ، ويُعطي الكرامات . واحتلوا الأذى تأمنوا ، ولاتهنوا لئابةٍ ولا تحزنوا ، ولا تظنوا الجودَ والكرمَ فى التبذير ، والبخلِ والتقتيرِ من جُملةِ التدبير ، فَقَدْ نصب للأعلامِ أعلاماً ، مَنْ قال عَزَّ مقاماً وكلاماً :

(١) القَرَّ : البرد ، ويقصد به الشدة والحنة .

(٢) مستوفزاً ، متعجلاً ، متهيئاً .

(٣) قرآن كريم ، سورة إبراهيم : ٧ .

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾^(٤) وقال جَلَّ عَمْرًا
وعبيرا : ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا
مَّحْسُورًا﴾^(٥) وأنبهوا الأقوال الأفعال ، فلا خير في قول ليس بفعل . ولا تشوهوا
محاسن شبيكم بزخارف الكذب ، فإن الصدق أول ما ينبغي وأعظم ما يجب ،
ووسخ كلمة واحدة بالكذب ناطقة ، لا ينقيها ألف كلمة صادقة ، ومن تعود
الكذب في نطقه ، لا يعتمد على صدقه . وداروا الأغداء ، مداراة الأدواء ، يزد
صديقكم ويكثر فريقكم ، ويقل عدوكم وحسودكم ، وعليكم
بملازمة الأخيار ، وإياكم وصحبة الأشرار ، ولا تطلبوا للرغبة في صحبة الأشرار
سيلا ، ولا تقيموا على ذلك أبداً دليلاً ، فمن غالط نفسه في مجالس الأشرار ،
وطلب وفاء ممن جبل على طبيعة الفجار ، فقد أوجع نفسه بأقوى كفة^(٦) ،
وأصابه ما أصاب الفلاح مع الحية ، فسأل الأولاد واللهم المالك ، على كيفية
ذلك .

[١/٢] قصة الفلاح مع الحية

فقال : ذكر أن واحداً من الأكياس ، طلب العزلة عن الناس ، ولازم انقطاعه ،
وانقطع عن الجمعة والجماعة ، واشتغل لإقامة أورده^(٧) بالزراعة ، وانعزل في ذيل
جبل ، وصاحب حية كانت تأنس إليه بكلامه ، وتأكل من فضلات طعامه .
فترقت بينهما المعاهدة ، إلى أن بلغت إلى المعاهدة ، بأن تكون صادقة ، خالية عن

^(٤) قرآن كريم ؛ سورة الفرقان : ٦٧ .

^(٥) قرآن كريم ، سورة الإسراء : ٢٩ .

^(٦) الكفة : موضع الكي ، وهي هنا بمعنى الكي .

^(٧) أقام أورده : قوم امرجانه ، حفظ حياته .

المماذقة^(٨) ، ولا تكون كصحية أبناء الزمان ، تكثرُ من الغدير في عُذران ، ولا مشوبة بنفاق ، ولا مدخولة برياء وشقاق ، وأن تتعقد بينهما المودة والإنحاء ، في حالتَي الشدة والرخاء ، فمراً على هذا مئدة ، وكلُّ حافظ عهدته ، مراعي صحبته وودّه ، وكان الرجل إذا عنت له قضية ، عرضها على الحيّة ، واستشارها ، وأخذ أخبارها ، وتخرّج هي إليه ، وتقوامي على رجلتيه . ففى بعض الأيام ، وعام من الأعوام ، وقع برّد شديد ، وثلجٌ وجليد ، فرأى الحيّة وقد سقطت قواها ، وحمدت أعضائها ووقعت في شرّ حال ، وبردٍ ووبال ، فحملته الشفقة والصدّاقة ، والعهد الذي أحكما وثاقه ، على أن آواها ، وحملها في مخلّاة بجماره وأدناها ، ووضع المخلّاة في رأس البهيم ، وتوجّه لضرورة ذلك الفهيم ، فحسّت الحيّة بنفس أبى زياد^(٩) ، وتحرك عرق العُدوان القديم وعاد ، وفعل خبثها خاصيتَه المألوفة ، ولعب سُمها سُميتَه المعروفة ، متبعاً حديسه ، حراماً على النفس الخبيثة ، أن تخرج من الدنيا ، حتى تُسيء لمن أحسن إليها : فعضّت الحيّة شفة الحمار الرقيقة ، عضّةً مُجسِبٍ لاقى في خلوة عشيقه ، وبرّد مكانه من حرّها ، وهربت الحيّة إلى جحرها .

إنما أوردتُ هذا المثال ، لتعلموا ياذوي الأفضال ، أن من صَحِبَ الأشرار ، ورغبَ في مودة الفجار ، لا يأمن العثار ، ولا يسلم من الانكسار والبوار . وقد قيل : إنَّ صحبة الأخيار ، كحجرة النّضار ، بطيئة الانكسار ، سريعة الانجبار ، وصحبة الأشرار ، كحجرة الفجار ، سريعة الانكسار ، بطيئة الانجبار . وبالجملّة فما في صحبة الناس فائدة ، ولا في مخالطة الناس كبيرُ عائدة ، وقد قيل :

وَلَمْ تَرَيْنِ فِي الدُّنْيَا سَلاماً فَإِنْ تَرَاهُ فَاتَّبِعْهُ سَلاماً

^(٨) للمماذقة : الغش والنفاق والكذب .

^(٩) كنية الحمار .

ويُنْغِي أَنْ تَكُونَ غَيْبَتُكُمْ وحُضُورُكُمْ ، وَأَحْوَالُكُمْ وَأُمُورُكُمْ ، واجْتِمَاعُكُمْ وفِرَاقُكُمْ ، وصالُكُمْ وشِقَاقُكُمْ ، فَيُحَالِثُ السَّرَّاءَ والضَّرَّاءَ ، والبُوسَ والرَّخَاءَ ، على وتيرَةٍ واحدة ، وهِيَ الحَالِيَةُ عَنِ الْأَغْراضِ الفَاسِدَةِ ، أعْنَى إِذَا رَضِيتُمْ فَبِالْحَقِّ ، وَإِذَا غَضِبْتُمْ فَلِلْحَقِّ ، وَإِذَا تَوَجَّهْتُمْ فَلِلْحَقِّ ، وَلَا تَبْطُرُوا فِي حَالَةِ النَّعَمِ ، وَلَا تَضْجُرُوا فِي حَالَةِ النَّعَمِ ، وعلى كُلِّ حَالٍ ، فَلَا يَقَعُ بَيْنَكُمْ اخْتِلَالٌ ، وَذَلِكَ بِتَفَرُّقِ الكَلِمَةِ واختِلَافِهَا ، وتَصَادِمِهَا وعدمِ اتِّلَافِهَا ، فَإنَّهُ قِيلَ :

إِنَّ الدَّلِيلَ الَّذِي لَيْسَتْ لَهُ عَضُدٌ مِثْلُ الْوَحِيدِ بِلَا مَالٍ وَلَا عَدَدٍ

وقيل أيضا :

كُونُوا جَمِيعاً يَا بَنِي إِذَا اغْتَرَى خَطْبٌ وَلَا تَفَرَّقُوا أَجْسَادُ

ثَابِي الْقِدَاحُ إِذَا جُوعِنَ تَكْسَرُ وَإِذَا الْفُرْقَن تَكْسَرَتْ أَفْرَادُ^(١٠)

وَلَا تَتَّقُوا بِأَحَدٍ مِنَ الْكِبَارِ وَالصَّغَارِ ، إِلَّا بَعْدَ الْاِخْتِبَارِ ، فِي الشَّلَّةِ وَالضَّعْفِ ، وَالرَّفَقِ وَالْعُنْفِ ، وَالْبُوسِ وَالرَّخَاءِ ، وَالْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ . وَلَا تَقْلُدُوا عَلَى قَدِيمِ الْأَصْحَابِ أَحَدًا ، وَلَا عَلَى الْمُتَوَقِّعِ بِهِمْ مَنْ لَا حَرَبَتُمُوهُ أَبَدًا ، وَقَدْ قِيلَ فِي الْمَثَلِ الْمَشْهُورِ : " النَّحْسُ الْمَعْرُوفُ خَيْرٌ مِنَ الْجَيِّدِ الْمُنْكَوَرِ " . وَقِيلَ أَيْضًا " خَيْرُ الْأَشْيَاءِ جَدِيدُهَا وَخَيْرُ الْأَصْحَابِ قَدِيمُهَا " . وَأَسَّسُوا قَوَاعِدَ أَخْرَاجِكُمْ ، فِي دُنْيَاكُمْ ، وَاسْتَغْنَمُوا السَّعَادَةَ الْبَاقِيَةَ ، مِنَ الدَّارِ الْفَانِيَةِ ، وَعَامَلُوا بِجَدِّهَا ، وَازْرَعُوا تَحْصُلَهَا ، وَتَفَكَّرُوا مِنْ أَوَّلِ يَوْمِكُمْ ، أَحْوَالَ عَزِّكُمْ ، وَمِنْ أَوَّلِ غَمِّكُمْ ، أَوَاخِرَ دَهْرِكُمْ ، وَمِنْ لَيْلَةِ الْهَلَالِ سَرَّارِ^(١١) شَهْرِكُمْ . فَكُلُّ مَنْ لَهُ صِدْقٌ قَدَمٌ ، يَتَفَكَّرُ وَهُوَ مَوْجُودٌ حَالَةَ الْعَدَمِ ، وَمِنْ زَمَانٍ شَبَابِهِ حَالَةَ الْهَرَمِ . كَمَا فَعَلَ التَّاجِرُ الْمَرَاقِبِ ، وَمَا آلَ إِلَيْهِ

(١٠) فِي رِوَايَةِ أُخْرَى :

ثَابِي الْعَصِي إِذَا اجْتَمَعْنَ تَكْسَرُ وَإِذَا الْفُرْقَن تَكْسَرَتْ آحَادُ

(١١) سَرَارُ الشَّهْرِ : آخِرُ لَيْلَةٍ فِيهِ ، حَيْثُ الْفَلَاحُ دَامَسَ .

فى العواقب.، فقَبِلَ الأرضَ الأولاد ، وقالوا مولانا السلطانَ أعظمُ مَنْ أفاد ، لو تصدَّقَ على عبيدِه الطائعة ، ببيانِ تلك الواقعة .

[٢/٢] قصة التاجر المراقب والغلام (وتفسيرها الرمزى)

قال الملك : ذكر الحكماء ، وذوو الفضل من العلماء ، أنه كان فى بعض الأمصار تاجرٌ من أعيانِ التجار ، ذو مالٍ جزيل ، وجاءه عريسٌ طويل ، ونعمة وافرة ، وحشمٌ وخدمٌ متكاثرة . من جملةِهم غلامٌ مخاضيلُ السعادةِ من جبينه لائحة ، وروائحُ النجابةِ من أذبالٍ شمائله فائحه ، قد أفنى عُمرَه فى خدمةِ مولاه ، ولم يُقصرَ لحظةً فى طلبِ رضا . فقال له سيِّدُه فى بعضِ الأيام : لك عليَّ حقٌّ يا غلام ، وأنا أريدُ مكافأتَكَ^(١٧) ، وأطلبُ موافاتَكَ ، فتَوَجَّهَ هذه المرة ، فى هذه السفرة ، فمهما رحمتَ فهو لك ، بعد أنْ أُعْثِقَكَ ، مِنْ قَيْدِ رِقِّ أَشْغَلَكَ ، ثم أَوْسَقَ مركبا ، وفسَّحَ له فى السيرِ شرقاً ومغرباً ، ووَصَّاهُ بأشياءَ اعتنلَ مرسومها ، والتزمَ منطوقها ومفهومها . فقال له مولاه : سأرفقُك على أضرابِكَ ، وأغنيكَ عن أمثالك وأصحابِكَ ، وأجعلُكَ كأكبرِ مَنْ فى الدنيا ، وجميعِ رفقتِكَ بمنزلةِ المولى . ثم أخذَ فى تَعْيِيَةِ البضائع ، وأوسَقَ مركبةَ التاجرِ والمنافع ، وسَلَّمَه إلى الهواءِ والماء ، بعد أنْ تَوَكَّلَ على ربِّ السماء . فسارَ بعضَ أيام ، وهو فى أهْنَى مرام ، وأطيبِ عيشٍ ومقام ، الماءِ رائق ، والهواءُ موافق ، والنكدُ مفارق ، والسُرورُ مرافق ، حتى كأنه نوحٌ ويحضرُه الملاح ، وموسى وفناه حافِظُ الألواح ، وبينما السفينة ، من نسفِ العواصفِ أمانة ، تُجارى السَّهْمَ والطير ، وتُبارى اللُّهُمَّ فى السير ، فإذا بالرياحِ هاجت ، والأمواجِ ماجت ، وأشباحِ البحرِ تصادمت ، وأطوارِ الأمواجِ على العرفاءِ

^(١٧) مكافأتكَ (عطفة) .

تلاطمت ، فعمز ذلك الملاح والحافظ ، ونشر مذهب ابنه أبو الجاحظ ، وترك سيمة الوقار والسكينة ، ورقم نقش الحروف في ألواح السفينة ، فشاهدوا من ذلك الهواء الأهول ، وغدا قاع البحر كالجبال ، وصار ذلك الغراب^(١٣) ، بمن فيه من الأصحاب ، كأحوال الدنيا بين صعود وهبوط ، وقيام وسقوط ؛ طوراً يستامنون الأفلاك ، ويناجون الأملاك ، وينهون أخبار ظلمات صاحب الحوت إلى السماء ، وطوراً يهبطون القور ، وينظرون قرن الثور ، وربما مرقوا منه من تحت الزور ، فلم يزالوا عاجزين حيارى ، سكارى وما هم بسكارى ، يتناشدون :

وَقُلْكَ رَكْبَاءَ وَالْبَحْرِ ذُو هَوَاءَ فَتَارِ وَحَارٍ وَمَارِ
فَطُوراً عَلَوْنَا السَّمَاءَ وَطُوراً رَقَّتْ أَرْضُهُ مِنْهُ الْمَحَارِ

وآخر الأمر نسفت السفينة الرياح ، وألقى كاتب الحاصي إلى كل حرف من حروف الجبال لوحاً من الألواح ، وأمر الله سهلها ، وخرقها فأغرقها وأهلها ، وذهب البحر بأموالها وأزواجها ، وتعلق الغلام بلوح من ألواحها ، واستمر تقذفه الأمواج ، وتصدم به أنباج البحر الهياج ، إلى أن وصل إلى ساحل ، فخرج وهو كتيب نازل ، وصعد إلى جزيرة ، فواكبها غزيرة ، ووصفها عجيب ، ليس بها داع ولا مجيب . فجعل يمشي في جنباتها إلى أن أداه التوفيق ، إلى فم طريق ، فسار في تلك الجادة ، وهداية الله له مائة ، فانتهى به المسير ، إلى أن تراءى له سواد كبير ، وبلغ مملكة عظيمة ، وولاية جسيمة ، ورأى على بُعد مدينة مسورة حصينة ، فعمد إلى ذلك البلد ، وتوجه نحوها وقصد . فاستقبله طائفة من الرعال^(١٤) ، نساء ورجال ، يتبعهم جنود مجندة ، وطوائف محشدة ، مع طبول تضرب ، وفوارس تلعب ، وزمور ترعق ، والسنة بالثناء تنطق ، حتى إذا وصلوا

(١٣) الغراب : نوع من السفن .

(١٤) الرعال جمع رعاة ، وهي الجماعة التي تتقدم غورها .

إليه ، تراثوا عليه ، وأكبوا بين يديه ، يُقبَلون يَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ ، مستبشرين بِرُؤْيَيْهِ ، مُتَبَرِّكين بِطَلْعَتِهِ ، ثم ألبسوه الخِلْعَ السَّنِيَّةَ ، وقَدَّموا له فرساً عَلِيَّةً ، بكنبوشٍ ذهب ، وسرجٍ مغرق ، ووضعوا له التاجَ على المَفْرِقِ ، ومشواً فى الخُدْمَةِ بين يديه ، والجنائبُ فى الموكبِ تُجرُّ لَدَيْهِ ، ينادون حاشاك وإليك ، سلطانُ الناسِ قادمٌ عليك ، حتى وصلوا إلى المدينة ، ودخلوا قلعَتَها الحصينة ، ففرشوا شَقَقَ الحَرِيرِ ، ونثروا النثارَ الكثيرَ ، وأجلسوه على السَيرِ ، وأطلقوا بحاميرَ النَّدِّ والعَبرِ ، ووقف فى خدمتِهِ الصَّغِيرُ والكَبِيرُ ، والمأمورُ والأَمِيرُ ، والدستورُ والوزيرُ ، وأنشدوه :

قَبِلْتُمْ قَدُومَ الْبَدْرِ بَيْتَ سَعُودِهِ وَأَمْرُكُ فِينَا صَاعَةً كَصَعُودِهِ

وقالوا : اعلمْ يا مولانا ، أنك صرْتَ لنا سلطانا ، ونحن كُلُّنا عبيدُكَ ، وتابعُو سرادَكَ ومريدَكَ ، فافعلْ ما تَحْتَارُ ، وَتَحْكُمُ فى الكِبَارِ مِنَّا والصَّغَارِ ، وأمرْ مَا لَكَ مِن مَرْسُومٍ ، فامتثلْهُ علينا بحُتْمٍ ، وما مِنَّا إِلَّا له مقامٌ معلوم . فجعلَ يُتَفَكَّرُ فى أمرِهِ ومَبْدَاهِ ، ويتأمَّلُ مآصارَ إليه ويتدبرُ فى مُنتَهَاهِ ، فقال : إِنَّ هَذَا الأَمْرَ لَا بَدْلَ لَهُ مِن سَبَبٍ ، وَلَا بَدْلَ لَهُ مِن آخِرٍ ومُنْقَلَبٍ ، فَإِنَّهُ لَمْ يَصُتَرْ فى عَالَمِ الكَوْنِ سُدَى ، وَإِنْ لِهَذَا اليومِ مِن غَيْرِ شَلْكَ غِيبَا ، وَإِنْ الصَّانِعُ القَدِيمُ ، القَادِرُ الحَكِيمُ ، السَّمِيعُ العَلِيمُ ، البَصِيرُ الحَيُّ المُرِيدُ الكَرِيمُ ، لَمْ يُقَلِّدْ هَذِهِ الأَفْعَالِ عَلَى سَبِيلِ الإِهْمَالِ ، وَلَمْ يُحْدِثْ حَدَثًا ، لِيُغَيِّرَ وَلَا يُعَيِّرَ ، وجعلَ يَلَازِمُ هَذِهِ الأَفْكَارَ ، آنَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ قَائِمٌ بِشُكْرِ النِّعْمَةِ ، ملازِمٌ بَابَ مَوْلَاهُ بِالطَّاعَةِ والخِدْمَةِ ، واضِعٌ الأَشْيَاءَ فى عَمَلِهَا ، والمَنَاصِبَ فى يَدِ أَهْلِهَا ، مُتَنَفِّسٌ إِلَى أَحْوَالِ الرِّعْيَةِ ، عَامِلٌ بَيْنَهُمْ بِالْعَدْلِ والسَّوِيَّةِ ، مُتَعَهِّدٌ أُمُورَ الكِبَارِ والصَّغَارِ ، بِأَنْوَاعِ الإِحْسَانِ وَأَصْنَافِ الْمَسَارِ ، مُوسِّسٌ قَوَاعِدَ الْمَمْلَكَةِ وَالسُّلْطَنَةِ ، عَلَى أَرْكَانِ الْعَقْلِ وَالْعَدْلِ مَهْمَا أَتَتْهُ ، مُتَفَحِّصٌ عَنْ مَصَالِحِ الْمَمْلَكَةِ ، سَالِكٌ مَعَ كُلِّ مَنٍ أَرْبَابِ الْوُظَائِفِ مَا يَقْتَضِي مَسْلَكَهُ .

ثم وقع اختياره من بين أولئك الجماعة ، على شابٍ حليّلِ البراعة ، له فى سوقِ
الفضلِ والوفاءِ أوفرُّ بضاعة ، مُتَّصِفٌ بأنواعِ الكمال ، متحلٌّ بزينَةِ الأدبِ
والجمال ، فاتَّخَذَهُ وزيراً ، وفى أمورِهِ ناصحاً ومشيراً ، فجعلَ يلاطفُهُ ويرضيه ،
ويكرمه ويدنيه ، ويفيضُ عليه من ملبسِ الإنعام ، ويخْلِجُ الأفضالَ والإكرام ، ما
مَلَكَ به حُبُّ قلبه ، واستصَفى خالصُ ودِّه لِّبه ، وسكَنَ فى سويدائِهِ ، وثمَّنَ به من
ضميرِ أحشائِهِ ، إلى أن احتلَى به ، وتلَطَّفَ فى خطابِهِ ، واستصَحَّه فى جوابِهِ ،
وسأله عن أمرِ إمرَأَتِهِ ، وموجِبِ رَفْعَتِهِ وسُلْطَنَتِهِ ، من غيرِ معرفةِ الرفاق ، ولا أهْلِيَّةِ
ولا استحقاق ، ولا هو من بَيْتِ السُّلْكَ ، ولا فى بحرِ السُّلْطَنَةِ له قُلُوك ، ولا معه
مال ، ولا خيلٌ يُهْدِيها ولا رجال ، ولا معرفةٌ يُدَلِّ بها ، ولا شجاعةٌ وفضيلةٌ
يَهْتَدِى بتهذيبِها . فقال ذلك الشاب ، فى الجواب : اعْلَمْ أَيُّهَا الْمَلِكُ الْأَعْظَمُ ، أن
هذه البِلْدَةُ ، وعساكرُ إقْلِيمِها وجندُهُ ، قد احتَرَعُوا أمراً ، واصطَلَحُوا على عادَةٍ
أخرى ، سألوا الرحمن ، أن يُقَيِّضَ لهم فى كُلِّ أَوَان ، شخصاً من جنسِ الإنسان ،
يكونُ عليهم ذا سُلْطان ، فأجابَهُم إلى ذلك ، فسلَكُوا فى أمرِهِ هذه المَسالك ،
وذلك أَنَّهُم فى اليومِ الَّذِي قَدِمْتَ عَلَيْهِم ، يرسلُ اللَّهُ تعالى رجلاً من عالمِ الغيبِ
إليهم ، فيستقبلونه كما استقبلوك ، ويسلكون معه طريقةَ الملوك ، من غيرِ نقصٍ ولا
زيادة ، وقد صارتُ هذه لهم عادة ، فيستمرُّ عليهم سنةٌ فى هذه المرتبةِ الحسنة .
فإذا انقضى الأجلُ المَعْدود ، وجاء ذلك اليومُ الموعود ، عمدوا إلى ذلك السلطان ،
وقد صارَ فيهم ذا إمْكانٍ ومكان ، وعلَقَ ونشَبَ ، وإخاءٍ ونسب ، وثَبَّتَ له
أوتاد ، وصارَ له أهْلٌ وأولاد ، وجرَّوه برجلِهِ من التَّخْتِ^(١٩) ، وسلبوه ثوبَ العزَّةِ

(١٩) التخت : سرير الملك .

والرَّحْتَ^(١٧) ، والبسوه ثوبَ الذِّلِّ والنَّكَالِ ، وأوثقوه بالسلاسلِ والأغلالِ ، وحمّله
الأهلُ والأقارب ، وأثروا به إلى بحرٍ قريبٍ فوضعه في قاربٍ ، وسلموه إلى مُوكِّلين
ليوصلوه إلى ذلك الجانب ، فيوصلونه إلى ذلك البرِّ ، وهو قَفَرٌ أغبر ، ليس به أنيسٌ
ولا رفيق ، ولا جليسٌ ولا صديق ، ولا زادٌ ولا ماء ، ولا نشوءٌ ولا نساء ، ولا
مغيثٌ ولا مغين ، ولا قريبٌ ولا قرين ، ولا قدرةٌ ، ولا إمكّانٌ ، على الوصولِ إلى
العمران ، ولا ظِلٌّ ولا ظليل ، ولا إلى الخلاصِ سبيل ، ولا إلى طريقِ النجاةِ دليل ،
فيستورُ هناك غُرَيَّاناً وحيداً ، فريداً طريداً ، إلى أن يهلكَ عطشاً وجوعاً ، لا يملكُ
إقامةً ولا يستطيعُ رجوعاً .

ثم يستأنفُ أهلُ هذه البلاد ، ما لهم من فعلٍ معتاد ، فيخرجون بالأهبةِ الكاملة ،
إلى تلك الطريقِ السابلة ، فيقيضُ الله تعالى لهم رجالاً ، فيفعلون معه مثلَ ما فعلوا
مع غيره قولاً وعملاً ، وهذا دأبُهُمْ وَتَدْبَرُهُمْ ، وقد ظهر لك ظاهراً وباطناً .
فقال ذلك الغلامُ الأملح ، لذلك الوزيرِ المصلح : فهل اطلعَ أحدٌ مِنَّكَ تقدّم ، على
عاقبةِ هذا المأثم ؟ قال : قد عَرَفَ ذلك ، وتحقّقَ أنه عن قريبٍ هالك ، ولكنَّ غرورَ
السلطنةِ يُلْهِمُه ، وسرورَ التحكّمِ والتسلّطِ يُطْغِيه ، وحُضورُ اللذةِ الحاصلةِ لسوءِ
العاقبةِ يُنْسِيه ، ولا يفيقُ من غفلته ، ويستيقظُ من رقدته ، الآ وعاشه قد مضى ،
والأجلُ للمضروبِ قد انقضى ، وقد أحاطت به نوازلُ البلاء ، وهجمَ عليه بوازلُ
القضاء^(١٨) فيستغيثُ ولا مغيث ، وينادى بالخلاصِ ولأتَ حينَ مَنَاص . فلما سمعَ
الغلامُ ، هذا الكلامَ ، أطرقَ مُفَكِّراً ، وبقي مُتَحَيِّراً ، وعلمَ أنه لا بُدَّ للأيامِ أن
تمضي ، وهذا الأجلُ للمضروبِ ينقضي ، وأنه إن لم يتدارك أمره ، ويتلافَ غيظه

^(١٧) الرحمت : الزينة ، الأثاث والرياش ، ثياب الأمراء والسلاطين .

^(١٨) بوازل القضاء : أضيائه ونوائبه .

وشره ، وتبدّر حاله ، ومصيره ومآله هلاك الأبد ، ولم يشعر به أحد . فأخذ يفكر في هذا الخلاص والتفصي^(١٨) من شرك الاقتصار .

ثم قال للوزير الناصح الخبير : أيها الرفيق الشفيق ، والنصوح الصديق ، جزاك الله خيراً ، وكفاك ضيقاً وضيقاً . إني قد فكرت في شيء ينفع نفسي ويحييها ، ويدفع شر هذه البلية التي وقعت فيها ، وأريد معاونتك ، وأطلب مساعدتك ، فإنني رأيتك في الفضل متميزاً بين أقرانك ، فائقاً في محاسن الشيم على أصحابك وإخوانك . فقال : افعل يا ذا الزعامة ، وجباً لك وكرامة . قال : اعلم أيها صاحب الأعظم ، أن الرجوع إلى هذا المكان الذي كنت فيه خارج عن الإمكان ، والإقامة في هذا السلك المعهود ، إنما هي إلى أجلٍ معدود ، ووقتٍ محدود ، وانقضاؤه على النبات^(١٩) ، وكل ما هو آتٍ ، وكيفية الخروج قد عرفت ، وطريقها قد تقدرت ووصفت ، ولهذا قيل يا ذا الفضل الجزيل ، دخلنا مضطرين ، وأقمنا متحيرين ، وخرجنا مكرهين ، ولم يتجده مخلص ، من هذا المقص ، إلا طريق واحد ، وسبيل غير متعاود . وهي أن تأخذ طائفة من البنائين ، وجماعة من المهندسين والتجارين ، وتذهب بهم أيها الوزير ، إلى مكانٍ إليه نصير ، فتأمرهم أن يبنوا لنا هناك مدينة ، ويشيدوا لنا فيها أماكن مكيّة ، ومخازن وحواصل ، وعملوها من الزاد المتواصل ، من المأكيل الطيبة ، والأطعمة والأشربة ، اللذيذة المستعذبة . ولا تغفل عن الإرسال ، ولا تحترق الإسهال والإهمال ، في الظهيرة والأسحار والغدور والآصال ، إذ أوقاننا معدودة ، وأنفاسنا معدودة ، وساعة تمضي منها غير مردودة ، وإذا فات شيء من ذلك الوقت ، فلا نعوض عنه إلا الحية والمقت ،

(١٨) التفصي : التخلص .

(١٩) النبات : التاكيد والقطع ، يقال بت الشيء بته وبثانا : قطعة مستأصلاً .

فننقل هناك ما يكفيننا على حسب طاقتنا ، ومقدار قدرتنا واستطاعتنا ، فإذا تزودنا منها ، لم نرحل عنها ، بحيث إذا نقلنا من هذه الديار ، وطرحنا في تلك المهامية^(٢٠) والقفار ، وجفنا الأصحاب ، وتخلى الأخیلاء عنا والأحباب ، وانكرنا المعارف والأوداء ، واحتوشتنا في تلك البيداء فنزل الداء ، نجد ما نستعين به على إقامة الأود ، مدة إقامتنا في ذلك البلد .

فأجاب بالسمع والطاعة ، واختار من المعمارية جماعة ، وأحضر المراكب ، وقطع البحر إلى ذلك الجانب ، وجعل الملك عندهم بالآلات والأدوات ، على عدد الأنفاس ومدى الساعات ، إلى أن أنهى المعمارية العمارة ، وأكملوا حواصل الملك وداره ، وأجروا فيها الأنهار ، وغرسوا فيها الأشجار ، فصارت تأوى إليها الطيور بالليل والنهار ، ويترجم فيها البلبل والحرار ، بأنواع التسييح والذكور ، وغدت من أحسن الأمصار ، وبنوا حوالها الضياع والقرى ، وزرعوا منها الوهاد والثرى . ثم أرسل إليها ما كان عنده من الخزائن ، ونفائس الجواهر والمعادن ، وأرسل من ظرفير التحف إليها ، ومن حاجاته المعول عليها ، بحيث لو أقام بها سنين قامت بكفائته ، وفضلت عزائتها عن حاجته ، وأكثر من إرسال ما يلزم من الأدوات ، والأشربة والمطعمات ، وجهز الخدم والحشم ، وصنوف الاستعدادات من النعم .

فما انقضت مدة ملكه ، ودنت أوقاته هلكه ، إلا ونفسه إلى مدينته تافت ، وروحُه إلى مشاهدتها اشتاقت ، وهو مستوفز للرحيل ، ورايض للنهوض والتحويل . فلما تكامل له في الملك العام ، لم يشعر إلا وقد أحاط به الخاص والعام ، بمن كان يقدِّم بوجهه ، من خاديه ونصوحه ، ومن كان سامعاً لكلمته ، من أعيان حُدَّيه وحشمته . وقد تجردوا لخدمته من السرير ونزع ما عليه من لباس

(٢٠) المهامة ، مفرد تهمة وهى المغازاة البعيدة .

الحرير ، ومشوا على عاداتهم القديمة ، ولبسوه الحشمة الجسيمة ، ومملكته العظيمة ، وزالت الحشمة ، والكلمة والحرمة ، وشلتوا وثاقه ، وبذهبوا به إلى الحرقة^(٢١) ووضعوه وقد ربطوه ، فى المركب الذى هياؤه ، وأوصلوه إلى ذلك البر من البحر . فما وصل إليه إلا وقد أقبلت خدمته عليه ، وتمثلت طوائف الحشم والناس لديه ، ودقت البشائر لمقدمه ، وحل فى سروره المقيم ونعيمه . واستمر فى أتم سرور ، واستقر فى أوفر خير .

ثم قال الملك للأولاد وفلذ الأكباد : وإنما أوردت هذا المقال ، على سبيل المثال ، فاصغوا إلى حسن التنظير ، حتى أبين لكم النظر ، وعوا ما أقول ، بأذان القبول ، وتأملوا رموز المعانى ، من هذه الألفاظ التى أحصلت الثانى ، ثم تفكروا وتبصروا ، وبعد التذكر والتبصر تدبروا . أما ذلك الغلام المهود ، فإنه الولد فى أول الوجود . وأما المركب الذى أودعه ، فهو بطن أمه الذى استودعه . وانكسار السفينة ، هو انشقاق المشيمة . والجزيرة التى عرج إليها ، فهى الدنيا التى دخل عليها . والناس الذين استقبلوه ، فاقاربوه وذوره وأهلوه ، يربونه بالملاطفة والدلال ، ويعاملونه بالإكرام والأفضال . وذلك الشاب الذى هو وزيره ، فهو عقله ومن إيمانه نوره . والسنة المضروبة أجله المحتوم ، وعمره المعلوم للعلوم . ونزوله عن سرير ، عبارة عن آخرته ومصيره ، وخروجه من الدنيا بالإكراه ، وشروعه فى دخوله إلى أخره . والبحر الثانى الذى طرّح فيه ، هو أحوال ما يُعانيه . عند الموت ويُعانيه . والبر القفر اللحد والقبر . فالسعيد يتفكر فى كيفية أموره وأحواله ، ومبدئه أمره ومآله ، ثم يتدبر فى قل^(٢٢) هذا وجله^(٢٣) ، ويستعد لما خلق من

(٢١) الحرقة : ضرب من السفن ، خفيفة ، فيها مراسى نيران يرمى بها العدو فى البحر .

(٢٢) قل : القليل .

(٢٣) الجِل : الكتيل .

أجله . ويتحقق أنَّ الإقامة في الدنيا يسيرة ، وهي بالنسبة إلى الإقامة بدار البقاء قصيرة ، وأنَّه إذا جاء وقته المحتم ، لا يتأخر عنه ساعة ولا يتقدم . فيأخذ في الازدياد ، ويتهيأ ما أمكن ليوم المعاد ، ويعد نفسه كالمسافر ، الذي أتى بعض الحاضر ، فلا يقيم أكثر من يوم ، وقد رحل عن القوم ، كما قيل :

ألا إفا الدنيا كمنزل راكب
أناخ ضئيلاً وهو بالصبح راحل

إلى سفرٍ طويل ، زاده قليل ، قفاره يابسه ، وطرقه دامية ، لا أنيس فيه ولا رفيق ، ولا مصاحب ولا صديق ، ولا دليل ولا خليل ، ولا مغيث ولا مقبل ، ولا ماء ولا معين ، ولا صاحب ولا معين . فيهيئ لهذا السفر ، بقدر الإمكان ما قدر ، من الزاد والماء^(٢٤) ، والركب والكلأ^(٢٥) ، ونور الطريق ، والمسافر والرفيق ، والخادم والأنيس ، والمتادم والجلس . ويجهز المضجع للمبيت والمقيل ، ويهيئ الموضع في النزول والرحيل . وبالجمل لا يترك من أفعال الخير شيئاً إلا فعله ولا محملاً إلا فصله ، ولا متأخراً إلا قدمه ، ولا معاملاً في مبايعه إلا أسلفه وأسلمه . ويُعلم أنَّ كل ذلك محتاج إليه ومصروف لديه ، إذا نُقل إلى دار البقاء وأقبل عليه ، فإذا جاء وقت الرحيل ، ونادى مُنادى الانتقال والتحويل ، وجد ما كان عمله حاضراً ، وكل ما قدمه إلى رياض الخير نزهاً ناضراً ، كما قال ذو الجلال ، وأخير به الصادق في الوعد والمقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾^(٢٦) . معنى ألا تخافوا ولا قهره وجلده روضة من رياض الجنة ، يُشترهم ربهم برحمته منه ورضوان ، وجنات

(٢٤) الماء (خفيفة) .

(٢٥) الكلأ (خفيفة) .

(٢٦) سورة فصلت : ٣٠ .

لهم فيها نعيمٌ مقيم . وأما الشقيُّ ، الغافلُ الغيِّ ، الذى أُنْهَلَ أمرُهُ ، ونَسِيَ اللهَ وذكرَهُ ، وأَهْمَلَ ما عِلِقَ لأجلِهِ ، وتاه فى تَيْدَاءِ الضلالِ وسَبِيلِهِ ، فقد اغترَّ بهذه اللذة اليسيرة ، فى تلك المدة القصيرة ، واستمرَّ سكران ، فى ميدانِ العصيان ، من حمرة الطغيان ، وتردَّى لباسَ الرَّذَى ، أولئك الذين اشْتَرَوْا الضالكةَ بالهدى ، فانهدمتْ عمارتُهُمْ ، ولا رجحتْ تجارتُهُمْ ، حتى إذا جاءه الوقتُ للمعلوم ، ونزل به الأجلُ المحتوم ، ونظر أمام ، وتراعت له الأعلام ، فأما إن كانَ من المكذِبين الضالِّين فَنُزِلَ من حميم ، وتصلبه جحيم ، نزل من دارِ الغرور ، إلى دارِ الشرور ، فنديم ولا ينفعه الندم ، وقد زلّت به القَدَم ، فخابَ ماها ، وقال يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تَراها .

فانظروا يا أولادى ، وعُدَّتْى وعَتَادى ، حَالِ الفريقين ، وتَأَمَّلُوا ما للطائفتين ، فقد بذلتُ فى النصيحة جُهدى ، وأستخلفُ اللهَ عليكم من بعدى . فقال أكبرُ ولديه وهو لِسَبْلِكَ حاسِبُهُمْ واسطَةُ عَقْدِهِمْ : حذى اللهَ مولانا عن شَفَقَتِهِ خيرا ، وأولاه على حُسْنِ النصيحة أجراً وذخراً ، فَلَقَدْ أَحْيَيْتْ قُلُوباً بِزَواهِرِ حِكْمِكَ ، وشَفَقْتُ أَسْمَاعاً بِجَواهِرِ كَلِمِكَ . ولكن إخوانى - وإن كانوا من أولي العلم ، وأربابِ النباهةِ والحلم ، والعقلِ الغزير ، والفضلِ الجَمِّ الكثير ، والرأى المصيب المنير - غَيْرَ أن جِلْدَةَ الشبابِ عليهم غالبة ، ودواعى النفسِ بشهواتِها مطالبة ، لاسيما إن حَصَلُوا على مُلْكٍ عريضٍ وَكَرَعُوا من ألبانه الخُضِّ والمخيض . فإن اتَّفَقَ مع ذلك ، موافقٌ متافق ، أو صاحبٌ مبارق ، أو صديقٌ خلدوع ، أو مباطنٌ مَكَاوِرُ هُلُوع ، أضلُّهم عن سِوَا السبيل ، وصار إلى طريقِ المخالفةِ أوضح دليل . فتحوَّلَ صداقتنا عداوة ، وتبدَّلَ فيها بالمرارةِ الحلاوة ، فينتزِعُ الرِشاء ، ويتمزَعُ الإِخاء ، ويبغى بعضنا على بعض ، وتعودُ الأخوةُ على موضعِها بالنقضِ ويتولَّدُ من ذلك الفتن ، ويظهرُ من العداوةِ ما بَطُن . فالرأى عندى أنه ما دامَ زَمَامُ التصرفِ فى يدِ

الإمكان ، يتصرف مولانا السلطان ، على مقدار جهله ، فى مصلحة عبده ، بحيث لا أكون مُضغَّةً للماضي ، ومُشغلةً لكلِّ قلبٍ فارغ ، ولايسلمنى لأسباب الحوادث ، ومخاليب الدهر الكوارث . فإنه بذلك يكفينى ، من نوائب الزمان م يدهنى ، والعياذ بالله المنان ، من مفارقة مولانا السلطان ، جعلنى الله تعالى فداه ولا أرانى فيه يوماً أساءه ، فلأأخذُ بيدي من هذه الورطة ، وأُتيرِحنى مِنْ شَرِّ هذ الخطة ، فإنه قد قيل : من لا يقبلُ المستحيل ، ولا يغيبُ المستغيث ، ولا يتقيَّدُ بمعنى هذا الحديث ، ولا يدفعُ غصّةَ هذه القصة ، ويفوتُ عندَ الإمكانِ الفرصة ، يصيِّدُ من حوادث الزمان ، ما أصاب بعضَ الجُرذان ، الذى لم يُخلَصْ الغزاة ، الواقعة فى شَرَكِ الحَيَالَةِ . قال السلطان : قلْ لى كيفَ كانت قصته ، وما كانت قضيته .

[٣/٢] حكاية الغزاة مع الجرزة

فقال ذكرُ أن بعضَ الصيادين ، المختالين الكيادين ، نصبَ حَيَالَةً ، ليصيدَ غزاةً فعلى بها مهةً من المَهْمَا وطلبتُ بحالا ، واضطربتُ يمينا وشمالا ، فوقعتُ عينها علمِ جُرْزٍ من الجُرذَانِ عتيد^(٣٧) ، يتفرَّجُ عليها من بعيد ، فنادته بلسانِ زَلْقٍ ، وأنتتُ علمِ بلسانِ طَلْقٍ ، وقالت : يا فارسَ ميدانِ المروءة ، والنجدَةِ والفتوة ، والموصوفِ بالشطارة والقوة ، هذا وقتُ الكرم ، وأوانُ استعمالِ فكارِمِ الشَّيْمِ ، وُفْعُ المعروف ، وإغاثَةُ الملهوف ، وصرفُ الهمة ، إلى كشفِ الجَمَّةِ ، نَعْمُ وإنْ كان طرائقُ الصداقةِ بيننا معدومه ، ونقوشُ التنافرِ على صحفِ خواطِرنا مرقومة ، ونقو المعرفة والإخاءِ فى جنبِ التباينِ غيرَ مبدولة ، ومرآةُ التوافقِ بما بيننا غيرَ مصقولة لكنْ فى الشدائدِ يعرفُ الإخاء ، والإخوانُ كثيرون فى الرخاء ، كما قيل :

(٣٧) العتيد : الحاضر والشاهد .

دَعَوَى الإِخَاءِ عَلَى الرِّخَاءِ كَثِيرَةٌ بَلْ فِي الشَّدَائِدِ تُعْرَفُ الإِخْوَانُ

وقد قصدتُك في الخلاص ، وقرضِ شُركِ الاقتناص ، ونجأتني من سَكِينِ القَنَاصِ ،
فأقرضْ هذه الشبْكَهَ بأَسْنَانِكَ الحَدَادِ ، وافتحْ بيني وبينك بابَ الوَدَادِ ، فإِنِّي أَصْلَحُ
لك صديقاً ، وأنا أَكُونُ لك عتيقاً ، وأُعرفُ لك الجميلةَ ، فأصيرُ عبداً لك إلى
المَمَاتِ ، وأُدرِكُنِي قبل الوفاةِ والقواتِ ، ومع هذا يا ذا الجِلاه ، لا يَكُنْ عَمَلُكَ إِلَّا
لِلَّهِ ، فقد قيل :

مَنْ يَقْعَلِ الْخَيْرَ لَا يَغْلَمْ جَوَانِرَهُ لَا يُلْهَبُ الْعَرَفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ

فَقَهَقَهُ الْجُرْدُ وَقَهَقَرُ ، وَلَعِبَ بِإِبْطِلِهِ وَتَمَسَّخَرَ ، وَتَمَرَّغَ بَيْنَا وَشِمَالاً ، وَتَقَصَّصَ طَرِباً
ودلالاً ، وَسَخِرَ بِالْغَزَالَةِ وَكَلَامِهَا ، وبَادِرَ إِلَى عَذْلِهَا وَمَلَامِهَا ، وَتَوَرَّدَ بِجَوَارِحِهَا ،
وَتَحَلَّى بِعِمَارَتِهَا ، وقال : شَهْوَتُكَ الرَّدِيَّةُ ، وَحِرْصُ نَفْسِكَ الشَّقِيَّةُ ، رَمْيَاكَ فِي هَذِهِ
الْبَلِيَّةِ . وَتَحَرَّكَتْ سَجِيَّتُهُ الذَّمِيمَةُ ، وَطَبِيعَتُهُ اللَّئِيمَةُ ، وَأَضْرَطَّ بِهَا وَرَقَرَقَ ، وَطَقَرَ
وَصَفَّقَ ، وقال : عَصَبُ الرَّأْسِ الصَّحِيحِ^(٢٨) ، مِنْ الْخَيْلِ الصَّرِيحِ ، وَالتَّعَرَّضُ لِمَوَارِدِ
الْفَنَاءِ ، مِنْ دَلَالِ الْبَلَاهَةِ وَالْعَنَاءِ . وَلَوْ تَعَرَّضْتَ لَشَبْكَهِ الصَّيَادِ ، حَكَمْتُ عَلَى
عَقْلِي بِالْفُسَادِ ، وَحَاشَى فِكْرِي الْمَصِيبِ ، وَرَأْيِي التَّجِيعَ النَّجِيبِ ، أَنْ أَجْلِبَ
لِنَفْسِي مَرَضِيّاً ، وَأُصَيِّرَهَا سَهْماً لِلصَّيَادِ وَغَرَضاً . وَلَوْ فَعَلْتُ ذَلِكَ ، لَتَصَدَّقْتُ
لِلْمَهَالِكِ ، وَتَصَدَّقْتُ لِي الصَّيَادُ فَعَادَانِي ، وَتَرَصَّدَ لِي وَأَذَانِي ، وَحَفَرَ بِالْمَعُولِ
وَكَرِي ، وَأَوْقَدَ النَّيْرَانَ فِي جُحْرِي ، فَسَلَبَنِي قَرَارِي ، وَبُيْئَنِي وَمَسَارِي . وَأَقُلُّ
الْأَقْسَامِ أَنْ يُحَلِّقَنِي عَنْ دِيَارِي ، إِنْ خَلَصْتُ مِنَ الْمَوْتِ بِسَلَامٍ ، وَلَا اسْتَطِيعَ بَعْدَهَا
الْقَامُ ، وَقَدْ قِيلَ : لَا تَسْلُكْ غَيْرَ طَرِيقِكَ ، وَلَا تَصَاحِبْ سِوَى رَفِيقِكَ . وَأَنَا أَنَا
فَمَا لِي بِصِدْقَتِكَ حَاجَةٌ ، فَدَعَيْتُ عَنْكَ الطَّمَعَ وَاللَّحَاجَةَ ، ثُمَّ هَزَّ عِطْفِيهِ ، وَنَظَرَ إِلَى
كَفْهِهِ ، وَتَبَخَّرَ فِي مِرْشِيَّتِهِ ، وَتَمَازَلَّ فِي غَشِيَّتِهِ ، وَوَلَّى فِي تِهِهِ وَكِبْرِهِ ، يَرِيدُ

^(٢٨) عَصَبُ رَأْسِهِ : وَكَبُ رَأْسِهِ ، وَرَفُضُ التَّغْيِيرِ وَالتَّفَكُّرِ فِي الْمَالِ .

الدخول في جحره ، وقد تركَ الظبيَ آيساً في جباله فكرِهَ وضُرَّه ، وجبالك شدائده وشره .، فقيضَ الله له حداةَ خطفته ونبات^(٢٩) به في الهوائِ نَبَاةً ، وأما الظبيُ فلماً أيسَ من الجردِ وإعائته ، توجهَ إلى الرحمنِ بكَلْبَتِه ، وقطعَ آماله عن كلِّ أحد ، ورفع ضرورته إلى الواحدِ الصمد ، وأخلصَ نَيْتَه الصادقة ، وقطعَ من الخلاقِ علامته ، ثم جاء الصيادُ فأوثقَه ، وقصدَ به البلدَ فصادفه شخصٌ فاشتراه منه وأعتقه .

ولم أوردُ هذه اللطيفة ، إلى المسامحِ الشريفة ، إلا ليُعلمَ أنَّ التواني ، عن فكِّ العاني ، وإغاثَةِ الملهوف ، أمرٌ مخوف ، لا يرغبُ فيه ذو عقلٍ ، وإغاثَةِ الملهوفِ وأخذِ يَدِ الجارِ وَرَدَ النَقْلَ ، ولا بُدَّ من تأملِ أعقابِ القضايا قبلِ نزولها ، وطلبِ طريقةٍ رَفِيعِها قبلَ حلولها ، والخلاصِ من ورطتها ، قبلَ بَغْتَتِها .، وأسألُ من صدقاتِ مولانا ، الذي بالإحسانِ أولانا ، الإرشادَ إلى عملِ طريقةٍ لطيفة ، نقيّةٍ خفيفة ، تكونُ عُدتِي في شدتي ، مبقيةً للودِّ بيني وبين إخوتي . قال الملك : نِعَمَ ما قُلْتَ ، وحيثُ في ميدانِ الصوابِ جُلْتُ ، فاعلمَ أنَّ في مملكتي مُلوَكاً كُبراء ، وأساطينَ أمراء ، ورجالاً وجنوداً ، وأبطالاً وأسوداً . أنا نَشَأَتُهُم ، ولُصْرَةُ مِثْلِكَ أَعْدَتُهُم ، كلُّ منهم ذو وفاء ، ومَوَدَّةٍ وصفاء . وباطنه خالٍ من المَكْرِ والجفاء ، يقومون معك بأذني إيشارة ، ويحفظون جانبك من النَّهبِ والغارة ، وخصوصاً فلان ، أميرَ ممالكِ عراسان ، فإنه أفضحُهم خطاباً ، وأمنعُهم جناباً ، وأوسَمُهم في العقلِ رحاباً ، وأشدُّهم محبةً ، وأقربُهم مَوَدَّةً وقرية ، وأوفاهم عهداً ، وأصفاهم وُدّاً ، سينجذك في حالِ اضطرارك إليه ، فلا يكونُ اعتماذك بعداً اللهُ إلا عليه ، مع أني

سَأَعْلِمُهُمْ بِمَجْمَعِهِمْ ، وَأَمْرُهُمْ بِإِصْصَالِ تَقْوِيهِمْ ، وَأَوْكُذُّ عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ ، فَلَا يَخْطُرُ شَيْءٌ مِنَ التَّكْذِيبِ بِإِلَالِكَ .

فَقَبَّلَ وَلَهُ الْأَرْضَ ، وَوَقَفَ فِي مَقَامِ الْعَرْشِ ، وَقَالَ : أَيُّهَا الْمَلِكُ الْحَبَابُ ، إِنَّ عِجَابَ غَالِبِ الْأَصْحَابِ ، وَصِدَاقَةَ أَكْثَرِ الْأَحْبَابِ ، وَمَنْ يَدْعَى خُلُوصَ الْمَوَدَّةِ ، وَيَبْذُلُ ظَاهِرًا فِي ذَلِكَ جُهِدَهُ ، إِنَّمَا هِيَ لِأَعْرَاضٍ ، وَنَاشِئَةٍ عَنْ أَعْرَاضٍ وَأَمْرَاضٍ ، فِإِذَا حَصَلَ ذَلِكَ الْغَرَضُ ، وَزَالَ الْقَرَضُ وَالْمَرَضُ ، بَرَدَتْ عَنِ الْحُبَّةِ قُلُوبُهُمْ ، وَفَرَّغَتْ مِنْ نَقْدِ الْمَوَدَّةِ حَيَوِيَّتُهُمْ ، وَظَهَرَ بِالْخِفَاءِ وَعَدَمِ الْوَفَاءِ عِيُوْبُهُمْ . وَمِنْ جُمْلَةِ ذَلِكَ الْحَسَدُ ، الَّذِي لَمْ يَخْلُ مِنْهُ جَسَدٌ ، عَلَى تَيْلٍ مَرْتَبَةٍ ، أَوْ الْبُلُوغِ إِلَى مَبْقِيَةٍ ، وَتَمْنَى زَوَالَ نِعْمَةِ الْحَسُودِ ، وَعَدَمَ الرِّضَا بِقَضَاءِ الْمَعْبُودِ ، فِإِذَا لَمْ يَحْصُلْ لِلرَّادِ ، تَبَدَّلَ الْقَرَبُ بِالْبِعَادِ ، وَالْحُبَّةُ بِالْبُغْضَةِ ، وَالصَّحَّةُ بِالْمَرَضَةِ . كَمَا جَرَى لِنَدِيمِ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ ، مَعَ صَدِيقِهِ الْمَسَافِرِ . قَالَ الْمَلِكُ لَوْلِيهِ : أَخْبِرْنِي بِكَيْفِيَّةِ نَكِيدِهِ ، وَمَا تَوَلَّدَ مِنْ قَضِيَّةٍ حَسِيدِهِ .

[٤/٧] حكاية نديم الملك الظاهر والصديق الحامد

قال الولد : أَخْبِرْنِي الْمَلُوكُ ، أَنَّهُ كَانَ عِنْدَ بَعْضِ الْمُلُوكِ ، جَمَاعَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ ، وَطَائِفَةٌ كَثِيرَةٌ مِنَ النَّدَمَاءِ ، كُلٌّ مِنْهُمْ لَطِيفُ الْمَحَاوِرَةِ ، نَظِيفُ الْمَعَاشِرَةِ ، خَفِيفُ الْمَكَاتِرَةِ ، ظَرِيفُ الْحَرَكَاتِ ، كَثِيرُ الْبَرَكَاتِ ، وَبَيْنَهُمْ شَخْصٌ قَدْ سَاوَاهُمْ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ ، وَقَاتَهُمْ فِي عُثُلِ الدَّرَجَاتِ ، أَظْرَفُهُمْ لَهْجَةً ، وَأَلْفَنُهُمْ بِهَجَّةٍ ، وَأَشْرَفُهُمْ نَهْجَةً ، عَذَبُ الْمَكَالَةِ ، حُلُوُ الْمُنَادِمَةِ ، تَقَبُّلُ الْفَصَاحَةِ تَقَرُّ أَلْفَاظِهِ فِي خُطَابِهِ ، وَيَتَهَلَّلُ عَمَّا بِالْبَلَاغَةِ لِإِشْرَاقِ جَوَاهِرِ جَوَابِهِ ، اسْمُهُ وَشَيْقُ ، وَهُوَ لِكُلِّ عَشِيقٍ ، وَلِلْمَلِكِ أَكْبَرُ نَدِيمٍ ، وَأَقْدَرُ خَدِيمٍ ، وَصَدِيقُ قَدِيمٍ ، يُقْبَلُ عَلَيْهِ ، وَيَعْمَلُ دُونَ الْكُلِّ إِلَيْهِ . فَفِي بَعْضِ الْأَيَّامِ ، قَدِمَ عَلَى الرَّشِيقِ بَعْضُ الْأَعْجَامِ ، وَكَانَ مِنْ بَغْدَادِ - مِنْ

ذوي الفسق منهم والفساد - رجل من الشطار ، عيار مكار ، خوان غدار ، مستحق الرجم ، ليس في السماء له نجم ، غير أنه متظاهراً بجميل الخصال ، وأنه خدّم أهل الفضل والإفضال ، فعلق بطبيعته من شمائلهم ، وتلبس ظاهراً بفضائلهم ، فتلقاه الرشيق ، بما يقتضيه كرمه ويليق ، وبالغ في إكرايمه ، وتقدّم في احترايمه ، وأكرم نزلّه ، وأفاض عليه نِعماً جزلة ، ومال إليه بكلّيته ، وجعله من خواصّ جماعته ، فصار كلّ يوم يُبدى فضلاً ، ويفتحُ باباً من الكلامِ وفصلاً ، إلى أن غلبَ على ذلك الزنديق ، حسدُ النديم المسمّى برشيق ، لكونه من خواصّ الحضرة السلطانية ، وقصاص الخدمة الملكية ، وكبير الندماء ، وخطير القدماء ، فالتمس من النديم ، ذلك الوغد الذمّيم ، أن يوصله إلى الحضرة الشريفة ، ويسبّل عليه ظلال نعيمه الوريقة . فأفكر الرشيق ، الفكر الدقيق ، في عُقبي هذه القضية ، وما يحدث عنها من البلية ، فإنه قد كان أدرك من ذلك الشيطان سوء أفعاله ، من أقواله ، ووخيم عزوماته ، من شمائل حركاته ، وشوم سكتاته ، وتحقق ذلك من عذبات لسانه وفلتاته ..

وكلُّ شيءٍ تزرعه ينفعك ، إلا ابن آدم إذا زرعه يقلّك . ومن أكرم ذا حسدٍ ورأى من أمره عكسه ، فلا يلومن إلا نفسه ، فصار يسوقُ به ويدافعه ، ويمانعُه ويصانعه ، ويُدارى الوقت ، خوفاً من المقت ، إلى أن أيس منه ، وقطع الرجاء عنه ، فالتهب فيط غضبه ، واشتعل شواظُ لهبه ، فما رأى لبرود هذه القصة ، إلا كتابةً قصّة ، يعرضها ذلك المنهمك ، على آراء الملك ، يضعُ فيها لِشِدَّةَ حسده ، من الرشيق ويفتُ من عَصْدِهِ ، ويفترى ذلك المجترى^(٣٠) ، عليه ماهو عنه يرى^(٣١) ،

(٣٠) حلف مجرى به .

(٣١) حلف يرى به .

فَرَأَقَبَ الْفُرْصَةَ ، وَكَتَبَ الْقِصَّةَ ، يَذْكُرُ لَهُ مَسَاوِي (٣٢) فِيهَا ، وَمِنْ جُمْلَةِ مَسَاوِيهَا :
 إِنَّ بِحَسَدِ الرَّشِيقِ ، مِنَ الدَّاءِ الْعَتِيقِ ، مَا أَعْجَزَ الْأَطْبَاءَ ، وَأَعْيَا الْحُكَمَاءَ الْأَبْيَاءَ ، وَإِنْ
 ذَلِكَ الدَّاءُ يُعْلَى ، وَفِعْلُ الْإِلْزَامِ يَتَعَدَّى فَيُرْدَى ، وَإِنْ كَثُرَا مِنَ النَّاسِ الْأَخْيَارِ مِمَّنْ
 اطَّلَعَ عَلَى دَائِهِ ، وَمَعْضَلِ بَلَاغِهِ ، يَتَحَامُونَ صِحَّتَهُ ، وَيَحْتَبُونَ قَرَبَهُ وَمَوَاطِنَتَهُ ، وَأَنْ
 هَذِهِ نَصِيحَةٌ عَرْضُهَا ، وَعَلَى نَفْسِهِ فَرْضُهَا ، إِذُ الْقِيَامُ بِأَدَائِهَا وَاجِبٌ عَلَيْهِ ،
 وَإِنْهَاؤُهَا إِلَى الْمَسَامَعِ الشَّرِيفَةِ مُتَدَوِّبٌ إِلَيْهِ ، فَلَمَّا وَقَفَ الْمَلِكُ عَلَى مَضْمُونِ مَا أَنْهَاهُ
 ذَلِكَ الْخَبِيثُ فِيمَا ادَّعَاهُ ، تَذَكَّرَ مَا قَالَهُ لِيُبْدِيَ لِلنُّعْمَانِ ، عَنْ بَوَازِيرِهِ الْعَبَسِيِّ فِيمَا مَضَى
 مِنَ الزَّمَانِ ، وَهُوَ :

لَحْنُ بَنُو أُمِّ الْبَنِينَ الْأَرْبَعَةِ	وَلَحْنُ خَيْرُ عَامِرٍ مِنْ صَعْبِهِ
إِلَيْكَ جَارُؤُنَا بِلَادًا مُسْتَبْعَةً	لَعِيرٌ عَنْ هَذَا خَيْرٌ فَاسْمَعِ
مَهْلًا أَيْتَ اللَّعْنِ لَا تَأْكُلْ مَعَهُ	إِنْ إِسْتَهَ مِنْ بَرَصٍ مَلْمَعِ
وَأَنَّهُ يُدْخِلُ فِيهَا إَصْبَعَهُ	يَدْخُلُهَا حَتَّى يُؤَارِيَ أَشْجَعَهُ (٣٣)

كَأَنَّمَا يَطْلُبُ شَيْئًا ضَيِّقَهُ

فَاشْمَأَزَّتْ مِنَ الرَّشِيقِ نَفْسُهُ ، وَزَوَى فِي رِيَاضِ مَصَاحِيثِهِ غَرْسُهُ ، فَأَمَرَ الْحِجَابَ
 وَالْبَوَابِينَ ، أَنْ يَكُونُوا لِلدَّخُولِ عَلَى الْمَلِكِ آبِينَ . فَلَمَّا أَنَّ جَاءَ الرَّشِيقُ ، وَقَصَدَ
 الدَّخُولَ بِجَاشٍ وَثِيقٍ ، مَنَعُوهُ مِنَ الدَّخُولِ فَرَجَعَ خَائِبًا خَاسِرًا ، وَبَقِيَ حَائِرًا بَاقِرًا ،
 وَلَمْ يَشْكُ أَنَّ هَذَا الضَّرْبَ ، سَهْمٌ غَرِبَ ، لِأَنَّهُ لَمْ يَعْلَمْ السَّبَبَ ، فَقَضَى مِنَ الزَّمَانِ
 الْعَجَبَ . فَشَرَعَ يَتَفَحَّصُ عَنْ سَبَبِ الْبِعَادِ ، وَيَتَرَدَّدُ بَيْنَ أَغْوَارِ وَأَنْجَادِ ، وَيَذْهَبُ رَائِدُ
 فِكْرِهِ كُلِّ مَذْهَبٍ ، وَيَعِزُّ عَلَى تَوَابِيْعِهِ لِيَقْفُوا عَلَى مَوَانِعِ الْمَطْلَبِ ، إِلَى أَنْ وَقَفَ عَلَى
 السَّبَبِ الْمَظْهُرِ ، وَعَلِمَ أَنَّهُ الْإِحْسَانُ إِلَى ذَلِكَ الْجَرَمِ ، وَظَهَرَ لَذَلِكَ الْبَحْرِ الْبَرِّ ، مِنْ

(٣٢) عَنَّفَ مَسَاوِي .

(٣٣) الْأَشْجَعُ : عُرُوقُ ظَاهِرِ الْكَفِّ .

قَوْلُهُ "الإحسانُ إلى اللئيمِ سَلَفٌ في الشرِّ" فاجتمع بجماعةٍ من أصحابِهِ ، وطائفةٍ من عُلَّصِ أحبَّاءِهِ ، وعرض عليهم قصَّتَهُ ، واستدفعَ بآرائِهِم غصَّتَهُ ، ثم تعرَّى من لباسِهِ ، عند الخواصِّ من أناسِهِ ، لينظروا إلى جسديهِ وباسِهِ ، فرأوا بدنأً كسبائكِ الفضةِ ، وأطرافاً ناعمةً غصَّةً ، وأعضاءٌ تحسُّبُها من الخورِ غوانِيها ، مسلمةٌ لا شِيئةٌ^(٣١) فيها ، فأجمعوا على سلامَتِها ، وذكروا للملِكِ عَاسَنَها بعلامَتِها ، وشهدوا بحسَنِ صفائِها ، وروثِ بِهائِها ، وأنها سليمةٌ عن الأذواءِ ، بريئةٌ مِنْ كُلِّ داءٍ ، وكأنه في شأنه قيل :

واعجبُ ما شاهدتُ في ومثلي وقد نزعنا غلَّالاتٍ ونسوبَ حياءِ
تلاؤلُ نورٍ في ترفيقِ مائه وصورةٌ روحٍ في مثالِ هواءِ
ولما لشدةِ الحسدِ ، عاب ذلك الجسدُ . فقال الملكُ : صدقتم ، وبالحق نطقتم ،
ولكن كيف وقد قيل :

قد قيل ذلك إن صدقاً وإن كذباً فما اختيالك في شيء وقد قيل
ثم قال الملكُ لجماعتهِ ، للتظلمين في سلكِ طاعتهِ ، الذي يدورُ في معلومى ، ويبرزُ به مرسومى ، أن لا يدخلَ الرشيقُ عليَّ ، ولا يُصوبُ نظره إلىَّ ، فإني إذا نظرته ، تذكرتُ ما قبلَ واستحضرتُهُ ، فتشمئزُّ النفسُ والخاطرُ ، ويتكدرُ الباطنُ والظاهرُ ، ويتشوهُ وجهُ العيشِ الناضرِ ، ثم أمرَ له بحالٍ جزيلٍ ، واقطاعِ عظيمٍ جليلٍ ، ومنعه من المتولِّين بين يديه ، والدخولِ عليه .

ولما أوردتُ هذه الحكايةَ ، المتضمنةَ لهذه النكايةَ ، لتحيطَ العلومُ الشريفةُ ، والآراءُ المنيفةُ ، أن بعضَ المدَّعين للصدقةِ ، وأحكامِها بإحكامِ الوثاقةِ ، لا يُعتمدُ على دعوَاهم ، ولا يُركنُ إلى مضمونِ قَحَواهِم ، فربما تكونُ صدقاتُهُم من هذا

(٣١) لا شية فيها : لا علامة فيها .

القبيل ، فتؤدي إلى داءٍ ثَقِيل ، وغِمٍ عَرِيضٍ طَوِيل ، فلا يَمُكِنُ عِلاجُهُ ، ولا يُسَلِّكُ منهاجُهُ ، وأََعْظَمُ ما فِى ذلك ، ما يُؤدِّي إلى المَهالِك ، وهو عِداوَةُ الأَقرباء ، من الأَبناء والآباء ، وذوَى نِصائِحِ الإِخاء ، فَإِنَّ ذلك غُلٌّ قَمَل ، وجَرَحٌ لا يَنْدَمِل ، ومَرَضٌ لا يَبرأ ، ويُفَضِّى بِصاحِبِهِ إلى تَوَسُّدِ الثَّرَى ، وأنَّ عِداوَةَ الأَجناب ، أَسْهُلُ من مَخاشِنَةِ^(٣٥) القَرائِب ، وأنَّ القَرائِبَ إِنما يُرْجَوْنَ لِدَفْعِ الدَّاءِ ، فإذا كانوا هُمُ الأَعداء ، فَقَدْ أَعْضَلَ الدَّاءَ . وَمِنْ شِواهِدِها أَيُّها المَلِكُ الفاضِل ، ما جَرى لِابْنِ سُلطانِ بَابل ، مَعَ عَمِّهِ الظَّالِمِ الخاتِل ، الخائِنِ القاتِل . فقال المَلِكُ الكَبير ، أَظْهِرْنا على صَورَةٍ ذلك أَيُّها الخَبير .

[٥/٢] حِكايَةُ ابنِ سُلطانِ بَابل مَعَ عَمِّهِ الظَّالِمِ

قال : ذَكَرَ أَهْلُ التَّارِخِ ، أَيُّها العالِي الشَّمارِخ ، أَنَّهُ كانَ في مَمالِكِ بَابل ، مَلِكٌ عَظِيمٌ فاضِل ، كَرِيمٌ الشَّمالِ ، عَدْلُهُ مَذكور ، وَفَضْلُهُ مَشْهُور ، هِمَّتُهُ عَاليَةٌ ، وَنُحُورُ مَمالِكِهِ ، بِعَقُودِ فَواضِلِهِ حاليَةٌ ، وَأَفْواءُ مَسالِكِهِ كَتِفُورِ الْغِوانِي بِشَنْبِ^(٣٦) العَدْلِ والأَمانِ زاهِيَةٌ . وَلَهُ وَلَدٌ صابِحُ حَسَنِ وَجْمال ، وَفَضْلٌ وإِفْضال ، وَمَلاحَةٌ ودَلال ، وَصِباحَةٌ وَكمال ، غَيرُ أَنَّهُ صَغِيرُ السِّنِّ لَمْ تَمَرَّ بِهِ التَّجاربُ ، وَلَمْ يَتَلَّ أَحْوالَ الأَباعِدِ والأَقاربِ ، لا مَارسَ الأَنامِ ، ولا سائِسَ الأَيامِ ، ولا سَيرَ العَدُوِّ والصَدِيقِ ، ولا غَيرَ الحَرِيقِ والرَّحِيقِ ، ولا فَراقَ بَينِ المَرافِقِ والمُنافِقِ ، والمُصادِمِ والمُصادِقِ ، والمُصارِمِ والمُلاحِقِ . فَلَمّا دَنَتْ وَفاةُ أَبِيهِ ، جَمَعَ أَخصاءَهُ وذَويهِ ، وأَرادَ أَن يَعهَدَ إلى وَلَدِهِ ، وَيَرْقِيهِ إلى سَنَدِهِ وَمُسْتَدِيرِهِ ، ثُمَّ دَبَّرَ في أُمُورِهِ وأَحْوالِهِ ، وَتَفَكَّرَ في مَصِيرِهِ وَمالِهِ ، وَخَشِيَ أَنَّهُ رَعا أَخَلَّ بِشَئٍ مِنَ القَواعِدِ ، فَابْعَدَ الأَدْنى وَأَدْنى الأَباعِدِ ، أو

^(٣٥) لِلْعاشَةِ : المَوجِدَةِ ، يَقالُ خَشَنُ صَدْرِهِ عَلَيهِ : وَجَدَ عَلَيهِ . وَخاشَنَةُ : خَشَنَ عَلَيهِ في القَولِ وَالعَمَلِ .

^(٣٦) الشَنْبُ : جِمالُ الثَغرِ وَصلْماءُ الأَسنانِ .

وضَعَ شيئاً في غير محلّه ، أو وُلّي منصباً غير أهله ، وذلك لعدم تدبّر ، أو فساد
تصوّر ، أو نبوّز رفيق ، أو فقْد مرشدٍ وشفيق ، أو لغرضٍ فاسد ، من كاشحٍ أو
حاسد ، فيحتلّ نظامه ، ويُفوّج قوّاته ، ويُفسدُ أمره ، فيحوّله زينه وعمره .

وكان للملك أخّ ، بلّ أنّه فَنَحَ يَدْعِي المَقَّة^(٣٧) ، ويُظهرُ أنّه يُقَّة ، وله خنو
وشفقة ، فعهدَ إليه ، واعتمدَ عليه ، وسلّمه ولدّه ، وجعله وصيّهُ ومستندّه ،
وأجلسه مكانه ، وأشهدَ عليه من رؤساءِ المملكةِ أركانه : أنّه إذا توشّح ولدّه
بالولاية ، وأنّسَ منه رشدّه بالرعيّة والرعاية ، يُجْلِسُهُ على السرير ، ويسلّمهُ الكبير
من جنّديه والصغير . ويكونُ هو له أَحْسَنَ وزير ، ولِعَمَنَ مشير ، ونظامٍ مُلكيه ،
ورأسٍ فُلكيه ، وعَضُدٌ ساعديه ، وساعدٌ مُساعديه ، وأتابكٌ عساكره^(٣٨) ، وعمادُ
الإمّرة وأوامره ، فإنّ نفسَ وليّه في سنّ جهليها ، تكونُ عوناً من أعوانِ رُغونة
الصبيّ في حَزَنها وسَهْلها ، ويودّي إلى مُلكه ، بمقتضى قوله تعالى ﴿إِنَّا اللَّهُ بِأَمْرِكُمْ
أَن تَوَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾^(٣٩) فقبِلَ أخوه ذلك منه بِقبُولِ حَسَن ، وتكفلَ له أنّه
يأُسُو جِراحَ المُلكِ على وجهٍ مُستحسن ، وأظهر الوُدَّ والترفّ ، والتملّق والترفّق ،
والتلهّف والتأرّق ، والتأسّف والتحرّق ، وبكى وتأوّه وشكا ، وتذلّل وتمسكّن ،
حتى تمكّن . فلما قضى الملكُ نخبه ، وأجابَ ربّه ، صعدَ على السرير ، وتمكّن من
الجليل والحقيق ، وتشربّت أضلاعه ، وعمرت بحبّ الحكومةِ والتسلّطِ في دُورِ

(٣٧) المَقَّة : الحب بغير غرض .

(٣٨) أتابك العسكر أو الأتابك : معناه الوالد أو الأمير باللغة التركية ، والمراد به أبو الأمراء ، وهو أكبر الأمراء
المتقاعين بعد الخان ... وتكالف كلمة أتابك من أتا : بمعنى الأب أو الشيخ المحرم لكبر سنّه . وبك : بمعنى
أمير .. وفي الاصطلاح مرّى الأمير . ويطلق على أمير أمراء الجيش لقب : أتابك العسكر ، وهذا هو المعنى
المراد هنا .

(٣٩) قرآن كريم ، سورة النساء : ٥٨ .

طمعه رباعه^(٤١) ، وابن أخيه فى كفائته ، والممالك فى إيلائه^(٤٢) . واستمر الصغير تحت نظره . لا يفارقه فى سفره ولا حضره ، يكتسب كل يوم خيال السعادة ، ويطرح من حركاته شمائل السيادة ، ويظهر على أعطافه الملوكة يوماً فيوماً آثار الحسنى وزيادة ، إلى أن ارتفع قلداً ، وصار فى الكمال هلالاً وبنراً .

فشم عمه من رياض همته عرف الطلب ، وقوى فى ذلك ما كان تقدم من سبب ، وعرف أنه لابد له فى ذلك من تسريجه ، فلو منعه لقام كل الخلق باستحجانه وتقيجه ، فتحل عقوده ، وتقل جنوده ، ويحل عن عسكريه بنوده ، وتفتى صورته وسيرته ، وينقض من حل عمره مريته ، فلا يحصل من الملك إلا على الملوك ، فأعمل الكيد ، وخرج إلى الصيد ، فتفرقت العساكر ، وانفرد الملك الماكر ، ومعه ابن أخيه ، فاحتلى به فى تيه ، فوثب عليه ، وفجعه بكرمته^(٤٣) ، وألقاه فى البرية ، إلى غاليب المنية ، وتركه وحيداً أعمى لا يجد دليلاً ، ولا يهتدى سبيلاً ، ولا يعرف مقراً ولا مقيلاً . ثم اجتمع بعسكريه ، ظاناً أنه فاز بظفره ، مخبراً بوفاته وتعجبية خبره ، ففرغ باله ، وأصلح رجاله ، وأطمأن خاطره ، واستقرت أموره ، واستقامت حيوره . فلما هجم جيش الليل ، أقبلت السباع من الوادى كأنها السيل ، وقصدت الوحوش والهوام ، ما لها من مأوى ومقام ، وعوت الذئاب وزارت الأسود ، وهمرت^(٤٤) النمر والنسور والفهود ، فساورت ابن الملك المموم ، وأورثته أصناف الغنوم ، واحتوشته المخاوف والوجوم ، فلجأ إلى جناب الحي القيوم ؛ جناب لا يخبئ قاصده ، ولا يصنئ إلا ينيل الأمل وارده ،

(٤١) أجزاء : والرابعة بفتح الراء المشددة وكسرها : الحلة والأمر والشأن .

(٤٢) المقصود : حكمه وسياسته .

(٤٣) الكرماتان : العينان .. أى نقأ عينيه .

(٤٤) همرت النمر : وثقلت هضبا .

وصار يحسُّ يَدَيْهِ ، ويصغى إلى الحيوانِ بأذنيه ، ويتمشَّى إلى كلِّ جانب ، ويهوى يَدَيْهِ إلى الأطرافِ والجوانبِ ، ويتعلَّقُ بمجالِ الهواءِ ، كالغريقِ الغاطسِ فى الماءِ . فوقعتْ يَدُهُ على شجرة ، فعلقَ فيها يَدَيْهِ وظفَره ، وصَعِدَ عليها ، وأَرَى إِلَيْهَا ، وتَوَجَّهَ بقلبه إلى خالقه ، وموجِّده ورازقه ، وقطعَ عمَّا سواه أسبابَ علاقته ، واشتغلَ بالذكرِ والتسبيحِ ، وقَوَّضَ أَمْرَهُ إلى الله سبحانه . وتعالى بأملٍ فسيح ، واستمرَّ فى هذا الويل ، بُرْهَةً من الليل .

وكان طائفة من الجنِّ المهرة ، كلَّ ليلةٍ تأوى إلى هذه الشجرة ، فيتناكسون ما جَرَى فى العالم ، وما صَنَرَ فى عالمِ الكَوْنِ والْفَسَادِ مِنْ أَعْمَالِ بَنِي آدَمَ ، ويسيرون أفراحهم ، ويتعاطون انشراحهم . فلَمَّا اجتمعوا تلك الليلة ، ذَكَرَ كُلُّ قَوْمِهِ ، وما جرى من الحوادثِ ، ومن المفرجات والكربات ، وما وقعَ من العجائب ، واتفق من واقعاتِ الغرائب . فقال واحدٌ من القومِ : ومن أعجب ما وقع اليوم ، من الأَمْرِ الكريه ، ما فعله ملكُ بابلَ بآبِنِ أخيه ، وذكر لهم القضية ، وما تضمنته من بليَّة ، وجعل يتأرق ويتحرَّق ، ويترم ويتضرم ، ويحرق الأَرَمَ^(١٩) ، ويتعجبُ من عدمِ وفاءِ بَنِي آدَمَ . فقال رئيسُ الجنِّ : وهذا غيرُ يَدِيْعٍ من طبعِ الإنسانِ ، فَإِنَّهُ مجبولٌ على الغدرِ ، مطبوعٌ على النِّهَاءِ والمكرِ ، أَلَمْ تَسْمَعْ قَوْلَ قَائِلِهِمْ فى وصفِ فضائلهم ، وقبيحِ شمائلهم ، مِمَّنْ اغترطَ فى سِلْكِ الفضلِ ، بدونِ منعٍ ولا حَجْزٍ ، إذا كان الغدرُ طباعاً فالثقةُ بِكُلِّ أَحَدٍ عَجْزٌ . ثم قال الرئيسُ : أعلمُ يانفيس ، أنى أعلمُ ما يُزِيلُ هذا الأَلَمَ ، ويُطْفِئُ هذا الضَّرَمَ ، ويُشْفِي هذا السَّقَمَ ؛ وهو أنَّ هذه الشجرةَ النجبية ، لها خاصيَّةٌ عجيبه ، اسمُها شجرةُ النورِ ، وفضلُها فى ذلكَ مشهور ، إذا أُخِذَ مِنْ عُصَاوَةِ وَرَقِهَا ، ووضعَها الأَعْمَى على حَلْقِهَا ، انجلي عماها ، بقدرة ربِّ

^(١٩) الأَرَمُ : الأرضى . وفلان يحرق عليك الأَرَمَ أى يحك أضراره بعضها ببعض من الغيظ .

براهما ، وحلَقَها فسوَّاهما ، وردَّ إليها بصرَها ، وزادَ نظرَها . ثم إنَّ الخرابَةَ الفلانيَّةَ ، فيها جُحْرٌ حيَّةٌ بَدِيَّةٌ^(٤٥) ، وهى تابعةٌ لملكِ بابل ، الفاعلُ هذا الفعلِ السَّافِلُ ، وحياتُه متعلِّقةٌ بحياتِها ، وموتُه موقوفٌ على مماتِها ، لأنَّ طالِعَه على طالِعِها ، وطبعُه اللثيمُ مطبوعٌ على طابعِها ، فبمُجَرَّدِ مَا عَمُوتُ الحَيَّةِ عَمُوتُ ، ويُنْقَلُ من دَرَجِ^(٤٦) المَلِكِ إلى دَرَجِ^(٤٧) المَلِكُوتِ ، كلُّ ذلكَ وابنُ المَلِكِ يسمَعُ هذا القولَ ، فَلاحاً إلى ذِي القُوَّةِ والحَوْلِ ، حَتَّى مَنَ عليه بَعْدَ شَلِيلِ العقابِ بهذا الطَّوْلِ ، وجعلَ يُنادى وَيَتَهَلَّ ، ويقولُ متى جَبِينُ الصُّبْحِ يَهَلُ ، وينشد :

أَلَا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ أَلَا أَنْجَلِي بصبح وما الإطنأخ منك بأمنلي

فلَمَّا أصبحَ الصُّباحُ ، ونادى مؤذِنُ السَّعْدِ "حيَّ على الفلاح" تَعَمَّ ابنُ المَلِكِ وصَلَّى ، وحَمِدَ اللهَ على النِّهارِ إذا تَجَلَّى ، وَرَضَ بَيْنَ حَجَرَيْنِ مِنْ وَرَقِ الشَّجَرَةِ ، واكْتَحَلَ بِمَاءِهِ فَرَّدَ اللهُ عليه بصرَه . ثم وَجَّهَ ذهابَه ، إلى تلكِ الخرابَةِ ، ورصدَ خُرُوجَ تلكِ الحَيَّةِ اللَّاطِطَةِ^(٤٨) ، وضربَها ضربةً غَيْرَ عَاطِطَةٍ ، فأحاطَ بها نازلُ المَلِكِ ، وفي الحالِ خَرَّ المَلِكُ مَيِّتاً على سِريرِ المَلِكِ ، وبينما العزَّاءُ عليه قائمٌ ، وإذا بصاحبِ السَّرِيرِ عليهم قادمٌ ، وقد قصَّدَ مُلْكَ أبيه ، وتمكَّنَ من مُلكِه وذوِيه ، وتصرَّفَ فيه كما شاء ، وأليسَ خِلْعَةُ المَلِكِ مَنْ يُوَيِّى المَلِكُ مَنْ يَشَاءُ ، ويُتَرَعُّ المَلِكُ مِنَّ يَشَاءُ .

^(٤٥) سَيِّدَةُ الحُلُقُنْ ، فاحشةُ الفعلِ .

^(٤٦) مرتبةٌ ، درجَةٌ ، منزلةٌ .

^(٤٧) الموتُ .

^(٤٨) اللَّاطِطَةُ : التى لا تكاد تخرج جحرها أو ملجأها . ومن معانيها أيضاً : ذات القشرة الرقيقة التى بطن عظم

الرأس والحمة .

وإنما أوردتُ هذا التمثيل ، خوفاً أن يكونَ صاحبُ مولانا الملك الجليل ، الذى يخرسان من هذا القبيل ، قُتِبْدَلُ المحبة بالبُغْض ، وترجعُ على موضوعها بالنقض ، ثم إن بعضَ الأصحابِ والإخوان ، يفعلُ ما يفعله من الخير والإحسان ، على سبيلِ المكافأة^(٩٩) لا على طريق المروعة والمصافاة ، فإذا كافأ بالإحسان ، عاد إلى ما كانَ عليه من العدوان . فأسأَلُ الحضرةَ الشريفة ، والمراحمَ المنيفة ، ذاتَ الفضلِ المشهور ، والإحسانَ المأثور ، التأمَّلَ فى عواقبِ هذه الأمور ، لتلا يُصَيِّبَنَا ما أصابَ ذلكَ المسافر ، ضَيَّفَ الحَدَّادُ المنافر ، من العفريتِ الملقى فى المحافر . قال : أخبرنى أيها الولدُ النجيب ، عن ذلكَ الأمرِ العجيب ، وقاك اللهُ شرَّ الوجيب .

[٦/٢] حكاية المسافر والعفريت

قال : بلغنى من رُوَاةِ الأخبار ، أن شخصاً من الخيَّار ، لازَمَ الأسفار ، وقطع القفار ، فجاب مشارقَ الأرض ومغاربها ، وبلغ أكنافها وجوانبها ، وشاهد عجائبها وغرائبها ، وقاسى حرَّ الزمان وقُرَّه ، وذاق حلوه ومرَّه ، وعانى خيره وشرَّه ، فأداه بعضُ المسير ، إلى بلدٍ كبير ، فرأى فى بعضِ نواحيه ، وطرفٍ من بعضِ ضواحيه ، طائفةً من الصبيان ، قد اجتمعوا فى مكان ، فوصل إليهم ذلكَ الفقير ، فوجدَهم واقفين على حفير ، يرمون فيه بالأحجار ، وهم يستغيثون بالستار ، من العلوِّ المكار ، والخيثِ الغدار ، والحسودِ القديم ، والكافرِ الذميم ، والشیطانِ الرجيم . فسألهم ماهذه المعضلة ؟ فقالوا عفريتٌ وقعَ فى هذه البئرِ المعطلة ، وهو عدوٌّ قديمٌ نريدُ أن نقتله ، فقال : افسحوا حتى أنظُرَ إليه ، وأساعدكم عليه ، ففسحوا عن ذلكَ الطوي ، فنظر فى قعرِ الركي^(١٠٠) ، فرأى فى

(٩٩) المكافأة (مخففة) .

(١٠٠) الركيّة : البئر لم تُملأ . جمع ركيلا و رُكيي .

جانب منها عفريتاً مُنزوريا ، قد هشموه وكسروه وحطموه ، وكاد يهلك مما رجوه ، فعندما نظر إليه ، رق له وعطف عليه ، وقال : أفضبلُ المعروف ، إغاثَةُ للملهور ، وإن لم يكن بيننا سابقةُ صداقة ، ولا وشيعةُ محبةٍ ولا علاقة ، بل عداوتنا جليّة ، وما بيننا أزلية ، لكنّ فعلَ الخير لا يسور ، والله عاقبةُ الأمور ، وإذا قصدَ الإنسانُ فعلَ الخير ، فلا عليه إن فعله مع أهله أو الغير . وقد قيلَ للتمثيل : أيها الإنسانُ قد عداك الذم ، افعلْ الخير وألقه في اليم .

ثمّ منع عنه الكبير والصغير ، وساعده على الخروج من البئر ، واستنقذه من أيديهم وأطلقه ، فكان كَمَنْ اشتراه وأعتقه . فلمّا رأى العفريتُ هذا الإحسان ، من ذلك الإنسان ، من غير سابقٍ ولا عرفان ، قبلَ يده ورجله ، وشكر له هذه الفِعلَة ، وقال : إني عاجزٌ عن مكافأتِكَ يا إنسان ، في هذا الأوان ، وأنا اسمى فلان ، فإن وقعت في ضيق ، أو ضللت في طريق ، فنادِني باسمي ، أحضِرْ إليك بحسبي ، وأنفَعْكَ في ضيقك ، وأرشدك إلى طريقك ، وأكافئك أيها اللوذعي ، بما فعلته معي .

ثم ودّع كلُّ صاحبه ، وخالف في السير جانبَه ، فوصل السَيَّاحُ إلى بلدٍ من البلاد ، له فيها صديقٌ حداد ، فنزل عنده فأكرمه ورحّب به وخدمه . وكان لتلك البلدة عادةٌ أحسنة ، أنهم في يومٍ معينٍ في كلِّ سَنَةِ يُقرَّبون^(٥١) مَنْ يقدمُ عليهم فيه ، ولا يسألونَ أحاملٌ هو أم نبيه . فإن لم يقدمْ عليهم غريبٌ في ذلك اليوم ، اقترع فيما بينهم القوم ، فمن خرجت قُرْعَتُهُ ، سحبه ، وكسروه قرعَتَهُ وقَرَّبوه^(٥٢) . فوافق ذلك اليوم قُتُومُ السائح ، ولم يرد سواه من غادر ورائح ، ولا

(٥١) يقرَّبون : يقلِّمون قرباناً بشرياً .

(٥٢) قَرَّبوه : ضحوا به قرباناً .

شعر به أحد، من أهل تلك البلد ، فأخذوا في القرعة بالاجتهاد ، فطرقت القرعة قرعة الحداد. فقبضوا عليه وعزموا على تقيبه ، فقال عندي غريب لم يكن أحد يدري به ، فلم يدر السائح إلا وقد أحاطت به الشوائح ، فهجموا عليه ، وربطوا عنقه ويديه؛ ثم سجدوه وحسبوه ، وفي أضييق مكان أجلسوه ، وأشهروا النداء ، أنه حصل للحداد الفداء . فعلم السائح القضية ، وتحقق أنه تورط في بلية ، فذكر اسم العفريت ، وقد علقه الهم علوق النار بالكبريت ، فحضر لساعته ووقته ، فرأى السائح في حوله وميته ، واطلع على جملة الشان ، فقال لا تخش يا ذا الإحسان ، اعلم أن أمير هذه البلد ، له ولد ، هو واحد أبويه ، وإني الآن أصرعه بين يديه ، ثم أتادي في النادی : إن رمت شفاء هذا العليل ، فهو بدعاء ذلك الرجل الجليل ، السيد الصالح ، الزاهد السائح ، ضيف الحداد ، الذي بسببه حصلت هذه الأنكاد ، فأطلقوه والتمسوا دعاءه فإن فيه لإعليكم شفاءه ، ولا تطلبوا من غيره دواءه . فإذا طلبوك ، وأعزوك وأرغبوك ، وأكرموك واحترموك ، فأدع بما يرفع نكدهم ، فلاني إذ ذاك أترك ولذهم ، فإذا رأوا منك هذه الكرامة ، بالغوا وسلموك الزعامة ، وخيروك بين الرحيل والإقامة ، وأقل ما يفعل معك السلامة .

ثم ذهب إلى ابن الملوك وعبطه ، وحل في أعضائه وربطه ، فتخبط الصبي وتعيّل ، وتكسل وتجبّل ، وكادت روحه تخرج ، ويدرج من يدرج ، فاشتغلوا بشأنهم ، عن أمر قربانهم ، فطلبوا الأطباء ، فأعياهم علاج هذا الداء ، ولم يقدرُوا على علاجه ، وتعديل مزاجه ، وتقويم اعوجاجه ، واشتغلت الخواطر ، وتكد البادى والحاضر . فعند ذلك نادى العفريت ، من ذلك البيت ، يسمعون كلامه ، ولا ينظرون مقامه : إن زوال هذا العارض ، ومنع هذا الداء المعارض ، عند رجل قنوة ، مستجاب الدعوة ، رجل صالح ، زاهد سائح ، عالم عامل ، كامل فاضل .

هو بركة البلاد والعباد ، مادةُ الصلاح وقاطعُ الفساد ، وهو ضيفُ الحداد ، الذي فرطَ منكم في حقِّه سوءُ الأدب ، فأدركوه بالطلب ، وأسرعوا نحوه ، واتمسوا منه دعوةً ، وإلا فولدُكم هالكٌ عَنوةً ، وبادروا بالالحوق ، لئلا يخرج السهمُ من الفوق^(٥٣) ، فإن سهمَ هذا المصاب ، بسبب ذلك أصاب .

فركبَ للملكِ بنفسه ، وسارعَ إلى بابِ حبيسه ، ودخلَ عليه ، واكبَّ على رجليه ، وطلبَ دعاءه ، ورامَ لولده شفاءه ، فتوضَّأ وصلى ، وأعرضَ عنهم وتولى ، وتوجَّهَ ودعا ، فحصلَ للولدِ الشفا ، ونهضَ في الحال ، كأنما نشطَ من عقال . ثم إنَّ العفريتَ الجائح^(٥٤) ، أتى الرجلَ السائح ، وقال لا تحسبُ أنى إذ كافيتك^(٥٥) ، صادقك أو صافيتك ، كيف وعداوتنا قديمةً مغروزةً ، وغرورُ التباغضِ في إحداثي ذواتنا مرَّكوزه ، أنا من نارٍ وأنت من تبراب ، شيمتك الترابيَّة وشيمتى الإحراقُ والخراب ، ومتى استقام أعرجُ مع قوام ، أو وجدَّ بين المتباينين التعام . وإنما كان هذا الوفاء ، لئلا يُنسبَ إليَّ الجفاء ، ونحن على الكدرِ دود الصفاء ، وعلى مانحن عليه من العدوان ، وإن لم يصِرْ بيننا معرفةٌ ولا كان ، ثم صار شُعْلَةٌ لَهَبٍ ، وترك السائحَ وذهب .

ثم قال ابنُ الملك : ومن أنواعِ المحبةِ والصداقة ، وما يتأكَّدُ فيها مِن العلاقة نوعٌ محبة ، تتوفر فيه الرغبة ، ينشأ من فرطِ الشهوة ، ويركبُ من صاحبه على الصهوة ، وتميلُ إليه النفسُ والطبيعة ، ولكن تكونُ استحالتهُ سريعةً ، فيزولُ بأدنى سببٍ ويشبه شواظَ اللهب ، يلهبُ ساعةً وقد ذهب ، وربما أدَّى إلى الهلاكِ

(٥٣) الفوق : الشوط ، والفوق من السهم : حيث بُيِّتَ الوتر منه .

(٥٤) للمهلك .

(٥٥) كافيتك : كافيتك .

والعطب ، كما فَعَلَ بالبطّة الثعلب ، حيث كانت محبتها غير صادقة ، ومودتها بالشهوة ممّا ذقّه^(٧) ، وشتان ما بين المحبة الخالصة والمحبة المناقفة ، لا جرم أدت إلى عكسها ، وإزهاق نفسها . قال الملك : أخبرني أيها الخبير ، كيف هو هذا النظر ؟ .

[٧/٢] حكاية البطّة والثعلب

قال ابنُ الملك : ذُكر أنّ زوجاً من البط ، كان مأوى على شط ، جارٍ بين رياض ، ومروج وغياض ، أزاهيرها عطرة ، ورياحينها نضرة ، وقريب من وكبر البطتين ، مأوى لأبى الحصين ، فحصل للثعلب ، المرضُ المسمى بداء الثعلب ، فسقط وبره ، وتمعّط صوفه وشعره ، وذاب جسمه ، وتهرى لحمه ، وقارب التلف ، واللحاق بمن سلف ، وصار كما قيل :

أصبح في أنراضه يُعذبُ كخِرقةٍ بآلٍ عليها الثعلبُ

فلما أنحلّه السقمُ وأضناه ، قالت له سلحفاة ، لما زاد به المرضُ واشتط : دواءُ ذلك كبدُ البط ، فإن أكلت كبدَ بطّة ، نصّلت من هذا البلاءِ البتّة . فقال : ومن لي بهذا الدواء ؟ إذ ليس لي حرّاكُ والبطُّ في الهواء ، فثيِّفْ هذا الداءِ العضال ، من بابِ التعليقِ بالبحال ، وكأنّ الشاعرَ يعنيني ، إذ سمع أنني ، ورأى سكوني ، تحت أحمال شجوني ، بقوله :

فَقَالَ قُمْ قُلْتُ رَجُلِي لَا تُطَاوِعُنِي فَقَالَ خُذْ قُلْتُ كَفَى لَا تُؤَاتِينِي

ثم استنهض همته ، واستنحي تهّمته ، وصمّم عزيمته ، واستعمل فكره ، واستورى مكره ، وقال لنفسه : لا تنجيك من هذا الإنكال ، إلا التشبُّثُ بذيلِ المحال ، لعل الله واهب العطية ، يظفرني بهذه الأمانة .

^(٧) ممّا ذقّه : غير ضائقة قائمة على الفش والفاق .

ثم توجه وهو يتشحط ، إلى صوب البط ، وصار يتلظى فى جنبات الشسط ، إلى أن لاح له بعد الأين^(٥٧) ، أنى هاتين البطتين ، فتخفى إلى أن قاربها ، ثم واثبها ، فما ساعدته القوة ، فهوى فى هوة ، فما وسعه إلا أن غالط ، وأظهر المودة وخالط ، وعبرت عيناه وبالط^(٥٨) ، وأرى من نفسه أن تلك الوثبة ، إنما هي من داعية المحبة ، ونهضة الاشتياق إلى الأحبة . ثم بادر وقال : مرحباً بالجارية الصالحة ، ومن نعوتها بمسلك العفة فائحه ، وأخلاقها غادية يبشر الخير رائحة ، المخدرة المحيية ، الحبيبة النجية ، حياك الله من قرينة رضية ، جميلة الأوصاف بهية ، فما أكثر إحسانك وفضلك ، وأوفر امتنانك وفواضلك ، لقد عممت بإحسانك ، جميع معارفك وجيرانك ، وأطقت زوجك وحلالك ، وتحقق كل أحد لحسن الشيم جلالك ، ومازال يُنفق عليها من حواصل هذه الخزعات ، ويُفعم أرذان عقلها من معادن هذه التمرهات ، حتى سكنت بعض السكون ، وركنت إليه أذنى ركون . ثم أخذ فى الإتياس ، ومهملي قواعد الأساس ، حتى اطمأنت ، واستكانت واستكنت ..

ثم قال : إنا لله ولا حول ولا قوة إلا بالله ، ترين ما رأى فيك زوجك من الخلل ، ولاح له من عيب حتى فعل ما فعل ؟ قالت : وما فعل ذلك الجعل^(٥٩) ؟ قال : لولا أن الغيبة رية ، والنميمة مشنومة ، ونقل المجالس القبيحة ، وإن كانت وقائعها صحيحة ، أمر مذموم ، وهذا معلوم ، لكنك أنصخت ، وأشبع القول ونصحت ، ولكن الصبر على الضرائر ، فعل الحرائر ، والورود لا يخلو عن شوك ،

(٥٧) الأين : التعب والإعياء .

(٥٨) بالظ فى أمره : بالغ واجتهد .

(٥٩) الجعل : حيوان كالخنفساء ، والجعل من الناس : الأسود النميم .

ولا الشبابُ عن نوع نوك^(١٠) . فلما سمعت هذه النجوة^(١١) ، حملتها الحبة المزوجة بالشهوة ، أن ألحت عليه ، وسألت إيضاح ما لديه ، وأقسمت عليه ، بحق الجوار ، إلّا ما أطلعها على هذه الأسرار . فقال : لَوْلَا أَنَّ الْجِوَارَ ذِمَّةٌ ، لَمَّا فَهْتُ بِكَلِمَةٍ ، خصوصاً وقد أَلَحَّخْتُ بالقسم ، وتشفَعْتُ بالجوار والدَّم ، وأيضاً لَوْلَا وفورُ الشفقة ، وعظمُ المحبة والمقة ، واعتمادى عليك أنك ثقة ، وأن صدرك مخزون الأسرار ، وأنتك سيدهُ الأحرار ، ما أَطْلَعْتُكَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَانَ وَصَارَ .

اعلمى أن زوجك المشتط ، قد خطب بنتَ مَلِكِ البطّ ، وله فى هذه المكيدة ، مدةٌ مديدة ، آخرها اليوم ، كان قد أرسل إلى القوم ، الماشية والخطابة ، أن يهتفوا أسبابه . فلما سمعت هذا الكلام ، سارَها من الغيرة الضرام ، ولم تشك فى أنه صادق ، وذهلت عن التبيين فى خبيرِ الفاسق . وجميعُ الأخبارِ عن الأزواج ، يتوقف فيها النساءُ إلّا خبيرَ الزواج . ثم إنها تماسكت ، وأرت تجلداً ومماككت . وقالت : أحلّ الله له ، من الأزواج ما طاب له ، لا حيلة إلا الانقياد ، وتركِ المراد ، وموافقة السنّة والجماعة ، والدخول تحت الأمر بالسمع والطاعة ، وماذا يفيدُ التذللُ والخيرة ، إنّ الحلالَ جَدَعَ أَنْفَ الْغَيِّرة . قال : والأمرُ كما ذكرت ، وما أحسن ما افتركت وصبرت ، وما يمكن الطعنُ فى الحلال ، ولكن هذا دليلُ اللال ، وكل مَنْ ادّعى هواك ، وتخلل فى طريقِ سواك ، ولو بخلالٍ مِنْ سِوَاكَ ، فلا شك أنه قَلَاكَ^(١٢) ، وبنارِ المحرِّ والجفاءِ سلاك ، وليسَ هذا ساعةً ومضى ، ولا حادثةً تقع ثم تنقضى ، إنما هو أمرٌ دائم ، ونزاعٌ أبدُ الدهرِ قائم . أنا ما أحشى إلا عليك ، بما يصلُ من التكدُّ إليك ، فإنَّ حقك ثابتٌ عليّ ، وضررك عائدٌ إليّ ، فإنك حارة

(١٠) النوك : الجمع .

(١١) السرّ الغامض .

(١٢) قلاك : كرمك .

قديمة ، معروفة بحسن الشيمة ، لم أر منك إلا الإحسان ، وعدم التعرض إلى إيذاء الجيران ، وكلُّ منا قد اعتاد بالآخر ، وباهى بصحته وجواره وفاخر ، وأخاف أن يتحدّ لي في الجوار ، مَنْ يتصدّى لي بالأضرار ، ويؤذى ولا يعرف حقَّ الجار ، لا يعرفني ولا أعرفه ، ولا ينصّني ولا أنصفه ، فيتكذّر لي الوقت ، ولا أخلو من نكس ومقت ، لاسيما وأنا ضعيف ، مبتلى نحيف ، فلا يستقيم الحال ، ولا أقدر على الارتحال . ولا زال يُسدّد المضارب ، ويفتل منها في البزوة والغارب ، حتى أثر فيها سمّه ، ونفذ في سويدائها من مكره سهمه ، فاسترشدته إلى وجه الحيلة ، في هذه النازلة الويلة . فقال : الرأي السديد ، والفكر الرشيد ، أنه إذا أوصل قوله بفعله ، وأتبع في آذاه فرضه بنفيله ، واختار غيرك عليك ، طلقه وألف زوج لديك ، وأرض الله واسعة ، وهو المعتدى في المقاطعة ، وأنا أكون السفير ، في زوج ينجل البدر اللير ، يعمّر دارك ، ويعرف مقدارك ، ويخدم كلبك وحمارك ، ويملأ وكرك خيرا ، وبطنك طيرا ، ودارك شعيراً وبراً ، مع كونه وافر الحشمة ، مسموع الكلمة ، قد جمع بين طرفي الأصلة والحرمة .

فقلت : هذا الذي تقول ، أمر معقول ، وإلى الآن ما وقع ، وعلى تقدير أن يقع ، إن حصل الشقاق والنفاق ، ترجيح الأندال المستجد على الكرام العتاق ، فيكون بيننا هذا الاتفاق ، وإن وقعت بيننا المعادلة ، ولم يحصل في حقّي منه مُساهلة ، ولا للضرّة عليّ مفاضلة ، كيف أشاققه ، وعلى فعلٍ مباح أضايقه ، فضلاً عن أنني أفاقره ، وكيف أخرب داري ، وأضرّ مجيبي وجاري ، وأشمتّ بي الأعداء ، ويحتاج بي من كلّ جهة البلاء . ولكن الرأي المحمود ، عندي يا ودود ، الصبر في كلّ حال على الدهر الكدود ، وتجرع الغصص لئلا يشمت الحسود . كما قيل في التمثيل : " ما بي دخول جهنم ولكن بي شماتة اليهود " ، فلمّا رأى

الخبث ، أنه لم يفض هذا الحديث ، ولم تنم له الحيلة ، وأفكاره الويلة ، قال أقول الحق الذى جصص ، ولا عنه عيذ ولا مخلص ، إن زوجك قد نُقل إليه ، أنك احترت غيره عليه ، وأنت عاشقة ، وصُحبتك له خادعة ومماذقة ، وثبت ذلك لديه ، وعقد اعتقاده عليه . وعزمه على الزواج ، إنما هو تعلل واحتياج ، لفتح باب الشر ، وتعاطى أسباب النكد والضّر . وقد ثبت عندي أن ذاك الأفك ، الأثيم السّفاك ، يريد أن يجرّك كأس الهلاك ، فتتفلي لنفسيك ، وتداركي غدك فى أمسك ، قبل حُلُولك فى رمسك ، واستقيمي قبل عكسك . وأنا منذ سمعت هذه الأخبار ، لم يقرّلى قرار ، وذلك لوفور الشفقة وحسن الجوار ، وقد زدت ضعفاً على ضعفى ، وكدت لهذا الغم أسقى كأس خنفي . وأنت ياغرض الحاسد ، تعلمين أن ليس لى غرض فاسد ، وهذا بديهيّ التصوّر لا يحتاج إلى تدبّر ولا تفكّر ، ولقد غرث عليك ، والأمر فى هذا كلّ منك وإليك . فتكلّر خاطرها ، وتشوشت ضمائرُها ، وضاقَتْ بها الحيل ، وتاه منها العلم والعمل ، ومن يسمع يحل ، وصالت أفكارها وجالت ، ويدّر منها أن قالت : والله لو أمكنتى لقتلتها ، ولو وجدت فرصة لأغثلتها ، واسترحت من نكد الدهر الغير ، وهذا العيش الوحش المكثّر . فالتقط الثعلب هذه الكلمة من فيها ، وعلم أن سهم خيل نفذ فيها ، لأن عقود الحبة انجلت ، وصورة المودّة القديمة زالت واضمحلت ، وتلاشت الصداقة بالكلية ، وانمحت شهوتها بأذنى جزئية . فقال : لا تهتمي لذلك ياضرة هند ، فعندى عقار من عقاقير الهند ، أحلى فى المذاق ، من ساعة التلاق ، وأمضى من السيفو فى جُكم الفراق ، اسمه أكسير الموت ، وتديبر الفوت ، وسُم ساعة ، وتقريق الجماعة ، لو أكل منه ذرة ، أو شَم منه نشره^(١٣) ، لقتل فى الحال ، وفرق

(١٣) النشر : العير .

الأوصال ، من غير إهمال . فإن اقتضى رأيك الأسد ، أن تخلصي من هذا النكد ، ناولتك منه شذرة ، تكفيك ذرة منه أمره ، فإن شئت أطعته ، وإن شئت أسمعته ، ولولا أنك عزيزة عليّ ، لم أفه لك من هذه الأمور بشي ، ولقد فضلتك على روحي ، فاكتمي هذا السر ولا تبوحى . فتحملت منه جميلته ، وعرفت قدرته وفضيلته ، وطلبت منه الدوا ، لتذهب به عن قلبها إلى جوى ، وتقتل زوجها المسكين ، وتسلم من نكده وتستكين . وزالت تلك الحبة القديمة ، ونسيت الصعبة والصدقة القوية ، ووعدها الثعلب أن يأتيها بالعقار ، وفارقها على هذا القرار . ثم إنها انتظرتو ليفي بوعدها ، واحترق صبرها من نار ستمها ووقدها ، وتقاعد الثعلب عنها ، ينتظر ما يتأتى منها ، فحملها مثير الوجد إليه ، وساقها الأجل المحتوم إلى أن قدمت عليه ، فدخلت وكّره ، وقبّلت يده وصدّره ، فتمكّن منها ذلك الغادر ، ومزّقها كما يريد فصارت كالأمس الغابر .

وإنما أوردت هذا التمثيل ، لئلا يكون أصحاب مولانا السلطان من هذا القبيل ، فيكون للتعتمد عليهم ، والمستند اليهم ، كالنائم على تيار الأنهار ، والمؤسس بنيانه على شفا جرف هار . قال الملك : معاذ الله يا ولدى ، وقرة عيني وكبدي ، أن يكون صاحبي ومعتمدى ، من هذا النمط ، وشبيهاً بالعفريت والثعلب والبط ، بل كل من أصحابى ، وسائر أوليائى وأحبائى ، ما منهم إلا الصديق المهذب ، والرفيق المؤدّب ، والشقيق المدرّب ، والعتيق المحرّب ، وقد جرّفته فى المودة والإخاء ، والشدّة والرّعاء ، والمروعة والسخاء ، كما جرى ذلك للتاجر المحرّب صديقه فى الشدة والارتقاء . قال الولد : ينعم مولانا الإمام ، بتقرير هذا الكلام .

[٨/٢] قصة التاجر والصديق ونصف الصديق

قال الملك : بلغنى أن بعضَ التجارِ الأكرمين الأخيار ، والكرمَاءِ الأبرار كان له مائَةٌ جزيل ، وولدٌ صالحٌ جليل ، سعيدهُ الطالع ، سديدهُ المطالع عالي الهمة ، مُتوالٍ الحشمة ، ميمونُ الحركات ، جميلُ الصفات ، حسنُ الصورة ، مشكورُ السيرة ، طاهرُ السريرة ، وكان أبوه قد تخيلَ فيه تخيلاً السعادة ، وتفرَّسَ فيه آثارَ النجابة والإجادة ، فكان لا يصيرُ عن تأديبه ، وارشاده إلى سبيلِ الخيرِ وتهذيبه ، وتربيته بمكارمِ الأخلاقِ وترتيبه . فقال له يا بُنيّ ، إنّ الإنسانَ يحتاجُ إلى كلِّ شيءٍ ، وأعظمُ ما يحتاجُ إليه ، ويعوّلُ فى التحصيلِ عليه ، الصاحبُ الصافى ، والصديقُ المصافى ، والرفيقُ المساعد ، فى وقتِ الشدائد ، فإنَّ المالَ مَيالٌ ، والذهبُ ذاهبٌ ، والفضةُ مُنفضةٌ ، والملبوسُ بوس^(١٩) ، والمأكَلُ متاكلٌ ، والخيلُ خيالٌ ، والفواضلُ شواغلٌ ، والذهبُ قاصِلٌ ، والعصرُ عاصى ، والأقاربُ عقاربٌ ، والوالدُ معاندٌ ، والولدُ كئيدٌ ، والأخُ فئعٌ ، والعمُّ غمٌّ ، والخالُ خيالٌ ، والدنيا وما عليها لا يُرْكَنُ إليها ، وما ثم إلا رفيقٌ ذو وفاء ، محبوبٌ على الصدقِ والصفاء ، إن غيبتَ ذكرَكَ ، وإن حضرتَ شكرَكَ ، مأمونٌ على نفسك ومالكِ ، وأهلكِ وعيالِكَ ، فى حالِكَ ومالكِ ، إن غابَ صانَكَ ، وإن حضرَ زانَكَ ، فهو أفضلُ موجودٍ يقتنى ، وأحسنُ مودودٍ يُصطفى ، فإن ظفرتَ به ، فتشبَّثْ بسببه . ثم قال له : يا بُنيّ ، قد أقمتَ فى الحضرِ ، وانقضى لك فيه ما ذُكِّرتَ مما حلا ومر ، فلا بأسَ أن تحيطَ علماً بأحوالِ السفرِ ، فإن السفرَ محَكُّ الرجالِ ، ومجْلِيَةُ الأموالِ ، ومكسبةُ التجاربِ ، ومראהُ العجائبِ والغرائبِ ، فاعزمْ على بركةِ الله تعالى وتوكلْ عليه ، واصحبْ معك فيه ما تحتاجُ إليه . ثم أفاضَ عليه المالَ ، وأضافَ إليه صالحى الرجالِ . وحينَ ودَّعه ،

(١٩) بوس (خففة) ..

وروصاه واستودعه ، قال : يابني ، لا تجعل دأبك ، وطلبك واكتسابك ، إلا استجلابَ الصاحبِ النافع ، دونَ سائرِ المنافع ، فإنه أوفرُ بضاعة ، وأربحُ تجارة ، وليس على الصديقِ الصدوقِ أبداً خسارة ، واجعله في سفرك نصيبَ عينك ، واشتره بنفسك ومالك ونفدك ودينك ، وقد قيل :

أَخَاكَ أَخَاكَ إِنَّ مَنْ لَا أَخَا لَهُ كَسَاعٍ إِلَى الْمُهْجَا بِغَيْرِ سِلَاحٍ

والمرادُ به الصديق . واعلم أن الأخ الصليبي^(١٥) ربما يضرُّك ، وأما الصديقُ الصالحُ فإنه أبداً يسرُّك ، والصاحبُ الشفيقُ خيرٌ من الأخِ الشقيق ، وقد قيل : " ربُّ أخٍ لم تلده أمك " فقبل الشاب وصية أبيه . ثم توجه في حشمه وذويه ، بقصدِ جميل ، ومالٍ جزيل ، فمكثَ غيرَ بعيد ، ثم عاد وهو سعيد . فقال له أبوه : حيثَ وحييت ، ما أسرَّعَ ما حييت ، قل لي أين ذهبت ، وماذا اكتسبت ؟ فقال : يابنتِ امتلئتُ مرسومك الكريم ، واكتسبتُ بالمالِ كلَّ وكيٍّ حميم ، وقد جئتُ بهم زُفراً ، وعيدتهم خمسون نفرا ، كلُّ منهم صديقٌ صادق ، ورفيقٌ موافق ، في الفضلِ بارع ، وإلى الخيرِ مسارع ، وفي الرخاء ، صادقُ الإحياء ، وفي الشدة ، أوفى عُدَّة . قال أبوه : يابني كيف تصفهم بهذه الصفة ، وتعرفهم بهذه المعرفة ، ولم تجربهم في قضية ، ولا واقعة صعبة أو رعية ، وقد قيل :

لَا تَمْلِكَنَّ امراً حَتَّى تُجَرِّبَهُ وَلَا تَلْفُظَنَّ مِنْ غَيْرِ تَجْرِبٍ

وقد قيل أيضاً :

إِذَا زُيِّنَتْ أَنْ تَصِفِي لِنَفْسِكَ صَاحِبَا فَمَنْ قَبْلَ أَنْ تَصِفِي لَهُ الْوَدَّ أَغْضِبَا

فإن كان في وقتِ الطغاسيبِ راضيا وإلا فقد جرَّبَتْهُ فَتَجَنَّبْهُ

وقيل أيضاً :

النَّاسُ أَكْبَسُ مَنْ أَنْ يَدْخُوا رَجُلَا مَا لَمْ يَرَوْا عِنْدَهُ آثَارَ إِحْسَانٍ

(١٥) الصليبي نسبة إلى الصليب ، يقال هو من صلب فلان : من ذريته .

واعلم يا ذا اللطائف ، أنى خائف ، أن يكون أصحابك ، وأصدقائك وأحبائك ، مثل أصحاب الرئيس ، المدير الخامل النفيس ، الذين رعوه فى روضٍ وفرة ، وتركوه فى قفرٍ فقره . قال ابنه : يَأْبَتْ ، كيف ورد ذلك وثبت ؟ .

قال التاجر : ذكر رواية الأخبار ، أنه كان فى بعض الأمصار ، رجل رئيس ، كبير نفيس ، له أموال وافرة ، وجهات متكاثرة ، وأماكن عامرة ، وضياع ومزروعات ، وبساتين وإقطاعات ، وعقار له ارتفاعات . فكان ولله يمد يده ، إلى كل معصية ومفسدة ، ويجترى ذلك السفية ، على كل ما يلوح له من جهات أبيه ، والتف عليه جماعة ، من عبيد البطن والجماعة ، كأنهم " طَيْرُ قِرْلَى " ^(٦٦) . إن رأى خيراً تَدَلَّى وإن رأى شراً تَعَلَّى " . ومَدَّ يَدَ الإسراف ، فى التبذير والإتلاف ، وصار أبوه ينصحه ، ويردعه عن جموحه ويكبحه ، وقال له : يابني استعمل الارتفاق فى الإنفاق ، واستخلص من الرفاق ، ذوى الإشفاق . واعلم أن هذا المال هو لك مدخر ، ولتصرفك فيه مُتَنَظَر ، وإنما أنا لك خازن ، والله تعالى مجاز ، على فعالي من مَسَاوٍ ^(٦٧) ومحاسن ، وتيقن أن المال هو عزك فى الدنيا ، وزادك إلى الأخرى ، وأن له وجوهاً ومصارف ، وعوارف ومعارف ، فإذا صُرِفَ فى غير محلّه ، ودُفِعَ إلى غير أهله ، كان إثماً ووبالاً ، وفى الآخرة عذاباً ونكالاً . وأحق الناس ، المستحق لنزول البأس ^(٦٨) ، مَنْ اكْتَسَبَ لِلْمَالِ حِلَالاً ، وبشره فى الفساد يميناً وشيمالاً ، وأدخر به إثماً وجبالاً ، فَصَرَفَهُ إِلَى مَنْ لَا يَحْمَدُهُ ، وعليه حسابه ونكده ، وأنت إذا صرفت مالك و زرعته ، وفى غير مواضعه زرعته ، وأنفقتة على مَنْ لَا

(٦٦) القِرْلَى : طائر صغير الحجم ، حديد البصر ، شديد الحذر ، سريع الاعتطاف وهو : ملاعب ظله . والمثل من الأمثال المولدة ، ورد عند الثعالفى فى كتابه : التمثيل والمحاضرة .

(٦٧) مساوئ (عققة) .

(٦٨) البأس الشدة (عققة) .

يعرفُ فضيلتك ، ولا يحملُ جملتك ، ولا يشكرُ صنعك ، ولا يقصدُ نفعك ، ولا يجلبُ لك خيرا ، ولا يكشفُ عنك ضيرا ، خرجتَ من عزِّ الدنيا ، وفوتَ زادَ الأخرى . وهؤلاء الذين قَبَّلَكَ مُهْطِعِينَ^(٧٩) ، عن اليمين وعن الشمال عِزِينَ^(٨٠) ، ثمرَةٌ صحيَّتِهِم الندامة ، وعاقبةُ أمرِهِم الخيبةُ والملامة ، والبعدُ عنهم غنيمَةٌ وسلامة .

وإذا كان الأمرُ كذلك ، فإياك يا ولدي ثم إياك ، مِنْ صحبةِ هؤلاء الأحداث ، والتلوثِ بقرْبِهِم فَإِنَّهُمْ أَحْبَابُ ، واحتفظْ بصونِ مالك ، ولا تنفقْ إلا على نفسك وعيالك ، وفيما يُبْقِي ماءَ وجهك في حالك ومالك ، ولا زال أبوه قابضَ عِنايته ، بقدرِ طاقته وإمكانه ، يذكرُهُ هذه الوصيَّة ، بكرةً وعشيَّةً ، حتى أدركته المنيَّة ، وخلفَ ذلك المالَ العريض ، لذلك الولدِ المريض . فَمَدَّ يَدَهُ كما كان إلى كلِّ مفسدة ، ونَسِيَ يَوْمَهُ وغَدَهُ ، وشرح في مِثْلِهِ مَثَلَ اللُّهُو ، وقرَّرَ بمحدثٍ من كتابهِ فَقَهَ الزَّهْو ، بابَ الأنجاسِ وسجودِ السُّهُو ، واجتمع عليه قرناءُ السُّوءِ وحضروا ، خلَّاه ولهم الجلوُ فَبَاضُوا في الفسادِ وصَفَرُوا^(٨١) ، وغابوا عن الرشادِ وما حضروا ، وصاروا يعظمُونَهُ ، ويكرِّمُونَهُ ويحترمونَهُ ، فإذا كَذَبَ صدَّقُوهُ ، وإذا ضَرَطَ سَمَّتُوهُ وشَمَّتُوهُ^(٨٢) وإذا نَهَى طَرَبُوا ، وإذا أخطأ صوبوا ، وإذا قعد قاموا ، وإذا قام ناموا ، يَفْدُونَهُ بالمهج والأرواح ، ويلازمون خدمته في المساءِ والصباح . وكان له أُمُّ مدبورة ، عاقلةٌ مفكِّرة ، فقالت له يا بني : لا تكن "صُبيَّ" وتذكرُ وصايا أبيك ، وإياك وَمَنْ يَلِيكَ ، وتأمَّلْ ما لديك ، واحفظْ ما لَكَ وما عليك ، ودبِّرْ معاشك ،

^(٧٩) للهطع : مَنْ يَنْظُرُ فِي ذُلٍّ وَخُسْرٍ .

^(٨٠) العِزِينَ : جمعُ العِزَّةِ وهى الفِرقةُ من الناس . وجملة (عن اليمين وعن الشمال عِزِينَ) نص قرأنى مقتبس

(تضمنين).

^(٨١) من الصَّغِير . والعبارة في أصلها مثل عربى قديم بهذا المعنى ، دلالةً على مطلق الحرية .

^(٨٢) سَمَّتُوهُ وشَمَّتُوهُ : دعوا له بالخير والعافية .

وَصُنْ مَاءَ وَجْهِكَ وَرِيَاشَكَ . وَاَعْلَمْ أَنَّ أَصْحَابَكَ ، وَعَشْرَتَكَ وَأَحِبَّاءَكَ ، وَنَدْمَاءَكَ وَرُقَقَاءَكَ ، وَأَخْصَاءَكَ وَأَصْدِقَاءَكَ ، كُلُّهُمْ عِيْدُ الْبَطْنِ ، وَلَوْ رَقَاتٌ^(٧٣) بِسَدَى شَيْقٍ^(٧٤) أَوْ حَصْنٍ ، لَا خَيْرَ عِنْدَهُمْ وَلَا مِيرَ^(٧٥) ، وَجَمِيعُهُمْ "كَسِيرٌ وَعَوِيرٌ"^(٧٦) فَيَاكَ إِيَّاكَ ، وَصَحْبَةٌ مِنْ لَا يَتَوَلَّاكَ ، لَا تَرْكُنْ إِلَى صِدَاقَتِهِمْ ، وَلَا تَعْمَدْ عَلَى مُوَافَقَتِهِمْ ، فَإِنَّهُمْ فِي الرِّعَاءِ يَأْكُلُونَكَ ، وَفِي الْبَلَاءِ يَرْكُونُكَ ، وَإِلَى غَالِبِ الْقَضَاءِ يَسْلُمُونَكَ ، وَأَسُّ مَالٍ مَحْتَتُهُمْ مَا فِي يَدَيْكَ ، وَأَسَاسُ بَنِيَانِ مَوَدَّتِهِمْ مَا يَرُونَهُ مِنَ النِّعْمَاءِ عَلَيْكَ ، فَإِنْ قَلَّتْ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ قَلُّوا ، وَخَلُّوكَ فِي عُقْدِ النِّوَائِبِ مُرْهُوَطًا وَانْخَلُّوا .

وَأَقْلُ الْأَقْسَامِ ، يَا ذَا الْأَصْلِ السَّامِ ، أَنْ تَجْرِبَ أَصْحَابَكَ ، وَتَخْتَرِ مَنْ يَلَازِمُ بَابَكَ ، وَيَقْبَلُ بِشَفَاؤِ الْمَوَدَّةِ أَعْتَابَكَ ، فِي شَيْءٍ نَابَكَ ، أَعَجَزَ عَنْ حُلِّهِ نَابَكَ ، مِنْ حَوَادِثِ الْقَضَاءِ ، أَوْ فِي حَالِهِ مِنْ أَحْوَالِ الْغَضَبِ وَالرَّضَاءِ ، أَوْ السَّعَةِ وَالضُّيْقِ ، أَوْ التَّكْذِيبِ وَالتَّصْدِيقِ ، فَمَنْ وَجَدْتَهُ نَاصِحًا صَادِقًا ، أَوْ مَطَاوِعًا مُصَادِقًا ، وَفِي كُلِّ الْأَحْوَالِ مُوَافِقًا ، وَفِي الرِّعَاءِ وَالشَّدَةِ مُرَافِقًا ، يُوَثِّقُ بِهِ فِي الْغَيْبَةِ وَالْحُضُورِ ، وَحَالِي السَّرُورِ وَالشَّرُورِ ، يُوَدِّي الْأَمَانَةَ ، وَيَحْتَنِبُ الْخِيَانَةَ ، وَيَغَارُ عَلَى دِينِكَ وَعَرْضِكَ ، وَيَسَاعِدُكَ عَلَى أَدَاءِ سِتِّكَ وَفَرْضِكَ ، فَارْكُنْ إِلَيْهِ ، وَاعْتَمَدْ فِي أُمُورِكَ عَلَيْهِ ، وَمَنْ وَجَدْتَهُ مُنَافِقًا ، وَفِي إِخْلَاصِهِ مُمَازِقًا ، يَنْسُجُ شَقَّةَ الْوَدَادِ بَوَاجِهَيْنِ ، وَيَتَكَلَّمُ كَخَائِضِ الْمُنَادِ بِلِسَانَيْنِ ، فَلَا تَقْرَبْهُ وَلَا تَصْحَبْهُ ، فَإِنَّ بُعْدَهُ غَنِيمَةٌ ، وَإِخْلَاصَ مِنْهُ نِعْمَةٌ

(٧٣) رَقَات : أَصْلَحَتْ .

(٧٤) الشَّيْقُ : الشَّقُّ بَيْنَ الصَّخْرَتَيْنِ .

(٧٥) مِيرًا : مَرًّا : أَحَدُ لُحْمِ الْمَيِّتِ ، وَهُوَ الْعَطَامُ يَجْمَعُ لِلْسُّفَرِ وَغَوَاهُ .

(٧٦) عِبَارَةٌ مَثَلِيَّةٌ .

جنيمة ، وانظر بعين الثبات ، مافى هذه الأبيات ، من حسن الصفات ، فَمَنْ كان بها متصفا ، فتمسك بأذياله فإنه من أهل الصفا ، وهى هذه :

وقد قيل قول المرء يكشف عقله	ويُبدى سبحانه وما كان يكتُم
فهذا كلامى مظهر ما أكنه	وأكثر هذا الخلق عن عيهم غُموا
فمن شيمتى أنى مطيع لصاحي	وأصلح عن خصمى وإن كنت أخصم
وأرضى لنفسى دون ما هو حطها	والزُفها للخل ما ليس يلزم
إذا قال أصغى للمقال وإنسى	لأعلم منه بالمقال وأفهم
ولم أشك من عجل لئلا يُلنى	ومن لى يعجل لا يُلنى ويُسام
وأقطع لى بلى وإن كنت غالبا	وأسكت حتى قيل ذا ليس يعلم
لأبقى وداد الناس لى لا أُنبتعه	ومن لا يداوى الناس يُرمى ويُرغم
وفى كل ذا نوى الإله فعائري	ولا بُد من لا يتقى الله يسلم
ولا نقص فى عقلى وأسباب نعمتى	وأنسى وأفى بالكمال مكسرم
ولى همة يسمر إلى الأفق قنورها	ولكن عُقول المسر للدين أسلم
ووجه اعتقاده مثل عرصى أبيض	وديسى متين واعتمادى مُقسوم
وحسنى من دنياي قوت وعزقة	يبلبنى آسار من قد تقسموا
فهندي غريزات لى وأنسى	لأذغر إلى هلى الحصال وأعزم

فأثر هذا الكلام فيه ، وتأمل ما تضمنته فحوايه ، ثم أراد أن يجرب ملازميه ، ومن بروحه وجسده يقدبه . فقال يوماً من الأيام ، وقد اجتمعوا على منادمة اللدام : اتفق أمر عجيب ، وشأن غريب ، وهو أنه كان عندنا هارن ، فى زاوية عزون ، رتته رُبُع قطار ، أتى البارحة عليه الفار ، فقرضه وأكله ، وعَمّه بالأكل وشمله ، فلم يترك من ذلك النحاس فى مكانه ، إلا ما فضل من برادة أضراسه وأسنانه . فترسخت ثغور أذانيهم منطقة ، واستحلى كؤوسها كل منهم وصلته .

وقالوا : هذا وقع بغير شك ، لأنّ الهاون كان فيه وَدَكٌ ^(٧٧) ، والغارُ أسنانه باضعة ، وأضرأسه لِحْنٌ حرافيش بغداد قاطعة ، فلما رأى أنهم وافقوه وصوبوا كلامه وصدقوه ، ازدادت فيهم محبته ، وقويت إليهم رغبته ، حيث رفعوا رتبته ، وسوّوا في حبيب مكنونهم عينه ، وحققوا مُحَالَه ، وصدقوا مَقَالَه . فأسرع إلى أمّه مسروراً فرحاً ، محبوباً منشراحاً ، وقال : يا أمّاه ، انظري كلام أصحابي ، واخبري مقام أحبائي ، ذكرتُ لهم كلاماً باطلاً ، ومن حليّة الصدقِ والإمكانِ عاطلاً ، فحقّقوه بلا مرّية ، واثبتوا حقيقته من غير قرينة ، وصاغوا له من جواهر التوجيه أبهى حلية ، وذكر ماجرى لهم وله ، من الجنونِ والحُبَاطِ ^(٧٨) والولّه .

فقلت له أمّه : يا ولدى ، ومهجة كبدى ، هذا أمرٌ يضحكُ منه الجاهل ، ويبكى على جالك الخالِكُ ^(٧٩) منه العاقل ، كما قيل :

أمرٌ تضحكُ المُفْهَاءُ منها ويخشى من عواقبها اللبيبُ

اعلم أيها الذاهلُ الغافل ، أنك لست من أصحابك على طائل ، وهؤلاء أعداء ، فى صورة أودّ ، وهم فى التمثيل كما قيل :

إذا امتحن الدنيا لبيبٌ تكشف له عن غدو في ثياب صديق

وتيقن أن هؤلاء فى النعمة خدّاعون ، وفى النقمة لذّاعون ، وأنت شابٌ غرير ، وبأعقاب الأمور لست ببصير ، لا مارست الخلق ، ولا فرقت بين الصادق من ذوي الملق ، لا خبّرتهم ولا سبّرتهم ، ولا دخلت مداخلهم ، ولا ميّزت خارجهم وداخلهم . إنّ الصديق الصادق ، والرفيق الفائق ، من بصركم عيوبكم ، وغفر لك بعد نصيحتك ذنوبك ، وأطلعك على حقائق الأشياء ، وبهالك على ما خفي من

^(٧٧) الودك : دسم اللحم وُدعته الذى يستخرج منه .

^(٧٨) الحباط : الصرع .

^(٧٩) الخالك : شديد السواد .

أمور الدنيا ، وأرشدك إلى ما يزينك ، ويُصلح به دينك ودينك ، وأبكاك إذا نصحك ، لا مَنْ أضحَكَك وفضحك . وأما الذى يلدس ويلبس ، ويوسوس ويهوس ، ويروج الباطل ، ويحلى العاقل ، فذاك ليس بصديق ، على التحقيق ، وإنما هو عدو ، فلا يكن لك معه قرار ولا هدو . فلم يلتفت الشاب ، إلى هذا الخطاب ، حيث كان مصادماً لغرضه ، غير شافٍ لعلته ومرضه ، وقال : صدق مَنْ نطق ، وفاه بالكلام الحق ، مَنْ قال " إفشاء السر إلى النساء فعل الأحمق " . ثم تركها ترغو ، واستمر هو مع أقرانه يلهو ، ودأب على تلك الحال ، حتى إذا دنت لنفاذها الأموال ، وبيع الرخيص والغال ، فما استفاق من سكرته ، واستيقظ من رقدته ، إلا والأموال قد ذهبت ، والديون قد ركب ، وهو ينشد ، وإلى مذهبه يرشد :

يَلْبَثُوا فِي مَلَامِي أَنْتَمَا ذَهَبُوا فِي الْحَمْرِ لَا فَضَّةَ بَقِيَ وَلَا ذَقَبُ

إلى أن " ذهبت السكر ، وجاءت الفكرة " ونفقت البيضاء والصفراء^(٨٠) ، فى الحمراء والخضراء^(٨١) . وأصبح ملقى على الأرض السوداء ، واتعس من فوق الغبراء ، وأفلس من تحت الزرقاء ، وتراجع عنه الأصحاب ، وعاداه الأصدقاء والأحباب ، ورجعوا عنه ، بعد ما ستموا منه ، وصار ناديه يناديه :

كَانَ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْحَيَوْنَ إِلَى الصَّبَا أَيْسَ وَلَمْ يَسْمُرْ بِمَكَّةَ سَامِرُ

وصارت محبتهم له تكلفا ، ورؤيتهم إياه تعسفا . فاتفق له فى بعض الأيام ، أن قال فى أثناء الكلام ، لذلك الجمع بعينه ، الذين كانوا أجمعوا على صدق ميثه^(٨٢) : الفار الغدار أكل لنا فى الدار البارحة رغيفا كاملا ، فأتى على أكله شاملا ، فما

(٨٠) نفقت البيضاء والصفراء : انتهى المال من فضة وذهب ، ولم يبق منهما شيء .

(٨١) الحمراء والخضراء : الخمر والحشيش .

(٨٢) الذين : الكلب .

أبقى منه لُبابة ، ولا غادر من غدير وجوده صباية . فتناذروا للحال بالمحال ، والكذب في الأقوال : الفار الضعيف ، كيف ياكل كلَّ الرغيف ، وهو عاجز نحيف ، وتنازلوه بالطعن ، وتناوشوه بالسنة السبِّ واللَّعن ، وزيفوا أقواله ، وسفَّهوا أفعاله .

وإنما ذكرتُ هذا الكلام ، يا أيمن غلام ، وأحسن من الهدر التمام ، لتعلم أنَّ أكثرَ مَنْ يدَّعي صدقَ الصحابة ، من ذوي المعارفِ والقرابة ، إنما دَعَّاه كذابة ، كسحابٍ صيفٍ لا يديمُ انسكابه ، وأنَّ الشخصَّ مع الناس ، الأوغاد والأكياس ، بمنزلةِ كوزِ الفُقَّاع^(٨٧) ، إنْ رأَوْا في حلاوةِ الانتفاع ، استلموه وبالأيدي رفعوه ، وقيلوه ورشفوه ، وإذا مصَّوا محصوله وفرَّغوه ، رموه وتركوه ، ونحت الأقدام طرحوه . ثم قال التاجر لولده ، راحِ روجه وجسليه ، وإن كان مَنْ صَحِبْتَهُمْ ، وفي سفرك اكتسبتهم ، مثلَ هؤلاءِ الأصحاب ، فإياك أن تفتحَ لهم الباب ، وترفعَ بينك وبينهم الحجاب . فقال الولد : معاذَ الله الواحدِ الأحد ، يا أبت ، عندى نيت ، أنهم بدورٌ كرام ، وصدورٌ عظام ، يقومون لقيامي ، ويُنصتُون لِكلامي ، ويُحييون ندائي ، ويُؤمِّنون على دعائي ، وهم أخلاء ، فى السراء والضراء .

فقال أبوه : يا ابنى ، وقرَّةَ عيني ، أنى عمَّرتُ سبعينَ سنة ، وعانيتُ من الأمورِ الخشنةِ والحسنةِ ، وبلوتُ الأصحاب ، وتلوتُ الأعداءَ والأحباب ، ورأيتُ الدنيا وأهلها ، وقلبتُ وعرها وسهلها ، ولم أتركُ من جنسِ بني آدم ، فى أكنافِ الآفاقِ وأطرافِ العالم ، من أسمِ العربِ والعجم ، نوعاً لم أخبِّره ، وصنفاً لم أسبِّره ، فلم يَصْنَفْ لى على التحقيق ، غيرُ صديق . ونصفُ صديق ، فأنطَ يابني العزيزِ الغالى ، كيف قَدَّرتُ بالتوالى ، فى هذه المدَّةِ اليسيرة ، على جَمْعِ هذه الطائفةِ الكثيرة ، وها

(٨٧) الفُقَّاع : شراب يُنخذ من الشعير ، يُخمَّر حتى تملوه فُقَّعاته .

أنا يا إمام ، أريك مصداقَ هذا الكلام ، وأطلعك من بين الأصحاب على ما لهم من مقام .

ثم عمَدَ إلى شاةٍ فذبحها ، وبديها في ثيابٍ طرحها ، ثم دججها ، وفي كفنٍ أدرجها ، وقال لابنه : قُمْ يا ذا الارتقاء ، أرني هولاءِ الأصدقاء ، واحداً بعد واحد ، لِنَحْقُقَ غَيْبَ عِيهِم بالشاهد ، وتعرفَ طرائقَهُم ، وتبينَ حقائقَهُم . ثم وضع الشاةَ في عِدْلٍ^(٨٤) ، وأعفى كل هذا الفعل ، وحمل العِدْلَ على ظهر غلام ، وخرج ليلاً والناسُ نيام ، وقصد أحدَ الأصحاب ، وطرقَ عليه الباب ، فخرج مسرعاً إليه ، وترامى متواضعاً بين يديه ، وأظهرَ البِشْرَ والسرور ، والابتهاجَ والحبور ، وبلغ في الاحتشام ، والإكرام والاحترام ، وشكر مساعي الإقدام ، ثم يادر إلى دعوته للدخول ، وتعاطى إنجاح ما له من سؤل ومأمول . فقال له الشاب : يازينَ الأصحاب ، وعينَ الأحباب ، دِعِ الكلام ، لضيق المقام ، فقد دهنتُ دهيّة ، وعرنتُ بليّة ، وأعظمتُ بها من قضية ، وبأها من رزية . فقال : ما هي ، وقتِ الدواهي ؟ فقال : كان بيني وبين واحدٍ من أهلِ الشقاوةِ خصومةٌ قديمة ، وأسبابُ عداوة ، اسمه معروف ، وذكرُهُ موصوف ، لشخصٍ مفقود ، لم يكن له حقيقةٌ في الوجود ، وهو من أكابر الزمان ، وأحدُ الرؤساءِ والأعيان ، فتَلَقَّينا في بَحْلوة ، وتداعينا ما بيننا من جفوة ، وتنايشنا الأسباب ، وتناوشنا باللّعنِ والسباب ، وتناولنا في الشقاق ، شقَّ الأعراق^(٨٥) ، وتآذتِ القلوبُ من الأغراض ، بالأمراض ، وتقلنا من المكالمة إلى المشائمة ، ومن اللواصمة للملاكمة ، وترقينا من الكفاح ، إلى الجراح ، فثارتِ النفسُ المشتمومة إلى إيقاع حركةٍ ذميمة ، فضربته

^(٨٤) العِدْل : الجوالق وهو وعاء من صوف أو شعر أو غيرها كالفرارة (وهو عند العامة : شوال) .

^(٨٥) الأعراق ، واحدها عرق ، وهو الأصل .

فجرحتُه ، وقتيلًا طرحته ، ولم يشعر بنا أحد ، من أهل البادية والبلد ، وندمتُ غاية الندم ، وأنى يفيدُ وقد زلتُ القدم ، وجرى قلمُ القضاء بما حَكَمَ . ثم أفكرتُ بمنزلة أستعين ، على هذا الأمر اللعين ، وأدرتُ في خاطري كلَّ مساعِدٍ ومعين ، فلم يَعلُ القلبُ إلا إليك ، ولا استقرَّ الخاطرُ في ركونه إلا عليك . وقد قصدتُ جنابك ، ويمتُ بآبك إذ أنتَ أعزُّ خدوم ، والسرُّ عندك مكتوم ، وهابو مقتولا ، أتيتُك به محمولًا ، فاحفرْ لهذه الجثة حفيرة ، واخفني عندك أياماً يسيرة ، إلى أن تطفأ هذه النائرة ، وتسكنَ الفتنة الشائرة . وهذا وقتُ المروءة ، زمانُ الفتوة ، والقيامُ بحقِّ الصداقة والأخوة . فلما سمع الصاحبُ اللبق ، هذا الكلامَ القلق ، تضجَّرَ وتضرَّرَ ، وتكدَّدَ وتضوَّرَ ، وقال : يا أخي ، بيتي عتيق ، مع أنه جُحُرٌ مضيق ، لا يسعُ أولادى ، ولا زادى وعنادى ، وإذا ضاق عن الأحياء فكيف بالأموات ، وهذه بليَّة من أوحشِ البليَّات ، وأظنُّها لا تخفى على الناس ، ويدركُها أولو الفراسة والأغبياء فضلاً عن الأكياس ، لأن قضاياكم قبل اليوم مشهورة ، وبلغني أنَّ عدواؤكم قديمة مذكورة ، وفي التواريخ وصدور الكتب مسطورة ، ولكم وقعات ونوازل ، وله أيتام كأنهم الرغبُ الجوازل . وأما أنا فلا يمكننى الدخول فيها ، ولا تعاطيها ، بوجهٍ من الوجوه ، ولا تلافيها ، فاكفنى شرَّ ضيِّرها ، واندبني إلى غيرها ، وإنى أكثُم سرِّها ، فلا تخف من جهتي شرِّها ، فألحَّ عليه فما أفاد ، ورَدَّه غيرَ ظافرٍ بما أراد .

فلما أيس منه ، تركه وانتقل عنه ، ودارَ على سائر أصحابه ، وذكر لهم مثلَ الأول وخطابه ، فكان جوابُ الجميع مثلَ جوابه ، إلى أن أتى على الجميع ، واستوفى شريفهم والوضيع ، ورأى ما هم عليه من طبعٍ بديع ، كأنهم كانوا متواردين على شرب هذا الصنيع ، فعاد إلى دار أبيه ، ورجع إلى صحبة بيان التنبيه .

فقال له : بمديرِ الفلّك ، أَحَقَّقْتَ صدقَ ما قلتُ لَكَ ، وَتَبَيَّنَتْ ماهِيَّةُ أَصْدِقَائِكَ ، وَحَقِيقَةُ أَوْلِيائِكَ ، وَأَنَّهُمْ نَقَشُ حَيْطَانٍ ، وَرَقَشُ غَيْطَانٍ ، وَغَمَامٌ بِلَا مَطَرٍ ، وَأَكْمَامٌ بِلَا زَهَرٍ ، وَأَجَامٌ بِلَا لُحْمٍ ؟

ثم قال : قُمْ يَا زَيْنَ الْأَحْبَابِ ، أُرِيكَ مَا قُلْتُ لَكَ مِنْ حَقِيقَةِ الْأَصْحَابِ ، ثُمَّ دَخَلَا الطَّرِيقَ ، وَقَصَدَا نَصْفَ الصَّدِيقِ ، وَطَرَقَا الْبَابَ ، فَخَرَجَ وَتَلَقَاهُمَا بِالزُّحَابِ ، فَقَالَ لَهُ ذَلِكَ الْمَقَالُ ، وَقَصَدَ بِمَعُونَةِ الْخَلَاصِ ، مِنْ ذَلِكَ الْعَقَالِ ، فَقَالَ : حُبًّا وَكَرَامَةً ، حَلَلْتُمَا بِمَنْزِلِ السَّلَامَةِ ، أَنَا بِكُمْ نَشِيطٌ ، وَأَجْلُكُمْ بِي بَسِيطٌ ، غَيْرَ أَنِّي أَعْلَمُكُمْ أَنَّ مَنْزِلِي غَيْرُ فَنَسِيحٍ ، حَتَّى أَدْفِنَ فِيهِ هَذَا الدَّبِيحَ ، وَلَيْسَ لِي عِجَابَةٌ وَلَا مَخْدَعٌ ، وَلَا سَكَنٌ فِي مَطْلُوبِهِ وَلَا مَصْنَعٌ ، وَأَخَافُ أَنْ أَمْرُكُمْ لَا يَخْتَفِي ، وَبِهَذَا الْمَقْدَارِ فِي أَمْرِكُمْ لَا أَكْفَى ، وَيَدِي لَا تَمْلِكُ غَيْرَهُ ، وَقَدْ وَقَعْتُ بِهَذَا السَّبَبِ فِي خَيْرَةٍ ، وَبِالْجَمَلَةِ وَالتَّفْصِيلِ ، أَنَا أَكْفِيكُمْ شَرَّ هَذَا الْقَتِيلِ ، فَقَالَا لَا نَقْتَعُ بِذَلِكَ ، وَلَكِنْ سُدُّ عَنَّا الْمَسَالِكَ . فَقَالَ : تَوَجَّهْ حَيْثُ شِئْتُمَا ، فَلَا أَنَا سَمِعْتُ وَلَا أَتَمَّا قَلْتُمَا . فَتَوَجَّهَا إِلَى الصَّدِيقِ الْكَامِلِ ، وَذَكَرَا لَهُ الْأَمْرَ الْحَاصِلَ ، وَقَصَدَا بِتَلَاْفِيهِ كَرَمَهُ الشَّامِلِ . فَقَالَ لهُمَا : أَوْشِيَّةٌ غَيْرُ ذَلِكَ ، وَقَاكُمَا اللَّهُ شَرَّ الْمَهَالِكِ ؟ فَقَالَا : لَا ، إِلَّا دَفَنِي هَذَا الْمَقْتُولِ ، وَإِخْفَاءَ هَذَا الْأَمْرِ الْمَهُولِ ، وَأَنْ نَكُونَ تَحْتَ أَذْيَالِكِ السَّاتِرَةِ ، حَتَّى تَسْكُنَ هَذِهِ الْفِتْنَةُ الدَّائِرَةَ . فَإِنْ أَهْلَهُ يَطْلُبُونَا ، فَإِنْ وَجَدُونَا يَسْلُبُونَا ، وَلَا يَرْضَوْنَ إِلَّا بِالْدمَارِ ، وَخَرَابِ الدِّيَارِ ، وَلَا يَقْنَعُونَ بِالْمَالِ وَالْعَقَارِ ، وَهَذِهِ قَضِيَّةٌ عَظِيمَةٌ ، وَدَاهِيَةٌ جَسِيمَةٌ . فَإِنْ كُنْتَ تَنْهَضُ بِإِطْلَافِهَا ، وَحَمَلِي أَعْبَائِهَا ، وَتَسْعَى فِي إِخْفَائِهَا ، فَقَدْ قَصَدْنَاكَ ، وَدَوَّنَ الْأَصْحَابُ أَرْدْنَاكَ ، فَإِنْ عَجَزْتَ عَنْ سَلِّهَا ، فَلَا عَتَبَ عَلَيْكَ فِي رَدِّهَا ، وَلَا تَتَكَلَّفُ فَوْقَ طَاقَتِكَ ، وَلَا تَتَحَشَّمُ لِأَجْلَانَا غَيْرَ اسْتَطَاعَتِكَ . فَقَالَ : سُبْحَانَ اللَّهِ ، وَأَسْوَآتِهِ ، هَذَا يَوْمُ الْمَرْوَعَةِ وَالْوَفَاءِ ، وَتَذَكَّرُ

وسائل إخوان الصفاء ، فلكم الفضل إذ قصدتموني ، والجميلة الثامنة حيث أردتموني ، أما والله لو كان ألف قتيل لأرسلته ، وكل ما كان من أمر غيره جارقه وداريته ، لا يسمع أبداً غيره ، ولا يرى عينه ولا أثره ، وأما أنتم فأفنديكما بروحي وأولادي ، وطريفي وتلاذي . وعندى ديار ، أنزه من جنات الأبرار ، وأفيح من كل دار ، فادخلوها بسلام آمين ، فإنها تشرح كل قلب حزين ، ولو أقمتم بها سنين ، ما شعر بكم أحد من العالمين . فيها أرغب نديم ، وأقرب خديم ، وأحسن جليس ، وأمين أنيس ، فلن تملوا مقامها ، ولا تعدموا إكرامها ، فأنتم عند من لا يمل أبداً نزيهه ، ولكم فى ذلك الفضل والجميلة .

قال التاجر : شكر الله سعيك ، وحفظ على أصحابك مودتك ورعيك . ثم ودعه وانصرف ، وقد عرف الولد من حقيقة الأمر ما عرف . ثم قال لولده : يا بني ، وأمر عندى من كل شيء ، إن اتخذت الصديق ، فليكن صديقك على هذا الطريق ، وإلا فالانفراد أحسن ، والعزلة أوفق إن أمكن ، كما قيل :

فَسَاقِ حَيَّ كُلِّ الْمَلَحِ كَمَالَا هَكَذَا هَكَذَا وَإِلَّا فَلَا

ولقد أرشد من أنشد ، حيث قال هذا المقال :

مَا لِي زَمَانِكَ مَنْ تَرْجُو مَوَدَّتَهُ وَلَا صَدِيقٌ إِذَا جَارَ الزَّمَانُ وَكَلَى
فَعَشَنُ فَرِيداً وَلَا تَرَكُنْ إِلَى أَحَدٍ إِنِّي نَصَبْتُكَ فِيمَا قَدْ جَرَى وَكَلَى

ثم إن الملك قال لأولاده : يا ذوى الأفضال ، إن غالب أصحابي من الأمراء ، والرؤساء الكبراء - خصوصاً " فلان " أمير ممالك خراسان - هم من هذا القبيل ، وأنا عودتهم هذا الجميل ، فتكونوا فى الحقيقة ، متمسكين بأسباب هذه الطريقة . فلما أكمل وصيته أولاده ، هياً لسفره عتاده ، وذكر الله وزاده . ثم ودعهم من دار الشرور ، وانتقل إلى دار الحبور والسرور ، وقد عهد إلى أكبر أولاده ، واستودعهم الله وهو القاهر فوق عباده ، من لا تضيق الودائع لديه ، ولا ينجب من

توكل عليه . فسمعوا الوصية وأطاعوا ، وتعلقوا بأذيال الهدايا فما ضاعوا / واستمروا تحت أمر أحييهم ، كما كانوا في حياة أبيهم ، كأن أباهم ما مات ، ولم يقع بينهم شتات ، فدام لهم السرور ، وانحسرت عنهم مواد الشرور ، وأشرقت بهم ممالكهم وأملأهم ، ودارت بالسعود أفلاكهم .

ثم إن الحكيم حسيب ، انتقل من كلابه العجيب ، بعد فراغه من حكم ملك الأعجم ، إلى فوائد ملك الأتراك الهمام ، فشغف المسامع ، وشرف كل راءٍ وسامع ، وشرع في القال والقليل .

وحسبنا الله ونعم الوكيل ، والحمد لله

رب العالمين ، ولا حول ولا قوة

إلا بالله العلي العظيم .

الباب الثالث

فى حكم ملك الاتراك

مع ختته الزاهد شيخ النساك

قال الشيخ أبو المحاسين حسّان ، صاحبُ الحسنِ والمحاسين والإحسان : ثم نهض الحكيمُ حسيب ، الأديبُ الأريب ، ووقف فى مقامِ حُدّه ، وقبِلَ موطِئَ أخيه بهشفاهِ حُدّه ، وقال : لقد بلغنى أيها السلطان ، أنّ فى قديمِ الزمان ، كان فى التركِ ملكٌ يُسمّى حاقلان^(١) من الملوكِ العادلين ، والسلطينِ الفاضلين ، برسمِ العدلِ معروف ، وبقصرِ الجوّيرِ موصوف ، كسر الأكاسرة ، وقصر الأقاصرة ، ونحر الجبابرة ، وثغر فَمَ الدُّعَارِ النبالةِ الفاغرة ، مَلَكَ بلادَ الخنِ والخطا ، واستولى على ممالكِ المُغَلِّ والحِجَّتِ^(٢) ، وأطاع أوامرَه التركُ والتتار ، واستسلمَ لرأيه سكاكُ الدُّشْتِ^(٣) والقفار . وكان يأجوجُ من جملةِ حُدَمِهِ ، ومأجوجُ^(٤) من بعضِ عبيدِهِ وحشِهِ ،

^(١) حاقلان : لقب لكل ملكٍ من ملوكِ الترك (تركية) ، وهو أيضا الرئيس أو الزعيم عند التتر ، ويختصر إلى حسان أو قان .

^(٢) ستحدث عن هذه الممالك ومواقعها الجغرافية فى الباب العاشر ، وتقع عموما فيما وراء النهر حتى الصين وروسيا .

^(٣) الدشت : الصحراء .

^(٤) يأجوج ومأجوج : يراد بهما فى الأغلب الشعوب الممحنة التى كانت تسكن السهول الشمالية الشرقية للعالم القديم . ويراد . بهما - فى رواية أخرى - أهل الصين .. ورد ذكرهما فى التوراة ، وفى القرآن الكريم ، فى سورتي الكهف والأنبياء . لهذا شأن كبير فى القصص الإسرائيلية والإسلامى .

كأنه وارث ، لثُرِيَّة يافث^(٥) ، قويٌّ في أَخْذِ الْمُلْكِ من ممالك الصين ، وأخذ إلى أطرافِ الشَّمالِ باليمن ، ولم يكنْ له من البنين والبنات ، مع كثرة السراي والزوجات ، سوى بنتٍ واحدة ، لطلعتها الأقمارُ شاهدة :

شمسٌ ولا كالشمسِ عندَ زواها بدرٌ ولا كالبدْرِ في نُقْصائه

بل بَهَرَتْ الشَّمْسُ جمالاً ، والبدرُ كمالاً ، وفاقتْ ملاحَ الدنيا شمالكَ وخصالاً ، وهى عزيزةٌ فى قلبِ أبيها ، كريمةٌ على عواصمها وذويها ، فصارت ملوكُ الأطرافِ يخطبونها ، ومن أبيها يطلبونها ، فكان أبوها يُفَوِّضُ الأمرَ إليها ، ويعتمد فى تزويجها عليها ، وهى لِإِترغَبٍ فى طالب ، ولا تصغى لِخِطْبَةٍ خاطب ، إلى أن عَنَسَتْ ، وخطَّابُها أَيْسَتْ . وكان أبوها كما ذكر ذا فطنةٍ بالغة ، وهيبَةٍ دامغة ، فَخَشِيَ حوادثَ الزمان ، واختلَى بها فى مكان ، وقال : اعلمى يا معدن اللطائف ، أن البنتَ فى منزلِ أبيها كالماءِ الواقف ، إِنْ مَكَثَ يَأْسُن ، وَإِنْ لم يُسْتَعْمَلْ أَتَّس ، ولا أقولُ ذلك مَلَّالاً ، ولا عجزاً ولا استقلالاً ، بل لَأَبْدَ للمرأة من زوجٍ يلمُّها ، فيسترها ويضمها ، ونَعَمَ الخن^(٦) القير ، وأحلى من البنتِ الصبر ، فإن رأيتِ الرغبةَ فى الزواج ، طلبتُ لك كُفْفاً من الأزواج ، وكان ذلك أسَراً لِعِرْضِكَ ، وأدنى لإقامة سِتِّكَ وفِرْضِكَ ، وأفرغَ لخاطرِ أيبك ، وأشرحَ لخدْيِكَ وذويك .

فقلت : أحسنَ اللهُ الرحمن ، إلى مولانا الخاقان ، وكفاه كلُّ جان ، من الإنسِ والجان ، إِنْ الْبَنِينَ من جُملةِ النعم ، والبناتُ من أَعْدادِ النِّقَم ، وَنِعَمُ الدنيا عليها الحساب ، ونَقَمُها سببُ الأَجْرِ والثواب . . قال ربُّ الأرباب ، فيما أنزله من الخطاب ، فى مُحْكَمِ الكتاب ، ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ

^(٥) يافث ، أحد أبناء النبی نوح كما ورد فى الكتاب المقدس (سفر التكوين : ٦ - ١٠) ويرغم علم الأحنس القديم ، أن يافث هو أبو الترك وسكان بلاد ما وراء النهر حتى الصين .

^(٦) الخن : الزوج .

الصالحات بخير عند ربك ثواباً وخيراً أملاً^(٧) وقد جاء فى بعض التفاسير ، أن الباقيات الصالحات ، هى البنات ، فمولانا الملك يعدُّ وجودي ، نعمةً عليه من معبودي . وأسأل الصّدقاتِ الملوكة ، والمراحِمَ الوالدية ، أن لا يعجلن فى أمر تزويجى ، وأن لا يبادرن كيفما اتفق إلى تزويجى ، فإن التّأمل فى ذلك أولى ، وثناء فى الدنيا ، وثواب فى الآخرة ، وذلك لأنّ الكفأة فى الزواج معتبرة ، وقد قرّر ذلك الفقهاء العرّة ، وإن لم يكن الزوج للمرأة كُفْءاً فزوّجها به يقبُح سخرية وهزواً ، ولا يفيد سوى الغرامة ، والفضيحة والندامة .

فقال الملك : لا أزوّجك إلّا بكفء كريم ، يكون لك أدنى خديم ، وفى الناس أعلى مقام عظيم . قالت : بامولانا الملك ، وقاك الله شرّاً لمنهمك ، لا تحمل اعتراضى على الإساءة ، وإنما أسألك عن كيفية الكفأة ، فإن كانت بالملك والمال ، فإنّ ذلك فى معرض الزوال ، وإن كانت بأنساب الأنساب ، فإنّ ذلك خطأ لا صواب . قال مُنزّل الكتاب ، العزيز الوهاب : ﴿فَإِذَا نَفَخَ فِى الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ﴾^(٨) وقال مَنْ لا يجوزُ عليه كذبة : " من أبطل به عمله لم يسرع به نسبه " وإنما الفقهاء حكموا بالظاهر ، والله يتولّى السرائر ، ونحن فى قيد الاتقياد ، ولا يسعنا إلّا ما أمر به الشرع وأراد ، وأما أنا فكُفّيتي الكريم ، إنما هو الكاملُ الحليم ، الفاضلُ الرحيم . قال الملك : بارك الله فى رأيك وعقلك ، أنا لا أزوّجك إلّا بملك مثلك ، أو ابنِ ملسك مثل أبيك ، يرعاك ويكرمُ خدمك وذويك ، يعدلُ بالسوية ، ويحكم على سائر الرعية . قالت : أيها الملك الكبير ، صاحبُ التاج والسرير ، أنا ما أعرفُ الملك إلّا مَنْ يُعرفُ بملك الحكيم على نفسه فى سيّره ،

^(٧) قرآن كريم ، سورة الكهف : ٤٦ .

^(٨) قرآن كريم ، سورة المؤمنون : آية رقم ١٠١ .

ويكون مُتَحَكِّمًا مُتَمَكِّنًا من الحُكْمِ على غيره ، فيحقُّ أن يقال ، في مُلكِه ذي الجلال ، خُلِدَ اللهُ سُلْطَانُهُ ، وشيَّدَ أركانُ مُلكِهِ وبُنيانه .

قال الملك : وَمَنْ هو ذاك ، بارَكَ اللهُ فيك وهذاك ؟ قالت : أَمَّا الحَاكِمُ على نفسه ، فهو المَالِكُ لِزِمَامِ جَوَارِحِهِ وحسِّه ، قد جعلَ خِزَائِنَ القَلْبِ والسمع ، معدنًا لجواهرِ العقلِ والشرع ، فَمَهْمَا اقتضاه العقلُ أمضاه ، وعَمَلٌ بمقتضاه ، وما ارتضاه الشرعُ وقضاه ، كان فيه انقيادُهُ ورضاه ، قد تحلَّى بعقودِ بكارِمِ الأخلاقِ ، ولو كان في أعمالِ أخلاقٍ^(٩) ، وشغلَ نفسه بتهذيبها ، واجتهدَ في خلاصها من شرِّكَ عيوبها ، واهتمَّ بعبودِهِ ، عن بعبودِهِ وقرينهِ ، وبغيبهِ وحبيبهِ ، فذلك الحَاكِمُ على نفسه ، المميَّزُ على أبناءِ جنسه . وَأَمَّا حُكْمُهُ على غيره ، فهو أن يكونَ في سلوكِهِ وسيره ، منعزلًا عن الناس ، في زوايا البس^(١٠) ، لا يسألُ عن أحوالِهِم وعبودِهِم ، ولا ينظرُ إلى مباحثِ أيديهِم وجيوبِهِم ، مَالِكًا لِزِمَامِ العزلة ، مُتَنَعِّمًا بهذه النعمةِ الجزلة^(١١) ، قد اتخذَ التقوى والقناعة ، أحسنَ حرفةٍ وأربحَ بضاعةً ، قد سَلِمَ الناسُ من يده ولسانه ، لا يدري بشأنِهِم ولا يدرون بشأنه ، فذلك الحَاكِمُ على غيره ، الفائزُ من مُلكِ الدارينِ بخيره . فهو الذي خُلِدَ مُلكُهُ وسُلْطَانُهُ ، واتَّضَحَ للعالمينِ بُرْهَانُهُ ، فإنَّ وُجِدَ بهذه الصفاتِ موافى ، فإنه لى كُفءٌ مكافى ، وأنه كالبدْرِ جَلِيٍّ ، نقيُّ الصلْبِ لله وَلِيٍّ ، فإذا أنعمَ الزمانُ بمثلِ هذا منالاً ، فَيَنعمَ نِعَمٌ وَإِلَّا فَلَا . لا .

(٩) الثياب البالية .

(١٠) الشدة والمشفة والحاجة .

(١١) الكبيرة الكثيرة .

فجعل ملك الحنن ، يتطلبُ مثل هذا الحنن^(١٦) ، وأرسل القُصَّاد ، إلى أطراف البلاد ، يسألون سُكَّانَ الأكناف ، وقُطَّانَ الأطراف ، عن موصوفٍ بهذه الأوصاف ، واستمروا على ذلك مُدَّة ، كلُّ باذلٍ جُهدَه ، حتى أرشدوا بعدَ زمان ، أن المكانَ الفلانيّ فيه فلان ، رجلٌ أعرضَ عن العَرَض ، فلم يكنْ له فى الدنيا غَرَض ، وهو بحسنِ الصفاتِ موصوف ، وفى كوخِ العبادَةِ والاجتهادِ معروف ، جامعٌ لهنه الصفات ، ليس له إلى الدنيا وأهلها التفات ، مشغولٌ باكتسابِ الآخرة ، وطلبِ نعيمِها الفاخرة . وهو من نَسْلِ الملوك ، وقد تركَ وراءهم السلوك ، وسلكَ فى العلم ، والعملِ السبيلَ الأقوم ، حتى كأنه محمدُ بنُ الحسنِ أو ابراهيمُ بنُ آدم^(١٧) ، ولشدة ما هو لنفسه مجاهد ، سماه الناسُ الملكَ الزاهد ، فأجمعَ الخاقانُ على مصاهرته ، وجعلَ التقربَ إليه قُرْبَةً لآخرته . فأخبر ابنَتَه به ، وكان جلُّ مطلوبِها ومطلوبِه ، وعَقِدَ بينهم النكاح ، وحصلَ الفلاحُ والصلاح " فَوَافَقَ شَنُّ طَبَقَةٍ " ، وصارَ لعينِ مرايها كالخَدَقَةِ ، ومضى على ذلك برهة ، وهما فى طيبِ عيشٍ ونزهة .

فاشتاق الخاقان ، فى بعض الأزمان ، إلى رؤيةِ ابنتِه ، وسرورِ مهجَتِه ، فقام لدارِها ، بقصدِ مزارِها ، لينظرَ حالَها ، وما عليها وما لها ، فوجدها فى عيشٍ هنيئٍ ، وأمرَ سَيِّئٍ.. فسألها عن أحوالِ زوجِها الزاهد ، وكيف صبرُها على حالِها الجاهد . فأنثتُ خيراً ، وكفت ضراً وضيراً ، وقالت : جميعٌ ما يبرزُه ويأتِيه ، على حسب ما أريدُه وأرتضيه ، وارتفاعاتُ أحوالِنا بسعادةِ مَوْلانا فى دفاترِ الأمنِ منضبطة ، وعقودُ حياتِنا يمينِ صدقاتِه فى محورِ الزفاهيةِ غيرُ منفرطة . غير أن بيتنا واحد ،

(١٦) الزوج .

(١٧) من الأعلام العاملين الزاهدين فى القرن الثالث الهجرى .

وبسبب ذلك يتضرر هذا العابد ، فيه نيبٌ وفيه ثقل ، وبجوانبه ما لنا من غفيرة وثقل ، وقوة ونقود ، وخادم ومولود ، فلا يتفرغ من الغوغاء للعبادة ، لأنها تستدعي عزلة العابد وانفراده ، وتخلية لمناجاة معبوده ، ليظفر من حرارة الطاعة بمقصوده . فأسأل مولانا الخاقان ، ذا الفضل والإحسان بيتاً يتخلّى فيه للعبادة ، ومكاناً يضع فيه خُرُمِي^(١) البيت وعتاده . فقال : حباً وكرامة ، وقرّباً وسلامة . ثم اجتمع الملك بصهره ، الذى به فاجر ، وذكر له أنه أعطاه بيتاً آخر : أحثهما يكون لخلوّته ومبيته ، والآخر يضع فيه ما يحتاجه من عتاده وقوته . فقال الزاهد : أيها الملك الماحد ، فعلت ذلك لتقسيم خاطرى ، وتوزع فكرى ومرائى ، ولا طاقة لى أن أتعلق بمكانين ، وما جعل الله لرجل من قلبين ، وإنما الزاهد ، من همه فى الدنيا واحد ، فإنه على عدىّ التعلقات ، يتوزع القلب الشتات ، وإذا تعددت الأماكن ، يحتاج كل منها إلى ساكن ، أو حافظ أو ضابط ، أو حارس أو رابط ، وأنا لا اعتماد لى ، بحفظ نفسى أيها الولي ، فكيف يكون لى اقتدار ، على حفظ الأغيار ، وإذا انقسمت أفكارى وفسد بالي ، فكيف أقدر على صلاح حالى ، وأنى يصلح مع فسادي ، أمور معاشي ومعادي ، ثم إنى إذا وزعت نفسى ، فقد نبهت راقداً حرصى . والحرص أفعى قاتل ، وأسد صائل ، يقتلني بسهمه ، بل بمجرد شمه .

فقال الملك الكبير : لا تهتم لذلك أيها الزاهد الخطير ، فإن لى أماكن عديدة ، وقصوراً مشيدة ، وحواصل مصونة ، وخزائن مكنونة ، الكل تحت تصرفك واختيارك ، لا منازع لك فيه ولا مشارك ، فاجعل لكل جنس من قماشك ، وأثاثك ورباشك ، ومايقوم بأودك ومعاشك ، مكاناً على حدة ، وناحية حفظ منفردة ، واتخذ لنفسيك مقاما ، خاصاً بك لا عاماً ، وأنا أقيم على كل مكان

(١) الخُرُمِي : أثاث البيت ومتاعه .

حارسا ، إن شئتَ راجلاً وإن شئتَ فارسا ، فعندَ احتياجِكَ إلى شيءٍ ، أتاك هنا مُيسراً من غيرِ كَدٍّ ولا عِيٍّ ، وتفرَّغَ أنْتَ لعبادَتِكَ ، واشتغالِكَ بأمورِ آخرتِكَ .

قال الزاهد : أيها الملكُ المجاهد ، الاعتزَّازُ بالقصورِ من جُملةِ القصورِ ، والاعتمادُ على الحصونِ من دواعي الجنونِ ، وإذا ورَدَ من الملكِ الغفورِ ، طلبٌ على يَدِ القبورِ ، فماذ تُجدي الدورُ والقصورُ ، وماذا تنفعُ الحصونُ ، أو يدفعُ كلُّ مكانٍ مصونٍ ، إذا أذنَ بالحلُولِ ، ذلك الخطْبُ المهولُ ، تَوَدُّ النفسُ لو كانتِ القُصورُ للمَهْدةِ ، والبروجُ المشيدةِ ، أذلَّ من أفحوص^(١٤) قطاة ، وأقلَّ من عشٍّ بزة . وقد قيل :

قميصٌ من القطنِ أو خِطَّةٌ وشربة ماءٍ قراحٍ وقسوت
ينالُ بها المرءُ ما يُرتجى وهذا كثيرٌ على مَنْ يموت

واعلمُ أيها الخاقان ، أن النفسَ لها خادمان ، مطيعانٌ بيمين ، ولَمَّا تأثرَ به سميعان ؛ وهما الشهوةُ ، والحرصُ الشديدُ الدُّعوةُ ، أما الشهوةُ فرائدُ الأكلِ الكثيرِ والشرابِ ، وأما الحرصُ فعايدُ الرعونةِ والعُجبِ ، وقد قيل :

فهذا يسودُّ إلى طبعه وهذا يسوقُ إلى ربه

فهما ليلاً ونهاراً ، وسراً وجهاراً ، يزينان لها ما طَبِعاً عليه ، ويجذبانها إلى ما جُبِلَ إليه ، ويتقاضيانها حقَّهما ، ويطلبانها مستحقَّهما ، ولا بدَّ للمخلومِ من إقامةٍ أوٍدٍ خادِمِهِ ، واسترضاءِ أنيسِهِ ومناوِجِهِ ، وقد قال ، مَنْ أنقنَ المقال :

إن اللبيبَ أحمأ اللبیبِ هو السدی مع تيهه يحنو على عُشاقِهِ
وكذا الرئيسُ وأنت أكبرُ جتسِهِ مَنْ فاض في الخلدِ من أرزاقِهِ
يهتمُّ إن حضروا له بِوالِهِ يهتمُّ إن غائبوا على أشواقِهِ
مع أن حشمتَهُ وفائضَ علوهِ ترقى بكلِّ منتهى استحقاقِهِ

(١٤) الأفحوص : حفرة تحفرها القطاة أو الدجاجة في الأرض لتبيض وترقد فيها .

ولكن رضا هذين الخادمين غاية لا تدرك ، وَقَدْ مقصوديهما نهاية عميقة المسلك .
وقد قال سيّد الأنام ، عليه الصلاة والسلام ، يوماً وهو بين الأصحاب ، كالشمس
ليس دونها حجاب ، والبدر لا يحجبُه سحاب : " لا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا
التراب " والحرصُ مهلكٌ والشهوةُ قاتلة ، وكلٌّ منهما فى الدمارِ والبوارِ علةٌ كاملة ،
وناهيك يا دُخْرُ الحقِّ وغيّاته ، أخبارُ اللصوصِ الثلاثة . فطلبَ الملكُ مِنَ الزاهد ،
إيضاحَ هذا الشاهد .

[١/٣] أخبار اللصوص الثلاثة

فقال ذَكَرَ أَهْلُ الْوِرَاثَةِ ، أن لصوصاً ثلاثة ، كانوا على سبيلِ الاشتراك ، متعاطين
أسبابَ التحريمِ والهلاك ، واستمروا على ذلك مُتَّة ، حتى استولوا من الأموالِ على
عِدَّة ، ففى بعضِ الليال ، ظفروا بجملةٍ من الأموال ، ودخلوا إلى مكانٍ دائرٍ^(١٧)
خال ، بِنِيَّةِ الاقتسام ، وكانوا محتاجين إلى الطعام ، فوجدوا فى ذلك المكان الدائر ،
صندوقاً مملوءاً من الجواهر ، ففرحوا وانشرحوا ، وتَصَوَّرَ لأولئك الخاسرين أنهم
ربحوا ، فقالوا : إِنْ اشْتَغَلْنَا بِقِسْمَةِ هَذَا الْجُمُوعِ ، كَلَيْتَنَا^(١٨) وَأَهْلَكُنَا كُلُّبُ الْجُوعِ ،
فَالأَرْبَى طَلَبُ الطَّعَامِ ، قَبْلَ الْاِقْتِسَامِ ، وَلَوْ بِأَدْنَى الْتِهَامِ ، وَيَسِيرِ التَّقَامِ . ثم أرسلوا
مع أحدهم ، إلى المَدِينَةِ وَرَقَهُم^(١٩) ، لِإِيَابَتِهِمْ بِمَا يَسُدُّ رَمَقَهُمْ . فلما انفصل عن
مكائِهما ، وغاب عن أعينهما ، تحرَّكَ نَفْسُهُ الْخَبِيْثَةُ ، بِشَهْوَةٍ أَجَحَّتْ تَارِيْثَهُ^(٢٠) ،

^(١٧) دائر : متهم ، يقال : دثر المكان لو المنزل : بلى وتهدم .

^(١٨) كلبه (بكسر اللام) كلب (يفتح اللام) الجوع : أصابه أصابه الجوع والعطش الشديدين .

^(١٩) الورق : النقود .

^(٢٠) أَرَتْ النار : أَوْقَعَتْهَا .

وَقَوَّاهَا الْحَرَصُ الْمَشْهُومَ ، لِشِدَّةِ الشَّرِّ الْمَلُومِ ، ودَعَاهُ دَاعِي الْفَسَادِ ، إِلَى الْاِسْتِيلَاءِ عَلَى الْمَالِ بِالْاِتِّفَادِ ، فَعَزَمَ عَلَى خْتَلِئِهِمَا ، فَوَضَعَ فِي الطَّعَامِ سُمًّا لِقَتْلِهِمَا .

وَأَمَّا هُمَا فَعَلَى قَتْلِهِ عَزَمًا ، وَاسْتَعْدَّ لِلذَّكَاءِ بَعْدَمَا جَزَمَا ، لِيَصِيرَ الْمَالُ بَيْنَهُمَا نَصْفَيْنِ ، وَيَصِيرَا فِي ذَلِكَ كَالْأَخَوَيْنِ الْإِلْفَيْنِ ، وَيَكُونُ ذَلِكَ كَأَنَّهُ وَرَاسَةٌ ، لِأَنَّ شَرَّ الرِّفْقَاءِ ثَلَاثَةٌ . وَلَمْ يَدْعُهُمَا إِلَى ذَلِكَ غَيْرُ دَاعِي الشَّهْوَةِ ، وَاجْتَدَ ذَلِكَ دَاعِي الْحَرَصِ ، وَأُنْجِسَ بِهَا مِنْ دَعْوَةٍ . فَلَمَّا فَصَلَ ذَلِكَ بِالْأَكْلِ ، بَادَرَا إِلَيْهِ بِالْقَتْلِ . ثُمَّ بَعْدَمَا قَتَلَاهُ ، عَمِدَا إِلَى الطَّعَامِ فَأَكَلَاهُ ، فَبَرَدَا فِي الْحَالِ ، وَتَرَكَمَا ذَلِكَ الْمَالِ ، وَلَحِقَمَا بِصَاحِبَيْهِمَا التَّالِفِ ، وَسَيَّيَا تَلِيدَ الْمَالِ وَالطَّارِفِ^(٢٠) .

وَإِنَّمَا أُورِدَتْ هَذِهِ الْمَوْعِظَةُ ، لِأَنَّهَا عَلَى أَحْوَالِ الدُّهْرِ مُوقِفَةٌ . وَإِنْ كَانَ مَوْلَانَا الْخَاقَانُ ، فِي أُمُورِهِ يَقْظَانُ ، لَكِنْ قَدْ قَالَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿وَذَكَّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢١) وَعَلِمَ بِمَوْلَانَا الْخَاقَانِ ، كِفَاكَ اللَّهِ مَكَايِدَ الشَّيْطَانِ ، وَاجْتَحَ مَقَاصِدَكَ عَلَى مَرِّ الزَّمَانِ ، أَنَّ الدَّرَجَةَ الْعُلْيَا ، وَالْمُرْتَبَةَ السَّنِيَّةَ ، لَا تَنَالُ بِقُوَّةٍ وَلَا عِزْمَةٍ ، وَلَا شَجَاعَةٍ وَلَا هِمَّةٍ ، وَإِنَّمَا هِيَ عَنَاءٌ رِيَانِيَّةٌ ، وَأَسْرَارٌ رَحْمَانِيَّةٌ ، لِأَقْوَامٍ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ الْخُسْنَى وَزِيَادَةُ ، وَاتَّظَّمُوا فِي سَلَكِ أَهْلِ السَّعَادَةِ ، فَهُمْ أَهْلُ الْفَضِيلِ وَالسِّيَادَةِ ، أَسْبَغَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ سَوَاطِعَ الْأَنْوَارِ ، وَقَطَعَهُمْ عَنْ قَوَاطِعِ الْأَشْرَارِ ، فَهُمْ السَّادَةُ الْأَخْيَارُ ، وَالْقِسَادَةُ الْأَبْرَارُ ، قَامُوا بِإِدَاءِ مَا وَجَبَ عَلَيْهِمْ ، وَتَرَكَوا مَا خَلَفَهُمْ وَاسْتَبَشَرُوا عَمَّا لَدَيْهِمْ . فَانَوَّارُهُمْ سَاطِعَةٌ ، وَأَسْرَارُهُمْ لَجْمِيعِ الْأَوْهَامِ قَاطِعَةٌ ، تَرَكَوا زُخَارِفَ هَذَا الدَّارِ ، وَأَرَادُوا دَارَ الْقَرَارِ ، وَجَوَارَ الْمُلْكِ الْفَقَارِ ، فَهُمْ الْهَادِيَةُ إِلَى اللَّهِ ، الدَّالُونَ عَلَى رِضَاهِ ، لَا يَعْتَرِيهِمْ كَثَرُ الْأَوْهَامِ ، وَلَا يَشْتَغَلُونَ عَنْ خِدْمَةِ خَالِقِهِمْ مَدَى

(٢٠) المال القديم والجديد .

(٢١) قرآن كريم ، سورة الزلزال : ٥٥ .

الأيام . هم العبادُ المَكْرُمُونَ ، العبادُ المقربُونَ ، قال الله تعالى وهو أصدقُ القائلين ،
 فى كتابه للمكنون ﴿إِلَّا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ، الَّذِينَ آمَنُوا
 وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾^(٢٢) واعلمُ أنَّ أعدىَ عدوكَ بينَ جنبيك ، وهى نفسُك التى قط ما
 رَكَنْتَ إِلَيْكَ ، فاعصِ هواها ، ولا تعطها منها ، فإنَّ فى اتباعها الندمَ عاجلاً ،
 والحسرةَ أجلاً ، لا بقليلٍ تقنع ، ولا بكثيرٍ تشبع ، ولا تظنَّ أنها إذا أُعْطِيَتْ منها
 شَكَرَتْ ، أو إذا ذَكَرَتْهَا مَنْ براها^(٢٣) ذَكَرَتْ ، بل متى أَمِيتَها كَفَرَتْ ، أو آنَسَتْهَا
 فَرَّتْ ، أو أرْحَيْتَ عَنَانَهَا بَطَرَتْ وَأَشِيرَتْ^(٢٤) ، وإنَّ نالتَ مطلبها ، أو تناولتَ
 مأربها ، انتقلتَ عنه ، وطلبتَ أعلى منه ، فليس لها دَوَا ، إِلَّا القمعُ عن دواعي
 الهوى ، كما قيل :

النفسُ راحبةٌ إذا رَغِبَتْهَا وإذا تُرِدُّ إلى قليلٍ تقنع
 وكما قيل أيضاً :
 وما النفسُ إلا حيثُ يجعلُها الفتي فإنَّ أهْلَها نالتُ وإلا تَسَلَّتْ
 وكما قيل أيضاً :

قَسَّعَ النَّفْسَ بِالْقَلِيلِ وَإِلَّا طلبتُ منك فوقَ ما يُرضيها
 وإيَّاكَ وطولَ الأملِ ، فإنه مَفْسَدَةٌ للعلمِ والعمل . قال الحكماء ، وعقلاءُ العلماء :
 الأملُ شبكةُ الشيطان ، وموجبُ الحرمان ، فاجهدْ مادامَ لك على النفسِ ملكة ، أن
 تغلُصَ نفسَكَ من هذه الشبكة ، ولا تهتمَّ للأقوات ، فكلُّ ما قُسمَ ما فيه قَوَات ،
 وكل ما هو آتٍ آت ، وكلُّ ما رَقَمَهُ القلمُ فى القَدَمِ ، وأثبتَه قضاءُ الله تعالى عليك
 وأنت فى القَدَمِ ، سواء كان خيراً أم شراً ، نفعاً أم ضرراً ، فأنت مُلاقيه ، وعلى

^(٢٢) قرآن كريم ، سورة يونس : ٦٢ .

^(٢٣) براها أو براها : خلقها .

^(٢٤) أشيرت : بطرت واستكورت .

كل حالٍ مُوافيه . فاقطعْ ذَوَاعِي الطَّمَعِ ، عَمَّنْ لَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ ، لَا عَمَّنْ إِنْ شَاءَ ضَرَّ وَإِنْ شَاءَ نَفَعَ ، وَلَا يَجْتَمِعُ إِلَّا بِمِثْلِكَ ، فِي الْجَمَاعَاتِ وَالْجُمُعِ ، وَلَا تَتَعَبُ لَجُوعٍ وَعَرِيٍّ وَاكْتِسَاءٍ وَشَبَعٍ . فَقَدْ قِيلَ : إِذَا شَبِعْتَ فَلَا تَهْتَمَّ لِلْجُوعِ ، فَكَمْ مِنْ شَبْعَانَ مَاتَ قَبْلَ أَنْ يَجُوعَ ، وَإِذَا اكْتَسَيْتَ فَلَا تَهْتَمَّ لِلْعَرِيَّةِ ، فَكَمْ مِنْ مُكْتَسٍ مَاتَ وَثِيَابُهُ جَدِيدَةً مَطْوِيَةً . وَاعْلَمْ أَنَّ طَبِيعَ الدُّنْيَا بِالمُخَالَفَةِ ، كَأَنَّهَا عَلَى المُخَالَفَةِ مُحَالِفَةٌ ، فَإِذَا ضَمَمْتَنِي عَنْهَا يَذْكُ إِلَيْكَ ، أَقْبَلْتُ عَلَيْكَ وَجَاءَتْ تَهْوِي تَحْتَ قَدَمَيْكَ ، وَإِذَا طَلَبْتَهَا هَرَبَتْ مِنْكَ . وَكَلِمَا ارْتَبَطْتُ إِلَيْهَا انْحَلَّتْ عَنْكَ ، وَقَدْ قِيلَ ، أَيُّهَا الْمَلِكُ الْجَلِيلُ :

مَنْسَلُ الرِّزْقِ الَّذِي تَطْلُبُهُ مِثْلُ الظِّلِّ الَّذِي يَمْشِي مَعَكَ

أَنْتَ لَا تَدْرِكُهُ مُسْتَعِجِلًا وَإِذَا وَلَّيْتَهُ عَنْكَ تَبْعَكَ

ثُمَّ اعْلَمْ أَيُّهَا الْخَلِيقَانِ ، أَنْكَ وَإِنْ كُنْتَ ذَا التَّصَرُّفِ وَالسُّلْطَانِ ، وَأَنَّ هَذِهِ الْخَلِيقُ رِعْيَتُكَ ، نَافِذَةٌ فِيهَا بِمَرَاسِيهَا مِثْلُكَ ، إِلَّا أَنْكَ فِي الْحَقِيقَةِ وَاحِدٌ مِنْهُمْ ، لَا تَزِيدُ بِشَيْءٍ فِي الْبَذَائِ وَالصِّفَاتِ عَنْهُمْ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ الْقَدِيمَ ، الْعَالَمَ الْحَكِيمَ ، سُلْطَانُ السُّلَاطِينِ ، بَلْ خَالِقُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ، رَفَعَكَ عَلَيْهِمْ ، وَتَقَدَّمَ بِأَمْرِهِ أَنْ يُطِيعُوكَ إِلَيْهِمْ ، فَقَالَ مَنْ لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ﴾^(٥٩) فَهُمْ قَدْ أَذَعُوا لَكَ وَأَطَاعُوكَ ، فَرَاغَهُمْ كَمَا هُمْ مُرَاعُوكَ ، وَاطْلُبْ لَهُمْ أَسْنَى الْمُرَاعَاةِ وَأَبْهَأَهَا ، وَأَوْرِدْهُمْ أَعْدَبَ الْمَشَارِبِ وَأَصْفَاهَا ، فَإِنَّ الْمَلِكَ^(٦٠) الَّذِي سَلَّمَ لَهُمْ إِلَيْكَ ، سَوْفَ يَتَقَدَّمُ بِالسُّؤَالِ عَنْهُمْ إِلَيْكَ ، وَقَدْ قَالَ مَنْ أَنْتَ خَلِيفَتُهُ عَلَى أَمْتِهِ : " كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْتَوٍ عَنْ رِعْيَتِهِ " فَكُنْ لَهُمْ كَمَا تَرِيدُ أَنْ يَكُونُوا لَكَ ، وَدِنْ لَهُمْ كَمَا تَحِبُّ أَنْ يَدِينُوا لَكَ . وَاعْلَمْ أَيُّهَا الْمَلِكُ الْوَدُودُ ، أَنَّ هَذِهِ النُّقُودَ ، إِنْ لَمْ تُصَرَّفْ فِي مَصَارِفِهَا ، وَتَرْقُلَ فِي وَجْهِهِ الطَّاعَةِ فِي مَطَارِفِهَا ، فَإِنَّهَا جَمْرٌ يُضْرَمُ ، فِي نَارِ

(٥٩) قرآن كريم ، سورة النساء : ٥٩ .

(٦٠) للملك : الله ، الملك القلوس ، سبحانه وتعالى .

جهنم ، كما قال مَنْ يَقُولُ لِلشَّيْءِ كُنْ فَيَكُونُ ﴿يَوْمَ يُخَمَّسُ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فُتُكَّوْى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ ، هذا ما كُنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَلَوْ قُومُوا مَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾^(٢٧) فاسمع أيها الملك الصالح ، نصيحة مشفقٍ ناصح ، ولا تنفّر بالدنيا وزهرتها ولا تنظر إلى حلاوتها وحضرتها ، وإياك والميل إلى نزهتها ونضرتها ، فإنك إن مِلْتَ إليها أَسْرَنْتَكَ ، أو جَبَرْتَهَا عَلَى الرُّكُونِ إِلَيْهَا كَسَرْتَكُ ، وحسبك من كلام الربِّ الغفور ، وَمَنْ يَبْدِهِ مَقَالِيدُ الْأُمُورِ ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾^(٢٨) .

قال الراوي لهذه الْحِكَمِ والفتاوى : فلمّا وعى ما قاله الختن ، هذه النصائح الصادقة من الختن ، أَمَرَ بِهَا فَسَطَّرَتْ ، ثم نُشِرَتْ وشُهِرَتْ ، وعلى المنابر قُرِئَتْ ، وعلى رؤوسِ الأَشْهَادِ ذُكِرَتْ . وأبلغها ابتته ، وقرّر لها مقلداً زوجها وَجِئَتْهُ ، ومثّله عن الدنيا ورغبتَه . فقالت : هذا الذى كُنْتُ أَرُدُّهُ ، وعلى مسامح مولانا الخاقان سَرَدْتُهُ . ثم أَنَهَا أَقْبَلَتْ عَلَى طَاعَةِ رَبِّهَا وَتَبَعْلِهَا ، وإصلاحِ أحوالها فى قولها وفعلها ، وقضياً عُثْرَها فى أنواعِ العبادة ، واكتسباً بطاعتيهما فى الدارينِ الحُسْنَى وزيادة . ثم اقتدى بهما الملكُ وَعَسْكَرُهُ ، حتى انتشر فى آفاقِ المملكةِ بالعدلِ والصّلاحِ خَبَرُهُ ، إلى أنْ اندرج إلى رحمةِ اللَّهِ تعالى ذلك الرّاعيل ، وبقي ذكره مخلّداً على صفحاتِ الأيامِ جيلاً بعدَ جيل ، وقد قيل : فى ذلك من أحسنِ القيل :

كانوا شموساً تضيءُ الدهرَ طَلَعَتْهُمْ وفى طريقِ الجعالي يُقْتَضَى بِهِم
غابتْ فَلَوْلَا سَنَاهُمْ كَالِدُورِ أَضَاءُ^(٢٩) من عليهم ناة أهل الفضلِ فى الظلم

^(٢٧) قرآن كريم ، سورة التوبة : ٣٥ .

^(٢٨) قرآن كريم ، سورة لقمان : ٣٣ .

^(٢٩) أعضاء (عقلاء) يعنى سناهم أعضاء كالبدور ، والسنا : الضوء .

هكذا يكون طالبُ السعادة الأبدية ، والكرامة السرمديّة ، إذا ملكهُ اللهُ زِمامُ الرعيّة ، يحسنُ سيرةً في الدنيا ، ويتيقّظُ لتحصيلِ السعادة الكبرى ، ويستغلُّ بما يرضى عنه المولى . وحسبنا اللهُ ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليُّ العظيم .

تَمَّتْ بِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى نَوَاحِدُ مُلُوكِ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ وَالْأَتْرَافِ ،
وَيْلَى ذَلِكَ مَبَاحِثُ زَاهِدِ الْإِنْسِ الْعَالَمِ ، مَعَ شَيْطَانِ الْجَنِّ
الْإِثْمِ الْإِفَّاكِ . وَنَسْأَلُ اللَّهَ الْمُسْتَوِلَ ، أَنْ يَحَقِّقَ لَنَا مِنْ كَرَمِهِ
وإِحْسَانِهِ الْمَأْمُولَ ، وَيُعْطِمَنَا بِفَضْلِهِ مِنْ عَثَرَاتِ الْفُضُولِ ،
وَالطَّلَافِ وَالسَّلَامِ عَلَى أَعْظَمِ نَبِيِّ وَأَكْرَمِ رَسُولٍ ،
وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَكْرَمِ الصَّدِيقِ وَالْفَارُوقِ
وَعَلَى النُّورَيْنِ وَزَوْجِ الْبَتُولِ^(٣٠) ، وَإِخْوَانِهِ
مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ طَلَّةً وَسَلَامًا
يَشْتَمِلَانِ الْعَفْوَ عَنَّا وَالْقَبُولَ ، وَيَمُنَّ
بِالْكَرَمِ وَالْفَضْلِ عَلَى قُطُوعِنَا
بِالْوُضُولِ . آمِينَ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ
رَبِّ الْعَالَمِينَ .

(٣٠) الخلفاء الراشدون الأربعة ، أبو بكر وعمر وعثمان وعلي .

الباب الرابع

ففى مباحث علم الإنسان

مع العفريت جان الجان

قال الشيخ أبو المحاسين ، من ماء يتابع عليه فى مجاري بدن الفضل غير آسن :

فلما أنهى الحكيم حسيب ، ذو الفضل النسيب ، حكاية ما طرزه مما نسجه وحاك ، وفصله خياطاً تقديره على قامة المجد من خلج حكيم العرب والعجم والأتراك ، شكره أخوه القليل^(١) ، على هذا القيل^(٢) ، وأفاض عليه من نيل نواله جزيل النيل ، وأدرك من ذلك الأتمودج علو عليه ، وسمو حليبه ، وجميل حكيه ، وجليل حكيمه . ثم قال : يا أستاذ ، بلغنى أن بغداد خرج منها خارج : من نار من مارج ، وهبط إلى مدارك الخزي عن المارج ، وأصل ذلك المشووم ، من عفريت خلق من نار السموم ، وإن شخص ذلك الشيطان ، جبل من شحام الدخان ؛ فلهذا ركب وجهه السواد ، وتركب سائر جسده من الرماد ، فهو جني ذميم ، وشيطان رجيم . وقد شرع ذلك الخناس ، فى الإفساد والوسوس ، وتعاطى إيذاء أكابر الناس ، وأنه فى هذه الأيام ، نفى إلى بلاد الشام ، فلم يوافق ذلك المقام ، لأنه مهاجر الأنبياء الكرام ، وهذا مجبور على سحايا اللعان ، وطباع أهل الفساد والإجرام ، فأقام فيها بالاضطرار والاضطرام ، مدة أشهر وعدة أعوام ، وأخذ فى الإضلال والتضليل ، فأضل خلقاً كثيراً عن سواء السبيل ، وتستر ذلك الجان ، بحجاب الاتساب إلى جنس الإنسان ،

(١) القليل : من ملوك اليمن فى الجاهلية ، حزن الملك الأعظم ، ويقصد به هنا الملك عموماً .

(٢) القيل : القول .

وليسَ بثقِّ العصا ثوبَ العصيان ، فكَمَنْ كُمُونُ الشوكِ تحتَ ورقِ الورْدِ والريحان ، واحتَمَى فى حمى الشقاقِ والنفاقِ بشقاقِ النعمان ، والحقُّ أَنَّهُ من نسلِ العفاريث ، وكان عند الجن مقيله والمبيت ، ومن ألبانهم له غذاءٌ وتريث^(٦) فقال له الملك هُدَيْتِ ووُثِيتِ ، فإن يكنْ عندك من ذلك شَيْءٌ ، فَشَنَّفِ من جواهرِ حكمِهِ أَذُنِي ، فَإِنَّكَ حكيمُ الجنِّ والإنسِ ، وكريمُ النوعِ والجنسِ .

قال الحكيم : نعم أيها الملك العظيم أنا جبهةُ الأخبار^(٧) ، ومُزَيَّنَةُ الأخبار ، وحَكَمَ الحِكْمَ ، وَلِي فى البيانِ أَعْلَى عِلْمٍ . أمَّا هذا الشخصُ المذكورُ فإنه بالفسقِ والفسادِ مشهور ، ورقُّ شرِّه فى البلادِ منشور ، وكتابُ عِنايَةِ بَيْنَ العِيَادِ مسطور ، وبيتُ حَسَنِهِ لِيَعْمَ اللهُ تعالى على خُلُصِ أُولِيائِهِ بالفجورِ بمعمور ، وله صفاتٌ تعيسةٌ ، وأخلاقٌ خسيسةٌ ، تَأْتِي مُرَدَّةُ الشياطينِ منها ، وتستكفُ العفاريثُ عنها ، وَكَمَ لَهُ من دواهِى ، شرُّها غَيْرُ متناهى ، لا يَفِي بِذِكْرِها هذا الخطابُ ، ولا يَسَعُ سَرْدُها هذا الكتابُ ، بَلْ وَلَا يَقُومُ بِذَلِكَ دَقْتُرٌ وَلَا حِسَابُ ، وَلَكِنَّ البعرةَ تَدُلُّ على البعيرِ ، فَيَقِينُ من هذا التقديرِ ، الكثيرُ على اليسيرِ . وقد كان أَرَادَ نَشْرَ الفسادِ ، ببلادِ العراقِ وبغدادِ ، فَعَاكَسَهُ القَدَرُ وأحَادُ ، فَتَفَيَّ من تلكِ البلادِ ، فَوَصَلَ إِرَمَ ذاتِ العمادِ^(٨) وتعاطى أسبابَ ما هو عليه من الزنْدَقَةِ والإلحادِ ، فَأَثَارَ أَصْنَافَ الفتنِ وَأَنْوَاعِ العنادِ ، وابتدَعَ من الشرِّ والبدعِ ما يَخْرُجُ عن حَصْرِ التعدادِ ، وهو على ما هو عليه من المناكِدَةِ والمجاهدةِ ، وقصده الأعرجُ من تعديلِ أقوالِ الرافضةِ والملاحدةِ ، وسيوضِّحُ

^(٦) تشعة وتمية .

^(٧) يقال : فلان جبهة الأخبار أى يعرف يقينها :

^(٨) إرم ذات العماد : أعظم المدن فى زمانها ، وأكثرها بهاءً وجمالاً ، تقع بين حضرموت وصنعاء ، من بناء شكاد ابن عاد .

لذلك مُصَنَّفٌ مُتَسَعٍ عَلَى حَدِّهِ . ولقد بلغنى أيها الملكُ الهمام ، أنه حصلَ له فى ذلك المقام ، مع عالمٍ من علمائها الأغلام ، قضايا كَبِئَتْهُ عَلَى خَيْشُومِهِ ، وأظهرَ بها ذلك العالمُ دسائسَ خَبِيثَةٍ وَشُومَةٍ^(٦) مثل ما اتفق لعالمِ الإنسان مع شيطانِ العفاريثِ وجان الجن ، فى غابر الدهرِ وماضى الزمان . فقال القَيْلُ العَظِيمُ : أخبرنا بذلك أيها الحسيبُ الكريم .

فقال ذكرُ أنَّ فى الأزمانِ الغابرةِ ، كانتْ صنوفُ الجنِّ للإِنسِ ظاهرةً ، تتراءى بأشكالٍ مختلفةٍ ، وتزى^(٧) بأمثالٍ غيرِ مؤتلفةٍ ، وتُظهِرُ لهم الخيالاتِ العجيبةَ ، والصُّورَ المموَّهةَ الغريبةَ ، فتُضِلُّهم ضلالاً مبيناً ، وتأتِيهم من بين أيديهم ومن خلفهم وشمالاً ويمينا ، وتُخاطبهم مشافهةً ، وتُوافيهم مواجهةً . ففى بعضِ الأيامِ ، ظهرَ يبلاذُ الشامِ مهبطُ الوحيِ ومهاجرُ الأنبياءِ الكرامِ ، وعطَّ رجالُ الرجالِ ، من أهلِ الفضلِ والإِفْضالِ ، رَجُلٌ من العبادِ ، وأفرادُ الزُّهادِ ، فائقُ الأقرانِ بالصلاحِ ، وساد أهلَ الزمانِ بالورعِ والفلاحِ ، وحاز طَرَفِي العِلْمِ والعَمَلِ ، فكَمَّلَ كثيراً منهم بعد ما كَمَلَ ، واستمر يدعو الخلقَ إلى خالقهم ويحثُّهم فى الإنابةِ والتوكُّلِ على رازِقهم ، ويرضونه ويرضيهم فى الطاعةِ ، واتباعِ السُّنَّةِ والجماعةِ ، ويُقَبِّحُ الدنيا فى أعينهم ويحذرُّهم غدراتها فى مَكَمِّيها عند مَأْمَنِيهم ، وكان لِنَفْسِهِ المباركِ نقوشٌ فى النفوسِ ، يجذبُّها إلى ما يريدُ جَذَبَ الحديدِ المغناطيسِ .

ففى مُدَوِّ يسيرةٍ ، تبعه طوائفٌ كثيرةٌ ، وانتشرَ صيتهُ إلى الآفاقِ ، وصَفَا للعبادِ

(٦) تخفف شومه .

(٧) يقال تزى بى أى غيره أى ليس كما يلىس ، وللتصود هنا "الصحوالات" أو التشكيلات التى يتضمنها الجن (على مختلف الصور والأشكال والمهيات) .

وقت الطاعة وراق ، وضربت إليه أكباد الإبل^(٨) ، وامتألت به الدنيا من العلم والعمل ، واضطرب أمر المردة ، والشياطين العنده ، وتعطلت أسواق الفسوق ، وخرج عرق المعاصي من المعروق ، وتعملت العفاريات ، وتكست أعلام الجن المصاليات^(٩) ، وضل سبيل الضلال كل مارء عريت^(١٠) ، وبطلت زخارفهم وتمويهاتهم ، وعطلت وسائسهم وتشويهاتهم ، وأهانهم الناس ، وكسد الوسواس ، وفسد فعل الخناس^(١١) . فلما ضل سعيهم ، وكاد يقع نعيمهم ، اجتمع العفاريات العتاة ، والشياطين الطغاة ، والمردة العصاة ، إلى إبليسهم العنيد ، وهو شيطان مريد ، صورته من أبيض الصور ، له أظلاف كأظلاف البقر ، ووجه كالتمساح ، وشكل كالرماح ، وخرطوم طويل ، ورأس كالقيل ، وعيون مشققة بالطول ، وأنياب الغول ، وشعر كالشبههم^(١٢) ، وجلد كالأرقم^(١٣) ، وهو يلهث كالكلاب ، ومن ورائه عتة ذئاب ، فشكروا إليه حالهم ، وأطالوا في الشكوى قائلهم . وقالوا : يا شيخ التليس ، وابن عم إبليس ، لقد عمزت المدارس ، وبطلت منها الوسواس ، وتعمست المساجد ، بكل راعم وساجد ، وقائم وقاعد ، وقارئ وجاهد ، فطرد كل شيطان مارد ، وتمشى سنن الحلال ، فوقف منا الاحتيال ، وأمر بالمعروف ، فوقفنا على الأمر المخوف ، وكثرت الحجاج ، فقطعت منا الأوداج ، وأديت الزكوات والحقوق ، فطرد منا كل عقوق ، وقام الحق ، فنام الفسق ، وعبد الله في المغارات والكهوف ، واستد علينا السبيل فعلى من نطوف ، ولم يبق لنا على بني آدم سلطة ، وصرنا في

(٨) يقال : فلان تضرب إليه أكباد الإبل أى يرحل إليه فى طلب العلم ونحوه .

(٩) القوة البارزة والظاهرة الواضحة .

(١٠) الخريت : الدليل الخاذق بالدلالة ، والماهر فى الأمور المستعصية .

(١١) الخناس : الشيطان .

(١٢) الشبهيم : حيوان من القوارض له شوك طويل كأنه المسال ، من تصيلة القتال .

(١٣) الأرقم : ذكر الحيات أو أحييتها .

بجاريهم أقل من نقطة ، وعند جهرهم بأذكارهم أذل من ضرطة ، لا وسوسنا تؤثر
فى أفكارهم ، ولا مجالسنا تعطل من أذكارهم ، ولا تخيلاتنا تسرق لأبصار
أسرارهم ، فإن استمر الحال ، على هذا المتوال ، لا يبقى لنا فى الدنيا مقام ، ولا بين
الجن والإنس كلام .

فلما وعى العفريت فحوى هذه الشكوى ، وتأمل ما فى مطاويها من نازلة
أحاطت بهم وبلوى ، اشتعلت نيران غضبه ، وتاجحت شواطئ لهبه . ثم قال :
أمهلونى أثلوى ، واتركونى أثلوم وأتروى ، وأفكر فى هذه البلية ، وأكشفها عن
جلية ، فإن الأمور لا تنتج لمعانها ، ما لم يتأمل من فراغها فى جوانبها ونواحيها ،
وتحقيق المسائل إنما يوجد من محكميها وحاكميها . وكان هذا العفريت العاتى ، المارد
الغبر المواتى ، تحت يده وأمره ، من مقتبسي تليسه ومكره ، والشياطين المردة ،
وأغوال العفاريث العنّدة ، طوائف شتى ، وأسم لا تحصى ، ويمن فاقهم فى المكر
والراء أربعة أشخاص كراء وزراء ، كل منهم فى الشيطنة والمؤاسسة ، ومعرفة طرق
الوسوسة ، كأبي علي بن سينا^(١) فى علم الهندسة ، غاية لا تدرك ، ونهاية لا
تستدرك . فاجتمع هذا الغول بوزرائه ، ورؤساء أشياعه وكبرائه . ثم قال لهم :
أفتونى فى أمرى ، وساعدونى على فكري ومكري ، ووجه الخطاب لكبيرهم الذى
علمهم السحر ، المشار إليه فى الدهاء والمكر . وقال له : ما رأيك فى هذه القضية ،
والمواقف الرديّة ، والداهية الدهية ؟ فقال الوزير : يا مولانا الأمير ، وصاحب المكر
والتدبير ، إن العقلاء ، وذوي التجارب من الحكماء ، تفرسوا بأمر قاطع ، من الوقائع
القواطع ، فقالوا : شيطان لا بقاء لما : الروح فى الجسد والسعد فى الطالع ، وهذا هو
الصواب ، ولكل أجل كتاب ، وما دام الأجل باقياً ، والسعد راقياً ، ومُنَادِمُ السَّلامَةِ

^(١) ابن سينا (٩٨٠ - ١٠٣٦ م) الفيلسوف والطبيب المسلم المعروف ، يلقب بالشيخ الرئيس .

ساقياً ، وحافظُ العواضِ واقياً ، لا ينفخُ الجَدُّ^(١٥) ، ولا يدفعُ الجَدُّ^(١٦) ، ولا يرفعُ الجَهْدُ ، ما أثبتَ السعد ، فإذا تمَّ الأجل ، وبطلَ من السعدِ العمل ، انتكسَ السعدُ وانقلب ، وفارقتُ الروحُ بلا سبب ، وإذا كان كذلك ، فهذا الرجلُ الناسك ، سعدهُ عمال ، وطالعةُ في إقبال ، فكلُّ سهمٍ مكرٍ فوقناه إلى نَحْرِ حياتِهِ يعودُ علينا ، وكلُّ رُمحٍ فكرٍ صوبنا سِنَانَهُ إلى شاكِلَةِ بقائِهِ يرجعُ إلينا . فالرأيُ عندي أن نَرَبِّصَ حتى تدورَ به الدوائر ، ولا نهتمَّ باحتيَالِ محالٍ ولا مكرٍ مآكر ، إلى أن تنقضي مدته ، ويسقطَ من سعدِ طالعه قُوَّتُهُ ، فعند ذلك يفيضُ سعينا ، ولا يضيعُ كلُّنا .

فقال العفريتُ للوزيرِ الثاني : يا أفضَلَ جاني ، أنتَ ماذا تقول ، وكيف تشهرُ أن نصول ، في ميدانِ هذا الأمرِ ونجول ؟ فقال : رأيُ مولانا الوزيرِ سديد ، وكلُّ ما أشاره به فهو أمرٌ مجيد ، ولكن كيف يُهْمَلُ أمرُ العدوِّ ، ويركنُ مع وجودِهِ إلى قرارٍ وهُدُوِّ ، وإذا كان طالعةُ في قُوَّةٍ فإهمالُهُ يزيدُ في قُوَّتِهِ ، والتهاونُ في أمرِهِ مساعدةٌ في معاونتِهِ ، ومعاونةٌ في مساعدتِهِ ، وهذا من علاماتِ العجزِ والانكسار ، ومن أقوى الأدلِيةِ في الانحطاطِ والصُّغار ، وأنَّ الأرباب ، وضعَ عالمُ الكونِ والفسادِ على الأسباب ، فلا بدَّ من تعاطيها في هذا الباب ، ونَبَذَ المجهودِ في معاملاتِ الأعداءِ والأحباب ، ولم يقتصرِ الشارحُ ، على التقديرِ والطالع ، إذ فيه حَسَمَ مادَّةَ الشرائع ، والتعرُّضُ لإبطالِ حكمِ الصانع ، فعندي أن نبذلَ الجهدَ في حَسَمِ مادَّتِهِم ، وتعاطي

(١٥) الجَدُّ : المكائنة والمثولة .

(١٦) الجَدُّ : الحظ .

كسر شوكتهم ، وبذل الجهد والجد ، بما تصل إليه اليد ، وثبات الأقدام ، ففى إثبات الإقدام ، كما قال الشاعر ، وهو سلم الخاسر^(١٧) ، فى ثبت الجاسر .

مَنْ رَاقِبَ النَّاسَ مَاتَ غَمًّا وَقَسَارٌ بِاللَّسْدَةِ الْجَسُورُ
وهذا الشاعر المسمى ، أخذه من أحننا بشار الأعمى^(١٨) ، مَنْ لَنَا بِوُجُودِهِ أُنْسٌ ، وهو شيطانُ الإنس ، حيث يقول ، ذلك القول :

مَنْ رَاقِبَ النَّاسَ لَمْ يَظْفَرْ بِحَاجِبِهِ وَقَسَارٌ بِالطَّيِّبَاتِ الْغَالِكِ اللَّهْجُ
فَاعْزِمُوا عَلَى هَدْمِ مَا يَبْنُونَ ، وَصَدِّمُوا مَا يَعْنُونَ ، وَالْأَخْلِيَّ فِي تَمْزِيْقِ حَلْدِيَّتِهِمْ ، وَتَفْرِيقِ
كَلِمَتِهِمْ ، إِذْ لَا أَطْلَاحَ لَنَا عَلَى مَسَاعِدِ الطَّالِعِ ، وَلَا حَدَّ لِبَقَاءِ الْأَجَلِ فَضْلًا عَنْ أَنْ
نَقُولَ : هَذَا الْحَدُّ جَامِعٌ أَوْ مَانِعٌ ، وَهَذَا الرَّأْيُ عِنْدِي أَوَّلِي ، وَرَأْيُكَ يَا رَئِيسَ
التَّلِيسِ^(١٩) أَعْلَى ، وَدُونُكَ يَاغُول ، هَذَا الْقَوْلُ :

إِذَا كَانَتْ الْأَعْدَاءُ غُلًّا لِإِنْتِهِمْ إِذَا لَمْ تَطَّأْهُمْ أَصْبَحُوا بِمِثْلِ نَعِيبَانِ
ومن هذا المقال ، يا أبا الأغوال :

وَاللَّسُّ لَيْسَ لَهُ دَلِيلٌ مَسَارٍ نَحْوُ الَّذِي يَبْغِي كَنُومَ الْحَارِسِ
وَالْأَصْلُ فِي هَذَا أَكْلُو حَسَنُ مَا دَرَيْتَهُمْ ، وَرَدُّ جَادَرَيْتَهُمْ ، وَذَلِكَ بِإِهْلَاكِ مُرْشِدِيهِمْ ،
وإفساد زاهديهم ، فَإِنْ قَلَرْنَا عَلَى إِهْلَاكِهِ ، وَتَمْزِيْقِ حَبَائِلِهِ وَأَشْرَاكِهِ ، تَشْتَتَ
شَمْلُهُمْ ، وَتَبَيَّتَ حُلْمُهُمْ وَقَلْمُهُ .

^(١٧) هو : سلم بن عمرو ، من الشعراء المولود فى العصر العباسى . نشأ فى البصرة وكان شاعراً مطبوعاً ، يظهر
بالخلاعة والجرن ، وزاد شاعرية وقدرة بالشعر على يد بشار بن برد ، لأنه كان رويته وتلميذه . أخذ عنه
واخترت من بحر شعره ، وكان يأخذ أقواله ويعيد صياغتها شعراً على نحو ما فى المثال المذكور فى المتن . توفى
سنة ١٨٦ هـ .

^(١٨) من فحول الشعراء فى العصر العباسى الأول ، توفى سنة ١٦٧ هـ . ومن الجدير بالذكر أن بشاراً غضب غضباً
شديداً إلى حد القطيعة ، عندما علم أن تلميذه ورويته مسلماً قد سرق هذا المعنى منه ...

^(١٩) التلّيس : الخداع والمخالطة فى الأمر حتى لا تعرف حقيقته ، ومنها التيس عليه الأمر ، أى أشكل
واختلط .

فقال العفريت للوزير الثالث ، وكان أنجس عايت ، قل لي أيها الوزير : ما سَنَحَ لك من التدبير ، في هذا الأمر المير^(٢٠) ، والخطب الخطير ، وماذا ترى فيه وتُشير ؟ فقال : لا شك أنَّ الطباغ جميلٌ إلى ما تسمعه ، وما يُلقى إلى النفس لا بدَّ أن يُؤثِّرَ موقعه ، وما أشار به ودبره الوزيران ، وهما نغمٌ للشيران ، فهو لا يخلو عن فوائد ، بل هو مُتَحَلٌّ بعقود الفرائد ، وإنِّي لأعلمُ أنه أثَّرَ في خواطر ، كما يُؤثِّرُ في الرياض السُّحْبُ المواطِر . وبالجملَةِ فَلِلْكَلامِ تأثيرٌ في النفس ، كما تظهُرُ آثارُهُ في الحس ، ولهذا ترى رقيقَ الشعر ، يفعلُ ما لا يفعله دقيقُ السُّخَر ، وجليلُ العبارة فيه من الإثارة ، ما يشجُّعُ الجبان ، وينشطُ الكسلان ويسخِّي البغيث ، وينجِّي الذليل ، ويسحرُ الأرواح ، ويسخرُ الأشباح ، ويعطفُ القلوب ، ويؤلفُ بين المحبِّ والمحبوب ، ويصيرُ العدوَّ صديقاً ، وغلِيظُ الأحرارِ رقيقاً ، وتأملُ يا نبيِّه ، ما قيل في البديهِ :

حديثٌ إذا نادمتُ دهرى به الصبي وكَفَّ عن الإيذا وعاد إلى الإخفا
أذكرُهُ أحلاقَ ما ليكَ الذي تعلَّم منه العلمَ والحلمَ والسعفا
أنساؤُ به ما لا يُسالُ بقوة وأرواحُ أشباحٍ أتت بعد شمعها

وهذه قضية ، تحتاج إلى إعْمالِ الرُّويَّة ، وإمعانِ النظر ، وتدقيقِ الفِكر ، وعندِي الرأيُ السعيدُ السديد ، والفكرُ الحميدُ المجيد ، أنَّ التعرُّضَ إلى هذا الرجلِ اللئيم ، الداعي إلى طريقِ الحقِّ البين ، ليس بمحمود ، ولا طالع قاصديه بمسعود ، فإنه على الحق ، متمسِّبٌ بأذيالِ الصدق ، ومَن قصَدَ مصادمةَ الحقِّ اصطدم ، وفي مهاري الهلاك ارتدم . وقد كان في بني إسرائيل ، رجلٌ من أهلي التبجيل ، عاملاً بالتوراة والإنجيل ، مشغولاً بالعبادة ، باذلاً في إقامةِ الحقِّ اجتهاده ، فتمرَّضَ له جماعة ، من أهلِ الفسق والخلاعة ، فتعاطوا إهلاكه ، وفجعوا به نساكه ، فقتلوه بغيرِ حق ، فغَارَ لَهُ الدِّينُ ورَقَّ ،

(٢٠) للهلك .

فأخبرني مَنْ لَا يَتَّهِمُ بِكَذِبِهِ ، أَنَّهُ قُتِلَ سَبْعُمِائَةِ أَلْفٍ نَفْسٍ بِسَبَبِهِ ، فَهَبَ بِسَبَبِ ذَلِكَ الصَّالِحُ ، مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ الصَّالِحُ بِالطَّالِحِ ، وَمَنْ كَانَ مَعَ الْحَقِّ ، هَادِيًا إِلَى الصَّدَقِ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَعَهُ ، وَمَنْ كَانَ اللَّهُ مَعَهُ مَنَعَهُ ، وَحَرَسَهُ وَمَا ضَيَّعَهُ ، وَمَنْ تَصَدَّقَ لَضِياعِ مَا حَفِظَ اللَّهُ ، وَعَزِمَ عَلَى ابْتِذَالِ مَنْ أَعَزَّهُ مَوْلَاهُ وَكَلَلَاهُ ، فَقَدْ قَصَدَ خِرَابَ غُمْرِهِ وَعِمَارَتِهِ ، وَبَاعَ رَأْسَ مَالِ تِجَارَتِهِ وَرَبْحَهُ بِخُسَارَتِهِ ، وَجَنَى يَدَيْهِ عَلَى نَفْسِهِ ، وَحَفَرَ بَيْدَ تَدْبِيرِهِ مَهْوَاةَ رَمْسِهِ . وَاسْمَعْ يَا نِعْمَ الْعَوْنُ مَا جَرَى لِمُؤْمِنِ آلِ فِرْعَوْنَ ، حَيْثُ كَانَ عَلَى السَّدَادِ ، دَاعِيًا إِلَى سَبِيلِ الرِّشَادِ ، وَقَصْدِ إِهْلَاكِ أَهْلِ الْفَسَادِ ، فَقَالَ : وَأَفْوِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ، فَغَلَبُوا هُنَالِكَ وَانْكَسَرُوا ، وَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكُرُوا . وَأَيْضًا لَوْ قَتَلْنَا هَذَا الرَّجُلَ ، وَكَانَ عَلَى أَيْدِينَا لَهُ جِمَامُ الْأَجَلِ ، فَلَا شَكَّ أَنَّهُ يَقُومُ مَقَامَهُ ، مَنْ يَلُمُّ عَظَامَتَهُ ، وَيَزُمُّ زَمَامَتَهُ ، وَيُجِمُّ بِعَدَائِيٍّ ؛ فَيَقِيمُ شَعَارَتَهُ ، وَيَكْتُبُ مَا قَدَّمَ وَأَتَاوَهُ ، فَإِنَّ تَلَامُذَتَهُ كَثِيرَةٌ ، وَطَوَائِفَ جَمَاعَتِهِ غَزِيرَةٌ ، فَيَنْتَظِمُ لَهُمْ بَعْدَهُ الْأَمْرُ ، وَلَا يَضُرُّ لَنَا مَنْ كَيْدُنَا الْجَمْرَ ، وَإِذَا عَلِمُوا أَنَّ ذَلِكَ مَنَّا ، حَذَرَهُمْ ، وَصَوَّبُوا إِلَيْنَا عِدَاوَتَهُمْ وَمَكْرَهُمْ ، ثُمَّ عَمِدُوا عَلَى اسْتِصْلَانِنَا ، وَاسْتَعْلَوْا لِقَتَالِنَا ، لِأَنَّا أَهْلَكْنَا مَعْتَقِدَهُمْ ، وَهَلَكْنَا عِمَادَهُمْ وَمَعْتَمِدَهُمْ ، وَلَا يُمْكِنُ بَعْدَ ذَلِكَ طَلَبُ الْمَسَالَةِ وَالسَّلَامَةِ ، وَتَسْتَمِرُّ الْعِدَاوَةُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، مَعَ أَنَّ عِدَاوَتَنَا قَدِيمَةٌ ، وَبِالْجَمْلَةِ فَعَاقِبَةُ مَنْ عَادَى أَوْلِيَاءَ اللَّهِ وَغِيْمَةً . إِذَا تَقَرَّرَ هَذَا الْقَوْلُ وَثَبَتْ بِطَرِيقِ الْمَعْقُولِ ، فَاعْلَمْ أَيُّهَا الْغَوْلُ ، وَالشَّيْطَانُ الْمَهُولُ :

أَنَّ الرَّأْيَ الصَّوَابَ ، فِي هَذَا الْمَصَابِ ، أَنْ نَبَادِرَ إِلَى هَذَا الرَّجُلِ وَجَمَاعَتِهِ ، بِإِفْسَادِ طَاعَتِهِمْ وَطَاعَتِهِ ، وَحَيْثُ لَا يَتَيَسَّرُ لَنَا الْمُوَاجَهَةُ ، وَلَا الْخُطَابُ وَالْمُشَافَهَةُ ، وَلَا الْإِضْلَالُ فِي الظَّاهِرِ ، بِصُورَةِ الْمُتَجَاهِرِ ، فَتُزَيِّنُ لَهُمْ حُبَّ الدُّنْيَا وَشَهَوَاتِهَا ، وَالْمِيلَ إِلَى زِينَتِهَا وَلَذَائِهَا ، وَالرُّكُونَ إِلَيْهَا ، وَالاعْتِمَادَ عَلَيْهَا ، وَنُلْقِي إِلَيْهِمْ طُورَ الْأَمَلِ ، وَبُعْدَ

الأجل ، فَنَبِّطُهُمْ بِذلِكَ عن العمل ، وندعوهم إلى التهاون والكسل . ثمَّ بعد ذلك
 يَجْلُو حَدودَ عرائسِ الحرصِ على أَبصارِ أَفكارِهِمْ ، وقدودِ موائسِ^(٢١) الشُّعْبِ وَحبِّ
 المالِ على أَعْيُنِ خيالاتِهِمْ وبصائرِ أسرارِهِمْ ، فإذا ذاقَتْ ألسنةُ عقولِهِمْ حبَّ الدنيا ،
 وَتَمَكَّنَتْ في أدمغةِ سويدائِهِمْ^(٢٢) الرِّغبةُ في الآباءِ والأبناءِ^(٢٣) ، سُلِّبُوا حلاوةَ الطَّاعةِ ،
 وَتَفَرَّقَتْ مِنْهُمُ الجماعةُ ، وَزَاغُوا عن الطريقِ الأَقْوَمِ ، وَزَاغُوا عن السَّيْلِ الأَمَّمِ^(٢٤) ،
 فَتَتَوَصَّلُ إِذْ ذاكَ مِنْهُمْ إلى مقاصِدِنَا ، وَنَوَقَّعُهُمْ - كَيْفَمَا اخْتَرْنَا - في مَصائِدِ
 مَراصِدِنَا ، لأنَّهُمْ هَيَّطُوا مِنْ سماءِ المَنازعةِ إلى الأرضِ ، وَأَهْلَكُوا بِأَيْدِيهِمْ أَنْفُسَهُمْ إِذْ
 بَغَى بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ ، فَتَحَاسَدُوا وَتَحَاشَدُوا ، وَتَدَابَرُوا وَتَفَاحَرُوا ، وَتَكَالَبُوا
 وَتَضَارَبُوا ، وَتَوَاتَبُوا وَتَجَانَبُوا ، وَتَنَاهَبُوا وَتَسَالَبُوا وَتَلَاسَبُوا^(٢٥) ، وَتَقَابَلُوا وَتَقَاتَلُوا ،
 وَتَفَرَّقُوا وَتَمَزَّقُوا ، وَتَحَرَّقُوا وَتَحْمَرَّقُوا^(٢٦) ، وَانْحَازَ كُلُّ مِنْهُمْ إلى نَاحِيَةٍ ، وَأَعْجَبَ كُلُّ
 بِرَأْيِهِ فَلَا تُعَرَفُ الفِرْقَةُ النَاجِيَةُ ، إِذْ تَفَرَّقَتْ أَهْوَؤُهُمْ ، وَتَصَادَمَتْ آرَأؤُهُمْ ، وَجَذَبَتْهُمْ
 أَغْراضُهُمْ إلى الانْحِثَاءِ ، وَجَلَبَتْهُمْ أَمْرَاضُهُمْ معِ الأَهْواءِ ، وَمَالَ كُلُّ مِنْهُمْ إلى صَوَابِ
 وَأَيْسِ^(٢٧) مِنْهُمْ إلى الصَّوابِ الأَرَبِ^(٢٨) ، وَتَعَلَّدَ الخَلْقُ الذَّمْرَ^(٢٩) ، وَلبَسَ كُلُّ لَصاحِبِهِ
 جِلْدَ النَمْرِ . ثُمَّ بعدَ ذلكَ زَلُّوا وَأَزَلُّوا ، وَضَلُّوا وَأَضَلُّوا ، فَتَمَكَّنَتْ فِيهِمْ كَمَا نَرِيدُ ،
 وَتَصَرَّفْنَا فِيهِمْ تَصَرُّفَ السَّادَاتِ في العبيدِ ، وَسلطاناً عَلَيْهِمْ دواعي الغُضبِ والشرِّ ،

(٢١) قَدْ مَاسَ : قَوَامَ مَيَّاسٍ مَتَجَهِّزٍ فِي مَشِيئَتِهِ .

(٢٢) قُلُوبُهُمْ .

(٢٣) عَنَفَ : الأَبْنَاءَ لَظَرُورَةِ السَّجَمِ .

(٢٤) الأَمَّمِ : لِلْمَقْصُودِ الْقَوِيمِ .

(٢٥) تَلَاسَبُوا : تَلَاسَعُوا وَتَضَارَبُوا : يُقَالُ لِسَبْتِهِ الْقُرْبُ أَوْ الْبَعُوضَةُ أَوْ غَرْمُهَا : لِسَعَتِهِ .

(٢٦) حَرَجَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ ، فَسَادًا وَعَدْوَانًا .

(٢٧) أَيْسَ : يَسْرَ وَانْقَطَعَ رَجَاؤُهُ .

(٢٨) الْقَصْدُ وَالِاسْتِقَامَةُ ، وَمِنْ مَعَانِيهَا أَيْضًا : الطَّرِيقَةُ وَالْعَادَةُ ، وَالْجِهَةُ وَالنَّاحِيَةُ .

(٢٩) الذَّمْرُ : الدَّاعِيَةُ الَّتِي يَحْضُرُ عَلَى الْحَرْبِ وَالْعَدْوَانِ وَالتَّهْدِيدِ .

ولعبنا بشيوعهم لعبَ الصبيان بالكرة ، فنصوبُ لهم أقوالهم ، ونزغرفُ لهم أفعالهم ، كما قال من خلقهم وأحوالهم ، وزين لهم الشيطان أعمالهم ، ولا نقصد بذلك إلا كبراءهم ، وفضلهم وعلماءهم ، وزهادهم ورؤساءهم ، وحكامهم وحكماءهم ، ولا نفتر عن مكابلتهم ، ولا غيْل عن مكابلتهم ، ونجري في عروقهم ، ونسكنُ في فُرُوقهم^(٣٠) ، ونحركهم في رجوعهم وبروقهم ، فإن تحركوا إلى خيرٍ سكنناهم ، وإن سكتوا عن شرٍّ حرَّكناهم ، وإن عزموا على الآخرة صدّدناهم ، وأن جزموا إلى مواطن يرّددناهم ، وإن أمّوا مفسدةً قُدّناهم ، أو همّوا إلى معصيةٍ سقناهم ، ولا بُدَّ لهذا العمل الكثير من تأثير ، وليتدقَّ^(٣١) جدّ في المسير أن يصير . وبالجملة فنبذلُ في كلّ عامة جهلنا وجِدنا ، ولا غضاضة في ذلك علينا لأنّه صنعة أبينا وجِدنا ، وقد أخبرَ بذلك جدنا اللعين ، لما حالفَ ربَّ العالمين ، كما أخبر في الكتاب المبين ، في قوله ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغَوِّيَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(٣٢) .

فإذا رآهم الناس ، وقع بينهم اليأس^(٣٣) ، حصل منهم اليأس^(٣٤) ، وتراجعوا عنهم ، وهربوا منهم ، وفسد اعتقادهم فيهم ، بل قتلوهم بأيديهم ، فإذا ظهر فسوقهم ، وكمد سوقهم ، فإن شتّا أوقفنا حالهم ، وإن رمنا إلى الهلاك نسوقهم ، وأوثق ما يتوصّل به إليهم من الأسباب ، هي حالة الانفراد والإعجاب ، وحالة

(٣٠) فروقهم : الفرق من الرأس : الفاصل بين صفين من الشعر . والفرق والفروق من الرجال : الشديد للفرع .

(٣١) ليتدقّ : الدليل في السفر .

(٣٢) سورة ص : ٨٢ .

(٣٣) اليأس : غلب اليأس ، الشدة .

(٣٤) اليأس : غلب اليأس ، الإحباط .

الاجتماع للكذاب ، فإنَّ الإعجاب يهوي في النار ، والكذب يُخَرِّب الديار . وناهيك قضية التاجر ، مع عبده الكذاب الفاجر . فسأل شيخُ الجنِّ عن بليَّة ذلك القرن^(٣٥) .

[١/٤] قصة التاجر مع العبد الفاجر

(الذي يكذب مرَّة في كل عام)

فقال : وَرَدَ في الخير ، عن شخصٍ معتبر ، قال : كان بمكان تاجرٌ ذو مال ، وزوجة ذات جمال ، كلُّ يهوى صاحبه ، ويرعى جانبهُ ، ويفلده بروجهِ ، ويترشف رُضابَهُ^(٣٦) في غُبُوقِهِ وصَبُوحِهِ^(٣٧) ، كأنهما زوجُ حَمَام ، وفي بَنام^(٣٨) . ففي بعض الأيام قال أحدهما لرفيقهِ ، وهو يرشف من كأسٍ عقيقهِ ، شَهَد رُضابَهُ بخمرةٍ ويقهِ : لو كان لنا عبيدٌ^(٣٩) ، يتعاطى ما لنا من حاجةٍ ويخلصنا من جملةٍ عمرٍ وزيد . فذهب التاجرُ إلى سوقِ الرقيق ، فوجد مع التَّخْلِيسِ عبيداً ذا قَدٍّ رشيق ، ينادى عليه : أبيعهُ بكذا ، على ما فيه من أذى . فقال : وما عيبُهُ ؟ قال : كذبُهُ لا على الدوام ، وإنما هو مرَّة في كلِّ عام . فقال : عيبٌ هينٌ ، وشَيْنٌ لَينٌ^(٤٠) ، فاشتراه ، وأتى به إلى دارِهِ وارتضاهُ ، فاستمرَّ في خدمةٍ حسنة ، حتى أتى عليه سنة ، ونَسِيَ سيدهُ عيبَهُ ، وأمنَ رَيبَهُ ، وجَرَّبَ بالأمانةِ يَدَهُ وبالطهارةِ جَنبَهُ . فلَمَّا مضى عليه عام ، كان سيدهُ في الحَمَام ، فأتى البيتَ في بعضِ الخواجج ، في صورةِ الجميلِ الهائج ، شاهقاً ناشراً ،

(٣٥) القرن : العبد الذي كان أبوه مملوكاً لمواليه .

(٣٦) الرضاب : الريق للشرف .

(٣٧) الغُبُوق والصُّبُوح : شراب الغُبُوق أى ما يشرب العشي ، وهو خلاف شراب الصُّبُوح أو الصباح .

(٣٨) البَنام : العهد .

(٣٩) عبيد ، تصغير : عبد .

(٤٠) الشين خلاف الزين ، أى القبح والعب ، والشين اللين : القبح المقدور عليه أو العيب البسيط السهل .

صائحاً نائراً ، صارخاً : وا ويلاه ، وا سيده ، وا مولاه . فسيئ ما لك ؟ لا أحسن الله حالك ، ولا أنعش بالك . فقال : رمح البغل بسيدي فما تمالك ، أن تهالك ، وسلم الروح خالقها وقال لوارثه تسلم مالك ، فأقيم العزاء والسخام^(١١) ! وتركهم وأتى للحمام ، وهو يكي وينوح ، ويصرخ ويصيح ، فسأله مولاه ، ما دهاه ؟ فقال : وقع البيت ، على كل من أويت ، ولم يبق في الدار ، نافخ نار ، فهلك الكبير والصغير ، ونهب ما فيها من حليل وحقير . فخرج وهو يستغيث ، من حديث ذلك الخبيث ! فوجد أهل البيت سالمين ، ورأوه من الناجين ، فعزم على خطابه^(١٢) ، فذكر له ما سلف من اشتراطه .

ثم إنه استقام ، ونسي هذا الكلام ، ومضى عليه عام ، فاستأنف ذلك الخبيث ، أمره العيب ، وقال لامرأة مولاه ، يا هنتاه^(١٣) ! إن كنت نائمة فاستيقظي ، وخذي حذرك وتيقظي ، واعلمي أن نية صاحبك ، أن يلقي حبلك على غاربك^(١٤) ، لأنه قد عشق عليك ، ونبد حبل حلك إليك ، وتعلق قلبه ببيت رجل كبير ، ولا ينمك مثل عبيد ، وقد حملني على نصيحتك الشفقة ، وما أسديت إلي من إحسان وصدقة ، فبادري قبل حلول الباس ، ونزول الفاس في الراس ، فأتى فيها هذا الحديث ، فاستشارت ما تفعله ذلك الخبيث . فقال : لو ظفرت بشيء من شعره ، لكفيتك مؤونة مكروه ونكره ، فإن لي صاحباً منجماً ، وأستاذاً معلماً ، يرقى^(١٥) الشعور ، ويجعلها في النحور ، وإذا وجد إلى خيشوميه مساعه ، ودخل البخور دماغه ، صار

(١١) السخام : السواد كتابة عن الحداد .

(١٢) غيظ فلانا : أى ضربه ضرباً شديداً .

(١٣) كتابة عن المرأة (ولا تستعمل الا فى الندام) والأصل للرجل .

(١٤) كتابة عن الرغبة فى الطلاق كـو الشروع فيه .

(١٥) من الرقية .

عبداً لك على الدوام ، وحظيت عنده بالمراد والرام ، وارتقيت إلى أعلى مقام ، ولكن ينبغي أن يكون من شغلٍ لحيتي ، الثابت على ترفوتي^(١٦) . قالت : وأني أصل إلى ذاك ؟ وقال الله شرّ أذاك ! فقال : إذا نام ، وغرق في المنام ، فاخلقي منه موسى ، لتكفي الضنر والبوس^(١٧) وأنا آتيك موسى يخلق الشعور ، فافعلي ذلك من غير أن يكون له شعور ، فاتفقا على ذلك الاتفاق ، وأتاها موسى خلّاق .

ثم توجه إلى مولاه ، وقد أضمر له ما دهاه ، وقال : أشعرت ياذا الفضائل ، أن زوجتك البديعة السمائل ، تغير عاظرها عليك ، وتقلبت بالإساءة إليك ، ولولا أنك شفيق عليّ ، وعزيز ومكرم لديّ ، ما أنبأتك من أخبارها بشي ، فإني أريد أن يكون ما أنهيتك إليك مكروماً ، إلى أن يصير عندك مُحققاً معلوماً ، وقد أرسل إليها من يخطبها ، وأمالها عنك بما يرغبها ، واتفق معها أنها تقتلك وتستريح ، وتصبح في فراشك وأنت ذبيح ، وذلك يقوم ببيتك ، وقد أرسل إليها من الجواهر والأموال أضعاف قيمتك ، فإن أردت مصداق هذا الكلام ، فتساقط عندها في المنام ، ليزول الشك باليقين ، وتحقق أني من الصادقين ، فأثر هذا الكلام فيه وعاف من مكرب النساء ودواهيه . فلما أقبل العشاء ، وأحضروا العشاء ، تناول من ذلك الطعام ، ونهض إلى الفراش لينام ، وأظهر بين القوم ، أنه غرق في النوم ، وغمض عينيه وانحط ، وسال لعبابه وغط ، فنهضت الزوجة إليه ، وفتحت الموصى ودخلت عليه ، ومدت يدها إلى لحيتي ، ووضعته على ترفوتي ، ففتح عينيه ، فرأى آلة الموت متوجهة إليه ، فما تمالك أن وثب عليها ، وجثم إليها ، وخرج زمام تفكيره ، عن يد تأملوه وتديروه ، وخطف الموصى من كفها ، وسقاها كأس خففها . فلما رأى فوران الدم ،

(١٦) الرقوة : عظمة مشرفة بين ثغرة النحر والعاتق .

(١٧) عطفة : البوس بمعنى البوس ومن معانيها العذاب والشقاء والخوف .

أدركه لَاحِقَ الندم ، وبد تبدل الوجود بالعدم ، ووقع القاتل والقيل ، واشتهر أمر القتل ، وعلق في شرك الاقتصاص ، وغُويلَ في صاحبه بالقصاص .

ولما أوردتُ هذا الكلام لتعلم ما أَهْلَكَ الأنام ، وأَوْقَعَهُمْ في شَرِكِ الآثام ، والكفرِ والفسوقِ والحرام ، مثلُ الكذبِ في الكلام ، وهو لنا أَوْثَقُ زمام ، وبلذِبِهِمْ إلى ما قصدناه من المرام ، أَحْكَمْ حِطَام^(٩٨) ، وأعْظَمُ خِزَام^(٩٩) . فاستحسن العفريتُ هذا الرأيَ واستصَوَّبَهُ ، وأعجبه ما تضمنه من معانٍ واستغربه ، ثمَّ قال : رأيتُ يا أصحاب ، مِنِ الرأيِ الصوابِ ، أنْ أَجْتَمَعَ بهذا العالمِ الزاهد ، العاملِ العابد ، في محافلٍ غاصَّةٍ ، وأسألُهُ عن مسائلٍ عامَّةٍ وخاصَّةٍ ، وعن أسرارٍ رقيقةٍ ، أطلبه فيها بمجازيها والحقيقة ، وأنا أعرفُ أنه يفحِّمُ عن جوابي ، ويلجئُ عند أَوَّلِ خطابي ، فإذا عجز عن جوابِ المسائل ، في تلكِ الجموعِ والمحافلِ ، تحقق الحاضرون جهله ، فقبضوه من أَوَّلِ وهلةٍ ، واعتزفوا لنا بالفضلِ الوافر ، والعلمِ الغزيرِ للتكاثر ، فصاروا لنا أَوْدَاءَ^(١٠٠) ، والفضلُ ما شهدتُ به الأعداءُ ، ورجعوا عن اعتقادِهِ ، ونفضوا أيديهم من محبَّتِهِ ووداده ، وربما سَعَوْا في دمارِهِ ، وخرابِ ديارِهِ ، فيكفونوا أمرَهُ ، ويزيجون عنا شرَّهُ . وأقلُّ الأقسام ، أنْ جماعة ذلك الإمام ، إذا رأوا ما لنا في الفضلِ من تجارةٍ ، وعلموا أنْ رأسَ مالِ إماميهم الخسارة ، التهوا بالسهو ، وسَهَوْا باللهو ، وانفضوا عنه وتركوهُ ، وهذا إنْ لم يكونوا سفكوهُ وسبكوه^(١٠١) ، كما فعل صاحبُ البستانِ

(٩٨) الحطام : الزمام . ما وضع على عظم (أنف) الجمل ليقاد به .

(٩٩) خزام أو خزيمة : حلقة من الشعر ، توضع في ثقب أنف البعير ، يُشدُّ بها الزمام .

(١٠٠) أمصقاء ، أمعاء .

(١٠١) سبكوه : أذا به .

بالمزرعة ، من الغدير والتفخيذ^(٩٧) مع غرمائه الأربعة . فسأل الوزراء عن غدير ذلك الغدير كيف جرى ؟

[٧/٤] حكاية صاحب البستان مع غرمائه الأربعة

قال العفريت : كان من "تكريت"^(٩٨) ، رجل مسكين ، ينظر البساتين ، ففي بعض السنين ، قدم قرية "منين" ، وسكن في بستان ، كأنه قطعة من الجنان ، فاكهة ونخل ورمثان ، ففي بعض الأعوام ، أقبلت الفواكه بالأنعام ، ونثرت للثمار ملابس الأشجار من الأذيال والأكماس ، فأجأت الضرورة ذلك الإنسان ، أن خرج من البستان ، ثم رجع في الحال ، فرأى فيه أربعة رجال : أحدهم جندي والآخر شريف ، والثالث فقيه والرابع تاجر طريف ، قد أكلوا وسقوا ، وناموا وأتفقوا ، وتصرفوا في ذلك تصرف الملأ ، وأفسدوا فساداً فاحشاً ، عاهدوا ومارشوا^(٩٩) ، وناوشوا وناكشا ، فأضر ذلك بحاله ، ورأى العجز في أفعاله ، إذ هو وحيد ، وهم أربعة وكل عتيد ، فسارع إلى التاخيذ^(١٠٠) ، وعزم على التفخيذ^(١٠١) ، فابتدأ بالترحيب والبشاشة ، والإكرام والهشاشة ، وأحضر لهم من أطيب الفاكهة ، وطايبهم بالمفاكهة ، وسامح بالممازحة ، ومازح بالمساحة ، إلى أن أطمأنوا ، واستكانوا واستكنوا ، ودخلوا في اللعب ، ولاعبوه بما يجب . فقال في أثناء الكلام : أيها السادة الكرام ، لقد حزمت أطراف المعارف والطرف ، فأني شيء تعانون من الجرف ؟ فقال أحدهم : أنا

(٩٧) التفخيذ : التأخير في المعاقبة .

(٩٨) مدينة على الضفة اليمنى لنهر دجلة ، شمالي سامراء بالعراق .

(٩٩) مرش وجه الأرض : خدشها ، والمقصود عاث الأربعة فيها فساداً .

(١٠٠) اللوامضة والمعاينة ، باللين ثم بالشدّة .

(١٠١) الحساب والمقاب ، مع تأخير العقوبة .

جندي . وقال الآخر : أنا رسولُ الله جَدِّي . وقال الثالث : أنا فقيه . وقال الرابع : أنا تاجرٌ نبيه . فقال : والله لستَ بنبيه ، ولكن تاجرٌ سفيه ، وبيعُ الشكْلِ كربه ، أما الجنديُّ فإنه مالكُ رقابنا ، وحارسُ حجابنا ، يحفظُنا بصولته ، ويصونُ أنفسنا وأموالنا وأولادنا بسيفِ دولته ، ويجعلُ نفسه لنا وقايةً ، وينكي في أعدائنا أشدَّ نكابةً ، فلو مدَّ يدهُ إلى كلِّ منا ورزقه ، فهو بعضُ استحقاقه ودونُ حقه . وأما الشريفُ فإنَّ جدَّه هدانا ، ومن النارِ أنجَّنا ، وقد ملكنا كرامةً وحباً ، لقوله تعالى : ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ هِيَ الْقُرْبَى﴾^(٢٧) وقد تشرَّفَ به اليومُ مكاني ، وحلَّتْ به البركةُ عليَّ وعلى بستانِي . وأما سيدنا العالمُ ، فهو مرشدُ العالم ، وهو سراجُ ديننا ، الهادي إلى يقيننا . فإذا شرفونا بإقدايمهم ، ورَضَوْا أَنْ نَكُونَ مِنْ خُلَائِهِمْ ، فلهُم الفضلُ علينا ، والمِنَّةُ الواصلةُ إلينا . وأما أنتَ يا رابعهم ، وشرَّ جان تابعهم ، بأيِّ طريقٍ تدخلُ إلى بستاني ، وتناولُ سَفَرَجَلِي ورُمَّاتِي ؟ هل بايعتني بمساحة ، وتركت لي للمرايحة ؟ أو لك عليَّ دينٌ ، أو عاملتني نسيعةً دونَ عَيْنٍ ؟ أَلَاكَ عليَّ جميلةٌ ، وهل يبني وبينك وسيلةً ، تقتضي تناولَ مالي ، والهجومَ عليَّ يُلْكِي ومناي ١؟ ثُمَّ مَدَّ يدهُ إِلَيْهِ ، فلم يعترضْ من رفقاؤه أَحَدٌ عليه ، لأنه أَرْضَاهُم بالكلام ، واعتذر عما يتطرَّقُ إِلَيْهِ مِنْ مَلَامٍ ، فأوثَقَهُ وَثاقاً مُحْكَمًا ، وتركه مُغْرَمًا .

ثُمَّ مَكَثَ سَاعَةً ، وهو على الخلاعة ، مع الجماعة ، وغامرَ الجنديُّ والشريفُ ، على الفقيهِ الظريف . فقال : أيُّها العالمُ الفقيه ، والفاضلُ النبيه ، أنت مُفتي المسلمين ، وعالمٌ بمنهاجِ الدين ، على فتواك مدارُ الإسلام ، وكلمتُك الفارقةُ بين الحلالِ والحرام ، بفتواك تُستباحُ الدَّمَاءُ والفروج ، فَمَنْ أَفْشَاكَ بالدخولِ في هذا والخروج ؟ أَفْتَنِي بِعَالِمِ الزَّمان ، حمدُ بنِ إدريسَ أَفْشَاكَ بهذا أم النعمان ؟ أَمْ أَحْمَدُ بنُ

^(٢٧) قرآن كريم ، سورة الشورى : ٢٣ .

حتيل ؟ أم مالك ، فَسَّحَ لَكَ بِذَلِكَ ؟ وَإِلَّا فَمَا بِأَلْكَ ، تَعَوْتُ وَتَعَبْتُ بِمَا لَيْسَ لَكَ ؟^(٩٨)
أما سمعتَ قولَ مُعِزِّ العلماءِ ومُجَلِّها ، ومُذِلِّ الجُهلاءِ لجهلها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا
تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾^(٩٩) وإذا ارتكَبَ مثْلُكَ
هذا المَحْظُورَ ، وتَعَاطَى العلماءُ والمُفْتُونَ^(١٠٠) أَقْبَحَ الْأُمُورِ ، فَلَا عَتَبَ عَلَى الْأَحْنَادِ
وَالْأَشْرَافِ ، وَلَا عَلَى الْجُهَلَاءِ الْأَحْلَافِ ، ثُمَّ مَدَّ يَدَهُ إِلَى جَلَابِيئِهِ ، وَأَوْتَقَهُ بِتَلَابِيئِهِ ،
فَأَحْكَمَهُ وَثَاقًا ، وَالْمَهُ رِبَاقًا^(١٠١) ، فَاسْتَحَدَّ بِصَاحِبِيئِهِ ، إِلَى جَانِبِيئِهِ ، فَمَا أَتَجَدَّاهُ ، وَلَا
رَفْدَاهُ^(١٠٢) .

ثُمَّ جَلَسَ يُلَاهِي ، الْجَنْدِيُّ السَّاهِي ، وَغَامَزَهُ عَلَى الشَّرِيفِ ، ذِي النَسَبِ
الظَّرِيفِ . ثُمَّ قَالَ : أَيُّهَا السَّيِّدُ الْأَصِيلُ النَّحِيبُ ، الْجَيِّدُ الْحَسِيبُ ، لَا تَعْتَبْ عَلَى
كَلَامِي ، وَلَا تَسْتَقْبَلْ مَلَامِي ، أَمَّا الْأَمِيرُ فَإِنَّهُ رَجُلٌ كَبِيرٌ ، ذُو قَدْرِ عَظِيمٍ ، لَهُ الْجَمِيلَةُ
النَّائِمَةُ ، وَالْفَضِيلَةُ اللَّائِمَةُ ، وَأَنْتَ يَا ذَا النَسَبِ الطَّاهِرِ ، وَالْأَصْلَ الْبَاهِرِ ، وَالْفَضْلَ
الزَّاهِرِ ، سَلَفُكَ الطَّيِّبُ أَذِنَ لِي ، فِي الدَّخُولِ إِلَى مَا لَا يَحِلُّ لَكَ ؟ أَمْ حَدَّثَكَ الرَّسُولُ
أَفْثَاكَ بِاسْتِبَاحَةِ الْأَمْوَالِ ؟ أَمْ زَوْجُ الْبَتُولِ أَنْبَاكَ أَنَّ أَمْوَالَنَا لَالِ الْبَيْتِ حَلَالٌ ؟ وَإِذَا
كُنْتَ يَا طَاهِرَ الْأَسْلَافِ لَا تَتَّبِعُ سُنَّةَ آبَائِكَ الْأَشْرَافِ ، مِنَ الزَّهْدِ وَالْعِفَافِ ، فَلَا عَتَبَ
عَلَى الْأَوْبَاشِ وَالْأَطْرَافِ ! ثُمَّ وَثَبَ إِلَيْهِ ، وَكَتَفَ يَدَيْهِ ، وَلَمْ يَعْطِفْ الْجَنْدِيُّ عَلَيْهِ ،
وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْجَنْدِيُّ وَهُوَ وَحِيدٌ ، فَانْتَصَفَ مِنْهُ الْبَسْتَانِيُّ كَمَا يَرِيدُ ، وَأَوْتَقَهُ رِبَاطًا ،
وَزَادَ لِنَفْسِهِ احْتِيَاطًا . ثُمَّ أَوْجَعَهُمْ ضَرْبًا ، وَأَشْبَعَهُمْ لَعْنًا وَسَبًّا ، وَجَمَعَ عَلَيْهِمُ الْجَحِيرَانَ

^(٩٨) قرآن كريم ، سورة النور : ٢٢ .

^(٩٩) جمع مفتى ، وهو مَنْ يَهْتَمُّ بِالْفَتَوَى بَيْنَ النَّاسِ .

^(١٠٠) رِبَطُهُ بِالرِّقِّ كَوِ الْحَبْلِ رِبَطًا شَدِيدًا مَوْلًا .

^(١٠١) رَفْدٌ : دَعْمٌ وَتَعَانٍ .

واستعان بالجلالوزة^(١٢) وأصحاب الديوان ، وحملهم برباطهم ، وعملتهم تحت آباطهم إلى باب الوالي ، وأخذ منهم لمن ما أخذوه من رخيص وغالي .

وأنما أوردت ماجرى ، لتعلموا أيها الوزراء ، أنَّ التفخيزَ بين الأعداء بالتأخير ، أمر من السهام في تنفيذ الأحكام وأحكام التنفيذ ، وهذا قبل تعاطي أسباب التيلسة ، وفتح أبواب الوسوسة ، فإنه يقال ، في الأمثال "عقدة تنحل باللسان" لا يؤخر حُلها إلى الأسنان ، ونعم ما أرشد ، مَنْ أنشد .

فَكَمْ عقدة أغنى اللسان بحلها تراخت وقد أعيت نواجدة أسنان

ثم قال الغفريتُ للوزير الرابع : ماترى في هذا الأمر الواقع ؟ فقال : حيث تردد الأمر بين آراء مختلفة ، وأقوال متفاوتة غير متولفة ، وأقيم على كُلِّ قيل ، برهان ودليل ، فتعبد النقل ، وتبدل العقل ، وعميت وجوه الترجيح ، ودُرست طرق التصحيح ، فلا يمكن القول بأحدها ، ولا الميل إلى مفردها ، فإنَّ ذلك ترجيح بلا مرجح ، وتصحيح بلا مُصحح ، فربما يُتصورُ الشيءُ خيراً ، وتكون عقبةُ شرّاً ، ويتوهم شرّاً ، فتظهر قصاراهُ خيراً . وقد قال مُنزّلُ الفرقان ، على أشرف جنس الإنسان ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾^(١٣) وكن من قضية تصورها الفكر صواباً ، وينهل عما تتضمنه من خطإ ما بها ، وكذلك النفس ، تصور شيئاً بصفة وهو بالعكس ، ولذلك شاهدت من وقائع الحسن ، فليس على ذلك معول ، وشاهده قضية المضيف مع ولديه الأخول . فقال الغفريتُ ، وكيف ذلك أيها الخريت^(١٤) ؟

^(١٢) رجال الشرط أو الشرطة . المفرد جلواز .

^(١٣) قرآن كريم ، سورة البقرة ، آية : ٢١٦ .

^(١٤) للدليل الحاذق بالدلالة والمآل فيها .

[٣/٤] قصة المضيف مع ولده الأحول

قال الوزير : أخبرني شخص فاضل ، أنه كان رجلً كامل ، كريمُ السمائل ، محبوبُ الخصائل ، مرغوبُ الفضائل ، غزيرُ الثراء ، يحبُّ الفقراء ، عذْبُ الموارد ، مرميْدُ اللّصادر والوارد ، لا يسألُ الضيف ، مِنْ أَيْنَ ولا كَيْفَ ، وهو كما قيل "للضيفِ والسيف" ورحلة الرجالِ في الشتاء والصيف . فنزل في بعضِ الأيامِ ضيفاً من أصحابهِ الكرام ، فزاد في إكرامه ، وأحضر ما طاب من طعامه . فلما رفع السماط ، ووضع لِلبسطِ بساط ، قال لضيفهِ الصديق : عندنا قارورةٌ من الشرابِ العتيق ، كنتُ أذخرُهُ لِتَزِيلَكَ ، وأعددتُهُ لثُلكِ ، وما عندي سواها ، فإن رأيتَ أَحْضَرناها ، وتعاطينا الراح ، لطلبِ الانشراح ، فإنها مادةُ الأفراح ، كما قيل :

وما بقيتُ من اللذاتِ إلا أحاديثُ الكرامِ على المآمِ

فسمع الضيفُ مقالَه ، وتحمّلَ جميلته ودعا له ، وأجاب سؤالَه . فأشار المضيفُ للمفضّل ، إلى ولده الأحول ، فقال : اذهبْ إلى المقصورة ، فإنّ هناك قارورةٌ ، وإياك أنّ تنكسر ، فإنّ صدْعَ الزجاج لا ينجر ، وما بنا ضيرُها ، ولكن ما عندنا غيره . فتوجّه إلى ذلك المكان ، فزاعى لهُ قارورتان ، فرجع من وقته ونادى لفته : أيها الأبُ المفيد ، هناك قارورتان فأيهما تريد ، فحجّل من ضيفهِ وغضب ، لئلا ينسبَ إلى اللوم والكذب . فقال لابنهِ يا ابنَ البظرا ، اكسرْ إحداهما وهاتِ الأخرى ، فأخذ العصا وضربَ أحدَها ما كان تراءى للبصر ، فلم يكنْ غيرَ وعاءٍ واحدٍ وقد انكسر ، فخرج إلى أبيه ، وهو من الفكرِ في تيه ، وقال امتلئتُ ما أمرت ، وأخذتُ العصا وضربت ، فانكسرت إحدى القارورتين ، ولا أدري الأخرى ذهبت إلى أين . فقال : يا بُنَيَّ إنّ الخطأ منك وإليك ، والخطأ في ذلك كان من نظر عينيكَ .

وإنما أوردت هذا القول ، لتعلم أيها الغولُ المهول ، أن أقوى طرفِ العلمِ العين ، وإذا حصل في إدراكها الخللُ والشَّتْن ، تراءى الصدقُ بصورةِ المِثْن . والشَّيْءُ الواحدُ بشكلِ اثنين ، وهذا أمرٌ محسوس ، لا تنكرُهُ النفوس ، فكيف ترى تكون ، عينُ الفكرِ المصون ، وهي بأنواعِ الحجبِ محجوبة ، وبتخيُّلاتِ الوهمِ وقضايَاهُ مشوبة ، ومرآتُها إنما هي المعاني ، دونَ المحسوسةِ للمشاهدةِ المباني . فعلى هذا ينبغي التأملُ في عُقْبَى هذه الحوادث ، والتدبُّرُ في قصارى هذه الأمورِ الكوارث ، ثمَّ الأخذُ في تعاطيها ، والشروعُ في أسبابِ تلافيها ، إنما يكونُ بعدَ إمعانِ الأنظار ، وإِنعامِ التدبُّرِ والأفكار . ثم اعلمُ أيها الرئيس ، الداهيُ النفيس ، شيخُ المكرِ والتليس^(١٦) ، واليبلِس^(١٧) والتدليس^(١٨) ، أن اللهَ القديم ، القادرَ الحكيم ، لم يَخْلُقْ في الموجودات ، ولم يوجِدْ في المخلوقات ، أعزَّ جوهرًا من الإنسان ، فإنه فضَّلَهُ على جنسِ المَلَكِ^(١٩) والجان ، واعتصمَهُ بتلقيقِ النظر ، وعميقِ الفكر ، وسرعةِ الإدراك ، فهو مع عدمِ الحراك ، يحكمُ وهو ساكنٌ على مائتِ الثرى وفوقِ الأفلاك ، وشملُهُ بعوالمِهِ ، وعودُهُ بفوائدهِ ، ولطفَ به في مصادرهِ ومواردهِ ، فهو أرحمُ بِهِ من والدتهِ المشفقةِ والديه ، ووكَل بحفظه الكرامَ الكاتنين ، وملائكتهِ المقرين ، وربَّاه في حجرِ نعمتهِ ، على مواعيدٍ لطيفَةٍ وكرمِهِ ورحمتهِ ، كما تُربي الوالدةُ الشفيقة ، والأطيرُ^(٢٠) الرقيقةُ الرقيقة ، وألهمهم العلمَ الغزير ، والقدرَ الخطير ، والرأيَ والتدبير ، وأطلعهم على غامضِ الأسرار ، ودقائقِ الأفكار ، وأنَّ علمنا بالنسبةِ إلى عليهم ، وحلمنا في القياسِ إلى

(١٦) التليس اختلاط الأمر والتباسه حتى لا تعرف حقيقته .

(١٧) اشتباه الأمر إلى حد السكوت والحيرة وانقطاع الحجة إضلالاً وتضليلاً .

(١٨) التدليس : المكر والتدعية والظلم والخيانة .

(١٩) الملائكة .

(٢٠) المرضعة لغور ولدها .

ثباتهم وحلهم ، كسبية علم الفلاح المغر ، إلى علم الطبيب المعبر^(٧٠) ، بحسن النظر . قال العفريت ، أخبرني بذلك ياشيخ المصالي^(٧١) .

[٤/٤] قصة الفلاح الذي ادعى الطبابة وتغير الرؤيا

قال الوزير : أخبرني شيخ كبير ، أنه رأى في منامه "فلاح" كأنه خرج من بطنه مفتاح ، فلما أصبح الصباح ، جاء إلى رجل من أهل الصلاح ، يُعبرُ للنمات ، وكان ذا كرامات ، فقص عليه رؤياه ، وطلب منه تعبير^(٧٢) . فقال له : يارئيس ، هذا منامٌ نفيس ، لا أذكرُ ما فيه من تعبير ، إلا بدینارٍ كبير ، فحصل له بشارة ، فناروله ديناره . فقال : يولد لك ولدٌ ذكر ، يكون سبباً للفتوح والظفر . وكان له زوجة حامل ، بقي لها أيامٌ قلائل ، فولدت لَبنَ غلام ، بعد ثلاثة أيام ، فاستبشر الفلاح ، بالظفر والنجاح . ثم بعد مدة ، حصل للفلاح شدة ، من مرض آلمه وأصاب قدمه ، فجاء إلى مُعبرِ المنام ، وشكا إليه الآلام ، وقال : ألمي في قدمي ، ضاعف همي ، وأضعف هممي . فقال له الطبيب : لا بأس يا حبيب ، هذا داءٌ هين ، وعلاجه بين ، أعطني ديناراً ثانياً ، أصف لك دواءً مشافيا ، فأعطاه ما اشتهى ، واستوصفه الدواء . فقال ضمهده بهجةً بيض كثيرة الأبرار^(٧٣) ، وَضَع عليه عسلاً مسحاً على النار ، ففعل ذلك فبرقت قدمه ، وزال بالكلية ألمه .

ففكر الفلاح في فعلِ المعبرِ الطبيب ، وقوله المصيب ، وأمره العجيب ، فإنه بأدنى عبارة عبر المنام ، وبأوهى إشارة أزال الآلام . فرأى الراحة ، في ترك الفلاحة ،

(٧٠) للمعبر : الذي يفسر الأحلام .

(٧١) ابنُ الشاذلي القوي النشط .

(٧٢) التعبير : تفسير الأحلام .

(٧٣) الأبرار : التوابل .

والاشتغال بعلم الطب والتعبير ، فإنه أمرٌ هينٌ يسير ، وبأدنى أمرٍ حقير ، يحصلُ المائلُ الكثير ، فباع آلاتِ الزراعة ، وعزم على تعاطي ما في الطب والتعبير من صناعة ، وجمع كتباً ودفاتر ، وكراريسَ مخزومةً منائر ، ووسَّع أكمأته ، ووضع على رأسِهِ عمامةً كغمامة ، وجمَعَ عقاقيرَ وأوراق ، وبسط بسطتهُ في بعض الأسواق ، وأشار على لسانِ مُخبرٍ^(٧٩) ، أنَّ المكانَ الغلاتي فيه طبيبٌ معبرٌ ، وهو أستاذُ الزمان ، وعلامةُ الأوان ، وتلاميذتهُ في الطبِّ حكماءُ اليونان ، وفي التعبير ابنُ سيرين وكرمان ، وتصدَّر كأيُّ زليدٍ وساسان ، عاملاً بما قاله شيخُ البيان ، وهو

الطبُّ أهونُ علمٍ يُستفادُ فطرُ	بين الأنسامِ به طَمَرُ الزنابير
واجعٌ لسذاك كراويسا منثرةٌ	وجملةٌ من حشيشٍ من عقاقير
وضَع على الرأسِ بقياراً تُدَوِّرةٌ	كقَبَّةِ النَّسْرِ في وزنِ القناطير
واجعٌ مَجاجينَ مِنْ رُبِّ تَخْلَطُهَا	واسحقُ سفوها وإكحالِ العواوير
وسَمِّ ما شئتَ من أسماءِ مغربةٍ	كالسندِ والهندِ والسرْحا وخنفور
وقُلْ من الهندِ جا هذا ، ومن عدنِ	هذا ، وهذا أتى من مُلكِ لففور
وذا من البحرِ ؛ بحرِ الصينِ معدنةٌ	وذا من البربرِ المدعو بربور
فإنِ رأيتَ بالاستسقاءِ ذا ورمٍ	فَقُلْ نَوَزَمَ من كَسعِ الزنابير
إنِ اشمعُ فقلْ بردُ عراءٍ وإنِ	يحمُ فقلْ جِسرُةٌ وَهَجُ الثناير
وإنِ أذاك مريضٌ لا تخفُ وأشيرُ	بما ترى من دواءِ دولةِ البوري
لإنِ يمشُ قُلْ دوائِي كان متعشَّةُ	وإنِ يمتُ قُلْ أَناءُ حُكْمٍ مقدور
كذلكِ الرملُ والتَّجِيمُ خُذْهُ على	هذا المثالِ وخُصْ في علمِ تعبِير
فإنِ أصبتَ فقلْ عِلْمِي ومعرفِي	وفي التخالفِ قُلْ حُرَيْدُ المقادير
وإنِ رأيتَ فقيهاً فسرُ منهُ ولا	تنطقُ يُخَطِّتْكَ في فسقٍ وتكفير
وأنتَ تحتاجُ في هذا وذاك إلى	ذوقٍ ومعرفةٍ مَعَ حُسْنِ تدبير

(٧٩) مُغلِّين ، يقوم بالدعاية له والإعلان عنه .

فاتفق أنَّ زمام^(٧٥) خليفة الأنام ، رأى في المنام ، شيئاً هائلاً ، وغير حالته ، فحصل له في رأسه صداد ، وفي فؤاده أوجاع ، فسمع بهذا الربيع^(٧٦) الجديد ، وأنه أستاذ مفيد ، فأرسل إليه ، وعرض ما رآه عليه . فقال : هذا منام ، يدل على خير وإنعام ، وبقاء ذكر الزمام ، على الدهر والأعوام ، ولكن لا أعبر هذه الأحلام ، إلاً بدينار تمام ، فناولته ديناراً ، وأظهر لذلك استبشاراً ، فقال له : يولد لك غلام ، بعد ثلاثة أيام . فضحك الزمام ، من هذا الكلام ، وقال : يا إمام ، أنا رئيس الخلد ، طواشي^(٧٧) ، بلا شيء ، لا زوجة ولا سرية ، ولا آلة ولا شهية ، فمن أين لي هذه السعادة ، ولا فرحت بحسن الحسنى فأتى تحصل هذه الزيادة ، فلا تسخر مني ، وكفّ كلامك عني ، وأخبرني بتعبير هذا المنام ، ودع عنك الملام . فقال : حقاً أقول ، وأنا جرئت هذا المقول ، وقد عبرت هذا التعبير ، ولا يُنبئك مثلٌ خبير . فقال الزمام : يا أخي دَع هذا المقام ، فإنَّ وجود الولد مني محال ، وأنا رجلٌ بي وجع ، وما بقي فيّ متجع . فقال : وماذا تشكو ، وأملك في أيّ مكان هو ؟ فقال : في فؤادي أوجاع ، وفي رأسي صداد . فقال : يازين مَنْ فاجر ، أعطيني ديناراً آخر ، أصف لك أيسر دواء ، يحصل لك منه العافية والشفاء ، فدفع إليه الدينار ، وطلب منه دواء الدُّوار ، وما بفؤاده من ألم ، أورثه الوَهَجُ والضُّرم . فقال يا أبا الفيض ، صمّد رجلك بعجّة يَبِض ، مضافاً إليها عسلٌ مشتار ، وليكن ذلك مسخناً بالنار ، فاستشاط الطواشي غضباً ، وفار كالنار شَوَاطِئاً^(٧٨) ولهباً ، وعرف أنه جاهل ، وعن

(٧٥) زمام القوم : قائدهم ومقدمهم وصاحب الأمر فيهم .

(٧٦) الطبيب القريب من منزله (طبيب الحيّ) .

(٧٧) الطواشي : الخصى .

(٧٨) الشواط : اللهب لا دخان له .

طرق العلم غافل ، فأدبهُ التأديبَ البالغ ، وردّه إلى ما كان عليه من منادمة السالغ^(٧٩) واستمرّ على كلالته ، بعد رجوعه إلى فلاحته .

وإنما أوردتُ هذا المثال ، يا غولَ الأغوال ، لتعلم أننا إذا اشتغلنا بمناظرتهم ، اشتغلنا في محاورتهم ، لأنّه في دقيقِ الأسرار ، وعميقِ الأفكار ، وتحقيقِ الأنظار ، لا يقاومُ أحدٌ جنسَ الإنسان ، فكيف يستطيعُ الجان ، معارضةَ مَنْ أَيْدَهُ اللهُ تعالى برفيع المعاني وبديع البيان ، فإذا قابلناهم في المباحث بالمعارضة ، تعود مسئلتنا علينا بالمناقضة . فلما رأى العفريت ، عَوَرَ^(٨٠) ذلك الصفريت^(٨١) ، وأنّه نكل^(٨٢) عن المقاومة ، ونكص^(٨٣) عن المصادمة ، خاف أن تكون آراءُ الوزراء تبعاً لرأيه في علم لقائه ، وغلّتهم مستحسنين للهاية ، مستصوين لأرائه ، فأرغى عنانَ الكلام ، ليقف على ما عندهم من مرام ، وكان عزُّهُ المباحثة ، والمعاينة والمباحثة ، والتصدي للإقدام ، وإلقاء المسائل بحضرة الخاصّ والعام ، لكن مشى معه^(٨٤) أمامَ الوزراء ليرى ما هم عليه من الآراء . فقال للوزير : نعم ما قلتَ أيها الوزير ، والرأي ما أشرتَ من الرأي والتدبير ، فإنّ الله تعالى خلقنا من النار ، وطبعها الإهلاك والدمار ، وإحراق كلّ رطبٍ ويابسٍ وبارزٍ وحرّ ، والظلم والخسار ، والإفناء والجهل والبوار ، وطلبُ الرقعة وعدمُ القرار ، وإفسادُ ما تجلّده من غير فرقٍ بين نفاعٍ وضررٍ ، وخلفهم من تراب ، وإليه الإياب ، وطبعه الحلم والسكون ، والترايبُ والركون ، والعلم والعدل ،

(٧٩) الأرض والقارح .

(٨٠) الخور : الضعف والانتكاس .

(٨١) الصفريت : الجن القوى النشيط الشديد .

(٨٢) نكل عن الأمر : جثّ ونكص .

(٨٣) نكص عن الأمر : أحجم عنه ، ورجع عما كان قد اصرّره .

(٨٤) مشى معه : تظاهر شيخ الطائفة بالموافقة على رأى الوزير الثالث ، أمام سائر الوزراء ، وسأله في قوله ،

حتى يقف على نواياهم جميعا وحقيقة مواقفهم دون جمالة أو نفاق .

والإحسان والفضل . ومع هذا فلو خرجوا عن مادة ما جُبلوا عليه ، وتلبسوا بغير ما نُدبوا إليه ، ولو أدنى الخروج ، وراعوا ما للمارج^(٨٥) من مروج ، لتحكمتنا فيهم كما نختر ، وللعبنا بهم كما يلعب بالكرة الصغار ، ونحسن إذا خرجنا عن دائرة طبعنا ، ونخالفنا أوصاف أصلنا وفرعنا ، ونقلنا إلى دائرة الخير عن جادة الشر أقدام صنعنا ، لا يقح لنا منهم صيد ، ولا يؤثر لنا فيهم سيف كيد . فإذا عجزنا عن الإيذاء في الظاهر ، لم يبق إلا الإغواء من باطن الضمائر ، والتعلق بأسباب ما نصل إليه من الحيل الباطن والظواهر . فقد قال الحكماء وأهل التجارب ، ومن ابتلى من مكاييد النهر بالنواب ، ومُنِي من ذلك بالعجائب والغرائب : إذا تصدَّى الإنسان وقصد غريمه ، وعجز عن مقاومته في الحكومة والخصومة ، فعليه بهدم ذلك الجبل ، بمغناطيس الخداع ومعاويل الحيل ، ويستعين في ذلك بأهل النجدة ، وذوي البطش الشديد والشدة ، فيتوصل بهم إلى حسم ذلك الداء ، ولو كانوا أعداء غير أوداء ، فتسليط بعض الأعداء على بعض ، من أكن سنه بل من أحسن فرض ، ولقد أحسن من قال :

تفرقت غنمي يوماً فقلت لها يارب سلط عليها الذئب والطبعا

ولا يوجد في هذا الباب ، لجمع شمل الأعداء أوئق من تفريق الأحباب ، ومصادقه قوله تعالى ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾^(٨٦) وما قويت أعضاد الإسلام إلا باجتماع كلمة الأنصار والالتزام ، ولهذا قصد من نافقوا ، لما ترافق الأنصار وتوافقوا ، أن يتشاققوا ويتفارقوا ، فأنزل عليهم ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾^(٨٧) وهذا الفن يحتاج إلى فكر عميق ، ومكر دقيق ، وعقل كبير ، وفعل كثير ، ومصيب

(٨٥) المارج : الشعلة الساطعة ذات اللهب الشديد .

(٨٦) قرآن كريم ، سورة التوبة : ٤٧ .

(٨٧) قرآن كريم ، سورة آل عمران : ١٠٣ .

رأي وتديبر ، وسلوكه في طريق اصطناع ، كما فعلت الفأرة من الخداع . فقال الوزير : ينعم مولانا الباقعة^(٨٨) ، بتحقيق هذه الواقعة .

[٥/٤] حكاية الفأرة والأفعوان

فقال سمعتُ أنَّ بعضَ التجَّار ، كان له بستانٌ في دار ، وإلى جانبه حَاصِل^(٨٩) ، فيه المَغلُّ^(٩٠) المتواصل ، وفي ذلك الحاصلِ وكرٌّ لشاطر ، من شطارِ الفار^(٩١) له عِدَّةُ منافذ ، وإلى الجهاتِ طرقٌ ومآخذ ، أحدها إلى جهةِ البستان ، والبستانُ كأنه جَنَّةُ رضوان ، فكانتِ الفأرة ، ذاتُ الشطارةِ والمهارة ، تأخذُ من الغلات ، وأطاييبِ الطعامات ، ما يكفيها غذاءً وعشاءً ، صيفاً وشتاءً ، وفي وقتِ المصيف ، تخرجُ من ذلك المنزلِ اللطيف ، إلى جهةِ البستان ، فتتمشَّى بين الغلران ، وترقى إلى أعلى الأخصان ، وتتمرَّغُ في المروجِ والرياض ، وتتبعثرُ في ظلالِ الدُّوحِ والغياض^(٩٢) ، ثمَّ تعودُ إلى وكرِها ، وتارز^(٩٣) إلى حجرِها ، وكان عيشُها هنيئاً ، وأمرُها رضيّاً ، ومضى على ذلك دهرُها ، وانقضى في أرْعِدِ عَيْشِ أمرُها . ففي بعضِ الأحيان ، خرجت على العادةِ للتنزهِ في البستان ، فَمَرَّ بِسَكْنِها أفعوان ، فرأى مكاناً مكيناً ، وسكناً حصيناً ، بالأطعمةِ مخفوفنا ، وبطيبِ الأغذيةِ مكتوفنا ، فدخله واستوطنه ، وترك ما سواه من الأمكنة .

(٨٨) الباقعة : النامية ، ورجل باقعة : فر حيلة ودهاء وحلر .

(٨٩) الحاصل : المخزن .

(٩٠) المَغلُّ : آبلان الإبل والشيء .

(٩١) الفار : اسم جنس الفئران أو الفئران .. وسود بهذا اللفظ طيلة الحكاية .

(٩٢) الغياض جمع غيبة ، وهي الأجمة أو الموضع الذي يكثر فيه الشجر ويكثر .

(٩٣) تَارَز : تلجأ .

فلما رجعت الفأرة إلى مكانها المألوف ، وجدت به العدو الظالم العسوف ، فأحاط بها من الأمر المخوف ، ما يحصل من الذئبي إذا عاتق الخروف . فأسرعت إلى أمها ، وشكت إليها نوائب غمها ، وما دهمها من نوازل همها . فقالت أمها : لا شك أنك ظلمت أحدا ، أو وضعت على ما ليس لك يدا ، أو تعديت الحدود ، أو عاملت مفرما بالصدود ، فحوزيت بإخراجك من وطنك ، وإبعادك عن مقرك وسكنك ، ومن ظلم ضعيفا عاجزا ، سلط الله عليه قويا لا كزا^(١٤) . وقد رأيت يا أنسي ، في حديثي قدسي "اشتد غضبي على من ظلم من لا يجد له ناصرا غيري" . فلا تطلي الكلام ، ولا تتصورني أنك ترجعين إلى ما لك من مقام ، ولا طاقة لك على مقاومة الثعبان ، فدعي تعب الخطاير واطلي لك ماوى غير هذا المكان .

فتوجهت إلى ملك الفار والجرذان ، وشكت ما بها من ذلك الشيطان ، وقالت : أنا في خدمتك ، ومعدودة من رعيتك ، عمري على ذلك مضي ، وزماني في إخلاص العبودية انقضى ، وأبي كان في خدمة أبيك ، وجدتي عبدا جديك وذويك ، لم نزل في رق الطاعة ، متمسكين ببجل سنة الولاء مع الجماعة ، كل ذلك لأمر يندهم ، أو نازلة تقدم ، فنستدفع ذلك الخطب بخطابكم ، ونستكفي حول ذلك النازل بجنابكم . والآن لقد وقعت حادثة ، بالبواب عابثة ، وبالأفكار عاتية ، ولأرواح كارثة ، وذلك أني خرجت من مسكني لطلب قوتي ، ثم رجعت إلى بيتي ، فوجدت ظالما قد استحوذ عليه ، وغاصبا قد دخل إليه ، وهو ثعبان ، ما لي به يدان ، وقد تراميت على جنابك ، أستدفع هذا البلاء بك . فقال ملك الفار : ياسايفة الأشفار^(١٥) ، من ترك ماله سائبا ، فقد جعله ذاهبا ، وقال ذرو الاعتبار ، وأولو الأبصار ، ينبغي بل يجب

^(١٤) لكزه : ضربه بجمع كفه في صدره ضربات قاضية .

^(١٥) الأشفار جمع شفير ، وهي الحرف أو الجانب أو الناحية .. وهي هنا للدلالة على أنه لا ضابط لها ولا رابط .

على الدردار^(٩٧) ، وحافظ القلعة والحصار ، أن تكون رجله ذات عرج وانكسار ،
لئلا يكون دينار وجوده خارج الدار ، وأنت أيتها القارة ، فرطت في أمرك والمفرط
أولى بالخسارة ، وقد خاب منك المسعى ، لأنهم قالوا "أظلم من أفعى" ومن ظلم
الأفعوان ، أنه لا يكد نفسه في حفر مكان ، وتهب مبان ومغان ، ولكنه حيث وجد
مستكنا ، اتخذ لنفسه مقاما ووطنا ، وهذا قد عرف مكانك النزه ، وهو جبار شره ،
فلا يزاله^(٩٨) ولا يقابله ، ومن أين يلتقي مثل هذا المأوى ، وفي المثل "عرف الكلب
بيت العميا" . فالأولى أن ترتادي لك موضعا ، فتتخذيه مقاما ومرمتا .

فقال الفارة ، وقد تأثرت لهذه العبارة : يا أيتها السلطان ، ومليك الفار
والجرذان ، فما فائدة خدمتي وانقياد أبي ، وطاعة جددي الكبير الأبي ؟ وإذا كنتم في
الدنيا لا تدفعوننا ، وفي الآخرة لا تشفون لنا ، ولا تدفعون في الأولى ، صدمات
الدواهي والبلا ، ولا تحمون الأوداء^(٩٩) ، عن مواطن أقدام الأعداء ، ولا تدفعون في
الأخرى ، نوائب الطامة الكبرى ، ولا تحلوننا بمالككم من الاستيلاء غرف الدرجات
العلی ، فأی فائدة لكم علينا ؟ ونعمة منكم تسدى إلينا ؟ وهل أنتم إلا كما قيل ؟ في
الأقاويل :

إذا لم يكن لي منك عز ولا غنى ولا عندما يغتالي الدهر موئل
فكل الصفات لي إليك تكرم وكل سلام لي عليك تفضل

فقال ملك الفار : يا قلية الاستبصار ، العبدية العقل والافتكار ، إذا اجتهدنا في ردك
إلى مكانك ، وكنا على الثعبان كجندك وأعوانك ، فهل تشكّين ، يا مسكينة وبنت
مسكين ، في أن الأفعى توجه إلى سلطانها ، وتخبره بشأنها ، وأنها أخرجت من

^(٩٧) الدردار : الجندي أو الخارس المسلح ، وهي كلمة فارسية معناها : حاكم الحصن .

^(٩٨) لا يزاله : لا يفارقه .

^(٩٩) الأوداء : الأصدقاء والأولياء .

مكانها ، وتستتصرُّ بأعوانه ، وتتصرُّ على سلطاننا بقوة سلطانهِ ، وتستجيشُ ، وتستغيثُ ، وتُغري علينا ذلك الخبيث ، كما فعل الرافضيُّ العادي ، العلقيُّ البغدادي ، حين دعا التَّارَ الطَّغَامَ^(٩٩) لخرابِ مدينةِ السلام^(١٠٠) ، ومن بعده اللزيميُّ نابذة الإمام ، وقصد دمارَ ديارِ الشام ، ولا طاقةَ لنا بعساكرِ الحيات ، ونحن في أحيائهم كعساكرِ الأموات ، فذهب الأموال والأرواح ، وتعب القلوب والأشباح ، ومع هذا الأمرُ المعلوم ، حصولُ القصدي والظفريِّ موهوم ، فبا لله أتركيي واذهي ، واطلي لك مسكناً غيره ولا تعبي . فقالت : هذا منزلي القديم ، وميراثي عن سلفي الكريم ، وأين أذهب ، وفيمن أرغب ، إن لم تغني هلكتي ، وانذهلت وانسلبت . فقال : لا تطيلي القول ، فلا قوةَ لنا ولا حَوْل .

فلما أيسَّتْ الفارَةُ المكارَةُ الغدارة ، تركتْ سلطانها وذهبت ، وسلكت طريقها وانقلبت ، وأنشدت ، فأرشدت :

أَيَّيْنِ مُنْقَطِرِ الْبَسْكِ نَظَرْتَنِي فحَفَرْتَنِي وَقَلْبَحَنِي مِنْ حَالِقِ
لَسْتُ الْمَلُومُ أَنَا الْمَلُومُ لِأَتَنِي أَنَزَلْتُ آسَالِي بِغَيْرِ الْخَالِقِ

ثم غاصتُ في بحرِ الفكر ، وتشبَّعتُ بأذيالِ المكر ، واستعرضتُ على مرآةِ أفكارها وَجْهَ الحَيْلِ ، واستورتُ من زنادِ^(١٠١) آرائها شَرَرَ النظرِ في الجدل ، وأخذتُ تطوفُ في أكشافِ البستان ، فعثرتُ في طوافها على ذلك الأفعوان ، قائماً تحتَ وردة ، متطوّراً في أهنا رُقْدَة ، فرقيتُ غُصْناً من الأغصان ، فلاحَ لها الباغيان^(١٠٢) قد سَقَى البستان ، وهو تعبَان ، متكأً في الرياضِ على مسكبةِ ربحان ، فاغتممتُ الفرصة

^(٩٩) الطغام : أرادل الناس ولو غادهم .

^(١٠٠) كان ذلك سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م .

^(١٠١) يقال : وري الزند أي أخرج ناره ، ولو قدحا .

^(١٠٢) الباغيان : البستاني .

ونزلت إليه ، وقُرِئَتْ منه ودارت حواليه ، ثم وثبت على وجهه ، وكان نائما ، فانتفض مرعوباً قائما ، فذهبت واختفت ، وبذا القدر اكتفت ، فوجع ونام ، وغرق في المنام ، فدخلت في قميصه ورقصت ، فاستيقظ متعجبا منزعا فرأها فهربت ونكصت . ثم عاد واتكا^(١٠٣) ، بعدما غضب واتكى^(١٠٤) ، فوثبت على وجهه ، وأدخلت ذنبها في أنفه ، فنهض مستيقظا مجدا ، فرأها واقفة لا تتعدى ، فقصدتها فهربت ، ثم رجع فابت وأتت ، فنام في مسنده ، فقرأت منه وعصته في يده ، فأنكته وألمته ، وأوهجته بما أضرمته ، فطفر من مرقده ، وأخذ عصا يديه ، وقصدها ، وقد ذاق نكلها ، فهربت غير بعيد ، فرأى وجهها من حديد ، فتبعها فمشت ، ثم وقلت وارتعشت ، تُطعمه في صليلها ، وهو غافل عن كيدها ، فتبعها وهي قائدة ، حتى انتهت به إلى الحية الراقدة ، فعندما رأى الثعبان ، نسي أفعال بنت الجرذان ، فقتل تلك الأفعى ، ولم يحجب للفأرة مسعى .

وإنما أوردت هذه الحكاية ، لتقفوا منها على طريق النكايه ، ولتعلم الضعيف إذا كان له أعدا ، كيف يوقعهم في مصائد الردى ، وإذا استعمل اللبيب ، العقل المصيب ، والفكر النجيب ، وساعده في ذلك قضاء وقدر ، نال ما أمل ، وأمين ما حذر ، وأفلح أمره ، ونجح فكره ، وهذا إذا كان الضعيف مظلوما ، والقوي ظالما غشوما ، كما أنتم عليه ، مما توجهتم إليه ، من معاداة شيخ الشام^(١٠٥) ، المستحق للتحجيل والإكرام ، والتعظيم والاحترام ، فإنه على الحق وأنتم ظالمون ، وقاصدو الصدق وأنتم كاذبون ، يريدون "أن يظنوا نور الله بأفواههم والله مُبِينُ نوره ولو كره الكافرون" فهذا أمرٌ مشكل ، وداءٌ معضل ، فأني تصيحُ أبدأنكم ، وقلوبكم مرضى ،

(١٠٣) عطف : اتكا .

(١٠٤) اتكى : هزم غضبه .

(١٠٥) بطل هذا الباب الحكيم الذى يسمى العفريت ملك الجن أو غول الأغوال للقضاء عليه .

وَمَنْ يُحِبُّكُمْ وَأَنْتُمْ مَحْسُوبُونَ من البغضا ، وكيف تُقْتَفُونَ وَأَنْتُمْ عَلَى الْبَاطِلِ ، وَفِي أَيِّ ذَوْقٍ يَخْلِي مَا مِنْكُمْ مِنْ عَاطِلٍ ، وَأَنَا أَخَافُ - أَيُّ أَجْلَافٍ - أَنْ تُسَوِّرَ هَذِهِ الْقَضَايَا ، بَعْدَ ارْتِكَابِ الْبَلَايَا ، وَتَحْمِلِ الْمَشَاقَّ وَالْتِمَاعَ ، بِاِقْتِحَامِ مَوَارِدِ الْمَسَالِكِ وَالنَّصَبِ ، عَمَّا هُوَ أَشَدُّ وَأَنْكَبِي ، وَأَحَرُّ لِعَيْنِكُمْ وَأَبْهَكِي ، كَمَا أَصَابَ مُضِيفُ الْعِرَاقِ ، مِنْ زَوْجِهِ زَيْدَةَ ذَاتِ النِّطَاقِ ، حِينَ بَدَأَ مِنْهَا الزُّبُورَ ، عَلَى حَافَةِ التَّنُورِ^(١٠٧) فَقَالَ الْوَزِيرُ لِلْعَفْرِيتِ : أَفَلَدْنَا هَذَا الصَّوْتَ يَا ذَا الصَّبْتِ .

[٦/٤] قصة نريدة ذات النطاق

قال نزل في بعض الرُّسَاق^(١٠٧) ، من بلاد العراق ، فقيرٌ نحيفٌ ، على مسكينٍ ضعيفٍ ، وكان بعضُ أيامٍ الحُرَيفِ ، والبرْدُ الشَّدِيدِ ، يَقْطَعُ الْحَدِيدَ ، بَعْدَمَا طَبَّحُوا وَتَعَشَوْا ، سَحَرُوا النَّارَ لِيَتَلَفُوا ، فَبَقِيَ كُلُّ مَنْ الْحُضُورِ ، يَتَلَفُ عَلَى جَانِبِ التَّنُورِ ، فَقَعَدَ الضَّيْفُ مُقَابِلَ زَوْجَةِ الْمُضِيفِ ، فَظَهَرَ مِنْ تَحْتِ نِطَاقِهَا وَجْهُ ذَلِكَ الْحِرِّ الظَّرِيفِ ، وَلاَحَ مِنْ تَحْتِ السَّحِيفِ^(١٠٨) كَأَنَّهُ قَرَصٌ أَوْ رَغِيفٌ ، أَوْ قَنْدٌ^(١٠٩) عَسَلِيٌّ نَظِيفٌ ، أَوْ خَدٌّ جَنْدِيٌّ نَتِيفٌ ، أَوْ الْقَمَرُ شَقٌّ نَصْفَيْنِ ، أَوْ بَدْرٌ لَاحَ مِنْ تَحْتِ ذَيْلِ حَنِينٍ ، فَلَمَّا أَحَسَّ بِحَرَارَةِ النَّارِ وَظَهَرَ عَلَى وَجْهِهِ الْإِحْمَارُ ، صَارَ يَتَلَمَّظُ وَيَتَحَلَّى ، وَلِسَانُهُ مِنَ الْحَرِّ وَالْدَفَاءِ تَدَلَّى ، فَلَمَّحَتْهُ الضَّيْفُ وَهُوَ يَتَشَاءَبُ ، فَتَمَطَّى قَائِمٌ رَجِيحٌ وَنَحْوَهُ قَامَ وَتَصَاوَبَ ، وَقَدْ قِيلَ فِي الْأَقَاوِيلِ : عُضْوَانُ مُتَعَاوِنَانِ وَهِيَ الْيَدَانِ ، وَعُضْوَانُ مُخْتَلَفَانِ وَهِيَ الرَّجْلَانِ ، وَعُضْوَانُ مُتَابَعَانِ وَهِيَ الْعَيْنَانِ ، وَعُضْوَانُ مُتَصَاحِبَانِ وَهِيَ الْيَدَانِ

(١٠٧) التَّنُورُ : الْفِرْنُ يُخَبَّرُ فِيهِ .

(١٠٨) الرُّسَاقُ أَوْ الرُّزْدَاقُ ، مَعْرَبٌ عَنِ الْفَارْسِيَّةِ ، وَمَعْنَاهُ الْقَرْيَةُ أَوْ عَمَلَةُ الْعَسْكَرِ أَوْ الْبَلَدُ الْبُتْجَارِي .

(١٠٩) السَّحِيفُ : السَّلَ ، وَالسَّحِيفُ : حَوَاشِي أَوْ أَطْرَافُ الثُّوبِ .

(١١٠) الْقَنْدُ : عَسَلُ نَصَبِ السَّكَّرِ إِذَا جُمِدَ .

والفم ، وعضوان متباغضان وهما الإست والأنف ، وعضوان متوافقان وهما العين والأير ، وكان الضيفُ يسارقُه النظر ، ويترشّفُ شِفَاهَه بلسانِ الفكر ، ويودُّ في مطالعةِ جبينه لو أتبعَ العَيْنَ بالأثر ، وجعل يتغنّى ويتزَمَّ ويهيمُ بما يتكلم :

ليس في العاشقين ألقى منى أنا أَرْضَى بنظرةٍ من يعبد

فتنبه أمام هواءِ الماحد ، وجعل يقوم يوقع وهو راکعٌ ساجد ، وسلّم على عرابه أحسنَ التحيات ، ويتشهدُ رافعاً أصبعه بالسلام والصلوات ، ثم غلبته الحيرة ، فأخذ يجلدِ عميرة^(١١٠) ، فنظر صاحبُ البيت ، فرأى الضيفَ غارقاً في ذيت وذيت ، مشغولاً بكيّت وكيّت^(١١١) متأملاً معنى هذا البيت :

وعند اللقي الكشف الغطى (١١٢)

فأراد أن ينبه ربةَ البدار على هذا العثار ، لتسترَ حالها ، وتغطي ما لها بطريقةٍ لا يؤبه إليها ، ولا يقفُ ضيفُها عليها ، فمدَّ يدهُ إلى سفود ، وحرك به النارَ ذاتَ الوقود ، فعلق من النارِ في الطرف ، وما شعر بذلك أحدٌ وما عرف ، ثم لعب ساعةً بذلك العود ، وأوصل في خفيّةٍ طرفه إلى ذلك الشقِّ المعهود ، لتيقظ فتتحفظ فتشوّطها وأحرّها ، وأحرق رأسَ السفودِ بظُرّها ، فالتأمت وانضبطت ، واحترقت واختبطت ، وتحركت بزعجةٍ فضرطت ، فزادت فضيحةَ العينِ فضيحةَ الأنفِ والأذن ، ولم يحصل من تلك الحركةِ إلاّ الخجالةُ والغبن .

(١١٠) الاستمتاع باليد ، إثر رؤيته لصاحبة البيت أو ربةَ البدار - أي سيدة الحسن والجمال - كما سيحى وشيكا في المتن .

(١١١) كتابة عن الواقعة أو الأحداث التي كان الضيف مشغولاً بها ، ذلك أن عبارة ذيت وذيت كتابة عن الأنهار والأقوال ، وعبارة كيّت وكيّت كتابة عن الأحوال والأفعال .

(١١٢) حذف عجز البيت لكونه مخادشاً لحياء بعض القراء .

وإنما أوردت هذه الحكايات ، لتأملوا فى الغايات والنهايات ، فإنَّ مَنْ لا يراقب ما يأتى فى العواقب ، ما الدهر له بصاحب . وهذا الرجل الصالح ، الثَّيْمُ الراجح ، ما فاق أقرانه ، وساد أصحابه وإخوانه ، غلا بشيءٍ تقدّم به عليهم ، وتحقّق موجبُ تقدّمه لديهم ، وذلك درجاتُ العلم والعمل ، فبذلك ساد الرجلُ وكمل . وقال مُنزَلُ الآياتِ وحالِقُ الرِّياتِ ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ درجاتٍ﴾^(١١٣) وقد برع فى أنواع العلوم ، واطلع على حقيقتها من طريقي المنطوق والمفهوم ، وأنتم عن طريقه غافلون ، وعن حقيقة ما هو عليه ذاهلون . واعلموا أنَّ طريقة واحدة وهى الحق ، وطرقكم متعددة وكلّها فسق ، وأتباعه على اتباعه متخالفون ، وأنتم فى طرائقكم القيد^(١١٤) متخالفون . فقد قال الله تعالى فى مُحْكَم تنزيله ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾^(١١٥) وقال بعضُ أهل الفضل ، وكلامه فى بيان الحق فصل ، ما ناظرتُ ذا فتون إلا غلبته وما ناظرني ذو فنٍ إلا غلبنى . وإنما أخشى إن ناظرتُ هذا الرجل الكامل الفاضل ، أن لا أحصلَ منه على طائل ، ويظهر فضله قصورى ، فينهدمُ بنيانُ قصورى . فقال الوزراء ، بعد أن اتفقت الآراء ، كلمة واحدة ، متفقة متعاضدة : نعم ما رأى مولانا الرئيس ، صاحبُ التدليس ، وإسنادُ التلليس ، وأنحَبَ أولادِ إبليس ، ونحن أيضا يا باقعة ، نخشى عاقبة هذه الواقعة . ولقد جرى مثلُ هذا المجرى ، بين بُزْجِمْهَرٍ وغدومه كسرى ، فى قضية فاق فيها الوزير ، غدومه الكبير ، فسأل العفريتُ وزراءه عن بيان ذلك الشأن ، كيف كان ؟

^(١١٣) قرآن كريم ، سورة المجادلة : ١١ .

^(١١٤) القيد جمع قيد وهى الفرقة من الناس أو الجان لمختلف آراء أفرادها اختلافاً بيناً .

^(١١٥) قرآن كريم ، سورة الأنعام : ١٥٣ .

[٧/٤] قصة الوزير بنرجمهر مع كسرى

فقالوا بلغنا أيها الخناس ، الملقى الوسواس ، في صدور الناس ، أنَّ بُزُرْجَمِهَرَ الوزير ، كان ذا علم غزير ، ورأي وتدبير ، وبديهة جوابٍ تَقْجُمُ الكُذِّ والتفكير . وكان حكيماً زمانه ، وعليماً أوانه ، ومُنْ فاق في الفضل والحكم سائر أترابه وأقرانه ، وكان مقرباً عند مَخْلُوميه ، يزيّد - في كل وقتٍ - في تكريره وتعظيمه ، وتوقيره وتفخيمه ، ويصغي إلى نصائحه ، ويعدّ قرينه من أعظم مناصحه ، ويصيرُ على كلامه الصادق ، ووعظه القارع ، ونصحه الفادع^(١١٦) ، لما فيه من الفوائد والمنافع ، والحكم والبدايع ، وقد قيل "مَنْ أَحَبَّكَ نَهَاكَ ، وَمَنْ أَبْغَضَكَ أَغْوَاكَ" فكان الوزير يبادرُ بقيل سائر الخدم ، في وظائف الخدم ، ويعجّلُ من الليل والظلم^(١١٧) ، حتّى كأنه يوافقُ النجم ، أو يسابقه في الرجم^(١١٨) ، ومع ذلك كلّ يوم ، يجد مَخْلُومَهُ راقداً في النوم ، فيقرعه بالفغلة ، وينقُمُ عليه هذه الفغلة ، ويُعلنُ بالنداء^(١١٩) ، وينادي في الملا^(١٢٠) ، فيقولُ أَفْنَى ياعجوب ، وتيقظُ حتّى تظفرَ بالمطلوب ، فَمَنْ بَاكَرَ نَجَحَ ، وَمَنْ غَلَسَ^(١٢١) للمطلوب أفلح ، وَمَنْ تَخَلَّفَ في النوم ، سبقه إلى المنزل القوم ، وفاته المطلوب ، ولا يدركُ المحبوب ، واطرثُ لَذَّةُ الكسرى ، فعند الصباح يَحْمَدُ القسومُ السرى^(١٢٢) .

(١١٦) الفادع : المولم .

(١١٧) الظلم : الغلام ، أى أن الوزير كان يبادر إلى عمله ولما يظهر نور الصباح .

(١١٨) الرجم : الشهب وهى ما يظهر فى السماء كأنها نجوم تتساقط .

(١١٩) عقق : النداء .

(١٢٠) عقق : النداء .

(١٢١) غلس : ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بضوء الصباح .

(١٢٢) السرى : السور عامة الليل . والعبارة فى أصلها مَكَلٌ يضرب فى احتمال المشاق حتى تتمد العالبة .

وكان كسرى يحدّ لهذا الكلام ، أنواعاً من الآلام ، لأنه كان يطيلُ السهر ، إلى وقت السحر ، عاكفاً على اللد ، وسماع الأنغام ، ومغازلة الغزلان^(١٢٣) ، ومعاقره الندمان ، وإحياء الليلِ عمرً ثان ، فإذا نام واستراح ، امتدَّ نومه إلى الصباح ، فلا يوقظه إلا عياط^(١٢٤) الوزير ، وصراخُ ذلك الصائحِ النذير . فلما طال عليه المطال ، وغلب عليه من ذلك الملل ، أرصد للوزير في الطريق ، من منعه عن التبكير بالتعويق . فتصدى له الرصد ، وأعرّوا رأسه والجسد ، وأخذوا قماشه ، وسلّبو رياشه ، فرجع إلى بيته مكرها ، وليس ثياباً غيرها . فأبطأ في ذلك اليوم ، وتخلّف في الخدمة عن القوم ، ولم يجرّ إلا وقد استيقظ كسرى من النوم ، وهو جالسٌ في صدر الإيوان ، وحواليه مباشرو^(١٢٥) الديوان ، وسائر الوزراء والأركان ، وعامة الجندي والأعوان ، كلٌّ في مقامه ، ضابطٌ زمامه ، فأدّى بُزْجَمُهُرُ وظائفَ الخدمة على عادته ، ووقف في مكانه مع جماعته . فقال كسرى : ما دعا مولانا الوزير ، في هذا اليوم المنير ، إلى التخلّف والتأخير ، وتركِ التبكير ، وإنشاده بالتبكير ، قولَ الشاعر الكبير :

بَكَرًا صَاحِبِي قَبْلَ الْمَجِيرِ إِنَّ ذَاكَ النَّجَاحَ فِي التَّبْكِيرِ

فقال : إنّ الحرامي ، عارضني أمامي ، وقصدني في ظلامي ، فأخذ شاشي ، وسلّبي قماشي ورياشي ، فرجعتُ إلى كيناسي^(١٢٦) ، وجلدتُ زيني ولباسي ، فهذا سببُ تأخيري ، وعدمُ تبكيري ، وموجبُ تخلّفي عن وعظي وتذكيري . فقال كسرى : ما أفادك التذكير ، إلا الغرامة في التبكير ، ولولاه ما سلّب القماش ، ولا

^(١٢٣) الغزلان : الحسناء ..

^(١٢٤) عياط : صياح .

^(١٢٥) مباشرو الديوان : كبار الموظفين الإداريين .

^(١٢٦) الكيناس : بيت الظلي أو موله الذي يستتر به في الشجر ، والمقصود هنا بيت الوزير .

ذهبَ الرِّياض ، ولا قام الحرامي بالمعاش ، فأين الفَلَّاحُ في القيام قبلَ الصِّباح ؟ فقال بزوجه في الحال ، وقد أصاب في الجواب : ليس ذلك كذلك يا إمامي ، وإنما بَكَرَ قبلي الحرامي ، ولم أباكرُ أنا بالنسبة إليه ، فرجع فائدةً تبيِّهه مني عليه . فعجبَ كسرى من خطابه ، وسرعةً بديهيته في جوابه .

وإنما أوردتُ هذا القول ، بين يدي إمامنا الغول ، وشيخ المردة المهوال ، ليعلم أنَّ كسرى وإن كان عالماً ، وفاضلاً وحاكماً ، أذعن لكلِّام ، وزيره وأتبع رأيَ مُشيرِهِ ، وأنصفَ من نفسه ، إذ أدرك الوزيرُ بفهمِهِ ما لم يدركهُ هو بحسِّهِ . فاسترسل معهم العفريتُ فيما هم عليه ، والتخلُّفُ عمَّ نديهم إليه . وقال : فبأيِّ الخباييل نصيبُهم ، وماذا نكيلُهم ؟ فقال أحدُ الوزراء : بالنساء فإِنَّهُنَّ زَمارةُ المحجَّنين ، وطبلُ الفتن ، والطبلُ لا يضرب تحت الكساء ، وهنَّ أعظمُ وسائِلنا ، وأحكمُ أوهامنا^(١٢٧) وجبائِلنا ، وناهيك ما قالهُ العزيزُ العليمُ الذي جبلهن على غيرِ تقويم ، وقَطَرَهُنَّ على الكيد ، ﴿إِنَّ كَيْدَ كُنَّ عَظِيمٌ﴾^(١٢٨) وجعل كيدنا بالنسبة إلى كيدهنَّ سخيفاً ، فقال ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً﴾^(١٢٩) وقال سيّدُ الساداتِ ورئيسُ الرؤساء "ماتركتُ بعدى فتنةً أضربُ على الرجالِ من النساءِ" وقال الولي ، ومن قدره الرفيع علي :

إِنَّ النِّسَاءَ شَاطِئِينَ خُلِقْنَ لَنَا نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ الشَّيَاطِينِ

وقال من أجادَ في المقال ، وشَنَّفَ المسامعَ بالأقوال ، حيث قال :

وما حَزَّ أعناقَ الرجالِ سوى النِّسَا وأيُّ بلاءٍ جاءَ لسنِّ لَهْ أهلا
فكم نارٍ شرٌّ أحرقتْ كَيْدَ السُّورَى ولم يكُ إِلَّا مَكْرَهُنَّ لها أصلا

^(١٢٧) أوهامنا : وإسداها ، وهنَّ ، وهو الشَّرُّكُ لو الفخِّ ، والجمع أشراك وكفعاخ .

^(١٢٨) قرآن كريم ، سورة يوسف : ٢٨ .

^(١٢٩) قرآن كريم ، سورة النساء : ٧٦ .

وَأَنَّهُنَّ أَشْرَاكُ الْأَشْرَاكِ ، وَأَوْهَاقُ الْأَزْهَاقِ ، وَأَسْوَاقُ الْفَسَاقِ ، وَمَصَائِدُ الْمَصَائِبِ ، وَمَرَاصِدُ النَّوَائِبِ . وَحَسْبُكَ يَا ذَا الدِّهَانِ ، مَا وَى ذَلِكَ الْحَكِيمِ حِينَ سَهَا ، وَأَذَعَنَّ لَزُوجَةِ الرَّئِيسِ إِذْ تَبَهَّتْهُ عَلَى مَا عَنَّهُ هَا^(١٢٠) . فَسَالِ الْعَفْرِيتُ عَنْ تِلْكَ الْحَالَةِ ، وَبَيِّنْ مَا فِيهَا مِنَ الْمَقَالَةِ .

[٨/٤] من حكايات كيد النساء

فَقَالَ : أَذْكَرُ أَنَّ حَكِيمًا مِنَ الْعُلَمَاءِ ، وَعَالِمًا مِنَ الْحُكَمَاءِ ، أَوْلَعَ بِضَبْطِ مَكْرِ النِّسَاءِ ، وَشَرَعَ فِي تَدْوِينِهِ صَبَاحًا وَمَسَاءً ، وَصَارَ يَجُولُ الْبُلْدَانَ ، وَيَطَالُعُ ذَلِكَ كُلَّ دِيْوَانٍ ، وَيَكْتُبُ مَا يَكُونُ وَمَا كَانَ ، وَيَحْرُرُ مِنْ ذَلِكَ الْأَوْزَانَ ، بِالْمَكْيَالِ وَالْمِيزَانِ ، فَنَزَلَ فِي بَعْضِ الْأَنَاءِ^(١٢١) ، عَلَى حَيٍّ مِنَ الْأَحْيَاءِ ، فَصَادَفَ ذَلِكَ التَّعْيِسُ بِنْتَ الرَّئِيسِ ، فَتَلَقَّتْهُ امْرَأَةً ظَرِيقَةً ، ذَاتَ شَمَائِلٍ لَطِيفَةٍ ، وَحَرَكَاتٍ رَشِيقَةٍ خَفِيفَةٍ ، وَقَابَلَتْهُ بِالزَّحَابِ ، وَفَتَحَتْ لِلدَّخُولِ الْبَابَ ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهَا ، وَتَرَامَى لَدَيْهَا ، فَأَنْزَلَتْهُ فِي صَدْرِ الْبَيْتِ ، وَأَخَذَتْ مَعَهُ فِي كَيْتٍ وَكَيْتٍ ، كَأَنَّهَا مَعْرِفَةٌ قَدِيمَةٌ ، وَحَدِيثَةٌ كَرِيمَةٌ ، وَكَانَ زَوْجُهَا غَائِبًا ، قَدْ قَصَدَ جَانِبًا ، فَشَرَعَتْ فِي نَزْلِ^(١٢٢) الضَّيْفِ ، لَسَلَا تُنْسَبَ إِلَى بَخْلٍ وَخَيْفٍ . فَأَخَذَ يَطَالُعُ فِي دِيْوَانِهِ ، وَيَسْرُخُ سَوَائِمَ طَرَفِهِ^(١٢٣) فِي فِي ظَرْفِ بَسْتَانِهِ ، يَشْغَلُ أَوْقَاتَهُ ، وَيَتَفَكَّرُ مَا فَاتَهُ لِيَتَعَاطَى إِيَابَاتِهِ .

(١٢٠) هَا يَلْهُوُ بِمَعْنَى سَهَا يَسْهَوُ .

(١٢١) الْأَنَاءُ : سَاعَاتُ اللَّيْلِ .

(١٢٢) نَزَلَ الضَّيْفِ : مَا مَنَى لَهُ يَأْكُلُ فِيهِ وَيَنَامُ وَبِهِ يَتَحَقَّقُ كَرَمُ الضَّيْفَانَةِ .

(١٢٣) نَظَرَاتُ عَيْنِهِ .

فَقَالَتْ أَيْ رَيْمٌ^(١٣٤) ، مَا هَذَا الْكِتَابُ الْعَظِيمُ ، أَيُّهَا الْفَاضِلُ الْحَكِيمُ ؟ فَقَالَ : شَيْءٌ صَنَفْتُهُ ، وَكِتَابٌ أَلَفْتُهُ ، وَهُوَ فِي الْغُرْبَةِ أَنْيْسِي ، وَفِي الْوَحْدَةِ حَلِيسِي . فَقَالَتْ : يَا ذَا الْحَكْمِ وَالْحِلْمِ ، مَا فِيهِ مِنْ فَنُونِ الْعِلْمِ ؟ فَقَالَ : سِرٌّ مَصُونٌ ، وَأَمْرٌ مَخْزُونٌ ، وَدُرٌّ مَكْتُونٌ ، لَا يَجُوزُ إِبْدَاؤُهُ ، وَلَا يَحِلُّ إِفْشَاؤُهُ . فَقَالَتْ : يَا ذَا الشَّكْلِ الْفَرِيفِ ، وَالرَّوْصِ الْلَطِيفِ ، وَالْعِلْمِ الْمُنِيفِ ، هَذَا التَّعْرِيفُ ، لَا يَلِيقُ بِالتَّصْنِيفِ ، فَإِنَّ فَائِدَةَ التَّصْنِيفِ الْإِشْتِهَارُ ، وَهَمْرَةُ الْعِلْمِ الْإِنْتِشَارُ ، وَدُونُكَ مَا قَالَهُ الْكَيْبِ ، فِي مَخَاطِبَةِ الْخَيْبِ .

إِذْنِي مِنْ رُضَايِكَ يَا حَبِيبِي فَمَا لِلشَّهِدِ دُونَ الدُّوْقِ لَذَّةُ

وَمَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَى الْجَهَّالِ أَنْ يَتَعَلَّمُوا ، حَتَّى أَخَذَ عَلَى الْعُلَمَاءِ أَنْ يُعَلِّمُوا . فَقَالَ : الْأَمْرُ كَذَلِكَ بِأَزَيْنِ الْأُمُورِ ، وَلَكِنْ هَذَا عِلْمٌ يُصَانُ عَنْ رِيَابِ الْخُذُورِ . فَقَالَتْ : إِنَّ اللَّهَ الْجَلِيلَ الْذَاتَ ، الْجَمِيلَ الصِّفَاتِ ، ذَكَرَ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ، وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ، وَمَا مَنَعَ نِسَاءَ الْأَنْصَارِ الْخَيْرَاتِ الْأَطْهَارِ ، أَنْ يَسْأَلْنَ الْمَصْطَفَى الْمُخْتَارِ ، عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ ، عَنْ غُسْلِ الْمَرَأَةِ فِي الْإِحْتِلَامِ ، وَلَا أَنْ يُلْجَنَ مَعَهُ الْمَخَاضَةُ ، فِي السُّؤَالِ عَنِ الْخَائِضِ وَالْمُسْتَحَاضَةِ . فَجَمَعَ فِي مِيدَانِ الْأَمْتِنَاعِ ، وَأَصْرًا عَلَى الْمَمَانَعَةِ وَالِدِفَاعِ . وَقَالَ : يَاحَصَّانُ^(١٣٥) ، هَذَا سِرٌّ يُصَانُ ، لَا سِيمَا عَمَّنْ فِي دِينِهِ وَعَقْلِهِ نَقْصَانُ . فَأَغْرَاهَا هَذَا الْمَقَالَ ، عَلَى الْإِلْخَاحِ فِي السُّؤَالِ ، وَزَادَتْ فِي اللَّحَاجِ ، وَمَارَتْ فِي الْإِحْتِجَاجِ ، وَتَرَامَتْ لَدَيْهِ ، وَأَقْسَمَتْ بِدَلَالَةِ الدَّالِّ عَلَيْهِ .

فَقَالَ : هَذَا عِلْمٌ لَمْ أُسَبِّقْ إِلَيْهِ ، جَمَعْتُ فِيهِ مَكْرَ النِّسَاءِ ، وَمَنْ أَحَادَ مِنْهُنَّ وَمَنْ أَسَاءَ ، وَمَنْ تَعَاطَتْ لَطَائِفَ الْحَيْلِ ، وَخَفِيَ الْفِعْلُ وَخَفِيَ الْعَمَلُ ، وَمَنْ دَعَتْ بِدَعَايَا ، حَتَّى بَلَغَتْ مَنَاهَا ، وَمَنْ وَقَعَتْ فِي الشَّدَائِدِ ، فَاحْتَالَتْ بِدَقِيقِ فِكْرِهَا لِتُلْكَ

(١٣٤) الرِّيمُ : النَّطِيُّ الْخَالِصُ الْبَيَاضُ ، وَضُرَّةُ الرِّيمِ تَعْنِي الرُّوحَةَ الْبَيَاضَ الْفَائِضَةَ الْحَسَنَ وَالْجَمَالَ .

(١٣٥) حَصَّانُ الْمَرَأَةُ : عَفَتْ وَحَصَنْتْ : تَزَوَّجَتْ ، فَهِيَ حَصَّانٌ ، وَهِيَ أَيْضًا مَحْصَنَةٌ أَيْ عَقِيقَةٌ .

المكائد ، وتخلّصت من شرك المصائد . فلما سمعت ، ما قال وَوَعَتْ صَكَتْ وجهها ، وأعربت تَهَفُّفُها ، وتمايلت تمايل القضيبي ، وقالت : سرُّ غريب ، وأمرٌ عجيب ، وضيفةٌ عمرٍ حاصل ، فيما لا تحته طائل ، وشغلٌ سيرٌ وَبال ، في جَمْعِ أَمْرِ مُحال ، لقد ركبَت المشاق ، وكلفتَ نفسك ما لا يُطاق ، ونسفتَ الرملَ بالكربال^(١٣٦) ، وغرفتَ البحرَ بالغربال ، ووزنتَ الطورَ^(١٣٧) بالثقال ، وتحمّلتَ الدرَّ بالأنقال ، فارجعْ عن هذا الغلط ، ولا تُرمِ ذلك الشُّطَط ، فإِنَّ مَكْرَ رَبَاتِ الخدور ، لا يدخلُ ضبطهُ بِسِفَرٍ^(١٣٨) تحتَ مقدور . فقال لها : أنتِ غبية ، وعن هذا الكلام غنية ، وإن كنتِ فاضلةً زكية ، أنا قد بلغتُ في ذلك الغاية ، وأحطتُ به بدايةً ونهاية ، ووقفتُ على جمليهِ ومنصلهِ ، فلمَ يَشُدُّ عني شيءٌ من آخرهِ وأوّلِهِ . فسلمتُ ومبا تكلّمتُ ، وغالطتُ وما بالطت^(١٣٩) ، وسارتُ وما مارت^(١٤٠) ، وفوّضتُ إليه هذا التحقيق ، وسلكتُ معه غيرَ هذا الطريق ، حتى كأنَّ هذا الكلام ، في هذا المقام ، شيئاً قَرِيّاً ، ونسياً منسياً .

ثم نزلت من برج المنازلة ، وأخذت تلك الغزاة في المغازلة . وانتهى بها المقال ، إلى هذا السؤال ، فقالت : أيها اللبيبُ الماهر ، ما معنى قول الشاعر :

يَهْدِيكَ ذِي الرَّمَحِ ظَهْرِي فَهَفْهَفٌ لعوبٌ بالبابِ البريةِ عابثُ
ولو كان رُفْعاً واحداً لا تَقِيئُهُ ولكنه رَمَحٌ ولانٍ وثالثُ

(١٣٦) الكربال : مندف القطن .

(١٣٧) الطور : الجبل الضخم .

(١٣٨) السفر : الكتاب الكبير .

(١٣٩) ما بالطت : ما جاللت أو اجتهدت في دحض رأيه .

(١٤٠) ما مارت : ما أثارت نقاشاً ووافقت .

فالرمح الواحد قامته والرمح الثاني ما حوته راحته ، وقُلْ لى يا أبا الحارث ، ماهو
الرمح الثالث ؟ فقال ذلك النبيه : قبل ما يُظْهِرُ من تنبيهه ، فإن هَزَّ لَيْنَ أعطافه ،
وسرعة انعطافه ، تراه العيان ، كأنه ربحان . وقيل : ما يظهرُ من ذلك المهفهف ،
عند هزِّ الرمح المنقف ، فإنه يراعى للعين ، الشكل الواحد اثنين ، ولهذا نظير ، فى
اليوم المطير . وأحسنُ مثال ، عند رَشَقِ النبال ، وفى تدويرِ المحجَّين وقتلِ الصولجان ،
عند سرعة الدوران ، وقيل : كان معه ربحان ، فعنَّه واحداً وهما اثنان ، وعندى
يادمية القصر ، أنه ليس المرادُ الحصر ، وإنما المرادُ التكثير ، ياضرةً البدرِ المنير ، لأنَّ
عِطْفَه ، كلما انهر هزه ، حصلَ فى صدرِ المتيمِّ وخزَّه ، ورمحُ قائمه يتثنى ويتقصَّف ،
فتارةً يميلُ وأخرى يتقف ، لطعنِ العشاقِ يخطرُ ويتفهف ، فالمتيمُّ لا يبرحُ من قَدِّه فى
طعنات ، كما لم يزلْ من سهامِ جَفَنِهِ فى عزَّاتٍ وخزَّاتٍ ، وهو من المجازِ المرسل ،
إذ المرادُ الطعنُ من ذلك الأسَل . وكان قصده أن يَمُرُّدَ الأعدادَ لا إلى غاية ، ويُلْغِ
بها إلى ما لا نهاية ، فيقول ثانٍ وثالثٌ ورابع ، وخامسٌ وسادسٌ وسابع ، فلمْ تَسْغِ
القافية ، يا من هي بوصيلها شافية ، ورُضابها عافية ، ونظيرُ هذا يا جرة ، أن تستغفر
لهم سبعين مرة ، وليس المرادُ الحصر ، يارقية الحصر ، ويعينُ العين ، فى السبعين ،
حتى لو زاد على هذا العدد ، لَغَفَرَ لهم الواحدُ الصمد ، بل المرادُ أنه لا يغفرُ لهم ولو
زاد . فقالت : يا صاحبَ البيانِ وربِّه ، إنما عنى بالرمح الواحد^(١٤١) فأفصحتُ
له بالكلام ، عما لها من مرام ، كأنها ثالثة بناتِ همام ، فَصَحَّجْتُ عَيْنُ الرجلِ
واستحْتُ ، لِما أَفصحتُ عن مقصودِها وأوضحتُ . فقالت : حبيت وحبيت ، لا
تَمَسِّحْ واصنع ما شيت^(١٤٢) ، فحرَّكتُ بهذا الكلامِ العاث ، من الشيخ الحكيمِ الرمحِ
الثالث ، فَمَدَّ إليها يدَ الفاجرِ العاث ، وذهب لُبُّ ذلك الرجلِ الحازم ، وراودها

^(١٤١) لفظ عبادش للحياة ، ويقصد به هنا العضو التناسلى للرجل .

^(١٤٢) شيت : شعت .

مُرَاوِدَةَ الْعَازِمِ الْجَازِمِ ، وصارت تلك اللَّاعَةُ^(١١٣) ، بين الإطماع والمناعة ، تتنسى وتنقصف ، فتارة تنقصف ، وأخرى تنقصف . وبينما هما فى المجاذبة ، والمداعبة والمطاية ، وهى تنزوى وتلين ، وتصبب وتستكين ، إذ تراهى لها زوجها من بعيد ، فقالت جاء زوجى وهو عفيفٌ عني ، فسُلبَ القرار ، وطلبَ الفرار ، ووقع ذلك الحكيمُ النبىءُ ، فى فتنةٍ فيها الخليمُ سفيه ، ودهمه ما هو أهمُّ مما هو فيه ، من دواهى العشقِ ودواحيه ، ونسى العشقَ والعشيق ، وطلبَ الخلاصَ من المضيق ، وأظهر صورةَ حاله ، ما علاه الشاعر فى قوله :

سألت مجرباً طباً عليمًا خبيراً بالوقائع مستعاضا
وقلتُ الشَّهْدُ أحلى أم رُضاب أم^(١١٤) الذى للروح حاذى
فقال وحقُّ ربي النفسُ أولى إذا جَرَّ الجَزَأَ هذا وهذا

واشغَلَ الحكيمُ نفسه ، وخاف حُلُولَ رَمِيهِ ، وكان فى طرفِ البيتِ صندوقٌ مقل ، عليه سترٌ مُسْتَبَل ، ففتحت له الصندوق ، ورعت له - بإخفائه عن زوجها - الحقوق ، وأمرته بِوُلُوجِهِ ، ليكفى من زوجها شرَّ خروجه ، فشكر لها صنْعَهَا وامتنل ، وأنسلَّ إلى ذلك اللَّحْدِ الضِّيقِ ودخل ، فأقفلت عليه أغلاقه ، وأحكمت وثاقه . ثم تلقت زوجها بالترحاب ، ودخلت معه فى الأُطعمَةِ من كلِّ باب ، وقدمت له ما أكل ، وانسدت له فركبَ وَوَكَلْ ، ثم قالت : أخبرك يا حبيب ، بوقوع أمرٍ غريب ، وحادثٍ بديعٍ عجيب ، وهو أنه قَدِمَ حكيمٌ ، فاضلٌ حلِيمٌ ، عالمٌ عظيمٌ ، فأكرمتُ نُزُلَهُ ، وبَوَّأتُ مَنْزِلَهُ ، وكان معه كتابٌ ، فيه المعجبُ العجاب ، فسألته عما حوى ، فقال مكرُّ النسا ، فقلتُ له هذا شئٌ لا يحصى ، ولا يحصر ، ولا يجمعه ديوانٌ ولا دفترٌ ، فلمْ يُسَلِّمْ إليّ ، ولمْ يُعوِّلْ عليّ ، وذكرَ أنه أَنهَاهُ ، ولمْ يدغْ

^(١١٣) اللاعة : اللحيحة من النساء ، البعيدة من الرية ، وإن كانت تطعم الآخرين فيها بحديثها ودلالتها .

^(١١٤) لفظ عبادش للمباهاة .

من مَكْرِ النِّسَاءِ فَنَأَى إِلَّا أَوْدَعَهُ لِيَأْهَ ، فَمَا وَسَعَنِي إِلَى أَنْتَى غَاثُتُهُ ، وَدَاعِبَتُهُ وَهَارِثُهُ ،
 فَطَمِعَ مِنْ لَيْنِ عَاوِرَتِي ، فِي حُسْنِ مَزَاوِرَتِي ، وَطَلَبَ مِنِّي ذَلِكَ الْعَقُوقُ ، مَا هُوَ أَعَزُّ
 مِنْ بِيضِ الْأَثُوقِ ^(١٤٥) ، وَبَيْنَا نَحْنُ فِي الْعَيْشِ الرَّغِيدِ ، وَإِذْ بِكَ أَقْبَلْتَ مِنْ بَعِيدٍ ، كُلُّ
 ذَلِكَ وَالْحَكِيمُ يَسْمَعُ قَوْلَهَا ، وَمَا تُخْبِرُ بِهِ بَعْلَهَا ، فَلَمَّا سَمِعَ الزَّوْجُ هَذَا الْكَلَامَ
 اضْطَرَبَ ، وَزَجَرَ وَاصْطَعَبَ ، وَقَالَ : وَأَيْنَ هَذَا الْفَاسِقُ ، الْفَاجِرُ الْمُنَافِقُ ؟ وَاللَّهِ
 لَا ذِيْقَنَهُ كَأْسَ التَّلَفِ ، وَلَا لَحَقَنَهُ بِمَنْ سَلَفَ ، فَلَمْ يَبْقَ فِي الْحَكِيمِ مَفْصَلٌ إِلَّا ارْتَحَفَ .
 فَقَالَتْ : هَا هُوَ فِي الصَّنْدُوقِ مَخْتَفِي ، فَخُذْ تَارَكَ مِنْهُ وَاشْتَفَى ، فَهَضَّ وَصَاحَ : هَاتِي
 الْمِفْتَاحَ ، فَعَلِمَ الْحَكِيمُ أَنَّ عَمْرَهُ ذَهَبَ وَرَاحَ .

وَكَانَ سَبَقَ مِنْ زَمَانٍ ، بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ عَقْدُ رِهَانٍ ، أَنَّهُ مَنْ فَتَحَ مِنْهُمَا الصَّنْدُوقَ
 غَلَبَ ، وَأَقَامَ لِصَاحِبِهِ بِمَا طَلَبَ . فَلَمَّا ذَكَرَتْ لَهُ حِكَايَةَ الْحَكِيمِ ، تَذَعَّنَتْهُ عَقْدُ الرَّهْنِ
 الْقَدِيمِ ^(١٤٦) ، وَذَهَلَتْ لِشِدَّةِ الْغَيْرَةِ ، وَوُفُورِ الْخَيْرَةِ ، وَتَوَجَّهَتْ إِلَى الصَّنْدُوقِ ، فَبِمَجَرَّدِ مَا
 فَتَحَ الثَّقُلَ الْمَغْلُوقَ ، صَاحَتْ عَلَيْهِ : غَلَبَتْكَ بِامْعَشُوقِ ، فَأَذَّ مَا نَبَتْ لِي عَلَيْكَ مِنْ
 الْحَقُوقِ . فَتَذَكَّرَتْ عَقْدَ الْمِرَاهِنَةِ ، وَلَمْ يَشْكُ أَنْ كَلَامُهَا كَانَ مُدَاهِنَةً ، فَضْجِكَ بَعْدَ مَا
 كَانَ عَيْسَ ، وَأَلْقَى الْمِفْتَاحَ مِنْ يَدَيْهِ وَجَلَسَ ، وَلَعْنَهَا وَمَكَّرَهَا ، وَلَعِبَهَا وَفَكَّرَهَا ، ثُمَّ
 اصْطَلَحَهَا وَانْشَرَحَا ، وَزَادَ تَشَاطُفًا وَمَرَحًا . ثُمَّ خَرَجَ فِي ضَرُورَاتِهِ ، وَتَوَجَّهَ إِلَى
 حَاجَاتِهِ ، فَأَقْبَلَتْ تِلْكَ الْعُرُوسُ ، إِلَى الْحَكِيمِ الْمَحْيُوسِ ، وَأَفْرَجَتْهُ مِنَ الْإِعْتِقَالِ ،
 وَذَكَرَتْ لَهُ هَذِهِ الْمُنَاقَلَةَ وَالْإِتْقَالَ ، وَقَالَتْ : أَيُّهَا الْحَكِيمُ الْعَظِيمُ ، هَلْ كَبَبْتَ هَذِهِ
 الْمُنَاقَلَةَ فِي كِتَابِكَ الْكَرِيمِ ؟ فَقَالَ : لَا وَاللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، وَإِنِّي قَدْ سَلَمْتُ إِلَيْكَ ،
 وَتَبْتُ إِلَى اللَّهِ عَلَى يَدَيْكَ .

^(١٤٥) الْأَثُوقُ : الْعِقَابُ أَوْ الرُّعْمَةُ .

^(١٤٦) تَذَعَّنَتْهُ خِسَارَةُ الرِّهَانِ إِذَا فَتَحَ الصَّنْدُوقَ .

وإنما أوردتُ هذا المثال ، لأعرضَ على شيخ السعالى وإمام الأغوال ، أن النساءَ في هذه الحركة ، أعظمُ متشبثٍ وأقوى شبكة ، وهُنَّ لِسَلْبِ اللَّبِّ من الرجال ، أضعافُ فِتْنَةِ المسيح الدجال ، خَلْقُهُنَّ أَغْوَجَ ، وَخُلُقُهُنَّ أَهْوَجَ ، وَرَأْيُهُنَّ غَيْرُ سَدِيدٍ ، وَالرَّجَالُ لَهُنَّ أَذْلُ عبيد ، وَإِنْ كُنَّ ناقصاتِ عقلٍ ودين ، فهنَّ كاملاتٌ في سلبِ العقلِ المتين ، والفكرِ الرزين ، وَأَذْهَبَ لِلْبِّ الرجلِ الحازم ، والعقلِ السديدِ الجازم . وهل أخرج آدمَ من جنةِ المأوى ، إِلَّا قِصَّةٌ صدمته من قَيْلِ حَوَّاءَ^(١٤٧) وما قَتَلَ هَابِيلَ قَابِيلَ^(١٤٨) ، إِلَّا بِفِتْنَةِ الزَّوْجَةِ كما قيل ، وكذلك قصة من أوتى الآيات فانسَلَخَ منها ، وقد عرف كل ذلك إِبْدَاءً وإِتْمَاءً^(١٤٩) . وغالب من عصى الله وأساء ، إنما كان سببُ كفرِهِ وإِخْوَانِهِ النساءَ . فلا تتعرضوا على هذا الرأي المتين ، ولا تتعرضوا لهذا الرجلِ فَإِنَّهُ على الحقِّ المبين ، ولا تقصروا لمعارضتهِ وسؤاله ، فربما يكون بحالكم أضيّق من بحالِهِ ، وَإِنَّا لَا نَقْدِرُ على مناقشتِهِ ، ويظهر جهلنا وعجزنا عند مباحثتِهِ .

فقال سائرُ الوزراء^(١٥٠) ، هذا الرأيُ أَصَوَّبُ الآراء ، فَإِنَّا إِلَى الآنَ ما بارزناهم بالمعاشنة ، وَأَتَمَّا كُنَّا نَأْتِيهِم بِالْمُخَادَعَةِ والمُحَاسِنَةِ ، فنزَّيْن لَهُمُ الباطل ، ونَحْلِي لَهُمُ العاقل ، ونشوّهُ وَجَهَ الحقِّ ، ونسوّدُ طلعةَ الصدق ، إِلَى أَنْ ظَهَرَ هَذَا الرَّجُلُ وَنَحْنُ على ذلك ، فوقف في طريقنا وأراهم الدربَ السالك ، وعلا شأنُهُ ، ووضع برهانهُ ، ونَحْنُ على ما نَحْنُ عَلَيْهِ مِنَ الإِغْوَاءِ ، والقائهم في مهايوي الأهواء ، والحربُ بيننا

^(١٤٧) عتقت : حواء .

^(١٤٨) قَابِيلُ أكبرُ أولادِ آدمَ وَحَوَّاءَ . نشبَ بينهُ وبينَ أخيه هَابِيلَ خلافٌ ، بسببِ التنافسِ على الزَّوْجِ من أَجْلِ المَآثِنِ الأَخْيَرِ ، كما تقولُ الأسطورة ، غيرَ أنَ الكتبَ المقدسةَ تشيرُ إِلَى أَنَّ قَابِيلَ قَدِمَ قَرِيبَانَا اللَّهُ مِنْ لَمَارِ زَرْعِهِ ، وَلَمْ يَقْبَلْ . فَيَ حِينَ قَدِمَ هَابِيلُ قَرِيبَانَا مِنَ الْغَنَمِ ، فَقَبِلَ . فَحَقَّقَ قَابِيلُ عَلَى أَخِيهِ وَقَتْلَهُ ، وَاسْتَحَقَّ لَعْنَةَ اللَّهِ (التكوين : ٤) . وَقد وردتِ القصةُ أيضًا فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ (سورة المائدة : ٢٧ - ٣١) .

^(١٤٩) عتقت : إِنْهَاءُ .

^(١٥٠) وزراء الجَنِّ .

وبينهم سجال ، فَلَوْ كَاشَفْتَاهُمْ بِسُوءِ الْفَعَالِ ، انكشف لهم زَيْفُ ثَقَلْنَا ، وبطل ما كنا نسوِّلهُ بجهلنا ، فإذا ظهر الحقُّ من الباطل ، وتميَّزَ الحالي من العاطل ، أخذوا حذرهم ، وضبطوا أمرهم ، وداروا بالعداوة ، ومروا بالملوحة بعد الخلاوة ، ثم ظفَرْنَا بهم موهوم ، ونَصَرْنَا عليهم غيرُ معلوم ، فما نظفَرُوا إِلَّا بالندامة ، ونرضى إِذْ ذَاكَ بغنيمةِ السلامة ، ويستمرُّ هذا العارُ علينا إلى يومِ القيامة ، وقد قيل :

لَا تَسْخَ فِي الْأَمْرِ حَتَّى تَسْعُدَ لَهُ مَغْنًى بِلَا هُدًى قَوْمٌ بِلَا وَتَرٍ

فعند ذلك استشاط العفريتُ غضبا ، وطار شراراً لهذا واشتعالاً ولهذا ، وقال : لقد عظمتُم من شأن الإنسان ، وأوهنتُم بل اهتمت جانبَ إخوانِكُم الجان ، وضيعتُم حقوقَ الإخوان ، وأبطلتُم حكايةَ السعالي والغيلان ، ونسييتُم فِتْنَ جَدِّكُم الأعلى الباقيةَ على ممر الزمان ، وغن أدقُّ حيلة ، وأجلُّ جماعةٍ وقبيلة ، وأوسعُ ذكراً ، وأسرعُ مكرراً ، وأقدمُ وجوداً ، وأعظمُ جنوداً ، وأغزرُ علماً ، إدراكاً وفهماً ، ولا أرى لكم هِمَّةً صادقة ، ولا عزيمةَ موافقة . وأنا ما قلتُ لكم ما تقدَّم من القول ، إِلَّا لأخبرَ ما في فرائضِ عِلْمِكُم من الرَّدِّ والقول ، فَلَا أَقُولُكُم سديدة ، ولا أفعالُكم رشيدة ، ولقد حلَّ لكم الصُّغار ، وسطا بكم من الإنس والصُّغار .

وَأَمَّا أَنَا فَلَا بَدَّ لِي مِنَ الْمُبَاحَثَةِ ، وَالْمُنَاقَشَةِ وَالْمُنَابِتَةِ ، وَالْإِلْقَاءِ لِلْمَسَائِلِ ، وَالْأَبْحَاسِ فِي الرِّسَالِ ، مِنْ غَيْرِ وَسَاطِعٍ وَلَا وَسَائِلِ ، لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ ، وَيَحْيَا مَنْ حَيَّى عَنْ بَيِّنَةٍ . فاعلموا ذلك وتحققوه ، ثم أمعنوا النظرَ فيه ودققوه ، وهذا هو الرأي الذي صممتُ عليه ، فَلْيَتَوَجَّهْ كُلُّ مَنْكُم بِقَلْبِهِ وَقَالِبِهِ إِلَيْهِ ، وَيَقُلْ فِي ذَلِكَ غَنَّةً وَسَمِينَةً ، وَيُلْقِ هِجَانًا^(١٠١) قَوْلُهُ وَهَجِينَةً ، وَلَا يَدَّخِرْ شَيْئاً مِنْ آرَائِهِ ، فَلَا بَدَّ لِي مِنَ الْفَقَاوِ . واعلموا أن الوليَّ الخرار ، الذي هو إلى جهةٍ جار ، لو اتفقت الآراءُ على صرفٍ جريانه إلى

(١٠١) هجان القول : أجوده وأكرمه وأفضله .

جهة أخرى ، وأن يسدَّ عن هذه الجهة المجرى ، فإنهم لو قصدوا ذلك من أسفل
الوادى ، لسخر منهم الحاضر والبادى ، ولا يتهياً لفاعله ما يمتناه ، حتى يمسد طريق
الماء من أعلاه ، وأنتم إن قصدتم معالى الأمور ، وإهلاك رؤوس الجمهور ، ثم تعمدتم
الأراذل ، وتبدلتم الأكابر بالأوغاد والأسافل ، فإنكم إذا أغمار ، وقد ضيعتم فى غير
حاصل الأعمار ، وقد قيل :

إِذَا كُنْتَ لَا بُدَّ مَسْتَعِيَا فَمِنْ أَكْظَمِ النَّاسِ فَاسْتَرْبِ

وما اللعين^(١٠٢) كالرصاص ، والجروح قصاص ، ولا يكافأ الرئيس^(١٠٣) إلا بالرئيس ،
ولا يقابل النفيس بالنفيس ، وأيُّ فخر للملوك ، إذا نازلوا السوقَ والصعلوك ، وقد
قيل :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ السَّيْفَ يَزِيْرِي بِقَتْلِهِ إِذَا قُلْتَ هَذَا السَّيْفُ أَمَضَى مِنَ الْعَصَا

وما اكفى صنيداً قريش يوم بدر ، بدون أكفائهم^(١٠٤) فى النسب والقدر ، وماذا
تفيد تيمستكم ، وتجدى شيطنتكم ووسوستكم ، وأنتم أولو الزعارة ، وذوو الشطارة
والدعارة^(١٠٥) إذا قهرتم من الإنس ، وعلاكم أضعف جنس ، وهم أقصر أعماراً ،
وغن أطول أطواراً ، لم نزل نصادم الجبال ، ونقتحم الأهوال ، ونظهر كما شئنا فى
باب الخيال ، ومن قبل جدنا اللعين ، جادل رب العالمين ، فقال فى حق جدكم ﴿أَنَا
خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾^(١٠٦) وقال ﴿لَا غَوِيْنَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(١٠٧)

(١٠٢) اللعين : الفضة .

(١٠٣) الرئيس : الشجاع من الرجال ، ومن معانها أيضاً الكثير من المال وغيره . والكيش الملتقى لحما وشحما
وعى المتقود للتلوى كذلك .

(١٠٤) أكفائهم : نظرائهم .

(١٠٥) زعارة والدعارة والشطارة : ضروب من لصوبة الخيلة والخناع .

(١٠٦) قرآن كريم ، سورة الأعراف : ١٢ .

(١٠٧) قرآن كريم ، سورة الحجر : ٣٩ .

وقال ﴿ثُمَّ لَا يَنبَغُ مِنَ يَدَيْهِمْ وَأَنْ يُؤْتُوا مِنْهُمْ شَيْئًا﴾ (١٥٨) وهم يموتون ، وهو من المنظرين (١٥٩) . على كل حال نحن أقوى منهم وأجراً (١٦٠) ، وأعرف بطريق الخبث والمكر وأدرى .

وبالجملة الحكم على الشيء فرغ عن تصوّره ، والشخص لا يحكم على شيء إلا بعد تصوّره وتقرّره . وهذا الإنسائ ، إلى الآن ، لا سبّرائه ، ولا خيرناه ، ولا عرفناه ولا عرفناه ، فكيف تقطعون له بالغبلة ، وتفضلون علينا مسيره ومنقلبه ، وإن لم تفصحوا بالعبارة ، فقد دلتم على ذلك بالإشارة ، وكنيتهم عنه بالتلميح ، والكناية أبلغ من التصريح ، هذا ونحن كم قد أضللنا من حكيم ، وأذللنا من عليم ، وأفسدنا من عقائد ، وعقدنا من فساد ، ونصبنا لهم مصائد ، وأرصدنا عليهم من مراصد ، وأبطلنا من طاعات ، وعطلنا من خيرات ، وأخللنا من صلوات ، وأحبطنا من زكوات ، ومنعنا من حجات وصدقات ، وضيعنا من ميراث ونفقات ، وأسقطنا من أعمال صالحات ، وكم لنا في الشر من سوق ، ومن سوق إلى فسوق ، والقاء في حرام ، وتسربل بمظالم وآثام ، وكم لنا من إحكام أحكام ، على القضاة والحكام ، يستحلون بها السحت والحرام ، ويأكلون بها أموال الأيتام ، ويستبيحون بها الدماء والفروج ، وكم دخلنا فيهم فأخرجنا منهم الإسلام أعفى خروج ، وكم لنا فيهم من مصائب لمصائب ، وحواصب لمناصب ، وكثائب لتوائب ، وعجائب لنواهب ، وغرائب لنوادب ، نسلبهم بها دينهم ، ونمنعهم اعتقادهم الحق ودينهم ، وكم لنا في سكونهم إلى الطاعات من حركات ، وفي ركونهم إلى الخيرات من سقطات ، وكم لهم إلى الطاعات من همم ، فبردتها وسأوتنا فحصل منها في أحشائهم الضرر ، وفي

(١٥٨) قرآن كريم ، سورة الأعراف : ١٧ .

(١٥٩) المنظرين : أي أمهله الله حتى يوم القيامة .

(١٦٠) علق : أجرا .

وجود غيرهم العدم ، وفي صحّة إيمانهم السقم ، وفي شباب صديقهم الهرم ، وفي
سكون أمانهم الضربات والألم ، وفي دائرة حلالهم الحرام والحرم ، وكَمَ وكَمَ وكَمَ
وَكَمَ . ونحن الآن على ما كنّا عليه ، وهو الذى طُبِعنا عليه ، ونُدبنا إليه ، ذأبنا عن
الحقّ إضلالهم ، وعن الصراط المستقيم إزلالهم^(١٦١) ، وإلى الباطل دلائهم وإدلالهم ،
نُزِنَ لملوكهم الاحتراء ، ولكبرائهم الافتراء ، ولرؤسائهم الازدراء ، ولعلمائهم المراء ،
ولزهادهم الرباء ، ولتجارهم الرباء^(١٦٢) ، ولأمرائهم سَفَك الدماء ، ولنسائهم السلطة
والزنا ، ولخواصّهم الغيبة والنميمة ، ولعوامهم الخوض فى كلّ جرمة ، وللمشايع
قول الزور ، ولنسائهم الوقاحة والفجور . وهذا ذأبنا وذأبهم ، ولم نزل أَوْهَانُنا^(١٦٣)
ورقائهم ، فإن قلنا نصل هذا الواصل ، فإنّ هذا تحصيل الحاصل ، وإن قلنا نستأنف
عملاً جليداً ، فإننا لم نترك فى ذلك ما يبقى مزيداً ، وقد بلغنا فى ذلك كلّ الغاية ،
وها نحن ملاهسون منه ما ليس وراءه نهاية ، ولم يبقَ إلاّ المقاتلة فى المقاتلة ، والمباشرة
بالمكاثرة ، والمفاتيحة فى المفاتيحة ، والمكالحة فى المكاحة^(١٦٤) .

فلما سمع الوزراء هذا الكلام ، عرفوا أنّ أسباب دوليتهم آذنت بانصرام ، غير أنّهم
لم يقدروا على المخالفة ، فما سيعهم إلاّ المطاوعة والمؤالفة ، لئلا ينسبهم إلى غرض ،

(١٦١) زلت قدمه : زلّت ، وزل فى منطقه ورأيه : أخطأ ، وزل عن مكانه تنحى عنه .

(١٦٢) الربا بمعناه المعروف .

(١٦٣) أوهان جمع وهق وهو الخبل فى أحد طرفيه أنشودة يطرح فى عتق الدابة والإنسان حتى يؤخذ .

(١٦٤) يعنى بهذه العبارات الخمسة الأسمرة : إعلان الجنّ الحرب على هذا الشيخ العابد بعد أن نجح (الجنّ) بكل
السبل المشروعة وغير المشروعة فى إضلال الإنسان وتضليله عامة . ولولا ظهور هذا الشيخ العابد الواحد ،
والعالم الفاضل بكل ما يمتلئ من قيم وروحة إسلامية لاستمر سلطانهم على الإنس ومن ثم فلا بدّ من إعلان
الحرب عليه ، ولا مناص من ضرورة الإيقاع به وهزيمته حتى يتفرض المؤمنون والأتباع من حوله . ويستعيد
الجنّ - بهزيمته - سيادتهم على الإنس ، ومن الجندي بالذکر أن الجنّ الكافر كان يظهر للبشر حتى ذلك
الوقت ، ويشاركهم الحياة على الأرض ، وجهاً لوجه .

فيسيهم منه عَرَضٌ أو مَرَضٌ ، فحَسُنُوا لَهُ رَأْيُ المصادمة ، ومباحةِ العالمِ والمقاومة ، واتفقت الآراءُ أن يُرسِلوا للعالمِ أَوَّلًا ، وانتخبوا مَنْ يصلحُ أن يكونَ مرسلًا ، فيحملُهُ العفريتُ في الرسالة ، ما تتضمنُهُ من الحماسة والبسالة ، حسبما يراهُ رأيُهُ التعييس ، وفكرهُ المدبرُ الخسيس . وكان في شياطينهِ المردة ، وغيلانيهِ العتاةِ العَنَدَةِ ، عفريتٌ من الجنِّ ، مارِدٌ بمسِّن ، اسمهَ صن بن مصن ، قد أضلَّ عقائد ، وأزلَّ قواعد ، وأشربَ بُغْضَ بني آدم ، وغَمَسَ طائفةً منهم في نارِ جهنَّمَ ، بعد ما غَطَسَهُم من المعاصي في يَمِّ^(١٦٥) ، لا يمتنعُ وجوهُ عن المحجوم ، ولا يخافُ الرجوم^(١٦٦) من التحجوم ، طالما أطال البوائق^(١٦٧) في المغاربِ والمشارق ، وأضرمَ نيرانَ الإفسادِ بين الخلائق ، ومألاً ما بين الخافقين من مواقعِ الصواعق ، وفوَّحَ ثائرةُ الوساس ، وفَسَّاءَ الظُّربانِ في المجالس ، وانقَضَ للشرِّ والفنِّ على كُلِّ قائمٍ وجالس ، فكَمَ لَهُ توفيقُ بينِ الجَرَّامَيْنِ ، وتقريبُ بينِ الحلائكَيْنِ ، وسفكُ دماءٍ بينِ الأخوينِ ، وإلقاءِ البُغْضَةِ بينِ المحييينِ ، والعداوةِ بينِ الإلفينِ ، والعبدةِ بينِ السكارى ، والحروبِ بينِ المسلمين والنصارى . وبالجملَةِ فقد أوتى من الوسوسة والتلبيس ، صنوفاً كثيرةً فاق بها على ذُرِّيَةِ إبليس .

فانتدبه العفريتُ الملم ، إلى هذا الأمرِ المهم ، وأمهلَهُ^(١٦٨) إلى أن انسلخَ إهابُ الضو ، ثم طار في عنانِ الجو ، حتى وصلا إلى سفحِ الجبل ، متعباً ذلك العالمِ البطل ، الذي ملأ الدنيا بالعلم والعمل . ثم كَمَنَ العفريتُ في مغارة ، وأرسلَ رسوله بالسفارة ، يقول : أبلغْ عالِمَ الإنس ، صاحبَ الكراماتِ والأنس ، ومقربَ حظيرةِ

(١٦٥) المم : البحر .

(١٦٦) الشُّهب .

(١٦٧) البوائق : الشرور والدواعي ، جمع باقة .

(١٦٨) ألف الاثنين هنا تشير إلى أن الفاعل اثنان هما شيخ الغارات ، والعفريت الذي ندب نفسه لاستدعاء الرسول

(من الغارات أيضاً) .

القدس ، عن شيخ العفاريت ، الطغاة المصاليات ، أني من قديم الزمان ، وبعيد
الحدثان^(١٦٦) ، أضللت كثيراً من الناس ، بالمكر والخداع والوسوس ، وفي أمثالي
نزلت ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾^(١٦٧) وابن عمي هو الوسوس الخناس^(١٦٨) ، وكان من
جنس بني آدم ، كذا كذا ألف عالم ، خدامي ومعني ، وجندي وتبعي ، منهم رؤوس
الزهاد ، وعلماء العباد ، وعلى محبي مَضَوْا ، وباتباع أوامري قَضَوْا . فأنا فتنة العالم ،
وأعدى أعداء بني آدم ، الشيطان الرجيم ، وإبليس اللميم ، اسم ذاتي ، ووصف
صفاتي . أنا مُتَعَدِّي الشياطين ، ورأس العفاريت المتمردين ، وعجل غضبي رب
العالمين ، خلقت من مارج من نار ، وطُيعْتُ على إلقاء البوار والدمار ، رجوم النجوم
إنما أعدت لأجلي ، وعتاة الغواة لا تصل رؤوسها إلى مواطئ رجلي ، إلا من خطف
الخطفة ، فأتبعه شهاب ثاقب آية منعتي ، وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم طراز
خلعتي ، أسجد لمن خلقت طيناً مقام مغالي ، لأختبئن^(١٦٩) ذريته إلا قليلاً بحال
جدالي ، لعنه الله . وقال : لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً منشوري القديم ،
يعلمهم ويمنهم وما يعلمهم الشيطان إلا غروراً مرسومي الكريم ، الشياطين
تستمد من زواجر مكري ، والأعور اللعين^(١٧٠) يقتبس من ضماير فكري ، لم
تمر قضية في الزمان الغابر إلا ولي الشركة فيها ، ولا حدثت عنة لسي ولا ولي إلا
وأنا متعاطيها ، جدني إبليس ، نهض لجدي التعيس ، وإلى نحو آدم هوى ،
فقصي ربه فغوى ، وأنا قضيت بالتسويل^(١٧١) ، حتى قتل قابيل

^(١٦٦) تقلبات الدهر وحوادث الزمان .

^(١٦٧) انظر : قرآن كريم ، سورة "الناس" ، الآيات : ١ - ٦ .

^(١٦٨) الوسوس الخناس : الشيطان .

^(١٦٩) اختبئت الثوب : استولى عليها واستمالها .

^(١٧٠) المسيح الدجال .

^(١٧١) سؤل له الشر : حبه إليه ، وسهله عليه ، وأغراه به ، وغير ذلك من تسويلات الشيطان .

هابيل^(١٧٥)، وحلّت^(١٧٦) بقوم نوح، عن النصوح، وأرشدت المجوس، إلى عبادة النار ووضعت الناقوس، وأضللت عاداً وممود، وشداداً وغرود، وبعثت على عبادة الأصنام، في البيت الحرام، وعلى كيفية إلقاء إبراهيم، في نار الجحيم، وهديت قوم لوط، إلى الخوض في القلوط^(١٧٧)، وعافرت القلوط، وسولت لأولاد يعقوب، وحاولت في قضية أيوب، وتصدت لأم اسمعيل، وعارضت أبتها وهو مع الخليل، وأنسيت يوشع قصة الحوت، وساعدت على صاحب الحوت، جلست بالعصيان، على تخت^(١٧٨) سليمان، وحضرت وقعة طالوت، وساعدت عليه جالوت. وأنا كنت العون، لهامان وفرعون، وبحسن ضبطي قتل موسى القبطي^(١٧٩)، وأنا قتلت داود، وأغويت فارون اليهود، وسلطتهم على والدة المولود، ودللت على نشر زكريا، وذبح يحيى، وحرأت على قتل الأنبياء، والأولياء، وتوصلت بتزيين الوسواس، لقاتلي الذين يأمرزون بالقسط من الناس، ودعوت إلى عبادة العجل قوم موسى، وساعدت في التفريق والإضلال بين أمّة عيسى، وكم أغويت من رهبان، بما زعمت من صلبان، وقد بلغني من جميع مسترقي السمع وطن على أذني، ووعاه خاطري ووقر في ذهني، وأنا أشارت النجوم وأسارقت النجوم، وأسابق الرجوم: أن لي أسماء، تذكر في السماء، منها الغليظ الرقة، وشيخ نجار وأزب العقبة^(١٨٠)، والمقيم في

(١٧٥) انظر الهامش رقم ١٤٨ في هذا الباب.

(١٧٦) حلت: وقتت حالاً دون إيمان قوم نوح ٤.

(١٧٧) القلوط: الغائط غير المتناسك كتابة عن ذبيلة أو عطية اللواط.

(١٧٨) عرش سليمان وقد جلس عليه إيليس عندما تشبه بسليمان. إيمان محته القبط.

(١٧٩) القبطي: للمصرى.

(١٨٠) أزب العقبة أو العقبات بمعنى عصب العقبات، دائم العواقب، متواصل التعويق، كتابة عن وقف الحال وسد

السييل وصدّه.

الدُّسْتُ (١٨١) البيضة ، والغويُّ على انقضى عهد بني قريظه ، والمعرضُ على أُخْدٍ وبذر ، من الصناديد كلَّ جليلٍ القدر ، والمشهورَ في أُخْدٍ بالندا ، والملقى العربَ بالردة إلى الرَّدَى ، وأنا المنسبُ في قتلِ عمرَ وعثمان ، وإهلاكِ عليٍّ أميرِ الشجعان ، والغويُّ في وَقَعَتِي الجملِ وصفين ، والملقى الفتنَ بين جنود المسلمين ، وإن شَرَى سَرَى إلى يزيدَ وفاضَ للحجاج والوليد ، وبني تكثُرُ البدع ، بين الجماعاتِ والجمع ، ويظهرُ من الفتنِ ما بطن ، ويغلبُ من التتار ، وأهلِ البوار والخسار ، أنواعُ الشرورِ والجُدال ، إلى حين يظهرُ الدجَال ، وتستمرُّ إلى هذه الأمور ، إلى يومِ البعثِ والنشور .

وبالجملةِ والتفصيل ، أنا شيخُ التكفيرِ والتضليل ، وتلك صنعتي من الابتداء ، وحرفتي إلى الانتهاء . ثم إنَّكَ نَبَعْتَ في هذا الزمان ، وظهرت في هذا المكان ، تريدُ أن تهلكَ ما بَنَيْتَهُ ، وتوَجَّعَ بصلاحك ما بفسادي سَوَيْتَهُ ، وتردُّ كلامي ، وتعاكسني في مرامي ، وأنا كنتُ في قديمِ الزمان ، من قبل أن توجدَ أنتَ في هذا المكان ، ناديتُ بالشرِّ بين بنيهِ ، وشهرت في ذويه ، قولي :

كَلُّوا وَاثْرَبُوا وَاذْنُوا وَلُوطُوا وَقَايِرُوا وَهَيَّا اسْرِقُوا سَرًّا وَخُوضُوا الدِّمَا جَهْرًا
وَلَا تَرَكُوا شَيْئًا مِنَ الْفِسْقِ مُهْمَلًا مَصِيرُكُمْ عِنْدِي إِلَى الْجَنَّةِ الْحَمْرَا

وكانوا قد سمعوا وأجابوا ، وأطاعوا وأجابوا ، وشملني بهم منتظم ، وأمري بتفريقِ كلمتهم ملتئم ، وأسهمُ مرامي المشعومة ، نافذة في المشارقِ والمغارب ، وسيوفُ مناشيري المسمومة ، قاطعة في الأعاجم والأعارب ، كم لي في الأطراف ، والآفاقِ والاكتاف ، من قاضٍ ونائب ، ومانعٍ من الخيرِ وحاجب ، وأميرٍ وصاحب ، ووزيرٍ وكاتب ، ومشيرٍ وحاسب ، وجليسٍ ونديم ، وتابعٍ وخديم ، وناظرٍ وعامل ، وناقصٍ وكامل ، وكم لي من جاني ، منوطٌ بتفريقِ قلوبهم وجمعِ سُوْدَائِهَا إلى باهي ،

(١٨١) صدر المجلس . ربيعة الدست : سيد المجلس .

وكم لي في المدارس ذو وسّاس ، وفي الجوامع والبيع والصوامع ، من مذكر
رواعظ ، وإمام وحافظ ، ومقرئ وعابد ، وشيخ وزاهد ، وكم لي "في الزوايا ، من
خبايا" وفي أصحاب الروايات ، من درايات ، وقيقو في النادي ، فاق الحاضر
والبادي ، يعلم لي في الشيطنة أولادي ، وفي البيلسة حقدني وأجنادي . وأما سائر
الفساق ، في الأفاق ، وسكان الأسواق ، وقطان الجبال والرساق ، ورجال
الصحارى والأوراق ، فكلهم لي عشاق ، وإلى ديني مشتاق ، وسَلّ عنى أرباب
الحانات ، وسكان الحانات . وبالجملة غالب الطوائف ، وأرباب الوظائف ، على
باب خدمتي واقف ، وعلى طاعة مراسيمي ليلاً ونهاراً عاكف ، مُنأي مُناهم ،
ورضاي رضاهم ، وإن خالف بعض سري نواهم ، إلا الذين آمنوا وعملوا
الصالحات وقليل ما هم .

وأنت (١٨٢) الآن جئت بربيتك وسالوسك (١٨٣) ، وطامتك وناموسك (١٨٤) ، تبدّد
عني عساكري ، وتشرّد من بني الإنس عشائري ، وتشتّت جموعي ، وتخلّي من
الفسق والفساق ربوعي ، من غير أن تشاورني ، ولا تخبرني ولا تحاورني ، ولا تبحث
معي ولا تناظرني ، وها أنا قد جئت إليك ، ونزلت كالقضاء المبرم عليك ، أريد أن
أناظرك في أنواع من العلوم ، وأسألك عن حقائقها من طريق المنطوق والمفهوم ،
بمضرة من الجن والإنس ، وسائر نوع الحيوان والجنس ، فيظهر إذ ذاك جهلك ،
فينبذك قومك وأهلك ، ويتركك معتدوك ، ويستراجع عنك مريدون ، وأفسد بين
العالم صيتك وأتلفه ، فاجعل بيننا وبينك موعداً لا تُخلّفه .

(١٨٢) الخطاب موجه إلى الشيخ العابد على لسان شيخ العقاريت .

(١٨٣) السالوس : النظم والمبادئ .

(١٨٤) الناموس : القانون والشرعة .

فلما وصل رسولُ العفريت ، الكافرُ ، الصفریت ، إلى الشيخِ العابد ، والعالم الزاهد ، الجاهدِ الجهاد ، فعندما وقعَ نظرُ الشيخِ عليه ، ووصلت سهامُ لحظاته إليه ، كادَ أنْ يذوبَ كالملح ، وأنْ لا يقومَ الفسادُ للصالح ، فَبَهِتَ الذي كفر وأخذتُه الدهشةُ والخور ، وغلب عليه الانهيار ، وكاد يحرقُ من الأنوار ، واستولى عليه الرجيف^(١٨٥) ، وسقط من الوجيف^(١٨٦) ، فما أبدى ولا أعاد ، ولا قام للصالح ذلك الفساد . فقال لهُ الشيخ : ما لك ؟ وما أحالكَ وغيرَ جالكَ ؟ وما موجبُ دخولك عليّ ، وأنت غيرُ منسوبٍ إليّ ؟ فقال : كُفَّ عني أنوارك ، وأطوّر عني أسراركَ ، حتى أقول ، فإني رسول ، فما لي طاقةٌ برؤيتك ولا سِواغ^(١٨٧) ، وما على الرسولِ إلّا البلاغ . فقال : رسولُ أيّ طعين ، وشيطانٍ لعين ؟ فقال : أنا رسولُ محبِّك العفريتِ المشقوقِ الخوافر ، الواسعِ للناخر ، المسلوبِ المفاخر ، أبي السعالي^(١٨٨) ، الكافرِ العالي ، قد أقبل إليك في جمعٍ كثير ، وعددٍ من الجنِّ غزير ، ومعه رؤوسُ العفاريت ، والعنّةُ المصاليات ، والطغاةُ المفاليات ، وقد حملني إليك رسالة ، تتضمنُ من الخبيثِ شجاعةً ورسالةً ، إنْ شئتَ أدّيتها ، وإنْ أبيتَ ردّيتها .. فقال : قلْ ما تريد ، وأبلغْ ما معك عن ذلك العنيد ، وأوجزْ ما تقول ، ولعن الله المرسلَ والرسول . فأبلغَ الرسالةَ وأدّاها ، وأسأل في أوديتها مودّاها .

فقال الزاهد ، وكان بالأحوالِ خبيراً " وإذا أردنا أنْ نهلكَ قريةً أمرنا مترفيها ففسّسوا فيها فحقّ عليها القولُ فدمرناها تدميراً " والله ما لكم شبهة في هذا الكيد ، إلّا الحمارُ في الوحلِ والحمامُ في شبكة الصيد ، قلْ لمرسلك : أرى قدامك ، أراق دمعك ،

(١٨٥) الانضطراب الشديد لخوف أو فرح .

(١٨٦) الانضطراب والخوف والفرح .

(١٨٧) السِواغ : كل ما تساغ به القصة . ويقال : أسغى لي غصتي أي أهلتني ولا تمنعني ..

(١٨٨) الغزل الأكبر .

وهراك أهواك ، وأهالك أفعى لك ، ومزالك أسوا لك^(١٨٩) ، وخيالك أخبى لك ، فأولى لك أولى لك ، ولعن الله أولى لك^(١٩٠) ، لاشك أن الله تعالى أراد دماركم ، وأن يحو آثاركم ، ويخلي دياركم ، فتسريح البلاد من فسادكم ، والعباد من عنادكم . أما أنا فأذل الخلق ، واحقر الداعين إلى الحق ، ولكن بعون الله وقدرته وإهامه وقوته لي من العلم والفضل ما أجيئه ، ويقتله من خوفه به وحيه^(١٩١) وسيظهر في الجمع على رؤوس الأشهاد عويله ونحيبه ، وسيبين الله في سنن الخلق فروضه ، ويكشف صحيح الحق ومريضه ، وإذا ادعى بدعائي طويلة عريضة ، فإن الله تعالى قتل نمرود العاتي ببعوضة "يريدون ليظفروا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون"^(١٩٢) أما سمع ذلك الملعون ، وعلم الشقي المغبون ، أنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون . فمتى أراد يحضر ، ويسبر نفسه وخصمه ويخبر ، ويصحب معه من يريد من كل جن جنيد ، وشيطان مرید ، فإن الحق يحق فيبطل الباطل ، ويتميز في حلبة السباق الخالي من العاقل ، فرد هذا الجواب الرسول ، وكشف عن حقيقة القول .

ثم إن العفريت المغلول ، سأل الرسول ، عن أوضاع الشيخ الزاهد ، وأحواله في المساجد والمشاهد ، وما شاهده من أمور وحكاياته ، وحركاته وسكناته ، وأخلاقه ومعاملاته ، وكيفية هيبته وصورته ، وما شاع عنه في قومه من سيرته . فقال : رأيت رجلاً سعيد الحركات كامل البركات ، صورته جميلة ، وأوصافه نبيلة ، وهيبته جليلة ، بدنه نحيل ، وفضله عريض طويل ، وكلامه الصادع ، في أمثالنا ثقيل قاطع ،

^(١٨٩) أسوا لك : مخفف أسوأ لك (مركبة) .

^(١٩٠) أولى لك : أوليك لك (مركبة) .

^(١٩١) الوحي : يقال وجب القلب بمعنى خفق واضطرب ورجف وجن .

^(١٩٢) في النص تضمين الآية قرآنية ، انظر سورة الصف ، آية رقم ٨ .

فقدف الله في قلبه الفزع ، وأخذته نوافضُ الرعبِ والملع . فقال : أمّا والله إن هذه الأوصاف ، لصعبة الأعراق والأعراف ، وستطرحنا وراء جبلٍ قاف ، وإنها لسيمة الصّلاح ، وعلامة الفوز والنجاح ، وأنهم لهم المنصورون ، وحزبُ الله الغالبون . ولقد ندمتُ على مراسلته ، وكان الأولى سلوكُ طريقٍ بجمالته ، ولكنّ الشروع مُلزم ، ولا بدّ أن أتمّ ما عليه أعزم . فواعده إلى وقتٍ معلوم ، ثمّ إنه أحضر وأحضر معه مِنْ جنده كلَّ جنٍّ ظلوم ، وغفريتٍ غشوم ، ومتمرّدٍ مشوم ، ومخلوقٍ من قبلُ من نارِ السموم . واجتمع من بني آدم عند الشيخ تلامذته ، وأصحابه الصالحون وجماعته ، وكانوا الجمّ الغفير ، والجمع الغزير . واشتدوا بعد ما خطبوا واختبطوا ، وحلوا وارتبطوا ، أنّه إن أجابَ الشيخُ سؤالاتِ الغفريت ، وسرى في ناديم سرّيان النارِ في الكبريت ، لا يظهرُ بعد ذلك اليوم ، لبني آدم أحدٌ من أولئك القوم ، بل يكونون عن الأبصار مخفيين ، وتحت الأرض في الجوايزِ والخرائبِ كزنادقة بغداد متنفين ، وإن عجزَ الشيخُ عن جوابِ سؤالي ، يهلكه الغفريتُ مع خيَلِهِ ورجاله .

ثمّ شرعَ الغفريتُ في الرسائل ، وإلقاء المسائل . فقال : العالمُ على كمّ قسمٍ بالعرضِ والجسم ؟ وهل للعالمُ مُوجد ؟ وهل هو واحدٌ أم متعدد ؟ فقال الزاهدُ الإمام : العالمُ على ثلاثة أقسام : الأولُ مفرداتُ العناصرِ كالترابِ والماء ، والنارِ والهواء ، وتسمى الأسطقسات^(١٧) ، وأصولُ الكائناتِ والمركبات ، من هذه الأجزاء المفردة ، لا تستمرُّ على حالٍ واحدة ، ولا تخلو من حركةٍ وانتقال ، ودأبها التغيُّرُ من حالٍ إلى حال . الثاني الأجرامُ العلوية ، كالسمواتِ وكواكبها المضيئة ، وهي

^(١٧) وردت في النسخ المطبوعة مكناً : الاستقصاءات ، والاستفاضات وما دام المقصود بهذين اللفظين هو العناصر الأربعة : الماء والهواء والنار والواب ، فإنّ للمصطلح الطبي (والفلسفي) الصحيح في نظرية الطب اليونانية الذي يشير إلى هذه العناصر الأربعة هو "الأسطقسات" ومن ثمّ آتته في معنى النص . (انظر مفاتيح العلوم للخوازمسي ص ٨٢) .

متحركة بالبروج ، ولحركتها دائرة ما لها من مركزها بخروج ، فهي متحركة من بعض الجهات ، ساكنة كالفصوص في المرصعات ، وتُوصفُ في حركتها بالصعود والهبوط ، والارتفاع والسقوط ، والرجوع والإقبال ، واستقامة الحال ، والاحتراق والانصراف ، والانحطاط إلى الحضيض والأشرف ، ويُحكمُ عليها بالافتراق والاقتران ، والتزييع والتثليث والتسديس في السَّيَران ، والمقابلة في الرجعة ، وبطء السير والسرعة ، وينسبُ إليها ما يحدث في العالم السفلي ، من جزئي الوقائع والكلبي ، ومن نحوسة وسعادة ، ونقص وزيادة ، وخير وشر ، ونفع وضرر ، وتأثير وتأثير ، وقليل وكثير ، وانحراف واعتدال ، وحدث وزوال ، يسند هذه الأشياء على الحقيقة ، وذلك لقصور فهمهم وقلة العقل ، كقول الجاهل أنبت الريح البقل ، وبعض من لم يكن له إدراك ، يزعم أن هذا إشراك ، ولا يسند هذه الحوادث إليها ، ولا يعول في ذلك أبداً عليها ، لا بالحقيقة ولا بالمجاز ، ولا يسلم في ذلك إلى طريقة المجاز ، والمحققون من العلماء ، والراسخون في العلم من حكماء الفقهاء ، يسندون هذه الحوادث والتأثير ، إلى قدرة اللطيف الخبير ، الصانع القدير ، الفاعل المختار ، الذي يخلق ما يشاء ويختار ، فإذا نسبوا هذه الأفعال ، إلى غير ذي الجلال ، فإنما يجعلونها في ذلك الباب ، كآلات والأسباب ، كتأثير الخبز في الإشباع ، والنار في الإحراق والإيجاع ، وكفعل الماء في الإرواء ، والدواء في الأدواء ، وإنما ذلك كله بتقدير صانعها ، وما أودعته فيها من خواص بدائعها ، وصفات ودائعها ، كخاصية الإسهال المدوعة في السَّقْمُونيا^(١١٤) ، وخواص التصبير وغيره^(١١٥) الكامنة في الموميا^(١١٦) ، والإسكار في الخمر ، والإحراق في الجمر ، وقد رأينا القوة النامية ، عُقَيْبَ الأمطار

^(١١٤) السَّقْمُونيا : نبات يستخرج من جنوده واتيح مسهل .

^(١١٥) من أنواع الخنوط .

^(١١٦) الموميا : البجعة المنطلة في قبور المصريين القدماء .

الهامة ، والشمسُ حامية ، تهيجُ وتنمو ، وتموجُ وتزكو . وهذا الصنيعُ البديع ، إذا حَلَّتْ الشمسُ في بُرجِ الحَمَلِ في وقتِ الربيع ، وإذا نُقِلَتْ إلى بُرجِ الأُسَدِ ، احترقَ ذلك الجسد ، وعند نقلها إلى الميزان ، ينقلب هذا الزمان ، وكذا إذا تحوَّلت الغزاةُ إلى برجِ الجَدِّي ، فكأنَّه بلغ إلى محلِّ الهدى ، فتموتُ إذ ذاك قوَّةُ الزمان ، ويضعفُ لذلك غالبُ الحيوان ، وهذا كُلُّهُ مشاهدٌ محسوس ، لا يمكنُ أن تنكرهُ النفوس ، عواصِرُ وَضَعِهَا خالقُ الكون ، يُستفادُ بعضها من الطعامِ والريحِ واللونِ ، وبعضُها لا يترك ما أودع فيه ، إلَّا بإرشادِ خالقِهِ ومنشيه ، هكذا جرتُ سُنَّةُ العزيزِ الوَّهاب ، أنَّ الأحكامَ والوقائعَ تناطُ بالأسباب ، وقد يتخلَّفُ منها الأثرُ عن المؤثر ، يُعَلِّمُ من ذلك وجودُ القاهرِ المدبِّر ، وأنها مقهورةٌ تحت الأمر ، ومقسورةٌ قسَرَ العقلِ مع الخمر . ولولا أن ذلك من سِرِّ جسيم ، لَمَّا خفي على الإنسان أغلب ما صنعه الخالق الحكيم ، ولما تخلفت النارُ عن إحراقِ إبراهيم ، ولما ولدت مريمُ عيسى ، ولا أغرقَ البحرُ القبط^(١٩٧) وأنجى بنى إسرائيلَ وموسى ، فكَمَ من آكلٍ وهو جيعان ، وشاربٍ وهو عطشان ، ومتدنٍّ يتدفأ بالنار وهو بردان ، والفلَكُ الأعظمُ محيطٌ بهذه الأحرام ، ونسبَتُها إليه كنقطةٍ للبحرِ الطام ، متأثرةٌ بتأثيره ، دائرةٌ بتدويره ، يتصرفُ فيها على حَسَبِ ما شاء باريها ، وصرفهُ فيها منشئها ، فاطرُ السمواتِ والأرض ، جامعُ الخلائقِ ليومِ العرض ، وكما هي عاطةٌ بالدائرةِ الفوقانية ، كذلك هي محيطَةٌ بالكرةِ التحتانية . القسمُ الثالثُ : العقولُ والنفوسُ الملكية ، وهي أشرفُ من الأحرامِ العلوية ، ومقامُ هذه العقول ، في مقامٍ عزيزِ الوصول ، يسمَّى أعلى عليين ، وجواهرُها لا تُوصَفُ بتحريكٍ ولا تسكين ، ولا بهذه البساطةِ والتركيب ، وأمرُها بديع ، وشأنُها عجيب . وأما العَرَضُ فما لا يقومُ بذاته ، وهو في العالمِ كالألوانِ

(١٩٧) للصبرليون .

والروائح والطعوم وأصواته . وأما الجسمُ فما تركَّب من جوهرين فأكثر ، وما قام بنفسه يسمَّى الجوهر .

وأما الموجد للعالم فهو واحد لا يتثنى ، واحد لا يتجزأ ، ولو لم يكن للعالم صانع ، لكان العالم أضيع ضائع ، وهل رأيت مصنوعاً بلا صانع ، وسقفاً مرفوعاً بلا رافع ، وهل نفى الصانع^(١٩٨) إلا مكابرة ، وما يحجده إلا النفوس الكافرة . فقال العفريت : فما الدليلُ على وجود الصانع ، العقلُ والنقلُ أم أحدهما متبوعٌ والآخر تابع ؟ فقال العالم الزاهد : قد أطبقتُ العقلاء ، وأجمعتُ الحكماء ، أن العقل دليل على وجود الصانع ، وبه الدلالة والشرعُ لهُ تابع ، وكما هو الدليل على وجود الذات ، كذلك هو الدليل المستقل على إثبات الصفات ، وهي صفات الكمال ، ونعوت الجلال . فقال العفريت : فما الدليلُ على وحدانيته ؟ فقال الزاهد : كلُّ من العقل والشرع كافٍ في دلالته . قال العفريت : فما المراد من عالم الكون والفساد ؟ فقال العالم : معرفةُ أمورِ المبدأ والمعاد . قال العفريت : فما أفضلُ ، العقلُ أم النقل ؟ فقال العالم : كلُّ منهما حجةٌ الله ، قد أسند لهُ من عبادِهِ مَنْ يراه . وذلك أنَّ الله لما أرشدنا إلى الدين القويم ، وثبت أقدامَ توحيدنا على الصراط المستقيم ، ثبَّهنا إلى أن المقصود ، من الدخول في دائرة الوجود ، معرفةُ مُوجدنا المعبود ، كما قال مَنْ يقولُ للشَّيء كُنْ فيكون ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ، ما أريدُ منهم مِنْ رِزْقٍ وَمَا أريدُ أَنْ يُطِيعُمُونِ^(١٩٩) ثم طلبَ مرضيهِ ، بما تبرز به أواصرُهُ وتقتضيه ، وذلك هو الرشاد ، يا ذَا المكرِ والعناد ، إلى المعارفِ الإلهيةِ وما به نظامُ المعاشِ ونجاةُ المعاد ، وليس لنا دليلٌ في العلم والتعريف ، سوى طريقتين مرشدتين إلى التوقيف ، على أمورِ

^(١٩٨) نفى الصانع : إنكار وجوده .

^(١٩٩) سورة المائدة : ٥٧ .

المبدأ والمعاد وما بينهما في دار التكليف : إحداهما ما جئنا عليه وما اكتسبناه من العقل ، وثانيتهما ما بلغنا من الأخبار الصحيحة والنقل . فالعقل لا يدخل في إثبات المعارف الإلهية ، ولا في هذا الباب المتقدم من الأمور المعاشية والمعادية ، وهو حجة الله القاطعة البالغة ، وأصل براهينه الباطنة الدامغة ، وبواسطته استبعد عبادة الكملة ، وإلى من خصه به أرسل رسله ، ثم العقل حوز إرسال الرسل ، ولا يرد ما تقوى به توضيح السبل ، والنقل لا يأتي بما يناقض العقل ، وإنما يرد بما يؤكّد قضاياه ويصقل مرائي أحكامه أحسن صقل ، ونظير ما حصل للعقل بالشرع من الاستئناس ما حصل للكتاب^(٢٠٠) من معاضدة السنة والإجماع والقياس ، ولو ورد المنقول بما يناقض المعقول ، لأشبه فرعاً يوجّد ما له من أصول . إذا أقبلت مواكب الأوامر الإلهية على لسان الرسول ، خضعت جماع العقول ، منقادة بزمام الانقياد والقبول ، سامعة لما يرد منها ، مطيعة لما يصدر عنها ، فتارة يظهر للعقل ما للأوامر الشرعية من الحكم ، كنار على علم ، وتارة يعجز عن الاطلاع على ماتممتته الأحكام النقلية من الحكم ، فإذا ورد الشرع بحكم وكان للعقل في حكمته إدراك ، أثره وأكّده واستمسك به في تصرفاته أقوى استمساك ، وإن لم يكن له في إدراكه مدخل ، نادى بلسان العجز والتسليم سبحانه من لا يُسئل عما يفعل . والخاصل أنّ سلطان العقول ، في ممالك خليفة الشرع وولاياته مزول ، ومن جملة ما ورد على لسان السمع ، على لسان عدوك صاحب الشرع ، الصادق في المقال ، مما ليس للعقل فيه مجال ، أحوال المعاد ، ومبدؤها ما يطرق على العباد ، في حدّ هذا الكون من الفساد .

(٢٠٠) يعني المؤلف : القرآن الكريم .

فقال العفريتُ : أخبرني يا ذا الإنسانُ مخلوقٌ مُماذا ؟ وما الآدمية ؟ والنفسُ الإنسانية ؟ وهل هي واحدة أو متعددة ؟ ومآلُها إلى أين ، بعد وقوعِ البين ؟ فقال العالمُ : الإنسانُ مخلوقٌ يا مَصْنَعَةٌ (٢٠١) ، من هذه العناصرِ الأربعة ، التي مرَّ ذكرُها ، وتبينُ أمرُها ، الترابُ والماءُ ، والنارُ والهواءُ ، فإذا تمازجت ، واعتدلتْ إذا تزاوجت ، حصل لها من التركيبِ أمزجةٌ ثمانيةٌ ولا على الترتيب . والآدميةُ عبارةٌ عن القوةِ المُمَيَّزة بين الحسنِ والقبیح ، والفاسدِ والصحيح ، والحقِّ والباطل ، والحالي والعاقل ، والخير والشر ، والنفع والضرر ، والمميزةُ لهذه الأشياءِ الفارقة ، يُقال لها النفسُ الناطقة . وهي ثلاثةُ أنواع ، يا خارجَ الطباع : أحدها الروحُ الطبيعيةُ القائمةُ بالكبد ، وهي مِنْ الأعذية تستمد . الثانيةُ الروحُ الحيوانيةُ ومقامها القلب ، أي كلب (٢٠٢) ، وللأبدان منها حراك ، واستمدادُها من حركاتِ الأفلاك . الثالثةُ الروحُ النفسانيةُ ، ومقامُها في الدماغ ، ومنه الحركاتُ الذهنيةُ ، والقوةُ النائمةُ القويّةُ ، تطلبُ غذاءَها من الروح الطبيعية ، والقوةُ المميزةُ تطلبُ ما يسعدها في الدارين من الروح النفسانية ، ويُبعثُها في المقامين عن الأسبابِ الشقية ، واستندادُها وقوتُها من الأجرامِ العلوية . وأعلى مقامات هذه النفسِ الحَكِمة ، والحكمةُ أوفى منحة ، وأوفرُ نعمة ، وقد قال تعالى ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أُولَئِ الْأَلْبَابِ﴾ (٢٠٣) ومصيرُ هذه الأرواحِ إلى عَالَمِ الغياب ، لأجلِ الثوابِ والعقاب . وقيل حقيقةُ نفسِ الإنسان ، أيها المارِدُ الشيطان ، لطيفةٌ روحانيةٌ ، ودقيقةٌ ربّانيةٌ ، لها تعلقٌ ربّاني ، بقلبي وقالبهِ الجسماني ، وهي المدركةُ العالمةُ ، العارفةُ الفاهمة ، بها يتكلم

(٢٠١) المصنوع الكبير الصنع .

(٢٠٢) جر السج (والجناس الناقص) إلى أن سبب الشيخ العابد - على لسان المؤلف - شيخ الغاريت ، مخاطبا إليه بقوله : "يا كلب" .

(٢٠٣) قرآن كريم ، سورة البقرة : ٢٦٩ .

الإنسان ، وتبصرُ العينان ، وتسمعُ الأذنان ، وتبسطُ اليدين ، وتمشي الرجلان ، وهي للمخاطبة والمعابة ، والمثابة والمعاقبة ، والمطلوبة والمطالبة ، ويُطلق عليها لفظُ القلبِ تارة ، ولفظُ الروحِ أخرى ، ويقالُ لها النفسُ مرةً ، ولفظُ العقلِ أيضاً .

وابنُ آدم هو المخصوص بهذه الكرامات ، وبهذه النفسِ دونَ سائرِ الحيوانات ، وإن كان يُطلقُ على الجميع أنَّ لها نفساً بالاشتراك ، لكن هذه النفسُ الناطقةُ والنطقُ هو الإدراك ، واختلف أيضاً وتحيّرت الألباب ، في صنع ربِّ الأرباب ، وتاهت الأفكارُ والفطن ، في كيفية تعلُّقها بالبدن ، ولا يحصلُ لأحدٍ على هذا وقف ، إلاَّ بطريقِ الولاية والكشف . وهذا النفسُ لما كثرت صفاتها ، وتضادَّت نعوتهَا ، تخالفت أوصافها وزداد في صفاتها اختلافها ، حتى قسموها ، فقالوا أنواعها ثلاثة : ناطقة وشهوانية ، وغضبيَّة رضية . فالناطقَةُ مسكنُها الدماغ ، ولها فيه مساع ، والكبدُ مسكنُ الشهوانية ، والقلبُ مسكنُ الغضبيَّة الرضية ، فأية نفسٍ غلبت أختيها ، جذبت أحوالهما وصفاتهما إليها . وهذه يا أتعسَ زوبعة ، كالعناصر الأربعة ، فإنها إذا فسد مزاجها ، وعدلَ عن الاعتدالِ ازدواجها ، عسرَ علاجها واستحال إلى المطلوب الطالب ، وعجز عن المعالجة الطائب ، ففسد البيان ، وانهلكت الأركان . وقيل هما روحٌ ونفس ، بغير بُس ، وهما ضدَّان ، بل ندَّان ، لا يجتمعان ، ولا يرتفعان وطبعُ النفسِ يا لئيم ، طبعُك طبعُ الشيطانِ الرحيم ، كالنارِ في جوهريها ، وخاصَّةً عنصرها ، تُنسبُ إليها الصفاتُ الذميمة ، والخلالُ غيرُ المستقيمة ، كالجهل والغضب ، والحقدُ والصخب ، واللؤمُ والسفه ، والطيشُ والشسره ، والحميةُ والشهوة ، والقسوةُ والجفوة ، والحسدُ واللجاج ، والحقدُ والاحتجاج ، والحرصُ والبخل ، والتواني والكسل ، والحققُ والخيانة ، والفجورُ وعدمُ الأمانة ، والرفعُ والرياء ، والمخاصمةُ والمراء ، وسائرُ الأخلاقِ الذميمة ، والأوصافِ المشوومة

المللومة ، والملكات الخبيثة الرديّة ، والحركات الشيطانية ، فهي كالنار في إحراقها وحديثها ، واستشاطتها وشديتها ، ودخانها وهيبها ، وإهلاكها وتعذيبها ، وإقداها في إعدامها ، وأكل ما تجلده ، وما تصل إليه تفسده . وطلب العلو ، والغلبان والغلو . وطبع الروح ، يا أنحس مجروح ، طبع الماء ، في التشويع والنماء ، يُنسب إليه كل خلق كريم ، وطبع سليم ، صافي الجواهر ما لامسه تطهر ، شيمته الحياء والعلم ، والصدق والحلم ، والتفويض والتوكّل ، والتسليم والتحمل ، والاحتمال والأناة ، والصبر والموافة ، والتوّدّد والإسداء ، والسكون والإعطاء ، والركون والبذل ، والرضا والفصل ، والحياء والعدل ، والتواضع والعفة ، وعدم الترفع والخفة ، والسلامة والسهولة وسرعة الانتقاد ، واللين والوداد ، والرقة والصفاء ، والكرم وعدم الجفاء ، إلى سائر الأخلاق المحمودة ، والأوصاف المطلوبة المودودة ، وأتتهما قويت غلبت ، وجذبت الأخرى إليها وسلبت ، وسيرتها على طبعها ، واستخدمتها على ريعها ، فكمن من شيطان ، يرى في صورة إنسان ، ومن إنسان غلبت عليه أخلاق الجنان ، ومن جان في صورة إنسان . ونظير هذا الروح والبدن ، يدركه ذو العقل والفطن ، فإن الروح من عالم نوراني ، لطيف سماوي ، والبدن من عالم ظلماني ، كثيف أرضي ، فأيهما غلب على صاحبه ، جذبه إلى مركزه في جانبه . قال الله تعالى ، وعز كمالا ، وجل جلالا . ﴿ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَافِعْكَ إِلَيْنَا وَمُطَهِّرْكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾^(٢٠٤) وقال جلّ عليا ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾^(٢٠٥) وقال ﴿ وَكَوْنُوا شُعَبًا لِّرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ ﴾^(٢٠٦) فالأنبياء عليهم السلام ، صارت أجسادهم أرواحا ، والكفار مثلك صارت أنفسهم ظلمانية أشباحا . وقيل يا زويعه ، الأنفس

^(٢٠٤) قرآن كريم ، سورة آل عمران : ٥٥ .

^(٢٠٥) قرآن كريم ، سورة مريم : ٥٧ .

^(٢٠٦) قرآن كريم ، سورة الأعراف : ١٧٦ .

أربعة : أثاره وهي أنفسُ مثلك الكفار الطغاة ، ولوامة وهي أنفسُ العصاة ، وملهمة وهي أنفسُ المخلصين ، ومطمئنة وهي أنفسُ الأنبياء والمقربين . والحقُّ يا جاحدة ، ماهي إلا نفسٌ واحدة ، لكن لما تجلّت في ملايس الصفات ، وتكثرت لها الأخلاق والسمات ، نوّعوها ، وعمقتضى التنويع فرّعوها ، تنزيلاً للتنويع بالصفات ، منزلة التنويع في الذات ، فيقال كانت نفسُ هذا شيطانية، قَتَاب فصارت رحمانية ، وكانت نفسُ ذاك آيية ، فصارت دنيّة ، قال مَنْ براها : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾^(٢٠٧) .

قال العفريت : أخبرني أيها الباصر ، كيف تركيبُ هذه العناصر ؟ فقال الزاهد : بحسب الخفة واللطافة ، والثقيل والكثافة ، ولما كان عنصرُ الزاوي أثقل ، كان أركد من غيره وأنزل ، ومن فوقه عنصرُ الماء ، وفوق الماء عنصرُ الهواء ، ومن فوق هذه الثلاثة عناصر ، عنصرُ النار وهو بها محيطٌ دائر ، وكذلك كلُّ عنصرٍ محيطٌ بما تحته ، وقد حققتُ هذا وعلمته . قال العفريت : أخبرني عن أقربِ الأشياءِ إليك . قال العالمُ الأجل ، أقربِ الأشياءِ الأجل^(٢٠٨) . قال : أخبرني عن أبعدِ الأشياءِ عنك . قال العالمُ الأكبر ، ما لم يُقسم ولم يقدّر . قال : أخبرني عن الشيءِ الممكنِ عوده . قال : الدولة إن زالت ، وتغيرت واستحالت ، يمكنُ رُدّها ، ولا يستحيل عودُها . قال : أخبرني عن الشيءِ المستحيلِ عوده . قال : الشباب ، بغيرِ شكٍّ ولا ارتياب . قال : أخبرني عمّا لا يمكنُ بالاكتساب ، ولا يُنالُ إلا بتوفيقِ الوهاب . قال : العقلُ الفريزي ، فإنّه وهي عزيزي . قال : أخبرني عمّا لا يمكنُ ضبطه ، ولا ينضبط ربطه . قال : الدهرُ إذا ولّى ، والسعدُ إذا تجلّى . قال : أخبرني يا ذا الجلّة ، عن الهزلِ البلي

^(٢٠٧) قرآن كريم ، سورة الشمس : ٦ - ١٠ .

^(٢٠٨) الموت ، يقال جاء أجله : إذا حان موته .

يُرَادُّ بِهِ الْجِلَّةُ . قَالَ : إِبْرَازُ حِكْمِ الْأَمْثَالِ وَالْآيَاتِ ، عَلَى لِسَانِ الْحَيَوَانَاتِ وَالْجِمَادَاتِ . قَالَ : أَخْبِرْنِي عَمَّا لَا يُمْكِنُ الْإِحَاطَةُ بِهِ ، وَلَا الْوُقُوفُ عَلَى مَعْرِفَةِ كُنْهِهِ . قَالَ : عَظَمَةُ صَانِعِ الْكَائِنَاتِ ، وَخَالِقِ الْمَوْجُودَاتِ ، تَعَالَى أَنْ يَحَاطَ بِهِ عِلْمًا ، وَتَقْدَّرَ أَنْ تُدْرِكَ عَظَمَتُهُ مَعْرِفَةً وَوَهْمًا ، وَلِهَذَا قَالَ سَيِّدُ الْمُرْسَلِينَ ، وَحَبِيبُ رَبِّ الْعَالَمِينَ "لَا تَخْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ" وَقَالَ "سُبْحَانَكَ مَا عَرَفْنَاكَ حَقَّ مَعْرِفَتِكَ" وَهَذَا مُصَدِّقُ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾^(٢٠٩) .

فَلَمَّا طَالَتِ الْمَقَاوِلُ ، وَانْتَهتْ إِلَى هَذَا الْكَلَامِ الْمَجَادِلَةُ ، أَقْبَلَ اللَّيْلُ ، وَحُلَّ بِالْعَفْرِيتِ وَجُنْدِهِ الْوَيْلُ ، وَتَصَدَّعَ الْمَجْلِسُ ، وَقَامَ الْعَفْرِيتُ وَهُوَ مُثَلِّسٌ ، وَتَوَاعَدُوا إِلَى الصَّبَاحِ ، عِنْدَ قَوْلِ "حَيٍّ عَلَى الْفَسَاحِ" ، أَنْ يَجْتَمَعَ الْوُجُوهُ الصَّبَاحُ ، لِرَدِّ جَوَابِ الشَّيَاطِينِ الْقُبَاحِ ، فَتَفَرَّقُوا وَقَدْ أَحَاطَ بِالْعَفْرِيتِ الْوَهْمُ ، وَنَفَذَ فِي أَحْشَائِهِ مِنْ سَهَامِ السُّذْلِ أَقْطَعُ سَهْمِ ، وَبَاتَ لَا يَفْرُلُهُ قَرَارٌ ، وَلَا يَأْخُذُهُ اصْطِبَارٌ ، وَسَاوَرَهُ الْافْتِكَارُ ، وَتَسَاوَرَهُ الْهَمُّ وَالْدِمَارُ ، وَالْغَمُّ وَالْبَوَارُ .

إِلَى أَنْ أَضَاءَ الصُّبْحُ كَاخُفٍّ مَقْبِلًا وَوَلَّى ظِلَامُ اللَّيْلِ كَالْجَهْلِ مَدْبِرًا

فَاجْتَمَعَ مَنْ كَانَ بِالْأَمْسِ حَاضِرًا ، وَمَنْ سَمِعَ بِمَحْضُورِهِمْ وَلَمْ يَكُنْ نَاضِرًا ، مِنْ جَمْعِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ، وَأَخَذَ كُلُّ مَقَامَةٍ ، وَابْتَدَأَ الْعَفْرِيتُ كَلَامَهُ ، وَقَالَ : مَا مَنَبُحُ الصِّفَاتِ الْحَمِيدَةِ ، وَالشَّمَائِلِ السَّعِيدَةِ ، لِلْمَارِّ ذِكْرُهَا ، الْقَارِّ أَمْرُهَا ؟ وَهِيَ يَا هَذَا نَتِيجَةُ مَاذَا ؟ فَقَالَ الْعَالِمُ الْحَقِيقُ ، الْعَامِلُ الْمُدَقِّقُ : هِيَ ثَمَرَةُ الْعَقْلِ الْقَوِيمِ ، الْمَهَادِي إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ ، وَيَكْفِي الْعَقْلُ الشَّرِيفُ ، أَنَّهُ مَنَاطُ التَّكْلِيفِ ، لَهُ اللَّهُ يُخَاطَبُ ، وَبِهِ يُثِيبُ وَيُعَاقِبُ ، وَبِهِ يَأْخُذُ وَبِهِ يُعْطَى ، وَتَابِعُهُ يَصِيبُ وَلَا يَخْطِئُ^(٢١٠) . وَكَلَّمَا كَانَ الْعَقْلُ أَتَمَّ ، كَانَتْ عَاسِنُ الْأَخْلَاقِ أَهَمَّ ، وَكَلَّمَا كَانَ رَأْيُ الْعَاقِلِ أَصَوَّبَ ، كَانَ فِي اقْتِنَاءِ

^(٢٠٩) قُرْآنُ كَرِيمٍ ، سُورَةُ الْأَنْعَامِ : ٩١ .

^(٢١٠) عَقِيفٌ : يَخْطِئُ .

مكارم الأخلاق أرغب . قال العفريت : فهل هو نوعٌ متحد ، أو طريقه متعدده ؟ قال الشيخ : العقل نوعان ، وحكمه واحد لا يختلف فيه اثنان ، أحدهما العقل البريزي اللطيف ، وهو مناط التكليف ، يحدته الرحمن ، ويتدرج إلى بلوغ الإنسان ، فيكمل إما بالسن أو الاحتلام ، ويجري عليه إذ ذاك قلم الأحكام ، ويدخل في حيز المعاطين من ذوي الأحلام ، ويترتب عليه الحساب والعقاب من الحلال والحرام ، والثاني يحصل بالاكتمال ، والتحرية في كل باب ، ولهذا يقال : إن الشيوخ أكمل عقلاً من الشباب . وقيل : مَنْ بَيَّضَتِ الْخَوَادِثُ سَوَادَ لَمَتِهِ ^(١١١) ، وَأَخْلَقَتْ ^(١١٢) التَّجَارِبُ لِبَاسَ جِدَّتِهِ ، وَأَرْضَعَهُ الدَّهْرُ مِنْ وَقَائِعِ الْإِيَّامِ أَخْلَافَ ذُرِّيَّتِهِ ، وَارَاهُ اللَّهُ تَعَالَى لِكُفْرَةٍ مِمَّا رَسَمَتْهُ ، تَصَارِيفَ أَقْدَارِهِ وَأَقْصِيَّتِهِ ، كَانَ حَلِيداً بَرَزَانَةَ الْعَقْلِ وَرَجَاحَتِهِ ، فَهُوَ فِي قَوْمِهِ بِمَنْزِلَةِ النَّبِيِّ فِي أُمَّتِهِ . قال بعض الحكماء "كفى بالتجارب تأديبا ، وبقلب الأيام عظة" . وقالوا "التجربة مرآة العقل" وقال :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْعَقْلَ زَيْنٌ لِأَهْلِيهِ وَلَكِنْ تَمَامُ الْعَقْلِ طَوْلُ التَّجَارِبِ

قال العفريت : ما فائدة العقل ؟ قال العالم : فائدته الإرشاد ، في يبداء الجهالة إلى جادة الرشاد ، والإعانة في الشدائد ، والوقوع في مصائد المكائد ، وحصول الخلاص ، من شرك الاقتناس ، وإجابة الإغاثة ، عند الاستعانة والاستغاثة ، ومدة المعونة ، إذا انكسرت من الجبل السفينة ، في بحر اللامة ، والخلاص إلى بر السلامة ، والإغناء من كثر السعادة ، والصبر عند استيلاء نواصب الفقر .

قال : فَمَنْ الْعَاقِلُ فِي الْعَالَمِ ؟ وَمَنْ يَطْلُقُ عَلَيْهِ هَذَا الْاسْمُ مِنْ بَنِي آدَمَ ؟ قال العالم : الْعَاقِلُ مَنْ يَحْتَمِلُ إِذَا أَضْيَمَ ، وَمَنْ هُوَ فِي الْغَضَبِ حَلِيمٌ ، فَإِذَا أُعْطِيَ شُكْرًا ، وَإِذَا مُنِعَ صَبْرًا ، وَيَعْفُو إِذَا قُتِرَ ، وَيَسْتَهْيِئُ بِأُمُورِ الدُّنْيَا ، وَلَا يَفْغُلُ عَنْ أُمُورِ الْآخِرَى .

^(١١١) شعر الرأس الملبس شحمة الأذن .

^(١١٢) أخلق الثوب : تلي .

قال العفريتُ : ما الفائدةُ في حبِّ الدنيا ، والرغبةُ إلى ما فيها من الأشياء ؟ ولأيِّ معنى غلبَ الحرصُ والهوى والرغبةُ فيها ، على أهلِها وبنيها ؟ قال العالمُ : لأجلِ قيامِ العالم ، وانتظاريهِ على المنهجِ الأقوم ، وبقائه المطلوب ، إلى الأجلِ المضروب ، الذي قدرهُ موجدُهُ القديم ، الذي أنشأهُ أَوَّلَ مرَّةٍ وهو بكلِّ خلقٍ عليم ، ولا بدَّ من أن تيسمَ كلمته ، وتنفذ مشيئته ، ولولا الحرصُ والأمل ، لبطلَ العلمُ والعمل ، فأنهما لحجابِ الغفلةِ يغشيان أعينَ البصائر ، وينطيان طرقَ الاستدلالِ والضمائر ، فلذلك ذهلتُ^(٣١٢) العقولُ عن التأملِ في العواقب ، واشتغلتْ بالتهاتها عما يجبُ عليها أن تراقب ، ولولا طولُ الأمل ، لَمَا رَجَى العمل ، ولَمَا انتظمَ أمرُ المعاش ، ولا أهتمَّ لأذخارِ قوتِ ورياش ، ولا افكرَ صاحبُ اليومِ في أحوالِ غد ، ولا ارتفعتِ المعاملاتُ وما دأبَ أحدٌ أحد ، ولا زرعَ زارعٌ ولا غرسَ غارس ، ولا بنى باني ولا انحضرَ يابس ، ولا تنقرضَ إذ ذاك نظمُ العالم ، وباتقراضِهِ تنقرضُ أمورُ بني آدم .

قال العفريتُ : أخبرني عن أصلِ الإنسان ، وممَّ جوهرُهُ وجوهرُ الملكِ والجان ؟ قال الشيخ : أمَّا جوهرُ الملكِ فمِنَ العقلِ المحض ، براهُ ربُّ السمواتِ والأرض ، ولذلك لا يصدرُ من الملائكة ، إلَّا الشيمُ المباركة ، من الطاعاتِ لمولاهم ، والانقيادِ لأوامرِ مَنْ أنشأهم ، وامتنالِ ما أَمَرَ من أمرٍ مروم ، وما منَّا إلَّا لَهُ مقامٌ معلوم ، لا يعصون اللهَ ما أمرهم ويفعلون ما يُؤْمَرُونَ . وأمَّا جوهرُ الجان ، وأصلُك يا أحسنُّ شيطان ، فمِنَ الأخلاقِ الذميمة ، والصفاتِ المشوومة ، فلهذا لا يوجدُ منكم إلَّا المكرُ والبياسة ، والشيطنةُ والوسوسة ، وأنحسَ بصفاتِكُم مِن صفة ، ولم يكنْ بينكم وبين الحقِّ معرفة ، فأنتم يا أنحسَ بغِيض ، وأنحسَ نهِيض ، مع الملائكةِ في طَرْفِي نقيض . وأمَّا جوهرُ الإنسانِ فمِمَّا اشتملتْ عليه صفتا الملكِ والجان ، فمَنْ غلبَ عقلُهُ

^(٣١٢) ذهلت : غفلت ونسيت .

شهوته ، ألبس من مكارم الشيم خلعتة ، واضمحلت ظلمات نفسه في أنوار الطاعة ، وتجلت صفات ذاته من سنن الأبرار في جماعة ، وخط رسم اسمها قلم الكرام الكاتبين ، ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ . وَمَا أَذْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ، كِتَابٌ مَرْقُومٌ يَشْهَدُهُ الْمُرْسَلُونَ﴾^(٢١٤) فهو وإن كان بجسماته مع الإنس ، له حضور وأنس ، لكن يسره في عالم الملكوت حضرة القدس ، فهو بصفاته المباركة ، أشرف من الملاحكة . ومن غلبت شهوته عقله ، واستولت على قلبه حجب الغفلة ، فانغمس في بحر الشهوات ، واستحوذتم أنتم عليه بذيَم الصفات ، وأشقاه القدر السابق ، ولم يعقكم عن التصرف فيه عائق ، فهو بالنهار ساه ، وبالليل لاه ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ ، فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ، أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ، أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾^(٢١٥) فهو أخس من أرذل الحيوانات ، وأدنى من أدك^(٢١٦) الجمادات ، فقد خاب مأباً ، وتعين انقلاباً ، ويقول يوم القيامة : ياليتني كنتُ تراباً .

قال الراوي فلما انتهى الكلام ، إلى هذا المقام ، أمسك العفريت عيناته ، وأحرم الله لسانه ، وظهر فضل الزاهد وعلمه ، وفور حِكْمِهِ وحُكْمُهُ وفهمه ، وأنه أصاب ، فيما أحاب ، ولزم العفريت ، ومن معه من الجن والعفاريت ، وطوائف المردّة والشياطين ، والعنّة المتمردين ، وذوي الإبلas ، والوسواس الخناس ، ما شرطوه على أنفسهم من التحقّي وعدم الظهور ، والتفرّق في الخرائب والكفور ، فتفرّقوا واختفوا ، ومُصَلِّمين^(٢١٧) ومُجَدِّعين^(٢١٨) انتفوا ، وسكنوا الخرائب

^(٢١٤) قرآن كريم ، سورة المطففين : ١٨ - ٢١ .

^(٢١٥) قرآن كريم ، سورة المجادلة : ١٩ .

^(٢١٦) أدك : أضعف ، أقل ، وهي الهمزة التي استوت بالأرض .

^(٢١٧) للمسلم : الأصل الذي قطعت أذانه كناية عن الذلّ والمهانة .

^(٢١٨) الجُدْع : الأجدع ، وهو الذي قطعت أنفه وجذعت ، كناية عن الذلّ والمهانة .

والحمائم ، والحانات والحانات ، فلم يظهروا بعد ذلك للإنس ، وحصل منهم
بذلك للإنس الأنس ، واستراحوا من مشاهدة طلعتهم القبيحة ، واستمرت إلى يوم
القيامة من تلك القبائح مستريحة .

وهذا آخر الباب ، والله أعلم بالصواب ، والحمد لله

رب العالمين ، وعلی الله علی سيدنا محمد

وآله وصحبه أجمعين .

الباب الخامس

فأى نواذر ملك السباع

ونديميه أمير الثعالب وكبير الضباع

قال الشيخ أبو المحاسن ، المرتوي من بحار الحكمة . بماء غير آسن : فلمّا أنهى الحكيم ، هذا الباب العظيم ، عن عالم الإنس والشيطان الرجيم ، تنبّه الملك لغزارة حكمه فأفرغ عليه خلج إحسانه وكرم ، وغمّسه في غدير فضله ونعمه . ثمّ أمر أن يقوّي الطباع ، ويذكر نواذر الوحوش والسباع ، لتبسط النفس وترتاض ، وتحلّى بعقود عقيد هذه الأحماض^(١) ، فقبّل أرض العبوديّة بشفاه الأدب ، وانتفض لأداء ما عليه من المراسيم وحّب ، وقال : كان في بعض الغياض ، أسد رياض^(٢) ، عظيم الصورة ، كريم السريّة والسيرة ، وأني الحشمة ، عالي الهمة ، كثير الأسماء والألقاب ، عزيز الأصحاب ، كبير بين الأمراء والحجّاب ، والوزراء والنواب ، يُدعى في جوانب مملكته ، وأطراف ولايته ، بمحلبة ويّهس ، وضيفم والدنوكس ، والغضبب والضُرغام والعنيس ، والطيشار والمُنيس ، والغضنفر والمرماس ، والغضببان وأبي العباس^(٣) ، إلى سائر الأسماء والألقاب والكُنَى ، وكثرة الأسماء تدلّ على

(١) الأحماض : يقال أحماض القوم أى كلفوا فيما يؤنسهم من الحديث الشاق والكلام المتعب .. والمنزل يراد به جنداً .

(٢) رياض : مقيم ، رابض .

(٣) محلبة ، ويّهس ، وضيفم ، والدنوكس ، والغضبب ، والضُرغام ، والعنيس ، والطيشار ، والمُنيس ، والغضنفر ، والمرماس ، والغضببان ، وأبو العباس : جميعها أسماء وصفات وألقاب وكنى للأسد القوى الجريء الذي تهابه سائر أسود الغابة .

شرفِ المسَمَّى ، وهو مطاعٌ في ممالكِهِ وولاياتِهِ وأقاليمِهِ ، برُشِفَتْ ثُغُورُ الامتثالِ
بشفاءِ أمثلتِهِ ومراسيمِهِ ، وكان لَهُ من خواصِّ النُدَماءِ ، وكبراءِ الجلساءِ ، نديمان
كنديمانِيٍّ جَنِيمةً^(١) ، يُلازِمَانِ حَضْرَتَهُ وَيَلْجَأَانِ حَرِيمَهُ ، أَحَدُهُمَا لَعَلْبٌ يُدْعَى أَبَا
نَوْفَلٍ^(٢) ، وَآخَرُهُ ضَبِيعٌ يَسْمَى أَخَا نَهْشَلٍ^(٣) ، طَبِيعُهُمَا ظَرِيفٌ ، وَشَكْلُهُمَا لَطِيفٌ ،
وَمَحَاضِرُهُمَا مَرْغُوبَةٌ ، وَصَحْبَتُهُمَا مَطْلُوبَةٌ . وَكَانَ فِي خِدْمَتِهِ ذُبُّهُ هُوَ وَزِيرُهُ ،
وَمَعْتَدُهُ وَمَشِيرُهُ ، كَافِلُ أُمُورِ مَمْلَكَتِهِ ، وَمُدَبِّرُ مَصَالِحِ رَعِيَّتِهِ ، وَالْمَلِكُ مَفْضُضُ أُمُورِ
الرَّعِيَّةِ إِلَيْهِ ، وَمَعْتَمِدٌ لِمَا يَعْلَمُ مِنْ كَفَايَتِهِ عَلَيْهِ ، وَمَشْغُولٌ لَيْسَلاً وَنَهَاراً بِمَعَاشِرَةِ
نَدِيمِيهِ . فَاتَّسَعَ خِيَالُ الْوَزِيرِ ، وَأَحْذَى فِي مَجَالِ التَّفَكُّيرِ ، إِلَى النَّدِيمَيْنِ ، لِكُونِهِمَا
نَاصِحَيْنِ قَدِيمَيْنِ ، رَبَّيْنَا يَصْدُرُ مِنْهُمَا عِنْدَ الْمَلِكِ مَا يَحِطُّ مَنْزِلَتُهُ ، وَيُفْسِدَانِ لِلْحَسَدِ
الَّذِي لَمْ يَحُلْ مِنْهُ جَسَدٌ صَوْلَتُهُ ، وَاسْتَحُوذَ عَلَيْهِ هَذَا الْخِيَالُ ، وَاتَّسَعَ فِي مِيدَانِهِ
الْجَمَالُ ، فَكَانَ خَائِفاً عَلَى وَظِيفَتِهِ وَمَنْصِبِهِ ، مَرْتَقِباً مِنْهُمَا مَا يَكُونُ عَزْلُهُ بِسَبَبِهِ ، فَتَشَأُ
مِنْ ذَلِكَ فِي خَاطِرِهِ جَسَاوَةً^(٤) ، أَوْرَثَتْهُ قَسَاوَةً ، وَجَذَبَتْهُ إِلَى عِدَاوَةٍ ، وَوَقَّرَ فِي قَلْبِهِ
ذَلِكَ وَتَأَكَّدَ ، وَطَالَ عَلَيْهِ مِنَ الدَّهْرِ الْأَمَدُ . فَكَانَ يَتَرَقَّبُ لِهَما الْقِرْصَ ، لِبُوقَعِهِمَا
مِنَ الْفُصْصِ فِي قَفْصٍ ، وَيَسَابِقُهُمَا قَبْلَ انْتِيَابِهِ^(٥) ، وَيَتَغَذَّى بِهِمَا قَبْلَ أَنْ يَتَعَشِيَا بِهِ .
وَيَقُولُ لَا بُدَّ مِنْ تَنْظِيفِ الطَّرِيقِ ، قَبْلَ حَصُولِ التَّعْوِيقِ ، وَقَدْ أَحْسَنَ مَنْ قَالَ ،
وَأَتَقَنَ فِي الْمَقَالِ :

^(١) وَقَدْ قُتِلَ نَدِيمُهُ فِي حُلْفَةِ سَكْرٍ ثُمَّ دِمَ بَعْدَ ذَلِكَ نَدِماً كَبِيراً .

^(٢) مِنْ مَعْنَى التَّوَفَّلِ : الْيَجِرُ ، وَرَجُلٌ نَوْفَلٌ : مَعْطَاءٌ وَظَرِيفٌ ، وَالتَّوَفَّلُ كَيْفَا : الشَّابُّ الْجَمِيلُ لَكِنْ أَبَا نَوْفَلٍ هُنَا اسْمٌ لِلْعَلْبِ أَوْ بِالْأُخْرَى كَتَبَهُ لَهُ .

^(٣) مِنْ مَعْنَى التَّهَشُّلِ أَيْضاً : الذُّلُّ ، الصَّغَرُ لَكِنْ أَخَا نَهْشَلٍ هُنَا اسْمٌ لِلضَّبِيعِ أَوْ بِالْأُخْرَى كَتَبَهُ لَهُ .

^(٤) جَسَاوَةٌ : غَلْظَةٌ وَثَقُورٌ .

^(٥) انْتِيَابُهُ : أَنْ تَعْمَلَ بِهِ تَأْبَةً أَوْ مَصِيبَةً .

وَمَنْ لَمْ يَرْخُ عَنْ دَرِيهِ الشُّوكَ قَبْلَ أَنْ يَطَاةَ فَلَا يَعْصِي إِذَا شَاكَ^(٩) رَجُلِيهِ
وأقلُّ الأقسام ، أن يبعدهما عن حضرة الملك الممام . فاتفق أن في بعض الأسحار ،
تجاذب الملك وندعاه أطراف الأسعار ، فأثر فيهم السهر ، لطبيب السم ، في ضوء
القمر ، وحلاوة ما جَنَوْا منه من ثمر ، عاملين بما قيل :

مَعِيَ مَا أَصَادُ مَنْ أَحَبُّ بِخُلُوفِ أَصْرَحَ بِمَا أَرْجُوهُ مِنْ مُتَكَمِّمٍ
يَقُولُ فَأَصْبِي أَوْ أَبْتُ فَيَنْشَنَ لِيَسْمَعَ قَوْلِي كَالشُّوْقِ الْمُتِمِّمِ
أَسَايِرُهُ لَا أَنْ أَمْلُ حَلِيضَهُ . وَأَمْرُهُ كُلُّ الْأُمُورِ سِوَى نَمِّ

فأخذت الملك عيناه^(١٠) ، فاستند إلى متكأه ، فأنخل من طرفه وكأه^(١١) ، فلم
يتمالك أبو نوفل أن ضحك ، لما غنت زماره للملك ، فنتبه من ضحكته ، وتعجب
من جرائته وضحكه . ثم استمر متناوياً ، لينظر ما يصدرُ منهما فابتدره أخوه نهشل
وزجره ، فقال : ويلك ماذا رأيت ، وأي عجب سمعت ووعيت ، حتى ترتبك في
الضحك أما قرأت وفهمت ، وسمعت وعلمت ، أن الضحك بلا سبب من قلة
الأدب ، وأن الحشمة ، وسائر الخدم ، ومن نادى الملوك وجالسهم ، يحرق أمورهم
ويعظم مجالسهم ، سواء غابوا أو حضروا ، ناموا أو سهروا ، قاموا أو قعدوا ،
استيقظوا أو رقدوا ، وقد قيل : رُفِعَ قَلَمُ الْحِسَابِ ، وَالضَّبْطُ وَالْعِتَابُ ، عَنِ الصَّبِيِّ
وَالْمُجَنُّونِ أَوِ الْعَاشِقِ وَالْمُفْتُونِ ، وَكَذَلِكَ السُّكْرَانُ ، وَالنَّائِمُ وَلَا سِوَا السُّهْرَانِ ، وَغُنْزُ
النَّائِمِ يَأْمَسُ كَيْنَ ، أَغْظَمُ مِنْ عَذْرِ الْبَاقِينَ ، فَإِنَّ النَّوْمَ أَنْتَوِ الْمَوْتَ ، وَفِيهِ مَا لَيْسَ فِي
غَيْرِهِ مِنَ الْقُوَّةِ . وقد قال صاحبُ الشَّرع ، الذي زكا منه الأصلُ والفرع ، حفظه

^(٩) شاك : دخل الشوك في نفسه .

^(١٠) أخذت الملك عيناه : كناية عن النوم .

^(١١) متكأه : التكا أو المسند ، وكأه غف وفكاه وهو الخيط الذي يُشدُّ به البأس أو الصرة أو الثوب أو غيره
ذلك .

الله مجود الصلاة والسلام وجرسه "يعتذر عن النائم العين وكاء" (١٢) آله (١٣) ، وقال ذو الصديق والتصديق ، "رُفِعَ قَلَمُ التَّكْلِيفِ عَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَفِيقَ" وإنما اعتبر الشرع أحوال النيام ، وسأواهم باليقظي (١٤) صونا لبعض الأحكام ، في نحو من خمس وعشرين مسألة ، ضبطها من الفقهاء [الحكماء] الكثرة . ولقد طالعت في كتاب الأخلاق ، أن الله الكريم الخلاق ، حيث جعل جنساً من الأمم ، في طبائع وصفاته متساوي القدم : فلا يعتب أحد أحدًا ولا يزدريه ، ولا ينقم عليه عيباً هو فيه ، وعلى الخصوص إذا صدر من الملوك شيء يعاب ، فلا يحمل ذلك منهم إلا على الفضل والصواب . وكل ما كان في غير الملوك معتبة ، فإنه إذا صدر من الملوك يُعدُّ منقبة (١٥) . ويجب على من يجالس الملوك ، وكان له في خدمتهم سلوك ، واختص بمحاضرتهم ، واستعد لمناظرتهم ، أن لا يصبر منهم إلا المحاسن ، ولا يخبر عنهم إلا بالأحاسن ، وقد قيل : من جالس الملوك بغير أدب حيسه ، فإنه خاطر بروحه وعرض للبلاء نفسه ، وقال الله الأعظم في كتابه المحكم لنبيه ﷺ ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ (١٦) ولهذا قال النبي ﷺ "شيتني هود وأحواتها" .

وماساد العجم والعرب ، إلا بسلوك طريق الأدب . وقال عليه الصلاة والسلام "أَدْبِي رُبِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيهِ" فقال المغفل ، أبو نوفل ، إذا طهر القلب من الخيانة ، وعاملت اليد بالأمانة ، وتنفى العرض عن العيوب ، وكان اللسان غير كذوب ، وزكت النفس بالحلم ، وعريت عن الجهل بلبس العلم ، يصلح لها أن تسخر بكل

(١٢) الوكاء : التكى نكماً أو بالأحرى الانكاء نوما .

(١٣) ليس فلان أسا : احتلط عقله . (كتابة عن هلوسه أو ما يتلوّه به ناكما) .

(١٤) اليقظي : اليقظ واليقاظ عكس النيام .

(١٥) منقبة : فضيلة .

(١٦) قرآن كريم ، سورة هود : ١١٢ .

أحد ، وتفخرَ على أكبرِ مَنْ يكونُ ولو أنه الأسد ، وأنا إذا طار بهذه الصفاتِ طيري ، فلا عليّ إذا ضجّكتُ على غيري . فقال أخو نهشل : لا تقل ذلك لا ، واستعِذ بالله من الجهل والخيل^(١٧) . واعلم يا ذا الكرامات ، أن الجاهل يُعرفُ بثلاثِ علامات : إحداها يا محبوب ، أن يرى نفسه عاريةً عن العيوب ، الثانيةُ يا رفيقَ الخير ، أن يرى نفسه أعلمَ من الغير ، الثالثةُ أن يرى أنه انتهى في فنونِ العلم والنهي ، وبلغ أعلى المراتب ، وهذا أكبرُ المعايير . وقالت الحكماء : إذا رأيتَ نفسك عاريةً عن العيوب ، وتصديتَ لاتباعِ عثراتِ الناسِ بالغيوب ، وفششتَ عن عيوبهم الجيوب ، فأنت حيثُ غارقٌ في بحرِ العيوب ، وبالذي أنت طالبةٌ مطلوب ، وانظرْ يا ذا السكينة ، ماذا قاله الإمامُ مالكٌ رضي الله تعالى عنه خبر^(١٨) المدينة "ليكنْ جلُّ مطلوبك ، حرصك على تفقدِ عيوبك" وقم بذلك عن نفسك وذاتك ، مقامَ حُسادك وروقيائك وعُداتك^(١٩) . وقال ذو هدى ، وما قال سدى :

لكلِّ في خُروجٍ من العيبِ مِطْطى على كفه منهُ ومن أهلِ دهره
فَتَيْنِ عيوبِ الناسِ^(٢٠) تُصَبِّ عيوبه وعينُ عيوبِ النفسِ من خلْفِ ظهوره

فقال أبو نوفل صدقت ، ونصحت إذ نطقْتَ ، فجزاك الله عني خيرا ، ووقاك شرًّا وضيرا . ولكن يا أخي وقعتُ هفوة ، على سبيلِ السّهوة ، وحصلت زلّة ، على غفلة ، واللفظُ عن غيرِ نظر ، كالسهم إذا رُمي عن الوتر ، لا يمكنُ رُدُّه ، ولا وقوفه وصلته ، كما قيل :

القولُ كاللبنِ المخلوبِ ليس له رَدٌّ وكيف يُرَدُّ الحالبُ اللبن

(١٧) مخفف : الخيلاء .

(١٨) البحر : العالمُ الفقيه .

(١٩) عُداتك : جمعُ العادي ، وهو العنوّ .

(٢٠) نصب : أمام .

ولكن الذنب والاجترار^(٢١) ، إذا لم يشتهدا ، لا يتوجه عليهما العتاب ، ولا يستحق مرتكبهما العقاب ، إذا استغفر وأناب ، وأنا وإن وقع مني الخطأ ، آمن بحمد الله من شر الجزا ، ومن المواجهة بالجرمة ، وإن كانت عاقبتها وخيمة ، لأنها بينك وبينى ، وأنست بمنزلة روحى وعيى ، ورفيقى وصاحي ، ومراعى حقى وجاني ، فسرى عندك مَصُون ، وأمرى عن الإشاعة مخزون . وقد قال الحكماء ذوو التجارب ، لا تُودع السر إلا عند صاحب ، صدوق صديق ، ومحبر شفيق ، وأنت هو ذاك الموثوق ، فاطرحه من سويداء قلبك في أسفل الصندوق ، فإن استمر عندك ساكنا ، صرت من وبال أمره آمنا ، ولا يبعد ذلك من شفقتك ، وسابق صداقتك ، وفائك بالروة ، وقياييك بحقوق الأخوة . وأسأل إحسانك أن تحمب لصاحبك القديم مرجوة . قال أخو نهشل : أعجب لأبي نوفل ، كيف يغفل ، أما سمعت يا عاقل ، قول القائل ، من علامات الجاهل : أن يقرض ماله باللطف ، ثم يتقاضاه بالفظاطلة والعنف ، وأن يودع سره ، وخفاياه وأمره ، عند من يحتاج أن يتصرخ إليه ، ويقسم في إخفائه واكتامه عيه ، ثم يحلفه أن لا يُئديه ، ولا يذكره لأحد ولا ينهيه ، وقد قالت الحكماء : لا تودع أحدا سرا فإن فعلت فأتك السر ، لأن كتمانك قيدهم وعناء ، وإبداءك كيد هلاك وبلاء . وقد قيل :

وكل سر جاور الاثنين شاع وكل علم ليس في القوطاس ضاع

لم يقصد بالاثنين ، إلا الشفتين . وقال الشاعر :

إذا ضاق صدر المرء عن سر لفيه فصدر الذي يستودع السر أضيق

وقال أيضا :

لا تودعن ولا الجماد سريرة فمن الحجارة ما يسر وينطق
وإذا المحك أضاع سر أخ له وهو الجماد فمن به يستونق

(٢١) الاجترار : تخلف الاجراء .

وقال أيضا :

مَنْ السَّرُّ عَنْ كُلِّ مُسْتَعْبِرٍ وحاذِرٌ لِمَا الْحَزْمُ إِلَّا الْخَلَرُ
أَسِيرُكَ سِيرُكَ إِنْ صَنَعْتَهُ وَأَنْتَ أَسِيرٌ لَهُ إِنْ ظَهَرَ

وكَلِمًا تَحْرُكُ بِهِ اللِّسَانُ ، انتشر في الكونِ والمكان . وناهيك يا تامر ، قضية
الحرامي مع الطامر . قال أبو نوفل ، كيف تلك يا أخا نهشل ؟

[١/٥] قصة الحرامي مع الطامر

قال : بلغني أَنَّ رجلاً من الحرامية ، واللصوص الكرامية^(٢٢) ، كانت نفسه ذات
الخيانة ، تَحْرُضُهُ على الدخولِ من حواصلِ الملك^(٢٣) إلى الخِزَانَةِ ، وإنها لِرُؤْيَا الخِزَانَةِ
مُشْتَاقَةٌ ، وَلَمَعَانَقَةٌ فَاسَقِ التحريمِ عَشَاقَهُ ، وكان جَاهِداً في أَنْ يعطيَهَا ، من مَنَاهَا ما
يرضيها ، ولكن كانتْ نجومُ الحُرَاسِ بالرصد^(٢٤) ، ولرجوع ذلك الشيطانِ كُلِّ
يَعْدٍ ، وَكَتَمَ ذلك السَّرُّ عن الإخوان ، ومضى عليه برهة من الزمان ، وهو يُكَايِدُ
اكتنامه ، ويخاف من السوءِ اختامه ، والقدرُ كائن ، والكائنُ حائن ، إلى أَنْ طَفَحَ
عليه ما قصد ، وغلا خَمَرُ سرِّهِ في قلبه وقذف بالزبد ، فطلب صاحباً يَتَلَقَّظُ بِهِ
إليه ، ويعتمدُ في اكتنام سرِّهِ عليه ، واختلى في حجرته ، فَقَرَصَهُ برغوثٌ في
حجرته ، فمدَّ يَدَهُ إليه ، وأَفْشَى سرِّهِ معتمداً عليه ، وقال في خاطره ، عند إفشاء
سرائره ، لا لهذا لساناً يقدِرُ على البيان ، وعلى تقديرِ أَنْ لَوْ كان ، فهو مثل
ولدي ، ترى من دَمِ كَيْدِي ، ولحمِ جَسَدِي ، وأُطْلِعَ على عورتِي ، فلا يقصدُ
عترتي ، ولا يكشفُ سرِّي ، ولا يهتِكُ سِتْرِي ، ثُمَّ أَذْنِي فَأَهْ حَتَّى وافاه ، وقال : يا

^(٢٢) الكرامية : يعني اللصوص الذي لا يقبون المنازل ، وإنما يصعدون عليها بالكَرِّ ، وهو حل من ليف يصعد به .

^(٢٣) حواصل الملك : خزائن الملك بعامية ، بما فيها خزائن للذهب والفضة (الأموال) .

^(٢٤) الحراسة والمراقبة .

أبا طاهر^(٢٥) ، وكاتم السرِّ في السَّرَّاتر ، إني عزمْتُ كالمتهمك ، على الدخول إلى خزائن الملك ، لأستصفيها ، وأخذَ ما فيها ، فاكمَ هذا السرُّ عني ، وامضْ من شئتَ من الدم مني ، ثمَّ طرحة في سراويله ، واستمرَّ في يَتَيْهِ على أباطيله . ثمَّ قصده في بعض الليالي ، ما كان يخلو به على التوالي ، ويرصده في المكامن ، من الدخول إلى الخزائن ، فلاحَتْ له فرصة فأنتهزها ، واستعمل دقائق صنعه وأبرزها ، وانتقل من ذلك إلى البيت ، ولطىء^(٢٦) تحت سرير الملك كالعفريت ، والملك نائم فوق السرير ، على فراش الحرير ، معانقَ الظبي الغرير ، وخرزه التاج عند رأسه تقدَّ^(٢٧) : كأنها سراجٌ متقد . فقصده اللصُّ أخذها ، واقتطاعها فلذها ، فأمهل القوم ، إلَّا أن استغرقوا في النوم ، وبينما هو متفكِّر فيما به ، إذ خرج البرغوث من ثيابه . ودخل إلى حسدِ السلطان ، وقصَّ عليه بلسانِ القرص ، كلَّ ما كان من شأنِ اللصِّ . فنهض الملك من مرقده ، فرأى نقطة على جسده ، فطلب النور ، لينظّم الأمور ، فرأى برغوثاً طار ونزل تحت السرير ، فقصوا أثره على المسير ، فوجدوا الخرامي الكسير ، فربطوه كالأسير ، ووقع في الأمرِ العسير ، بالأمرِ اليسير ، فصار كما قيل :

مشى برجليه غملاً نحو مصرعه ليقتني الله أمراً كان مفعولاً

وإنما أوردتُ هذا المثل ، لتعلم يا أبا نوفل ، أنَّ سرّاً في القواد ، لا يؤمنُ عليه الجملاد ، فضلاً عن متحرِّكٍ من حيوان ، ونعوذُ بالله إنَّ كان من جنسِ الإنسان

^(٢٥) أبو طاهر : كنية البرغوث ، لأنه يطرأ إلى أسفل أو في الأرض بمعنى يذب ويقفز ويستعفى ، فلا يبرحها إلا أثره .

^(٢٦) لطىء : لرك بالأرض واعتباً ، ولم يكده يتحرك ، واللطاة اللصوص يكتنون بالقرب منك يلازمونك كاسنين .

^(٢٧) تقدَّ : تتلاها .

وقد قيل : للحيطانِ آذان ، ومن أمثال العجم الأوباش : للديوان أكواش^(٢٨) . فلمّا انقضى هذا الكلام ، وكان الأسد قد استوفاه على التمام ، وقد أثار في أحشائه لها ، نهض من مرقده متلثاً غضباً ، واستحال وتحرك وأمر بأبي نوفل قبضوا عليه ، ووضعوا الغل^(٢٩) في رقبته والسلاسل في يديه ورجليه ، وأمر إلى السجن برفعه ، بعد التنكيل به وصفيعه ، فتشوش خاطر صديقه ، وجلسه ورفيقه . ثمّ انقضى المجلس النظيم ، ودخل الملك إلى الحريم . فتوجه أخو نهشل ، إلى السجن المقفّل ، ولام صاحبه أبا نوفل ، وزاد في التعنيف ، وقال أيها الأخ الظريف ، ألم تعلم أنّ الشخص إذا تكلم ، يُضَيَّبُ كلامه عليه ، ويعودُ محصول ما يلفظُ به إليه ، وقد قال الربُّ الحميد ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾^(٣٠) وأنّ كثرة الكلام ، تضرُّ بالنفس أكثر ممّا يضرُّ بالبدن الطعام ، وكلُّ هذا المصائب ، إنّما جاء من قيل الإعجاب ، وكثرة الكلام والغرور ، وعدم التأمل في عواقب الأمور ، قال الشاعر :

ما إنْ نلعتُ على سكوتي مؤنةً ولقد نلعتُ على الكلام مراراً

قال حكماء الهند ، وفضلاء السند ، ما دام الكلام في الفؤاد ، ولم يبد منه على اللسان باد ، ولم يصب منه سائل حرف ، في صكّة الآذان أو وعاء الطرف ، فهو كالبنيت البكر ، المشهورة الذكر ، كلُّ أحدٍ يخطبها ، ويميل إليها ويطلبها ، ويتمنى أن يراها ، ويرثفَ كماها^(٣١) ، فإنّ ألقى إلى المسامع ، ووعاه كلُّ ناظرٍ وسماع ،

(٢٨) أكواش : آذان تسترق السمع ، والكلمة فارسية الأصل وقد جمعت جمعاً عربياً ، مفرداً كوش (بكاف فارسية) بمعنى القول الذي تسمعه الآذان وتتأمله . أما كلمة ديوان فلعلمها كلمة ديار (وتروى أيضاً ديوال) ومعناها الجدار أما كلمة ديوان فمعناها المكان أو المجلس ، والمؤلف بهذه الصياغة حاول تعريب اللؤلؤ الفارسي مبنياً ومعنى ليتفق والمثل الشعبي العربي .

(٢٩) الغلّ : قيد من حديد أو جلد يجعل في عنق السجين أو الأسير أو المجرم ، أو في أيديهم .

(٣٠) قرآن كريم ، سورة ق : ١٨ .

(٣١) اللعى : سمرة في الشفة تستحسن .

فهو كالعجوزِ الشواء ، إذا سلّوها وقلّوها^(٣٢) ، وهي تلازمُ صباحاً ومساءً ، ويفرُّ منها الرجالُ والنساء ، ويحيدُ كلُّ أحدٍ عنها ، فإذا تكلمتُ أسكتتُ وإذا سلّمتُ أغرَضَ عنها . وقال بعضُ الحكماء : اللسانُ أسدٌ ، وهو حارسُ الرأسِ والجسد ، وإن حبستهُ حرسَكَ ، وإن أطلقتهُ حبسَكَ ، وإن سلطتُهُ أفرسَكَ . وقالوا : الكلامُ أسيرُك ما لم تُبديهِ فإن تكلمتَ به فانت أسيرُهُ . قال بعضُ الحكماء : أنا على ما لَمْ أَقُلْ أَقْدَرُ مِنِّي على ما قُلْتُ . وقال عيسى صلواتُ الله عليه : العافية عشرةُ أجزاء ، تسعةٌ منها في الصمتِ إلّا عن ذكرِ الله ، وواحدٌ منها في تركِ مُجالسةِ السفهاء . وقال نبيُّ الحرمين وإمامُ الثقلين^(٣٣) صلواتُ الله وسلامُهُ عليه : الصمتُ حِكْمَةٌ . وقال عليه الصلاة والسلام : البلاءُ مَوْكَلٌ بالمتنطق . وقال الحكماء السكوتُ يسترُّ عيبَ الجهلِ ويعظُمُ حُرْمَةَ الملوك . ولقد أذيتَ نفسك ، وتسيبتَ فيما أَوْحَبَ حبسَكَ ، وأقلقتَ ودودَكَ ، وأسمتَ حَسودَكَ ، ولقد كانت حصّتي من بلائِكَ ، ومما دهاني من شدّةِ عنائِكَ ، أعظَمُ من كلِّ حصّةٍ ، وقصّي في ذلك أعجب من كلِّ قصة ، إذ أنت رفيقي وزميلي ، وفي حضرةِ الملكِ ومنادمته عديلي ، نشأنا على ذلك ، وسلكتنا في الموافقةِ والمرافقةِ أقومَ للمسالك ، وكنت المرجوَّ لمخافي ، وإياي في مطايي ، ومشتكى حَزَني ، ومشتفى شجَني ، ومخزونَ أسرارِي ، وأعظمَ أسرارِي ، وروايةَ أخبارِي ، في أخبارِي ، وروايةَ أسفارِي ، في أسفارِي^(٣٤) ، ومن أين أَلْقَى مثلكَ رفيقا ، أو أجدُ صديقاً شقيقاً ، وأنتَ صاحبُ السراءِ ، ومُصاحبُ الضراءِ ، وأنشد :

(٣٢) القلي : البيض والمهر .

(٣٣) الثقلان : الجنّ والإنس .

(٣٤) الجناس بين أسفارِي الأولى والثانية ، يكمن في أن أسفارِي الأولى بمعنى كسبي ، مفرداً سيفراً ، و أسفارِي الأخرى ، من السُفَر ، أي عند سفرِي وغياي .

وَمِنْ إِبْنِ أَلْقَى بَعْدَ سَبْعِينَ حِجَّةٍ رَفِيقًا كَمَنْ أَرْضَعَتْهُ قَهْوَةُ الصَّبَا
أَدِيًّا أَدِيًّا لَمْ أَتَلْ مَقَامَهُ وَلَا مَلَيْتُ يَوْمًا حَكِيمًا مَهْلِكًا
ويعزُّ عليّ ، ويعظمُ لديّ ، أن أراك في هذه الحالة ، ثم أجرى سحائب دموعه
الخطالة ، وقال :

على الجحر أنكى أن يورى حزناً^(٣٥) في محبة ضاق عنها دونه الحيل
ولقد تحيرت في هذا الأمر المهول ، وما أدري قصاره إلى ماذا يؤول ، وليلة الغم
الصراح ، عمّاذا يُسفرُ فيها الصباح . فأنكيءُ لذلك أبو نوفل وبكى ، وتضرّع إلى
الله وشكا ، وقال يا أعزُّ الأصحاب وأحبُّ الأحياب ، لقد أترّ عندي ما قلت من
الكلام ، أكثر ممّا أصابني من الآلام ، كيف يُغتفرُ لأحد الجانين ، ويُطلق أحدُ
القيدين ، وأنّى يُعتدُّ بالقضاء والقدر لإحدى الغصتين^(٣٦) وهل شيء في عالم
السكون والفساد ، جاء خارجاً عما قدره الله وأراد ، وكلّنا في هذا سوّية ، والعبء
مقهورٌ مع المنية ، ولكن الجدة^(٣٧) إذا أقبل ، ولا حظّ بسعدٍ وتفضّل ، فكلُّ حركةٍ
تصدرُ من الغيِّ العاجز ، يعجزُ عن مقاومتها البطلُ المبارز ، وكلُّ قولٍ يتفوه به
الجاهل ، يدعُ دليلُ معانيه أدلّةَ العقلاء في مجاهيلَ ومناهلَ ، ودعاميصُ^(٣٨) ذوي
الآراء المنضبة المناهل ، تلقي من عقنقل^(٣٩) الحيرة في مجاهيلها مناهل ، فيصيرُ كلُّ
وجهٍ إليها مائل ، وكلُّ إنسانٍ بها قاتل ، وقوأمُ كلِّ سعدٍ وقبولٍ إليها قابل ، كما
قيل :

وإذا السعادة لحظتك عيونها لَمْ تَلِ الْمُصَاوِفَ كُلُّهُنَّ أَنْثَان

(٣٥) الجحر : الحزين (والجحر من الناس من عشتت معاملته) .

(٣٦) الغصّة : ما اعترض في الحلق من طعام أو شراب .

(٣٧) الجدة : الحظ أو السعد .

(٣٨) دعاميص : مفرد دعاميص بمعنى الطفل أو بالأحرى آراء الأطفال غير المسؤوله ؛

(٣٩) العقنقل : الوادي العظيم للتسع ، أو الكتيب العظيم للتناهل الرمل .

واصْطَلَحَ بِهَا الْعَنْقَاءُ^(٤٠) فَهِيَ حَيَاتِلٌ وَاقْتَدَ^(٤١) بِهَا الْجَوَازَاءُ^(٤٢) فَهِيَ عِيَانٌ^(٤٣)
وَنَعْوُذُ بِاللَّهِ مِنْ لَيْلِ السَّعْدِ إِذَا أَدْبَرَ ، وَصَبَحِ الْخَمُولِ إِذَا أَسْفَرَ ، فَإِنَّ اللَّيْلِبَ ، إِذَا ذَاكَ
يُخْطِئُ مَا كَانَ يَصِيبُ ، وَيَفْعَلُ الْعَاقِدُ مَا لَا يَرْضِيهِ بِاقِلٌ^(٤٤) ، فَيَكُونُ جَهْدُ النَّفْسِ ،
زِيَادَةً فِي الْعَكْسِ .

وَإِذَا تَوَلَّى^(٤٥) الْجَدُّ يَحْتَاجُ الدَّكِيَّ فِي رَأْيِهِ قَبْلَ الزَّوَالِ مَرَحَا
وَإِنْ قَلَبُ الدَّهْرِ وَانْعَكَسَ الزَّمَانُ شَيْمَةً مَعْهُودَةً ، وَخَصْلَةً مَعْدُودَةً ، كَمَا قِيلَ :
وَمَنْ ذَا الَّذِي مَا غَزَا صَرْفٌ^(٤٦) أَذْهَبُوا فَأَضْحَكَةَ يَوْمًا وَلَمْ يَنْكِهِ سَنَةً
وَأَنَا كُنْتُ غَافِلًا ، وَإِنْ لَمْ أَكُنْ جَاهِلًا ، وَقَدْ يَكُونُ الشَّخْصُ عَمَّا تَحَقَّقَهُ ذَاهِلًا ،
وَذَلِكَ لِمَا كَانَ عَوْدُنِي الزَّمَانُ ، وَأَلْفَتُهُ مِنْ سَالِفِ الدَّوْرَانِ ، وَإِرْجَاءِ الْعِيَانِ ، وَنَيْلِ
الْأَمَانِيِّ وَالْأَمَانِ ، وَإِسْبَالِ ذَيْلِ النِّعَمِ ، وَالْإِحْسَانِ الدَّائِمِ وَالْكَرَمِ ، فَمَشَيْتُ عَلَى مَا
كُنْتُ أَهْلُهُ ، وَفِي نَفْسِي أَجْدُهُ ، وَأَيْضًا كَانَتْ لَذَّةُ عَشْرَتِكَ ، وَنَعِيمُ صَحْبَتِكَ ،
رَحْسَنُ مُوَافَقَتِكَ ، وَعِزُّ مُرَافَقَتِكَ ، أَنْسَانِي كُلِّ بَلِيَّةٍ ، وَأَمِنْتُ بِذَلِكَ كُلِّ رَذِيَّةٍ ،
نَالْهَانِي عَنْ التَّكُّدِ ، وَدَهْتَنِي غَفْلَةٌ عَنْ التَّرْعُ وَالْتِبُّدِ ، مِثْلَ مَا أَصَابَ ذَلِكَ الْمُدْهَدُ .
قَالَ آخَرُ نَهْشَلٍ ، أَسْرَدَ ذَلِكَ الْمَثْلُ .

(٤٠) العنقاء : طائر عظيم في طيراته ، وقيل طائر وهمي (عنقاء مغرب) يضرب به المثل في طلب المحال الذي لا ينال .

(٤١) اقْتَدَ : فعل أمر من اقتدى ، بمعنى أخذ بمقدورها (السعادة) .

(٤٢) الْجَوَازَاءُ : أحد بروج السماء بين الثور والسرطان (كناية عن البعد الارتفاع) .

(٤٣) عِيَان : مقود . سير اللجام الذي تمسك به (استعاره) .

(٤٤) يَاقِل : هو رجل من قبيلة إياد يضرب به المثل في العي والحقق .

(٤٥) تَوَلَّى : انصرف الحفظ وأدبر .

(٤٦) صَرْف الدهر : نوائبه وجيلاته .

[٢/٥] قصة المدهد والصبي

قال : ذكروا أنَّ الله مُجَرِّي الخير ، علَّم بعضَ عباده الصلحاء مَطْبِقَ الطير ، فصاحبَ منها هُنْهُداً ، وازداد ما بينهما تودُّدا . ففي بعضِ الأيام ، مرَّ بالدهدِ ذلك الإمام ، وهو في مكانٍ صال ، ملتفتٌ إلى ناحية الشمال ، وهو مشغولٌ بالتسبيح ، يسبِّحُ الله بلسانه الفصيح ، فناداه يا صاحبَ التاج ، والقَبَاء^(١٧) والديباج^(١٨) . لا تقعدُ في هذا المكان ، فإنَّه طريقُ كُلِّ فتان ، ومطروقُ كُلِّ صائدِ شيطان ، ومقعدُ أربابِ البنادق ، ومرصدُ أصحابِ الجَلاهِق^(١٩) . فقال الدهد : إني عرفتُ ذلك ، وأنَّه مُسَلِّكُ المهالك . قال فلأني شئنيَّ عزمتُ على القعودِ فيه ، مع علمك بما فيه من دواهيهِ ؟ قال أرى صبيّاً ، وأظنه غويّاً ، تصب لي فخا ، يرومُ لي فيه زخاً^(٢٠) ، وقد وقفتُ على مكائده ، ومناصبِ مصائده ، وعرفتُ مكيدته أين هي ، وإلى ماذا تنتهي ، وأنا أتفرَّجُ عليه ، وأتقدَّمُ للضحكِ إليه ، وأتعجبُ من تضيقِ أوقاته ، وتعطيلِ ساعاته ، فيما لا يعودُ عليه منه نفع ، ولا يفيدُه في قفاه سوى الصَّقْع ، وأسخرُ من حركاته ، وأنبئه مَنْ يَمُرُّ على حُزْزِ عِبَلَاتِهِ^(٢١) . فتركه الرجلُ وذهب ، وقضى حاجته وانقلب ، فرأى المدهد في يَدِ الصبيِّ ، يلعبُ به لعبَ الخَلْيِ بالشحجي^(٢٢) ، ولسانُ حاله ، يلهجُ بمقاله :

كعصفورةٍ في يَدِ طفلٍ يهينها تقاسي حياضَ الموتِ والطفلُ يلعبُ

(١٧) القباء : ثوب يلبس فوق الثياب أو القميص ويتمنطق به .

(١٨) الديباج : الحرير .

(١٩) الجَلاهِق : البندق الذي يرمى به جمع جَلاهِق .

(٢٠) زخا : من زخ الجمر : اشتد وهجه ، وزخ الشيء : دفعه ورمى به حقداً وغملاً .

(٢١) الأباطيل : واحتلتها الخزعبل (بضم الخاء) الباطل .

(٢٢) الخَلْي من الناس : الفارغ البال من المم ، وعكسها الشحجي : الحزون ، وفي المثل "ويل للشحجي من الخلي" .

فلا الطفل ذو عقلٍ يرقّ لحالها ولا الطيرُ مطلوقُ الجناحِ فيهربُ
فناداهُ وقال : يا أبا عبّاد ، كيف وقعتَ في شَرِكِ الصيَّاد ، وقلتَ لي إنَّك وعيت ،
ورأيتُ ما رأيت . فقال : أما سمعتَ أنَّ الهدهدَ إذا نَقَرَ الأرضَ يعرفُ مسافةَ ما بينهُ
وبينَ الماء ، ولا يُبصرُ شجرةَ الفخِّ ؟ وذلكَ لينفذَ ما كتبه اللهُ تعالى وقدره ، من
قضائِهِ وقَدَرِهِ ، ونَاهِيكَ في قضيةِ القضاءِ والقدر ، قضيةَ آدمَ أبي البشر ، مع موسى
الكليم ، عليهما الصلاةُ والتسليم ، كما جرتُ عليه أحكامُ القضاءِ والقدر ، فتمَّتْ
مشيئةُ اللهِ تعالى السابقةُ في عِلْمِهِ ، وجرى ما لم تُدرِكْهُ عقولُ الفحولِ في ميدانِ
إرادته ، من سوابقِ حُكْمِهِ وحِكْمَتِهِ ، وأنشد الهدهد :

يا سائلِي عَمَّا جرى والعينُ مبصرةُ القلندر
أَوْ مِمَّا سمعتُ بَأَن إذا جاءَ القضا عَمِي البصر

وقال أيضا :

إن كنتَ أخطأتُ فما أخطأَ القَلندر
واسمعِ أَيْهَا العاقلُ قولَ القائل :

إذا أرادَ اللهُ أمراً لا نُسِرِي وحيلةً يفعلُها في دفعِ
وكانَ ذا عَقْلٍ وَسَمِعٍ وَبَصَرِ أَصَمَّ أذْنِيهِ وَأَعْمَى قَلْبُهُ
ما يَأْتِي به محمومُ أسبابِ القدرِ فَلا تَقُلْ فيما جرى كيف جرى
وَسَلَّ مِنْهُ عَقْلُهُ سَلَّ الشَّعَرِ فَكُلُّ شَيْءٍ بِقَضَاءٍ وَلَقْدَرِ

وأنا لما اغتررتُ بحدّةِ بصري ، ذهلتُ عما يحوِلُ في فكري ، فتفطّنتُ حدّةُ
استبصارِي ، فوقعتُ في فخِّ اغتراري ، أنا سمعتُ يَأْهُمَامَ ، قولَ الإمام "إذا حَلَّتْ
المقاديرُ ، ضَلَّتْ التدابيرُ" . ثمَّ قال أبو نوفل ، وقد أثّر فيه كلامُ أخي نهشل :
دَع عَنْكَ كَوْنِي لِإِنَّ اللّوَمَ إِغْرَاءُ وَذَاوَنِي بِالْأَمَى كَانَتْ هِيَ السَّدَاءُ

وإنما أوردت هذه الحكاية ، لتحقيق عني ما في تقريرك وتوبيخك من نكابة ،
وتعلم أن الأمور كلها ، حلها وقلها ، جارية على وفق ما قضاه الله تعالى وقدره ،
وأثبت في سابق عليمه في اللوح المحفوظ وسطره ، وإن كانت الأحكام في هذا
الباب ، تُضاف إلى العلل والأسباب ، ولا شك في هذا ولا ارتياب ، فقد مر أن
الذهول ، شغلي عن الفضل بالفضول ، وأن العذر غير مقبول ، فإن الجهل لا يكون
حجة ، ولا غلص لسالك الأسواء المحجة ، وقد طال الكلام ، والحق بيديك
والسلام . وأما الآن فجل المقصود ، من لطيف المعهود ، وبذل المجهود ، وتذكر
سابق العهود ، وقديم الصداقة ، وأكد المحبة والعلاقة ، عطفت الخواطر الملكية ،
ورجوعها على ما كانت عليه من الصدقات السنية ، والعواطف الملوكة ، وأقل
الأقسام الخلاص من هذه البلية ، وعلمك قد أحاط ، بأوتق مناط ، أنني شخص
وحيد ، بين ملازمي الخدمة فريد ، لم يكن لي أخ سواك ، وأنت مُشتكائي وأنا
مُشتكاك ، وهذا أوان الفتوة ، وزمان المروءة ، وعدم التخلي عن الأخوان ،
والانبعاث بالهمة الثابتة الأركان ، والسعي في خلاص صاحب القديم ، من هذا
البلاء العظيم ، وأسألك بسالف الخدمة ، والمودة ذات القدمة ، أن لا تذكر ما
سلف ، من التقصير الموجب للتلف ، فإني معترف ، أنني للذنوب معترف ، وأنشد :

جاءت في اللوم حدة قد أحترى به من حيث قلّرت أن اللوم ينفعه

وإني إذا تفكرت ، وتصورت ما وقع إذا تذكرت ، وإن كان قد مضى ، يضيئ بي
الفضا ، وأغرق في عرق الحيا وتسود في عيني الدنيا ، فكأنه في هذا القبيل ، عني
قيل :

كأن فزادي في محالبي طائر إذا ما ذكرت الحب يشتد بي قبضا

وهذا القدر من الإعلان يكفي ، وإنني "استحلي" إذا "مر" بخاطري غصص حنفي .
ثم علا زفيره وشهيقه ، وبدا من هيب قلبه بريقه ، ومن وادي دمعهِ عقيقه ، حتى
خيفَ عليه غريقه وحريقه ، ورقَّ له عدوه وصديقه ، وبكى لبكائه رفيقه .

قال أخو نهشل ، اعلم أيها الأخ المُفضَّل ، أنني لم أقل ذاك الكلام ، للعبدان
والملام ، فضلاً عن إيحاء قلب وإيلام ، ولكن لما تألمَ جناني^(٥٣) ، أجرى الله ذلك
على لساني ، ولم يكن لذلك الحديث باعث ، ولا قصدٌ باعث ، أو عاث ، ولكن
صفو المحبة ووفور الصدق ، أوجبنا التلطفَ بذلك النطق ، وكيف لا أدرك دقائق
المعاني ، وأنا لها من مزار فضائلك جاني . وأما بذلُ الاجتهاد ، من أهل الوداد ،
فهل يحطرُ ببالك ، غير ذلك ، وبأي الله والأخلاق الكريمة ، وما علمتُ من همّة
وشيمة ، وفواضل فضائل ، من موانع خصائل اقتبسناها ، ومطاربِ معارفٍ على
منوالِ سجاياك نسجناها ، أن تختلفَ عن التعلقِ بأهدابها ، وأغلقَ أبوابَ مقاصدها
في وجوه طلابها ، وأنا إن لم أبذل مجهودي ، وأصرف مجهودي ، في مساعدة
خجلي وصديقي ، وصاحبي ورفيقي ، بما تقتضيه المروءة والفتوة ، والصدقة القديمة
والأخوة ، وإلا فأي فائدة في وجودي ، لوالدي ومولودي ، وطارفي وتليدي^(٥٤) ،
وصديقي وودودي . وقد قيل أربعة أشياء فرض عين ، في شريعة المروءة على
الحجين ، وكذلك الأخوان ، وسائر الأصحاب والخلان ، الأول : المشاركة في
النوائب ، وتعاطي دُفعها من كلِّ جانب . الثاني : إذا ضلَّ أحدهم عن طريق
الهدى ، يردونه إلى سبيل الرشاد ، ولا يتركونه على غير الصواب ، بل يستلطفونه
بألطف خطاب . الثالث : إذا صدر من أحدهم نوعٌ جفاء ، يلاقونه بالوفاء ،

(٥٣) الجنان : القلب .

(٥٤) طارفي وتليدي : حديثي وقديمي من المال وغيره .

والصفا ، ولا يتركونه على شفا ، ولا ينسون الوفاء القديم بالجفاء الحادث ، فرمما يتفرغ على ذلك ما يؤكده من العواث . الرابع : لا يؤاخذون المقتصر في حال الغضب ، بل يرجحون عقوبته إلى أن يطفأ اللمب ، فرمما يتعدى بواسطة الغضب الحد ، فيقع بسبب ذلك بين الأصحاب نكد .

ثم أن أبا نوفل ، قال لأخي نهشل : المبادرة أولى إلى التلافي ، لئلا يسابق الجنود إلى تلافي ، وهذا المصاب إنما جاء بغتة ، وأخذ قلوبنا وأسماعنا بهتة ، فاستعمل فكرك القويم ، وتوجه إلى التدارك بقلبي سليم . فقال : ها أنا أذهب على الفور لهذا المطلب النافع ، وأقوي العزيمة واجتهد في دفع الموانع ، فسأول ما ابتدئ بقصد الملك ، وانتظر ما يصدر منه قولاً وفعلًا في هذا الأمر المشتيك . فأبني على ذلك ما يناسبه ، وأجاريه فيما يميل إليه غاطره ولا أجاذبه . ثم توجه إلى الأسد ودخل عليه ، فوجد الدب جالساً بين يديه ، وقد بلغه قضية النديم ، وأنه حل به العذاب الاليم ، فاعتنم الفرصة ، وبأذر ليم على أبي نوفل الغصة ، ويتعاطى في أمره قصة وحصة^(٩٩) ، فأراد أخو نهشل أن يفتح الكلام ، ثم أفكر في أنه رمما يعاكسه الدب في المرام ، وأنه إذا أقام في المناقضة ، لا يمكنه مقابله بالمعارضة ، وإن سكت فالسكوت رضا ، وإن وافق فعلى غير مراده مضى ، فأمسك عن الكلام ، ورأى السكوت مقتضى المقام . ثم أمعن النظر ، وأجال فداخ الفكر ، فرأى أنه إن انفصل المجلس ، من غير أن يفحص بشيء وينبس ، رمما يفوت المقصود ، أو يسابقه بالمعاكسة عدو أو حسود ، لاسيما مثل الوزير ، الرفيع الخطير ، صاحب الرأي والتدبير ، وهو عدو قديم ، وفي طرق الخزي نظيره عديم ، فإذا بادر الملك بالكلام ، رمما يقع منه فلتة بمقام ، كما قيل :

^(٩٩) قصة : مظلمة ، وحصة : شكوى ، وكلامهما : المظلمة والشكوى ، على سبيل الفتنة واليغضاء .

أَتَالِي قَوَاهَا قَبْلَ أَنْ أَعْرِفَ الْهَوَى فَصَادَفَ قَلْبًا خَالِيًا قَتَمَكُنَا

فَتَلَقَّاهُ الْمَلِكُ بِقَبُولٍ ، بِفِصُولٍ كَمَا يَخْتَارُ فِي مِيدَانِ الْفَتَكِ وَيَجُولُ ، فَتَتَقَعَّدُ الْأُمُورُ وَتَتَقَصَّدُ ، وَتَتَعَقَّفُ^(٥٦) الْأَخْلَاقُ الْأَسْكَنِيَّةُ وَتَتَعَرَّدُ^(٥٧) ، فَرَأَى الْأَوَّلَى الْمِبَادِرَةَ بِالْكَلَامِ ، وَالْوُقُوفَ فِي مَقَامِ الشَّفَاعَةِ أَنْسَبَ بِالْمَقَامِ ، فَإِنْ عَارَضَ أَحَدٌ عَرَفَ أَنَّ جَوْهَرَ كَلَامِهِ عَرَضٌ ، وَلَا تَصْدَى إِلَّا لَغَرَضٍ ، وَكَانَ الْمَلِكُ قَدْ سَمِعَ كَلَامَهُ ، بَعْدَ مَعْرِفَةِ سَلَامَتِهِ وَالْقَائِمَةِ عَلَى أَبِي نُوْفَلٍ غَذْلُهُ وَمَلَامَتُهُ ، وَكَلَامُهُ بَلَا شَكٍّ مُقْبُولٌ ، وَمَا لِأَحَدٍ عَنْهُ عَدُولٌ ، وَكَانَ الدُّبُّ مُتَنْظِرًا خُرُوجَهُ مِنْ عِنْدِ الْمَلِكِ ، حَتَّى يَخْتَلِيَ بِالْكَلَامِ مَعَهُ وَيَنْهَمِكُ . فَأَدْرَكَ أُخْرَى نَهْشَلٍ هَذَا الْمَرَامَ ، فَوَقَفَ فِي مَقَامِ الدُّعَاءِ وَبَادَرَ بِالْكَلَامِ ، ثُمَّ قَالَ بَعْدَ وَطَاقِفِ الدُّعَاءِ ، وَالْقِيَامِ بِمَا يَجِبُ مِنْ مَرَامِسِمِ النَّسَاءِ : الْعُلُومُ الشَّرِيفَةُ ، وَالْأَرْاءُ النَّبِيَّةُ ، مُحِيطَةٌ أَكْثَرُ مِنْ عَادَةِ الْمُلُوكِ الْعِظَامِ ، وَأَخْلَاقُ السُّلَاطِينِ الْكِرَامِ ، الْعَفْوُ عَنِ الْجَرَائِمِ ، وَالْإِغْضَاءُ عَنِ الْعِظَائِمِ ، لَا سِيَّمَا إِذَا صَدَّرَ ذَلِكَ مِنْ أَحَدٍ الْمُخْلِصِينَ ، وَالْعَبِيدِ الْمُتَخَلِّصِينَ ، عَلَى سَبِيلِ السُّهُوِّ وَالْخَطَا ، لَا عَلَى سَبِيلِ الْعَمَلِ وَالْإِحْتِرَا .

مَنْ ذَا الَّذِي مَا سَاءَ قَطُّ وَمَنْ لَهُ الْخُسْنَى فَقَطُّ

وَإِنَّ الْعَبْدَ الْأَقْلَ ، أَبَا نُوفَلٍ ، الْوَاقِعَ فِي الْخَطَرِ الْخَطِيرِ ، الْمَعْرِفَ بِالذَّنْبِ وَالتَّقْصِيرِ ، مُتَوَقِّعَ غَفَرِهَا مِنْ صِدَقَاتِ الْحُضْرَةِ الْمُلُوكِيَّةِ وَمَرَامِجِهَا ، وَمَا اعْتَادَهُ مِنْ جُلُمِهَا الشَّامِلِ وَمَكَارِمِهَا . وَخَتَمَ عَلَى الْمُلُوكِ الْقِيَامَ بِقَبُولِ الشَّفَاعَةِ ، دُونَ سَائِرِ الْخِدْمِ وَالْجَمَاعَةِ ، خُصُوصًا وَقَدْ كَانَ رَفِيقًا نَدِيمًا ، وَمَصَاحِبًا قَدِيمًا ، وَلَا يَقْبِضُ الْمُلُوكُ بِذَلِكَ إِلَّا سَوَاقِ الْحَسَنَاتِ الْكَثِيفَةِ ، إِلَى دَفَاتِرِ الصَّدَقَاتِ الشَّرِيفَةِ ، وَقَصْدِ الْخَيْرِ ، وَذَهَابِ الْأَسَى وَالضُّعْفِ ، وَاتِّشَارِ صَبِيئِهَا فِي الْآفَاقِ وَالْأَطْرَافِ ، بِالْعِلْمِ وَالْحِلْمِ

^(٥٦) تتعقف : انعقف الشيء : انحنى وتلوى (- تلوى) .

^(٥٧) تتعرَّد : تعرَّد : جازأ كبد السماء (- تعبد أو لميل) .

والعفو والصفيح والفضل والعدل والألطاف ، فَلَاَنَّ الْأَسَدُ مِنْ هَذَا الْخَطَابِ ،
وَعَرَفَ أَنَّ قَصْدَ الشَّافِعِ مِنْ هَذَا إِنَّمَا هُوَ الثَّوَابُ وَالصَّوَابُ ، فَاطْرَقَ مَلِيًّا ، وَلَمْ يَحِرْ
مِنَ الْأَجُوبَةِ شَيْئًا . فَتَأَثَّرَ الدُّبُّ الْخَيْثُ ، وَالْعَدُوُّ الْقَدِيمُ لِهَذَا الْحَدِيثِ ، وَخَافَ أَنْ
يَكُونَ السَّكُوتُ رِضًا ، وَإِنْ هُوَ رِضِي يَفُوتُ مِنْهُ الْمَنَى ، وَالْإِطْرَاقُ عَلَامَةُ الْحَلَمِ ،
وَالسَّكُوتُ فِي الْحَرْبِ دَلِيلُ السَّلَمِ ، وَمَنْ فَوَّتَ الْفُرْصَةَ ، وَقَعَ فِي غُصَّةٍ ، وَمَتَى يَقَعُ
أَبُو نُوْفَلٍ الْخِتَالُ ، فِي مِثْلِ هَذَا الْعِقَالِ ، وَمَا أَظْرَفَ مَقَالَ ، مَنْ قَالَ :

وَلِنْ رَأَيْتَ غُرَابَ الْهَيْثِ فِي شَرْكَهِ فَادْبَعْ وَكُلْ وَفَرِّ الْأَفْرَاحِ فِي عَنَقِي

وقد قيل :

إِذَا صَارَتِ الْأَعْدَاءُ تَمَلًّا فَلِئَنَّهُمْ إِذَا لَمْ تَطَّأَهُمْ أَصْبَحُوا مِثْلَ بُعْبَانِ
وَكَمْ ذَا يَقَامِي مِنْ أَذَاهِ وَقَرْمِهِ عَلَى ضَعْفِهِ إِنْ صَارَ ذَاخِلَ آذَانِ

فَانِرَى وَاتَّبِرَمْ ، وَتَصَدَّى لِلْمَعَاكِسَةِ ذَلِكَ الْبَرَمْ^(٨٨) ، وَغَطَّى دَسَائِسَ لَوْمِهِ بِتَقْوَشِ
الْكِرَمْ ، وَقَالَ : أَعْلَمْتُ أَيُّهَا النَّدِيمُ الْقَدِيمُ ، وَمَنْ هُوَ لِلْمَلِكِ أَوْفَى خَلِيمِ ، أَنَّ الْوَاجِبَ
عَلَى جَمِيعِ الْخُدَامِ ، أَنْ يَكُونُوا فِي الصَّدَقِ مَتَسَاوِي الْأَقْدَامِ ، وَلَا يَقْدَمُوا عَلَى نُصْحِ
الْمَلِكِ غَرَضًا ، وَلَا يَطْلُبُوا سِوَى رِضَاهِ عَلَى النَّصِيحَةِ عَرَضًا^(٨٩) ، وَلَا عِوَضًا ، فَلَا
يَصَادِقُوا الْخَنَائِنَ ، وَلَا يَصْنَعُوا الْمَائِنَ^(٩٠) ، وَلَا يَواطِئُوا الْخَاطِيَّ^(٩١) ، وَلَا الْمَذْنِبَ
الْمُتَعَاطِيَّ ، وَلَوْ بِالْكَلامِ الْوَاطِي ، وَلَا يَخْفُوا الْخِيَانَةَ وَالْجَنَائَةَ ، وَلَا يَرْعَوْنَ فِي ذَلِكَ أَدْنَى
الرَّعَايَةِ ، فَمُسَاعِدُ السَّارِقِ سَارِقٌ ، وَمُعَايِذُ الْمَارِقِ مَارِقٌ ، وَالْقِيَامُ مَعَ الْجَنَانِيِّ
جَنَانِيَّةٌ ، وَإِعْتِاقُ الْخِيَانَةِ نَكَايَةٌ ، وَفِي هَذَا الْكَلَامِ كِفَايَةٌ ، وَمَنْ اعْتَلَزَ مِنْ جَنَائِزِهِ

(٨٨) الْبَرَمْ : الَّذِي لَا يَدْعُلُ مَعَ الْقَوْمِ فِي الْمَيْسَرِ لِبُخْلِهِ ، وَالْمَقْصُودُ هُنَا نَوْرُ الْخَصْلَةِ الْكَرِيمَةِ .

(٨٩) عَرَضًا : هَدَفًا أَوْ غَرَضًا مِنْ كُفْرَانِ الدُّنْيَا الرَّائِلَةِ الْعَارِضَةِ .

(٩٠) الْمَائِنُ : الْكَاذِبُ .

(٩١) الْخَاطِي : خُفِّفَ الْخَاطِيءُ ،

جان ، لا سيما إن كانت في حَقِّ ملكٍ أو سلطان ، فهو شريكٌ فيها ، بل أعظمُ جرماً من متعاطيها ، لأنَّ عِظَمَ الجناية - ياذا الدراية - إنما هو بحسبِ الجحني عليه ، وأن ذلك الوهنُ عائدٌ إليه ، لا على مقدار الجاني ، وأنت لا تجهلُ هذه المعاني . ولهذا قال بعضُ أهلِ الأنضال : إنَّ تعاطي الفساد - ياذا الرشاد - ليس فيه صغيرة ، وإنَّ كلَّ ما يخالف الأمرَ كبيرة ، وذلك بالنظرِ إلى الجنبِ الأقلس ، القاهرِ تعالى وتقلّس .

فقال أخو نهشل : كلامُ مولانا الوزيرِ هو المفضلُ ، وما أشار به هو الصوابُ المعدلُ ، ولكن يا مولانا الوزير ، علمُك الخطير ، خبيرٌ بأننا كلُّنا محلُّ الخطأ والتقصير ، ولا يسعُ الكبيرُ منا والصغير ، إلا الحلمُ الغزير ، والعفو عن كثير ، وقلُ لي مَنْ هو البريءُ عن العفو ، والذي لا يتوقَّعُ من مولانا الملكِ عفوهُ ، وإن لم تقعِ الشفاعة ، في الجاني وذِي الخلاعة ، وغالفِ سُبَّةَ الجماعة ، فالحسنُ لا يحتاجُ إلى شفاعة ، ومَنْ لم ينجِجِ المكسور ، ويأخذُ بيدَ المحقور ، فما يجدُ عندَ انكساره جابراً ، ولا يؤخذُ بيده حينَ يصيرُ عاثراً ، وقد قيل ، مِنْ مثلكَ الفضيل ، وصاحبِ الأدبِ الجزيل :

إذا أصبحتَ فيما ذا اقسداً وأمرُك في رقابِ الخلقِ جاري
أقبلُ^(١٦) وأقبلُ عِثاراً واعتذاراً فمن يقبلُ يُقبلُ عندَ العِثارِ
فما زال الصغارُ ترومُ عفواً وغفرانَ الكبارِ مِنْ كِسارِ
وأحسنُ العفوِ يا ذا السلوك ، عفوُ السلاطينِ والملوك ، لاسيماً إذا عظمَ الجرم ، وكَبُرَ الإثم ، فإنَّ العفوَ إذ ذاك صادر ، من ملكٍ ذي سلطانٍ قادر ، مع قوَّةِ الباعثِ على المواخذة ، والقدرةُ الشاملةُ النافذة . وغيرُ الملوك ، من العاجزِ والصلعوك ،

(١٦) قيل : فعل أمر من أقال عثرته أي صلح وعفى عنه وتجاوز عن أسخطه وقبل اعتذاره عن عثاره أو عثراته .

عفوهم إنما هو عَجْزٌ خَشْيَةٌ ، أو لَتَمَشِيَّةٌ غَرَضٌ مَشِيَّةٌ . والملوكُ إنما يؤثرُ عنهم
 الخلالُ الحميدة ، والخصائلُ الشريفةُ السعيدة ، والأكابرُ يعفون ، والأصاغرُ يهفون ،
 وقد قسم الحكماءُ والحكَّامُ ، ما يقع من الذنوبِ والآثامِ ، أربعةَ أقسامٍ ، فاسمِعْ يا
 كبيرُ : هفوةٌ وتقصيرٌ ، وخيانةٌ ومكرٌ ، وحرورٌ ذلك وضبطوه ، وذكرُوا لكلُّ
 جزاءٍ قَرَرُوه : فجزاءُ الهفوةِ العتابُ ، وبه نطقُ الكتاب ، وجزاءُ التقصيرِ الملامةُ ،
 على ما أورثت من ندامة ، وجزاءُ الخيانةِ العقوبةُ ، فإنَّ في ارتكابها للعاقلِ صعوبةٌ ،
 وأعظمُ بعقابها مثوبةٌ ، وما يرتكبُ المكرَّهَ إلا الغافلُ المعتوهُ ، وجزاءُهُ أيضاً بمثله ،
 وهذا على مقتضى العقلِ وعَدْلِهِ ، والذي صدر في سابقِ القدرِ من المخلصِ أبيي ،
 نوفلُ ، إنما هي هفوةٌ بها زَلٌّ ، وجزاءُهُ على هذا الحسابِ ، إنما هو العقابُ ، وقد
 استوفاهُ وزيادة ، وفي هذا لمولانا الملكِ الإرادةُ ، فإنَّ شاء عاقبَ على الذنبِ
 الصغيرِ ، وإنَّ شاء عفا عن الجرمِ الكبيرِ . والهفوةُ لا يكادُ يسلمُ منها الخواصُّ ،
 فضلاً عمَّنْ هو في شَرِّكَ العبوديةِ والاقتناصِ ، ولأنَّ يؤثرُ الفضلُ عن الملكِ ، وعلى
 طريقِ عفوهِ يُسَلِّكُ الدُّرُبُ المستلَكُ ، خيرٌ من أنْ يؤثرَ عنه لنفسِهِ الانتقامُ ، ويخلدُ
 ذلك على صفحاتِ الأيامِ . ولاشكَّ أنَّ سيرةَ العفوِ والفضلِ ، أفضلُ من القصاصِ
 والعدْلِ ، وذلك هو اللامتُّ بالحشمةِ ، والأوثقُ للحرمةِ ، والأجدرُ لناموسِ
 السلطنةِ ، والأبقى على ممرِّ الدهورِ والأزمنةِ . وقد قال سيدُ المرسلين ، وحبيبُ ربِّ
 العالمين "ينادي منادٍ يومَ القيامةِ مَنْ كان له عند الله يَدٌ فَلْيَقُمْ فلا يقومُ إِلَّا مَنْ عَفَا"
 وقال رسولُ الله ﷺ "إنَّ العفوَ لا يزيدُ العبدَ إلا عِزًّا فاعفُوا يَرْزُقْكُمْ اللهُ" . ولقد
 كان جماعةٌ من عظماءِ الملوكِ والأكابرِ ، يبحثونَ عمَّنْ تعاطى الذنوبَ والإجرامَ من
 الصاغرِ ، لا سيما لمن يتعرَّضُ لذاتِ الملكِ ونفسِهِ ، ويستعينُ بطوائفَ على فسادِهِ
 من أبناءِ جنسه ، فإذا قَدَرُوا عليهم عَفَوْا ، وتلذَّذُوا بالعفوِ والإحسانِ واستعفوا .
 وحسبك يا أبا جهينة ، ومَنْ فضلهُ أعذبُ مُزِينَةٍ ، واقعةُ ابنِ سليمان ، المخدلةُ على

ممر الأزمان ، وما تضمنت من مكارم الأخلاق ، التي تعطرت بها الآفاق ، فتوجه الأسد إليه ومال ، وقال : أخيرنا يا أبا نهشل كيف كان هذا المثال ؟

[٣/٥] واقعة ابن سليمان الأموي

قال : لما انتهت أيام بني أمية ، وتطرزت نجلع الأيام بأعلام الدولة العباسية ، وأشرق بطلعة أبي العباس السفاح ، في دياجير الدهر كمن صباح ، بأحسن فلاح ، احتفت نجوم أفلاك بني أمية ، وكواكب من بقي من تلك الزواهر المضية^(١٣) . وكان منهم إبراهيم بن سليمان ، بن عبد الملك بن مروان ، وجعل السفاح يتطلبهم ، ويُغيب من يدري بهم ، ويُرهبهم ، إلى أن ظهر ابن سليمان ، وكان من أمره ما كان . فحكى أنه بالخير ، محتفياً في هم وحيرة ، قال : فقي بعض الأيام ، تراءت لي على سطح سواد أعلام^(١٤) ، فوقع في نفسي ، وغلب على حديسي ، أنها قد جاءت لطلي ، رغبة في عطفي ، فتكرت في الحال واحتفيت ، وخرجت من الحيرة إلى الكوفة أتيت ، فدخلتها خائفاً أترقب ، ولم يكن لي فيها مترصد ولا مترقب ، ولا صديق أركن إليه ، ولا صاحب أهول عليه ، فصرت في تلك البلاد ، مثل المنشد ببغداد :

بغداد دار لأهل المال معمة وللمفالس دار العنك والضيقي
ظلمت حيران أمشي في أزقيها كأنني مصحف في بيت زنديقي

فأداني المسير ، إلى باب كبير ، منظره جليل ، وداخله دهليز طويل ، ليس فيه أحد ، من الحجاب والرصد ، فدخلت إليه ، وبه مكان فجلست عليه ، وإذا برجل جسيم ، جميل الشكل وسيم ، على فرس جواد ، مع طائفة من الأجناد ، فدخل إلى

(١٣) المضية : المضيئة .

(١٤) كانت أعلام الدولة العباسية سوداء اللون .

وعلين الباب ، وفي خدمته غلمانه والأصحاب ، إلى أن نزل عن دابته ، وانفرد عن جماعته . فلما رأيته في وحيه ورجل ، قال : من الرجل ؟ فقلت : خلاك الذم ، عتفو على دم ، واستجرت بمجوارك ، ونزلت في ديارك . فقال : أبارك الله ، لا تخف من سواه ، ثم أدخلني في حجرة لطيفة ، تشتمل على أشياء ظريفة ، قد جعلها مضيقة ، ينزلها كل من قصده جهلة أو عرفة ، فمكثت عنده حولا ، أصول في نعمة صولا ، ولا يسألني فعلا ولا قولا ، بل كان يركب من الأسفار ، وينزل إذا انتصف النهار ، وذلك كل يوم ، لا تأخذه عن ذلك سنة ولا نوم فسألته في بعض الأيام ، ونحن في هنا مقام ، وقد صرت عبية سيرة^(١٦) ، ومراة قلبه وصلده ، عن ركوبه ونزوله ، وموجب تنقله وحلوله .

فقال : إن إبراهيم بن سليمان بن عبد الملك بن مروان ، قتل أبي صبر^(١٧) ، وأورثني بذلك نكدا وضرا ، وأوهج في فوادي لهما وجرأ ، وقد دارت على بني أمية الدوائر ، وبلغني أنه بالكوفة عتفو حائر ، فانا كل يوم أركب إليه ، وأفتش عليه ، لعل الله يوقعني به ، لأشفي قلبي بقتله من كرب ، فأخذ بشاري ، وأكشف عني عاري ، وأطفئ لهي ، وأخذ ثار أبي . قال ابن سليمان : فعبثت من قضاء الرحمن ، وكيف ساقنتي أرجلى ، إلى شبكة مقتلى ، وأمشاني القضاء برجلي ، إلى من هو دائر على قتلى ، فاستحييت منه ومن الله ، وكرهت عند ذلك الحياة ، فسألته عن اسم أبيه ، لأتحقق ما يئديه ويُنهيهِ ، فأخبرني فقرته ، وتذكرت أنني أنا قتلته . فقلت : يا هذا وجب علي حَقُّك ، وأنا غريمك ومسترَقك ، وقد قرب الله حُطَاك ، وأتلك مُتَمَّاك . فقال : : وما ذاك ؟ فقلت أنا إبراهيم ، الذي على طلبه

(١٦) عية سره : موضعه .

(١٧) قتله صبرا : حبسه حتى مات .

نهيهم ، وأنا قاتلُ أبيك ، فافعلْ بي ما يرضيك ، وخُذْ ثَارَكَ وأطقيءِ نارك . فقال :
 كأنَّهُ طال بك الجفاء ، وأضرَّ بك الاختفاء ، فأردتْ بالموتِ الخلاص ، واستندتْ
 لدعوى القصاص . فقلتُ : لا والله ، الذي علم السرَّ وأخفاه ، بل قلتُ الحق ،
 وفُهِتُ بالصدق ، وخلاصُ الذمِّ في الأولى ، أخفُّ من قصاصِ الأخرى وأولى ،
 أنا فعلتُ بأبيكَ الأذى ، في يومِ كذا ، ومكانِ كذا ، بسببِ كذا . قال : فلما علم
 ذلك مني ، وتحقَّقَ أَنَّهُ صَدَرَ عَنِّي ، احمرَّتْ عيناهُ ، وانتفختْ شفثاهُ ، وقامتْ
 عروقُه ، ولعلتْ بروقُه ، وأزبدتْ شدوقُه ، وأطرقَ إلى الأرض ، وكادَ يأكلُ بعضُه
 البعض ، وجعل يرجفُ ويرعد ، ويزأرُ كالأسد ، ويتململُ كريحتهِ تغلبها الريحُ في
 قاعِ البلد ، واستمرَّ على ذلك زماناً ، يتأملُ فيما يفعلهُ بي إِساءةً وإِحساناً ، إلى أنْ
 سكنتْ رعدتُه ، وبردتْ هممتُه ، فأَينْتُ سطوتُه ، وقَهَرَ جدى سورَتَه . ثمَّ أَقبلَ
 عليَّ ، ورفعَ رأسه إليَّ ، وقال : أَمَا أَنْتَ فَسَتَلْقَى أَبِي غدا ، فَيَقْتَصُّ لَهْ مِنْكَ جَبَّارُ
 السما ، وَأَمَا أَنَا فَلَا أَخْفِرُ ذِمِّي^(٧٧) ، وَلَا أَضِيغُ جَوَارِي وَحَرَمِي ، وَلَا يَصِلُ إِلَيْكَ
 مكروهٌ مِنِّي ، وَلَكِنْ قُمْ وَاحْرَجْ عَنِّي ، فَلَسْتُ آمِنُ نَفْسِي عَلَيْكَ ، وَلَا أَقْلُرُ بَعْدَ
 اليومِ أَنْظُرُ إِلَيْكَ . ثمَّ دفعَ إليَّ ألفَ دينار ، وقال استعنْ بها على ما تختار ، فلمْ
 أَخْذْهَا وَلَا نَظَرْتُ إِلَيْهَا ، وخرجتُ من دارِهِ ولمْ أعرجْ عليها ، ولمْ أَرْ أَكْرَمَ مِنْ ذَلِكَ
 الرجلِ وَلَا أَحْلَمَ ، وَلَا أَعْظَمَ مَكَارِمَ مِنْهُ وَلَا أَجْسَمَ .

وإنَّما أوردتُ هذه الحكاية ، وفي الله مولانا الملكُ شرُّ النكاية ، ليعلمَ أَنَّ الذنْبَ
 الكبير ، يستدعي العفوَ الكثير ، ثُمَّ قدرُهُ عظيم ، وحسبُهُ جسيم ، ونسبُهُ كريم ،
 كما قيلَ في محكمِ الكتابِ الحكيم ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ

^(٧٧) الذمة : العهد والإجارة .

أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ . وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٦٨﴾ .

فقال الوزير : ناموسُ السلطنة وحشمتها ، وهيبةُ الملك وحرمتها ، لها شروط ، كلُّ منها محرَّرٌ مضبوط ، وبالحفاظةِ عليه محوط ، لا بدُّ من إقامة أركانها ، وتشديد بنيانها ، ويجبُ الوفاء بها على المملوك والملك ، ويُفترضُ القيامُ بها على سلاطين الممالك ، والإخلالُ برعايتها وهنَّ في الولاية ، فلا غنى عن العملِ بها ورعايتها أحسن رعاية ، فمن ذلك أن لا يسامح جماعة ، ولا يغفل عنهم وعن كيدهم ساعة فساعة ، ولا يركن إليهم في إقامة ولا سير ، حيث لا يصدرُ عنهم للملك ولا للمملكة خير ، فمنهم مَنْ يعزلُ الإنسان عن منصبه ، من غيرِ وقوفٍ لعزله عن سببه ، ومنهم مَنْ يوالي أعداء الملك ، وهو ذو اجزاءٍ منهمك ، ومنهم مَنْ يراعي مصلحة نفسه ، ويقدمها على مصلحة خدومه في حالتي رخائه وبأسه ، ومنهم مَنْ يفشي سرَّهُ ، ولا يراعي خيرةً وشره ، ومنهم مَنْ يتعرضُ لسقطه وغلطه ، لتغيير خاطره وسخطه ، ومنهم مَنْ ينتقصُ حرمة ، ويتتهكُ عظمتَه وحشمتَه ، ومنهم ذو الطبع اللئيم ، المفسدُ في الحريم ، ولا شكَّ أنَّ أبا نوفل ، المهملَ للغفل ، قد ارتكبَ بعضَ هذه الصفات ، وهو متلبَّسٌ بأشنع الحركات ، وهذا يدلُّ على لوم أصله ، وشؤم محله ، وسوء طويته ، وفساد نيتِه ، ومن أكرم اللئيم فهو اللوم ، وهذا أمرٌ معلوم ، وقد قيل :

إِذَا أَنْتَ أَكْرَمْتَ الْكَرِيمَ مَلَكَتْهُ وَإِنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَ اللَّئِيمَ تَعَرَّدَا

فقال أخو نهشل الفقير ، لا تقلُّ ذلك أيُّها الوزير ، فإنَّ أبا نوفل عبدٌ خديم ، وخلصٌ قديم ، وظريفٌ نديم ، ومحبٌ صديق ، وودودٌ شفيق ، أمينٌ نقه ، ذو

(٦٨) قرآن كريم ، سورة فصلت : ٣٤ - ٣٥ .

وفاء ومقة^(٧٩) ، حبّ ناصح ، وجليس صالح ، لم يعلم مولانا الملكُ عليه إلا الخير ، ولم يزل يسيرُ في طريقِ العبوديّةِ أحسنَ سير ، ولم يطلعْ منه على شيءٍ يعييه ، ولا يثنيه في الدارين ولا يرييه ، بل هو ملازمٌ لوظائفِ عبوديته ، مباشرٌ لما يجبُ عليه من شرائطِ خدمته ، لم يصدرْ عنه أبداً غشٌ لمخلومه ، ولا خروجٌ عن امتثالِ أوامرِ مرسومِهِ ، فإن صدرتْ منه هفوةٌ نادرة ، أو سهوةٌ بادرة ، أو جفوةٌ سادرة ، فحلّمْ مولانا الملكُ لا يقتضي ، بل ولا يرتضي ، إطراحَ هذه الأوصافِ المتعاضدة ، لأجلِ هذه الزلّةِ الواحدة ، كما قيل :

لَإِنْ يَكُنْ الْعَلَلُ الَّذِي سَاءَ وَاحِدًا فَافْعَالُهُ أَلَا تَسِرُّنَ الْكُوفُ

مع أنّه حصلَ له من كسرِ الخاطر ، وإحراقِ القلبِ وإغراقِ الجفنِ الماطر ، ما لا يجبرُهُ^(٨٠) إلاّ العواطفُ السلطانيّةُ ، والمراحمُ الشريفةُ للملوكيّةِ ، ونظرةٌ من الخنوّ والعطف ، وذرةٌ من الشفقةِ واللطفِ تكفيه ، ومن أليمِ الجفاءِ تنحيه ، وبعدِ شدّةِ الممانّةِ تحييه ، وإلاّ فلا نعرفُ أحداً يجبرُ كسرَ ذلك الوهنِ أبداً ، إلاّ الآلاءُ السلطانيّةُ من يَدِ العلوِّ ، تعالى مقامُها إلى درجاتِ السموِّ ، والعطفُ والخنوّ . ثمّ عطفَ على الدّبِّ ، وقد حفرَ لإيقاعِهِ في الجبِّ^(٨١) ، وقال : أما أنا مع قلةِ البضاعةِ ، واحتقارِ مقامي بين الجماعة ، فقد أقمتُ نفسي لما وجبَ عليها في مقامِ الشفاعةِ ، فلا أقصُرُ فيها ولا أرجعُ عنها ، ومن يشفعُ شفاعةً حسنةً يَكُنْ لَهُ نصيبٌ منها ، وأسألُ صدقاتِ مولانا أبي اللباسِ^(٨٢) ، المساعدةَ في إنجازِ هذا الالتماسِ ، وأن يكونَ

(٧٩) مقة : حب وإخلاص بغير غرض أو هوى .

(٨٠) يجبره : يصلح شؤونه ويعطف عليه ويصلح حاله ويعوضه ما فقد .

(٨١) الجب : البئر الواسعة .

(٨٢) أبو اللباس : مَنْ يُلتَمَسُ منه قضاء الحاجات (يعنى الملك الأسد) .

شريكا لي في إحرازِ هذا الجُعْل^(٧٣) ، والوصولِ إلى أنواعِ الفضل ، من هذا الفصل ، فإنه يردُّ عنافة "وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً" وأرجو من وزيرِ الممالك ، أن لا يقعَ منه مخالفةٌ في ذلك ، فإن مَنْ سَكَنَ الكَرْمَ في رُبْعِهِ ، لا يصدرُ منه إلّا ما يليقُ بكرمِ طبعه ، واللّيمُّ يتكلّف ، بل يحسد عليه ويتأسف ، إذا شرعَ في مكارمِ الأخلاق ، وتعاطى فيها ما لم يقسمه له مقسمُ الأرزاق ، ترى وجوهَ محاسنها ، في مكامئها ، تسترُّ منه بأنقابِ النشوز^(٧٤) وأبكارِ خلدورها ، ففى قصورها ، تراءى لعينه فى صورةِ شواء عجز^(٧٥) ، فلا يطاوعه لسانه فى طيبِ المقامِ إلى طيبِ المقال ، ولا يبعثه جنانُه إلى مباشرةِ حسنِ الفعل ، فيصيرُ كما قيل :

يرادُّ من القلبِ لسيانكم وثأى الطباغِ على الناقل

والنفسُ على دينِ ملوكهم ، سالكون طريقَ سلوكهم ، وحيث كان مولانا الملكُ مجبولا على الشفقةِ الكاملة ، والمراحمِ الشاملة ، فكأننا يجبُ على ذمتنا ، ويلزمُ دائرةَ هممتنا ، أن نتعلّقَ بأخلاقِهِ العلية ، ونتشبّثَ بأهدابِ شمائلها الرضية ، وتعاونَ جميعاً على التزيّنِ بملايسةِ ملايسها البهية ، ونستضيءَ بل نهديّ في دياجيرِ المعاشِ بدرارى أفلاكِ صفاتها الزكية ، فإنَّ العبدَ فيما يتعاناه ، مجبولٌ من طينةِ مولاه ، وأنَّ اللهَ جلَّ وعلا ، لا يضيعُ أمرَ مَنْ أحسنَ عملا .

قال : فألجمِ الدبُّ ذو الساقطة ، بما فعلهُ بهِ من المغالطة ، ثمَّ أمسكوا عن الكلام ، وانتظروا ما يصدرُ من الضرغام ، فلم يُبدِ خطابا ، ولا أنهى جوابا ، سوى أن قال : صلُّوا فى الرحال ، ولا تسدوا ولا تعيدوا ، ولا تنقصوا فى هذه القضية ولا تزيّدوا ، حتى أمعن فيها النظر ، وأستشيرُ فيها مُشيرَ الفكر ، فمهما أشارَ إليهِ

^(٧٣) الجعل : الأجر والثواب ، وأنقاب واحدتها نقاب .

^(٧٤) وذلك لحساسية نفسه .

^(٧٥) وذلك لرداءة طبعه ، وكل جر بما فيها تنضح .

الرأي ، وأرشد إلى اتباعه الهدى ، فيما يتعلق بحاله ، تقدمت إليكم بامتثاله . فلما انصرفوا توجه أخو نهشل إلى الحبس ، وذكر لأخيه ما جرى بينه وبين ذلك النحس ، ثم قال : أبشّر بالنجاح ، والفلاح والصلاح ، فقد رأيتُ في حنين الفوز نور صباح ، ولاشك أن الله الغفور ، يُجري على يدي ولساني من الأمور ، ما يجلب السرور ، ويذهب الشرور ، فكُنْ أوثق صبور ، وإن حصل في الطريق ، عقبة تعوق ، فلا يَكُنْ في صدرك حرج ، فإن وراءها باب الفرج ، فإن الظفر ، مقروء بالصبر ، والصبر مشفوع باليسر ، وقد أجاد صاحب الإنشاد :

اصْبِرْ عَلَى مَا جَرَى مِنْ سَابِقٍ قَدْ نَاقَا فَمَرْكَبُ الصَّبْرِ بِالْإِمْهَالِ تَلْتَقِي

فشكر له جميل سعيه ، ثم عرض على مشير وعيه ، فقال : كنتُ أرى أن هذه القضية توخر ، ويُرجى السعي في أمرها ولا يُذكر . وسبب ذلك أن الطالع قد أدهر ، والحظ عن المساعدة قد تأخر ، وإذا تحرك الشخص والسعد ساكن ، وتبسم الدهر والزهر باك ، وطلب شكر مسالته وهو شاك ، فهو كقاطع البحر بالمرآكين^(٣٧) ، والبانى على تبحر^(٣٨) أماكن ، لا يصلح له عمل ، ولا ينجح له أمل ، فيشبه إذ ذاك الحمار ، المعصوب العينين في المدار ، يقطع بالسير زمانه ، ولا يفارق مكانه . كذلك من يتعاطى الأعمال ، ولا سعد غير عمال ، فلا يستفيد إلا التعويق والتبليد ، ففى تلك الحال ، ينبغي الإمهال لا الإهمال ، إلى أن يتوجه السعد بالإقبال ، فعند ذلك مُدَّ الشباك ، وصدَّ السماك ، فإنَّ السعد أذاك ، والدهر وذاك . وناهيك قصة كسرى القديم ، مع وزيره بُزْجِيهَر الحكيم ، فسأل أحبا نهشل ، بيان ما نقل ، من المثل ، أخوه أبو نوفل .

(٣٧) المرآكين (جمع مرآك) : وعاء تغسل فيه الثياب .

(٣٨) تبحر : المتوسطة بين الجيد والردىء ، يعنى أرضا مبهمة غير صالحة .

[٤/٥] قصة ضياع خاتمة كسرى

فقال : بلغنى أنَّ كسرى أراد التنزه ، فثنى إلى حديقة عِنَانِ التوجّه ، وطلب الحكيمَ بزرجمهر ، وجلسا تحت دوحه زهر ، على بركة ماء أصفى من دموع العشاق ، وأنقى من قلوب الحكماء ، ثم طلب طائفة من البط ، لتلعب قدامه فى البركة وتغط ، وجعل ينادم وزيره ، ويتلقف منه حِكْمَه المنيرة ، ويتعرج على البط وهو يلعب ، ويتأمل فى أنواع حكم الصانع القديم وبطرب ، وصار يعبث بالخاتم فى إصبعه ، ويسرّخ فى رياض الصنع سوائم منظره ومسمعه ، فسقط الخاتم من إصبعه ، وهو ساه . وشاهد بزرجمهر هذا الأمر فما أبداه ولا أنهاه ، فالتقمته بطة . وغطت فى الماء غطه ، وكان فيه فصٌ ثمين ، وكسرى به من المغرمين ، فلما سَوَدَ قَلَمُ الاقتدار ، بياضَ النهار ، وأكْمَلَ مَشَقَّهُ ^(٧٨) على قِرطاسِ الأقطار ، أَدِنَ كسرى للوزيرِ بالانصراف ، وقد أسبغ عليه خلط الإنعام والإسعاف ، ودخل كسرى إلى الحرم ، واقتقد من إصبعه الخاتم ، فلم يتذكر ماجرى له ، ولا وقف على كيفية هذه الحالة . فأرسلَ بطلب الوزيرِ البارِع ، وسأل منه عن خاتمه الضائع ، وكان الوزيرُ قد نظر فى الطالع ، فرأى أن الكلام فى أمر الخاتم غير نافع ، فلو تكلم بصورة الواقع ، ذبح جميع البط وما وجد لأنَّ الطالع مانع ، فكسَمَ أمره وكَلَمَه بكلامٍ لحقيقة الحدِّ جامع مانع . ثم انصرفَ وذهب ، واستمرَّ كسرى على الطلب ، ولم يزل بزرجمهر يراقب الأوقات ، وينظر فى أحوالِ الساعات ، إلى أن استقامَ الطالع ، وزالَ من السَّعَدِ المانع ، وتيمَّنَ الفال ، وحسَّنَ البال ، وحال الوَبَال ، فتوجه بزرجمهر إلى خدعة غُدمه ، وأخبره بما كان مخفياً من أمر الخاتم فى

^(٧٨) مشقة : نموذج للخط الجيد ، يحاكيه المتعلم لتحسين خطه . والعبارة كناية عن انتهاء ضوء النهار ودخول الغلام .

جَيِّبُ مَكْتُومِهِ ، وَأَنَّهُ سَقَطَ مِنْ إَصْبَعِهِ ، وَهُوَ عَلَى الْبِرْكَةِ فِي مَوْضِعِهِ ، فَبَادَرَتْ بَطَّةً ، إِلَى الْغَطَّةِ ، فَاعْتَظَفَتْهُ وَابْتَلَعَتْهُ ، بَعْدَمَا التَقَمَتْهُ ، فَأَحْضَرُوا الْبَطَّ جَمِيعَهُ ، وَذَبَحُوا مِنْ عَرَضِهِ^(٧٩) وَاحِدَةً بِدِيْعَةٍ ، فَوَجَدُوا الْخَاتَمَ فِي حَشَايَا ، وَلَمْ تَخْرُجْ إِلَى ذَبْحِ سِوَاهَا . ثُمَّ سَأَلَ كَسْرَى الْحَكِيمِ الْأَدِيبِ ، لِمَ لَمْ يُخْبِرْهُ بِهَذَا الْأَمْرِ الْغَرِيبِ ، فِي أَوَّلِ وَقْعِهِ وَصَلْوَرِهِ ، وَمَا مُوجِبُ تَأْخِيرِهِ . فَقَالَ : كَانَ إِذْ ذَاكَ الْجَدُّ فِي انْعِكَاسٍ ، وَالسَّعْدُ فِي انْتِكَاسٍ ، وَالطَّالِعُ فِي سَقُوطٍ ، وَالنَّجْمُ فِي هَبُوطٍ . وَأَمَّا الْآنَ فَالطَّالِعُ اسْتَقَامَ ، وَالسَّعْدُ كَالْخَادِمِ أَقَامَ ، وَنَجْمُ السَّعُودِ قَدْ حَالَ ، عَنْهُ الْمَهْوَطُ وَالْوَبَالُ ، وَفِي اسْتِقَامَةِ السَّعْدِ ، وَإِقْبَالِهِ مِنْ بُعْدٍ ، يَفْعَلُ الشَّخْصُ مَا شَاءَ^(٨٠) ، فَالْدَهْرُ مَعَهُ جَارٍ سِوَاءٍ جَارِيٍّ أَوْ مَاشِيٍّ .

وَأَمَّا أوردتُ هذا النُّظْرَ ، لِتَعْلَمَ أَنَّ مَعَانِدَةَ التَّقْدِيرِ ، أَمْرٌ خَطِيرٌ ، وَخَطْبٌ عَسِيرٌ ، فَرُبَّمَا يَفْرُغُ الْإِنْسَانُ جَهْدَهُ فِي الْمُبَالِغِ ، وَيَكُونُ الْأَمْرُ فِيهِ مَمْنَعَةً وَمِرَاوِغَةً ، فَيَنْعَكِسُ الْمِرَامُ ، وَلَمْ يَحْصُلْ سِوَى إِضَاعَةِ أَيَّامٍ ، وَلَمْ أَذْكَرْ هَذِهِ الْمَفَاوِضَ ، إِلَّا عَلَى سَبِيلِ الْعَرَضِ لَا الْمَعَارِضَ ، لِمَا أَعْلَمْتُ مِنْكَ مِنْ وَفُورِ الْفَضِيلَةِ ، وَإِنْ مَقَاصِدَكَ عَلَى كُلِّ حَالٍ جَمِيلَةٌ ، فَقَالَ أَخُو نَهْشَلٍ : الْأَمْرُ كَمَا زَعَنْتَ ، وَأَشْرَتْ بِهِ وَرَسَمْتَ ، وَلَكِنْ خَشِيتُ إِنْ لَمْ أَبَادِرْ ، يَسْبِقُنِي عَدُوٌّ غَادِرٌ ، أَوْ حَسُودٌ مَآكِرٌ ، أَوْ مَبْغِضٌ مَكَابِرٌ ، فَيَنْهِي إِلَى الْمَسَامَحِ ، مَا لَيْسَ بِوَاقِعٍ ، فَلَمْ تَشْعُرْ أَتَيْهَا الْبَطْلُ ، إِلَّا وَقَدْ وَلَّجَ قَلْبَ الْمَلِكِ أَنْوَاعَ مِنْ مَكْرٍ وَدَخَلَ ، فَيَصِيرُ كَمَا قِيلَ :

أَتَانِي هَوَاهَا قَبْلَ أَنْ أَعْرِفَ الْهَوَى لِمَصَادَفِ قَلْبًا خَالِيًا فَتَمَكَّنَا

لَا سِيَمَا وَقَدْ تَقَرَّرَ فِي الْأَمْتَالِ ، عِنْدَ غَالِبِ الرِّجَالِ ، أَنَّ الدَّعْوَى لِمَنْ سَبَقَ ، لَا لِمَنْ صَدَّقَ . وَبِالْجَمَلَةِ يَا أَبَا عُوَيْلَةَ ، إِذَا كَانَتْ مَقَاصِدُ الشَّخْصِ جَمِيلَةً ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى

(٧٩) عَرَضُهُ : وَقَعَ اخْتِيَارُهُمْ عَلَى وَاحِدَةٍ بِالْصَّدَقَةِ ، عَرَضًا ، مِنْ حَابِطِ الْبَطِّ الَّذِي تَمَّ جَمْعُهُ وَإِحْضَارُهُ .

(٨٠) شَاءَ : عَقَفَ شَاءَ .

يتجشها ، ولا يفضحها ، ويدبرها ، ولا يدمرها ، وإن كان في الظاهر وعند البادي والحاضر ، يظهر في بعض القضايا نوعٌ همٌ وغمٌ ، لكنَّ ذاك كسيرٌ لم يطلع عليه إلا مدبرُ العالم ، وإذا فوّض الشخصُ الأمور ، إلى العزيزِ الغفور ، الذي هو مدبرُ الطالع والغارب ، وفي الحقيقة ربُّ المشارقِ والمغارب ، وعَلِمَ أن مقاليدَ الأمور بيد تدبيره ، وأن ملوكَ الأرض تحتَ تصرّفِ تقديره ، وتسخيرِه ، استراحَ في كلِّ المطالع ، وأخلصَ التوكّلَ فنجاهُ الله من كُلِّ الوقائع ، وأوصلَه إلى ما رام من المطامع .

وحسبك قضيةُ الناصحِ الأستاذ ، الأمينِ الدمشقيِّ مع الخائنِ جاسوسِ بغداد^(٨١) ، وهي طويلةٌ طائلة ، في جملدٍ كاملة ، وأيضاً لم أبادرُ بمفاتحةِ السلطان ، في أمركِ يا أعزَّ الإخوان ، إلا لئلاً أنسبَ إلى تهاونٍ وتوان ، وما من شروطِ المروءة ، والصدقةِ والأخوة ، أن يتخلّفَ القطّين ، في مثلِ هذا الموطن ، عن مساعدةِ الأصحاب ، ومعاونةِ الأحباب ، ولا سيما صديقٍ مثلك ، وحبيبٍ متمسِّمٍ بفضلك ، وأنّي لا أدعُ من أنواعِ الاجتهاد ، وما يحسنُ بيالي في الإصدارِ والإيراد ، شيئاً إلا فعلته ، ولا أمراً إلا قدّمته ، ولا فكراً إلا استعملته ، ولو بقلتُ في ذلك روجي ومالي ، وخيلي ورجالي ، وأنّي مبكّرٌ بابِ الملك ، وملازمٌ كأحسن من سدك^(٨٢) ، فإن رأيتُ مكرماً مقامي ، مُصنِئاً إلى كلامي ، خاطبتهُ بما يليق ، وسلكتُ في الشفاعةِ وخلّوِ العبارةِ أوضحَ طريق ، وإن شاهدتُ في خلقيهِ شكاسة^(٨٣) ، وفي طبعهِ شراسة ، وصعوبةَ وشماسة ، سلكتُ سبيلَ حُسنِ السياسة . وفي الجملة استعملُ عِلْمَ الفراسة ، وفي كلِّ حُكْمٍ نظيرةَ وقياسه ، وأستعينُ

(٨١) بغداد : مدينة بغداد ، ولفظها بالذال على أصلها الفارسي ، واستوجب نطقها بالذال ضرورة السجعة ،

(٨٢) سدك : سدك بالشيء : لزمه .

(٨٣) شكاسة : سوء خلق ، أو عُسر في معاملته .

بالأقرباء ، والأوْدَاء ، وأغالبُ المناقِضَ والمعارضَ من الأعداء ، وأقصد النّجَحَ وأراقبُه ، وارْتَقِبُ السَّعْدَ وأخطبُه ، وأسَلِّكُ مع كُلِّ أَحَدٍ ما يَناسبُه . فالعدوُ أَقْتَلُه ، والحسودُ أَحْتَلُه^(٨٤) ، والعدولُ أَقْتَلُه^(٨٥) ، والمُعِيبُ أَحْتَلُه^(٨٦) والمبغضُ أَهْلُه^(٨٧) ، وَمَنْ تَصَلَّبَ في المدافعةِ أمثلُه^(٨٨) ، إلى أن ينقضيَ هذا الامر ، وينطفئَ منه الجمر ، ويُقبَلُ مُبَشِّرُ الأمانِ بالطَّيْلِ والزمر .

ثُمَّ أَنَّهُ باتَ مفكراً ، وبادر إلى الصباح مبكراً ، وأم^(٨٩) أبوابَ السلطان ، قبلَ سائرِ الخدمِ والأعوان ، فوجدَ الدُّبَّ قد سبقه ، وجلسَ من عَيْنِ المكروهِ في الحَذَقَةِ ، وقد فَوَّقَ سَهْمَ الكيدِ ، وصَوَّبَهُ إلى شاكِلَةِ الصيدِ ، ولم يبقَ إلَّا إطلاقه ، ليشدَّ من المرمى وثاقه . فقبِلَ النديمُ الأرضَ وأعلن سلامه ، وقطَعَ على أبي حميدٍ كلامه ، وعارضَ ملامه ، وناقضَ مرامه ، وقال : أدامَ اللهُ أَيَّامَ السَّعادةِ ، وأعوامَ الحَسَنِ وزيادة ، المستمدةُ من بقاءِ مولانا السلطان ، وعَمَرَ دهرَه المخلَّدَ على تعاقبِ الزمان ، وأوطأ قِمَمَ الأُصمِ مواطنَ قَدَمه ، وأطابَ بِطَبيبِ حياتِه معاشَ عَيبِه وخَلِمِه ، كانتِ المواعيدُ الشريفة ، والآراءُ النيفة ، سبقتُ بالتأملُ في أمرِ عَبدِها القديم ، وخَلِمَها الفقيرُ العديم ، وجالِبِ سرورِها "أبو نَوفَل" النديم ، مع ما كان لائِحاً ، وعلى صَفحاتِ الرضا واضِحاً ، من شمائلِ الأخلاقِ الملوَكِيَّةِ ، ومكارمِ الشَّيخِ السلطانيَّةِ ، أنْ مراجعَها ستأخذُ بِيَدِ العائر ، وتَقِيلُ عَثَرَتَه بِحَسَنِ المآثر ، بحيث

(٨٤) أَحْتَلُه : أَزَلَّجُه وأَحْدَعُه .

(٨٥) أَقْتَلُه : أَصْرَفَ وجهي عنه وأَعْتَرَى منهُ .

(٨٦) المُعِيبُ : المَراوِغُ المُخادَعُ المُفْشِشُ . وأَحْتَلُه : أَحْثَلُ عَلَيهِ (وقد حَلَفَ حَرفُ العِلَّةِ لضرورةِ السَّجَمِ) .

(٨٧) أَهْلُه : أَجْعَلُه مِثْلَيا بِمِصْبِي (حَلَفَ حَرفُ العِلَّةِ لضرورةِ السَّجَمِ) .

(٨٨) أَهْلُه : أَجْعَلُه أَهْلًا لَمُتْلَةٍ وعِرة .

(٨٩) أَمَّ : قَصَدَ وتَوَجَّهَ .

يشرحُ الخاسر ، ويربحُ الخاسر ، والمملوكُ يسألُ مراجعها ، ويرجو مكارمها ، أن لا تَقْبَبَ بتحقيق ظَنِّهِ وَهَنَهُ ، وأن تجري ممالكُها وعيبتها ، على مَنْ عَوَّدَهَا من الصدقاتِ قديمها وجديدها ، ثم أنشد ، وإلى الرضا أرشد :

أرجو أبا العباسِ أن يَرْوِي لنا عن قفْرِ الضحاكِ سوراً يُقْبِسُ
فأقرأ : تبسم ضاحكاً من قولها مهلاً لمخوي ولا تقرأ : "عبس" ^(١٠)

فتبسم أبو العباس ابتسامة ، ظهرت منها للرضا علامة . فاشتعل الدبُّ من القيقظ ، وكاد يتمزقُ من الغيظ ، وعلم أنَّ عِقْدَ أمرِهِ انفرط ، ونَجَمَ سعيهِ من فَلَكِ السعدِ سقط ، وأنه لم يكتسب من مكاييدِ القساوة ، إلَّا هاتيكِ العداوة ، وانكشفَ عندَ مالِكِهِ ما وَطَّئَهُ من مُغْطَى ، وقرأ كلُّ أحدٍ حديثَ ذلك الموطأ ^(١١) ، وغلب عليه الوجهُ في الحال ، فخرج عن دائرة الاعتدال ، وسكَّر من حمرة العداوة فطَفَحَ ، وعربَدَ وشطَحَ .

فقال : كلُّ مَنْ سَرَّ على أعداءِ الملك ، فهو في الخيانةِ والجنايةِ مشرَّك ، وكلُّ مَنْ شَفَعَ في الجاني ، فهو في قَيْدِ العصيانِ عاني ، بل هو أشدُّ من المباشر ، إذ هو معاشر ، للمتعاطي ومكائر ، والإبقاء على المعصية شرٌّ منها ، والرضا بكفرِ الكافرِ فتنةٌ يُفَرُّ عنها ، وما أظُنُّكَ أيُّها النديم ، العارفُ القديم ، لمعرفةِ هذا القدرِ عديم ، فإنَّ آيَةَ الإصرار ، ومساعدةِ الفُجَّار ، ومعاونةِ الأشرار ، فأنَّتْ حيثُ لا تُستحيى لَهِيَّةٌ وَلِيَّ نعمتيك ، مستنقصٌ حرمةِ مالِكِ رقبتيك ، طالبٌ لاثبالِهِ ، مستهينٌ بمقامِ جلالِهِ ، راضٍ بتسليطِ الأندال ، والأوغادِ والأرذال ، على انتهاكِ

^(١٠) عبس : يعنى سورة "عبس وتولى" فى القرآن العظيم .

^(١١) للموطأ : مخفف الموطأ .

حرمته ، وابتكاك^(١٦) أستاذ حشمته ، ونحن لا نرضى بذاء الذمامة^(١٧) ، ولا كيدَ للمخالفو ولا كرامة .

ف عند ذلك استشاط الغضنفر ، وتأنثر لكلام الوزير وتغير ، وزار وهمر^(١٨) ، وزفر زفرة وزجر ، وكاد أن يثب على أبي جهم^(١٩) ، ثم إنه تماسك ، وتناسى الغدر وتناسك ، وقال : يا أبا سلمة^(٢٠) كبرت كلمة ، غيبة الأصحاب ، والنميمة بين الأحباب ، وساءت حركة ، وبست ملكة : تناسى الحقوق ، ونحاسى^(٢١) الحقوق ، وإطراح جانب الصديق والصدق ، والرفيق الشفوق ، وإضاعة خدمة الخديم ، لاسيما النديم القديم ، ولم تزل الأصاغر ، تستمطر مراحم الرؤساء والأكابر ، ولم تبرح الملوك ، تعطف على مسكينها الصعلوك ، أنسيت ما قلت لك في حقيقة من ملك ، وهو :

ليس الملك الذي تشقى رعيته وإنما الملك مولى يحفظ الخيتما

وأبضا لم تزل الأصحاب تساعد أصحابها ، وتستعطف عليها ملوكها وأربابها ، وترفع بحسن السفارة من ستائر الدهشة حجابها ، ويثبتون بذلك الأجر العظيم ، والثواب الجسيم ، والثناء العاجل ، والجزاء الآجل ، في صحائف مخادعهم ، ويعلمون ذلك أربح معاليمهم ، ويذلون في ذلك الجهد ، ويلقون فيه غاية الكد ، وذلك مما يجب عليهم ، ويتقدم بالحفاظلة عليه إليهم ، كما قيل :

(١٦) ابتكاك : قطع أو اقتلاع أو نزع .

(١٧) الذمامة أو اللثام : وهي العهد والأمان والكفالة . ومن معاني اللممة أيضا : الإشفاق من الدم واللوم .

(١٨) همر : دملم بفضب ، وضرب الأرض برجليه .

(١٩) أبو جهم : جهمر له الخبر ، أو عليه : أمره يبعثه على غير وجهه ، وأخفى عنه المراد . (وأبرجهم هنا تعنى الضيق) .

(٢٠) أبو سلمة : من أسلمه لغيره بمعنى خلله وأعمله وتركه لعدوه . (يعنى الوزير الذئب) .

(٢١) نحاسى الحقوق : تقصيرها والبحث عنها ، وأيضا : تجربتها أو احتساؤها جرعة بعد جرعة .

يستعطفون الأكابر يستمدون الأصاغر
يحجون رسم الأوائل يعلمون الأواخر

وأَيُّ فائدة استفادة ، أيها الوزيرُ أبا قتادة^(٩٨) ، في رعية ملك لا تتفق قلوبهم ، ولا تستر بينهم عيوبهم . ولا تطهر بالصفاء جيوبهم ، ولا تتجافى عن مضاجع الجفاء جنوبهم ، ولا يتساوى في الوفاء حضورهم وغيوبهم ، تراهم في الغيبة يفت بعضهم بعضاً فتاً ، ويرعون لحومهم فتاً^(٩٩) ، كبهايم لاقت في فتاً^(١٠٠) ، وفي الحضور تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى . ثم إن كان أخو نهشل ، يساعد أخاه أبا نوفل ، فذاك شيء يجب عليه ، ويُندب إليه ، فإنه صاحبه القديم ، وجليسه القويم ، وإن تخلى عنه ، فماذا يرجى منه ، وحجر النواصب هو محك الأصحاب ، وحجر المصائب يظهر من ثمر الصداقة اللباب . وقد قام في هذه النواصب ، بعدة أشياء كلها عليه واجب ، أولها : القيام بحق أخيه ، والسعي في خلاصه من هذا الأمر الكريه . ثانياها : ساق إلى صحائف الحسنات ، وقصد لي رفع الدرجات . ثالثها : طلب رضا خاطري ، وما يشرع صدري ويسر سرائري . رابعها : مباحثتي عن الآثام ، وخلاص ذمتي من الوقوع في الحرام ، فوئما يحملني العنود ، والخلق الشرود ، على التعدي في الحدود . خامسها : اشتهاؤ اسمي بالفضل ، وعدم المواخذة بالعدل ، فيشيع في الآفاق ، عني مكابم الأخلاق . سادسها : انتشار صيبي بحسن الوفاء ، والقيام بحقوق الإخوان وعدم الجفاء . سابعها : أنه غرس في قلوب الأماثل محبة ، وزرع في أرواح الأفاضل مودته ، وإن كان صلر ، من أبي نوفل ما

(٩٨) أبا قتادة : الوزير الدب ، والكنية هنا مشتقة من القتاد ، وهو نبات صلب له شوك كالإبر .

(٩٩) فتاً : كذبها ومزوراً . غيبة واختيائها .

(١٠٠) فتاً : هنا بمعنى : جنس نباتات عشبية كثيفة وهي أيضاً الفيضوصفة اليابسة ، واحدها فتة .

صَدَرَ ، فَإِنَّهُ اعْتَرَفَ بِالذَّنْبِ وَعَنهُ اعْتَذَرَ ، فَتَعَمَلُ مَعَهُ بِالظَّاهِرِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَتَوَلَّى السَّرَائِرَ ، كَمَا قِيلَ :

اقْبِلْ مَعَاذِيرَ مَنْ يَأْتِيكَ مَحْضِراً إِنَّ بَرَّكَ عَنْكَ لَمَّا قَالَ أَوْ فَجَرَا
فَقَدْ أَطَاعَكَ مَنْ أَرْضَاكَ ظَاهِرُهُ وَقَدْ أَجَلَّكَ مَنْ يَعْصِيكَ مَسْتَرَا

ولو بلغت هذه الحكاية ، غاية الشر ونهاية النكاية ، ما تُدَانِي واقعة الملك الصافح ، عن عدوِّه المُوْذِي^(١١١) . المسافح - فقَبِلَ الدُّبَّ الْأَرْضَ ، وَقَامَ فِي مَقَامِ الْعَرَضِ ، وَسَأَلَ الْمَلِكَ بَيَانَهَا ، لِيَعْلَمَ بِحَسَنِ التَّصْرِيفِ فِرْزَانَهَا^(١١٢) ، وَيَقِيَسَ عَلَيْهَا أَوْزَانَهَا .

[٥/٥] قصة خصم السلطان بين الوترى والكذوب والوترى الصدوق

فَقَالَ : ذَكَرْتُ أَنَّ بَعْضَ السَّلَاطِينِ ، تَصَدَّى لَهُ عَدُوٌّ مِنَ الشَّيَاطِينِ ، يَحْرُضُ عَلَيْهِ الْأَعَادِي ، وَيَفْسُدُ عَلَيْهِ الْحَاضِرَ وَالْبَادِي ، وَيَجْتَهِدُ فِي إِقَامَتِهِ وَمَسِيرِهِ ، فِي إِزَالَةِ الْمَلِكِ عَنْ سَرِيرِهِ ، وَيُغْرِى^(١١٣) بِهِ الْعَسَاكِرَ ، فَيَقَابِلُهُ ظَاهِراً بِالنُّوَكَرِ ، وَبَاطِناً بِالمَوَاكِرِ ، وَمَا فَسَدَ مِنْهُ مَا فَسَدَ ، إِلَّا بِدَوَاعِي الْحَقْدِ وَالْحَسَدِ ، فَجَعَلَ الْمَلِكُ يَسْتَرْضِيهِ بِالْمُهَبَاتِ فَلَا يَرْضَى ، وَيَسْتَدْنِيهِ بِالصَّلَاتِ فَلَا تَزِيدُهُ صِلَاتُهُ إِلَّا بُعْداً وَنَقْضاً ، كَمَا قِيلَ :

إِلَى كَمْ يُدَارِي الْقَلْبُ حَاسِدٌ نَعْمَةً إِذَا كَانَ لَا يُرْضِيهِ إِلَّا زَوَالُهَا

فَاضْطَرَّ الْمَلِكُ مِنْ أُمُورِهِ ، وَاشْتَغَلَ لِإِقَاعِهِ بِنُزُورِهِ ، وَجَعَلَ يَنْصَبُ لَهُ شَرَكَ الْوَقَائِعِ ، وَيَجْتَهِدُ فِي إِقَاعِهِ بِكُلِّ دَانٍ وَشَاسِعٍ ، وَذَلِكَ الْبَاقِي أَحْذَرُ مِنَ الْغُرَابِ ، وَأَسْهَرُ مِنَ طَالِعِ الْكَلَابِ ، وَالْمَلِكُ لَا يَقْرَأُ لَهُ قَرَارَ ، وَلَا يَطِيبُ لَهُ عَيْشٌ لَا بِاللَّيْلِ وَلَا

(١١١) المُوْذِي .

(١١٢) فِرْزَانَهَا : تَصْنِيفُهَا وَتَمْيِزُهَا لِلإِفَادَةِ مِنْهَا .

(١١٣) يَغْرِى بِهِ : يَحْرُضُ عَلَيْهِ الْعَسَاكِرَ لِلتُّورَةِ عَلَيْهِ .

بالنهار . فكان من أحسن الاتفاق ، أن علق ذلك الباغي ببعض الأوهاق^(١٠٩) فحمل إلى حضرة الملك ، وهو في قيد البلاء مشتبك ، فلما رآه في قيد النكد ، بادر إلى الأرض فسجد ، وقال : الحمد لله للمغيث ، حيث أمكن منك أي حبيث . أترى هذا في المنام ، فهو أضغاث أحلام ، أم سمع الزمان ، بأهل العدوان ، وأنا يقظان . ثم شرع في السب والتجديع ، والتوبيخ والتقريع ، وأقسم بغلق الإصباح ، ومخالق الأرواح ، ورأى الأشباح ، ليفعلن بذلك النباح ، من النكال والجراح ، ما فعل المصطفى عليه الصلاة والسلام مع سراق اللقاح ، ولْيَذِقْنَهُ كَأْسَ الْيَأْسِ ، ولْيَجْرَعْنَهُ من حمر المنية أمر كئاس ، ثم أمر الجلاد ، أن يأتيه بما له من التطيع والسيف والعناد . فعلم ذلك الزنديق ، أنه وقع في الضيق ، وأنه لا يُنَجِّيه أخ ولا صديق ، ولا افتدائه بشقيق ، ولا حميم وشفيق ، فضلاً عن مالٍ ومنال ، أو خيلٍ ورجال . فلما غسل يده من العيش ، استهوته الخفة والطيش ، فشرع في السباب ، ودخل في الشتم من كل باب ، ورفع بفاحش الكلام الصوت ، وقال ما بعد الموت موت .

فسأل الملك أحد الوزراء ، ماذا يقول من الافتراء ، هذا الظالم المجتري ، الباغي المفترى ؟ فقال : يدعو بدوام البقاء ، ورفع مولانا الملك والارتقاء ، ويقول ما أحسن العفو عند المقدرة ، واللطف والكرم أيام الميسرة ، وإن لم يكن ثم مجال للمعيرة ، ولو جعل العفو شكرًا للمقدرة ، لكان أولى ، وأعلى مقاماً في مكارم الشيم وأخلى ، كما قيل :

ما أحسن العفو من القادر لا سيما لغير ذي ناصر

^(١٠٩) الأوهاق : جمع وهق ، وهو الخيل في أحد طرفيه أنشودة ، يطرح في عنق الدابة أو الإنسان حتى يؤخذ

ويترحم على أسلاف مولانا السلطان ، الذين كان شيمتهم العفو عن ذوي العصيان ، وكان ذلك منتهى لذيتهم ، وغاية أمنيتهم . وما أحدر مولانا الملك أن يُخَيِّب مكارم سلفه ، ويجعل العفو كلمة باقية في خلفه ، ولا زال يقول ، من هذا القول ، احتى لأن له القلب القاسي ، ورق له قلب الملك الجاسي^(١٠٥) ، فأمر بإطلاقه ، ومن عليه باعتاقه .

وكان أحد الوزراء ، وأركان الأمراء ، شخص يعاكس هذا الوزير ، ويناقضه فيما يراه ويشير ، وبينهما مرّت أسباب عدواة ، أحلى في مذاق طبعيهما من الشهد والحلاوة ، كلّ مترصد للأخر زلة ، متوقع لإيقاعه في شبكة البلاء غفلة . فحين رأى شقة الحال ، نسجت على هذا النوال ، وجد فرصة للمقال ، فتقدّم وقال : ما أحسن الصدق ، ولكن كلام الحق ، خصوصاً في حضرة المخلوم ، وهذا أمر معلّم ، عدوّ مبين وحسوّد مهين ، لم يترك من أنواع العدواة شيئاً إلّا تعاطاه ، ولا من الإفساد والشرّ صنفاً إلّا هياه^(١٠٦) ، قد أهلك الحرث والنسل ، وبذل حتّيّ الصلاح من الفساد بجمط^(١٠٧) وأنزل^(١٠٨) ، إلى أن أمكن الله تعالى منه ، وحان تفرّغ الخواطر الشريفة عنه . ثم إنّه في مثل هذا المقام ، بين الخواص والعوام ، يثلب الأعراض ، من الأمراض ، ويجهّز بالسوء من القول ، ويصرف في الخنى والسب ما له من قوّة وحول ، كيف يحلّ السكوت عن جرائمه ، وتغطية مساويه وعظائمه ، فضلاً عن أن تتحلّى سيئاته في نجس الحسنات ، وتتحلّى شوءاء سواخطر أديته ملابس أحسن الدعوات ، ومع هذا يُطلب له التوقّع والخلاص ، والإطلاق من شرك

^(١٠٥) الجاسي : الصلب الغليظ .

^(١٠٦) هياه وأعدّه .

^(١٠٧) حط : ضرب قليل الحمل (الثمار) من كل شجر .

^(١٠٨) أنزل : شجر طويل غير مثمر ، كثير الأغصان متعديها ، واحده ثلّة .

الاقتناص ، وهو على ما هو عليه ، من الاساءة المتسوية إليه . أما والله يا مولانا
الهمام ، وسلطان الأنام ، ما قال إلا كذا وكذا من قبيح الكلام ، وتناول العرض
المصون بالسب والدعاء والملام .

فتغير خاطر الملك وتعكر ، وتشوش صافي خاطره وتكثر . ثم قال : أيها
الوزير ، ذو الصدق في التحرير ، والله حقك ، إن كذب هذا الوزير عندي خير من
صدقك ، فإنه بكلبيه أرضاني ، وإلى طريق الحق هداني ، وأصفى خاطري من
الكدر ، وأطفأ ما كان تلهب في غيظي من شر ، ولجاني من دم كنت أريقه ، ولا
يهندي إلى كيفية استحلاله طريقة ، فأصلح بذلك ذات البين ، وأصار المتعاضدين
أحسن محبين ، وخلد ذكره بجميل الصفات ، وسلك بي طريقة أجدادي
الرفات^(١٠٠) . وأما أنت فكللت عيشي ، وآثرت غضبي وطيشي ، وأسعتني الكلام
المر ، وقد مسني منك الضر . وأما أنا فقد أعتقت هذا وأطلقت ، فلا أرجع في إلذائه
وقد أعتقته ، وقد ثبت لهذا الوزير عليّ حقوق لا ينكرها إلا ذو عقوق ، ولا تسعها
الأوراق والرفوق^(١٠١) ، فكلبته عندي خير من صدقك ، وباطله أحلى على قلبي من
حقك . ولهذا قال ذو الأفضال " ما كل ما يُعلم يقال " .

وإنما أوردت هذا الكلام - ياكرام - لتعلموا أن السلطان بمنزلة الإمام ، وأركانه
لأنه تبع في القعود والقيام ، ولا يتم الائتمام ، إلا بالاتفاق بين الرفاق ، فإذا كان
الجماعة مجتمعين ، طامعين لإمامهم مستمعين ، استقام القيام ، وانتهوا من جميل
التحيات إلى السلام . ولا يقع لهم انتظام مع مخالفتهم لحال الإمام ، هذا قائم وهذا
قاعد ، وهذا راکع وهذا ساجد ، وهذا نائم وهذا هاجد . وأيضا السلطان بمنزلة

^(١٠٠) الرفات : اللواتي الذين أصبحوا رفاتا ، أي حطاما وقفا .

^(١٠١) الرفوق ، واحداها الرق وهو جلد رقيق يكتب فيه .

القلب والرأس ، ومنزلة الأعضاء رؤساء الناس ، وباقى الرعية خنتم للرأس والأعضاء ، منتظرين لما تبرز به المراسيم من الزجر والإمضاء ، فإذا اتفقت الأعضاء واصطلحت ، انتظمت أمور كل من الرأس والرعية وانصلحت ، وإذا وقع اختلاف وتباين في الأعضاء ، صار كل من الرأس والقلب والرعية مرضى ، ولقد صدق من قال وهو رسول الله ﷺ : المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا . وبخلاصة هذا الكلام ، أن قصدي أن تكون أحوال رعيي على النظام ، لا يقع بينهم شقاق ، ولا تنافر ولا نفاق .

وأما أبو نوفل فيكفيه حياة وحجته ، فقد انتهت وتمت عقوبته ، وأخذ حذره حذره ، لا يلق بكرمي أن أردّه ، وهذا الذي ورثته عن أسلافي ، وهو الحق اللاحق بحاسن شيمى وأوصاني . فلما سمع الوزير هذا الكلام ، وجرح فوائده نصل هذا الملام ، ندم غاية الندم ، وعلم أنه قد زلت به القدم ، وأنه لا حاجة قضى ، ولا على صديقه أبقى ، ولم يستغذ بما أبداه من فجح^(١١١) ، سوى إظهار معاداة أبي النجم ، وأنه إذا تخلص من حسيه وكبريه ، ورجع عند الملك إلى مناديته وقربه ، لا بد أن يتصدى لمعادتي وسليه ، ولا يفيد بعد ذلك أفعاله ، ولا يسمع في أبي نوفل أقواله . فانصرف من عند الملك الطييار^(١١٢) ، لا يدري أين يضئ قدمه من الاقتكار ، حتى وصل إلى منزله ، واختلى في فكره بعمله ، وفرغ للمخلص من هذه الورطة طرقا ، وتفرقت رؤاؤ أفكاره في منازل الخلاص فرقا ، فآذى نصيب الرواد من الآراء ، ومفيد القصاد من الشورى ، إلى السعي في مصالح أبي نوفل ، وإزالة ما وقع من الغبار في وجوه الصداقة وتخلل . ثم آذى اقتكاره ، وأورى من زبد رأيه

(١١١) الفجح : من فجح فجحا : غلط شلقه واتسع .

(١١٢) الطييار : صفة من صفات الأسد تشير إلى كثافة شعر رأسه (لبدنه) قياسا إلى شعر جسمه .

شراره ، إلى أن الذي وقع منه قد اشتهر ، وعلم به أصحاب البدو والحضر ، فإذا طلب من بعده الصلح ، فذلك في غاية القبح ، إذ كل من في حجره حجز ، يتحقق أن ذلك خور وعجز ، فصار يتردد بين هذه الأفكار ، ويتأمل ما فيها من تحقيق الأنظار ، وتدقيق الأسرار . فبينما هو في بحر الافتكار ، يلطمه الموج ويصدئه التيار ، دخل عليه صفي له صافي الوداد ، وهو ظبي أغر - يدعى مبارك الميلاد - ذكي الجنان ، فصيح اللسان ، دقيق النظر ، عميق الفكر ، ذو رأي صواب ، وشفقة كاملة على الأصحاب ، فراه مطرقاً إلى الأرض ، في فكر ذي طول وعرض ، فسلم عليه ، وتقدم بالسؤال إليه ، عن تشوّر^(١١٣) باله ، وتوزع حاله ، فطلب الوقوف على ما ناله ، لينظر عاقبة أمره وماله ، فأخبره بموجب ذلك ، وأنه قد سدت في وجهه المسالك .

فقال مبارك الميلاد : يا صحيح الوداد ، أنت قد زعمت أن مولانا السلطان ، قد ترك أبا نوفل الندمان ، وطرحه إطراحاً لا رجعة فيه ، وأنه بعد اليوم لا يذكره ولا يذنيه ، وأن عثرته لا تقال ، وغصته لا تزول ، وقصته لا تزال ، هيهات هيهات ، يا أبا الترهات ، الملوك إن لم يعرفوا حقوق خدّهم ، ولم يثبتوا في ديوان إحسانهم قدّم قديمهم ، خصوصاً هذا الملك العظيم ، الذي أنفاس شيمه تحي العظم الرميم ، ونحن قد زجّينا عمرنا في خدّهم ، وأذاقنا برد عفوه وحلاوة كرمه ، وغذاء أرواحنا إنما هو غواصي حليمه ، وروائح نعمه ، مع أن أبا نوفل ، لم يقع في محذور معضل ، يوجب تناسي ذمّه ، وابتذال حرمة وحرمة ، وأنه استغفر وأناب ، واعتذر وتاب . واعلم أيها الوزير الأكرم ، أن ذوي النهى والخيّر^(١١٤) ، إذا أرادوا

(١١٣) تشوّر : تشتت باله نتيجة فعل مُحجل .

(١١٤) الخيّر : العقل .

الشروع في أمر ، تأملوا في مبداه ، غايته ومتنها ، وهذا التقرير ، كاجلوس
المقصود من عمل السرير ، فإنما تتبع لصنعة النفوس ، إذا علمت بحصول الرفعة
عليه من الجلوس ، كما قيل :

لأنك والأمر الذي إن تومتعت موارد ضاقت عليك مصادره

أما بلغك يا أعي ، وأكرم سخي ، حكاية التاجر البلخي ؟ قال الوزير : أخبرني
بكيفية هذا التنظير .

[٦/٥] حكاية التاجر البلخي

قال مبارك الميلاذ : بلغني من أحد العباد ، الذين طافوا البلاد ، أنه كان في
مدينة بلخ^(١١٩) تاجر ، كثير العروض والتاجر ، عريض المال والجاه ، غزير الضياع
والمياه ، تكاثر نقوده الرمال ، وتباهى عزائمه معادن الجبال ، وتفاخر جواهره دُرر
البحار ، وتسامى بضائعه تلال القفار ، تراجع عنه الحفظ ، وعامله الزمان بعادة طبعه
الفظ ، وأدبرت عنه من الدنيا القوابل ، ونزلت بساحه موجوده بالإعدام النوازل ،
وولت وفود معايشه فكادت تقد السلاسل ، فصار كلما عامل مُعاملة انعكست
عليه ، حتى تقد جميع ما بين يديه . فلم ير لنفسه أوفق من التغرب عن وطنه ،
والإقامة في سكن غير سكنه ، فأخذ بعضاً من المال ، وخرج من بلاد الشرق إلى
بلاد الشمال ، ودارم في الأرض على الضرب ، حتى انتهى إلى بلاد الغرب ، فأقام
بها دهرًا ، يتعاطى معاملة وتضجرًا ، إلى أن زاد ماله وأثرى ، ورجع إليه بعض ما
ذهب من يديه ، ثم اشتاق إلى بلده ، ورؤية زوجته وولده ، فتجهز إليها ، وسار

^(١١٩) بلخ : مدينة تقع بين شرق خراسان وجنوب نهر جيحون ، فتحها العرب سنة ٦٥٣ م .

حتى نزل عليها ، وأراد الدخول إلى داره ، فأوقفه مثير افتكاره ، إلى إعمال
النظر ، في حادث القضاء والقدر ، وأنشدته الزمان ، بلسان البيان :

للكون دائرة من قبلنا صنعت لأبي تضيق ولا من أجلك اتسعت
والسر في جيب غيب الله مكنم فليست تدرى يد التقدير ما صنعت

فراى أن يدخل متنسياً ، متنكراً متخفياً ، ويتوصل إلى داره ، ويتجسس أحوال
كباره وصغاره ، وما حدث عليهم من الحوادث ، وتقلبات الزمان العاث ،
فتوجه لما أظلم ، إلى داره وهو يترنم :

يا الله قل لي خبرك قل لي زمان كم أركك

إلى أن وصل إلى الباب ، وما عليه حاجب ولا بواب ، فراى الباب مقفلاً ،
والقنديل عليه مُسبلاً ، وكان يعرف للسطوح درباً خفياً ، فاستطرق منه وارتفع
مكاناً علياً ، وأشرف من الكوة ، فراى ربة البيت المرجوة ، فوق سرير الأمان ،
مُعاينةً حتى من الفتیان ، كأنهما لفرط العناق ، كانا ميتين من ألم الاشتياق ،
فبجتهما قيامة التلاق ، فتلازما والتفت الساق بالساق ، ولسان حال كل منهما ،
يروى عنهما :

عانقت محبوب قلبي حين واصلني كأنني حرف لأم عانقت ألفاً

فتبادر إلى وهله^(١١٦) لغيبوبة عقله ، أن ذلك الشاب الظريف ، معاشر حريف ،
أفسد زوجته ، مغتتما غيبته ، وأنه في تلك الليلة ، استعمل قوله :

لا تلق إلا بليل من نواصيله فالشمس نائمة والليل قواد

فسل السكين ، وقصد قتل ذلك المسكين ، وصمم على النزول إلى البيت ،
وإنارة الفتن بكيت ، وكيت ، ثم استتاب وهله^(١١٧) ، واستراب عقله ، وأخذ

^(١١٦) قول ما تبادل إليه .

^(١١٧) نوعه وضعفه .

يتفكر ، ويتأمل ويتدبر ، واحتضر أحوالَ قريبته ، وأنها في العفة مجبولة من طبيعته ، وأنه لم يعلم عليها إلا الخير ، وعدم ميلها عن حلالها إلى الغير ، فطلب قبل الفضيحة ، لزوجته طريقةً مندوحة ، ظريفةً ممدوحة ، فإن مدةً غيبته طالت ، وزوجته كانت حالتها حالت ، فلا بُدَّ أولاً من الوقوف عليها كيف استحالت ، ثم كفُّ عن الذبح ، ونزل عن السطح ، وقصد جارة داره ، ودارة جاره ، وطرق بابها ، واستنبح كلابها ، فخرجت إليه عجوز ، كانت إلى داره تحوز ، فسألت مَنْ هو وما مراده ، ومن أين إصداره وإيراده . فقال : إني رجلٌ غريب ، ليس لي بهذه البلدة خليلٌ ولا قريب ، وبلادي أرضُ مكة ، كنت أترددُ إلى هذه السكة ، وأعاملُ التجار ، وكان لي في هذه المحلة بحيرٌ وجار ، من التجار الكبار ، كنتُ آوى إليه ، وأنزلُ في قديمي عليه ، اسمه فلان ، وقد مرَّ علينا زمان ، وعاقني عنه نوابئ الحِذنان . والآن قدمتُ إلى هذا المكان ، وقد قصدتُ داره ، ولا أدرى أيَّ جرادٍ عاره ، ولم أعرفْ له خيراً ، ولا رأيتُ عيناً ولا أثراً ، فهل تعرفين كيف حاله ؟ وإلى ماذا آل مآله ؟ فقالت : نعم ، زالتْ عنه النعم ، والجائته الحال ، إلى الرِّحال ، فرحل منذ سنين ، وكنا في جواره من الأمنين ، وانقطع عنا خبره ، وعن زوجته عينه وأثره ، وطال عليها منظره ، فدعتها الضرورةُ والإعدامُ ، إلى عرضِ حالها على الحكام ، فأذن لها قاضي بلخ ، في إبطالِ نكاحها بالفسخ ، ففسخت نكاحها واعتدت^(١١٨) ، وطلبتُ نصيبها واستدت . ولقد أرحشنا فراقه ، وآلمنا اشتياقه ، غير أن زوجته قامت مقامه ، وأفاضت علينا إحسانه وإنعامه ، وهي متشوقة إلى رؤيته ، متشوفة إلى مطالع طلوعه ، متلهفة على أيام وصاله ، متأسفة

(١١٨) قضت عتتها بعد الطلاق .

على ترشفو زلاله . فلما وقف على صورة الحال ، سجد شكراً لله ذي الجلال ،
وحمد الله على الثبات ، فى مثل هذه النائبات .

وإنما أوردت هذا المثال ، لتعلم فضيلة التأمل فى المآل ، والتفكير فى عواقب
الأحوال . قال الدب : دُخْنَا مِنْ هَذَا الْكَلَامِ ، وَالْأَخَذِ فِي الْمَلَامِ ، وَاسْعِدْنِي فِي
التَّدَارِكِ ، فَإِنَّكَ نَعَمَ الْمَشَارِكِ ، قَبْلَ انْفِلَاتِ الْعَيْنِ ، وَانْقِلَابِ الزَّمَانِ ، وَخُرُوجِ
زَمَانِ التَّلَافِي مِنْ أُنَامِلِ الْإِمْكَانِ ، وَانْتِقَالِ حَلِّ عُقْدَتِهِ مِنَ اللِّسَانِ وَالْبَنَانِ ، إِلَى
الْأَسْنَانِ . فقال مبارك الميлад : الرَّأْيُ عِنْدِي يَا أَبَا قَتَادِ ، الْمِبَادِرَةُ إِلَى الصَّلَاحِ
وَالْإِصْلَاحِ ، لِبَحْصِ النَّصْحِ وَالْفَلَاحِ ، وَالْأَخْذُ فِي الْمَصَافَاةِ ، وَسُلُوكُ طَرِيقِ الْمَوَافَاةِ ،
وَالْعَمَلُ بِهِ بَاطِنًا وَظَاهِرًا ، وَالِاسْتِمْرَارُ عَلَيْهِ أَوَّلًا وَآخِرًا ، وَحَوْزُ آثَارِ الْعِدَاوَةِ ،
وَتَنَاسِيِ أَسْبَابِ الْجَفَاءِ وَالْقِسَاوَةِ ، وَاسْتِنَافُ الْمَوَدَّةِ الصَّافِيَةِ ، وَالْحَبَّةِ الْوَافِيَةِ ،
وَصَرْفِ الْقَلْبِ نَحْوَ دُرُوسِ فَقْهِ الْحَلَّةِ الشَّافِيَةِ وَالْكَافِيَةِ ، حَتَّى يَقُولَ مَنْ رَأَى
وَسَمِعَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ أَلَّتِ الْعَاقِبَةُ إِلَى الْعَافِيَةِ . ثُمَّ أَعْلَمَ أَنَّهُ لَا يَصْفُو لَكَ صَاحِبُ ،
وَخَاطِرُكَ عَلَيْهِ لِلتَّكْثُرِ مَصَاحِبُ ، وَلَا يَخْلُصُ لَكَ صَدِيقُ ، وَلَنْ يَخْلُوصَ عَمَّتِكَ إِسَاءَةُ
مُذْنِقِ ، وَقَاطِعُ بَغْضِيكَ فِي الطَّرِيقِ ، وَشَوْكُ سَعِيكَ رَاكِبُ التَّعْوِيقِ ، وَالْقُلُوبُ فِي
الْحَبَّةِ تَنْجَازِي ، إِنَّ حَقِيقَةَ فَحْقِيقَةٍ وَإِنْ جَازًا فَمَجَازًا ، وَكُلُّ شَيْءٍ بِعَقْدَارٍ وَمِيزَانِ ،
وَكَمَا تَدِينُ تَدَانِ ، وَقَلَمًا يَجِدُ مَنْ نَجْبَةٍ وَيَبْغِضُكَ ، وَتَرْبَةً^(١١٧) وَيَرْفُضُكَ ، وَتَصْفُو لَهُ
وَيَتَكَبَّرُ ، وَلَا تَتَغَيَّرُ عَلَيْهِ وَيَتَغَيَّرُ ، وَدُونُكَ يَا ذَا الْكَرَامَاتِ ، مَا قَالَ صَاحِبُ
المقامات :

وَكَيْلْتُ لِلْخِيَلِ كَمَا كَانُوا لِي عَلَى وِطَاءِ الْكَيْلِ أَوْ يَغْنَمِهِ .

وقال ، مَنْ أَحْسَنَ الْمَقَالَ :

^(١١٧) تسعى إلى إصلاح أمره .

والعين تُعرف من غيبي مُحدّثها إن كان من جزئها أو من أبعادها

وأنا ما أقولُ هذا الكلام ، إلا من قولِ خيرِ الأنام ، عليه أفضلُ التحياتِ وأكملُ السلام "الأرواحُ أجنادٌ مجنّدةٌ فما تعارفَ منها اتلف ، وما تناكرَ منها اختلف" وإنما يقعُ التعارفُ من الجهتين ، والتناكرُ من الطرفين . ولا تُغالطُ نفسك ، وتكاثرُ حسدك ، أن يجبك مَنْ تكرههُ ، ويزينك مَنْ تشوّهُهُ ، ويُقرّبك مَنْ تقصيه ، ويقيمك مَنْ ترميه ، ويرفعك مَنْ تضعه ، ويأخذُ بيدك مَنْ تدفعه ، كما قيل ، في الأقاويل :

والناسُ أُنسُ من أن يمدّحوا رجلاً ما لم يروا عندهُ آلاَ إحصانِ
واعلمُ أنَّ غالبَ الإخوان ، في هذا الزمان ، مسلوبُ الإنسانيّةِ وإن كانَ في زيِّ الإنسان ، مَنْ أحسنتَ إليه أسلاً^(١٢٠) ، وَمَنْ ترفّقتَ له قسا ، وَمَنْ نفعتهُ ضرّك ، وَمَنْ أمنتَهُ غرّك ، وَمَنْ سكنتَ أوامهُ^(١٢١) بزلال^(١٢٢) فضلكَ حرّك ، وقد أجاد ، صاحبُ الإنشاد :

جزى الله عنا الخيرَ مَنْ ليس بيتنا ولا بينةُ وُدٍ ولا نعرافِ
فما سامنا خسفاً ولا شقفاً أذى من الناسِ إلّا مَنْ نودُ ونألفُ

وإذا كان هذا فيمنَ تُحسِنُ إليه ، وتسيغُ ملابسَ أفضالكَ عليه فكيف يكونُ حالُ مَنْ تُضوّرُ له النكالَ ، وتتمنى وقوعه في شركِ العقال ، أنى تراه يصفو لك ، ويتقاضى سؤالك ومأمولك ، وهو مخرّبٌ غيلةَ غولك ، متوقعٌ منك أن يصيرَ مقتولك ، فماذا عسى أن تبلغَ منه سؤالك ومسؤولك ، أو ترى من محبّتهِ ومودّتهِ مامولك ومحصولك . وإنما أوردتُ هذه المقامات^(١٢٣) ، وإن كانت من فضلاتِ عليك ، ورشحاتِ قلَمِكَ ، أُنسنا متقدّمات ، إلّا لتعاطي أسبابِ الصلحِ أوّلاً في

(١٢٠) أساء : أساء .

(١٢١) الأوام : حرارة العطش .

(١٢٢) زلال : الماء العذب ، الصافي من كل شيء . (استعارة)

(١٢٣) المقامات : الأحاديث والغلطات .

نفسك ، ثم تستعمل الوسائط فيه من أبناء جنسك ، فيتشج المفسود ، ويصفو الورء والمورود ، كما قيل :

فإن القلوب مرائي الصفات كما السيف مرآة وجه اللوات

قال الدب : أنا ألقى الزمام ، في هذا المقام ، لنيل هذا المرام ، إلى يد تدبيرك ، وأكتفي في رعي رياضك برائد رأيك وتقديرك ، فإن فكرتك نجيب ، وسهم رأيك مصيب ، فافعل ما تختار ، وأذقنا من رائتي رأيك المشتار^(١٢٤) . فقال : تقسيم أولاً باللطيف الخبير ، أنك أصفيت الضمير ، من الغش والتكدير ، وكرعت من وارد الصفاء الزلال النмир ، ونفضت يد الحبة والإخاء ، من علاقات البغضاء والشحناء ، حتى يجيب دعي ، ولا يجيب سعي ، وأبدل مجهودي ، في نيل مقصودي ، وأبني على أساس ، وأسلك مع الناس ، مسلك الناس .

فبادر [الوزير] باليمين إلى اليمين ، وأشهد عليه الكرام الكاتبين ، أنه صقل مرآة محيية عن صدا المداينة ، وجلا طريق موديه من غبار المباينة ، وأنه يكفي من غدير الغدير بما جرى ، ويطوي حديث الشحناء فلا سمع الواشي بذاك ولا درى ، فليبدل مبارك الميلاد ، جهده في السعي في إصلاح الفساد . وعقدا على ذلك العهد ، وتوجه مبارك الميلاد من بعد ، وقصد منزل أخي نهشل ، فرآه فيمن نار هوموم في مشغل ، وقد غرق في بحر الأفكار ، هائماً لا يقر له قرار ، فسلم عليه ، وتقدم بالسؤال عن حاله إليه ، وأنسه بالمحادثه ، وذكر له الدهر وحوادثه ، وتذاكرا ما وقع من الدب ، وكيف أظهر نواقض الحب ، وبارز بالعداوة ، وأبرز بأدنى حركة موجبات المساواة . ثم أخذ أخو نهشل في العتاب ، وفتح لمبارك الميلاد من جهة صاحبه وعتابه الباب ، فاعترف عن صاحبه ، بأن الظلم في جانبه ، وأنه كان حصل

(١٢٤) الصافي ، كالعمل المشتار الذي تم جنبه من الخلية صافيا من غير شوائب (خاصة أول قطعة) .

لَهُ مِنَ الرُّهْمِ الْكَاذِبِ ، مَا أَوْزَعَتْهُ الْوَقِيعَةُ فِي جَانِبِ الصَّاحِبِ ، وَأَنَّهُ نَدِمَ عَلَى ذَلِكَ ، وَاعْتَرَفَ بِأَنَّ فَعْلَهُ حَالِكٌ ، وَلَمْ يَسْتَعِ إِلَّا الْاعْتِدَارَ ، وَجَبَّزَ مَا وَقَعَ لِأَبِي نُوْفَلٍ مِنَ الْإِنْكَسَارِ ، بِالسَّعْيِ فِي مَسَاعِدَيْهِ ، وَالْقِيَامِ مَعَهُ فِي جَمَاعَتِهِ ، وَالتَّوَجُّهِ إِلَى حَضْرَةِ الْمُعْدُومِ ، وَالتَّلَاقِ بِغَرْمِ التَّصَافِي مَا سَبَقَ مِنْ جَرَاحَاتِ الْكَلَامِ وَالْكُلُومِ^(١٢٥) . ثُمَّ إِذَا حَصَلَ مِنَ الْخَوَاطِرِ الشَّرِيفَةِ الْإِغْضَاءُ^(١٢٦) ، وَالْأَمْرُ فِي رِيَاضِ الْعَفْوِ لِجَانِي الْخِذْمِ فَوَاكِهُ الرِّضَا ، يَسْتَأْنَفُ سَوْقَ الْحُبَّةِ عَقُودَ الْمُبَايَعَةِ ، وَيَرْوِّجُ تَاجِرَ الصَّدَاقَةِ عَلَى مَشْتَرِي الْحَشْمَةِ فِي مِطَافٍ رَغْبَاتِهَا بَضَائِعُهُ ، إِلَى أَنْ يَتَزَايَدَ الْوَدَادُ ، وَيَتَأَكَّدَ بَيْنَ الْجَمِيعِ عَالِمُ الْإِتِّحَادِ ، فَانْهَضُ يَارِئِيسَ الْأَصْحَابِ ، وَأَنْبِيسَ الْأَحْبَابِ :

فَالْعُمْرُ أَقْصَرُ مُدَّةً مِنْ أَنْ يُدَلِّسَ بِالْعِيَابِ .

ثُمَّ نَهَضَا جَمِيعًا ، وَأَتَيَا أَبَا نُوفَلٍ سَرِيعًا ، فَوَجَدَاهُ فِي أَحْرَجِ مَكَانٍ ، وَأَوْجَحِ زَمَانٍ ، مُحْفُوفًا بِالْأَحْزَانِ ، مَكْنُوفًا بِالْأَشْجَانِ ، وَمَا حَالُ مَنْ جَفَاهُ أَحِبَّاهُ^(١٢٧) ، وَأَقْصَاهُ مَوْلَاهُ ، وَصَارَ وَهُوَ جَانٌ ، غَرِيْمُهُ السُّلْطَانُ . فَلَمَّا سَلَّمَ عَلَيْهِ ، وَجَلَسْنَا إِلَيْهِ وَاعْتَذَرَ مِبَارِكُ الْمِيلَادِ ، بَعْدَ إِظْهَارِ تَبَاشِيرِ الْوَدَادِ ، أَنَّ مَوْجِبَ تَقْصِيرِهِ ، فِي السُّؤَالِ عَنْهُ وَتَأْخِيرِهِ ، أَنَّ قَلْبَهُ الْوَاقِعُ^(١٢٨) ، وَطَرَفُهُ الْوَاقِدُ^(١٢٩) ، لَمْ يَطَاوِعَا عَلَى رُؤْيَيْهِ فِي تِلْكَ الْحَالِ ، وَلَا سَمَحَتْ قَدَمُهُ بِالتَّقَدُّمِ إِلَيْهِ وَهُوَ مَشْغُولُ الْبَالِ . ثُمَّ تَفَارَضَا فِي أَسْبَابِ الصِّلَحِ ، وَقَصَدَا أَبْوَابَ النُّجْحِ . فَتَجَاذَبَا أَطْرَافَ الطَّرَائِفِ ، وَتَفَكَّهُوا عَلَى مَوَائِدِ التَّحَفِ وَاللِّطَائِفِ ، وَمَا زَالُوا يَتَسَجَّوْنَ خِلْعَ الْوِفَاقِ ، وَيَمْزُقُونَ شَقَقَ الشَّقَاقِ ، إِلَى أَنْ انْعَقَدَتْ أَهْدَابُ الْحُبَّةِ وَالْوَدَادِ ، وَانْحَلَّتْ عَقُودُ الْحَقُودِ وَالْكِيَادِ ، وَتَحَقَّقَ كُلُّ أَحَدٍ

^(١٢٥) الْكُلُومُ : الْجُرُوحُ .

^(١٢٦) الْإِغْضَاءُ ، بِمَعْنَى الْعَفْوِ وَالتَّفَاضُلِ أَوْ التَّسَامُحِ لِلْمَلَكِ .

^(١٢٧) أَحِبَّاهُ : أَحْبَابُهُ .

^(١٢٨) الْوَاقِعُ : الشَّدِيدُ الْحُبِّ .

^(١٢٩) الْوَاقِدُ : ذُو الْعَيْنِ الْحُمْرَاءِ مِنْ كَثَرَةِ الْبُكَاءِ وَشِدَّةِ الْحُزَنِ .

من كبير وصغير ، ومأمور وأمير ، وجليل وحقير ، بمحصولِ خالصِ المودة بين النديم والوزير :

ولما أن تراءى الفجرُ يحكي جبينَ الحبِّ أو رأيَ اللبيبِ

توجه الوزير ومبارك الميلاد ، وأخو نهشل ورؤوس الأجناد ، مع سائر الأمراء والوزراء ، والأعيان والكبراء ، حتى انتهوا إلى السدة العلية ، والحضرة الملكية السلطانية ، فقبلوا أرض الطاعة ، ووقفوا في مواقف الشفاعة ، ونشروا من الدعاء والثناء ، ما يليقُ بجناب الملوك والعظماء ، وذكروا النديم أبا نوفل ، بما يستعطفُ به الخاطر المفضل ، حتى عطفت عليه مراحمه ، وانمحت من جريدة الانتقام جرائمه ، وسمح بإحضاره لديه ، ليسبلَ ذيل الكرم والعفو عليه ، ثم يشمله ثوب الرضا ، ويخلع العفو عمّا مضى . فاسرع نحوه البشير ، بما اتفق من الجماعة مع الوزير ، ثم وصل القاصد ، وهو له مرصد ، فتوجه منشرح البال ، متيسط الآمال ، حتى دخل على حضرة ذي اللولة والإقبال ، وقبل الجلالة^(١٣٠) ، ووقف في موقف الخجالة ، لا يرفع طرفا ، ولا ينطق حرفا ، فرسم بالتشريف والخلع ، ليرفع عنه التخويف والهلع ، فتضاعفت الأدعية الصالحة ، والأثنية^(١٣١) الفاتحة :

بغادية من ذكره قد تمسكت بطيب ثنا يحيى الزمان ورائحة^(١٣٢)

وأقيمت حرمة ، واستمرت عليه وظيفته . ثم إن الملك انتقل من المجلس الغاص ، إلى مجلس خاص ، واجتمع بالخواص ، وعزم الخطاب لكل ناص ، ومحدث وقاص ، فقال : ليَعْلَمَ الوزير والنائب ، والأمير والحاجب ، والصديق والصاحب ،

(١٣٠) الجلالة : الأرض .

(١٣١) الأثنية : المدائح (واحدتها ثناء) .

(١٣٢) اختلفت النسخ المطبوعة والمخطوطة في هذا البيت ، منها هذه القراءة :

بغافية من ذكره قد تمسكت بطيب ثنا يحيى الزمان ورائحة

والجندي والكاتب ، والمباشر والحاسب ، والراجل والراكب ، والآتي والذاهب ،
 وليبلغ الشاهد الغائب ، أنَّ مقتضى الرئاسة ، في الشرع والسياسة ، على ما قدره
 حكماء الملوك ، وسلوكوا بعباد الله تعالى أحسن السلوك ، أنَّ كل واحد من الغني
 والصعلوك ، لاسيما من له من الأمر شيء ، أو نوع مباشرة على مستر أو حي ، له
 مقام معين لا يزائله ، ومكان مبين لا يقابله . قال الحلي القيوم ، ذو الملك النيسوم ،
 حكاية عن متصرفي ملك الديوم ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾^(١٣٣) وعلى هذا
 جرت سنته ، وورد كلامه وعلت كلمته ، وبه أمر الشرع ، والإنسان منتهى
 بالطبع . فالواجب على كل من أقامه الله ، في خدمة ملك ولآه ، أو سلطان علاه ،
 أن يلازم مقامه ، ويلاحظ في صف جماعته إمامه ، ويراقب ما يصدر عنه ، فقد
 قيل : إياك وما يُعتدُّ منه ، فإذا رام أن يتكلم بكلام ، بحضرة الإمام ، أو بحضور
 أحد من الخواص والعوام ، يَسْبُرُ كلامه أولاً بمسار التفكير ، ويعيِّره بمعيار التأمل
 والتبصر ، ثم يسبكه في بوتقة الفصاحة ، ويسكبه في قالب الملاحاة ، ويصوغه
 بآلات حُسن الانسجام ، ويرصغه بمواهر مقتضى المقام ، فإذا صيغ على هذه
 الصياغة ، وقعدت على صورة سبكه نقوش البلاغة ، وأخرج له غَوَاصُ الفكر من
 بحر المعاني والبيان ، فرائد أفكار لم تظفر بها أصداف الأذان ، وخرائد^(١٣٤) إبداع لم
 تفرغها فحول الأذهان ، ازدانت بها من حور جنان الجنان ، ومقصورات غيام
 الدهور والأزمان ، أنسات لم يَطْمِئِنَّ نَسْ قبلهم ولا جان^(١٣٥) ، فاختلف بيئاته
 القلوب والأرواح ، واستلب برواه الأموال والأشباح ، واستمال الخواطر ،
 وسحب الأيدي المواطر ، وصار الدهر من بعض رواته ، وأشناف ما يرويه عنه

^(١٣٣) قرآن كريم ، سورة الصافات : ١٦٤ .

^(١٣٤) خرائد : واحدتها خريدة ، وهي اللؤلؤة لم تثقب .

^(١٣٥) لم يباشرهن أحد .

معلقة بأذان نياتيه . وإن وقع والعياذ بالله منه ما يؤرث الندم والحزن ، وأخرج سهم الكلام من قوس العجلة لا اكسال ولا اتزن ، حصل في سوقى ظاهره وباطنيه الغبن^(١٣٦) والغبن^(١٣٧) وأصابه ما أصاب نديم ففقور الخن ، فنهض الجماعة ولاكرض قبلوا ، وعن كيفية هذا الخير سألوا .

[٧/٥] قصة نديم الملك

فقال الملك : ذكر المخبرون ، وأخير المذكرون ، أنه فى قديم الزمن ، كان عند فقور الخن ، ندمان^(١٣٨) ، كامل المعانى فى البيان ، ذو نعمة جزيلة ، وصوره جميلة ، وفضائل فضيلة ، ميرز فى العلم ، كامل المودة والحلم ، محبوب الصورة ، مشكور السيرة ، طاهر السرية ، ثقیل الرأس ، خفيف الروح والحواس ، قد جال وجاب ، وبلاك^(١٣٩) الأعداء والأصحاب ، وترشح لمنادمة الملوك والأمراء ، ومحالسة السلاطين والوزراء ، وهو خصيص بملك الخن والصين ، مقبول عند الملوك والسلاطين . اتفق له فى بعض الليالى ، أنه كان عند جناب ملكه الغالى ، وعنده جماعة من العلماء ، وطائفة من الأخصاء والندماء ، وهم يتعاطون كؤوس اللطائف ، ويتواطون^(١٤٠) على ما فى الدنيا من طُرف^(١٤١) وطرائف^(١٤٢) ،

^(١٣٦) الغبن (يسكون الباء) : النقص والغلبة ، ومن معانيها : الاجباء ، وغير الرضى .

^(١٣٧) الغبن (يفتح الباء) : الضعف والتقصير ، ومن معانيها أيضا : ما قطع من أطراف الثوب فاسقط . وهى

كذلك الموضع الذى يفتى فيه الشيء .

^(١٣٨) النديم ، المصاحب على الشراب ، المسار للملوك .

^(١٣٩) بلاك يلو : اختبر .

^(١٤٠) يتواطون : يتفقون .

^(١٤١) طرف جمع طرفة ، وهى كل شيء مستحدث عجب .

^(١٤٢) الطرائف أو الطراف : الحديث النادر المستحسن .

ويتذكرون عجائب الأقطار ، ويشنفون المسامع بخصائص الأمصار . فقال النديم : رأيتُ في بعض الأقاليم من الأراضي الحامية ، والبلاد القاصية ، حيواناً كبيراً سريع السير ، مزدداً شكله بين شكلي الجمل والطير ، يضربُ به في الدبدبة المثل ، فيتعاطى التعلل في الكسل ، إن قيل له احملْ يقولُ أنا طير ، وإن قيل له طيرْ يقولُ أنا جمل . وذكر أن اسمه النعام ، وسائر أوصافه وأعضائه على التمام ، فتعجب الحاضرون من هذه الصفات ، والأشكال البديعة والهيآت . ثم قال : وأجب من هذه الصفات ، أن هذه الدابة تأكلُ الجمرات ، وتلتقطُ الحصىات ، وتختطفُ الحديدَ المحماة من النارِ تزدردُها ، ولا يتألم لذلك فمها . ولا جسدها ، وتذنب^(١٤٣) كلَّ ذلك معدتها ، ولا يتأثرُ بها لسانها ولا ترقوتها . فأنكر بعض الحاضرين هذا المقال ، لكونه لم يشاهد هذه الأحوال ، ولا رأى ولا سمعَ خبرَ طيرٍ يأكلُ النار ، ويبلغُ الأحجار ، ونسبوه إلى المخارقة^(١٤٤) في الأخبار ، فتصدى لإثبات ما يقول ، بطريقتي المنقول والمعقول ، فلم يسعفَ كلامه القبول ، على ما ألفتته منهم العقول ، لأن الحيوانات ، بل وسائر الجملادات ، إذا اتصلت بها النارُ مَحَتْ منها الآثار ، وهذا طيرٌ من الأطيار ، من لحمٍ ودمٍ فكيفَ لا تحرقه النار . فاتفق الجمهورُ على تكذيب هذه الأخبار ، وقالوا المثل المشهور ، إنما هو موضوعٌ على لسان الطيور ،

^(١٤٣) تذنبُ : ما أسرع ما يتلغ وتهمضم .

^(١٤٤) وردت هذه الكلمة على هيتين : إحداها : المخارقة (نسبة إلى محارقات الأخبار ، أي عجائبها ، والأخرى : للمخارقة (نسبة إلى خرافة ، أو التعريف في الحكى ، أو سرد الخرافات التي لا أصل لها -) الأكاذيب) وهي الهيئة التي أوتناها في المتن المحقق . لموافقها معنى السيل .

فَيَمَنْ تَرَدَّدَ بَيْنَ الْأُمُور ، فَيَقَالُ : " هَذَا الْفَقِيرُ " ^(١٤٥) ، كَالنَّعَامَةِ لَا يَحْمِلُ وَلَا يَطِيرُ " .
وَمِثْلُ هَذَا الْمَضْرَبِ ، يَأْشِخُ الْمَشْرِقَ وَالْمَغْرِبَ ، قَوْلُهُمْ طَارَتْ بِهِ عَنَقَاءُ مُغْرَبٍ ^(١٤٦) .

فَقَالَ النَّدِيمُ ، ، الْفَاضِلُ الْحَكِيمُ : أَنَا رَأَيْتُ هَذَا بِالْعَيْنِ ، فَلَمْ يَزِدْهُمْ إِلَّا تَأْكِيدَ الْمَلِكِ ^(١٤٧) . وَقَالُوا : قَدْ عُلِطَتْ وَلَزِمَتْ الْغُلُطُ ، فَوَقَعَ مِنْ أَعْيُنِهِمْ بِهِذَا الْكَلَامِ إِذْ قَالُوا هَذَا كَذِبٌ وَسَقَطَ ، فَحَصَلَ لِلنَّدِيمِ النَّدِيمُ ، مِنَ الْخُجَالَةِ وَالنَّدَمِ أَمْرٌ عَظِيمٌ ، وَاسْتَمَرَ فِي حَصْرٍ ، حَتَّى مَنَعَهُ السُّلْطَانُ مِنَ الدَّخُولِ إِلَى الْقَصْرِ ، وَصَارَ بَيْنَ الْأَصْحَابِ يَشَارُ إِلَيْهِ بِـ " يَا كَذَّابٌ " ، فَلَمْ يَسَعْ ذَلِكَ الْأُسْتَاذَ إِلَّا السَّفَرُ مِنْ تِلْكَ الْبِلَادِ ، وَالتَّوَجُّهُ إِلَى الْعِرَاقِ وَبَغْدَادَ ، وَأَخَذَ مِنْ طَيْرِ النِّعَامِ عِدَّةً ، وَاسْتَعْمَلَ عَلَيْهَا رَجُلًا مُسْتَعْدَةً ، وَنَقَلَهَا إِلَى الصَّيْنِ ، فِي عَيْتَةِ سَنَيْنَ ، تَارَةً فِي الْبَحْرِ ، وَأُخْرَى فِي الْبَرِّ ، وَقَاسَى أَنْوَاعًا مِنَ الْبُؤْسِ وَالضَّرِّ ، وَتَكَلَّفَ حِمْلًا مِنَ الْأَمْوَالِ ، وَتَحَمَّلَ مَعَ الْمَشَاقِ مِثْنَ الرِّجَالِ ، فَمَا انْتَهَى بِهِ السَّيْرُ ، إِلَّا وَقَدْ مَاتَ غَالِبُ تِلْكَ الطَّيْرِ ، فَوَصَلَ إِلَى حَضْرَةِ مَلِكِ الْخَطَا ، وَاشْتَهَرَ فِي الْمَمْلَكَةِ أَنَّ النَّدِيمَ الْفَلَاتِنِيَّ أَتَى ، فَاجْتَمَعَ النَّاسُ لِيَنْظُرُوا ، وَأَمَرَ الْمَلِكُ الْخَاصَّ وَالْعَامَّ فَحَضَرُوا ، وَأَحْضَرُوا النِّعَامَ ، فِي ذَلِكَ الْحَفَلِ الْعَامِ ، وَطَرَحَ لَهَا الْحَدِيدَ الْمُحْمَى فَخَطَفَتْهُ ، وَالْجَمْرَ وَالْحَصَى فَاتَّقَفَتْهُ ، فَتَعَجَّبَ النَّاسُ لِلذَّكَاءِ ، وَسَبَّحُوا اللَّهَ مَالِكُ الْمَمَالِكِ ، وَعَلِمَ الصَّغَارُ وَالْكِبَارُ أَنَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ، فَشَبَّهَ الْمَلِكُ تَمَزِيدَ الْإِنْعَامِ ، وَاعْتَذَرُوا إِلَيْهِ عَمَّا مَضَى مِنْ مَلَامٍ ، وَزَادَتْ رَفَعَتُهُ ، وَنَفَذَتْ كَلِمَتُهُ ، إِذْ قَدْ أَثْبَتَ مُدَّعَاهُ ، وَحَقَّقَ بِشَاهِدِ الْحَسِّ مَعْنَى مَا ادَّعَاهُ .

^(١٤٥) الْفَقِيرُ : الْزَيْلُ .

^(١٤٦) عَنَقَاءُ مُغْرَبٍ : طَائِرٌ عَظِيمٌ يَبْعُدُ فِي طَيْرَانِهِ ، وَقِيلَ إِنَّهُ طَائِرٌ وَهْمِيٌّ . عَمُومًا يَضْرِبُ بِهِ الْمَثَلَ فِي طَلَبِ الْحَالِ

الَّذِي لَا يَنْتَالُ .

^(١٤٧) الْمَلِكُ : الْكُذْبُ .

ففى بعضِ الأوقاتِ تذاكروا ما فات ، وانجبرَ بهم الكلام ، إلى ما مرَّ من حديثِ
 النعام ، فقال التديم : أيها الملكُ الكريمِ إننى تكلفتُ على هذه الأطيار ، كذا وكذا
 ألف دينار ، وقاسيتُ من المشقةِ فى الأسفار ، وعانيتُ من شدائدِ الأخطار ، ما لا
 تقاسيه عيدانُ النار ، واستمريتُ فى هذا العذابِ الأليمِ المهين ، وفى سجنِ المشاقِّ
 بضنَّعِ سنين ، حتى بلغتُ تحقيقَ مرامى ، وتصديقَ كلامى ، ولولا عنايةُ مولانا
 السلطان . لما ساعدنى على مقصودى الزمان ، ولَمَّا زال عنى اسمُ الكذاب ، إلى
 يومِ الحساب ، فتيسَّم السلطانُ وقال : لقد أثبتَ بحاسن ، وما قصرتَ ولكن ،
 كما يحتاجُ فى إثباتِ تصديقها ، والخروجِ من عهدَةِ تحقيقها . إلى صرفِ المالِ
 الجزيل ، وتجنُّسِ مشقةِ السفرِ العريضِ الطويل ، وتحملِ مَنِّ الرجال ، وركوبِ
 الأخطار والأهوال ، وإزعاجِ الروح والبدن ، وإضاعةِ جانبِ كبيرٍ من العمرِ
 والزمن ، لأى معنى يتفوه بها العاقل ، ولماذا يتطقُّ بها مستمعٌ أو ناقل .

وإنما أوردت هذا المقول ، ليعلمَ أربابُ المعقول ، من جلساءِ الملوكِ والعظماء ،
 ورؤساءِ الأمراء والزعماء ، خصوصاً خواصَّ القدماء ، وعوامَّ الندماء ، أن شيئاً
 يحتاجُ فيه إلى تعبِ النفس ، وقيلٍ ونكالٍ وحس ، ثم استعمالِ مَنِّ جماعة ،
 وأصحابِ يتقدمون إلى الشفاعة ، لا ينبغي للعاقل أن يحومَ حوله ، ولا يعقدُ أبداً
 عليه فعله وقوله .

فتقدَّم مباركُ الميلاد ، وبذلَ فى أداءِ وظائفِ الدعاءِ الاجتهاد ، وقال : إنما كان
 عاقبةُ هذا الأمر ، وإطفاءُ نائرةِ هذا الجمر ، وإداؤه إلى انتظامِ عقودِ السعد ،
 واشتمالة على جمعِ الخواطرِ من بُعد ، بميامينِ الخواطرِ الشريفة ، وشرفِ ملاحظتها
 المنيفة ، وتوجُّهِ مساعدتها لخدمتها ، وشمولِ عواطفها على عبيدها وحشوها ،
 وإقبالِ طالعيها السعيد . ولولا ذلك لما انتظمَ لنا شَمْلُ أيها العبيد ، فالمنةُ فى هذا كله

للصدقات الشريفة ، والجميلة لعواطف مَبْنِيَّهَا النيفة . ونظيرُ هذا الشأن ، ما جرى للخارج على الملك أنوشروان ، فسأل الملك المطاع ، عن هذا المضاع .

[٨/٥] قصة أنوشروان مع بعض الخمارجين عليه

فقال : ذكر أهل التاريخ ، بأعالي الشماريخ^(١٤٨) ، أن كسرى أنوشروان ، جَاهَرَهُ أحدُ الملوك بالعصيان ، وانتدبَ محارِبته طائفةً من الأعوان ، فتوجّه كسرى إليه ، ووثبَ وثوبَ الأسد الضاري عليه ، ورأى التواني في أمره والتأخير ، من جملة الإخلال والتقصير ، فقابلَه قاتِلًا ، وقتلَهُ قاتِلًا :

إذا استحققت أدنى مَنْ تعادى بِمَا لَكَ مِنْ يَدٍ وَلَدَى وَطَاقِهِ
فما استحققت إِنْ أَهْمَلْتَ إِلَّا أَمُورَكَ وَهُوَ ذَا عَيْنِ الْحِمَاةِ

فلَمَّا تَوَاقَفَا ، واصطدما وتثاقفا^(١٤٩) ، انكسرَ ذو الطغيان ، وانتصرَ أنوشروان ، وقبضَ على العدو ، وحصل الأمان والهدوء ، وقُصَّ طائرُهُ ، وتفرقتُ عساكرُهُ ، وحُيِّلَ وقد سيمَّ عَسَفًا وكِسْرًا ، إلى الملك العادل كسرى ، فتقدّم بالإحسانِ إليه ، وجعل العفو شكرًا لقدرته عليه ، وبألغ معه في اللطف والإحسان ، وأنزله عنده في بستان - ترتعُ النزاهةُ في ميادينِ رياضه ، وتكرعُ الفكاهةُ من رياحينِ حياضه ، وأفاض عليه من بخلِ الإنعام ، وإذْراتِ الفضلِ والإكرام ، ما أزال دهشته ، وأحال وحشته ، وأبدى استعباده ، وأبعد استعباده . فلَمَّا حصل أنُسُهُ ، وهدأتْ نفسه ، أخذَ في تنجيزه ، وإبلاغه إلى مَأْنِيهِ وتجهيزه ، فأبى إلَّا الإقامة ، والتلبّثَ بدارِ الكرامة ، وسأل الصدقات ، وما لها من عميمِ الشفقات ، مُجَاوِرَةً محلّها ، والإقامة تحت ظلّها ، واغتنامَ مشاهدتها ، والتشرفَ بميامنِ طلعتها ، مُدَّةَ أيام ،

^(١٤٨) الشماريخ : غرر الأخبار وأكثرها أهمية وصدقًا .

^(١٤٩) تثاقفا : تخاصما وتجادلا بالسلاح .

فإنها محسوبة من العمر العزيز بأعوام ، فأجابته مسوؤله ، واستنجزت مأموله ، وكان في ذلك البستان نخلة كنعلة مريم ، قد يست من الهرم ، ولما تعاورتها يد القيد ، فلم تصلح إلا للضرم ، فأرسل يسأل الصدقات الجلدة ، أن تهيه تلك النخلة ، فاستزل كسرى عقله ، وأجاب قصده وسوؤه ، وهبه تلك النخلة ، فكان كل يوم يتوجه إليها ، ويسند ظهره ويعتمد عليها ، وهو في أرغد حال ، ولكن مال . فبعد عدة شهور ، طلب - إلى التوجه - الدستور ، فاستدعاه وأكرم مشواه ، وأجاب قصده وتمناه ، وأسبغ عليه نعمه وفضله ، وسأله عن موجب سؤاله النخلة ، وسبب طلبه الإقامة ، ثم سؤاله التوجه بالسلامة . فقال : أما سبب الإقامة بهذا البلد ، فلجوار مولانا الملك الأجد ، والاستسعاد بمشاهدة وجهه الأسعد ، فإن طالعه قوي سعيد ، ومجاورته للسعادة تفيد ، ويحصل منها لمجاورها المزيد ، فأردت أن يكون لي منها نصيب ، ويلاحظني منها سهم مصيب :

فَبِأَن تَلْمُزْ بِقَفْرِ عَادَ رَوْضًا وَإِنْ قُرُزْ بِمَلْجِ صَارَ شَهْدًا
وَأَنْ يَحْطُرَ بِإِلَافِكَ نَحْسُ نَجْمٍ يَفُذُ فِي الْحَالِ مِنْ رِيَاكَ مَعْدًا

فصرت مشمولاً بيمان من ظلها ، مغموراً بفائض وإيلها وطلها . وأما طلبى النخلة اليابسة ، فإني تفاعلت بها من حظى مساعدة ومناحسة ، فكنت أتردد إليها ، وأعوذ في ذلك عليها ، فما دامت في قحول^(١٠٠) ، كان جدى وسعدى فى نحول^(١٠١) ، إلى أن رأيتها قد حضرت ، وأطلعت واستبكرت ، فأقبل سعدى وحيا ، وعاد بعد أن مات حيا ، وساقطت نخلة سعدى من ثمرات السعادة وطبا جنيا ، فعلمت أن طالعي الهابط عاد إلى الأوج ، ورسول حظى دخل فى دينه ناس الإيناس فوجاً بعد فوج ، وأرسل جدى ازدوج ، ييكبر الآمال وكان لها أحسن

(١٠٠) قحول : جذب ، قحلت الأرض : يست وأجبت .

(١٠١) نحول : هزال وضعف والمخطاط .

زَوْج ، كل ذلك ، أي أعظم مثلك بسعدِ فالك^(١٠٧) ، وجوارٍ دارٍ جلالك ، ومشاهدة أنوارِ جمالك ، واستماع كلامك ، وانتجاع كمالك ، فمن بعد إسعاد السعد ، كل سَهْم أملٍ فوقته ونحو شاكله قصيدٍ أطلقته ، أصبَّت الغرض ، وحُزَّت جوهره بلا عرض ، فإذا أسعف السعدُ النفس ، لا يعيقها معه نحسن .

وإنما أوردت هذا القول ، يا ذا الكرامة والطول ، ليعلم الحضار ، والسادة النظار ، أنَّ استقامتنا وإقبال سعدنا ، وانتظام أمورنا وجدنا ، إنما هو بالنفات الخواطر للشريفة ، وشمول أحوالنا بملاحظتها المتينة ، واستدامة بركاتها ، وميامن حركاتها ، كما قيل ، في ذا القبيل :

تَلْقَى الْأَمَانَ عَلَى جِيَاضِ مُحَمَّدٍ تَوَلَّاءُ غُرْفَةٍ^(١٠٨) وَذَنْبُ أَطْلَسْ
لَا ذِي خِصَافٍ وَلَا هَذَا جِرَاءَةٌ تُهْدِي الرِّعْيَةَ مَا اسْتَقَامَ الرَّيْسُ

وكما أن الرعية لا يستقيم حالها إلا بالملك الراعي ، فإنها كالرعية ينتظم لها أمرٌ إلا بالراعي ، كما قيل :

لَا يَصْلُحُ النَّاسُ فَوْضَى لَا سِرَاةَ هَا وَلَا سِرَاةَ إِذَا جُفَّاهُمْ سَادُوا^(١٠٩)
كذلك الملك يا ذا الدرجات العلية ، لا يصير ملكاً إلا بالرعية ، ولو لم يكن العاشق مشوقاً ، لم يكن المعشوق معشوقاً ، ولو لم يوجد الرايق^(١١٠) بالأمل مسوقاً ، لم يصير الملك المأمول مرموقاً ، وقد عنى هذا المعنى ، مَنْ فِي رِيَاضِ الْعَانِي أَعْنَى :
وَأَحْسَرُ صَبٌّ فِيكَ يَهْدِي سَنَاوَهُ كَأَعْظَمِهِمْ إِذْ مِنْ هَوَاكَ تَعْظُمَا

(١٠٧) فالك : عطف : فالك .

(١٠٨) تولاء غرفة : تولاء ، تعنى الجماعة من الناس ببيوتها وصيانتها ومالها . والتَوَلَّى والتَوَلَّى : الداهية . وغرفة : فائدة العقل .. والتعبير والمقصود بقول الشاعر "تولاء غرفة" الرعية أو بالأحرى العامة (الفرغاء ، السوقة ، الدعماء ... إلخ) ، والمقصود بالذنب الأطلس : رئيس الجماعة أو الراعي .

(١٠٩) سراة الناس : خيارهم وأعيانهم .. وملوكهم .

(١١٠) الناظر ، من رَمَقَ يَرْمُقُ فهو رَامِقٌ .

فلا تحتقرة إن تمكنت قلبه
ففي موقف العشاق منك وظيفة
وكل له وجدة يلين بحاله
ألم تر أن الله أوجد حكمة
وكل له نفع وضرر مخصص
فسبحان من قد خص طورا وعمما

والله تعالى لكمال قدرته ، وإسبال ذيل رحمته ، خلق الكبير الأعلى ، محتاجاً
لخدمة الصغير الأدنى ، وجعل الحقير الأدنى ، محتاجاً لرحمة الكبير الأعلى . ولهذا
أعظم الخلق ، من خلق الخلق ، وأخرج الخلق إلى الخلق ، وهو غني عن الخلق .
وقيل : أيها الملك السني ، الإنسان بطبعه مدني ، وبمقدار كثرة الرعية ، واشتراكهم
في الصفات المرضية ، وانقيادهم لأوامر مالِكهم السنية ، تصير درجة الملك عالية
كما كان ، في زمن نبي الله سليمان ، صلوات الله عليه وسلامه ، وتمجته
وأكرامه . ولقد جرى في عصره بين الطيور ، مفاوضة بين اللقلق والعصفور .
فسأل ملك الأساد ، عن تلك المفاوضة مبارك الميلاد .

[٩/٥] قصة اللقلق والعصفور

فقال : بلغني يا سلطان الأسود ، أن نبي الله سليمان بن داود ، عليهما السلام ،
كان في سيرانه ، مع خواص أركانه ، فمرّ بذلك الطلب ، على شجرة ذئب^(١٥٦) ،
للقلق^(١٥٧) فيها عش ، قد بناه كأحسن عش ، وقد استوكر في عشه عصفور ،

(١٥٦) ذئب : الذئب : جنس شجر للترين ، من الفصيلة الذئبية ، وهو من الزهرات ، يحب الماء .

(١٥٧) اللقلق أو القلاق : طائر من الطيور القواطع ، وهو كبير طويل الساقين والعنق والنتار ، أحمر الساقين
والرجلين والنتار .

واحتسب بحواره من مؤذيات أبي مذخور ، فكأنا يتخاصمان ويتقاولان^(١٠٨) ،
ويتواصمان^(١٠٩) ويتصاولان . فوقف النبي الكريم ، واستوقف الجند العظيم ،
ليسمع ما يقولان ، وينظر كيف يجولان ، فسمع اللقلق يقول ، وهو يجول
ويصول ، ويخاطبُ العصفورَ ، يجمع من الطيور : أشكرُ لي حُسْنَ الصنيع ، حيث
أنزلتُك في حصني المنيع ، لا حية ترقى إليك ، ولا جرح ينقض عليك ، ولولا أنَّ
لك عندى مُناخاً ، ما أبقت لك الحية ذاتاً ولا فراخاً ، وإنما سَلِمْتُم بحواري
ويقربكم من داري . فوثب أبو محرز^(١١٠) ، وتوسط الجمع وهو يجمز^(١١١) ، ونادى
بين الأطيوار : أنسيَت أبا خديج^(١١٢) أي جار ، وأنا في المدار حول هذه الديار ، آنا
الليل وأطراف النهار ، ألقط النمل الكبار والصغار ، ولولا أنا حارسُ مُناخك ، ما
أبقى لك النمل أثراً ولا لفراخك ، فكلُّ منا محتاجٌ إلى جاره ، مقتبطٌ بحواره ، آمنٌ
به في سربه ومطاره ، فارفع من بيتنا هذا النكد ، ولا يمنُّ منا أحدٌ على أحد ،
فالحقوق ما تضيع بين الجيران ، كما تراعى بين الأصحاب والإخوان ، وكما تدين
تُدان . ومع هذا فكلنا نصلى على نبي الله سليمان ، ملك الإنس والجان ، وسلطان
الطيور وسائر الحيوان ، فإنه بِحُسْنِ عدله اعتدل الزمان ، وبِثَمَنِ فضله صلح الكائن
والمكان . ونحن أيضاً كذلك ، نشكرُ الله ربَّ الممالك ، إذ منَّ علينا بهذا السلطان
المالك ، ملك الوحوش الأكابر ، وكاسر السباع والكواسر ، المشفق على الضعفاء

^(١٠٨) يتقاولان : يتجادلان ، ويقول كل منهما على الآخر .

^(١٠٩) يتواصم : يصم بعضهما البعض بالعب .

^(١١٠) أبو محرز : كنية العصفور هنا .

^(١١١) يجمز : يثب ويقفز .

^(١١٢) أبو خديج : كنية اللقلق هنا .

والأصاغر ، فلم يخلُ من فضلِهِ سبْعٌ ولا طائر . ثم نهضوا فوقفسوا ، ودعوا للملك وانصرفوا .

هَذَا آخِرُ الْبَابِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ

رَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّم عَلَى

سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ

الباب السادس

في نوادر التيس المشرق والكلب الأوقى

قال الشيخ أبو الحسن، من ماءٍ معارفه غير آسن، ومن لمدود أرض الفضل من فضائله رواسٍ، وفي مشحون بحر العلم من فواضله مَواسٍ : فابتهج الملك لهذا الكلام، وارتاح لما تضمنته من الحكَم والأحكام، واستزاد أحماء من عقود هذا النظام . فقبل الأرض في مقام الخدَام ، وقال :

بلغني يا ملك الأنام ، أنَّ راعياً كان يرعى ثَلَّةً^(١) من الأغنام ، وحيلةً^(٢) من المعزِ
الجسمام ، وفي ماشيته تيسٌ مُطاع ، كُلُّها له أتباع ، وهو قديمها ، وقائلُها
وزعيمها ، وأبو نتاجها ، وهو نعايجها ، وأصلُها من الشرق ، لم يكن بينه وبين
إبليس في الشَّيْطَنَةِ فرق ، اسمه النَمِيم ، التيسُ الزنيم^(٣) ، وكان بواسطة الفحولِ
والكبر ، والتقدم في الحضرِ والسفر ، يستطيل ويصول ، وينطحُ الكباشَ والوعول ،
ويكسرُ أصحابَ القرونِ من الفحول ، فيجرُحُ ضِعْفِها ، ويطرحُ نَحْفَها ، ويضربُ
بخالصِها لَفِيفَها ، إلى أنْ أهَادَ أعيانَها ، وأعجزَ رعيانَها ، وطالَ منه العقوقُ ، فذهب
به الراعي إلى السوقِ ، لبيعةً ويستريح ، ويخلصُ الماشيةَ من شرِّه ويريح . فبينما هو

(١) الثَلَّة (يفتح التاء المشددة) : الجماعة من الغنم .

(٢) الحيلة : القطيع من المعز أو الغنم .

(٣) النَمِيم المعروف بلومه وشره .

يطوف ، إذا برجل مهول مخوف ، طويل القامة ، كبير الهامة ، كأنه زَيْبِي^(٩) القيامة ، شَتْنِ^(١٠) اليدين ، أزرق العينين ، أسود الخفّين ، بثوب وسخ ، وطرطور سنخ^(١١) ، وسطه محزوم ، بسير مزوم^(١٢) . فصادف الراعي ، وهو في السوق ساعي ، فَمَدَّ يَدَهُ إلى التيس ، وقال بكم هذا يا أبا الكيس ، فوقع بينهما الاتفاق ، ووقع الزنيم في شبكة الرباقي^(١٣) . فتأمل شكّل القصاب ، وصورتَه القاضية بالعُجاب ، فرأى رجلاً كأنه من الشياطين ، معلقاً في وسطه عدّة سكاكين ، فدخله الرعب ، ورجف من الرّهّب ، وأدركه بالفراسة ، أنه سيُهْلِكُهُ ويحذف رأسه . وقال : ظني - والظنُّ يُخطِئُ ويصيب - أني وقعت مع هذا في يوم عصيب ، وأنه قاصدٌ هلاكي ، ومقيمٌ عليّ البواكي ، فالأولى الاحتراز ، والتأهبُّ قبل زمان الجزاز^(١٤) ، فإن حصل خير ، فما في الاحتراز ضير ، وإن وقع على الإهلاك العزم ، فأتلقى سيفه بما أعدته من ترس الحزم ، فوزن الجزاز الثمن ، وشحط الزنيم بالرّسن^(١٥) وأتى به مطابخ ، فقطعها إلى مسالخ ، فشَمَّ رائحة الزُهومة^(١٦) ، وأحس من الجزاز نكده وشومه . فلما دحل المسلخ ، ورأى القصاين هذا يذبح وهذا يسلخ ، واللحم شَقَات ، على الجدران معلقات ، وأنهرَ الدماء كدموع العشاق

(٩) الزبني : شديد الدفع ، جلف عنيف .

(١٠) شنت اليد : عشتت وغلطت ، وشنت اليدين : غلغلها .

(١١) زنخ .

(١٢) قويّ غليظ .

(١٣) الربقي : حبل فرعى أو حلقة لربط اللواب ، والجمع رباقي وأرباق .

(١٤) الجزاز : وقت الجزّ ، والجزّ هو القطع (قطع الرتبة) ،

(١٥) الرّسن .

(١٦) الزهومة أو الزهمة : الرائحة النتنة .

جارية ، ورؤوس الغنم وجلودها وأكارعها كل كاشية^(١٢) ، هذه الكاشية في ناحية ، وهذه الكاشية في زاوية . فرجف قلبه ، وازداد رعبه ، والتجأ إلى الله تعالى ، وتاب إليه عما عليه من الذنوب مالا ، فما واطأ القصاب المصارع ، أن شد من المشرقي الأكارع ، وجدلته على الجدالة^(١٣) ، وأخرج لذبحه الآلة ، فلما رأى هذه الحالة تحقق ما كان ظنه فاستحضر بالله ، وأيقن أنه هالك لا محالة ، فنظر إلى القصاب ، وذكر ما قيل في حق الساب .

نظروا إليك باعين مخمرو
نظر الثور إلى شقار الجازر^(١٤)
فوجد السكين كليله ، ليس للذبح بها حيلة ، فطلب المسن ليحلها ، ويربح ذبيحته إن حلها ، فركه وذهب للمسن ، وقد تحقق الزنيم ما كان ظن ، فتنفس له البلاء ، وارتمى عنه عقد القضاء ، فتمطى في رباط الأكارع ، فمزقه بحبل قاطع ، ثم وثب ، وقصد الحرب ، وخرج من الباب ، وصاحوا عليه : هراب ، فلم يلتفت إلى الصوت ، وفر فراراً من عاين الموت ، وطلب الخلاء ، وطريق الفضاء . فأدى به الذهاب ، إلى بستان بجوار بيت القصاب ، فدخل البستان ، وامتد في الجريان ، والقطاب وراءه بهيته المهولة ، والسكين في يده مسلوله .

وكان قبل هذا الزمان ، بين زوجة القصاب وصاحب البستان ، ما يكون بين الحرفاء والأعدان^(١٥) ، وكانت كلما وجدت فرصة ، جعلت للبستاني من نفسها حصّة ، تنزل من بيتها إلى بيته ، وتغمس سراجها من قتيلة قنديلته وزيته ، فاتفق أن في تلك الحال ، طلب كل من الحبيين الوصال ، وكان زمان اشتغال اللحام ،

(١٢) كاشية : مقطعة ومترعة ، وكل قطعة إلى نظيرها .

(١٣) الجدالة : الأرض الناعمة .

(١٤) سكاكين الجوار

(١٥) الحرفاء والأعدان : أبناء الحرفة الواحدة ، والأصدقاء (من المتحرفين هنا) وعشاق النساء في الحرام .

بالمعاملة مع الخاص والعام ، فلاشتغال وهله ، لا يتردد فيه إلى أهله ، فاشتغلت
 الزوجة غفلة الرقيب ، ونزلت من بيتها إلى بيت الحبيب ، فكان الحبان آمنين ، وقد
 تعانقا تحت دوحه ياسمين ، فاتفق أن الهارب من الموت ودواهيته ، أخذ على مكان
 هماً فيه ، والقصاب يتبعه رافعاً يده ، والسكين في يده مجردة ، فلم تشعر إلا
 وزوجها رافع الصوت ، واقف على رأسيهما وبيلده آلة الموت ، وما شعر
 بدواهيتهما ، حتى عثر عليهما ، فقفز كلاهما من مكانهما ، مفتضحين في
 مكانيهما ، فاشتغل القصاب بنفسه ، والتهى بتعجيزه^(١٦) عن نفسه ، وكان الناس
 تابعيه ، فوقوا على ماوقع فيه ، وقامت الغوغاء ، وقعدت للعار من البلاء .

ففرس^(١٧) النجاة من الردى ، فلم يزل في ميدان الجري جارياً ، حتى وصل إلى
 ثغرة خرج منها إلى الصحراء ناجياً ، فانقطع عن ذلك الجنى تابعه ، ولم يوجد من
 شياطين الإنس رائيته وسامعه ، فأنتهى به التستار^(١٨) ، في تلك الصحاري والقفار ،
 إلى جبل فأوى فيه إلى غار ، كان يأوي إليه مع المواشي أوان الأمطار ، فأمسى فيه
 تلك الليلة إلى وقت الإسفار^(١٩) :

فلما رأى الليل العوس صنيعة تبسم فالهزت تباشير فجره
 فلما أصبح الصباح ، خرج إلى السراح ، وهو في نشاط ومراح ، وجعل يرتاد
 أنيسا ، ليكون جليسا ، أو رفيقا صالحا ، أو صديقاً ناصحا ، يتأس به في الغربة ،
 ويمسح بأنامل مؤانسته ثقل الكربة ، وما يحصل على جبين راحته من عرق القرية .

(١٦) زوجته الخاتنة .

(١٧) الفاعل هنا هو التيس ، وقد صار يجري كالفرس هارباً من الموت .

(١٨) السر أو المسار والمشى .

(١٩) إسفار ضوء النهار (الفجر) .

وبينما هو ينشرُ البیداءَ ويطوي ، إذا سمعُ نُبأَحَ كُلِّسَيَّ يعوي ، فترجى الخير ،
وزوال الضير ، ثم قصد نحوهُ ، فراهُ مقبلاً من فجوة ، فناداهُ أهلاً بأحبِّ الأحبابِ
وأعزِّ الاصحاب ، المفضلِ على كثيرٍ مَن لیسَ الباب . فلما دنا منه بادر إلى عناقه ،
وتباكى لأليم فراقه ، فتعانقا ، تعانقَ الحبين ، وتبأنا مباءةً من مصَّة البين . ثم قال
لهُ : اعلم يا لطيفَ الحركات ، وكثيفَ البركات ، أنَّ كلاً مِنَّا غريب ، وكلُّ غريبٍ
للغريبِ نسيب ، وأنا قد تفرَّستُ فيك ، وما تكادُ فراسيتُ تُخطئك ، إنَّك رفيقٌ
صالح ، وشفيقٌ ناصح ، وأحسنُ مليحٍ مُمالح ، وفي طريقةٍ إخوانِ الصفا قَيمٌ
وراجح ، وإن كانت الجنسية بيننا مختلفة ، لكن القلوبَ بمحمدٍ الله تعالى مؤتلفة ،
وكَمَ لك من أبادٍ سابقة ، وصدقاتٍ متناسقة ، وكَمَ حطَّطنا في المراعي ، وتبنا في
الخطائرِ نائمين وأنت لحفظنا ساعي ، تحرسنا من الغداة إلى الرواح ، ومن المساءِ إلى
الصباح ، فأعبرني ما شأُك ؟ وأين مكانُك وما اسمُك ؟ وما صنعتُك ورسمُك ؟
ومحيطُك من أين ؟ وما حاجتُك في البين ؟ قال : أمَّا اسمي فَيَسَّار ، وأمَّا مكانِي فَيَلَادُ
التنار ، وصنعتي راعي ، وسببُ مجيئي ضياعي ، ولي صاحبٌ اسمه أفرق^(٢٠) ، من
دشت قفجاق بن شرق ، كنتُ في خدمته ، راعي ماشيته ، فأضللت رعيته ،
وضيعتُ حقَّ حرمتي ، وأنا أطلبُ وليَّ نعمتي ، لأحسَّ من وصمة الجفاءِ سيمتي ،
فهذا شأني وحُلُّ بُغيي .

قال الزنيم . أنا من حين شاهدتُ في وجهك الأنوار ، علمتُ أنَّك يسار ، وأنك
معدنُ الذكاء ، والألقابُ تنزل من السماء . وأمَّا طلبُك لصاحبك ورعيته ، فإنه
دالٌّ على كمالِ مروتك ، ولا يُنكرُ لك الرِّقاء^(٢١) ، فإنَّ بينك وبينه الوفاء ، مقام

(٢٠) إليه نسب الكلب الأفرقي . وهو من دشت قفجاق أي من صحرائه .

(٢١) الرِّقاء : الإصلاح والتَّامُّ الشمل والافتقار .

الصدق والصفاء ، ولم يقع بينكما قط بُعْدٌ ولا جَفَاءٌ ، وشهرتُك بحمدِ اللهِ بِجَمِيلِ الصفات ، التي قلما تجتمعُ في زَكِيِّ النَوَات ، ولا تصفو إلا للأولياء ، والبررة المبرزين الأصفياء ، من المسكينة والقناعة ، والجراة والشجاعة ، وحفظِ العهدِ والوفاء ، وكسرِ النفسِ والصفاء ، وعدمِ الحقدِ والحسد ، وإطراحِ العُجْبِ والنكد ، والحراسةِ والسهر ، وقيامِ الليلِ إلى السحر ، والتودُّدِ إلى الناس ، حتَّى قال فيك ابنُ عباس : كلبٌ أمين ، خيرٌ من صديقٍ خذون . وعندك من التهذيب ، وقبولِ التعلمِ والتأديب ، ما يصيرُ صيدَكَ مُدَكِّي ، وسنَّكَ كالشَّفْرَةِ مزكي ، وفي شأنِكَ يا ذا الوفاءِ والمنفعة ، قال الحارث بن صعصعة :

وما زال يرغى ذمتي ويحوطني ويحفظُ عروسي^(٣٧) والخليلُ يحون
فها عجباً للخليلِ يهتكُ حُرْمَتِي ويا عجباً للكلبِ كيفَ تصون

ومن هذا الضرب ، ما رواه أحمدُ بنُ حرب ، عن ذي العتاب ، منادٍ الكلاب : إنَّ الكلبَ يكفُ عَنِّي أذاه ، ويكفيني أذى سواه ، ويشكرُ قليلي ويحفظُ مبيتي ومقبلي ، فهو من بين الحيوانِ خليلي . ثم قال أحمد بن حرب : تمنَّيتُ واللهُ أن أكونَ مثلَ هذا الكلب ، لأحوزَ هذه الصفات ، وأرقى هذه الدرجات . وأرجو الله تعالى أن يُعْطِفَكَ عليَّ ، وَيَقْلِبَ قَلْبَكَ وَجْهَكَ إِلَيَّ ، بحيثُ ترغبُ في صحبتي ، وتميلُ إلى صداقتي ، فترى إذ ذاك مِنِّي بحمدِ اللهِ تعالى من الأخوةِ والصداقةِ والمُرُوءَةِ والرفاقة ، ما تنسى به كلَّ صديق ، وتفضلُ به صاحبَ الجديَّةِ على العتيق ، فتترك سائرَ أصحابك ، وتنتهي بي عن أعزِّ أوليائك وأحبائك ، خصوصاً بني آدم ، الذين أنت بهم أعلم ، مَنْ أذهبتَ عمرَكَ في خدمَتِهِم ، والقيامِ بحقوقِهِم وحفظِ حرمَتِهِم ، وحراسةِ مواشيهِم ودورِهِم ، وإكمالِ فضيلِكَ في حياطةِ بيوتِهِم وقصورِهِم ، ورعايةِ رعيانِهِم ، وصيانةِ أهلِهِم وجمِرائِهِم ، مع قناعتِكَ منهم ، بما يفضلُ عنهم ، من

(٣٧) زوجتي ، عروسي .

كِسْرَةَ عَجَبٍ شَعِير ، أَوْ عَظْمٍ يَابِسٍ كَسِير ، أَوْ فَضْلَةَ مَرَقَةٍ قَدِير ، وإِضَاعَتَهُمْ حَقُوقَ خِدْمَتِكَ ، وَنَسْيَانَهُمْ مُوجِبَاتِ شَفَقَتِكَ ، حَتَّى لَوْ وَصَلَ فَمُكَ إِلَى زَادِهِمْ ، أَوْ إِلَى شَيْءٍ مِنْ عَتِيدِ عِتَادِهِمْ ، رَمَوْكَ بِالْحَطَبِ ، وَرَضُّوا رَأْسَكَ بِالْحِجَارَةِ وَالْخَشَبِ ، وَلَوْ وَلَغْتَ فِي إِنْثَاتِهِمْ ، أَوْ شَرِبْتَ مِنْ مَائِهِمْ ، مَا قَنَعُوا فِي تَنْظِيفِهِ ، وَتَطْهِيرِهِ وَتَشْطِيفِهِ ، بِمَرَّةٍ وَلَا مَرَّتَيْنِ ، وَلَا اكْتَفَوْا فِي إِزَالَةِ لُعَابِكَ بِالْعَيْنِ ، بَلْ دُونُوا الْغَسْلَ بِالْحَسَابِ ، وَغَفَرُوا الْوِعَاءَ بِالْتَرَابِ ، وَيَعْدُونَ ذَلِكَ مِنَ التَّعَبِ ، وَلَا يَرَعُونَ مَا لَكَ مِنْ تَحْسِبٍ وَتَوَدُّدٍ .

وَأَنَا أَرْجُو أَنْ تَرْتَفَعَ مَنْزِلَتُكَ ، وَتَعْلَوْ دَرَجَتُكَ ، وَيَسَاعِدَكَ رَبُّ الْعَرْشِ ، حَتَّى تَصِيرَ سُلْطَانُ السَّبَاعِ وَمَلِكُ الْوَحْشِ . وَاجْتَهِدْ فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ ، إِلَى أَنْ أَبْلُغَ هَذِهِ الْأَمْنِيَّةَ ، وَأَكُونُ السَّبَبَ فِي ذَلِكَ ، إِلَى أَنْ تَصِيرَ رَئِيسَ الْمَمَالِكِ ، فَإِنَّ لَكَ عَلَيَّ حَقًّا قَدِيمًا ، وَفَضْلًا جَسِيمًا ، طَالَمَا نَمَتْنَا آمَنِينَ فِي ظِلِّ حِرَاسَتِكَ ، وَرَعَيْنَا مَسْرُورِينَ مَكْنُوفِينَ بِحِمَايَتِكَ ، وَأَجَلْنَا مِنْكَ فِي الْخَاطِرِ ، مَا قَالَ الشَّاعِرُ :

بِقَاوُكَ فِينَا نَعْمَةٌ اللَّهُ عِنْدَنَا فَتَحْنُ بِأَوْقَى شُكْرِهَا تَسْتَلِيهِهَا

قَالَ يَسَارُ : يَا أَخِي جَمِيعُ مَا قُرِئَتْهُ صَحِيحٌ مَقْبُولٌ ، دَاخِلٌ فِي الْفَضْلِ خَارِجٌ عَنِ الْفَضُولِ ، وَلَكِنْ أَنَا مِنْ جَنْسِ السَّبَاعِ ، بِجَبُولٍ عَلَى مَا لَمْ يَلَمْ مِنَ الطَّبَاعِ ، وَمَعَ هَذَا فَأَنَا عَدُوُّهُمْ ، وَبَسِي يَزُولُ هُدُوهُمْ ، وَأَنَا لَمْ أَعَادِهِمْ إِلَّا فِيكُمْ ، وَلَا لِي وَادٌّ إِلَّا فِي نَادِيكُمْ ، فَإِنَّ تَرْبِيَّتِي بَيْنَكُمْ ، وَعَيْنِي مَقَارَنَةُ عَيْنِكُمْ ، وَأَنَا إِلَيْكُمْ أَقْرَبُ مِنْي إِلَيْهِمْ ، وَمَعُولِي عَلَيْكُمْ دُونَ مَعُولِي عَلَيْهِمْ ، وَعَلَى هَذَا وَجَدْتُ آهَاتِي وَأَجْدَادِي ، وَنَشَأْتُ مِنْ حِينِ مِيلَادِي ، وَالْخُرُوجُ عَنْ طَرِيقَةِ الْآبَاءِ ، دَلِيلٌ عَلَى الْعُقُوقِ وَالْإِبَاءِ ، وَهُوَ أَمْرٌ مَذْمُومٌ ، وَهَذَا شَيْءٌ مَعْلُومٌ . وَقَدْ قَالَ صَاحِبُ الشَّرْعِ : "الْحُبُّ يَتَوَارَثُ ، وَالْبُغْضُ يَتَوَارَثُ" ، وَلَكِنْ يَا سَلِيمَ الطَّبَاعِ ، وَخَصِيْبَ الرِّبَاعِ ، قَوْلُكَ تَصِيرُ سُلْطَانُ السَّبَاعِ

سخريةً مني واستهزاء ، ولا أستحق منك هذا الجزاء ، فإن معنى هذا القيل ، أمرٌ مستبعدٌ بل مستحيل ، إنَّ أبا طاهر^(٢٣) نجسُ العين ، فإني من أين ، وهذا الهوس من أين ؟ فإنَّ أردتُ إعانتي على ذلك ، وتكفّلتُ لي برياسةَ الممالك ، فكيفَ لنا في هذا الهوى سواء ، وإنَّ صمّمنا على ذلك فما لي جُنُوننا دواء ، وهذا الوسواس ، من خيالاتِ الإفلاس . وفي مثل هذا الحال ، قال مَنْ صدقَ في المقال "لا تحيّلَ عندك تهديها ولا مال" . وأنا أعلمُ إنّما تتكلّمُ بما يطيبُ خاطري ، ويسرُّ سرائري ، ويقرّبُك في الحبِّ من ضمائري .

قال المشرقي^(٢٤) ، لا تقلْ ذلك يا تقي ، فأنا شاهدتُ في جبينك غيايلَ السيادة ، ومن شمائلك تقاطرُ السعادة ، وقد قيل ، يا فضيل : المرءُ يطيرُ بهمته ، كما يطيرُ الطيرُ بجناحه ، أمّا بلغك يا خيرَ عالم ، مارواه الشيخُ علاءُ الدين بنُ غانم ، ذو الفضلِ الكثيرِ عن تاجِ الدين ابنِ الأثير ، قال يسارُ أبخيرني بهذه الأخبار .

[١/٦] نبوءة الملك قطز

قال ابنُ الأثير^(٢٥) ، وهو بالروايةِ خير ، محرزُ أيدي المعاني ، عن الأميرِ حسامِ الدين البركة خاني : قال كنتُ في عصرِ الشباب ، أصحبُ من صالحِي الشباب ، الملكَ المظفرَ ، قطزَ الغضنفر ، وكان عُشداشني^(٢٦) ، وبرؤيته انتعاشي فكُنّا ونحن صبيان ، كأننا ظبيان ، غيرَ أنا كنّا في قِلّة . فكنتُ أَقْلِي قَمَلَهُ ، وأسَرَّحُ رأسه ،

^(٢٣) أبو طاهر : كنية الكلب (من أسماء الأضداد) .

^(٢٤) المشرقي : التيس ، لأن أصله من الشرق كما ذكر المؤلف في قول الباب .

^(٢٥) ابن الأثير : المؤرخ المعروف (١١٦٠ - ١٢٣٤ م) صاحب كتاب الكامل في التاريخ .

^(٢٦) عُشداش : لفظ فارسي معناه الرميل في الخدمة . والتجشداشية هم الأمراء الذين نشأوا بمالك عند سيد واحد ، فنبئت بينهم الرملة .

وأذهبُ بأسه ، وتقدمتُ إليه ، بالشرط عليه ، أن يعطيني لكلِّ قملةٍ فلساً ، أو
 أصفَعُهُ صَفْعَةً مَلْساً^(٢٧) . ففي بعضِ الأوقاتِ أخذتُ عنه قَمَلًا كثيراً أو صَفْعَتَهُ
 صَفْعَاتٍ ، وقلتُ في غضون ذلك ، ونحن في حالٍ حَالِكٍ : أَتَمْنَى عَلَى اللَّهِ عِزًّا
 وَعِلا ، أَنْ يُعْطِيَنِي إِمْرَةً حَمْسِينَ رَجُلًا ، فقال لي : طَيِّبَ خَاطِرِكَ ، وَسُرَّ سِرَّاتِكَ ،
 فإِنِّي أَبْلُغُكَ سَوَالِكَ ، وَأَعْطِيكَ مَسْئُولَكَ ، وأجعلُكَ أَمِيرَ حَمْسِينَ فَارِسًا ، فابْشُرْ وَلَا
 تَكُنْ عَابِسًا ، فصفَعتهُ صَفْعَةً ، وقلتُ ويليكَ ! أنتَ تعطيني إِمْرَةً ورفعة ؟! قال :
 نعم ، وأعْمُرُكَ بِالنَّعَم . فصفَعتهُ أُخْرَى ، وازدَدْتُ نَكْرًا ، فقال لي : عَظَمَ ، وَغَضَسَ
 الْمَسْئَلَةَ ، يَا قَلِيلَ الْيَقِينِ ، أَتُرِيدُ شَيْئًا غَيْرَ إِمْرَةٍ حَمْسِينَ ، أَنَا وَاللَّهُ أَعْطِيكَ ، وَأُعْطِيكَ
 عَلَى ذَوِيكَ . فقلتُ : وَمَنْ أَيْنَ لَكَ تَعْطِينِي وَتَرْضِيَنِي ؟ فقال : أَمْلِكُ هَذَا الدِّيَارَ ،
 وَأَكْسِرُ التَّنَارَ ، وَأَحِلُّ الْكَفْرَةَ وَالْعُلُوجَ^(٢٨) دَارَ الْبَوَارِ ، فقلتُ له : يَامِفْتُون ، أَنْتَ
 بَجْنُون ، أَتَقِمُّ لَكَ وَقَلَّكَ ، وفقرِكَ وَذَلَّكَ ، تَمْلِكُ الدِّيَارَ الْمَصْرِيَّةَ ، وَتَصِيرُ سُلْطَانًا
 الْعَرَبِيَّةَ ؟ قال : نعم ، وَلَا تَعْمَلْ زَعَمَ ، فإِنِّي رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ النَّبِيَّ ﷺ وَقَالَ لي : أَنْتَ
 تَمْلِكُ الدِّيَارَ الْمَصْرِيَّةَ ، وَتَكْسِرُ التَّنَارَ ، وَلَا شَكَّ فِيمَا يُخْبِرُ بِهِ النَّبِيُّ مِنْ خَيْرٍ . قال :
 فَامْسِكْتُ عَنْهُ ، لِأَنِّي كُنْتُ أَعْرِفُ الْبَصِيقَ مِنْهُ . ثُمَّ تَنَقَّلْتُ بِهِ الْأَحْوَالَ ، وَتَنَقَّلْتُ إِلَى
 أَنْ بَلَغَ الْكَمَالَ ، وَتَمْلِكُ هَذِهِ الدِّيَارَ ، ثُمَّ كَسَرَ عَلَى عَيْنِ جَالُوتِ التَّنَارِ^(٢٩) ،
 وَأَعْطَانِي مَا وَعَدَنِي بِهِ وَأَرْضَانِي .

وَإِنَّمَا أوردتُ هَذَا المَثَالَ ، لِتَعْلَمَ أَنَّ سُلْطَنَتَكَ غَيْرُ مَحَالٍ . وَأَنَا أَرْجُو اللَّهَ تَعَالَى أَنَّ
 يُبَيِّرَ لِي الْقِيَامَ ، بِجَمِيعِ مَا قُلْتُهُ لَكَ يَا إِمَامَ ، وَأَنَا أَجْلِسُكَ عَلَى السَّرِيرِ ، وَأُقِيمُ فِي

^(٢٧) مَلْسَاءُ نَاعِمَةٌ (مُطَيِّفَةٌ) .

^(٢٨) الْعُلُوجُ ، وَاحِدُهَا عُلُجٌ وَهُوَ الرَّجُلُ الضَّعِيفُ مِنْ كُفَّارِ الْعَجَمِ وَغَيْرِهِمْ .

^(٢٩) عَيْنُ جَالُوتَ : مَوْقِعَةٌ فَاصِلَةٌ فِي التَّارِيخِ ، فِيهَا هَزَمَ الْمَمَالِكُ لِلْمَصْرِيِّينَ بِقِيَادَةِ قَطَرٍ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ ، وَاقْتَفَوْا
 زَحْفَهُمُ السَّاحِقِ الْمَلاحِقِ عَلَى مِصْرَ وَالْعَرَبِ وَأُورُشَا (وَكَانَ ذَلِكَ فِي ١٢٦٠/٩/٣ م) .

خدمتك الكبير والصغير ، وأرفع راية مراسيمك ، وأنفذ أوامرها في ممالكك وأقاليمك ، وأجعل جنود الوحش تحت رايتك ، وأقاليم القفار كلها تحت ولايتك ، ولكن بشرط أن تتبع ما أراه ، ولا تخرج عن طوره ولا تتعداه ، وتعمل بكل ما أشير إليه ، ومهما أرشدتك إليه ، تعول عليه . فقال : أنا طرغ يدك ، وجميع أموري منك وإليك ، فقل فلاني سامع ، ولأمرك طائع ، فانهض وعاني ، هذه الأمانى ، عسى يصير هذا الباطل حقا ، وينقلب هذا الكذب صدقا ، وقل ما تقتضيه لأتبعه وأرتضيه . قال : ترجع عما أنت عليه من الأخلاق السبعية ، والأوصاف الكلبية ، من الحرص والشره ، والتكلب والتره ، والنفس المتمترية ، والطبيعة المذمرة ، وتصوم عن الدماء واللحوم ، وعن تمزيق الحيوانات ، وقريق الجماعات ، وتحمل النفس على الأخلاق الجميلة ، والتئس بالأوصاف الفضيلة ، من العفة والكرم ، والعفو عمن ظلم ، والقناعة بالنبات ، عن لحوم الحيوانات ، ومعاملة الكبير والصغير ، بالفضل الكثير ، والبذل الغزير ، وتلافي خاطر الخطير والحقير ، ليسهل العسير ، وينقاد لك المأمور منهم والأمر ، وهذا أمر عليك يسير . وهذا لأنك طالما جرحت جوارحهم ، وكسرت جوارحهم ، واصطدت سارحهم ، وأبدت بارحهم ، فهم منك متخوفون ، وإلى الإيذاء والضر منك متشفون . وإذا رأوا شيئا خلاف العادة ، وعلموا أن ولايتك فيها الحسنى وزيادة ، وأصابوا الخير ، من مواقع الضير ، ورأوا ما سر ، من مواضع الشر والضر ، تشرب محبتك منهم الكبير والصغير ، وأنهاك أن يراك من الوحوش العير والنفير ، فيتخذك الغريب حبيبا ، ويصير البعيد منك قريبا ، فتصيد بالحبه أرواحهم ، كما كنت أولاً تبيد أشباحهم . وإذا ضرب صيتك في الأرض ، ونثر ذرة بالطول والعرض ، وتسامعت بك الوفود ، وتحققوا أنك عدلت عن خلقك المعهود ، أقبلت إليك منهم الجنود ، وزان جيد جنودهم من جواهر محبتك عقود ، واتفقت بينكم بالحبه والولاء عقود

العهود ، فتوَفَّرَتْ إذ ذاك جنودُك ، وعلتْ على رؤوسِ الأحرارِ راياتُك وبنودُك ، وجعلوا دارك مأواهم ، وحماك مصيفهم ومشتاهم ، مع أن هيبَتَكَ في قلوبهم مركوزة ، وأسِنَّةُ مخافتِكَ في أحشائهم من قديم الزمان مغروزة ، وأعلى مَنْ فيهم يهابُك ويخشاك ، ويتوقى مكانَكَ ويتحاشاك .

قال يسار : اعلم يا خير سار ، أن حبالَ الآمال ، ومطالعَ الخيال ، ما لم تتعلّقْ بمأمول ، ولم ترتبطْ بأطرافِ سول ، فالنفسُ ساكنة ، والروحُ مطمئنةٌ هادنة ، والقلبُ فرح ، والخاطرُ منشرح ، إذ الطمعُ ذلٌّ وشين ، واليأسُ إحدى الراحتين . ومتى تعلّقتْ بذليلِ المطامعِ غياليبُ الآمال ، وبلغتْ إلى حصولِ مأمولِ الخيال ، وقامت النفسُ في تحصيلهِ ، وتحركتْ الجوارحُ لنيلِ مأمولِهِ ، وانبعثتْ الهمةُ إلى إدراكِهِ ، وتعلّقَ القلبُ بسيرِ أفلاكِهِ ، توزّعتْ الأفكارُ وتفرّقتْ ، وتمزّعتْ الخواطرُ وتمزّقتْ ، وركبَ لذلك كلُّ صعبٍ وذلول ، وتعاذفتْ النفسُ في كلِّ مخوفٍ ومهول ، وتقلدتْ بحمائل ، قول القائل :

إذا لم يكن عونٌ من الله للفتى
فأولُ ما ينجي عليه اجتهدُه

ثم إذا لم يحصلْ للمأمول ، ولم تبلغْ والعبادُ باللهِ النفسُ السول ، مع بذل هذا الجهد ، والمبالغةِ في السعي والكد ، ومقاساةِ التعب ، ومعاناةِ النصب ، ترادفُ النكد ، وتضاعفُ السَّهَد ، وصارت النفسُ لهذا البدد ، وكان في جيلِ حياتها من فواتِ المقصودِ جبلٌ من مسد ، فلا تزالُ بين تشويشِ ضمائر ، وتقسيمِ خاطر ، وفكرٍ غائبٍ وهمٍّ حاضر . وهذا الأمرُ الذي عزمتَ عليه ، وهممتَ بالترقى إلى الوصولِ إليه ، إلى عدمِ الحصول ، أقربُ منه إلى الوصول ، وأنا أخاف ، وذا غيرُ خاف ، أن يغرَّنَا الطمعُ في هذه الحركة ، فيتترع من فراغِ أوقاتنا البركة ، ولا نحصلُ إلا على

مِثْلِي مَا حَصَلَ لِلْمَلِكِ الْحَزِينِ مِنَ السَّمَكَةِ . قال الزنيم : نَبَّيْتُ أَيُّهَا الْعَلِيم ، بِذَلِكَ الْمَثَلِ الْقَوِيم .

[٢/٦] حكاية مالك الحزين والسَّمَكَةِ

قال بلغني أنه كان في مكانٍ مكين ، مأوى للملكِ الحزين^(٣٠) ، وفي ذلك المكان غياضٌ وغدران ، تضاهي رياضَ الجنان :

حَكَى بِأُتَاهَا قَدْ الْحَبِيبُ ثَمَائِلًا فُجِّنْ فِي هَذَا الْجَنُودِ تَفَنُّنًا
فَدَارَ عَلَيْهِ الْبَهْرُ وَهُوَ مُسْتَسَلٌ فَقَبِلَتْهُ إِذْ قَدْ جَسَا وَتَجَنُّنًا

وفي مياهه السَّمَكُ^(٣١) ، ما يفوقُ ساجحاتِ السَّمَاكِ^(٣٢) ، فكان ذلك الطير ، في دَعَاةٍ وخير ، يزجي الأوقات ، بطيبِ الأقوات ، وكلِّما تحرَّكَ بحركة ، كان فيها بركة ، حتى لو غاص في تلك البحارِ والغدران ، لم يخرجْ إلَّا وفي منقاره سمكة . فاتفق أنه في بعضِ الآناء ، تعرَّسَ عليه أسبابُ الغنَاء ، وارتجَّ لِقَوَتْ قَوَتْهُ أَبْوَابُ الْعِشَاء ، فكان يطيرُ بين عالمِ الْمَلِكِ والمَلَكُوت ، يطلبُ ما يسدُّ الرَّمَقَ من القوت ، فلم يفتَحْ عليه بشيءٍ من أعلى السماء إلى أسفلِ الحوت . وامتدَّ هذا الحال ، عدَّةَ أيامٍ وليالٍ ، فغاضَ يوماً في الرِّقْرَاقِ^(٣٣) ، يطلبُ شيئاً من الأرزاق ، فصادفَ سَمَكَةً صغيرة ، قد عارضتْ مسيرَه فاحتطفها ، ومن بين رجليه التقفها . ثمَّ بعد اقتلاعها ، قصد إلى ابتلاعها ، فنداركتْ زاهقَ نفسها ، قبل استقرارها في رَمْسِهَا ، فنادتْ بعد أن كادت ، أن تكونَ بادت : ما اليرغوثُ ، ودُمهُ ، والعصفورُ

^(٣٠) ملك الحزين : طائر من طيور الماء ، سمي بذلك لأنه يزعجهم بقعد قرب المياه ، فإذا نشفت حزن على جفافها ، وبقي حزينا ، ويعرف أيضا باسم الْبَكْشُون .

^(٣١) السَّمَاك : السمك الكثير .

^(٣٢) ساجحات السَّمَاك : النجوم (كتابة عن الوفرة والكثرة) .

^(٣٣) لُذْرُ الصَّغِير .

ودسمه ، اسمع يا حارَ الرضا وَمَنْ عُمَرُنَا فِي صَوْنِهِ انقضى ، لا تعجلْ في ابتلاعي ، ولا تسرعْ في ضياعي ، فمقي بقائي فرائد ، وعوائدُ عليك عوائد ، وهو : إنَّ أبي قد ملك ، هذا السمك ، فالكلُّ عبيدُهُ ورعيته ، وواجبٌ عليهم طاعته ومشيتته ، ثمَّ إنِّي واحدٌ أبويٌّ ، وأريدُ منك الإبقاءَ عليَّ ، فإنَّ أبي نذرَ النذور ، حتى حصلَ له بوجودي السرور ، فما في ابتلاعي كبيرُ فائدة ، ولا أسدُّ لك رمقاً ولا أشغلُ لك معدة ، فتصير مع أبي الفضيل ، كما قيل : "فافقرني فيمَن أحبَّ ولا أستغني" ، فالأولى أن أترُ عيذك ، وأعرف ما بين أبي وبينك ، فأكون سبباً لعقودِ المصادقة ، وفاتحاً لأغلاقِ المحبةِ والمرافقة ، ويتحمَّل لك الجميلة ، والمئةُ التامةُ والفضيلة . وأمَّا أنا فأعاهدُك إنَّ اعتقتني ، ومننتَ وأطلقتني ، أن أتكفَّل لك كلَّ يومٍ بعشرِ سمكات ، يَياضِ سمانٍ وَذَكَاتٍ^(٣٤) ، تأتيك مرفوعة ، غيرَ ممنوعةٍ ولا مقطوعة ، يرسلها إليك أبي ، مكافأةً لما فعلتَ بي ، من غيرِ نصب ، منك ولا وصب ، ولا كَدٌّ تحمُّله ولا تعب . فلما سمعَ البَلَشُون^(٣٥) ، هذا الجحون ، أغراه الطمع ، فما ابتلع ، فسَمَّها ونَلَّها ، ثم قال لها : أعيدي هذه الرزمة ، فبمجرَّد ما فتح فاهُ بالهمة ، انخلصت السمكة منه بجمزة ، وغاصت في الماء ، ونخلصت من بين فكَّي البلاء ، ولم يحصل ذلك الطماع ، إلَّا قَطَعَ الأطماع .

وإنَّما أوردتُ يا ذا الدراية ، هذه الحكاية ، لتتأملَ عُقبى هذا الأمرِ قبلَ الشروعِ فيه ، وتندبِرَ مُنتهى أواخرِهِ في مبادئه ، فقد قيل : أوَّلُ الفكرِ آخِرُ العمل . قال المشرقي : اعلمْ يا مرتقي ، أنَّ مبنى الأمورِ في مجاريها ، وقواعدُ ما أسَّسَ عليه مبانيها ، تقديرُ خالقِها وتدبيرُ باريها ، وما حَكَمَه وقضاه ، وأَحَكَمَه وأمضاه ، لكنه

(٣٤) الرودك : السمين الدسم .

(٣٥) بَلَشُون : مالك الحزين .

كتمه وأخفاه ، فلا تُدرِكُهُ العيونُ والأبصار ، بل ولا البصائرُ والأفكار ، فإنه عِلْمٌ غيب ، وجهلنا به ليس بغيب ، لأنه تنزه أحدًا صمدًا ، قال تعالى ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾^(٣٦) كما قيل :

على المرء أن يسعى ويدلّ جَهَنَّةَ وليس عليه أن يساعده الدهرُ
فإن نال بالسعي المتى تم أمره وإن غلب المقدور كان له غلرُ

وإن الله العليُّ الأعظم ، قد وضع أساسَ بنيانِ العالمِ على الأسباب ، وفتح لتعاطي الأسبابِ الأبواب . فقال ذو الجلال : ﴿وَالَّذِينَ جَاهَلُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾^(٣٧) وقال : ﴿فَامشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾^(٣٨) وقا القائل :

إذا ما كنت في أمرٍ مُرُوم فلا تقنع بما دون الجُجوم
يرى الجبناء أن العجز حُزْم وتلك خديعةُ الطبع اللئيم
فطمع الموت في شيءٍ حقير كطمع الموت في شيءٍ عظيم

وقال عليه الصلاة والسلام : "عُلُوُّ الْهِمَّةِ مِنَ الْإِيمَانِ" والمرء يسعى في تحصيلِ مراميه ، ولا يترك شيئاً من أسبابِ قيامه ، فإن ساعده القدرُ بقدره ، انقاد إليه مرامُه بِشَعْرَةٍ ، وكان مصادِمُه مساعدَه ، ومقاومُه معاضدَه كما قيل :

وإذا أراد الله نصرَةً عبده كانت له أعداؤه أنصارا

فيساعده إذ ذاك الكونُ والمكان ، ويمضي سهمُ أوامره رامي القضاء من قوس الزمان ، فيقيضُ له المساعد ، ويتعبد له المقاربُ والمباعد . وحسبك يا ذا الصولة ، ما اتفق من السعيِّ لعمادِ الدولة . فسأله يسار ، عن سرد هذه الأخبار .

^(٣٦) قرآن كريم ، سورة الجن : ٢٦ .

^(٣٧) قرآن كريم ، سورة الروم : ٦٩ .

^(٣٨) قرآن كريم - سورة الملوك : ١٥ .

[٣/٦] قصة عماد الدولة البويهية

قال : كان رجلٌ صياد ، له ثلاثة أولاد ، كأنهم حَمَكٌ^(٣٩) ، وقوتهم السمك ، تقلبت بهم الأحوال ، حتى صاروا برياستهم على الدنيا أحمال ، وانتهوا في الرئاسة ، وسامسوا الخلق أحسنَ سياسة ، وانتشر أمرهم ، وطاب في الدهر ذكرهم . ومما ملكوه العراق^(٤٠) والأهواز ، وفارس وسُرتها^(٤١) شيراز ، أكبرهم أبو الحسن علي بن بُويه^(٤٢) الملقبُ بعماد الدولة ، وكان في السلطنة ذا جولةٍ وصوله . ولما انتهت أيام حمولة ، واتصل بالسعد أسباب وصوله ، حلَّ ركابهُ بشيراز ، وصعد إلى حقيقة الملك من الحجاز ، ووفدت عليه الوفود ، وأحاطت به جموعُ الجنود ، وطالِبُهُ أهلُ المراتبِ بالرواتب ، والروامك^(٤٣) بالجوامك^(٤٤) ، والرِّفاقُ بالإتفاق ، والأجنُادُ بالأرفاد ، وأربابُ الولايات بالخلع والجرايات ، وأصحابُ الإقامات بالنفقات والإنعامات ، ولم يكن في خزائنه ، من ظاهرِ المالِ وباطنه ، ولا في ذخائره ، من ظاهرٍ والرِّقْدِ وضمائره ، ما يسدُّ رمقهم^(٤٥) ، ويردُّ شرقهم^(٤٦) ، فزأمت همومُه ، وتصادمت غمومُه ، وتوالت أفكارُه ، وتجادب به من بحرِ الحيرةِ ذُرُّورُه^(٤٧) وتيارُه ، لأنَّ أمره كان في مباديه ، وليلِ سعديه في هوادهيه ،

(٣٩) الحَمَك : الصغار من كل شيء .

(٤٠) العراق : العراق العجم وعراق العرب .

(٤١) سُرة البلاد : أفضل مواضعها وخير مثابها ، وهي أيضا أكرم المدن وأوسطها ، ويعنى بها شيراز .

(٤٢) قولى الحكم سنة ٣٢٠ هـ - ٩٣٤ م . العراق : العراق العجم وعراق العرب .

(٤٣) الروامك : الخيل ، ويقصد طلبة أصحاب الخيل بحرياتهم ومخصصةهم (علف الخيل) .

(٤٤) الجوامك : جمع حاكمية ، وهي مرتب عظم الدولة من العساكر والموظفين .

(٤٥) رمقهم : جوعهم وعيشهم ، والرمق بقية الروح .

(٤٦) شرقهم : ظمأهم ، والشرقة : العطسة .

(٤٧) الذرودور : هامة البحر التي يئشى فيها الغرق .

وقد قصرت عن طول الطول إياه ، وأشرف أمره على الاختلال ، ومثلكه على الاضمحلال ، ووقع في يوم لا يتبع فيه ولا خيال ، فدخل إلى مكانس^(٤٨) بحال ، وهو مشغول البال ، فاستلقى فيه على ظهره ، وغرق في بحار فكره .

فبينما هو يلاحظ السقف ، وأفكاره بين تردد ووقوف ، وإذا بحجة عظيمة ، بحجة جسيمة ، من السقف خرجت ودرجت ، وفي مكان آخر وكحت ، فوثب واقفاً ، ورقب خائفاً ، لئلا تسقط عليه ، ويصل أذاها إليه ، ودعا الفرّاشين ، وجماعة فتّاشين ، بمعاول التّباشين ، وأمرهم بنصب السّلم ، والفحص عن الأرقم ، وتبّع آثارها ، وإطفاء شرارها ، فصعلوا الحيطان ، وحفروا ذلك المكان ، وخرقوا سقفه ، فافتحت لهم غرفة ، كانت مخبأة لمن تقلّمه ، وضع فيها ديناراً ودرهمه ، وفيها عدّة صناديق ، محكمات التوثيق والمغاليق ، فاطلعوه على تلك الخبيّة^(٤٩) ، والتهوا عن طلب الحيّة الجليّة^(٥٠) ، فأمرهم فنقلوها إليه ، ووضعوها بين يديه ، فإذا فيها من الذهب النضار ، خمسمائة ألف دينار ، فعرف أنّ ذلك عناية ربّانية ، ومواهب صمدانيّة رحمانيّة ، فصرف المال في إصلاح حاله ، وبنّو في مزارع قلوب خيله ورجاله ، فنبّهت أوتاده ، واستقامت أجناده ، وقويت سواعده وأعضاده ، وكان أمره قد أشرف على الاختلال ، وعقد نظامه على الانقراط والانهلال .

وكان من تمام هذه السعادة ، وتعقيب هذه الحسنى بالزيادة ، أنّ الملك المذكور ، بعد هذه الأمور ، وحصول هذا السرور ، وانتظام مصالح الجمهور ، أراد تفصيل قماش ، وخياطة خلع ورياش ، فطلب عياطاً ثقة ، ليقبّله هذه المنطقة ،

(٤٨) مكانس : منزل غير مأهول .

(٤٩) عتف عبيّة (الكنز للمحبوب) .

(٥٠) الغليظة المستوية .

فأرشيد إلى خياطٍ ماهر ، شكلة زاهر ، وفضله طاهر ، وحلقه في صناعته باهر ، إلا أنه أطروش ، حقل سمعه يدي الوقر مذبوش^(١١) ، فما يصل إليك الكلام إلى سرير صماخيه^(١٢) إلا يزمر وطبل وجاروش^(١٣) . فدعاه فأجلسه بين يديه ، وطلب الثياب ليعرضها عليه ، فتصور الخياط أنه سعي به إليه ، بسبب دبيعة كانت لصاحب البلد لديه ، وإنما طلبه ليطالبه ، فإما أن يؤذيها أو يعاقبه ، فتقدم باليمين ، مثل المصارعين ، وأقسم بالله خالق المخلوق ، ورازق المرزوق ، إنها اثنا عشر صندوق^(١٤) ، لم يشعر بها مخلوق ، وأنه لا يدري ما فيها ، وأنها غنومة محتجمة معطيا . فتعجب عماد الدولة من كلامه ، وسجد لله شكراً على إنعامه ، ثم وجه معه من أتى بها ، ودخل إلى بيوت ما فيها من أبوابها ، فكان ما فيها من الأموال ، ونفائس القماش العال ، جمل متكاثرة ، وأصناف متوافرة ، واستولى على ذلك كله ، وثبت بواسطة المال في ركاب الملوك واطيئ نعليه .

وإنما أوردت هذا التنظير ، يا ذا الرأي والتدبير ، لتعلم أن مسبب الأسباب ، وميسر الأمور الصعاب ، إذا دبر مصالح عبده ، وشملت بإحسانه ورفده ، هون عليه كل عسير ، وصغر عنده كل كبير ، وأنت بكل هذا بصير . قال يسار : صدقت ، وصواباً نطقت ، ولكنني نظرت إلى الدنيا ، ورزت أحوالها السفلى والعليا ، ورأيت كلما زاد الشخص حرصاً وطمعاً ، ازداد لنفسه عبودية وتبعاً ، وللدنيا رقا ، وللآخرة رشقا ، فصارت قيوده أثقل ، وحسابه أشد وأطول ، وهمومه أتم ، وغمومه أعظم ، وأن الواثق بالدنيا ، والراكن إلى ما فيها من أشياء ، كالجاعل له من

(١١) الدبى : الكثرة من (الجراد) . والوقر : الصمم . ومذبوش مأكول .

(١٢) الصماخ : قناة الأذن الخارجية التي تفضى إلى طبليها .

(١٣) الجاروش : أو الجاروشى : آلة موسيقية تشبه العود تقريبا .

(١٤) الصواب النحوى صندوقا ، لكن للجمع ضرورته . وكثيرا ما يصادفنا مثل هذا الأمر في الكتاب . .

السحاب حصناً ، ومن الحباب كِتَاباً^(٥٥) ، وأي وقاية تحصل من السحاب ، وأي إيواء يصدر من الحباب . ومن تأمل الدنيا بعين التبصر ، وتفكر في تقلباتها بمصير العقل والتدبر ، عدّ جمعها شتاتاً ، ووصلها انبتاتاً^(٥٦) ، ومجيئها ذهاباً ، وشرابها سراباً ، وإقبالها إدباراً ، ونسيمها إعصاراً ، وعطاءها أخذاً ، وعهدها نبذاً^(٥٧) ، وصلتها فلذاً^(٥٨) ، وهبها نهباً ، وإيجابها سلماً ، وحرّبها سلماً^(٥٩) ، ووجودها عدماً ، وكثرتها قلاً ، وعزّها ذلاً ، وضحكها نياحة ، وطلاقها راحة ، فلم يكن عنده أحسن من فراقها ، ولا أروص من طلاقها ، والقناعة منها بالكفاف ، والرضا منها بالعفاف ، كما سلك الفلاح ، صاحب الماشية واستراح . فقال الزنيم : أخبرني كيف كان ذاك يا حكيم ؟

[٤/٦] حكاية الراعي والفلاح

فقال : إنّ مخدومي الذي كنت عنده ، أحفظ ماشيته لا تزيد في القياس ، عن ألف راس ، وإن حصل من النتائج^(٦٠) المعهود ، ما يزيد على هذا القدر المحدود ، تصدّق به أو باعه ، أو وهب لبعض الجماعة ، ولو أراد لجعلها ألوفاً مولفة ، وأضعافاً مضاعفة . وكان في الجيران ، والأصحاب والأخوان ، من هو أقل منه مالاً ، وأقصر باعاً وأضيق مجالاً ، له الألوفاً من المواشي ، وكذلك من الخدام والخواشي ، وهم في كل وقت في ازدياد ، وتضاعف الأعداد ، من الأصول والأولاد ،

(٥٥) الكِنّ : كل ما يرد الحر والورد من الأبنية ونحوها .

(٥٦) انبتاتاً : انقطاعاً .

(٥٧) نبذاً : طرداً .

(٥٨) فلذاً : قطعاً .

(٥٩) سلماً : استسلاماً .

(٦٠) النتائج : ما تلده الإبل والماشية .

وعُخدومي لا يقصدُ الزيادة ، وإن زاد شيءُ أباده . فقال له الراعي ، وكان عليها
أشفقُ ساعي : يا عُخدوم ، مَا لَكَ لا تريد ، أن تزيدَ ، مواشيك وحواشيك ، وتكثر
بالرفق والرفد فواشيك^(١١) ، وبالأورود والإصدار^(١٢) غواشيك^(١٣) ، فإنَّ المواشِيَ
تزدادُ فوائدها ، وتتوفرُ عوائدها ، باعتبار زيادةِ أصولها ، وإدراجِ منافعها ومحصولها
وحيرائنا كانوا أقلَّ عدداً من هذا المقدار ، فصاروا بالتوفير أكثرَ عدداً في الإغنامِ
والأبقار ، فزادوا على مواشينا ، بعد أن كان أوساطهم كحواشينا ، ولا أعرفُ لهذا
موجبا ، ولا أحريُّ له سبباً غير الإهمال ، وقصدِ تضييعِ المال . فقال له عُخدومي ،
هذا عيظٌ به معلومي ، ولكنَّ أبها الولد ، اعلم أنَّ أنواعَ العدد ، آحادٌ وعَشَرات ،
وألوفٌ ومئات ، فالألوفُ غايةُ الأعداد ، إذا اعتبرنا التعداد ، والشيءُ إذا جاوزَ
غايته ، وتعدى نهايته ، أخذَ في النقص ، وإذا بلغ مداهُ تراجع بالنكس .

وقد قيل : الشيءُ إذا جاوزَ حدهُ ، شاكلَ ضدهُ ، ومَن لم يقنع بالقليل ، لم يرضَ
بالجزيل ، ولقد أحسنَ المقال ، وصدق فيما قال ، مَنْ قال :

وما الدهرُ إلا سَلَمٌ فبقدرِ ما	يكونُ صعودُ المرءِ فيه هبوطُ
وهيَّهات ما فيه يزولُ وإنما	شروطُ الذي يرقى إليه سقوطُ
فَمَنْ كانَ أعلى كانَ أولى نَهْشُما	وفاءً بما قامت عليه شروطُ

وكثيرا ما رأيتُ ، وسمعتُ ووعيتُ ، عن أصحابِ الألوْفِ ، القاصدينِ لازديادِ
المالوف ، نزلتُ ألوْفُهُم إلى الواحدِ من الآحادِ ، فاستولى عليهم لذلك المسمومُ
والأنكاد ، فتكدرتْ عواطُرُهُم ، واشتغلتْ ضمائرُهُم ، وأما أنا فلم أعلمُ أن ألفي

^(١١) يقال فشيت الأنعام : كثر انتاجها ونسلها واتسعت تجارتها .

^(١٢) من الولد والصادر .

^(١٣) غواشيك : القادمون عليك ، الآتون إليك .

نقص ، ولا جاري حَلَبَة مداهُ نكص ، فإذا عدّى غايته ، ألزمتُه نهايته ، وكبحتُ
جامعَ طرفه ، وكففتُ طامحَ طرفه ، طلباً للراحة ، ورغبة في الاستراحة :
فَكَمْ دَقْتُ وَرَقْتُ واسرَقْتُ فُطُسُوْهُ الْغَيْشِ أَغْنَاكَ الرَّجْسَالِ

وإنما أوردتُ هذا التمثيل ، لِتَعْلَمَ يا ذا التفضيل ، أنني ما دمتُ له خادما ، وفي
صفِّ الخدمة قائما ، ولم أتعُدْ طوري وهو مقامُ الخادمة ، إلى ما ليس لي وهو مقامُ
المخدومة ، فأنا مستريح ، ولغيري مريح ، ونفسي مطمئنة ، وجوارحي عن طيش
السعي مُرَجَحَة ، واصحابي أحبابي ، وأحبابي أصحابي ، والخواطرُ صافية ، والمحبة
وافية ، والصدقةُ باقية ، ومياهُ المودةِ في رياضِ الأرواحِ صافية ، وفي عروقِ الأشباحِ
واقفةٌ جارية . فإذا رمْتُ مع وجودِ هذه الحسنَى الزيادة ، وقصدتُ التعدّي إلى ما
ليس له به عادة ، فأنا بين أمرين ، متقلبٌ على حمرتين : إمّا عدمُ الحصول ،
والانقطاعُ عن الوصول ، فتضاعف المكدرات ، وتزداد المقسمات ، وبحسبها
تصل الهموم ، وتحصل الغموم ، كما مرّ سالفا ، وذكر أنفا . وإمّا الظفرُ بالمراد ،
على حسب ما يُراد ، فيقدرُ ذلك يقع الصداق ، ويقومُ التحاسدُ والنزاع ، وأوّلُ
ذلك معاداةُ الأصحاب ، ومعاناةُ الأحياب ، ومقاساةُ الأثراب^(١٩) ، وحصولُ
الضغائن ، وبروزُ المكامن ، بواسطةِ الترفعِ عليهم ، وصدورِ المراسيمِ والتقدمِ بامتنالها
إليهم ، فالأوّلُ بحالي ، التفكيرُ في مالي ، واللاحقُ بشوري ، أن لا أتعُدّي طوري ،
ولا أتورطُ في هذا البحرِ العميق ، والبرِ الغميق ، ولا أخرجُ عن سواءِ الطريق ،
فتهوي بي طيرُ الهوانِ في مكانٍ سحيق .

والذي يسأزُ خائفٌ أن يردني زمانِي بما لاقَى يسأزُ الكواعِبِ

(١٩) الأثراب جمع ترب ، وهو الممثل في السن .

قال المشرقي أبو زغبة ، ما أحسنَ هذه الكلمة ، وأتمن هذا النظر ، وأرصدَ هذه الفِكرَ ، وأدقَ معاني هذه المباني ، ولكنْ إذا رفَعَكَ اللهُ مَنْ يَضَعُكَ وإذا أعطاك مَنْ يَمْنَعُكَ ؟ وقد قال ذو الجلال : ﴿ مَا يَفْتَحُ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾^(١٥) وقال ﷺ "اللَّهُمَّ لا مانعَ لما أعطيتَ :

وكلُّ النَّاسِ تَطْلُبُ الْعَالِي ونفسُ الْحُرِّ تَأْبَى أَنْ تُضَامَا

فلما بلغ بهما الكلام ، إلى هذا المقام . قال يسار اعلمْ يا فحلَ الفحول ، وإمامَ المعقولِ والمنقول ، أني ما بالغتُ في الامتناع ، إلا لأقفَ على ما فيك من طباع ، أسيرُ ثبوتَ قديمك ، وثباتك وراءَ كَلِمِكَ ، فلقد وجدتك في هذا الأمرِ الخطيرِ ، فوق ما في الضمير ، وفي مواطنِ الاختبار ، أثبتَ جناناً من ابنِ الليثِ الصَّفَّارِ^(١٦) ، فانهضْ لقصدك وحركته ، على خيرةِ الله تعالى وبركته ، فإني وضعتُ عِنانَ جموحِ هذا المرامِ في يَدِ تدبيرك ، وجعلتُ واسطةَ هذا العقدِ جوهرةَ تفكيرك . وسلكُ نظائره ونظامَ قِلاَدتهِ جودةَ تصوُّرك ، فإني أَهْلٌ لذلك ، وبرأيك تقتدى المسالك . فابتهجْ أبو زغبة بهذا المقال ، ووثب قائماً في مقامِ الخدمة ، وقال : حيثُ انشَرَحَ صدرُكَ لكلامي ، فسرى في وجهك بحالِ قِيامي ، وأنا أعلمُ أنَّ معبودَكَ ، سيبلغُكَ مرَامُكَ ومقصودَكَ ، ولكنْ يجبُ التيقُّظُ ، وقبلَ الشروعِ التحفُّظُ .

أما التيقُّظُ ، فلا مَورٍ يجعلُها الملكُ مقتدى ، ولا يغفلُ عنها أبداً ، كما فعل الملكُ الظاهرُ الموفق ، أبو سعيد محمد جقمق^(١٧) ، حين اضطربت الأوامر ، واختلفت العساكر ، واصطدمت الأمور وخرج عليه من عساكرِهِ الجمهور ، وقُلَّ المعين ،

^(١٥) قرآن كريم ، سورة فاطر : ٢ .

^(١٦) يعقوب بن الليث الصَّفَّار : مؤسس الدولة الصفارية في سجستان وأفغانستان وكابل وخراسان ونيسابور . وذلك بمساعدة أخيه عمرو ، وذلك في سنة ٢٥٣ هـ / ٨٦٧ م .

^(١٧) تولى الحكم سنة ٨٤٢ هـ / ١٤٣٨ م .

وذلك في سنة اثنتين وأربعين^(٦٨) ، فعصي "تكرى" وتكرس في حلب ، وقام بالراكمة الجلب ، وإينال الحلبي بالشام ، وكاتبه الطغام والعظام ، وهرب بالقاهرة العزيز ، وأزوت^(٦٩) الشياطين فاشتد الأزيز ، وتغيبط بالصعيد العربان ، وفشا في عساكر الإسلام الطربان^(٧٠) ، فسفّه الحلبي ، وحارّ الحكيم ، وضلّ كلّ ذي رأي قويم ، فثبت الملك الظاهر جاشه^(٧١) ، وتعرف إلى الله تعالى فأزال استيحاشه ، وأصفى سرائره ، ولم تزل سيرته طاهره ، فكان الله عونّه وناصره ، فافطأ بأدنى لطفه شواطئ تلك النائرة^(٧٢) ، وقد بسط ذلك في سيرته الظاهرة ، فتبدّل الجحيم بالنعيم ، ورفع الله تعالى عن الإسلام والمسلمين العذاب الأليم ، كلّ ذلك بثبات القدم ، وغلوّهم ، ولم تحصل هذه الفعلة الزكيّة الرائحة ، إلّا بالطويّة الطيبة والنيّة الصالحة .

وأنا التحفّظ فحين موادّ شرور ، ملتبس بها الجمهور ، منها الحقّد والملال ، والكذب في المقال ، والحسد والاحتيال ، فإنّ الحقود وقود ، والحسود لا يسود ، والكنوب يزول ، والمملول لا يطول ، والمختال مغتال ، وباقي النصائح ، الزكيّة الراويح ، تأتيك بالسعد ، فيما بعد . وأنا الآن أقدم للبيان ، وأذكر الأهمّ ، وما فائدته أهمّ ، قبل الشروع أمام المقصود ، وهو تأكيد موثيق العهد ، فإنه إذا حققت الجنود ، وأحاط بك أرباب الرايات والبند ، وأنت جالس على السرير ، وفي خدمتك المأمور والأمير ، والكبير والصغير ، يعثر على استيفاء الخطاب ،

(٦٨) ومغاملة للهجرة ، والإضافة من عند المحقق (٨٤٢ هـ) .

(٦٩) أزلت : تحرك واضطرب ، أو صوّت من شدة الحركة والغليان والأزيز الصوت والميجان .

(٧٠) الطربان : الاضطراب والميجان .

(٧١) مخفف جاشه .

(٧٢) نار الفتنة وشرّها .. أو ما يكون بين الطرفين من عدواة وشحناء .

واستيعاب الجواب ، ولا يليقُ بعظمتِكَ ، ومقامِ حُرْمَتِكَ ، إطالة الكلام ، ولو اقتضاهُ المقام ، خصوصاً بحضور الخاصِّ والعامِّ ، ولو كان المتكلمُ أعزَّ الخدام ، وأقربَ الأكرام ، فلا أقدرُ أنْ أتجرأَ عليك ، وأنهى جميعَ ما أريدُهُ إليك ، لأنَّ قصدَ الخادمِ إقامةَ حرمةِ مَخْدُومِهِ ، والمبالغةُ في حفظِ ناموسِهِ وتعظيمِهِ ، وكثرةُ الكلامِ لا يُورَثُ شيئاً من المَقْتِ ، فلا حرج ، على كلامي كيفما خرج .

قال يمسار : بارك الله فيك ، وأبقاك للنويك ، فما أدقَّ نظرك ، وأحسنَ في عواقبِ الأمورِ فكرَكَ ، وأصوبَ غوصَكَ على جواهرِ الاعتقاد ، وأعربَ بَوْصَكَ^(٣٣) إلى زواهرِ الاعتقاد ، فقلْ ما بَدَأَ لك ، مما يزيِّنُ حالي وحالك ، فإنَّ حرمتي حرمتك ، وحشمتي حشمتك ، فإنَّ عَظَمَتِي فقد عَظَمْتَ نفسَكَ ، وإنَّ وَفَرَتِ مالي فقد زِدْتَ كُدُسَكَ^(٣٤) ، والخادمُ إذا لم يقصدْ رِفْعَةَ مَخْدُومِهِ ، ويعدُّ ذلك من أكبرِ همومه ، ويسعى فيه ساعةً فساعةً ، وفي كلِّ مكانٍ وعندَ كلِّ جماعةٍ ، وإلاَّ فيدلَّ ذلك على خَسَاسَةِ مقداره ، وقصورِ نظره ولَوَمِ بَجارِهِ^(٣٥) ، وركاكَةِ هَمِّيهِ واستبدالِ حرمتِهِ . فقال أبو زَمَّةَ : أوَّلُ شروطي يا ذا العظمةِ أنْ لا تقربَ المؤذنين ، ولا تلتفتَ إلى الأشرارِ المغتايين ، ولا تضيعَ الأوقات ، في الإصغاءِ إلى القِيَّاتِ ، ولا تسمعَ كلامَ وائش ، وتعدَّ كلامَهُ أَقْلً من لاش . ثانيها أنْ لا تعجَلِ في فصلِ الحكومات ، بل تتعاطاها بالتفتيشِ والالتفاتِ ، إلى أنْ تتجَلَّى صورتُها ، وتعيَّنَ حقيقتُها ، فإذا وضحتَ لديك ، وتجلَّتْ مخدرةٌ حقيقتُها عليك ، اجهدْ فيها بالصدق ، واعملْ بما يقتضيه الحق . ثالثها أنْ لا تعودَ لسانَكَ الفحشَ والبذاءةَ ، فإنَّ في ذلك على المُلْكِ

(٣٣) وضح رأيك وصفاء سريرتك وصدق مبادئك .

(٣٤) الكُدُسُ : المجتمع من كل شيء نحو الحبِّ المحصور والمال والدرهم .

(٣٥) التَّجَارُ : الأصل والحسب .

أسوأ إساءة ، فإنَّ الكلامَ يؤثِّرُ في القلوب ، ويَنفِرُ من قبيحهِ الطالبُ والمطلوب ،
وقد قيل :

جراحاتُ السَّنانِ لها التَّسامُ ولا يُلْتامُ ما جرحَ اللسانُ

وقد قيل إن عيسى عليه السلام ، مرَّ بجماعةٍ في بعضِ الأيام ، فصادفوا كلباً أجرب ،
فقال له : سَلَمَكَ اللهُ أَذهب . فقال كلُّ من أصحابه ، مما كان معبىً في جرابه ،
من الاستنقاص ، وطلبِ البعد عنه والمناص ، وما سلَّموا إلى عيسى حاله ، بل سألوهُ
عن كلابِهِ له ، وما دعا له . فقال : إني عَوَّدْتُ لسانِي ، ببيانِ ما في جناني ، وهو
المقاصدُ الحسنة ، وتركُ الألفاظِ والعباراتِ الخسنة . وقيل : إِنَّهُ مرَّ في بعضِ
الأوقات ، ومعه جماعات ، بكلبٍ من الأموات ، ملقى على مزبلةٍ في جُمْلَةِ
القاذورات ، فوضع كلُّ منهم يده على خَطْمِهِ ^(٧٦) ، وتكلَّم في راحتيهِ عند شَمِّهِ .
فقال عيسى عليه السلام : ما أحسنَ بياضَ أسنانه ، فقليل له عما سُمِعَ من بيانه . فقال :
عَوَّدْتُ لسانِي بلفظِ الخير ، وأن لا يتكلَّم بما فيه ضير . وكما يجبُ على الملكِ كَفَّ
اللسانِ الفصيح ، عن الكلامِ البذيِّ القبيح ، كذلك يجبُ عليه ، أن لا يصغى إليه ،
ويتأمَّل قول الشاعر :

وَسَمْعَكَ صُنْ عَنْ سَماعِ القَبِيحِ كَصَوْنِ اللسانِ عَنِ النُّطْقِ بِهِ
فإنَّكَ عِنْدَ سَماعِ القَبِيحِ شريكٌ لِقائلِهِ فانتَبِه
ووجد في كتاب "آداب الصَّحبة" لأبي عبد الرحمن السُّلَمي ^(٧٧) بيت ثالث :
وَكَمْ أزعَجَ الحِرْمُ مِنْ طالِبٍ يوافي النِّيةَ عَنِ مَطْلِبِهِ

^(٧٦) خطمِهِ : أنفه .

^(٧٧) اسمه الصحيح والكمال : أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين بن موسى للمسلمي الصوفي ، توفى سنة ٤١٢ هـ
والكتاب لا يزال مخطوطاً .. في مكتبة الأسد الوطنية ، بدمشق ، برقم ١٠٧ ، عام ٣٨٤٣ (٦٢٥ م ك
مجموع ٥) . المحقق .

وهذا الأمرُ يا مخدوم ، لكلِّ أحدٍ معلومٌ على العموم . وأما أكابرُ السلاطين ، والملوكُ الأساطين^(٧٨) ، فهمُ أعلى مقاما ، أن يكونَ الفُحشُ لهم كلاما ، وأن يجريَ في مجالسِهِم ، أو يُسمعَ من مُحادثِهِم ومُجالسِهِم . وكلُّ ملكٍ اعتادَ مَجْلِسُهُ فاحشَ الكلام ، اختلَّ نظامُهُ ومَقَنَتُهُ الخاصُّ والعامُّ ، ونفرتْ عنه قلوبُ الرعيَّة ، وبمُحسبِ رغبةِ الرعيَّة ، تكونُ الممالكُ راضيةً مرضيةً . وإذا نفرتْ قلوبُ الرعيَّة كرهوه ، وتوقعوا غيرَهُ ليقوموا معه وينصروه ، وإذا لم يوجدْ عقلوا الحُفود ، واستمروا أذِلَّةً كاليهود ، والبغضةُ كامنة ، والحسائِفُ باطنة ، فتَقَلَّمتْ العداوةُ وتَقَدَّمتْ ، وتناكَّدتْ وتنازَّمتْ ، وإذا قُدِّمتْ العداوة ، ذهبتْ من الصداقةِ الخلاوة ، فلا بُدَّ يوماً من الأيام ، أن تبرزَ رأسُها من حِيبِ الانتقام ، وإذا جدَّ وجلوا فرصة ، وثبوا عليه وقصلوا قصة ، كما جرى للفريزة ، مع الهريزة^(٧٩) . قال يسار : يَبينُ لي هذه الأخبار .

[٥/٦] حكاية الغارم والقط والديك

فقال : ذكر شخصٌ معتبر ، من رُواةِ الخير ، أنَّ في القديم ، كان رجلٌ عديم ، وعنده قطُّ رباه ، وأحسنَ مَرباه ، فكان عنده كالولدِ الأعزَّ ، وأكرمَ من ابنِ الفراتِ^(٨٠) عند ابنِ المعتزِّ^(٨١) ، وكان القطُّ قد عرف منه الشفقة ، وألِفَ منه الموَدَّةَ والمُلقَّةَ^(٨٢) ، فكان لا يبرحُ عن مبيته ، ولا يسعى لطلبِ قوته ، فحصلَ له هزال ، وتغيَّرَ ما لهُ من أمرٍ وحال ، لا عند صاحبه ما يغنيه ولا هو ذو قُوَّةٍ على الاصطِدادِ

^(٧٨) الأساطين من الملوك والعلماء هم النخبة الحكماء المبرزون ، وهم أساطين الزمان . مفردة أسطون (معرب أستون الفارسية) .

^(٧٩) الفريزة والهريزة : تصغير فار وهرة .

^(٨٠) ابن الفرات : وزير عباسي من الأدباء (٨٥٥ - ٩٢٤) .

^(٨١) ابن المعتز : خليفة عباسي ليوم واحد ، اكتسب شهرته من حيث هو شاعر وبلاغي وأديب ومؤلف .

^(٨٢) الحب الصادق .

تغنيه ، إلى أن عجزَ عن الصيد ، فصار يسحرُ به من أراذلِ الفيران كلَّ عمرٍ وزيد ، وصار كما قيل :

خ ^(٨٣) وفَرَزْتُ ^(٨٤) فيها اليبادق ^(٨٥)	خَلَّتِ الرِّقَاعُ مِنَ الرِّخَا
رِ فِلَقْتُ مِنْ عِلْمِ السَّوَابِقِ	وَتَسَابَقْتُ غُرُجَ الْحَمِيدِ
بِ وَصَادَ فَرُخُ الْبُومِ بَاشِقِ	وَسَطَا الْغَرَابُ عَلَى الْقَفِّ
نِ وَأَصْبَحَ اخْتِفَاشُ لَاطِقِ	سَكَنَتْ بِلَابِلَةُ الزُّفْسَا

وأيضا :

وَإِذَا غَلَا الْمِيدَانُ مِنْ أَسَدٍ رَقَصَ ابْنُ عَرَسٍ وَتَوَقَّسَ^(٨٦) النَّمِسَ
وكان في ذلك المكان ، مأوى لرئيسِ الجرذان ، وفي جوارِهِ عِزَّةٌ لِسَمَانٍ ، فاجترأ
الجرذان ، لضعفِ أبي غزوان ، وتمكَّنَ من نقلِ ما يحتاجُ إليه ، وصار يمرُّ على القطِّ
آمناً ويضحكُ عليه ، إلى أن امتلأَ وكرهُ من أنواعِ المأكلي والمطاعم ، وحصل له
الفراغُ من المخاوفِ والمزاحم ، واستطال على الجيران ، واستعان بطوائفِ الفيرانِ
على العُدوان .

فافتكر الجرذانُ يوماً في نفسه ، فِكْراً أَدَاهُ إلى خُلُولِ رَمْسِيهِ ، وهو أنَّ هذا القطَّ
وإن كان عدواً قديماً ، ومهلكاً عظيماً ، لكنَّهُ قد وقعَ في الانتحال ، وضعفَ عن
الاصطيادِ لِقُوَّةِ الهزال ، وقوَّتِي إنما هي بسببِ ضعفه ، وهذا الفتْحُ إنما هو حاصلٌ
بمُتَغْيِهِ ، ولكنَّ الدهرَ الغدَّارُ ، ليس له على حالةِ استمرار ، فرمما يعودُ الدهرُ عليه ،
وترجعُ صحبتهُ وعافيتهُ إليه ، فإنَّ الزَّمانَ ، الكثيرُ الدُّورانِ ، يَنْهَبُ وَيَهَبُ ، ويُعْطِي

^(٨٣) الرِّخَاخ : جمع رُخ ، وهو طائر عرَّافٌ ، بالغُ القُدَامَى في وصف وقوته ، والمقصود به الملوك والولاة الكبار .

^(٨٤) فرَزْتُ : تمكَّنت فيه وانفردت به . (والفرز : العبد) ومن معانيها أيضا : تمكَّنت وتقدَّمت .

^(٨٥) اليبادق : واحدها يبدق ، وهو طائر من الجوارح في حجم الباشق .

^(٨٦) توقَّس : اهتمَّ طربها .

ما سَلَبَ ، ويرجعُ فيما وهَبَ ، كلُّ ذلك من غيرِ موجبٍ ولا سببٍ . وإذا عاد القطُّ إلى ما كان عليه ، يتذكَّرُ من غير شكٍّ إساءتي إليه ، فيثورُ قلقُهُ ويقورُ حنقُهُ ، ويأخذُهُ لأذائي والانتقامُ سهرُهُ وأرقُّهُ ، فلا يقرُّ لي معهُ قرار ، فاحتاج بالاضطرار ، إلى التحولِ عن هذه الديار ، والخروجِ عن الوطنِ المألوف . ومفارقةِ السكَنِ المعروف ، أمرٌ صعب ، مشومٌ^(٨٧) الكعب ، فلا بدُّ من الاهتمام ، قبلَ حلولِ هذا الغرام ، والأخذِ في طريقةِ الخلاص ، قبلَ الوقوعِ في شركِ الاقتناص ، ثم إنَّهُ ضربَ حماساً لأسداس ، في كَيْفِيَّةِ الخلاصِ من هذا البأس ، فأدَّاهُ الفكرُ إلى إصلاحِ المعاش ، بينهُ وبين أبي عراض^(٨٨) ، ليُدومَ لَهُ هذا النشاط ، ويستمرَّ بواسطَةِ الصلحِ بساطُ الانبساط ، فرأى أَنَّهُ لا يفيدهُ ، ما يريدهُ ، إلَّا بزورِ الجميل ، من كثيرٍ وقليل ، خصوصاً في وقتِ الفاقة ، فإنَّهُ أجلبُ للصادقة ، وأبقى في الوثاقة ، ثم بعد ذلك يترتَّبُ عليها العهود ويتأكَّدُ ما يقعُ عليه الاتفاقُ من العقود ، وهو أن يلتزمَ الجردان ، أن يُقدِّمَ لأبي غزوان ، في كُلِّ غَدَاةٍ^(٨٩) ، من طيبِ الغَدَاةِ ما يكفيهِ لغَدَاةٍ وعشاء ، لأنَّ الشيخَ في الدرس ، قال : خيرُ المالِ ما وُقيتَ بِهِ النفس ، إلى أن يصحَّ جسدهُ ، ويردَّ إليه من عيشهِ رَغَدُهُ ، ويكونَ ذلك سبباً لمعقودِ الصداقة ، وتركِ العداوةِ القديمةِ المساقة ، وأن تشترطَ دوامَ المحبةِ ، وازديادِ الودادِ والصحبة ، وأن لا يقصدَ أبو الهيثم^(٩٠) أبا راشد^(٩١) بشيءٍ من الأذى والشرورِ والمفاسد ، ويعملَ هذا الهرمُ بموجب ما قال الشاعر :

(٨٧) مشوم .

(٨٨) كنية القط .

(٨٩) الغدَاة : ما بين طلوعِ الفجرِ وطلوعِ الشمس .

(٩٠) كنية القط هنا .

(٩١) كنية الفار هنا .

إِنَّ الْكِرَامَ إِذَا مَا أَسْهَلُوا ذَكَرُوا مَنْ كَانَ يَأْلُفُهُمْ فِي الْمَنْزِلِ الْخَشِينِ

ثُمَّ إِنَّ الْجُرْذَانَ ، جَمَعَ مِنَ الْأَخْبَارِ وَالْأَجْبَانِ ، وَاللَّحْمِ الْقَدِيدِ ، وَالْمَطْعَمِ الْمَزِيدِ ، مَا قَدَّرَ عَلَى حَمَلِهِ ، وَنَهَضَتْ قُوَّتُهُ بِنَقْلِهِ ، وَقَصَدَ مَقَامَ الْمَرِّ ، وَسَلَّمَ عَلَيْهِ سَلَامٌ مُكْرِمٌ مُبِيرٌ ، مَحَبٌّ قَدِيمٌ ، وَصَدِيقٌ حَمِيمٌ ، وَقَدَّمَ مَا مَعَهُ إِلَيْهِ ، وَتَرَامَى بِكَثْرَةِ التَّوَدُّدِ وَالِاشْتِيَاقِ عَلَيْهِ ، وَقَالَ : يَعْزُّ عَلَيَّ ، وَيَعْظُمُ لَدَيَّ ، أَنِّي أَرَاكَ يَا خَيْرَ جَارٍ ، فِي هَذَا الضَّرَرِ وَالِاضْطِرَارِ ، وَلَكِنَّ الْعَاقِبَةَ إِلَى خَيْرٍ ، وَسَيُقْبَلُ السَّعْدُ بِأَحْسَنِ طَيْرٍ ، فَتَقْدَمُ أَهْيَا الْخَيْطَلُ^(٩٧) ، وَكُلُّ مَنْ هَذَا الْمَاكِلُ ، فَإِذَا سَلَدَتْ خَلَّتْكَ ، كَلَّمْتُكَ بِشَيْءٍ أَسْتَشِيرُ بِهِ خِدْمَتَكَ ، فَإِنَّهُ قَدْ قِيلَ :

يَعْنِي السَّلَامَ طَعَامًا ثُمَّ تَرْحِيبًا	إِنَّ الصَّدَاقَةَ أَوَّلَاهَا السَّلَامَ وَمِنْ
وَضِحْكُ نَفْسٍ وَاحْسَانٍ وَتَقَرُّبُ	وَبَعْدَ ذَلِكَ كَلَامٌ فِي مَلَاظَمَةِ
بَيْنَ الْأَحْبَةِ تَأْيِيدٌ وَتَادِيبٌ	وَأَصْلُ ذَلِكَ أَنْ تَغِي شَمَاتِلَهَا
قَدْ زَانَ ذَلِكَ تَهْدِيبٌ وَتَرْتِيبٌ	لَمْ تَمَسْ غَيْبًا وَلَمْ تَحُلْ إِذَا حَضَرُوا
لَمْ يَتَّهَمُ عَنْهُ تَرْغِيبٌ وَتَرْهِيبٌ	إِنَّ الْكِرَامَ إِذَا مَا صَادَقُوا صَدَّقُوا

فَتَتَاوَلَ الْقَطُّ مِنْ تِلْكَ السَّرْقَةِ ، مَا سَدَّ رَمَقَهُ ، وَشَكَرَ لِلْجُرْذَانَ تِلْكَ الصَّدَقَةَ ، وَلَمَّا أَكَلَ فَمُهُ اسْتَحْيَتْ الْحَدَقَةَ . ثُمَّ قَالَ لَهُ : أَنْشِدْ مَا أَنْتَ نَاشِدٌ ، يَا أَبَا رَاشِدٍ . قَالَ إِنَّ لِي عَلَيْكَ مِنَ الْحَقُوقِ ، مِثْلَ مَا لِلْجَارِ الصَّدُوقِ ، عَلَى الْجَارِ الشَّفُوقِ ، وَأَرَدْتُ أَنْ يَتَأَكَّدَ الْجَوَارُ بِالصَّدَاقَةِ ، وَتَرْقَى إِلَى دَرَجَةِ الْمَحَبَّةِ بِأَوْثَقِ عِلَاقَةٍ ، وَإِنْ كَانَتْ بَيْنَنَا عِدَاوَةٌ قَدِيمَةً ، فَتَزُكُّ مِنَ الْجَانَيْنِ تِلْكَ الْخِصْلَةُ الذَّمِيمَةُ ، وَنَسْتَأْنِفُ الْعَهْدَ ، عَلَى خِلَافِ الْخُلُقِ الْمَعْهُودِ ، وَتَدْبِيرِ الْأُمُورِ ، عَلَى مَصْلَحَةِ الْجُمْهُورِ ، وَنَبْنِي الْقَاعِدَةَ فِي الْبَيْنِ ، عَلَى مَا يَعُودُ نَفْعُهُ عَلَى الْجَانَيْنِ . وَأَذْكُرُ لَكَ أَشْيَاءَ تَحْمِلُكَ عَلَى تَرْكِ خُلُقِكَ الْقَدِيمِ ، وَتَهْدِيكَ فِي طَرِيقِ الْإِخَاءِ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ ، وَهُوَ أَنْ أَكْلِي مِثْلًا ، مَا

(٩٧) الْخَيْطَلُ : السُّنُورُ أَوْ الْقَطُّ .

يُغْذِي مِنْكَ بِلَدْنَا ، فَضْلاً عَنْ أَنْ يُظْهَرَ فِيكَ صَحَّةٌ وَسَمْنَا ، وَلَكِنْ إِنْ أَمْنْتَنِي
مَكْرَكَ ، وَأَعْمَلْتَ نَظْرَكَ وَفَكْرَكَ ، ثُمَّ رَغِبْتَ فِي صَحْبِي ، وَعَاهَدْتَنِي عَلَى سُلُوكِي
طَرِيقِ مَوَدَّتِي ، وَأَكَّدْتَ أَيَّ أَبَا غَزْوَانَ^(١٣) ، ذَلِكَ بِمَغْلَظَاتِ الْإِيمَانِ ، إِلَى أَنْ أَسْتَوْفَى
بِاسْتِصْحَابِكَ ، وَأَيَّتَ أَمْنًا فِي مَحِيطِكَ وَذَهَابِكَ ، وَلَوْ كُنْتُ بَيْنَ مَخَالِيكَ وَأَنْيَابِكَ ،
فَإِنِّي أَلْتَزِمُ لَكَ فِي كُلِّ يَوْمٍ ، إِذَا اسْتَيْقَظْتَ مِنَ النَّوْمِ ، مِمَّا يَسُدُّ خَلَّتَكَ ، وَيُقِيقِي
مِهْجَتَكَ ، صَبَاحًا وَمَسَاءً ، وَغَدَاءً وَعِشَاءً ، وَإِنْ قُلْتُ إِنَّ ذَلِكَ شَيْءٌ بِجَهُولٍ ، فَأَنَا
أَقْدَرُهُ بِنَظِيرِ هَذَا الْمَأْكُولِ ، فَإِنَّ هَذَا الْغِذَاءَ ، يَكْفِيكَ عِشَاءً وَغَدَاءً . وَمَا قَصَدْتُ
بِذَلِكَ إِلَّا رِعَايَةَ لِحَقِّ الْجَوَارِ ، وَلَقَدْ آنَسْتَنِي بِتَسْبِيحِكَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَأُظِنُّ وَظَنِي لَا
يُخِيبُ ، أَنْكَ تُبَيِّنُ إِلَى اللَّهِ وَرَجَعْتَ مِنْ قَرِيبٍ ، وَكَفَفْتَ عَنْ أَذَى الْجِرَانِ ، وَعَقَفْتَ
عَنْ أَكْلِ الْفَيْرَانِ . ثُمَّ أَعْلَمَ يَا أَسَدَ الضِّيَافِينَ^(١٤) ، أَنَّ لِي مِنْ هَذِهِ الْمَوَدَّةِ عَشْرَ
مَخَازِنَ ، قَدْ أَعَدَدْتُهَا لِمِثْلِكَ ، وَأَنَا أَقْدُسُهَا لِمَنْزِلِكَ ، وَأَدْعُرُّهَا لِأَجْلِكَ ، وَالْقَصْدُ أَنَّ
أَكُونَ أَمْنًا مِنْ سَطَوَاتِكَ ، سَاكِنًا فِي صِدْمَاتِ حَرَكَاتِكَ ، وَذَلِكَ إِنَّمَا يُغْلَمُ بِتَأْكِيدِ
الْإِحْيَاءِ ، وَتَأْيِيدِ الْحُبِّ وَالْوَلَاءِ .

فَلَمَّا رَأَى الْهَرَّ ، هَذَا الْبَرَّ ، أَعْجَبَتْهُ هَذِهِ النَّعَمُ ، وَأَطْرَبَتْهُ هَذِهِ النَّعَمُ ، وَأَقْسَمَ طَائِعًا
مُخْتَارًا ، لَيْسَ إِكْرَاهًا وَلَا إِجْبَارًا ، أَنَّهُ لَا يَسْلُكُ مَعَ الْجِرْدَانِ ، إِلَّا طَرِيقَ الْأَمَانِ
وَالْإِحْسَانِ ، وَأَنَّهُ لَا يَنْوِي ، إِلَيْهِ بِقَصْدٍ سَوْءٍ ، بِحَيْثُ تَحَاكَّدُ الْحُبَّةُ ، وَتَزْدَادُ الصَّدَاقَةُ
وَالصَّحْبَةُ . فَرَجَعَ الْجِرْدَانُ ، وَهُوَ بِهَذِهِ الْحَرَكَةِ جَذْلَانِ ، وَصَارَ كُلُّ يَوْمٍ يَأْتِي أَبَا
غَزْوَانَ ، مِمَّا أَلْتَزِمُ بِهِ مِنَ الْغَدَاءِ وَالْعِشَاءِ ، كُلُّ صَبَاحٍ وَعِشَاءً ، إِلَى أَنْ صَحَّ الْقَطُّ

^(١٣) أَبُو غَزْوَانَ : كَتَبَ الْقَطُّ هَذَا .

^(١٤) الضِّيَافُونَ جَمْعُ ضَيَّوْنٍ : الْقَطُّ أَوْ السَّوْرُ الذَّكَرُ .

واستوى ، وسلمت خلوات^(١٥) بدنه من الخو^(١٦) والخوى^(١٧) وصارت المحبة تتعقد كل يوم عقداً مجدداً ، ويزداد كل منهما في الآخر عبةً وتودداً .

وكان لهذا القط ديك ، وهو صاحب قديم ، وصديق نديم ، كل منهما يأنس بصاحبه ، ويحفظ خاطرة مراعاة جانبه ، فحصل للديك تعويق ، عن زيارة الصديق ، فغاب عنه مدة ، وكل منهما للفراق في شدة ، فلم يتفق لهما لقاء ، إلا وقد حصل للقط الشفاء ، وزال الشقاء . فسأل الديك صاحبه ، بماذا صارت علته ذاهبة ، وذلك الهزال ، بأي شيء زال ، فأخبره بأحوال الجرذ أبي جوال ، وأنهى أمره من الأول إلى الآخر ، وبالغ في الشكر في الباطن والظاهر ، وأنه كان سبب حياته ، ونجاة من غاليب مهلكاته ، وأنه لم يكن مثله في الأصحاب ، وقد صار أعز الأصدقاء والأحباب . فغار الديك على صاحب القديم ، وخشي أن يفسد ما بينهما للمفسد النميم ، فضحك مستغرباً ، وصفق بجناحيه متعجباً . فقال له : مم تضحك ؟ فقال : من سلامة باطنك ، وانقيادك لمداهيك ، وحسن صنائعك ، مع المنافق خادعك ، ومكارم أخلاقك ، مع ناقص ميثاقك ، وإصغائك لهذا الخبيث بمشوه الكلام ومموه الحديث ، ومن يأمن لهذا البرم^(١٨) ، الواجب القتل في الجليل والحرم ، المفسد الفاسق ، اللوذي المنافق ، الذي خدعك حتى آمِنَ على نفسه ، واستطرق بذلك التمكن من أذاه ونحسه ، فتسلط في الأذى كما يختار ، وانهك في الشر آمناً منك البوار ، كل ذلك بسبيك ، ومكتوب في صحائف كتبك ، مع أنك

(١٥) القطع أو الأماكن التي سقط الشعر عنها وعلت منه بسبب المرض أو الجوع أو الهزال والعبارة كناية عن عودة العناية إلى بدنه .

(١٦) الخو : الجوع .

(١٧) الخوى : سوى فلان أى تتابع عليه الجوع .

(١٨) اللضمير ، الثقيل .

لست بمشكور ، ولا بالخير مذكور ، وإن الذي شاع وذاع ، ومأً هنك الأسماح ،
أنك ستجزل عقده ، وتكتث عهده ، وتنقض الإيمان ، وتجازي بالسيئة الإحسان ،
وأنه لم ير منك ما يسره ، وهو متوقع منك ما يضره . وأعظم من هذا ، أنه أذى ،
وحشر فنادى ، وبالشر بادى . فقال^(٩٩) : إنه أحياك بعد الموت ، وردك بعد
القوت ، ولولا فضله عليك ، وبره الواصل إليك ، لمت هزالاً وجوعاً ، ولما عشت
أسبوعاً ، ولكنه أشبع جوعك ، وجلب هجوعك ، واستنقذ من غياليب المنيه بعد
ذهابك رجوعك ، فشفاك وعافاك ، وصفا لك وصافاك ، وكفاك المؤونة وكافاك ،
وأنك كافيت مكافاة التماسح ، وحازيت حسناته بالسيئات القباح ، ولم يكن
لإحسانه إليك ، ولا لما من به عليك ، سبب ولا علاقة ، سوى طهارة نفس زكت
أخلاقه ، ولا لإساعتك إليه ، سبب تنقم به عليه ، إلا ما أسداه من مكارم شيمه
الواصل إليك ، وفوائد نعمه السابغة عليك . وأشاع هذا كله ، في الشوارع
والخارات خصوصاً في هذه الخلّة ، ثم أقسم بمن عطفه عليك ، وساق فضله
إليك ، وجعلك محتاجاً إلى نواله ، وأسبل عليك لباس صدقاته وأفضاله ، ليستوفين
منك ما صنعتَه وليحفظن عليك ، ما عليه ضيعه ، وليوقعنك في طوي بلية ، يعجز
عن خلاصك منها كل البرية ، فربح منك جنس الفار ، وليخلدن ذكر هذه
القضية في بطون الأسفار . وبالجملة فهل سمعت أن جرذان صادق هبرة ، أو اتفق
بينهما مرافقة في الدنيا ولو مرة ، ومناصحة القطر والفار ، كمصادقة الماء والنار :

فانت كواضع في الماء هموا وانت كمودع الريح الواب

^(٩٩) مقول القول هنا على لسان الفار ، ذلك أن الديك ادعى كلباً أن الفار راح بمن يصنعه مع القطر (وهو تقديم الطعام للقطر وإنقاذ حياته) .

فلما سمع القطُّ هذا الكلام ، تألَّم باطنُهُ بعضَ إيلام ، وما صدَّق ولكن ظَنَّن ، واشتغلَ خاطِرُهُ لأمرٍ عَن ، وتلهَّبَ واشتعل ، وَمَن يسمعُ يَحُل ، وقالَ للديك : جزاك اللهُ عني خيرا ، وما أكثرَ شفقَتِكَ طيرا ، ولكن مَن قالَ لك هذا المقال ؟ قال : أنتَ محب ، وعلى مودَّةِ الجرذانِ مُكَيِّب ، وقد قالَ سيِّدُ العربِ والعجم ، **عَنْكَ لِلشَّيْءِ يُعْمَى وَيَصُمُّ** ، قال الشاعر :

وَعَيْنُ الرُّضَا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ غِيَّةٌ كَمَا أَنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْهِدُ الْمَسَاوِيَا

ولقد غرَّكَ بَلَقِيَمَاتٍ مِنَ الْحَرَامِ ، والسَّحْتِ الْمُنْغَمِسِ فِي الْآثَامِ وجعلَهَا بمنزلةِ حَبَّةِ الفخ ، فلا تشعرُ بها إِلَّا وَأَنْتَ فِي السَّلَخِ ، قد وقعتَ ولا رفيقَ ولا أخ ، هناك يُعرفُ تحقِيقُ هذا الكلام ، ولكن أنتَ الآنَ راقِدٌ مثلَ النَّيَامِ ، والكلامُ ما يفيد ، ولا بدَّ أَنَّ اللهَ تعالى يجري ما يريد ، وما في إشاعةِ الكلامِ طائل ، وكأنَّكَ أنتَ القاتلُ : **ظَنَّ الْعُلُولُ بَأَنِّ عَذْلِي يَنْلُغُ قُلُّ مَا تَشَأْ فَعَلِي أَن لَّا أَسْمَعَ**

وما قلتُ لك هذا الكلام ، إِلَّا مِنْ فَرْطِ الشَّفَقَةِ وَالضَّرَامِ ، ورعايةِ لِحَقٍّ مَا وَجَبَ عَلَيَّ مِنَ الْقِيَامِ ، وحفظاً للصداقةِ القديمة ، والمودَّةِ التي سحَّابُهَا دِيمَةٌ ^(١٠٠) ، وأنا لو غَشِشْتُ كُلَّ أَحَدٍ مَا عَظُرَ لِي أَنْ أَغْشُكَ ، وَأَنْ لَا أُسْتَشْهَدَ عَلَى صَدَقِي إِلَّا يَقِينُكَ السَّاكِنُ عَشْكَ . فَرَجَّحَ الْقَطُّ جَانِبَ صَدَقِ الدِّيكِ ، كَفَاكَ اللهُ شَرَّ مَنْ يُوْذِيكَ . وقالَ في خاطِرِهِ ، بعدَ مَا أَحَالَ قِدَاحَ ضَمَائِرِهِ : هذا الديكُ مِنْ حِينَ انْفَلَقَتْ عَنْهُ الْبَيْضَةُ ، وسرحتُ أَنَا وَأَيَّاهُ مِنَ الصَّدَاقَةِ فِي رَوْضَةٍ ، وما وَقَفْتُ لَهُ عَلَى كَذِبٍ ، ولا سَمِعْتُ عَنْهُ أَنَّهُ لَزُورٍ مَرْتَكِبٍ ، معَ أَنَّهُ مُؤَدَّدٌ آمِينَ ، بَيْنَ ظُهُورِ الْمُسْلِمِينَ ، وهوُ بِالصَّدَقِ قَمِينٌ ^(١٠١) ، وما حَمَلَهُ عَلَى هَذَا إِلَّا الْحَيَّةُ ، وقَدِيمُ الْمَوَدَّةِ وَالصَّحْبَةِ ، وهوُ أَبْعَدُ مِنْ أَنْ يَكْذِبَ وَيُخَدِّعَ ، وَأَيُّ قَصْدٍ لَهُ فِي أَنْ يَغُشَّ وَيَتَصَنَّعَ .

^(١٠٠) الديمَّة : المطر ينهمر طويلا في سكون .

^(١٠١) حديم . كنية الغفار هنا .

وتردّد أبو هريرة ، في تيه الحيرة ، بين الديك والفُريرة . ثمّ قال للديك : وقال الله شرّ أعاديك ، فكيف أعرفُ صدقَ هذا الخير ، وهل للدلالة على سوء طويته علامة تُنظر ؟ قال : نعم ، وربّ الحرم ، علامة ذلك أنّه إذا دخل عليك ، ونظر إليك ، أن يكونَ منخفيضَ الراس ، مجتمعَ الأنفاس ، متوقفاً حلولَ نائبة ، أو نزولَ مصيبة صائبة ، أو شمولَ بليّة غائبة ، متلفتاً يميناً وشمالاً ، متخوفاً نكالاً ووبالاً ، طائفاً يتنقب ، خائفاً يترقب ، وذلك لأنّه خائن ، والخائنُ خائفٌ وهذا بائن . وبينما هما في المحاوره ، والمناظرة والمشاوره ، يتجادبان القيلَ والقال ، دخل المفسدُ أبو جُوّال^(١٠٢) ، وهو غافلٌ عن هذه الأحوال ، فرأى أبا اليقظان^(١٠٣) ، يخاطبُ أبا غزوان^(١٠٤) ، فخصّس^(١٠٥) وقهقر ، وتخوّف وتشوّر^(١٠٦) ، وهو غافلٌ عمّا قضاه الله وقدره تقرّر . فاشمأزّ لرويته الديك ، وأبرأ^(١٠٧) وانتفض واشمعل^(١٠٨) ، فارتعد الجردان من شيع الديكة ، لما رأى منه هذه الحركة ، وانتفض وانزوى ، وتقبّض وزوى ، وأشبّه بعدادياً بلغ السدوا ، ونظر يميناً وشمالاً ، كالطالب للمفرّج بحالاً ، والقطّ يراقبُ أحواله ، ويتميّزُ حركاتِهِ وأفعاله ، فتحقّق ما قاله أبو سليمان ، ونظر إلى الجردان ، نظر الغضببان ، وهمز واكفهر ، ورقصت شوابعهُ وازيار^(١٠٩) ،

(١٠٢) كنية الديك هنا .

(١٠٣) كنية الديك هنا .

(١٠٤) كنية القط هنا .

(١٠٥) خصّس : تأعّر .

(١٠٦) تشوّر : تردد ، وشعر بالشمعل .

(١٠٧) أبرأ : تحفّر للشر .

(١٠٨) شمعل : وقف وارتفع متحفراً للعلوان .

(١٠٩) ازيار : التضيغ متضجعا .

فاضطربَ الجرذان ، وطلبَ الأمان ، فنسي السُّنُور^(١١٠) العهودَ والأيمان ، ونفض عرقَ العداوةِ القديمةِ والعدوان ، وطفّر على الجرذان ، وأدخله في حيزٍ خبيثٍ كان ، وأعلى منه الزمانَ والمكان .

وإنما أوردتُ هذا التنظير ، أيها الصاحبُ البصير ، لفائدتين ، جليلتين عظيمتين : إحداهما ، الإعلامُ بالتحقيقِ أنَّ العدوَّ العتيق ، لا يتأتى منه صديق . ثانيتهما ، الإعلام ، بأن الواجبَ على الحكامِ أن لا يعجلوا بالانتقام ، فرما يورثهم الاستعجال ، الندامةُ في المال ، في حالةٍ لا يفيد ، العذل والتفديد ، وعند ذلك ، لا يمكنُ التدارك ، بل إذا نُقل إليهم ، وأورد عليهم ، ما يُثيرُ غبارَ الغضب ، ويحمي من نارِ السخطِ اللهب ، لا يفلتون زمامَ التثبتِ والتفكير ، من أناملِ التآني والتدبر ، خصوصاً السلاطين ، والملوكُ الأساطين^(١١١) ، فإنَّ قدرتهم واسعة ، وأطرافَ أوامرهم شاسعة ، وأوهاق^(١١٢) اختيارهم طويلة ، ومرامي المرادِ لمرايهم مُتيلة ، وآذان الكونِ لأوامرهم سمعية ، وعين المكانِ لمراسيهم مراقبةٌ مطيعة ، فمهما أرادوا من النفعِ أوصلوا ومهما اختاروا من الضرِّ فعلوا ، وذلك في كلِّ حينٍ ، ممسين ، أو مصبحين . ولذلك قالوا : القاضي ، لا يحكمُ حكماً إلا وهو راضي ، ولا يحكمُ وهو غضبان ، وهو مشغولُ الخاطر ولا غرَّتان^(١١٣) ، فإنَّ وجدوا طريقاً إلى الخيرِ بادروا إليه ، وإذا قصدوا إيقاعَ شرٍّ توقفوا لديه ، ولا يهملوه ، بل يسبروا غوره ، إلى أن يقفوا عليه ، فرما يكونُ من مُدخلَةٍ عليٍّ أو حاسدٍ ، أو بتعاطي مَنْ لَهُ غرضٌ

^(١١٠) السُّنُور : القط .

^(١١١) انظر هامش رقم (٧٨) .

^(١١٢) كوهاق ، مفرد ما وقع ، وهو الجبل في أحد طرفيه أنشودة ، يطرح في عنق الدابة أو الإنسان حتى يؤخذ .

^(١١٣) جوعان .

فاسد . ثم أعلم يا ذا البصيرة ، والفضل والتذكرة ، إنه من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره .

فلما وعى يسار ، هذا الحوار ، قال : ما أزهى هذه النصائح ، وأذكى ما لها من روائح ، وأنا أقبل عليها . وأقبلها ، ولا يزال مرتشفٌ سمعي مُقبلها . وعلى ذلك أعاهدك ، ومهما رأيتَ غيره أعاهدك ، فإنه للملك عين المصلحة ، وللملك زين ومصلحة^(١١٤) . وأيضاً فاشترط ما بدا لك ، مما يزينُ حالك ، وصيونُ مالك ومالك . قال : وأريدُ أن تكونَ حرمتي موقرة ، وكلمتي معتبرة ، ومترلي على أقراني مرتفعة ، ومكانتي في الممالك متسعة ، بحيث تكونُ مزيتي ظاهرة ، ومرتبتي لأكفائي باهرة ، وكلامي في محلِّ الإصغاء والقبول ، متصلاً بالنجاح في السؤل والمسؤل فإنَّ حُسنَ العهد ، وحفظَ الودة ، ورعاية الحقوق القديمة السابقة ، والخدمة المستمرة المتلاحقة ، دليلٌ على كمال المروعة والوفاء ، ونهاية الفتوة والصفاء ، لا سيما من الملوك والأكابر ، في حقِّ خَلَتِهم الأصاغر . ففي الحقيقة رفعة الخادم وكمال حرمة ، من رفعة مخدومي وعزته ، وكلُّ من رفعَ قَدْرَ خَلَتِهِ ، وحافظَ على حفظِ حشيمه ، ومنع جانبهم ، ورعى حاضرهم وغائبهم ، إنما حفظ أطراف حشيمته ، ورعى جانبَ عظيمته وحرمة ، وكلُّ كبيرٍ امتنهن خَلَتَاهُ ، وأذلَّ جماعته وقوامه ، ولم ينزلهم منازلهم ، ولا عرف فضائلهم ، وسأوى بأواخراهم أوائلهم ، فإنما أضاع مكانة نفسه ، ولم يفرق في الفكر بين يومي وخلي وأميمه ، وإذا لم يصغ الملك لكلام الوزير ، واستقل بأوضاع ناصحة والمشير ، فابتذله وانتهره ، واستقله واحتقره ، خصوصاً في الجماهير والمحافل ، بين العساكر والجحافل ، فأبى حرمة تبقى له عند البقية ، من سائر الخدم والرعية ؟ وأي مرسوم

(١١٤) سلاح وقوة .

وكلام ، يُسمعُ له عند العوام ؟ فيتكدرُ خاطره ، وتتغيرُ سرائره ، فيدعوهُ ذلك والعبادُ بالله إلى شقِّ العصا ، إذ صار على بابِ خدويه معلقاً كالخفا ، وقدره في المكانة ، وقوله في البلاغة ، صار كالزيف في الصاغة ، والفُسُو^(١١٥) في الدِّبَاغة ، وناهيك أياها الخبيرُ ما قالتُ لأُمها الزاغة . قال يسار ، أحرثني بذلك يا جُهينةَ الأخبار .

[٦/٦] قصة نراغة وأمها مع البومة وابنها

قال : ذكر أنَّ زاغة^(١١٦) ، في بلد مراغة ، انتشأ لها فرخة ، انتشر لها بين الطيور صرخة ، وكانت ذات بهجة لطيفة ، وصفاتٍ طريفة ، وتربت يتيمة^(١١٧) بالدلال ، وجمعت بين فنون الكمال ، فلما بلغت مبلغ الزواج ، خطبها من صنوف الطير الأزواج وترادفت عليها الخطَّاب ، ودخلوا على أمِّها في ذلك من كل باب ، فكانت تأبي عليهم ، ولا تلتفت إلى بلهم ولا إليهم ، إلى أن بلغ خبرها إلى بومة ، كريمة الوجه مشومة ، بينها وبين أمِّ الزاغة صداقة قديمة ، فخطبتها لانيها ، وأبانت للطير مزيدَ غَيْبِها ، فاستشارت الأمُّ ابنتها ، وأظهرت في ابنِ البومة رغبَها . وقالت : أي ربيبة الخير ، قد رغب فيك أصناف الطير ، فكنت أدافعهم ، وأسوفُ بهم وأمانعهم ، وقد اشتهر صيتك بين الكبراء ، وخطبك مني الأمراء والوزراء ، وأنا على المطاولة ، والردِّ والمقاولة ، وقد استجيت منهم ، واحتشيت غائلة ما يصلر عنهم ، ولم أفعل ذلك ، إلا رعايةً لحالك ، وخوفاً من زوج ظالم ، بقدرك غير عالم ، يستضعف جانبك ، ويكره أهلك وأقاربك ، ثم لا تقدر على مقاومته ،

^(١١٥) الرابحة التتة .

^(١١٦) من أنواع الغربان ، وهو صغير نحو الحمامة أسود برأسه ميل إلى البياض .

^(١١٧) يتيمة : فريدة لا تظفر لها .

وتعجب في مرافقته ومفارقته ، لا سيما أن صار بينكما معاشقة ، فيصير نكاحكما
كنكاح الدماشقة^(١١٨) ، كلٌّ يضمُرُ السوءَ لصاحبه حالةً للمعاشقة ، وكلٌّ يا أحسنَ
طائرٍ ، معنيٌّ بما قال الشاعر :

رأيتُ الذي لا كُلُّهُ أنتَ لصادِرٌ عليه ولا عن بعضه أنتَ صابِرٌ

ونعودُ بالله من اختلافِ الوداد ، وأن يصيرَ نكاحُ السُّنَّةِ كنكاحَ أهلٍ
بغداد^(١١٩) ، فكنتُ لهذه الأمور ، أخشى تقلباتِ الدهور ، وأردتُ خطابَ الجمهور .
وقد خطبتُ بأكريمة ، ابنُ صاحبةِ قديمة ، وهي البومةُ الفلانية ، وهي صاحبةُ هيئة ،
وأخلاقٍ ابنِها رضية ، وهو شخصٌ فقير ، ضعيفُ الحالِ حقير ، نُقلبه في أيدينا
كما نريد ، وتنصرفُ فيه تصرفُ الموالي في العبيد ، لا في الطيرِ جنسٍ يحبه ، بل
كلُّهم يكرهه ويسبه ، ولا لهُ ناصرٌ علينا ، ولا جارحٌ يدُلُّ به إلينا ، فهو تحت
طاعتك كما تحيين ، وفي رِقَّةٍ إرادتك كما تريدين ، لا كالحمامِ يتطوقُ بطوقِ
الفخر ، ولا كالحلهدُّ يتسوّجُ بتاجِ الكبر ، فما رأيك في هذا الأسر ؟ فقالت
الزويغة^(١٢٠) : " حفظتُ شيئاً ، وغابتُ عنك أشياء " ما أصنع بزواجِ
مُمتَّهنٍ ، ويُبغضُ الأجناسُ مُمتَّحنٍ ، مكسورٌ ، مهجورٌ ، يُتَطَيَّرُ منه بين الطيور ،
هذا يحفظه ، وهذا يلقفه ، وهذا ينقره ، وهذا ينثره ، وهذا يأسره ، وهذا يكسره ،
وإذا لم يكن للزوجِ حرمةٌ ، ولا تُسمعُ له كلمةٌ ، خصوصاً عند زوجته ، وأهل بيته
وعقرته ، فأي قدر يكونُ له عند غيرها ؟ وأنى ينشرُ بالسَّعدِ جناحَ طيرها ؟ وقد قال
ربُّ السمواتِ والأرض ، ومالكُ الطولِ والعرض ، والبسطِ والقبض ، والرفعِ

(١١٨) أهل دمشق .

(١١٩) لله يقصد زواج المتعة !! .

(١٢٠) تصغير رافعة .

والخفض : ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ مَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ^(١٧١) وقال مَنْ جعلهم قَوَّامِينَ وذَوَاتَنَا مُنْعَوِجَةً : ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾^(١٧٢) ومقدارُ المرأةِ بين حيرانِها وأهلِها ، إنما يُعرفُ بقدرِ حُرْمَةِ بَعلِها ، وأنا كيف يبقَى حالي ، وبالي ، وما عليّ وما لي ، وبين حيرانِي وصواحي ، وأهلي وأقاربي ، إذا كان زوجي ذليلاً مهيناً ، محترقاً بين الناسِ حزينا ، والله لا يكونُ لي بزواج ، ولو بلغ رأسُهُ إلى الأُوج ، وما أمدُّ إليه باعي ، ولا يُوفَعُ لهُ في مركبِ الزوجةِ شراعي .

وإنما أوردتُ هذا المثال ، يا شَيْبَةَ الغزال ، لأُبَيِّنَ أَنَّهُ إذا لم يَكُنْ لي في دارِكَ عَزَّةٌ ، ولا يرفعُ مكانتي ومكانتي نشاطٌ وهزةٌ ، فلا يرجوني الصديقُ الموافق ، ولا يخافني العدوُّ المنافق ، فيختلُّ أمري ، ويضيعُ في غيرِ حاصلٍ عمري ، وإذا ما أهملَ مرسومي ، تعدَّى الوهمُ إلى مخدومي . قال يسار : ابشرْ أَيُّهَا الوَزيزُ المشفق ، والكبيرُ المحقق ، والحكيمُ الماهرُ المدقق ، بالدرجةِ العليةِ ، والمرتبةِ السنيةِ ، والكلمةِ المقبولةِ ، والوظيفةِ الفاضلةِ لا المفضولةِ . ولكنْ أنا أيضاً لي عليك شروط ، تزينُ عقودها المُلتفاتِ في المروط ، هنّ لدارِ السعادةِ أهواب ، وللرقيِّ إلى درجِ السيادةِ أسباب ، ومثلُك لا يدلُّ على صواب ، وهي : أن تتقلَّدَ العمل ، مبسوطَ الأمل ، بجميع ما قررتُه ، وتتعاطى ملازمةَ كلِّ ما حررتُه ، من إقامةِ ناموسِ المملكةِ المبجلةِ ، ورعايةِ شرائطِ السلطنةِ المفضلةِ ، ومحافظةِ جانبِ مخدوميك ، والإنهاءِ إلى مسامعِهِ جميع ما في معلومك ، وتقديمِ مصالحِهِ على مصالحك ، ومعاملةِ رعيتهِ بالجهِدِ في نصائحك ، وكفِّهِ عن المظالم ، والعدولِ بِهِ عن طريقِ المآثم ، والغيرةِ على دينِهِ ، واعتقادهِ وبقينه ، أكثر من الغيرةِ على دنياه .

^(١٧١) قرآن كريم ، سورة النساء : ٣٤ .

^(١٧٢) قرآن كريم ، سورة البقرة : ٢٢٨ .

وفي الجملة لا يكون الملك إلا لله ، بحيث لا تكون ، من قبيل "لِمَ تقولون ما لا تفعلون" وإياك والرّشا والبرطيل^(١٢٣) ، والدخول لعرَض الدنيا في الأباطيل ، وتوقُّ ظلم الرعية ، للأغراض الدنيّة ، أو الأغراض الدنيوية ، وأتق دعوة المظلوم ، وأن يصلّ سهاؤها إلى مولانا المخدوم . واعلم أننا إن بنينا أساس الأمور ، على قواعد الظلم والشرور ، فنحن من الخاسرين ، ومن الذين ظلموا ، والله لا يحب الظالمين ، وسيقطع دابر القوم الذين ظلموا ، والحمد لله رب العالمين ، بل اتّبن الأمور على أساس التقوى ، فإنك بالتقوى^(١٢٤) تقوى^(١٢٥) ، وبرأويتها تروى ، فمن تحلّى بالقضايا العاطلة ، وتشبّث بأذيال الأمور الباطلة ، ولم يقصد وجه الله في حركاته وسكناته ، وأدخل شوائب الرياء والسمعة في أعماله وطاعته ، لا يمضي له حال ، ولا يصلح له مال ، ويصيّبه ما أصاب السائح ، الذي ادّعى إخلاص العمل الصالح ، ثم سرّع في حركته ، وأخلص فظهرت آثار براعته ، فلمّا قصد الأغراض الدنيّة^(١٢٦) ، فسد ظاهره بفساد النية . فسأل المشرقيّ ، عن حال ذلك الشقيّ .

[٧/٦] قصة السائح ذي الوجهين

قال : كان في أقصى بلاد الصين ، طوائفٌ غير ذي عقلٍ رصين ، أنبت لهم في بعض الجبال ، زراعاً القدرة ذو الجلال ، في رياض النزاهة والكمال ، شجرة ذات بهجة وجمال ، أصلها في أرض الملاحة ثابت ، وفرعها في أصل المحاسن نابت ،

(١٢٣) الرشوة .

(١٢٤) الإيمان .

(١٢٥) تصير قويا .

(١٢٦) أي أغراض الدنيا الرائلة .

وغصنها إلى سماء العُلا واصل ، وورقها كعُقود الجُمان^(١٣٧) بالبهاء متواصل ، لا
سَمُومُ الصيفِ يزيلُ زهرتها ، ولا عواصفُ الخريفِ تنهبُ حضرتها ، ولا صرصرُ
الشتاءِ يعري أغصانها ، ولا لواقحُ الربيعِ تُذوي أفنانها ، فأعجب بحسنتها أهلُ تلك
الديار ، وأشربوها إشرابَ بني إسرائيل ، عَجَلًا حَسَدًا له حُورٌ ، ثم تقاتوا في
حبها ، وتمالكوا على قربها ، فعبدها كما عبده ، واعتقلوها كما اعتقلوه ،
واستولي على عقولهم الشيطان ، وصار يخاطبهم من الشجرة واحدٌ من الجن ،
فزادهم فيها اعتقاداً ، وعمَّهم بعبادتها كُفراً وعناداً .

فقلِّم تلك البلادَ فقيرٌ من السائحين ، وهو من عبَادِ اللَّهِ الصالحين ، فلما رأى
تلك الحالة ، أفرعه ذلك وهاله ، وأخذته غيرة الإسلام ، وغضبه دَعْتُهُ إلى القيامِ ،
فأخذ فأساً وقصدها ، ليقطع ساقها وعصلها ، فلما قرب إليها ، وأراد وضع الفأسِ
عليها ، سمع منها صوتاً خَوْفَهُ ، وعن مراده أوقفه ، فقال : أَيُّها الرجلُ الصالحُ ،
والقادمُ السائحُ ، فِيمَ ذِي الهِمَّةِ ؟ وعلامةُ هذه العزمةِ الهِمَّةُ ؟ وما قصدك بهذه
الصدمةِ ؟ فقال : غيرةُ اللَّهِ ، أَيُّها المفضلُ اللّاهُ ، شجرةٌ تعبدُ من دون الرحمن ، ولا
يَعَارُ لهذا الشأنَ إنسانٌ ، فَلَا تُطْعَمُنِي أَيُّهَا الشجرةُ المضلةُ ، وَلَا جَعَلُنِي حَطِيئاً ومُثَلَّةً ،
فإنَّكَ قد أضللتِ كثيراً من الناسِ ، وفعلتِ ما لم يفعله الوسواسُ الخناسُ ، وإنَّكَ لا
تنفعين ، ولا تضرين ، سوى أنَّكَ إلى النارِ تجرِينَ . فقالت : أَيُّها الرجلُ الزاهدُ ،
الصالحُ العابدُ ، أنا ما أذيقُكَ ، ولا ضررتُكَ ، وإنِ رأيتَ نَفْعَتَكَ وبَرَرَتَكَ ،
وحاشاك ، أَنْ تُؤْذِي مَنْ لَا أَدَاكَ . وأنا أعلمُ أَيُّها الرجلُ الكبيرُ ، أَنَّكَ غريبٌ
وفقر ، وما أقدمَكَ على هذا البأسِ ، إلَّا الغربةُ والإفلاسُ ، فَكُفَّ عَنْ هذا الأمرِ ،

وأطفيء نائرة^(١٢٨) هذا الجمر ، وارجع إلى منزلك ، واشتغل بطاعتك وعملك ،
وأنا أوصلك كلَّ نهارٍ ديناراً ، ذهباً نضاراً ، كاملاً وافياً معياراً ، يأتيك هيناً
ميسراً ، كلَّ صباحٍ مبكراً ، إذا استيقظت من رقدتك ، تجده موضوعاً تحت
وسادتك ، وهذا هو الأليق بحالك ، وأفرغ خاطرك وبالك ، وأخلص لك من
ورطات المهالك . وإذا أصلحت مع الله سريرتك ، وطهرت من أدناس الدنيا سررك
وسريرتك ، فترك الناس ولو كانوا حيرتك ، أو أهلك وعشيرتك ، وعليك بخويصة
نفسك ، فإذا أنقذتها من الورطات فأمنيك . وقد قال منزل القرآن ليحرسكم
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾^(١٢٩) فلما سمع بالدينار ، ألهأه الطمع
والاغترار ، فبدت همته ، وضعفت في الله قوته ، وتركها ورجع ، وترك القيام
وهجع . فلما أصبح الصباح ، وحاز بالصلاة الفلاح ، بادر إلى الفراش ، وطلب
المعاش ، فوجد الدينار ، كما ذكر الشيطان وأشار ، فالتفت وأبتهج ، وتحقق أنه
شوح باب الفرج ، واستمر على ذلك أسبوعاً ، والذهب عنده بمجموعاً . ثم بعد
ذلك قصد الفراش ، بسرورٍ واهتشاء ، فلم يجد شيئاً من الذهب ، فحرق قلبه
والتهب ، فأخذ الحنق والقلق ، وأخذ الفأس وانطلق . فلما قرب من الشجرة ،
نادته بالفاظٍ عكيرة : قِف مكانك ، واذكر شأنك ، وقل لي في ماذا جيت^(١٣٠) ،
فلا حيت ولا حيت ! فقال : جئت لأقطعك ، ومن الأرض أقطعك ، غيرة على
الدين ، وقاماً بحق رب العالمين . فقالت : كذبت إنما غدوت وسبيت ، وقمت
وقعدت ، وبرقت ورعدت ، لفقدك الذهب ، الذي عنك ذهب . وإنما كانت
الغيرة الصحيحة ، والقوة المليحة ، الناهضة النحيحة ، القومة الأولى ، فإنها كانت

(١٢٨) النائرة : العبارة والشمع .

(١٢٩) قرآن كريم ، سورة المائدة : ١٠٥ .

(١٣٠) تخفف : جئت .

والحقُّ قد تجلَّى ، فلو قامت الخلائقُ لرُدَّك ، واجتهدوا في مُنْعِكَ وصدِّك ، لما ظفروا بك ، ولا قاموا بحروبك . وأما الآن فهذه الغضبة ، غضبةُ الفاجرةِ الصغبة ، التي حصلت بواسطةِ عدمِ الدينار ، فهي التي آثارت منك ما أثار ، فلو دُنِوتْ مِنِّي خُطوةٌ ، وتقدّمتْ من مقامك رُتوةٌ^(١٣١) دَقَقْتُ عُنُقَكَ ، وشَقَقْتُ زَقَكَ ، وقد قُلْتُ إِنِّي لَا أَضُرُّ وَلَا أَنْفَعُ ، وَلَا أَجْلِبُ وَلَا أَدْفَعُ ، فَأَمَّا الْمُنْفَعَةُ ، ياصلمعة بن قلمعة ، فإنك رأيتها ، في الدنانير التي لقيتها ، فتقرر النفع ، يا مستحقَّ الصفع . وأما المضرةُ ، فَمَنَسَّهَا عَلَى الْمُنْفَعَةِ يَا أَبَا مُرَّةَ^(١٣٢) ، فإن الذي لَهُ قُدْرَةٌ عَلَى الْمِرَّةِ ، رَمَّهَا يَقْتُلُهُ عَلَى الْإِيْدَاءِ وَالْمِضْرَةِ ، وَإِنْ شَتَّتْ تَقْلَمُ ، وَجَرَّبَتْ لَتَعْلَمُ ، وَأَخْبِرْ ، وَأَسِرْ ، وَانْظُرْ كَيْفَ أَثَرُ مِنْكَ الرَّاسُ ، بِهِذِهِ الْفَأْسُ ، وَحَقَّقْ وَصَدَّقْ ، أَنَّ كَتَفَكَ ، حَمَلَتْ حَتَفَكَ . فَكَيْفَ الرَّجُلُ ، وَتَغْيِيرٌ ، وَخَافٌ ، وَخَارٌ وَقَهْقَهْرٌ ، وَانْقَطَعَ حَبْلُ رَجَائِهِ ، وَأَفْلَتْ يَتَلَقَّتْ إِلَى وَرَائِهِ .

وَإِنَّمَا ذَكَرْتُ هَذَا لَتَعْلَمُ ، أَيُّهَا الْوَزِيرُ الْمَكْرَمُ ، أَنَّ كُلَّ أَمْرٍ لَا يُقْصَدُ بِهِ وَجْهَ اللَّهِ ، فَإِنَّ عِقَابَهُ النَّدَمُ وَإِنْ حَسُنَ أَوَّلَاهُ ، وَكُلُّ قَصْدٍ لَيْسَ لْغَرَضٍ صَالِحٍ ، فَإِنَّ شَجَرَةَ غَرَسِهِ لَا تُثْمِرُ إِلَّا الْفَضَائِحُ ، فَتَرَكْ الشَّرْعَ فِيهِ أَوَّلَى ، وَمَحَوْ صَوْرَتَهُ مِنْ لَوْحِ الضَّمِيرِ أَجْلَى . وَمَنْ لَمْ يَتَرَكَ مَا لَا يَعْنِيهِ ، وَقَعَ فِيمَا يَعْنِيهِ ، وَحَلَّ بِهِ مِنَ الْفُضِيحَةِ وَالْإِيْلَامِ ، مَا حَلَّ بِذَلِكَ الْمَفْسِدِ فِي مَدِينَةِ السَّلَامِ . فَسَأَلَ الزَّيْنِمُ الْمَشْرِقِيَّ ، الْبَصِيرَ الْأَفْرَقِيَّ ، كَيْفَ كَانَتْ تِلْكَ الْفُضِيحَةُ ، لِيَأْخُذَ مِنْهَا لِنَفْسِهِ النَّصِيحَةَ .

(١٣١) عَطْوَةٌ .

(١٣٢) أَبُو مُرَّةَ : كَتَبَةُ الشَّيْطَانِ .

[٨/٦] قصة مفسد في مدينة السلام

قال كان في مدينة بغداد^(١٣٣) صانع حرير أستاذ ، خبير له جار ، سني الجوار ، وزوجة تحفل بالبر عند الكمال ، والشمس قبل الزوال . وذاك الجار الجاني ، يدعى ابن الفرغاني ، ففى بعض مطاره^(١٣٤) ، لمح زوجة جاره ، فتعلق قلبه بها ، واشتعل من هواها نار أحشائه بهيو بها ، فأخذ يلهو بها ، إلى أن أفسدها ، وإلى الضلال أرشدها . وكان الزوج مغرماً بها ، فوجد على حالها منها ، فصار يراقبها من كلفه^(١٣٥) ، ولا يفل عنها لشدة شغفه ، ويجهد فى كفها عن الخيانة ، وأن تحفظ الغيب وتؤدي الأمانة . ففى بعض الأوقات ، رأى بعض الطرقات ، صياداً ومعه طير ، قد أوثق رجله بسير ، فسأله عن طيره ، وإلى أين قصده فى سيره . فقال : هذا من الجوارح ، والسوانح لا البوارح ، يحاكى الصوادح^(١٣٦) ، ويساكي النوائح ، وفيه سر عجيب ، وأمر غريب ، وهو أنه إذا كان فى بيت ، ورأى فيه على صاحبه كبت وكيت ، أخبر زوجها خبره ، وقصَّ عَجْرَهُ وَجَعْرَهُ^(١٣٧) ، وقد رغب فيه رئيس يشتره ، فأنا ذاهب به إليه ، أقدمه لديه ، وأنتن به عليه . فرغب فيه الحريري واشتره ، وأتى به إلى داره وقال لزوجته أكرمي مثواه ، وأحسني مأواه فإنه يُخبر بكل ما رآه ، وهو من أحسن صفاته ، وأعجب أموره وحكاياته ، ومهما فعلت زوجة الإنسان ، ذكره على وجه كما كان . فقالت : نحن بمحمد الله فى بركة ، آمنون مما يُنقل عنا من حركة ، فإن رأى شيئاً يهوله ، لا يكتمه عنا

(١٣٣) بغداد : بغداد ، ولغتها باللئال على أصلها الفارسي ، اتساق مع دواعى السجع .

(١٣٤) المطارة : البر الواسعة ، وربما كان يعنى : فى بعض تحركاته وتقلباته .

(١٣٥) شدة حبه .

(١٣٦) الصوادح : الطيور التى تطرب فى غنائها .

(١٣٧) قصَّ شجره وبجهره : ذكر غيره وأمره كله ، ما أخفى منها وما أبدى .

بل يقولهُ ، فزكّه الزوجُ وذهب . فدخل الحُرَيْفُ الملتهب ، فرأى المرأةَ وحدها ، والطيرَ عندها ، فأخذ في المهارشة ، ومدَّ يَدَهُ للمناوشة ، فقالت : كُفَّ يَدَكَ واحفظْ الذمام ، فإنه قد حصل علينا رقيبٌ نَمَامٌ ، فكُفَّ يَدَكَ يا حبيب ، لئلا نُصابَ ولا نُصيب ، وتفكرْ في قول الشاعر المصيب :

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقلّ
خلّوت ولكن قلّ عليّ رقيبٌ

فقال : وأين الرقيبُ يا ستُّ البحارِ والحبيب ؟ قالت : هذا الطير ، ليس غير ، فإن له خواصَّ عجيبية ، وفيه أشياء لطيفةٌ بحبيبة ، منها أنه نَمَامٌ ، ومهما رآه أو سمع من الكلام ، فإنه يفضُّ عنه الحِثَامَ ، ويذكره لصاحب البيتِ على التمام . فقهقه بصوت عال ، وسخر منها وقال : صدق سيّدُ المرسلين ، الذي قال "النساءُ ناقصاتُ عقلٍ ودينٍ" ، ثم أقسم بحياتها ، وحُسْنِ ذاتها وصفاتها ، ليوبخن [.....] (١٣٨) في الكتيب ، بمراى من ذلك الرقيب ، حتى إذا أفرغ من أمره ، يمسخ في منقاره [.....] (١٣٩) ، ليعلمها صحة ما أوهمها ، ثم حاورها وغلبها ، وساورها وقلبها ، وحل الصدر بالثكة ، وتعلقت الحلقة بالسكة ، وامتزجت الألف العربية بالكاف الكوفية . واستمرّا في أخذ وعطاء ، بلا غطاء ولا وطاء ، كأنهما أفواجُ الحجاج ، أو ثباجُ الأمواج (١٤٠) ، في شيل وحط ، وقبض وبسط ، وهرج ومرج ، ودخل وخرج ، واستمر من نحو هذا التصريف في بحث الرفع والبحر ، ومن علم المطاردة والركوب في صنعة الكرّ والفر ، ومن علم الزندقة والإلحاد ، في عالم

(١٣٨) لفظ حلفناه لأنه عائدش لحواء البعوض .

(١٣٩) لفظ محنوف ، عائدش للحياء .

(١٤٠) تَبَّحَ البحر موجه متجمعا ثم منلفها .

الحلول والاتحاد ، إلى أن دقق الإبريق العقيق ، فى قدح اللجين^(١١) شراب
الرحيق ، وقد أنشد الحريف ، هذا النظم الطريف ، وهو :

لو تنظر الرقبا وقد عانقته	والشمع مشعل وبابي مقفل
طورا أشاهده وأرشف تارة	واضح من بعد ما أتامل
وإذا نعتى ذيل ثوبى بان لي	من جيه شيء عليه المقتل

فلما سال الميزاب بما جرى ، وقضى زيد منها وطرا ، نهض يُبهر
قسمه ، حسبما ميزه وقسمه ، وأدنى من منقاره [.....]^(١٢) وكان للطائر
مدة لم يتناول مأكوله ، فتصوره قطعة لحمه قدمه إليه طعمه ، فأنشب بخاليه
فيه ، فاستغاث بعل فيه ، وكاد أن يغمى عليه ، واستعان بحبيبة قلبه
إليه ، فأقبلت المرأة كالحدأة فأشار عليها ، أن تكشف عن ساقها ، وتُري
الطير [.....]^(١٣) فرما يلتهى به ويترك آله ، فتكشفت وأدنته إليه ، وعوكت
فى بحلاص صاحبها عليه . فوثب لشدة قرمه^(١٤) ، وتأثر الجوع وآله ،
ليلهم^(١٥) ذاك الفلهم^(١٦) ، فأنشب بخالب رجله الأخرى ، فى فلهم تلك البظرا ،
فاشتبكا ، وفى البلاء اشتركا . وبينما هما فى تعاظيل الكلاب ، وإذا بالزوج قد
دخل من الباب ، قرأهما على تلك الحال ، من الاشتباك والاعتظال ، ونقل الطير
ما قال بالأفعال ، دون الأقوال ، فصَحَّ قوله وفعله ، وفعل معهما ما يجب فعله .

^(١١) اللجين : الفضة .

^(١٢) لفظ خادش .

^(١٣) إظنان خادشان .

^(١٤) شهوته للطعام والاكل .

^(١٥) يلهم : يتلغ فى مرة واحدة .

^(١٦) الفلهم : فرج المرأة .

وإنما أوردت هذا البيان ، لأعلم أشرف جنس الحيوان ، أن الشروع ، فيما ليس فيه منفوع ، يجب الإبعاد عنه ، والفراؤ منه ، وعدم الإصغاء إليه ، والتوجه والإقبال عليه . ولهذا قال النبي ﷺ : " من حُسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه " . قال الشرقي : ما بقي يا بقي ، إلا أن ترتقي فلقد طال البيان ، وضاع الزمان .
فانهضْ هُديتْ إلى ما رُمْتُه عَجَلًا فالدهر غاتٍ والتأخير آفات

وكانت هذه المحاورة ، تحت ظل شجرة ، فيها وَكْرُ حَمَامَة ، وكان لها بالبلد إقامة ، في برج رجلٍ من أهل الزعامة . ثم اختارت العزلة ، واحتسبتها نعمةً جزلة ، فاختارت هذا المقام ، ولها فيه عدَّة أعوام ، فسمعتُ جميع ما قالاه ، من مبدئهِ إلى منتهاه . فلما وعث ما اتفقا عليه ، وتداعيا إليه ، أخذت تضربُ أحساساً لأسداس ، وتماثلُ فيما يتحلى من عرائس معانيهِ من القَدَمِ إلى الراس ، وتُجِلُّ في صُورِ مبانيهِ قَداحَ النظر ، وتلاحظُ سيرةً فحايه بلوامح الفكر ، وتجاوز مذاهبه ، وتروّز^(١٧) عواقبه ، وتقيس مداركه بمعارجهِ ، وتُمِيسُ في مداخلهِ ومخارجهِ ، فأدَّى قائدُ فكرِها ، ورائدُ نظريها ، إلى أَنَّهُ رَئياً يَكُونُ لهما شأن ، وعُلُوٌّ مكانةٍ ومكان ، فإن عوارِثَهما ، وما مرَّ من مناظرِثَهما ، كانت منطويةً على ذكاءٍ وفطنة ، وتجاربٍ وحكمة ، وعُلُوٍّ همةً ، صادرةً عن فكرٍ مصيب ، ورأيٍ لَهُ في السدادِ أوفرُ نصيب ، ولم يبقَ لهما في القَنَرِ ، إلا مساعدةُ القضاء والقَدَرِ . وإذا كان الأمرُ كذلك ؛ قالَ لَيْتُ في قطعِ هذه المسالك ، المبادرةُ إلى التعرفِ بهما ، وإعانتُهما ، والتقربُ إلى خواطِرهما ، ومساعدتهما ، على ما هما فيه ، ومساعدتهما بما تصل إليهِ اليَدُ ونحوه ، لأنهما في حالة الشدة ، وزمانِ الانفرادِ والوحدة ، محتاجان إلى المساعدة ، والمساعدة والمرافدة ، وفي مثل هذه الحالة تظهرُ الفضيلة ، ويتحتملان المِنَّةُ والجميلة ،

^(١٧) تروّز : تُخَبِّر .

وتقع مساعدتي أحسنُ موقع ، ويتميز لي عندهما أرفعُ موضع ، فإنه إذا علا شأنهما ، وارتفع بدون معاونتي قدرهما ، ومكانهما ، واجتمع عليهما الجنود ، وأقبل إليهما الوفود ، وكثرت الحفدة والأتباع ، وتكاثفت العساكر والأشياء ، فما يظهر لمن يقترب إليهما ، ويتأمل لديهما ، إذ ذاك كبيرُ فائدة ، ولا كثيرُ عائدة .
ثم إنها توكلت على الرحمن ، وصدحت على الأغصان ، بقولها :

على الطائر الميمون والبشر والسعد
سموت إلى العليا نهلاً على نهـد^(١٤٨)

ثم هبطت ، وبين أيديهما سقطت ، فأذكرت قولَ الرئيس^(١٤٩) هذا الشعرَ النفيس :

هبطت إليك من الخُل الأرفع
ورُفقاء ذات تعزُّزٍ وتَنسَع

وقبّلت الأرض ، ووقفت في مقام العرض ، ولزمت شرائط الخشمة ، وأدّت مواجب الخدمة ، وهنأت نفسها والكون ، بسُلطنة الملك يسار ذات الصون ، وقالت : إنني لكما نعم العون ، وموطني في هذه الشجرة ، وأنا لأوامركما مؤتمرة ، وقد عيت ما قلتماه ، وما دار بينكما وذكرتماه ، ورأيتُ صادراً من مشكاة السعادة ، مشرقاً بأنوار السيادة ، سهامُهُ نافذة في قلب الغرض ، وسيستعبدُ جواهر الرعايا بأدنى عرض ، فإن حسامهُ مطبقٌ لفضل القصد ، وشأنهُ سيبُلغُ أعلى الثمن والسعد ، وها قد جئتُ مبادرة ، واردةً منهلّ الطاعة وصادرة ، فأمرًا لأمتثل ، وانظراً لأحتفل ، وتحكماً لأطيع ، وتكلماً فإني سميع ، فإن أشرتُما فالقصدُ

^(١٤٨) النهـد : الشيء المرتفع .

^(١٤٩) الرئيس ، يعني المؤلف به : ابن سينا الفيلسوف والطبيب المعروف ، والملقب الشيخ الرئيس (توفي سنة ١٠٣٦ م) ، وصاحب هذه القصيدة العينية التي مطلعها بيت المذكور في المتن .

قاف^(١٠٠) ، وإن استشرتما فالرأي كاف ، وإن خيرتما فالخزم واف ، وإن استهضمتما فالعزم شاف ، وإن استخدمتما فالعبدُ خادِمٌ صافٍ مصاف .

فلماً رأيا من الحمامة ، هذه الكرامة ، تبسم الزنيم وتفاعل ، وأشرق وجهه وتهلل ، وتيمن بطلعة الورق^(١٠١) ، وعلم أنَّ أمرهما يرقى ، وقال ليسار : هذا من علامات اليسار ، وجير الانكسار ، والخروج إلى اليمين من اليسار ، وعنوان السعود ، وحصول النجح والمقصود ، فإن مسبب الأسباب ، العزيز الوهاب ، تبارك وتعالى ، وجل جلالا ، هو مُسهِّلُ الصعاب ، ومفتِّحُ الأبواب ، وإذا أراد أمراً هياً أسبابه ، وفتح على الضعيف طاقته وبابه ، ووسَّع رحابه ، وسدَّد إلى مرامى المرامٍ لراميه نشابه . وحصولُ مثلِ هذا الصاحبِ الصادق ، والرفيقِ الموافق ، والمعينِ المصادق ، أدلُّ دليل ، على أنَّ الله الجليل ، يُيسِّرُ هذا المطلوب ، ويظهرُ هذا النِّجَحَ المحجوب .

ثم إنهما استشارا الحمامة ، في كيفية نيل الزعامة ، والشرع في هذا الأمر ، والتوصِّل إلى دعوة زيد وعمرو ، وطريقة اشتهايه ، وتعاطي أسباب انتشاره . فقالت : أنا من جنس الطير ، ومشهورةٌ بينهم بالخير ، ولهم إلى سكون ، وعلى مناصحي اعتمادٌ وركون ، فالصواب ، في فتح هذا الباب ، دعوة الجمهور ، من الطيور ، وأنا به زعيم ، وفي الرسالة حكيم ، فإن اقتضى الرأي الرفيع ، توجهتُ ودعوتُ الجميع ، بعد التخبير والتشهير ، بين الكبير منهم والصغير : إن أبا الجراء^(١٠٢) السلطان ، وأبا الجداء^(١٠٣) الوزير ، وقد وقع الاتفاق ، في الآفاق ، على

(١٠٠) قافز : نافذ ، محقق ، متبع .

(١٠١) الورقا أو الورقاء : الحمامة لوئها ما بين الأبيض والأسود .

(١٠٢) سكية الكلب .

(١٠٣) سكية النيس .

هذا الوفاق ، فليبتهج سائر الطيور ، بهذا الفرح والسرور ، وليقرأ على رؤوس الجمهور ، هذا المقال المنشور ، وليبادر إلى الخدمة بالحضور ، ولا يتخلف أحدٌ ومأمور ، والحذر الحذر من المخالفة ، وعدم الانقياد والموافقة ، فقد طاب الوقت راق ، وزال المقت والشقاق ، والمسارعة في أقرب زمان ، ليأخذوا لأنفسهم الأمان ولايركبوا من التعويق ، سوى متن مسافة الطريق .

فأعجب الملك والوزير ، من الهديل هذا الهدير ، فكذب بذلك بطاقة ، وحملتها الحمامة بأحكام وثاقة ، ثم أخذت إلى الجو ، ووقيت من الجوارح السوء ، ثم هبطت إلى جمع الطير ، وهو نادى الندى والخير ، فرأت منها خلقاً كثيراً ، وجمعاً غزيراً فسلمت سلاماً للمشتاق ، وعانقت عناق العشاق . فترحبوا بمقدمها ، وسألوا عن مُعَرَّب أحوالها ومعجمها ، وقدموا موائد الضيافة ، وأظهروا السرور واللطفة ، فبنتهم كثرة الأشواق ، وما عانتُهُ من آلم الفراق ، وقد حُرَّضها شدة الشوق ، وساقها إليهم أشد سوق ، وبعثها أيضاً باعث ، وهو من أحسن الوقائع ولكن الخواث . وذلك أنَّ شخصاً من أصلاء بني سلاق^(١٠٤) ، الحاكم على بني زغار وبني براق ، تولَّى سلطنة السباع ، ومالكية الذئاب والضباع ، مضافاً إلى ذلك الحكم على الطيور ، والقيام بسياسة أمور الجمهور . وأقام له في ذلك وزيراً ، كافياً ناصحاً مشيراً ، يُدعى أبا زغبة المشرقي ، من نسل تكابك الأرتقي^(١٠٥) ، وهو من الفحول ، وكباش الوعول ، وقد أرسلوني إلى الجماعة ، يأمرُونهم بالدخول في رياض الطاعة ، ليحصل لهم الرعي والرعاية ، والرفاهية والحماية ، ويأمنوا صيد الكائد ، وكيد الصائد .

^(١٠٤) تشير إلى الكلب ، ومن المعروف أن الكلاب الجيدة تنسب إلى قرية سلق ، ومنها الكلب السلوقي .

^(١٠٥) نسبة إلى بني الأرتق ، إحدى الأسر الأتابكية التركمانية الحاكمة (في ديار بكر) بين الفترة من ٤٩٥ -

ثم شرعت تبتُّ للكبير والصغير ، ما شاهدت من مخايل الملك والوزير ، وحسن شمائلهما ، ويمن خصائلهما ، وما هما عليه ، ونسباً إليه ، من الشجاعة والدين ، والعقل اللتين ، والفضل الميين ، والقناعة والعفة ، والمجد الذي لا يُدرك وصفه . وإن الملك المعلوم ، قد عفا عن تناول اللحوم ، وقد قنع بما يسد الرمق ، من حشيش النبات والورق ، وقد تكفل برفع المظالم ، وردع الظالم ، وإجراء مراسيم العدل ، وإحياء مواسم الفضل . فإن أنابوا وأجابوا ، وبجوا وأصابوا ، وطالوا وطابوا ، وإن أبوا وصبوا ، وهتروا للمخالفة وريوا ، ثم كسهم^(١٥٦) الدمار وأركسهم^(١٥٧) ، فلا يلوموا إلا أنفسهم . فصدّقوها من أول وهلة ، والرائد لا يكذب أهله ، لأنهم كانوا بها واثقين ، ولكلامها في الحوادث مُصدقين ، فما وسّعهم إلا الطاعة ، والتوجه إلى خدمة الملك في تلك الساعة ، وبعد ما تبادروا بالتصديق ، طاروا بالفرح ودخلوا الطريق ، واستصبحوا من الخدم والتقاؤم^(١٥٨) ، ما يصلح للمخلوم من الخادم .

فلما قربت الديار ، ودنوا من ولاية الملك يسار ، تقدمت الحمامة وسبقت ، وأخبرت الملك والوزير بما فتّحت ورنّقت^(١٥٩) ، فاستبشروا بما تقدّم ، وبادر الوزير لملاقاة المقدّم ، فتلّقاهم بالاحترام والتوقير ، وأكرم الكبير منهم والصغير ، ومشى معهم بالإكرام والحرمة ، وأوقف كلّ منهم في مقام الخدمة . وحين استقرّ بهم المقام ، افتتح الوزير الكلام ، فأثنى على الله تعالى ، وضاعف التحية على نبيه

^(١٥٦) دفعهم دفعا شديدا .

^(١٥٧) رثمهم وأعادهم .

^(١٥٨) الهدايا الثمينة .

^(١٥٩) بما نسجت من الحديث ، لإصلاح ذات البين ، وللقصود المفاوضات الناجمة التي دارت بين الحمامة - الرسول والرحمة من جنس الطيور .

وَوَالِي ، ثُمَّ امتدح الملك الزكي^(١٦٠) ، بثناء يخلل المسك الذكي^(١٦١) ، وذكر بعد ذلك ، ما يتعلق بسياسة الممالك ، وأن الله من بالملك عليه ، وساق سلطنة الوحش والطير إليه ، وذكر مقام كل من الطيور ، وما وظيفته بين أولئك الجمهور ، فأطاع الكل وتابعا ، وعلى ما اقترحه عليهم بايعوا ، وأنشدوا فأرشدوا :
ولحن آتينا طائعين ولم نكن عصاة فرم غير الطيور عساكرا

ولما انقضى الوطر ، من قضايا الطير ، أخذوا في استدعاء جموع الغير ، من الوحش الكواسر ، والبهائم والحواسر ، والطيور النواصر ، والجوارح النواسر ، وأرسلوا من تلك الجماعة الحمامة ، وقلدوها فيه طوق الزعامة ، فتوجهت نحو الوحش ، وإلى كل قارح^(١٦٢) من الصيد وحش ، وكانوا بذلك قد سمعوا ، وللمشاورة فيه قد اجتمعوا ، فبلغت الحمامة الرسالة ، وأظهرت ما فيها من بسالة ، وكان آخر ما وقع عليه الاتفاق ، الوفاق^(١٦٣) وعدم النفاق ، وقصد الارتفاق ، والتوجه إلى خدمة الملك يسار صعبة الرفاق ، وقالوا : لا شك أن الكلب بالوفاء مشهور ، وبمحسن الرعاية والحراسة مذكور ، ويقدر أن يرعانا من الإنسان ، وبمحسنا من السباع ومؤذيات الحيوان ، وأوصافه مذكورة في الكتاب ، وناهيك بـ "فضل الكلاب ، على كثير من لبس الثياب"^(١٦٤) .

(١٦٠) الزكي الطاهر الشريف .

(١٦١) الذكي : ذو الراحمة الذكية الطيبة .

(١٦٢) القارح من ذى الحافر : ما استم الخفاصة ، وظهر نابيه .

(١٦٣) الوفاق : الميابة .

(١٦٤) نمة كتاب ذاع فى هذه الفترة بهذا الاسم تصنيف محمد بن خلف المرزبانى (ت ٣٦٦ هـ) والكتاب مطبوع فى القاهرة .

فتقدّم خُزْرُ^(١٦٥) من بين تلك البِزْر^(١٦٦) ، يُدعى رئيس الأرناب ، محببٌ إلى الأقارب والأجانب ، وهو مشهورٌ بالخصافة ، موصوفٌ بالذكاء والظرافة ، والمعرفة التامة ، والتحرية المفيدة العامة ، بعيدُ الفكر في العواقب ، سديدُ الرأي حازمٌ مراقب ، وقال : يا معشرَ الأصحاب ، وأولي الأبصار والألباب ، كيف خفي عليكم ، ولم يتضح لديكم ، عاقبة هذه الأمور ، وما فيها من عكوسٍ وشرور ، وهل يصلحُ للرئاسة ، وإقامة السلطنة والسياسة ، أهلُ النذالة والخساسة ، المتصرفُ بالقذارة والنجاسة ، أَوْ مَا علمتم أنَّ من أفعش السباب ، الشتم بأحسن من الكلاب ، أَوْ مَا سمعتم في كلام مالك أزمّة القلب ، فى حقٍّ من عامله بالسلب والاسب ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ . أَوْ مَا قال صاحبُ الشرع ، فى حقِّ ما ولغ فيه الكلبُ بالسَّيِّئ ، ثم التعفير بالتراب ، وهو مذهبٌ كثيرٌ من الأصحاب ، وأن لا يطهر بالدباغة منه الإهاب ، لا أصلٌ تقي ، ولا وصفٌ نقي ، ولا نسبٌ طاهر ، ولا حسبٌ ظاهر ، ولا وجهٌ زاهر ، ولا شكلٌ باهر ، فإن كنتم نائمين انتبهوا ، وأعرضوا عما قصدتم إليه وانتهوا ، فلعن الله زمانا ، صار فيه التيس وزيراً والكلب سلطانا ، ولقد أرشد من أنشد :

لقد جازَ صَرْفُ الدَّهْرِ لِي كُلَّ جَانِبٍ مِنْ الْأَرْضِ وَاسْتَوْلَتْ عَلَيْنَا الْأَرَاذِلُ^(١٦٧)
هَلِ الْمَسْخُ إِلَّا أَنْ تَرَى الْعُرْفَ مُنْكَرًا أَوْ احْتَسَفَ إِلَّا حَيْثُ تَعْلُو الْأَسَافِلُ^(١٦٨)

فتصدى الهديلُ للجواب ، وقال : لا شكٌ ولا ارتياب ، أن المستحقَّ للسلطنة الإمامُ العادل ، والشخصُ الكاملُ الفاضل ، ولا يُقدحُ في هذا الفصل ، دناءة

^(١٦٥) الخُزْرُ : ذكر الأرناب ، وخُزْرُ الأرنب : ولدها .

^(١٦٦) البِزْرُ : الحقيقة ، الجمع .

^(١٦٧) صرف الدهر : نوابه .

^(١٦٨) الحسَف : الغلام .

الأصل . فقد قال القيوم الحى : ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾^(١٦٩) وكلُّ من اتصف بالهمة العلية ، والأوصاف السنية ، ومكارم الأخلاق والشيم ، وانتشر بها صيته بين الأمم ، يستحقُّ أن يرأس بين العرب والعجم . وأما الأنساب ، ففى نصُّ الكتاب ، قال من بقوله يهتدى للمهتدون ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾^(١٧٠) قال الشاعر :

كُنْ ابْنَ مَنْ شِئْتَ وَاكسِبْ أَدَبَا فسوف يُغفبك ذا عن النسبِ
إِنَّ الْفَتَى مَنْ يَقُولُ هَا أَنَا ذَا ليس الفتى مَنْ يَقُولُ كَانَ أَبِي

وقال أيضا :

لَقَمَرُكَ مَا الْإِنْسَانُ إِلَّا ابْنُ يَوْمِهِ على ما تجلَى يَوْمُهُ لَا ابْنُ أُمِّهِ
وَمَا الْفَخْرُ بِالْعِظَمِ الرَّمِيمِ وَإِنَّمَا فَخَارُ الَّذِي يَفِي الْفَخَارَ بِنَفْسِهِ

وأما الأوصاف ، فلا شك ولا خلاف ، في أنَّ الكلاب ، فضِّلَتْ على كثيرٍ ممَّن لبس الثياب ، وما ذاك إلا لأوصافٍ اختصَّتْها ، وآثارٍ اِقتضَتْها واقتضتْها ، وهي مشهورة ، وعن الكلابِ مسطورة ، ومن جملة محاسنهم مأثورة . وأما الأوصافُ الدنيمة ، فيمكنُ صيورتُها مستقيمة ، وذلك بحسنِ التأديب ، والريَّةِ والتَّهذيب ، والتمرين والتشذيب ، حتى يصيرُ نائبةً مُدَّةً^(١٧١) ، وهذا ليس فيه مُرَّةٌ^(١٧٢) ، ويجتزي بالفاكهة والبطيخ ، عن اللحمِ السليخ ، وبالحزيرِ الشعير ، عن أكلِ لحمِ الحمير ، وناهيك يا أبا رثاب ، ما قيل في الكلاب ، ولا بسني الثياب :

وما ضرَّ أهلَ الكهفِ إيمانُ كلِّهمُ ولكنهم زادوا يقيناً على هدى
وما أفسادُ العلمِ بَلَقَامٌ وهو من بني آدم لَمَّا إِلَى الْأَرْضِ أَخْلَدَا

^(١٦٩) قرآن كريم ، سورة الروم : ١٩ .

^(١٧٠) قرآن كريم ، سورة المؤمنون : ١٠١ .

^(١٧١) شفرة كبيرة .

^(١٧٢) المرية ، بضم الميم وكسرهما : الشك والجدل .

وهذا السلطان ، قد عاهد الرحمن ، أن لا يمزق حيوان ، ولا يذوق لحمان ، وأن يقنع بالكفاف ، ويسلك طريق العفاف ، وما ذاك لعجز يُنسبُ إليه ، ولا لَوْهَن طرأ عليه ، بل سَمَتَ هِمَّتُهُ عن ذلك ترفُّعا ، وسلك طريقَ الملوكِ في إحياءِ هِمَمِهَا ومعاليتها تطبُّعا . "وَيُضِلُّهَا تَبَيُّنُ الْأَشْيَاءِ" . فإن أحببتم كان لكم الحفظُ الأوفر ، وإن امتنعتم "فقد أَعْلَزَ مَنْ أُنْذِرَ" وبلغ مَنْ حَسُرَ ، وما قَصُرَ مَنْ بَصُرَ ، والعاقلُ مَنْ يَبْصُرُ عيوبَهُ ، ويسلكُ من الخُلُقِ الجميلِ دروبَهُ ، وقد قيلَ لِأَمِيرِ النحل ، ذاك الأسدِ الفحل ، كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ ، وجعل له إلى الرضوان أحسنَ وجهه : يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وابنَ عَمِّ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ ، ممن تعلمتِ الأدب ؟ قال : من قليلِ الأدب . يعنى إذا رأيتُ فى أحد ، خلُقاً ذمياً أو صفأً فسد ، بادرتُ إلى افتقارِ نفسى ، وتأمَلْتُ فى حدسى وحسى ، هل أنا مُحَلَّى بِذَلِكَ الوصفِ أم لا ؟ فإن لم يكن ، اجتهدتُ أن لا يكون ، وإن كان ، أبعدُ عنه عرضي وأصون . وحسبك يا ذا الرتبةِ العالية ، استتكاف اللصُّ العاقلُ مِنْ قولِ تلكِ الزاتية . فقالت الخُزُرُ^(١٧٣) للحمامة ، أخبرنى بذلك الاستتكاف يا ذاتِ الكرامة .

[٩/٦] قصة توبة بعض الشُّطَّارِ بسببِ امرأةٍ بُغِيٍّ

قالت الحمامة : ذكر رِوَاةُ الْأَخْبَارِ عن شاطرٍ من الشُّطَّارِ ، قد بلغ فى الشُّطَارَةِ ، واللصوصية غاية المَهَارَةِ ، يسرق الوهمُ من الخاطر ، والرائحةُ من الطيبِ العاطر ، والنومُ من أحفانِ الوسنان ، واللماطة^(١٧٤) من أسنانِ الجيعان ، ويأتى على كوامنِ الغيوب ، فضلا عن خزائنِ الجيوب ، ويلف الرغيص والغالى ، والوضيع والعالى ،

(١٧٣) الخُزُرُ : لبناء الأرواب ، والمراد هنا ذكر الأرتب ورييسها والمتحدث باسمها .

(١٧٤) اللماطة : بقايا الطعام الذى يتجملل الأسنان .

وقد أعجز المقلّم^(١٧٥) والوالى . ففى بعض الأوقات ، قصد جهةً من الجهات ، فبينما هو فى المناهضة والمناهزة ، غشيّه الوالى مع العسس^(١٧٦) والجلالوزة^(١٧٧) ، ومعهم امرأةٌ بغيّ ، قد خرجت عن الصراطِ الميوى ، وهم يضربونها ، وعلى أفطعِ حالةٍ يسجونها ، وهى تستصرخُ للمسلمين ، وتستغيثُ أئمةَ الدين ، فلما أحسنَ اللصُّ بهم ، نكب عن دربهم ، ولأهم عطفه^(١٧٨) وانزوى فى عطفه^(١٧٩) ، وانتظر حتى يمرّوا ، فسمع المرأةَ وهم بها قد أضربوا ، وهى تصيحُ بلسانٍ فصيح ، وتقول : يا أهلَ الإسلام ، وأمةَ خيرِ الأنام ، أنجلدونى ، وارحمونى ، واسعدونى ، لا سرقتُ ولا نقتب ، ولا اختلست ، ولا سلبت ، ولا طمعتُ فى مالِ أحلٍ ولا نهيت ، ولا وقفتُ لأحدٍ فى درب ، وإنما أستتفُّ من حاصلِ دارِ الضرب ، وذلك ملكي وحوزي وثمره لوزي وجوزي ، بإشارةٍ سهامِ الحاطي الملوّزة^(١٨٠) ، من قيسيّ حواجبٍ بالجمالِ متوّزة^(١٨١) وسفارةٍ نظامِ ألفاظي المعززة ، المشبه بابِ طريقها ثوراً فى العقيقِ والرقيق مغرزة ، فمالى على أحدٍ ثقل ، ولا طمعتُ فى مالِ أحد ، فيحصل له منى ملل .

فلما سمع قاصدُ الحرامِ هذا الكلامَ أفاق ، وصفا خاطره وراق ، وتنبه لقبح صنّعه ، وأنّ الزواني تأنفُ من حرفته ، وتستكفُ مما هو مفتخرٌ بفضيلته . فقال :

(١٧٥) وليس الشرط .

(١٧٦) العسس ، مفردا عاسّ ، وهو من يظوف بالليل يجرس الناس ، ويكشف أهل الرية .

(١٧٧) الجلالوزة ، واحدها جلواز وهو الشرطي .

(١٧٨) مال بهاتيه متزويّاً عنهم ، متمسكاً عليهم فى الوقت نفسه .

(١٧٩) عطفه : معطف .

(١٨٠) للورّ : الحسن للملح .

(١٨١) متوّزة : جمالها طيبي وخيلقة .

لَعَنَ اللَّهُ فَعَلًا تَتَّقَصُّهُ الْخَوَاطِي ، وَتَبًا وَسُخْفًا لِمَتَاعِيهِ مِنْ مَتَاعِي (١٨٢) ، ثُمَّ عَاهَدَ
اللَّهُ التَّوَّابَ ، وَرَجَعَ إِلَيْهِ عَنْ صِنْعَةِ الْحَرَامِ وَتَابَ .

وإنما أوردت هذه المناقب ، يا شيخ الأرناب ، لتعلم أن العاقلَ مَنْ يَتَصَفَّحُ حَرَائِدَ
أَعْمَالِهِ ، وَيَتَأَمَّلُ صَحَائِفَ حَرَكَاتِهِ وَأَحْوَالِهِ ، وَأَنْ هَذَا الْمَلِكُ صَفَى شَرَابِ صِفَاتِهِ ،
مِنْ كُدُورَاتِ الْهَوَى بِرَاوِقِ الْمِرَاقِبَةِ ، وَنَقَى رِيَاضَ ذَاتِهِ مِنْ شَوْكِ الْأَخْلَاقِ الذَّمِيمَةِ
بِمَنَاشِئِ الْمَعَاتِبَةِ ، بِقَدْرِ طَاقَتِهِ وَإِمَكَانِهِ ، وَهُوَ مُشَاهِرٌ عَلَى ذَلِكَ فِي غَالِبِ أَزْمَانِهِ ،
وَلَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وَسْعَهَا ، وَلَيْسَ لَكَ أَنْ تَعْتَرِضَ بِأَنَّ النَفْسَ لَا تَغَيِّرُ طَبِيعَهَا ،
وَلَيْسَ الْأَكْمَةُ (١٨٣) كَالْأَرْمَدِ ، وَلَا السُّطَيْحُ كَالْمَقْعَدِ ، وَلَا سَحْبَانُ (١٨٤) كِبَاقِلُ (١٨٥) ،
وَلَا الْعَاقِلُ كَالْمُتَعَاوِلِ "لَيْسَ التَّكْحُلُ فِي الْعَيْنَيْنِ كَالْكَحْلِ" (١٨٦) وَتُخْرِجُ يَامَسْكِينِ ،
بِوَاقِعَةِ السُّلْطَانِ مُحَمَّدِ بْنِ سَبِكْتِكِينَ (١٨٧) مَعَ وَزِيرِهِ حَسَنِ الْمِيمَنْدِيِّ ، بِسَبَبِ الْقَضِيَّةِ
الْوَاقِعَةِ لِابْنِ الْجَنْدِيِّ . فَسَأَلَ أَبُو عَكْرَشَةَ أَبَا عَكْرَمَةَ عَنْ هَذِهِ الْوَاقِعَةِ ، لِيُتَبَيَّنَ مِنْ
التَّمَثِيلِ مَوَاقِعَهُ .

(١٨٢) إنتظر كتابنا : حكايات الشطار والعيارين ، الطبعة الثالثة ، الناشر : مكتبة ذات السلاسل ، الكويت .

(١٨٣) الأكمة : الأعوى .

(١٨٤) سحبان : ضرب به المثل في البيان والفصاحة ، فقيل : أبلغ من سحبان ، وذلك في الجاهلية .

(١٨٥) باقل : ضرب به المثل في الهيبة ، فقيل : أعيا من باقل ، وذلك في الجاهلية .

(١٨٦) يعني أن التطيع ليس كالطبع .. فالطبع دائما غلاب .

(١٨٧) بين الدولة محمود بن ناصر الدولة سبكتكين ، يعدد للمؤسس الحقيقي للدولة الغزنوية وقد تولى الحكم سنة

٣٨٨ هـ / ٩٩٨ م .

[١٠/٦] حكاية السلطان محمود بن سبكتكين مع وزيره

فقال إن السلطان محمود ، ذا الطالع المسعود ، الذى فتح بلاد الهند ، جرى بينه وبين وزيره مباحثة ، وقع فيها عن دقيق العلوم مناقشة^(١٨٨) ، فى أن الطباغ هل تقبل التغيير ، أم لا تستحيلُ عما جَبَلَهَا عليه الفاطرُ الخبير ؟ فقال الوزير : نعم تقبلُ التغيير ، بواسطة التأديب ، وحسن التشذيب والتذهيب ، وقد شاهدنا الطباغ ، من الحوش والسباع ، بواسطة التعليم ، تركت الخُلُقَ الذميم ، واكتسبت الوصفَ المستقيم . فجرباُ هذا الإمكان ، أخرى أن يوجدَ فى جنس الإنسان . فقال السلطان المظفر : لا تتحوَّلُ الطباغُ ولا تتغير ، ولا يمكن صرفُها عما جَبَلَتْ عليه ولا يُتَصَوَّر . قال مَنْ ليس فى كلامه اشتباه ﴿فَطَرَهُ اللهُ التِّى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ﴾^(١٨٩) وقال القائل : "وتأبى الطباغُ على الناقل" واستمر هذا الكلام ، بينهما عدَّةُ أيام ، إلى أن ركب السلطان ، وقصد السيران ، والوزيرُ فى ركابه ، بين خدمه وأصحابه ، فرأيا من بعد ، شاباً من أولادِ أحدِ الجنود ، وهو جالس ، على فرع شجرة يابس ، يريد قطعه ، لَمَّا عَدِمَ نَفْعُهُ ، وقد جعل ظهره إلى طرف الفرع ، وهو عمال بالمنشار فى أصله للقطع . فتأمل السلطان والوزير ، فى هيئة ذلك الظلي الغرير ، ثم قال السلطان للوزير بين الأعيان : وطبعُ هذا أيضاً داخلٌ فى الإمكان ؟ وهو يقبل التغيير والتعليم ؟ ويمكن استحاله بالتأديب والتفهيم ؟ فلم يجزِ الوزير جواباً ، لا خطأ ولا صواباً ، ثم أشار إلى بعضِ حوَّله^(١٩٠) ، أن يذهبَ بذلك الشاب إلى منزله .

(١٨٨) المناقشة : المباحثة والمجادلة ، يقال نبت عن الأمر : بحث عنه وأظهره .

(١٨٩) قرآن كريم ، سورة الروم : ٣٠ .

(١٩٠) أتباعه وحشمه .

فلما نزل من الركوب ، أحضر ذلك الشاب المرعوب ، الغافل المحبوب ، ثم طلب له مؤذبا ، حاذقا مهذبا ، وأمره أن يجتهد في تعليمه ، ويسأل في تأديسه وتقويته ، ويوقفه من العلوم على دقائقها ، ويسلك به إلى خفايا طرقها وطرائقها . فاشتغل بتربيته ليلاً ونهار ، وبذل مجهوده في ذلك سراً وجهاراً ، إلى أن برع في أنواع العلوم ، وضبطها من طريقي المنطوق والمفهوم . ولما فرغ من العلوم أدناها ، وأنهاها من مبتدئها إلى منتهاها ، شرع به في علم إدريس ، وهو علم النجوم النفيس ، واستطرد منه إلى علم الرمل المنير ، وتوسل به إلى أن توصل إلى إخراج الضمير . فأتقن هذه العلوم ، لاسيما إخراج الضمير الموهوم .

فلما أتقن ذلك ، وسلك فيه أدق المسالك ، أحسن الوزير إليه ، واستصحبه إلى الملك ودخل به عليه ، فقبل الأرض ، وأدى من شرائط الخدمة النافلة والقرض ، وقال للسلطان محمود : إن هذا هو ذاك الشاب المعهود ، وقد برع في العلوم ، ووصل إلى استخراج الضمير المكتم ، وقد بُدلت بلادته بالذكاء ، وصار فؤاده كإبريق ذكاء^(١١١) ، فإن اقتضت الآراء السلطانية سبرته ، واعتبرت فهمه بعدما اختبرته . فادخل السلطان يده في كُمة ، ونزع خاتمه من بُصمه^(١١٢) ، وأطبق يده عليه ، ليُسبرَ منتهى عمله ، وينظر ما قاله الوزير في كيفية هذا التبديل والتغيير ، ثم أخرج يده من كُمة ، وقال ليظهر نتائج عمله : ليخبرنا بما في كُفي ، وعن حواس العيون مخفي . فتقدم الشاب ، ورفع الأضطراب^(١١٣) ، ووضع أوضاع الحساب ، وخط ذلك النقي ، أشكال الحيان والنقي وسائر الأوضاع ، من الطريق

(١١١) ابن ذكاء : الصبح . يعنى صار فؤاده شيراً بالعلم .

(١١٢) الجسم : فوت ما بين طرف الخنصر إلى طرف البصر .

(١١٣) الأضطراب أو الأسطراب : جهاز استعمله المتقدمون في تعيين ارتفاعات الأجرام السماوية ، ومعرفة الوقت والجهات الأصلية .

والاجتماع ، ثم نظير وسير ، وعبس وبسر^(١٩٤) ، وقدر واقتكر ، وقال : دَلَّ
الشكل والله أعلم ، أن ما حواه الكفُّ المكرم ، شيءٌ من المعادن ، محفوفٌ
بَسُودٍ^(١٩٥) أو سوادٍ بائن ، وهو فى أفضلِ الأشكالِ لأنه مستدير ، وفى أحسنِ
الألوانِ لأنه مستدير ، وفى دائرته قُطْرٌ ومركز ، وفى وسطه ثُقْبٌ مَغْرَزٌ ، وهو
ثَقِيلٌ : إما فى الثمن ، أو فى التحميل ، ثم تأمل بعد الوقوف ، فى أن هذا
الموصوف ، ماذا يكون ؟ فقال : كان والله أعلم فردة طاحون ! فضحك السلطان
الكبير ، ونحجل لذلك الوزير ، ثم قال السلطان ، أبى الله وله السُّبحان ، أن يكون
باقِل كسحيان^(١٩٦) .

إذا كان الطَّبَّاعُ طِبَّاعٌ سَوِءٌ فليس ينافى أَدَبُ الأديبِ

وإنما أوردت هذه المسائل ، لئلا يعترض قائل ، ويستدل بمثل هذا الدليل ، على
أن الطَّبَّاعَ لا تقبلُ التَّغْيِيرَ والتَّحْوِيلَ . بل الطَّبَّاعُ تَغْيِيرٌ^(١٩٧) ، "ومن ذا الذى يا عَزُّ لا
يتغير" ، فسبحان من يحول ولا يزول ، الذى وضع عالم الكون على الانتقال
والحللول ، وكلَّ جلالِ عظمته مُخْبِتٌ^(١٩٨) ، بحق^(١٩٩) ما أراد وَيُثَبِّتُ^(٢٠٠) ،
ويعمحو ما يشاء وَيُثَبِّتُ^(٢٠١) . ومذهبُ أهلِ الثبات ، فى الخَوِ والإثبات ، أن الكافرَ

^(١٩٤) يسر : أظهر العبرس والتجهّم .

^(١٩٥) سَوَدٌ : مخفف سَوَدَد .

^(١٩٦) باقل يضرب اللؤلؤ فى المعى ، وسحيان يضرب به اللؤلؤ فى البلاغة ، وكلاهما من العصر الجاهلى .

^(١٩٧) إذا كان صاحبها ذا نظرة سليمة قابلة للتعلم . وهذا هو رأى المؤلف ، لأن سُنَّةَ الكون ، وطبيعة الحياة
قائمَتان على التَّغْيِيرِ والتَّحْوِيلِ .

^(١٩٨) خاضع خاضع مطيع .

^(١٩٩) بحق : يهلك ويبيد .

^(٢٠٠) يُثَبِّتُ : يثبت عند الشدة .

^(٢٠١) يُثَبِّتُ : يقر ويحقق ويصحح .

قبلَ الإسلام ، كافرٌ عندَ الملكِ العلام ، وبعد ما انخرط فى سلك المؤمنين ، صار مؤمناً عند ربِّ العالمين . وعلى هذا التقدير والتقرير ، أيها الفاضلُ الكبير ، والعالمُ النحرير ، فالملكُ يسار ، نظر بعين الاعتبار ، وتنصّل من رذائل الأوصاف ، وتخلّق بأخلاق الأشراف ، من التلبّس بالعدل والإنصاف ، ولولا نيّته الصالحة ، ما صارت صفّته فى المبايعة رابحة ، ولا كانت كفّة فضيله راجحة ، ولا زابله النكد ، ولا أطاعه أحد ، والأعمال بالنيات ، وعلى مقدار النيات العطيات . وجنسُ هذا الملك ، فى الأوصاف المتباينة مشترك ، فإنه قد جمع بين خصائص الحيوان ، حتى كأنه سبعٌ بهيئة إنسان ، كما قيل :

جَمَعَ الْكَلْبُ فى خِلَاةِ صِفَاتٍ فَهُوَ سَبْعٌ بِهَيْئَةِ الْإِنْسَانِ
وكما قيل أيضاً :

يَكَاذُ إِذَا مَا أَبْصَرَ الْعُتِيفَ فَقِيلًا يُكَلِّمُهُ مِنْ حُبِّهِ وَهُوَ أَعْجَمُ
وأنا يا مولاي ، أعرضُ عليكم هذا الراي ، وهو شاهدٌ عدلٌ ، وحكّم فصل ، وهو أن يقع الاتفاق ، على واحدٍ منكم مِنْ خُلُصِ الرِّفَاقِ ، مَنْ تَحَقَّقَتْ حَسَنَ آرائِهِ ، وَصَدَقَتْ فِي أَنْبَاءِهِ ، وَصَحَّةِ دِينِهِ ، وَرِصَانَةِ عَقْلِهِ وَبِقِيَّتِهِ ، فَأَنْطَلَقُ فى رِكَابِهِ ، إِلَى حَضْرَةِ الْمَلِكِ وَجَنَابِهِ ، فَيَكْتَحِلُ بِأَنْوَارِ طَلْعَتِهِ ، وَيَشْمَلُهُ مَيَّامِنُ رُؤْيَتِهِ ، وَيَطَالُعُ جَمِيلَ صِفَاتِهِ ، لِيَسْكُنَ إِلَى فَضِيلِ حَرَكَاتِهِ ، وَيَتَقَبَّلَ مِنْ عِلْمِ الْيَقِينِ ، إِلَى عَيْنِ الْيَقِينِ ، فَيَزُولُ بِالْيَقِينِ الشُّكُّ ، وَيُظْهِرُ خِلَاصَةَ النِّهَابِ بِالْحُكِّ . ثُمَّ يَأْخُذُ لَكُمْ الْعَهْدَ وَالْمِيثَاقَ ، بِمَا يَقَعُ عَلَيْهِ الْإِتِّفَاقُ ، وَمَا تَرْضَوْنَهُ وَتَرْوُنُهُ مِنَ الصَّوَابِ ، وَيَرُدُّ عَلَيْكُمْ بِذَلِكَ الْجَوَابَ ، فَإِنْ وَافَقَ قَصْدَكُمْ ، تَوَكَّدُونَ عَلَيْهِ عَهْدَكُمْ ، وَتَتَوَجَّهُونَ بِقُلُوبِكُمْ مَطْمَئِنَّةً ، وَخَوَاطِرَ فِي حَصُولِ الْمِرَامِ مُسْتَكِنَّةً ، وَإِلَّا قَرَرْتُمْ رَأْيَكُمْ ، فِيمَا عَلَيْكُمْ وَمَا لَكُمْ .

فاستصوبوا هذا الرأي واستعرضوه ، واستعذبوا لطيف معناه واستحسنوه ، وانتدبوا لهذا الأمر الخطير ، مَنْ يصلح أن يكونَ عند الملوك السفير ، فوجدوا ظيباً طيب العناصر ، قد عقدت على غزارة فضله الخناصر ، من أعقل الجماعة وأذكاهما ، وأحسنها رأياً وأدناها . فقللوه الزعامة ، وأرسلوه مع الحمامة ، على أن يجتمع بالملك يسار ، ويعاهده على ما يقع عليه الاختيار ، ثم يسمع أقواله ، ويشاهد أفعاله ، ويميز أحواله ، ثم يرد عليهم الجواب ، فيميزوا ما فيه من خطأ وصواب ، فينبوا عليه ، ويرجعوا إليه . فتوجه الظبي والحمامة ، مستصحبين الأمن والسلامة . فلما قربت الديار ، سبقت الحمامة إلى خدمة الملك يسار ، وأخبرته بصورة الأخبار ، وأن الظبي في العقب ، مقبل بما يحبه الملك ويجب . فأمر الملك الوزير ، أن يتلقى الظبي الغرير ، مع جمع الطير الكثير ، فتقدم الوزير وقال : أسأل مولانا الملك المفضل ، إن صدر من هذا القاصد خطاب ، أن يُشار إليّ برّد الجواب ، فإنّ ذلك أعلى للحرمة ، وأدنى للحشمة ، وأقوى لناموس الملك والرياسة ، وأزهي لطاووس السوق^(٢٠٣) والسياسة ، فإن كان ذلك الجواب ، متحلياً بحيله بعقود الصواب ، كانت سعادة الملك الملهمة ، وفي خدم الملك مَنْ تصدّى للأمر وأبرمه ، فإن خرج عن طريق الجادة ، فلا يُنسب إلى الملك تلك المادّة ، بل يتلقاه الملك بكرمه ، ويكون الخطأ منسوباً إلى خدمه ، فأجابه إلى ما سأل ، وتقدم الوزير للملاحقة مع سائر الخوّل^(٢٠٤) ، فتلقوا الظبي بالترحاب ، وفتحوا في وجهه للكرامة أوسع باب ، ومشوا معه حتى وصل إلى الحضرة ، وشاهد تلك الحشمة والنضرة^(٢٠٥) .

(٢٠٣) التماطم والارتقاع والمجد .

(٢٠٤) الأكياع والحشم .

(٢٠٥) النضرة : النعمة والروث .

فَقَبِلَ الْأَرْضَ وَوَقَفَ ، وَعَرَفَ مَقْدَارَ الْمَلِكِ وَاعْرِفَ ، وَأَدَّى الرِّسَالَةَ ، وَيُسِّنَ
لِلْمَلِكِ مَا فِيهَا مِنْ رِقَّةٍ وَجَلَالَةٍ ، فَقَابَلَهُ الْمَلِكُ بِمَا يَلِيقُ بِحِشْمَتِهِ ، وَأَجْلَسَهُ بِالْقُرْبِ
مِنْ حَضْرَتِهِ ، وَخَاطَبَهُ بِمَا أَذْهَبَ دَهْشَتَهُ ، وَأَنَسَهُ عَلاَظِفَاتِ جِلَّتْ وَحِشَتَهُ ، وَسَأَلَهُ
عَمَّنْ خَلْفَ رِوَاءِهِ ، وَاسْتَقْصَى فِي التَّفْحُصِ أَحْوَالَهُ وَأَنْبَاءَهُ ، فَبَلَّغَ عِبُودِيَّتَهُمْ
وِطَاعَتَهُمْ ، وَأَنَّ الْإِخْلَاصَ وَالطَّاعَةَ شَمَلَتْ جَمَاعَتَهُمْ ، وَفَتَحَ فَمَ الدَّعَاءِ بِلِسَانٍ ذَلِكُ ،
وَخُطَابِهِ طَلِقُ ، وَكَلَامِهِ غَيْرُ مَعْقَدٍ وَلَا قَلْقٍ ، وَأَطَالَ فِي الدَّعَاءِ ، وَأَطْنَبَ فِي الشُّكْرِ
وَالنِّثَاءِ ، وَسَأَلَ شَمُولَ الْمَرَّاحِمِ ، وَكَفَّ كَفًّا لِلْمُتَعَدِّي وَالْمَرَّاحِمِ ، فَإِنَّهُمْ انْبَسَطُوا
وَانْشَرَحُوا ، وَابْتَهَجُوا بِاسْتِيلَاءِ هَذَا الْمَلِكِ وَفَرَحُوا ، وَشَكَرُوا اللَّهَ النِّعْمَةَ ، وَأَنَّى
يَفُؤْنَ بِشُرُوطِ الْعِبُودِيَّةِ وَالْخِدْمَةِ . ثُمَّ سَأَلَ أَخَذَ الْمِثَاقَ ، وَتَأَكَّدَ الْعَهْدَ بِالْإِثْقَاقِ ،
بِالْأَمَانِ وَالْإِطْمِئْنَانِ ، لِمَنْ رِوَاءَهُ مِنَ الْوَحُوشِ وَالْغَزَلَانِ ، فَأَعْطَاهُم الْأَمَانَ ،
وَشَمَلَهُمْ بِالْإِحْسَانِ ، عَلَى أَنَّ لَا يُرَاقَ لَهُمْ دَمٌ ، وَلَا يُهْتَكَ لَهُمْ حَرَمٌ ، وَإِنَّهُمْ يَرْعُونَ
حَيْثُ شَاعُوا ، وَيَسْرَحُونَ حَيْثُ ذَهَبُوا وَجَاؤَا . وَأَنَّ الْمَلِكَ يَسَارُ ، حَاكِمَ سُلُوقِ
وَزَغَارِ ، وَخَلِيفَةَ بَرَاقِ وَكُوبَاكِ وَالتَّارِ ، قَدْ عَاهَدَ الْمَلِكُ الْجَبَّارُ ، أَنَّ لَا يَتَعَرَّضَ
لَوْحِشِ الْقَفَّارِ ، وَلَا لِأَحَدٍ مِنْ أَجْنَاسِ الْأَطْيَارِ ، حَتَّى وَلَا لِحَيْتَانِ الْبَحَارِ ، وَلَا يَرِيقَ
لَهُمْ دَمًا ، وَلَا يَقْصِدَ لَهُمْ أَذًى وَلَا أَلَمًا ، وَيَرْضَى جَانِبَهُمْ ، وَيَقْضِي مَأْرَبَهُمْ ، وَيَحْفَظُ
شَاهِدَهُمْ وَغَائِبَهُمْ ، وَيَمْتَنِعُهُمْ مِنْ مَنَاقِبِهِمْ^(٢٠٥) ، وَلَا يَسْلُطُ عَلَيْهِمْ مَنْ يُؤْذِيهِمْ ، مَا
دَامُوا تَحْتَ طَاعَتِي ، وَفِي جَوَارِي وَذِمَّتِي .

فَقَبِلَتْ الْغَزَالَةُ ، بِشِفَاءِ الْعِبُودِيَّةِ خَدَّ الْجَدَالَةِ^(٢٠٦) ، وَقَالَتْ : هَذَا كَانَ الْمَأْمُولُ ،
وَجَلَّ الْقَصْدُ مِنَ الصَّدَقَاتِ وَالْمَسْئُولِ ، وَالَّذِي جِيءَ لِأَجْلِهِ ، فَقَدْ حَصَلَ مِنْ

^(٢٠٥) عَتَقَهُ مِنْ مَنَاقِبِهِمْ ، أَيْ عَصَمَهُمْ .

^(٢٠٦) الْأَرْضُ (النَّاعِمَةُ) .

صلاقات الملك وفضله . ولكن العلم العالي ، محيطٌ بأنَّ وحوشَ اليسيطِ أُنواعٌ ضعاف ، ليس بينهم ائتلاف ، وهم طوائفٌ كثيرٌ الاختلاف ، أجناسٌ متفرقة ، وأنواعٌ متمزقة ، ليسوا كقطائع الغنم مُجتمعين ، ولا كحُشائر الخيل مُمتنعين ، ولا بعضهم لبعض مُتبعين . ثم لم تزل العداوةُ بينهم قائمة ، وعيونُ الصلح والاتفاق عنهم نائمة ، لا يضبطُهم ديوان ، ولا يحصرُهم حسابان ، ولا يمنعُهم من التعدي سلطان ، القويُّ يكسر الضعيف ويمزقه ، والشاكي يستطيلُ على الأعزلِ ويفرقه ، ولأجل هذا لمعنى ، لا يمكنُ اجتماعُهم في معنى ، بل البعضُ في قُللِ الجبال^(٢٠٧) متوطنٌ ، والبعضُ في سرب التلال متحصنٌ ، والبعضُ متشبثٌ بنيلِ الكهوف والمغارات ، والبعضُ في سرب الآجام^(٢٠٨) والأكام^(٢٠٩) خوفُ الغارات ، وكلُّ يخافُ حلولَ البلاء ، قد اتخذَ لذلك القاصعاء^(٢١٠) والناقعاء^(٢١١) ، واستعدَّ يفتنون الكيد ، خوفاً من جوارح الصيد . وإذا كان الأمرُ كذلك فاجتماعُنا متعسر ، وحفظُنا في الملك غيرُ متيسر ، فلا بدَّ من ترتيبِ قاعدة ، تُعْمُ منها جميعُ الوحوشِ الفائدة ، ويشملُ أمُها غائبَ الملك وشاهدَه ، وإلاَّ فالحاضرُ ليس بآمن ، وقلبُ الغائبِ غيرُ مطمئنٌ ولا ساكن ، فليفتكر للرعية في ضابطة ، تكونُ الحرمةُ فيها للقريب والنائي باسطة .

فالتفت الملكُ للوزير ، وقال : أحبُّ هذا السفير . فقال الزنيم : يا أحسنَ ريم ، هذه الأفكار ، من قصور الأنظار ، وعدمِ التأملِ والاستبصار ، وإلاَّ فإن السلطان ،

^(٢٠٧) قُللِ الجبال : قممها وأعلامها .

^(٢٠٨) الآجام : الأشجار الكثيرة الملتفة .

^(٢٠٩) الأكام : التلال .

^(٢١٠) القاصعاء : شجر يحفره اليربوع أو نحوه .

^(٢١١) الناقعاء : شجر اليربوع أيضا .

في كل مكان ، كلمته عليا ، وجوده كالشمس في الدنيا ، فكما أن الشمس إذا استوت ، وعلى سرير كبد السماء احتوت ، عمّ قَيْضُ شُباعِها الجبالَ والأكام ، والتلالَ والآجام ، وانتشر على البحرِ والسر ، واشتهر على الفاجرِ والبرِّ ، فَرِيتُ الأزهارُ والأثمار ، وشَبَّتْ مشاعِلُ الكَلالِ في القفار ، وطبخت الغلالُ وفواكة الأشجار ، وصبغت في كوامنِ المعادنِ جواهرَ الأحجار ، كما قيل :

كالشمسِ في كبدِ السماءِ محلُّها وشعاعُها في مَنائرِ الإفِاقِ

كذلك الملكُ العظيم ، إذا انتشر صيبت^(٢١٢) عظمته وعدله في سائر الأقاليم ، شمل فضله الشريفَ والوضيع ، وبلغ جودَ جودهِ الدنيِّ والرفيع ، وردع عدله الطائعَ والعاصي ، ووسَّعَ نواله الداني والقاصي ، وإنه كالغمامِ الصَّيبِ الصَّيبِ^(٢١٣) ، على الربيعِ الخصبِ ، والدمية^(٢١٤) للمطبة ، والمزنة^(٢١٥) للمغنية ، إذا انتشرت في الآفاق ، وصارت لأمِّ عهدٍ عاهديها للاستغراق ، فروت الحضيضَ والبقاع ، وعمت الوهادَ والتلالَ والتلاع^(٢١٦) ، وخاطبها ظمآنُ الرياض ، وعطشانُ الغياض :

انظُرْ عليَّ سحابَ جودِكَ مرةً وانظُرْ إليَّ برحمةً لا تحرقُ

هذا ومتى انتشر في الأطراف ، أنكم التجأتُم إلى هذه الأكتاف ، وتطرَّزَ بشمولِ الصلقاتِ السلطانية ، مِن مَلابسِ طاعتِكُم الطُّرافِ والأطرافِ ، منعت العواطفُ الملوكية ، والخواطرُ الشريفةُ السلطانية ، عوادي للعادي ، وكفَّتْ أكفُ المَصَادِمِ

(٢١٢) الصَّيْتُ : الذَّكْرُ الحَسَنُ .

(٢١٣) السحاب ذو الصَّوْب ، أي المطر الغزير .

(٢١٤) الدمية : المطر يطول نزوله في سكون .

(٢١٥) المزنة : السحابة تحمل الماء .

(٢١٦) التلاع : واحدا تلة وهي ما يرتفع من الأرض ، ومسيل الماء .

والمُصادي ، فلا يجترئ أحدٌ على التعرُّضِ لكم ، ولا يخطرُ ببالِ مُخالفٍ أن يقطعَ سبيلكم .

قال الرسول : الأمر كما يقول ، مولانا الأمير ، وما أحسنَ هذا التقرير ، ولكن مع المراحم السلطانية ، وصدقاتِ العواطفِ الملوكية ، وحُسنِ الطَّوْفَةِ ، وإحسانِ النية ، فلا بد للسياسة ، وضبطِ الرياسة ، وقواعدِ الملك في الحراسة ، من ضابطٍ يبي عليه الملكُ لأمره أساسه ، لا يتميز به كبيرٌ دونَ صغير ، ولا يختصُّ برعايته جليلٌ غيرَ حقير ، فإن من أحسنِ أوصافِ الملوكِ والأكابر ، أن لا يففلوا عن تفقُّدِ أحوالِ الصعاليكِ والأصاغر ، ولا يقتصروا في ذلك على نوعٍ دونَ جنس ، كما يفعلُ لغلبةِ الهوى بعضُ حُكَّامِ الإنس ، مع أنهم مسؤولون عن جليلها وحقيرها ، ومحاسبون على كبيرها وصغيرها . وفي شأنهم قد قال مَنْ في ضبطِ حركاتهم وملكاتهم استقصاها ، ووضع الكتاب ﴿قَتَرَى الْمُحْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾^(٢١٧) وقد تنبَّه لهذا الفعل الرجيح ، أيها الوزيرُ النصيح ، والمنطوق^(٢١٨) الفصيح ، أنوشروان وهو من الكفار ، واشتهر عنه قضية الحمار ، فسأل الوزير ، بيان هذا التقرير .

[١١/٦] كسرى أنوشروان مع الحمار المظلوم

فقال الريم ، بلغنا أيها الكريم : أن أنوشروان ، بالغ في نشرِ العدلِ والإحسان ، ومعاملةِ الرعية ، كبيراً وصغيراً بالسوية ، وبذل في ذلك جُهدَه ، واستنهض

^(٢١٧) قرآن كريم ، سورة الكهف : ٤٩ .

^(٢١٨) المنطوق : البليغ .

لمساعدته وكُذِّبَ^(٢٢١)، واعتُشِيَ^(٢٢٠) أن يُمنَحَ المظلُمُ الفقير، الأبوابَ بسبب حاجبٍ أو كبير، لغرضٍ أو عرض، أو ارتشاءٍ مَنْ في قلبه مرض، فيمشي مدلَّسُ الراطيل^(٢٢٢)، من خوفِ الأباطيل، ويُضَيَّعُ بحثُ صارخِ الحقِّ في أوقاتِ التعطيل، فأدَّاهُ قائدُ اجتهاده، وانتهى به رائدُ مراده، إلى أن يعقَدَ في طاقِ مبيته، ويجتمع خاطره عن تشتيته، من محاذي السرير، حبلاً من الحرير، ويربطُ طرقَهُ الأذني في حلقة الباب، حيث لا حاجبٌ ولا بواب، وهو مكانٌ يجتمع الجمهور، ولا يُمنَعُ أحدٌ فيه من الوقوف والمروء، وأن يشدَّ فيه أجراس، من خالصِ الذهب لا النحاس، بحيث إنه إذا حَرَكَ الحبل، صَوَّتَتِ الأجراسُ صوتاً أُنْخَسَ من الطبل. ثم أمر منادياً أن يرفعَ صوتاً عالياً، بأنَّ مَنْ كان شاكياً، فعليه بتحريكِ ذلك الحبل، ليَقَعَ الظالمُ في الكَيْلِ^(٢٢٣)، أو ينتصر المظلومُ من بعد ومن قبل، فاشتُهرت هذه العادة، ونال بها في الدنيا السعادة، وعظُمَ صيته، وحمدتِ عفاريته، وانتصفت صفاريته^(٢٢٤). ففي بعضِ الظهائر، عند قائلة الهواجر، وأنوشروان في مبيته قد طاب، اضطربت الحبلُ والأجراسُ أشدَّ اضطراب، فَفَزَّ أنوشروان مذعوراً، وتصورَ الحركَ مظلوماً مقهوراً، فابتدر بطلبه، لينظرَ في ظلمه وسببه، فتبادروا إلى إحضاره واستكشافِ أخباره، وإذا هو حمارٌ حَرِبَ، جنبٌ جسمه من الجرب حَرِبَ، ومُنَّ ظهريه من الحكَّةِ نُقِبَ، وقد هَدَّ عمارةَ عمره هادِمُ الهرم، وألْهَبَ حشيشَ حُشاشيته من الجوعِ ماضي الضَّرَم، يُحْمَلُهُ صاحِبُهُ ما لا يطيقه، ويقطعُ

(٢٢١) كُذِّبَ: السمي ولا جهد.

(٢٢٠) اعتُشِيَ: عاف وخشي.

(٢٢٢) الراطيل جمع راطيل، وهو الرشوة والبطلة.

(٢٢٣) الكَيْل: القيد.

(٢٢٤) صفاريته: شياطينه.

عنه قوته وعليه ، يوذيه ولا يداويه ، ويدور به ولا يداريه . فطلب مَالِكُهُ وَعَتَبَهُ ، ثُمَّ زَجَرَهُ وَضَرَبَهُ ، ثُمَّ أَمَرَ بِالْبَدَاءِ فِي الْأَسْوَاقِ ، وامتد ذلك حتى بلغ الآفاق ، وعم الضواحي والرزداق^(٣٢٤) ، أَنْ يُسَلِّكَ بِمَا مَلَكَتِ الْيَمِينُ الْأَرْفَاقَ^(٣٢٥) ، وَلَا يُقْتَرَّ عَلَيْهَا فِي الْإِنْفَاقِ ، وَكُلُّ مَنْ عِنْدَهُ دَابَّةٌ قَدْ اسْتَعْمَلَهَا فِي صَبَاها ، وَاسْتَوْفَى فِي خِدْمَتِهِ قَوَاهَا ، يِرَاعِي حَقَّوقَهَا إِذَا كَثُرَتْ ، وَلَا يَضْيِغُ مَا قَدَّمَتْ بِمَا أَخَّرَتْ . وَصَلَّكَ وَجْهَ ذَلِكَ الرَّجُلِ صَكًّا^(٣٢٦) ، وَكَبَّ عَلَيْهِ بِفَرَضِ حِمَارِهِ صَكًّا^(٣٢٧) .

وَإِنَّمَا ذَكَرْتُ هَذَا الْمَثَالَ ، فِي مَعْرُضٍ مَا يُقَالُ ، مِنْ أَنَّ عَدَلَ السُّلْطَانِ ، خَيْرٌ مِنْ حَيْصَبِ الزَّمَانِ . وَأَيْضاً فَإِنَّ قَصْدَ الْمَلِكِ إِذَا كَانَ صَالِحاً ، كَانَ أَمْرُهُ فِي جَمِيعِ الْأَزْمَانِ نَاجِحاً ، وَسَخَّرَ اللَّهُ لَهُ مَنْ يَرْشُدُهُ إِلَى قَصْدِهِ ، وَيَعِينُهُ عَلَى أُمُورِ شَعَائِرِهِ وَيُحْيِي ذِكْرَهُ مِنْ بَعْدِهِ ، وَتَدْرُ عَلَى يَدِهِ سَحَائِبُ الْبَرَكَاتِ ، وَيَجْرِي مِنْهَا عَلَى غَيْرِ قَصْدِهِ أَبْحَرُ الْخَيْرَاتِ ، وَحَفِظَ كُلُّ مَنْ إِلَيْهِ يُنْتَسَبُ ، وَرَزَقَهُ كُلُّ ذَلِكَ مَنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ .

وَحَاصِلُ هَذِهِ الْمَقْدِمَةِ ، أَنَّ الْمَسْئُولَ مِنَ الصَّدَقَاتِ الْمُعْظِمَةِ ، أَنَّهُ إِذَا تَرَامَى عَلَى أَبْوَابِ عَدْلٍ شَاكِي ، أَوْ تَعَلَّقَ بِأَسْبَابِ مَعْدَلَتِهَا مُنْظَلَمٌ بِأَكْبَرِ ، تَتَصَدَّى هِيَ بِنَفْسِهَا لِكَشْفِ ظُلَامَتِهِ ، وَلَا تَتْرُكُ الْغَيْرَ فِي فَصْلِهَا لِإِقَامَتِهِ . وَإِنَّ الْفَقِيرَ مِنْ جَمَاعَتِنَا ، وَالضَّعِيفَ مِنْ أَهْلِ طَاعَتِنَا ، إِذَا مَسَّتْ الْحَاجَةُ بِهِ إِلَى بَثِّ شَكْوَى ، أَوْ رَفْعِ بَلْوَى ، يَتَقَبَّلُ إِلَى شِكْوَاهُ بِلا وَسَاطَةِ ، لِيَأْمَنَ فِي أَمْرِهِ الْمَغَالَطَةَ ، وَيَصَادَفَ مَقْسُطَةً لَا

^(٣٢٤) الرزداق أو الرستاق : الضواحي الريفية ، ومن معانها أيضا : الأسواق التجارية .

^(٣٢٥) الأرفاق : الرق بالحيوان .

^(٣٢٦) صكه على وجهه ، صفعه وضربه بقوة .

^(٣٢٧) وثيقة بمال أو نحوه .

قاسطة^(٢٢٨) ، ويتساوى في كلٍّ من مَشْرَبِ العَدْلِ والإنصاف ، ومراعى الفضلِ والألطاف ، الطِبَاءُ والأسود ، والذئبُ والعُتُود^(٢٢٩) ، والعقابُ والعصفور ، والحمامُ والصقور ، ولا يتقدَّمُ في الدعاوي ، من حيث التساوي ، الرُّجِيَّةُ على الجاهل ، ولا النِّيَّةُ على الخامل ، ولا الكبيرُ على الصغير ، ولا الجليلُ على الحقير ، فإنَّ اقتضت الآراءُ العالية ، توليةَ عاملٍ في ناحية ، فليكنُ مِمَّنْ لَهُ شَفَقَةٌ تَامَّةٌ ، ورحمةٌ في أمرِ الرعيةِ عامَّةٌ ، ويُعرَفَ ذلكَ بِمَنْ جَرَّبَتْهُ العلومُ الكريمةُ ، وتحقَّقتْ أَنَّ نِيَّتَهُ في رعايةِ الرعيةِ مستقيمةٌ ، قد صارتَ لَهُ الشَّفَقَةُ مَلَكَةً ، وكلٌّ من العَدْلِ والإنصافِ قد مَلَكَهُ . ولا تُؤَلَّ أحدًا لِعَرَضٍ ، أو مَنْ في قلبِهِ من أذى المساكينِ مَرَضٌ . وإنَّ الطبيعةَ إذا اعتادتْ عادةً ، والسحابةَ إذا جُعِلَتْ لها بعضُ الأوصافِ قلادةً ، سواءَ كان ذلكَ مذمومًا أو محمودًا ، مقبولًا عندَ العقلِ والشرعِ أو مردودًا ، فإنها تبرزُهُ في غالبِ الأوقات ، ولا تتخلفُ عن مُلابستِهِ في أكثرِ الحالات :

العَيْنُ عَرِيفٌ مِنْ عَيْنِي عَمَلُهَا إِنْ كَانَ مِنْ جِزْبِهَا أَوْ مِنْ أَغَادِيهَا
وكلُّ قضيةٍ لا يساعدها القلبُ ، فمتنهاها على العكس والقلبُ ، ونظيرُها يا رئيسَ المداره ، قضيةٌ مَنْ زَوْجَتُهُ أُمُّهُ وهو كارهٍ ، فسألَ الوزيرُ من السفيرِ ، تقريرَ هذا النظيرِ .

[١٢/٦] قصة قولِ يرفضُ الغناء

فقال كان شابٌّ ، من العِرابِ ، قصدتْ أُمُّهُ تَأَهَّلَةً ، فزوجَتْهُ بامرأةٍ أرملةً ، ولم يكنْ لَهُ احتياجٌ ، ولا رغبةٌ في الزواجِ ، واعتارَ التخلُّى للصلاة ، على مذهبِ الإمامِ الشافعي رحمه الله ، ولكن فَرَّ من العقوقِ ، وكتب على نفسه الحقوقَ . فلَمَّا

(٢٢٨) يصادف مقسطة لا قاسطة : يجد عدلاً لا ظالماً .

(٢٢٩) العُتُود : من أولاد المعزى ، ما قوي وأتى عليه حول :

عقدت الوليمة ، وصممت العزيمة ، وجمعت النساء والرجال ، أرسلت أمه إلى حجار
 لهم قَوَالَ^(٢٣٠) ، أستاذ^(٢٣١) في صنعتِهِ ، ماهرٌ في حرفته فدعته إلى الجمع ، ليتهاج
 بحسن غنائه السَّمْع ، فيشغل الوقت ، ويُذهب المقت ، ويحصل للحضور ، النشاطُ
 والسرور ، فتخلف وأبى ، وعن الحضور نبا . فسُئِلَ عن تصلِّفه^(٢٣٢) ، وسبب
 تخلفه . فقال : بلغني أنَّ الزوجَ الخاطب ، غيرُ طالبٍ ولا راغب ، وإذا كان كذلك
 فلا يُغني الغناء ، إلَّا العناء ، ولا يؤثر في القلوب والأسماع ، بل تنفرُ عند سماعِهِ
 الطباع ، فكلُّ شيءٍ لا يصدرُ عن رغبة القلب ، فإنَّ إيجابه لا يقيدُ إلَّا السلب ،
 فيضحكُ عليَّ القائم والقاعد ، ويسخرُ مني الصادر والوارد ، ويروحُ تغزُّلي في
 البارد .

وإنما ذكرتُ ذلك ، لأعرضَ على آراءِ المالك ، أنه إذا أوج أمرَ الرعيَّة ، إلى أحدهُ
 من الخاصكية^(٢٣٣) ، ينظرُ إلى شقيقته ، ويسير وفور مرحمته ، ثم يوليهِ عليهم ،
 ويتقدم بالطاعة إليهم ، فيستقيمُ إذ ذاك فعلهم وفعله ، ويظهر في حركاته وسكناته
 عدله ، وليس العدلُ في القضايا تساويها ، ولا إجراؤها على نسقٍ واحدٍ يحويها ،
 بل معرفة مقاديرها ، وبيانُ تقريرها ، في المبادئ وتحريرها ، ثم إجراؤها على
 مقتضى مدلولها ، وردُّ فروع كُلِّ مسألةٍ إلى أصولها ، ووضعُ الأشياءِ في محلِّها ،
 وإيصالُ الحقوقِ إلى أهلها ، ومعرفةُ منازلِ أربابها ، وأوضاعِ أصحابها ، ومراتبُ

(٢٣٠) القَوَالَ : اللغز أو النشد ذو الصوت المطرب .

(٢٣١) أستاذ : (ذكرها المؤلف بالفارسية) .

(٢٣٢) رفضه .

(٢٣٣) الخاصكية : لفظ مملوكي جمع مفردة الخاصكي . وهم نوع من المماليك السلطانية يجعلهم السلطان في

حرسه الخاص ، ويتوجهون في المهمات الشريفة والجليلة .

طلّابها ، فَمَنْ لم يَحَقِّقْ هذه الأمور ، أضاع مصالِحَ الجمهور ، فأعطى غيرَ المحقِّ ما لا يستحق ، ومنع الحقَّ عن المستحق .

وقد قيل يا أبا السعود : إنّ حقيقة الجود : إعطاء ما ينبغي لَمَن ينبغي ، وإلاّ كان كالباذر في السباخ ، وأشبّه في أمره أجيرَ الطباخ ، الذي لم يعرف معنى العدل ، فقصله قَوَّع في الجدل . فسأل الغزال ، شيخ الأروعال^(٢٣٤) ، عن هذا المثال .

[١٣/٦] حكاية في التقليد الأعمى :

قال : كان عند بعض الأسيّاح ، من الطباخين أجيرٌ طبّاخ ، له رغبةٌ منهممة ، على معرفة طبخ الأطعمة ، وكيفية ترتيبها ، وصنعة تركيبها ، وكان مغرماً بذلك ، يسلك فيه كلّ المسالك ، ويتردّد فيه الموارد ، ويتبع كلّ صادرٍ ووارد . ففقي بعض الأتاء ، وقف على طبيبٍ من الأطباء ، فسمعه يقول : إنّ أصلاً من الأصول ، العدل والتسوية ، بين الأطعمة والأغذية والعقاقير والأدوية ، فَمَنْ لم يستعمل الاستواء ، في درجات الغذاء والدواء ، ضلَّ عمله وغوى . وأصلُ هذا المزاج ، ولا يُنكره إلا ذو لحاج ، فإن العناصر الأربعة^(٢٣٥) ، منها المضرة والمنفعة ، وقد تولّد منها السوداء والبلغم ، والصفراء والدم ، فمتى اعتدلت هذه المتولدات ، صحّت الأبدان والذات ، ومتى عن الاعتدال عدلت ، أضرّت وتقلّت ، وكذلك النّير^(٢٣٦) الأعظم ، والكوكب المضيء في العالم ، إذا حلّ في مركز الاعتدال ، استقام للعالم

^(٢٣٤) شيخ الأروعال : التيس الذي يقوم بدور الوزير .

^(٢٣٥) العناصر الأربعة في نظرية الطب اليونانية هي النار والهواء والماء والتراب (وتقابلها : السوداء والبلغم

والصفراء والدم ، على غير ترتيب) .

^(٢٣٦) النّير : المضيء (الشمس) .

الحال ، وطاب الزمان واعتدل ، وذلك عند نزوله في برج الحمل . فتصور ذلك
الولهان ، أن المقصود التسوية في الأوزان ، فانصرف وهو قرحان ، وقصد طعام
الزيرباج^(٢٣٧) ، وعيى من مفرداته ما يحتاج ، ثم إنَّه ساوى بين أوزانها ، وقصد
العدل في ميزانها ، وخلط كعقله أخلاطها ، ووضعها في قدير وساطها^(٢٣٨) ،
فخاب عمله في عدله ، وبان نقصه في فضله .

فلما رعى الملك والوزير ، ما سلكه السفير ، في نظام هذا التقرير ، شكرا له
مساعيه ، وأخصبا في الإكرام والإعزاز مراعيه ، وقالوا : جزاك الله خيرا عن
شفقتك ، وحسن صنيعك لمرسيليك ورفقتك ، فمُثلك مَنْ يصلح للسفارة بين
الملوك ، وتولي أمور الرعية من الغني والصلوك ، فإنك ناصح لمن فوقك ، شفيق
على مَنْ دونك . ثم قال الوزير : إنَّ هذا الملك الكبير مقاصده العظيمة ، أن تكون
الأمر مستقيمة ، وأن يصلح العباد والبلاد ، ويطمئن المستفيد والمستفاد ، فاحفظ
أيها السفير النير الضمير ، بما سمعت ورأيت ، وشاهدت ووعيت ، واجعله من
عنوان أنباتك ، ومقدمات أفعالك وآرائك ، وأبلغه مَنْ يحقك من أمامك
وررائك ، ومهما وصلت إليه قدرتك ، وأحاطت به يدك وكلمتك ، من إيلاغ
الخبر ، إلى مسامح الوحش والطير ، عن هذا الملك وأوصافه ، وتطلعه إلى مراقي البر
والإحسان واستشرافه ، وما تسكن به الخواطر ، وتطمئن به الضمائر ، وتقر به
العيون بالسرور ، وتستقر به القلوب في الصدور ، فلا تأل فيه جهدا ، وأوسع فيه
جدًا ، ولا تته في إنهاؤه حدًا ، فإن الجمال واسع ، وميدان المقال شاسع ، وقد أذن
لك فيه ، وإن أخفيت في نفسك فالله مبيده . ثم كتب له بذلك مراسيم ، عن ثغر

^(٢٣٧) الزيرباج : نوع من الأطعمة الرفية تتكون مكوناته من الباذنجان والثوم والكسوه واليقط .

^(٢٣٨) ساط القدر : مَثل ما فيها قلبه ظهر البطن وتديره .

الأماني مباسيم ، وأفيس عليه خلع الكرامة ، واضيف إليه الحماة ، ورجع إلى أهله مغموراً بفضيله ، مسروراً بقوله ، مشكوراً بفعله ، فائزاً بالمطلوب ، ظافراً بكل مرغوب ، فارغ البال ، طيب الحال ، فاتصل بأهله في دياره ، وهم في انتظاره ، فبادروه بالسلام ، وقابلوه بالاستلام^(٢٣٩) . وقالوا : ما وراءك يا عصام ؟ فبلغ الجواب ، بأرشق عبارة وأليق خطاب . وذكر لهم ما رأى ، وسمع ووعى ، فانتشرت هذه الأخبار ، حتى ملأت الأقطار ، وتسامع بها وحوش القفار ، وفاح بطيب نشرها الأزهار ، فكان جميع البر معطار .

ثم اجتمع رؤساء الوحوش والبهائم ، وعرفاء الصوايح^(٢٤٠) واليواعيم^(٢٤١) ، وكل ساكن في القفار من سائم وحائم ، وأرسل كل إلى أمته رسوله ، يدعوها إلى ما يحصل سؤلها وسؤلته . فلبت كل أمّة دعوة رسولها ، وأقبلت لاستماع المراسيم وقبولها ، فاجتمعوا في رياض مرج أخضر ، وحلقوا لاستماع المراسيم حول النمر ، وأطرقوا وسكوا ، واستمعوا وأنصتوا ، وتناول المرسوم الصادر من الباغم ، وصعد على القصن الناعم ، مطوّق الحمايم ، وابتدأ باسم الكريم الغفور ، وقرأ على رؤوس الأشهاد مضمون المنشور ، ودعاهم إلى الطاعة ، والدخول في سنن السنة والجماعة ، وأنهم لا يتأخرون عن الحضور ، بعد الاطلاع على مضمون المنشور ، فإنه فرمان^(٢٤٢) أمان ، لكل من أجانس الحيوان ، ولم يبق مقالاً لمتخلف ، ولا مجالاً لتأخير ومُسوّف ، كما قيل :

فَمَنْ جَاءَنَا طَوْعاً أَقْمَنَّا بِمَجْلِهِ وَفَنْ يَأْبَ لَا يَغْتَبِ عَلَيْنَا فَعَالِنَا

(٢٣٩) الاستلام : السلام والتفيل .

(٢٤٠) الصاوح : الطير وقد رفع صوته فأطرب .

(٢٤١) الباغم : الطية وقد رق صوتها ولان حتى لا يبين .

(٢٤٢) فرمان : ما يصدره السلطان أو الملك من الكتب للولاة والوكلاء .

إلى آخر الرسالة ، مع ما تحمله الرسول من مشافهة ومقالة ، ومن ملاطفات تشرح الصدر ، وتستنزئ البدر ، وتوضِّع ما للملك من جلاله وقدر . فتلقى الكل هذا الكلام ، بأذان القبول والإكرام ، واتفقوا على التأهب والمسير ، والاحتفال الكبير والصغير ، وأدخلوا في تعبئة التقادم^(٢٤٣) والخدم ، وفرضوا ذلك على ما لكل من طوائف وحشم ، وتصدَّعوا^(٢٤٤) عن هذا المرسوم ، على أن يجتمعوا في يوم معلوم ، ثم أعدَّ كلُّ عتاده ، وأكمل خدمته وزاده ، واجتمعوا لذلك اليوم الموعد ، وتوجَّهوا إلى الخدمة في الطالع المسعود ، ولما دخلوا اللرب ، وضربوا في الأرض ، لَمَنَ ضرب ، توجَّهت الحماسة بالبطاقة ، بهذه البشارة والطلاقة ، فانتشر هذا الخبر ، وملا البدو والحضر .

فلما وصل الطائر ، دَقَّت البشائر ، وسُرَّت الأهل والعشائر ، ثم إنَّ الملك دعا الوزير ، وقال : أعلم أنَّها الناصحُ الخبير ، والبحرُ النحرير ، أنَّ الوحوشَ واصلتْ إلى منزلِك ، وبخفها وحافرها^(٢٤٥) نازلة في ساحلِك ، وأنَّ رايةَ سلطاننا بعونِ الله بالنصر نُشرت ، ووحوشَ الجنودِ والعساكرِ بحمدِ الله تعالى على بساطٍ بسيطٍ الطاعة حُشرت . وفي هذه الجيوش ، أصنافُ الوحوش ، وطوائفُ السباع ، وأنواعُ الذئاب والضباع ، وفيهم الفراعِل^(٢٤٦) والثعالب ، والعساير^(٢٤٧) والأرانب ، ولا شكَّ أنَّ هيبةَ الملك صادعة ، وحرمةَ السلطنة باسطة فارعة ، وحضرةَ السلطان ذاتُ

^(٢٤٣) تعبئة التقام : تعبئة وإعداد الهدايا الثمينة .

^(٢٤٤) تفرَّعوا إثرَ سماعهم للرسوم في هذا الاجتماع الطارئ .

^(٢٤٥) بخفها وحافرها : جميع صنوف الحيوانات .

^(٢٤٦) الفراعِل ، الجمع فراعِل : تولد الضباع .

^(٢٤٧) العساير واحدها عُسَيْر : وهو النمر ، وهو أيضا ولد الذئب .

جلال ، وإن كانت جامعةً لصفتي الجلال والكمال ، وما عند كلٍّ أحدهُ مسكّةٌ^(٢٤٨) للملاقاة ، ولا ثباتٌ جَنَانٍ عند المشاهدةِ للملك إذ رآه ، فَمَنْ لم يكن بيننا وبينه اجتماع ، فقد وَقَرَّتْ هَيْئَتُنَا في قلبه على السماع ، وَمَنْ تصدَّينا لَهُ في ميادين الصيد ، وأُفِلَّتْ بعد معاناة الكدِّ والكيد ، قد رأيتَه على العيان ، ولا يحتاج في معرفة قوَّةِ سلطاننا إلى ترجمان ، وعلى كلِّ تقدير ، فمشاهدتُنَا على غالبهم أمرٌ عسير ، لأنَّهُ ربَّما يتذكَّرُ منهم متذكَّرٌ ، أو يتفكَّرُ منهم متفكَّرٌ ، واقعةٌ سبقت ، أو سابقةٌ وقعت ، انمَّرح فيها من نَصَلِ أنيائِنا مفاصلُ عراقِيه ، أو تعلقَ بها من أشعاره وأوباره مُشَاطَةُ جلايِيه^(٢٤٩) ، وَمَنْ لم يُنَجِّهِ مِنَّا ضُبَّاحَه^(٢٥٠) ، ولم يكن سِلَاحُهُ من كلالِيبِ غِثَالِيِنا إلَّا سِلَاحَه^(٢٥١) ، فيمجرَّد ما يقعُ نظَرُهُ علينا ، أو تمثَّل بالوقوفِ لدينا ، يرحفُ فَوادُه ، وينفضُ من عِيَّةِ كرشِه زاده ، فينكصُ من الخوفِ على عقبِيه ، ولا يعرفُ أَمْرَهُ من حوَالِيه ، فيتبعونه ويحصلُ الفشل ، ويقعُ الخطأُ والخلل ، فيهمُّ ما أوضحنَاه ، ويفسدُ أضعافُ ما أصلحنَاه ، وينهدُّمُ من أوَّلِ الأمرِ إلى آخرِه ما بنينَاه ، ويتعوَّجُّ من مستقيمِ السلطنةِ ما سوَّينَاه ، فلا يحصلُ من عِزِّهِ المملكةُ ، إلَّا على مِثْلِ ما حصل لأبي الحصين من شيخِ الديكة . فقال الوزيرُ : ينعم مولانا الأجل ، بتقرير هذا المثل .

(٢٤٨) مسكّة : قوَّةٌ وحماسك عند لقاء الملك .

(٢٤٩) بقايا أو قطع من جلده .

(٢٥٠) الضَّبَّاح : الصوتُ ، للإنسان والحيوان والطيور .

(٢٥١) السِّلَاح : كل ما يخرج من البطن من الفضلات .

[١٤/٦] قصة أبي الحصين مع شيخ الديكة

قال الملك : سمعتُ مُخْبِراً ، أَنَّهُ كان في بعض القرى ، للرئيس ديك ، حسنُ الخلقِ وَدِيكٌ^(٢٠٢) ، مرّت به التجارب ، وقرأ تواريخَ المَشارِق والمغارب ، ومضى عليه من العمر ستون ، واطلع من حوادثِ الزمان على فنون ، وقاسى حُلُوهُ ومَرَّهُ ، وعانى حَرَّهُ وقَرَّهُ^(٢٠٣) ، وقطع للثعالب شباك مصايد ، وتخلّص لابن آوى من ورسطات مكاييد ، ورأى من الزمان وبينه نوائِبَ وشدائد ، وحفظ وقائعَ لبناتِ آوى وثعالب ، واطلع من كتبِ جيلِها طلائعَ كُتائب ، وأحكم من طرائقها عجائبَ وغرائب . فاتَّفَقَ لَهُ في بعضِ الأحيان أَنَّهُ وقف على بعض الجدران ، فنظر في عِطْفِيهِ ، وتأمَّلَ في نقش بُرْدِيهِ ، فرأى خيالَ تاجِهِ العِقيميّ ، ونظر إلى حَدِيدِ الشَّقِيقيّ^(٢٠٤) ، ونفض بُرْأَلَهُ^(٢٠٥) المنفُش ، وسرَّوَيْلَهُ المنقُش ، والثوبَ الَّذِي رَقَمَهُ نَقْشُ القُدْرَةِ من المَقْطُوعِ والمِرْقَش ، فأعجبتهُ نَفْسُهُ ، وأدْنَّ فأطربَهُ حُسْنُهُ ، وتذكّر ما قاله الأسدُ المادح ، في المعتصم بنِ صِماح ، وهو :

كان أنوشروان أعطاهُ تاجَهُ وناطت عليه كفّ مارِية القِرْطَا^(٢٠٦)
سَمِيَ خَلَّةُ الطاووس حُسْنُ لِبَاسِهِ ولم يَكْفِهِ حَتَّى سَمِيَ المِشْتَمَةُ البَطْأ

(٢٠٢) وديك : السمّون ذو الودك (الدمسم أو الشحم) .

(٢٠٣) القَرّ : الجُود . (وقد أوجب العرب الفتح هنا مع الحُرِّ للمشارِكَة) وقد أعلنا بذلك في ضبط بنية الكلمة .

(٢٠٤) الأحر ، نسبة إلى شقائق النعمان .

(٢٠٥) البُرْأَل : ما استنزل من ريش الطائر حول عنقه ، ويقال برأل الديك أى نَفَشَ ريش عنقه متهيئاً للقتال أو غيره .. وأبو برائل كنية الديك .

(٢٠٦) قِرط مارِية : من أشمال العرب : عُدَّهُ ولو بقِرط مارِية وهى مارِية بنت ظالم الكندى ، من أشراف العرب .

فصار يتيه ويتبختر ، ويتقصّف ويتخطر ، فاستهواه الشمس سويعة ، حتى أبعد
عن الضيعة ، فصعد إلى جدار ، وكان قد انتصف النهار ، فرفع صوته بالأذان ،
فأنسى صوته الكتاني والدهان . فسمعه ثعلب ، فقال : " مطلب " وسارع من
وكّره ، وحمل شبكة مكره ، وتوجّه إليه ، فراه فسلم عليه .

فلما أحسّ به أبو اليقظان ، طفر إلى أعلى الجدران ، ثمّ حياة تحية مشتاق ،
وترامى لديه ترامي العشاق ، وقال : أنعش الله بدنك وروحك ، وروى من
كاسات الحياة غبوقك وصبوحك ، فإنك أحيت الأرواح والأبدان ، بطيب النغم
والصباح في الآذان ، فإن لي زماناً لم أسمع بمثل هذا الصوت ، وقاك الله نواب
القوت ، ومصائب الموت ، وقد جئت لأسلم عليك ، وأذكرك ما أسدي من النعم
إليك ، وأبشرك ببشارة ، وهي أربح تجارة ، وأنجح من الولاية والإمارة ، ولم يتفق
مثلها في سالف الدهر ، ولا يقع نظيرها إلى آخر العصر ، وهي أنّ السلطان ، أيّد
الله بدولته أركان الإيمان ، أمر منادياً فنادى بالأمان والاطمئنان ، وإجراء مياه
العدل والإحسان ، من حدائق الصحبة والصدقة في كلّ بستان ، وأن تشمل
الصدقة كلّ حيوان ، من الطير والوحش والحيتان ، ولا يقتصر فيها على جنس
الإنسان ، فيتشارك فيها الوحوش والسباع ، والبهائم والضباع ، والأروى
والنعام ، والصقر والحمام ، والضب والنون ، والذباب وأبو قلمون ، ويتعاملون
بالعدل والإنصاف ، والإسعاف دون الإعساف ، ولا يجري بينهم إلا المصادقة ،
وحسن المعاشرة والمرافقة ، فتمحى من لوح صدورهم نقوش العداوة والمنافقة ،
فطيّر القطا مع العقاب ، وبيت العصفور مع الغراب ، ويرعى الذئب مع الأرنب ،
ويتآخى الديك والثعلب . وفي الجملة لا يتعدى أحد على أحد ، فتأمن الفارة من
الهرة والخروف من الأسد ، وإذا كان الأمر كذا ، فقد ارتفع الشر والأذى ، فلا بد

أَنْ يُمَثِّلَ هذا المرسوم ، ويُتْرَك ما بيننا من العداوة والخُلُقِ المذموم ، ويجري بيننا بعد اليوم المصادقة ، وتفتح أبوابُ المحبة والمرافقة ، ولا ينقر أحدٌ منا من صاحبه ، بل يراعي مَوَدَّتَهُ ويبالغ في حفظِ جانبهِ ، وجعل الثعلبُ يقرُّرُ هذا المقال ، والديكُ يتلفتُ إلى اليمين والشمال ، ويحتاطُ غايةَ الاحتياط ، ولا يلتفتُ إلى هذا الهذيان والخباط .

فقال الثعلب : يا أعني ، ما لك عن سماعِ كلامي مرتخي ، أنا أبشرك ببشائرٍ عظيمة ، لم تُفَقِّ في الأعصرِ القديمة ، وإنما برزتُ بها مراسيم مولانا السلطان الجسيمة ، وأراك لا تلتفتُ إلى هذا الكلام ، ولا تُسرُّ بهذا اللطفِ العام ، ولا تلتفتُ إلَيَّ ، ولا تعمل عليَّ ، وتستشرفُ على بُعدٍ لَشَى ، فهلا أخبرتني بما أضمرت ونويت ، وتطلعي فيما تتناولُ إليه على ما رأيت ، حتى أعرفُ في أي شيء أنت ، وهل ركنتُ إلى أخباري وسكنتُ ؟ فقال : عجاجاً ثائراً ، ونقعاً إلى العنان فاقراً ، وحيواناً جارياً ، كأنه البرقُ سارياً ، ولا عرفتُ ما هو ، ولكنه أجرى من الهوا . فقال أبو الحصين ، وقد نسي المكر والمين^(٢٥٧) : يا لله يا أبا نبهان ، حَقَّقْ لي هذا حيوان فقال : حيوانٌ رشيق ، له أذانٌ أطوالٌ وعصرٌ دقيق ، لا الخيلُ تلحقه ، ولا الريحُ تسبقه ، فرجفت قوائمُ الثعلب ، وطلب المهرب . فقال أبو المنذر : تلبثُ يا أبا الحصين واصبر ، حتى أحققَ رؤيته ، وأتبينَ ماهيته ، فإنه يا أبا الحصين ، يسبق طرفَ العين ، ويكادُ أبا النجم ، يخلف النجم في الرجم . فقال : أخذني فؤادي ، وما هذا وقت التمادي ، ثم أخذ يسأل^(٢٥٨) ، وولَّى وهو يصدق ، بقوله :

^(٢٥٧) المين : الكذب .

^(٢٥٨) يخرج ما في حوله من فضلات .

لَا يَسْجُ التَّسْلُاجَ الْعَقِيْقِي لَا تَقِفْ لِي فِي طَرِيقِي
إِنْ يَكُنْ ذَا الْوَصْفِ حَقًّا فَهُوَ وَاللَّهِ السَّلَوقِي^(٢٥٩)

فقال الديك : وإذا كان ، وقد قلتَ إنّ السلطان ، رسم بالصلح بين سائر الحيوان ، فلا بأس منه عليك ، فتلّثتُ حتى يجيء ويقبّل يديك ، وتُعقد بيننا عقود المصادقة ، ويصير رفيقنا ونصير رفاقه . فقال : أو ما زعمتَ يا أبا وثّاب ، أنّ السلطان رسم للأعداء والأصحاب ، أن يسلكوا طرائق الأصدقاء والأحباب ، فلو خالف المرسوم هذا الكلب ، لما قابله الملكُ إلّا بالقتل والصلب . قال : لعل هذا المشوم ، لم يبلغه المرسوم ، ثمّ ولّى هاربا ، وقصد للخلاص جانبا !!

وإنما أوردتُ يا نفيس ، هذا المثال لتفيس ، أحوال مَنْ دان ، لك من هذا الحيوان ، ولا تشقها بعضاً واحدة ، واحسبُ حال كل واحدٍ على حدة ، فربما يكون في هذه البهائم ، مَنْ لا هو بأحوال الصلح عالم ، ولم تبلغه الدعوة ، وإنّما انضاف بسبب رجوة^(٢٦٠) ، أو آمن على سبيل التبعية والتقليد ، ولم يطلع على موارد الوعد والوعيد ، ولا وقف على ما وقع من الاتفاق ، ولا يلبث لمصادمة اللقاء وقت التلاق ، فيصدر منكم حركة ، تؤدي إلى قلة بركة ، وتستطرد إلى نفرة وجفول ، فيدهمنا هدم ما أسسناه على غفول ، ويقع من الفساد ما لا يمكن تلافيه ، ويضيع نفوذ جواهر جهدنا وكدنا فيه . وإذا كانت الدنيا محلّ العوارض ، والغالب أنّه عند مشاركة المقصود يحصل العارض ، والعاقِل لا يغفل عن هذا الخطر ، فعند صفو الليالي يحدث الكثر ، وقد كفاك ، من ناداك ، بقوله :

إِذَا قَرَأْتَ يَدَاكَ إِلَى مِرَامٍ وَقُلْتَ تَحَوَّلْتُ نَفْسِي مَهَا
فَلَا تَأْتِنَنَّ مِنَ الدَّهْرِ اخْتِلَامَا بِحَوَلٍ فَمَكْرُهُ فِي ذَا تَهَايَا

^(٢٥٩) السلوقي : كلب من كلاب الصيد الجيدة ، ينسب إلى قرية سلوق في اليمن .

^(٢٦٠) الأمل أو الطمع .

كَجَسَانٍ لَمْ يَصْبَةَ الشُّوْكَ إِلَّا وَقَدْ وَصَلَتْ يَدَاهُ إِلَى جَنَاهَا

فالرأي السديد ، يا أبا سعيد ، يقتضي أن تمضي الحمامة المطوقة ، إلى تلك الجموع المفرقة ، وتنادي في كل نادي ، بين الحاضر والبادي ، والرائح والغادي ، بحقائق الأمور ، وتطيب خاطر الجمهور ، وما هم قادمون عليه ، ومن هم الواصلون إليه ، ليعلموا أنهم في صفقتهم رابحون ، وأنهم على هدى من ربهم وأنهم مفلحون . فخرجت الحمامة بهذه النقوش ، وشهرت النداء في طوائف الوحوش ، بما هم عليه قادمون ، وأنهم للمليك يسار خادمون .

ثم تبعها الوزير ، ومعه كل أمير وكبير ، من خواص المباشرين^(٢٦١) ، والأعيان للملازمين ، وكبراء الأقطار ، ورؤساء الأخيار ، واستقبلوا ملوك الوحوش والهوم ، ورؤساء السوائم^(٢٦٢) والسوام^(٢٦٣) ، وقابلوا ملتقاهم بالإعزاز والإكرام ، ووعدهم بكل خير وإحسان ، ووصلوا بهم إلى ميدان الأمان ، وحين حلّ عليهم نظر السلطان ، قبلوا الأرض ، ووقفوا في مقام العرض ، وأدّوا من واجب العبودية النفل والقرض ، فأُنزل كلا في مقامه ، بعد أن أحلّه في محل إكرامه ، وأفاض عليه خلع إحسانه وإنعامه ، وعلت منزلة الوزير ، وتقدم كما تقدم وأشير ، وصفا لهم الزمان ، وعاش في ظلّ عدّهم كل ضعيف من الحيوان ، وتقلّبوا في رياض الأمان ، على بساط الأمان .

وفائدة هذه الحكايات ، تنبيه أشرف جنس المخلوقات ، وأطلس طائفة المكوّنات ، وهو نوع الإنسان ، الذي اختصه الله تعالى بأنبواع الإحسان ،

^(٢٦١) المباشرين : كبار الموظفين في الدولة .

^(٢٦٢) السوائم : كل ليل أو ماشية ترسل للرعى .

^(٢٦٣) السوام : كل ذي سم كالضبّان والعقرب ونحوهما .

وأيدُّه بالعقل ، وأمدُّه بالنقل . على أنه إذا كان هذا الفعلُ الجليل ، يصدرُ في التنظيرِ والتمثيل ، من أحسنِّ الحيوانات ، وما لا يُعقل من الموجودات ، فَلَا يُصْدرُ من أولي النهي ، وأولي الفضلِ والمكارمِ والعُلا ، أولى وأخرى ، لا سِما مَنْ رَفَعَ اللهُ في الدنيا مقدارَه ، وأعلى على قِسمِ الخلاقِ منارَه ، وحكْمُه في عبيدِه المستضعفين ، واسترعاهُ على رعيةٍ سامعين مطيعين ، وسلطهُ على دمائهم وأموالهم ، وبسط يدهُ ولسانهُ في رفاهيتهم ونكالهم . والأصلُ في هذا كُلُّه ، قولُ مَنْ عَمَّ عبيدُه بفضله ، وبقوله اهتدى العالمون ﴿وَبَلَكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ (٢٦٤) .

آخِرُ الْبَابِ السَّادِسِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ .

آمين

(٢٦٥) قرآن كريم ، سورة النكيت : ٤٣ .

الباب السابع

فِي ذِكْرِ الْقِتَالِ بَيْنَ أَبِي الْإِبْطَالِ الرَّبَّالِ وَأَبِي دَغْفَلِ سُلْطَانِ الْأَفْيَالِ

قال الشيخ أبو المحاسن ، مَنْ لَيْسَ لَهُ فِي الْفَضْلِ مَسَاوٍ وَلَا مَوَاسٍ : فَلَمَّا أَنْهَى الْحَكِيمُ حَسِيبَ ، كَلَامَهُ الْأَحْلَى مِنَ النَّسِيبِ ، قَبْلَهُ أَعْوَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، وَأَفْضَلَ بَحْلَجَ الْإِنْعَامِ عَلَيْهِ . ثُمَّ اسْتَزَادَهُ ، وَفَتَحَ لِمَجْمَعِ فَضْلِهِ بَابَ الزِّيَادَةِ . وَكَانَ قَدْ وَقَعَ بَيْنَ مَلِكِ الْأَفْيَالِ ، وَبَيْنَ مَلِكِ الْأَسْوَدِ الْمُسَمَّى بِالرَّبَّالِ ، الْمَكْتَنَى بِأَبِي الْأَشْبَالِ وَأَبِي الْإِبْطَالِ ، مَقَالٌ أَدَّى إِلَى جِدَالٍ ، وَاتَّصَلَ بِحَرْبٍ وَقِتَالٍ . فَسَأَلَ الْمَلِكُ أَخَاهُ ، هَلْ سَمِعَ مِنْ ذَلِكَ شَيْعًا وَرَعَاهُ . فَأَجَابَ بِالْإِيجَابِ ، وَذَكَرَ فِي الْجَوَابِ ، الْأَمْرَ الْعَجَابَ ، فَقَالَ :

كَانَ يَا مَلِكُ الزَّمَانُ فِي بَعْضِ أَطْرَافِ الْهِنْدُودِ ، مِنْ عَسَاكِرِ الْأَفْيَالِ جُنُودٌ ، فِي جَزِيرَةٍ عَظِيمَةٍ كَبِيرَةٍ لَمْ يَكُنْ مِنْ جَنْسِهِمْ ، وَجَلَدَتْهُمْ وَنَفْسَهُمْ ، مَلِكٌ عَظِيمٌ ، ذُو جِسْمٍ جَسِيمٍ ، وَشَكْلٍ وَسِيمٍ ، مَنْظَرُهُ بَدِيعٌ ، وَهَيْكَلُهُ رَفِيعٌ ، طَوِيلُ الْخُرْطُومِ ، وَاسِعُ الْجَلْقُومِ ، مَبْسُوطُ الْأُذُنَيْنِ ، حَدِيدُ الْعَيْنَيْنِ ، طَوِيلُ الْأَنْبِيَابِ ، كَأَنَّهُ طَوْدَةٌ فِي حَرَابٍ ، كَثِيفٌ فِي الْمَرَايِ ، خَفِيفٌ فِي الْمَوَاطِنِ^(١) ، عَدَدُ حَيْشِهِ غَزِيرٌ ، وَمَدَدُ حَنْزَلِهِ كَثِيرٌ ، وَهُوَ فِيهِمْ مَلِكٌ كَبِيرٌ ، ذُو قَدَرٍ خَطِيرٍ ، مَنفَرْدٌ بِالسَّرِيرِ ، وَوَرِثَةٌ كَابِرٌ عَنْ كَابِرٍ ، وَكُلُّ حَيْشِهِ رُؤَسَاءُ وَآكَابِرُ ، لِأَوَامِرِهِ طَائِعُونَ ، وَلِمَا يَرَاهُ تَابِعُونَ ، فَبَلَّغَهُ فِي بَعْضِ الْإِيَّامِ ، أَنَّ فِي بَعْضِ الْغِيَاضِ وَالْأَجَامِ مَكَانًا فِي غَايَةِ النَّزَاهَةِ ، مَعْدَنُ الْقَوَاكِهِ

(١) الموطأ، أو الموطى : موضع القدم ، والضغط الشديدة .

والفكاهة ، ذا مياه عذبة ، ومروج رطبة ، أراضيتها أريضة^(٢٧) ، ورياضها طويلة عريضة ، أطيارها تُسكر بالخانها ، وأشجارها تُحجل قُدود الملاح بأغصانها ، وأزهارها زهيرة ، وأنوارها نظيرة ، ونسيم الصبا والشمس تشر إلى الآفاق طيب أنفاسها العطرة ، وأنه يصلح أن يكون للملك الأفيال مقاما ، مع أن فيه من الجبال والحصون معاصم وعصاما ، غير أنَّ فيه أسدا هصورا ، جمع فيه جندا كثيرا ، ولا زال الناقل يصف ويطنب ، ويُعجم في حسن شمائلها ويُعرب . حتى قال بعض التدماء الحاضرين من الكبراء ، لو قصد الملك ذلك المكان ، وجعله لنفسه من بعض الإسكان ، وتنقل إليه في بعض الأوقات ، وساعات التفرج في المنتزهات ، لأراح نفسه الخطيرة ، من وحم هذه الجزيرة ، ووجد لذة الطعام ، ونشوة الشراب على الدوام . والأسد الذي فيها ، وإن كان مالك نواحيها ، ويبد تصرفه زمام نواصيها ، وجاحم قلاعها وصياصيها^(٢٨) ، لكنه ملك عادل ، وسلطان فاضل ، تمنعه شهامته ، وكرم نفسه وكرامته ، ورياسته وزعامته ، أن يضايق الملك في ذلك ، أو يضييق سلوكها على سالك ، وإن شرع في الممانعة ، وأخذ في أسباب المدافعة ، بالمقارعة والمنازعة ، فالعساكر المنصورة ، وأعدادهم الموفورة ، فيهم بحمد الله لذلك قوة وكفاية ، ولهم في بداية الحروب هداية ، وفقاهة ليس لشرحها غاية ، ولا لفروع أصولها نهاية ، يميون في مباحثها النفوس ، ويُعيدون في مدارس الحرب بتكرار الضرب فاني الشجاعة بعد الدروس ، فيكفون الملك أمره ، ويكفون أذاه وشره ، ولا زال يقتل منه في الغالب والنزوة ، ويقوي بتمويهاته دواعي الحرص والشهوة ، حتى اقتنته أشراك^(٢٩) المطامع ، وأوقعته في عبودية شهوة تلك المواضع ، ودعته

^(٢٧) أريضة : كثيرة الرياض .

^(٢٨) صياصيها : حصونها .

^(٢٩) أشراك جمع شرك ، وهو الفخ أو حيلة الصيد .

النفس الأبية ، وحمية الجاهلية ، وباعثُ العصبية ، إلى الاستيلاء على تلك الأماكن البهية ، والولاياتِ السنية ، والمساكنِ الزهية ، وإسامة سوارحِ اللحاظِ في مراعي نزهة تلكِ الفياض ، ومروجِ أراضي هاتيكِ الرياض . وأزعج في ذلكِ المقتضي ، وأسلمهُ العدلُ والخلقُ الرضي ، وغلب عليه سيءُ الطباع ، واستولت عليه فوارغُ الأطماع ، وعشقتها على السماء .

وكان عنده أخوان هما لهُ عضدان ، هما وزيراه ، وفي مهامه مشيراه ، مسعدها في الأمور ، ومُنجدها في أحوالِ السرورِ والشرور ، أحدثهما : واسطةٌ خبير ، قليلُ الشرِّ عديمُ الضر ، قد جربَ الزمانَ وعاناه ، وقالبَ قوالبِ وقائعِهِ بالمقاييسِ ما قاساه ، اسمه "مقبل" ، وهو كاسمه مفضل . والآخر : بالعكس ، في جميعِ حركاتِهِ وكس^(٩) ، وهو كاسمه "مُدبر" ، بكلِّ شيءٍ مُخبر ، قصده غبارُ قَتَنِ بئيره ، وعمكرُ بلاءِ يُفِيره ، وطالبُ أذىٍ وعناءٍ يعيره ، أوسرُ يذيعه ، أو مكرٍ يشيعه ، أو متسوقٍ شرِّيبعه . وهما ملازمانِ الخدمة ، واقفانِ في مقامِ الحشمةِ والحرمة ، كالفتنِ والرتق ، والباطلِ والحق ، والكذبِ والصدق . وفي الإفسادِ والإصلاح ، كالمرهمِ والجراح ، ومُصلِحِ الدرهمِ ومفسدِ الراح ، ومرشدِ العقلِ ومعتلِ الأقداح . وفي الوفاقِ والشقاق ، كالسمِّ والزَياق . وفي الحكمِ والقضاء ، كالداءِ والدواء . وفيما يقعُ من الحوادث ، المفرحاتِ والكوارثِ ، كالخرِّ والبرد ، والشوكِ والورد .

فاختلى الملكُ بأخويه ، واستشارهما فيما أنهي إليه ، فقال أخوه المقبل : يامولانا أبا دغفل^(١٠) ، لو لم يكن بهذا المكانِ أحدٌ ، من أدنى الوحوشِ فضلاً عن الأسد ، لكان قصده ترفعاً وترفعاً ، والتوجهُ إلى الاستيلاء عليه موجهاً ، فكيف وذلك في

(٩) الوكس : الحسارة والتقصان .

(١٠) الدغفل هو ولد الغيل .

ولاية مالك ، وهو مالك صعب ، كأبي حفص الصعب ، ملك كبير عادل ،
وسلطان خطير فاضل ، مطاع في صاغيته^(١) ، متبوع في حاشيته ، عادل في رعيته ،
سيرته مشكورة ، ومحاسنه ماثورة ، وهيئته وبسالته غير منكورة ، وهو جار حسن
الجوار ، لم يضبط عليه ، ما يقتضي انتزاع ملكه من يديه ، ولم يتعرض إلى
متعلقاتنا ، ولا أذى أحداً في ولايتنا ، وإن مولانا السلطان ، لم يصدر منه إلا العدل
والإحسان إلى الأبعد والأجانب فضلاً عن الجيران ، لاسيما الملوك والأكابر ، ومن
ورث الملك كابرأ عن كابر ، ولقد تلقفت من أفواه الحكماء ، وتشنفت مسامعي
من جواهر الفاظ العلماء ، بثلاث نصائح ، هي من أحسن النائح ، إحداها : احذر
أبيها للموفق ، أن تقع في دم غير حق ، ثانيها : إياك يا ذا التوفيق ، وأموال الناس
بغير طريق ، ثالثها : إياك يا ذا الشيم الكريمة ، وهدم البيوت القديمة . واعلم أن
الله تعالى عم رزقه ، وخص كل موجود بما يستحقه ، وقد أقام الأسد في تلك
الأماكن ، وهو وإن كان متحركاً فهو فيها ساكن ، ولو لم يستأهل ، لما اختص
بتلك المناهل ، وما ينكر هذا إلا جاهل ، أو من هو عن الحق ذاهل ، وحاشي أن
تنسب يارئيس الأخيار ، إلى حسد أو سوء جار ، وعظمتك تأنف عن ذم
الأخلاق ، وكيف وقد انتشر بالفضل صيتها في الآفاق ، وإذا كان للشخص ما
يكفيه ، فينبغي أن يقتصر عما يطغيه ، ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه ،
وقد أحسن في المقال من قال :

يا أحمد انزع بالذي أوتيت
واعلم بأن الله جل جلاله
إن كنت لا ترضى لنفسك ذمًا
لم يخلق الدنيا لأجلك كلها

(١) الصاغية : السمعون إليه .

فالتفتَ الملكُ إلى المدبرِ ، وأشار إليه كالمستخير ، ماذا تشير ، أيها الأبحر
والوزير ؟ فقال : جميع ما قرره مولانا الوزيرُ حقٌ ، وجملة ما ذكره وحرره صدق ،
نصائحُ ترشدُ العقولَ ، وتزينُ عقودَ المعقولِ والنقولِ ، ولكن لا يخفى على كريمِ
العلوم ، أنَّ الأسدَ حيوانٌ ظلوم ، غالبٌ طالبٌ ، وخلصُ الرعية من شرِّه واجب .
ويلزمُ كلُّ أحدٍ أن يخلصَ الرعايا من ظلمِ الأسد ، ومولانا يبلغه ظلمه ، ولم يُحِطْ
بأحوالِ الأسدِ علمه ، وإنه من أظلمِ البرية ، لِمَنْ تحت يده من الرعية ، وإنه يجبُ
على مولانا السلطان ، خلاصُ الرعية منه على أيِّ وجهٍ كان . وأيضاً فإنَّ إنعاماتِ
مولانا البارة ، على كلِّ أحدٍ من الخلقِ دائرة ، والخرجُ والكلفُ ، والكرمُ الذي
بأنامله اختلف ، كلُّ يومٍ في ازدياد ، والعساكرُ المنصورةُ كلُّ وقتٍ تزداد ، وإذا لم
تتسعِ الولايات ، وتكثرُ الجهاتُ والإقطاعات ، كان يومُ الخرجِ^(٨) أكثرَ من
الدخلِ^(٩) ، والمصروفُ من الخزانة كالوَبَلِ^(١٠) ، والدخلُ كالطَلِ ، وإذا زاد
المصروفُ على الحاصل ، عجزَ الواصل ، وفرغَ الحاصل^(١١) ، ودلَّ ذلك على
ركاكةِ الهمة ، وقصورِ النهضة . والملكُ يجبُ عليه ، والمنسوبُ في شرعِ همتِهِ
إليه ، أن يكونَ كلُّ وقتٍ جديداً ، في فتحٍ سعيد ، وتَرْقٍ مزيد ، وتوسعةِ الممالك ،
وتنزیه بباطِ السلطنة عن المنازعِ والمشارك ، والاستكثار من الجندِ والرعية ،
واستحلابِ خواطرهم الأنيَّة ، بالجوائرِ السنينة ، والإنعاماتِ السمية . ولا يجوزُ في
ملةِ الإسلام ، أن يتعذَّرَ الخليفةُ الإمام ، واللهُ دُرُّ القائل ، العليُّ الشماثل .

إذا ما لم تكن ملكاً مطاعاً فكُن عبداً لملكٍ مُطعاً

(٨) الخرج : يقصد به مصروفات الدولة ونفقاتها .

(٩) الدخل : يقصد به واردات الدولة .

(١٠) الوَبَل : المَطَرُ الشديد .

(١١) الحاصل : المحزون ، ويقصد به هنا ميزانية الدولة .

كما تهوَّاهُ فانركَّها جميعا

فإن لم تملك الدنيا جميعا

وناهيك ، يا ملكَ الممالك والممالك ، في علوِّ المهمة ، وصدقِ العزيمة ، وغوصِ الأفكار ، في استخلاصِ ممالكِ الأقطار ، قضيةَ فحلِّ الرجل ، تيمورلنك ، الأعرج الدجَّال ، مع نائبهِ "الله داد" أحدِ القوَّاد ، ونوَّابِ البلاد . فسأل أبو مزاحم ، أخاهَ عديمَ المراحم ، عن تلك القضية ، وإيضاحها عن جليلة .

[١/٧] قصة تيمورلنك مع نائبه

فقال : إن تيمورَ رأسَ الفسَّاق ، الأعرج الذي أقام الفتنة على ساق ، لَمَّا حَلَّ بالممالك الرومية ، في شهورِ سنةِ خمسٍ ومِائَةٍ ، وأسرَ مالِكها ، واستخلصَ مالِكها ، استمر في ممالكِ العربِ يصول ، وفي فكرهِ استخلاصُ ولاياتِ الشرقِ يهول . وكان أقصى ما انتهت إليه في الشرقِ مملكته ، ونفذت بسهامِ أحكامهِ فيه أفضيته ، بلداً يسمى أشبارَه ، قد أعدّه لشياطينِ النهبِ والغارة ، وبنى فيه قلعة ، ونقل إليه من ذوي المنعة ، جنداً منتخباً من كل بقعة ، وهو في بحرِ ممالكِ المغلِ والتار ، والجدُّ الفاصلُ بين ممالكه وولاياتِ عِبَادِ الشمسِ والنار ، وأمرَ على أولئك الأجناد ، شخصاً يدعى الله داد ، وهو من خواصِّ أمرائهِ ، ورؤساءِ جنده وزعمائه . فمن جملة ما أمره به ذلك المشوم ، وهو مُخَيَّمٌ ببلادِ الروم ، أَنَّهُ أُرِزَ إليه مُراسَلَةٌ ، فيها أمورٌ جملة ومفصلة ، أمره باستئصالها ، وإرسالِ الجوابِ ببيانِ كَيْفِيَّةِ حالها . منها أَنَّهُ يُبَيَّنُّ لَهُ أوضاعُ تلكِ الممالك ، ويوضحُ كَيْفِيَّةُ الطرُقِ بها والمسالكِ ؛ ويذكرُ لَهُ مدنها وقراها ، وودعها وذراها ، وقلاعها (وصياصبيها)^(١) ، وأدانيها وأقاصيها ، ومفارزها وأوعارها ، وصحارها وقفارها ،

^(١) صياصبيها : حصونها .

وأعلامها ومنارها ، ومياها وأنهارها ، وقبائلها وشعابها ، ومضايق دروبها ورحابها ، ومعالمها ومجالاتها ، ومراحلها ومنازلها ، وخاليتها وأهلها ، بحيث يسلك في ذلك السبيل الإطناب الممل ، ويتجنب ما أخذ الإيجاز خصوصاً المخل ، ويذكر مسافة ما بين المنزلتين ، وكيفية المسير بين كل مرحلتين ، من حيث تنتهي إليه طاقته ، ويصل إليه علمه ودرايته ، من جهة الشرق وممالك الخطا^(١٣) وتلك الثغور وإلى حيث ينتهي إليه من جهة سمرقند علم تيمور ، ولعلم أن مقام البلاغة في معاني هذا الجواب ، هو أن يصرف فيه ما استطاع من حشو وإطناب ، وتطويل وإسهاب ، وليسلك في بيانه الطريق الأوضح من الدلالة ، وليعدل عن الطريق الخفي في هذه الرسالة ، إلى أن يفوق في وصف الأطلال وتعريف الرسوم ، وحلود الدمن صفة الشيخ القيصوم . فامتثل "الله داد" ذلك المثال ، وصور له ذلك على أحسن هيئة وأتقن تمثال ، وهو أنه استدعى بعدة أطباق ، من نقي الأوراق ، وأحكمها بالإلصاق ، وجعلها مربعة الأشكال ، ووضع عليها ذلك المثال ، وصور جميع تلك الأماكن ، وما فيها من متحرك وساكن ، فأوضح فيها كل الأمور ، حسبما رسم به تيمور ، شرقاً وغرباً ، بُعداً وقرباً ، يمناً وشمالاً ، مهاداً وجبالاً ، طولاً وعرضاً ، سماءً وأرضاً ، مرداء^(١٤) وشجراً ، غبراء وخضراء ، منهلاً منهلاً ، ومنزلاً منزلاً ، وذكر اسم كل مكان ورسمه ، وعين طريقه ورسمه ، بحيث بين فضله وعينه ، وأبرز إلى عالم الشهادة غيبه ، حتى كأنه شاهده ، ودليله ورائده . وجهز ذلك إليه ، حسبما اقترحه عليه ، كل ذلك وتيمور ، في بلاد الروم بمور ، وبينهما مسيرة سبعة شهور . وكذلك فعل ذلك البطل ، وهو بالبلاد الشامية ، سنة ثلاث ومائتين ، مع القاضي ولي الدين ، عمدة المؤرخين ، أبي هريرة عبد الرحمن بن

(١٣) ممالك الخطا : في الصين ، حيث الامبراطورية المغولية .

(١٤) المرداء : الأرض الخالية من النبات .

خلدون ، أغرقه الله في فلك رحمة المشحون ، وقد سألته عن أحوال بلاد الغرب ، وما جرى فيها من صلح وحرب ، وما وقع فيها من خير وشر ، ونفخ وضر . ثم أنه اقترح عليه ، وتقدم بالأمر إليه ، بوضع أوضاعها ، ورسم مدنها وقلاعها ، وحصونها وضياعها ، وتخطيط ولايتها ، وأشكالها وهيئاتها . فامتثل ذلك وأبداه ، وعلى حسب ما اختاره وأقرحه أنهاه ، وبين ذلك مثلما ذكر أعلاه . فشاهد أوضاعها ، وخبر وهادها وبقاعها ، كأن الحائل رفع من بين ، وعين عين ذلك الإقليم بالعين ، فانظر إلى هذا الأعمى^(١٥) ، وهو "سطيح" نصف آدمي^(١٦) ، وحمته العالية كالبرق ، تضرب تارة في الغرب وأخرى في الشرق .

وإنما أوردت هذه القضية ، ليقف سامعها على مقدار الهمة العلية ، فلا يرضى الملك الهما بالمنزلة الدنية ، ولا يقنع بالدرجة الوطنية ، بل يجتهد في تكثير الجند والرعية ، وفتح الأقاليم العربية والعجمية ، ولا يقتصر على الحالة السوية ، وإنما يلزم طلب الارتقاء بكرة وعشبة ، ويكون سعيه كالشكر يطلب المزيد ، وكما يستديم طلب الزيادة ، من مولاه يستديم زيادة العبيد ، وإلا فينسب إلى قصور الهمة ، وإفلاس الذمة ، ونقصان الحرمة ، وبطلان الحشمة ، وأعظم بها من وصمة ، وبالعجز والتقصير ، يضيع حقوق الملك الخطير ، وتجد الرعية للطعن مقالا ، وفي ميدان الإعراض عن الملك بحالا ، وهذا خلاف موضوع الإمامة ، وعكس ما تقتضيه الرئاسة والزعامة ، فإن موضوع السلطنة ، أن يتعاطى الملك مهما أمكنه ، من أسباب الفتح والفتوح ، وما يستعمل به من الرعية القلب والروح ، وذلك بالإحسان والإكرام ، والبذل والإنعام ، فيه تقوى رغبتها ، وتزداد

(١٥) الأعمى : البطية الحركة الذي يعمل في العتمة .

(١٦) سطيح : كان شبه أسطوري ، عاش في العصر الجاهلي ، كان لديه قدرة بارعة على التنبؤ والكهانة .

مَجْتَمِعُهَا ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ ، قُلَّ الْمَمْلُوكُ عَنِ الْمَمَالِكِ . وَاسْمَعُ قَوْلَ الْأَدِيبِ ، ذِي الرَّأْيِ الْمَصِيبِ ، وَهُوَ :

إِذَا أَهْمَلْتَ أَمْرَ الْعَبْدِ يَوْمَاً وَقَصُرَتْ الْعَلِيقُ عَنِ الْحِمَارِ .
تَوَقَّفَ فِي الْمَسِيرِ أَبُو زَيْبَادٍ وَقَامَ الْعَبْدُ يَجْرِي لِلْفَرَارِ

وَقِيلَ : " وَاللَّتْرُ يَقْطَعُهُ جَفَاءُ الْخَالِبِ " وَقَالَ أَشْرَفُ جَنْسِ الْإِنْسَانِ " عَلُوُّ الْهَمَلَةِ مِنْ الْإِيمَانِ " فَالرَّأْيُ السَّيِّدُ عِنْدِي وَالَّذِي بَلَغَ إِلَيْهِ جُهْدِي ، إِنْفَاقُ هَذِهِ الْعَزِيمَةِ ، وَسُلُوكُ طَرِيقِهَا الْقَوِيمَةِ ، وَإِبْرَازُهَا مِنْ مَكَانِ الْقَوْلِ ، إِلَى ظَوَاهِرِ الْعَمَلِ وَالْحَوَلِ ، وَالِاعْتِمَادِ عَلَى مَا قِيلَ :

فَلَا تَنْ عَزَمَكَ خَوْفُ الْقِتَالِ بِسُمْرٍ دَقَاقٍ وَبِضِّ حِدَادٍ
عَسَى أَنْ تَسَالَ الْعَنِي أَوْ تَمُوتَ فَعَلَّوْكَ فِي ذَاكَ لِلنَّاسِ بَادٍ
فَبِإِنْ لَمْ تَسَلْ مَطْطَباً رُقْمَةً فَلَيْسَ عَلَيْكَ مِثْوَى الْإِجْتِهَادِ

فَأَقْبَلَ الْمَلِكُ عَلَى الْمَقْبِلِ ، وَقَالَ : تَوَجَّهْ بِكُلِّيَّتِكَ عَلَيَّ وَأَقْبِلْ .

وَلَا تَبْقِ مَجْهُوداً بِرَأْيِكَ إِنْسَةً سَدِيدَةً وَقَدْ يَقِفُ^(١٧) السَّادِدَةُ سَدِيدَةً

فَإِنَّ الْقَلْبَ قَدْ مَالَ إِلَى الْعَزْمِ ، وَالْأَخْذِ فِي التَّوَجُّهِ بِالْحَزْمِ ، وَتَرْجِيعِ جَانِبِ الْوُثُوبِ ، إِلَى جِهَةِ هَذَا الْمَطْلُوبِ ، فَأَمْعِنِ النَّظَرَ ، وَأَجَلِّ قِدَاحَ الْفِكْرِ ، وَلَا تَتَخَفِ رَأْيَا يَسْنَحُ ، فِي أَيِّ جِهَةٍ تَرْجِعُ . فَقَالَ : أَفْعَلُ بِشَرْطِ أَنْ يُقْبَلَ : أَعْلَمُ زَادَكَ اللَّهُ عِلْماً ، وَفَضْلاً وَكِرْماً وَحِلْماً ، أَنْ الَّذِي رَأَى الْعُلَمَاءُ ، وَأَشَارَ بِهِ ذُووُ الْحِكْمَةِ مِنَ الْحُكَمَاءِ ، أَنَّ مَنْ طَلَبَ وَفَوَّرَ خَيْرِهِ ، وَفَائِدَةَ نَفْسِهِ فِي مَضَرَّةٍ غَيْرِهِ ، لَا يَتَمَتَّعُ بِتِلْكَ الْفَائِدَةِ ، وَلَا تُثْمَرُ مَعَهُ تِلْكَ الْعَائِدَةُ ، وَهَذَا عَلَى تَقْدِيرِ حَصُولِهَا ، وَالِاسْتِيلَاءِ عَلَى فُرُوعِهَا وَأَصْبُولِهَا ، وَإِنْ لَمْ يَظْفَرْ بِهَا ، فَلَا تَسْتَفِذُ النَّفْسُ غَيْرَ كَرِّهَا ، مَعَ زِيَادَةِ الْحَسْرَةِ ، وَسُوءِ الصِّبَةِ فِي الشُّهُرَةِ ، وَوُفُورِ النَّدَمِ ، وَزَلَّةِ الْقَدَمِ ، وَكُلُّ مَنْ أَرَادَ تَمْشِيَةَ هَوَاهُ ، وَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَى

^(١٧) يَقِفُ : يَقِفُ أَثَرَهُ وَيَسِيرُ عَلَى نَهْجِهِ .

ما سيواه ، ورأى نفسه أحق من غيره ، فلا تطمع أبداً في خيره ، ولا يكاد ، يسلم من الإنكاد ، ولا يصفو له زمان ، ولا تدوم له أخلاء وإخوان ، ولا تنال ديم^(١٨) المموم ، من غمام الغموم ، تهمي على حداق آماله ، وتسقي مزارع أحواله ، إلى أن تحطل^(١٩) مخلات نيته ، وتيس حقول طويته ، ويحصنه حرث ألفنا ، ويليرسه دراس الردى ، ويذري حبات وجوده الهوان في الهواء ، ويُثقل عن يَدْرِ الشقاء ، إلى طاحون البلاء ، فهناك يجدح سويق^(٢٠) أفعاله ما يزيغه ، فيحسوه ويتجرعه ولا يكاد يسيغه ، ويصهر به ما في البطون ، ويُقال له : ذوقوا ما كنتم تكسبون . هذا وإذا كان الدحل لا يفي بالخرج ، وخيف من ذلك وقوع هرج ومرج ، فيحسن التدبير ، بتصرف الملك الخبير ، وبكفاية الوزير ، وتوفير المشير ، يحل الحفير ، ويكثر النزر اليسير ، كما قيل :

قليل المال تُصلِّحهُ فيقي ولا يقي الكثيرُ مع الفساد

وبالحلق الحسن وحسن السياسة ، فملك رقاب أولي الرياسة ، فضلاً عن العوام ، وهذا بحسب المقام ، ولا يتصور أن مجرد المال ، هو شبكة صيد الرجال ، فإن حِفْظَ الممالك ، هو وراء ذلك . وقد قال رسولُ خلائكم^(٢١) "إنكم لن تسعوا للناس بأموالكم ، فسعوهم بأخلاقكم" وشيء يحتاج في تحصيله ، والانتقطاع إلى وصوله ، إلى بذل أموال وأرواح ، وكذ نفوس وأشباه ، وإتباع خيل ورجال ، وارتكاب شائد وأهوال ، وبعد حصوله يتكلف في محافظته وحراسته وملاحظته ، إلى تحمل هموم وغموم ، وكلام وكُلم^(٢٢) . وأجبر الأمر يخرج من اليد ، ولا يبقى

(١٨) الديمة : المطر الكثير في صمت .

(١٩) تحطل : تقصر .

(٢٠) يجدح السويق : يخلطه ويمزجه .

(٢١) خلائق : الحظ والنصيب من الخير .

(٢٢) كلوم : جروح .

إِلَّا النكد والكُد ، فتزولُ في الدنيا اللذات ، مع معاناة الكُحُورات ، وتجرُّع الغصصِ والمشقات ، وتبقى في الآخرة التبعات ، كحديرٍ بأن لا يُلتفتُ إليه ، ولا يعولُ عليه ، ولا يُهتمُّ له بشان ، ويُستغنى عنه وإن احتيج إليه بقدرِ الإمكان ، وإلَّا فمثل الذي يعلقُ به فؤاده ، ويربط بدوامه وبقيائه اعتقاده ، ويتصور ذلك بفكره الفاسد ، ونظيره الكاسد ، كمثل كِشْرَى لما مات ولده ، وتفتت عليه كبده ، وحصل له عليه الاضطراب ، وردةٌ عن خطيئه البهلُول^(٢٣) إلى الصواب . فسأل أبو الحجاج ، أعاهُ المحجاج ، عن بيان هذا الأمر ، وكيفية إطفاء هذه الجمر .

[٢/٧] حكاية كسرى وموت ابنه

فقال المقبل ، ذكر محدثٌ معدل^(٢٤) ، أن كسرى كان له ولد ، قد سكن منه سويداء الخلد^(٢٥) ، يُخْجِلُ البدرَ ليلةَ تمامهِ ، ويستميلُ الغصنَ حالةَ قيامهِ ، وكان يحبه حباً جاوزَ النهاية ، وتعدى الحدَّ والغاية ، وكان لشدة شغفه ، استبعد حلولَ تليفه ، بل أحال وفاته^(٢٦) ، وأذهله عن تركِ الحقِّ وفاته^(٢٧) ، فأدركهُ الأجلُ المحتوم ، واستوفى مداهُ المعلوم . فاضطرب كسرى لموته واضطرب ، واصطلم بصخورِ فراقهِ واصطلم ، ولم يُقرَّ له قرار ، ولا طَوَّاعه اصطبار ، فوعظه العلماءُ فما أفاد ، وثبته الحكماءُ بضربِ الأمثالِ فأغياهم المراد . وكان في بلدٍ رجلٌ بهلول^(٢٨) يتردَّدُ إليه ، ويدخلُ في أكثرِ أوقاته عليه ، فيلاطفه في محاورته ، ويتهيجُ بكلماته في

(٢٣) البهلُول : السيدُ العظيم الحكيم ، الجامع لصفات الخير .

(٢٤) عول ، يوتئ بروائه .

(٢٥) الخلد : البال والنفس .

(٢٦) أحال وفاته : استبعد موته .

(٢٧) فاته : فاته الأمر : سهى عنه وغفل .

(٢٨) البهلُول : السيدُ الجامع لصفات الخير ، كما سبق .

مخاطبته ، فدخل عليه البهلول ، وهو كئيبٌ ملول ، لا تسرُّ حاله صديقا ، ولا
يهدى إلى السكون طريقا . فسأله عن حاله ، وما أوجبَ توزُّعَ باله ، وتغير
أقوله . فقال : يا بهلولُ عدمت ولدي ، وقرَّة عيني وراحةٌ روحي وجسدي :
لا صبرٌ يُجدي علي فراقه ولا معينٌ علي احراقه
وقلت :

أَوَاهُ مِنْ فِرْقَةِ الْأَحْبَابِ أَوَاهُ لَقَدْ كَوَى مِنْ حِشَا قَلْبِي سُوءُ الْوَاهِ
قال البهلول : نعوذُ بالله من ساعاتِ الذُّهول ، يا ملكَ الأنام ، إن عيسى عليه
الصلاة والسلام ، شكَا إليه بعضُ حواريه ، شيئا يشابه ما أنتَ فيه ، فقال :
« كُنْ لِرَبِّكَ كَالْفَرِحَمَامِ ، يَذْجُو فِرَاحَتَهُ ، وَلَا يَفَارِقُ مُنَاعَتَهُ ، وَلَا يَنْفِرُ
عَنَّهُمْ ، وَلَا يَشْكُو مِنْهُمْ . ثُمَّ إِنَّ الْبَهْلُولَ قَالَ : وَأَنَا لِي إِلَيْكَ سَوَالٌ ، فَأَجِبْنِي بِجَوَابِ
شَافٍ ، فَإِنَّكَ ذُو الْطَافِ ، فَلَا يَكُنْ فِيهِ جَزَافٌ . فقال : سل ، فكلامك لا يمل .
قال : أَكُنْتُ تَرْجُو أَنْ وَلَدَكَ لَا يَمُوتُ أَبَدًا ، وَأَنَّهُ يَصِيرُ فِي الدُّنْيَا مَخْلَدًا ؟ فقال : لا ،
وَلَكِنْ أَرَدْتُ أَنْ يَبْقَى مَدَّةً ، وَيَتَمَتَّعَ بِشَبَابِهِ وَبِنَعْمَتِهَا عِدَّةً ، وَيَلْتَذَّ بِطَيِّبِ الْمَاكِلِ
وَالْمَشَارِبِ ، وَيَقْضِيَ مِنْ أَوَطَارِ الشَّبَابِ الْمَآرِبَ ، وَيُوَسِّدَ أَبْدَانَهُ وَصَحْبَهُ ، ثُمَّ يَقْضِيَ
بَعْدَ ذَلِكَ نَحْبَهُ . قال : هَبْ أَنَّهُ عَاشَ مَهْمَا رُئِيتَ ، وَقَامَ وَقَعَدَ فِي الدُّنْيَا كَمَا قَعَدْتَ
وَقَمْتَ ، وَعَاشَ الْعَيْشَ الطَّيِّبَ ، وَهَمَى عَلَيْهِ مِنْ سَمَا مَلَأَتْهَا الْوَابِلُ الصَّيْبُ^(٢٩) ،
وَحَصَلَ لَهُ مِنَ الْعَيْشِ الْهَيِّ ، وَالْعَمْرِ السَّيِّ ، أَمْثَالُ الْجِبَالِ ، وَأَعْدَادُ الرَّمَالِ ، فَعِنْدَ
مَفَارِقَةِ الْعَيْشِ ، وَحُلُولِ الْحَقِّقَةِ وَالطَّيِّبِ ، هَلْ يَدْفَعُ عَنْهُ ذَلِكَ شَرًّا ، أَوْ يَرْفَعُ عَنْهُ بُؤْسًا
وَضَرًّا ، أَوْ يَجْلِبُ لَهُ مَنَفْعَةٌ ، أَوْ يَنْهَبُ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ مَعَهُ ، أَوْ يَفِيدُهُ أَدْنَى فَائِدَةٍ ،
أَوْ يَعُودُ عَلَيْهِ مِنْهُ عَائِدَةٌ ؟ قال : لا . قال : فَلَا تَأْسَ عَلَى مَعَاشٍ ، يَكُونُ عُقْبَى أَمْرِهِ
إِلَى لَاشٍ ، وَعَمَرٌ ذَاكَ مَصِيرُهُ ، سَوَاءٌ طَوِيلُهُ وَقَصِيرُهُ ، وَكَثِيرُ تَتَعُّمِهِ وَيَسِيرُهُ :

^(٢٩) المطر للنهمز الغزير .

وإذا كان فتتهى العمر موقباً فسواء طويله والقصير
فَيش ما شئت في الدنيا وأدرك بها ما شئت من حيث وصوت
فَحَبِلَ العمر موصولاً بقطع وخيط العيش معقود بموت

فَهَبْ أَنَّهُ عَاشَ ، وَنَهَبَ الْمَلَأَ وَحَاشَ ، وَعَلَا فِي أَرْضِ التَّنْعَمِ وَغَلَا وَحَاشَ ، كُلُّ ذَلِكَ فِي الْمَقْدَارِ ، عَلَى حَسَبِ مَا نَخْتَارُ ، وَأَنَّهُ جَاءَهُ الْقَضَا ، وَقَدْ قَضَى وَطَرَهُ وَمَضَى ، ثُمَّ قَضَى نَجَبَهُ وَقَضَى . فَجَبَرَ بِهَذَا الْكَلَامِ كَسْرِي ، وَسَرَى عَنْهُ هُمُهُ وَأَسْرَى . وَقَالَ الْآنَ سَكَنْتَ ، فَيَنْعَمُ النَّاصِحُ أَنْتَ .

وإنما أوردتُ هذا التنبيه ، أيها الملكُ النبيه لأغرضَ على الخواطرِ السعيدة ، والآراءِ السديدةِ الرشيدة ، أنَّ الاختصارَ عن هذا أوَّلَى ، وألْيَقُ بِالرُّكُونِ تَحْتَ إِرَادَةِ الْمَوْلَى . قَالَ الْمَدْبِرُ الْمَفْتَنُ الْمَعِيرُ : ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ يَنْبَغِي لَطَالِبُهَا ، أَنْ لَا يَفْتَكِرَ فِي عِرَاقِبِهَا ، الْأَوَّلُ : الْإِسْفَارُ فِي الْبَحَارِ ، وَالْغَوْصُ فِيهَا إِلَى الْقَرَارِ ، فَإِنَّ طَالِبَ الْجَوَاهِرِ النَّفِيسَةِ ، وَمَنْ قَصَدَ أَنْ يَكُونَ فِي صَدْرِ التَّجَارَةِ رَئِيسَهُ ، لَا يَخْشَى مِنَ الْغَرَقِ ، وَلَا عِنْدَهُ مِنْ ذَلِكَ فَرَقٌ^(٣٠) ، فَهَذَا يَعْنِي بِضَائِعِ الْمَالِ ، وَذَاكَ يَغْطِسُ إِلَى قَعْرِ الْأَرْحَالِ ، وَكُلُّهُمَا لَا يَتَفَكَّرُ فِي الْعَاقِبَةِ وَالْمَالِ . الثَّانِي : الْمَقْلِمُ عَلَى الْحَرْبِ ، وَالرَّشْقُ وَالطَّلْعُ وَالضَّرْبُ ، وَمِصَارَعَةُ الْأَيْطَالِ ، وَمِبَاشَرَةُ أَسْبَابِ الْقِتَالِ ، لَا يَنْزَعُ لُصُوتَ ، وَلَا يَفْكُرُ فِي الْهَزِيمَةِ وَالْجِرَاحِ وَالْمَوْتِ . وَالثَّالِثُ : طَالِبُ الرِّيَاسَةِ ، وَالْمَلِكِ ذِي السِّيَاسَةِ ، لَا يَفْتَكِرُ فِي الْاِقْتِحَامِ ، وَلَا يَتَوَاسَى فِي الْإِقْدَامِ ، وَلَا يَتَأَمَّلُ فِي الْعَوَاقِبِ ، وَلَا يَلْتَفِتُ إِلَى الْمُنَاقِبِ ، وَيَلْقَى نَفْسَهُ فِي الْأَخْطَارِ ، وَيَضْرِبُ إِلَى أَعْمَاقِ الْأَقْطَارِ ، وَيَجْعَلُ جُلَّ هُمِهِ بِلَوْغِ الْأَوْطَارِ ، وَقِيلَ :

يَقْدِرُ الْكَدُّ تَحْتَسِبُ الْمَعَالِي وَمَنْ طَلَبَ الْغَلَا سَهَرَ اللَّيَالِي
تَرَوْهُمُ الْعَزَّ ذَمَّ تَسَامُ لَيْلَا يَخُوصُ الْبَحْرَ مَنْ طَلَبَ اللَّيَالِي

(٣٠) الفرق : الحوف والودد .

وقيل :

إذا هَمَّ ، ألقى بين يديه عزمةً ونكَبَ عن دُخْرِ العواقبِ جانباً .

قال المقبل الحكيم ، وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم : أولو الألباب المميزون ، بين الخطأ والصواب الناظرون ، من مُبْتَدَأِ الأمور في أعقابها ، المستبصرون قبل وقوعها في مآلها ومآبها ، الآتون بيوتِ النوائبِ والنوازلِ من أبوابها ، قالوا : إذا تحصن أبو الحصين ، وأغلق عليه من وراء جدارِ بَائِثٍ ، ثم حاصره أسدٌ من خارج ، سَارَتْ قُوَّةُ الخارجِ قُوَّةَ الواجِ^(٣١) . ولا شك أن حركةَ العساكرِ ، وقَطَعَ الفياقي والدساكر^(٣٢) ، والتوجهُ إلى قتالِ مَنْ هو ساكنٌ في سيرِهِ ، محتاطٌ في أقلِّيه ودربه ، متحصنٌ في قلاعِهِ ، مُتَلَوِّقٌ بِحِجَفَةٍ^(٣٣) امتناعِهِ ، يحتاجُ في الأموالِ إلى إخراجِ ، وفي الرجالِ إلى إزعاجِ ، وتحملُ أخطارِ ، وتجشمُ أسفارِ ، وأخذَ ضعفاءِ تحتَ أقدامِ ، وهَدَمَ دورَ وقَطَعَ أرحامِ ، ومع هذا كُلُّه حصولُ المقصودِ موهومِ ، والظفرُ به غيرُ معلومِ ، فإنَّ حصلَ فقد مرَّ أن لا ثَبَاتَ ولا تَمَتُّعَ ، وإنَّ احتجبَ فهو وراءَ سِرِّ التمتعِ ، فكَمَ من دماءٍ حيثلُ تراق وقد كانت مصونةً ، وأموالٍ تُهْدَرُ وقد كانت مضمونةً ، وأعراضٍ تُهْتَكُ وقد كانت محترمةً ، وأنفسٌ تذلُّ وقد كانت عزيزةً مكرمةً ، والحقُّ في هذا مُتَضَحٌّ ، وَمَنْ نجا برأسِهِ فقد ربحَ .

وقد قَدِّمْتُ هذا التقريرَ وهندستُ هذا التقديرَ ، لأنَّ العاقلَ الماهرَ في التجارةِ ، كما يحسبُ الربحَ يحسبُ الخسارةَ . وكلُّ هذا في العاجلةِ ، فضلاً عن المحذوراتِ الآجلةِ ، من غضبِ الله وعقابه ، وتوبيخِهِ وأليمِ عذابه . وإذا خرج الأمرُ عن الهدى ،

(٣١) الواج : الداعِلُ .

(٣٢) الدساكر واحدُها دسكرة ، وهى القرية العظيمة .

(٣٣) المتلَوِّق : المُحْمِي بِتُرْسٍ من جلد .

(٣٤) الحِجَفَةُ : الدرس من جلود .

ودخل على القلب الاشتغال بالنكد ، وذهب المال والمال ، ونقصت الأهبة
والرجال ، وتناقص العُدُّ والعدُّ^(٣٥) ، وتناقص^(٣٦) المَلْدُ والمَلْدُ^(٣٧) ، فأبى حرمة
تبقي للملك عند الرعايا ، وقد قلَّتْ عنهم منه الأرفادُ والعطايا ، وكيف يستقرُّ
ملكه ، أو يدورُ على قَلْبِكَ الثباتُ فُلُكُه ، فلا تخافُه الرعيَّة ولا يرجوَنه ، ولا
يسمعون كلامه ولا يطيعونه ، ويصيرُ كالسحابِ الخَلْبِ^(٣٨) ، لا يُوثقُ منه بوعدٍ
ولا يحصلُ منه مطلب ، إنْ تكلَّم عابوا كلامه ، وإنْ حَكَم نقضوا أحكامه ، وإنْ
حَلَم قالوا عاجز ، وإنْ تقدَّم في الحرب قالوا مجنونٌ مبارز . وأما الغنيُّ ذو المال ،
فهو على عكسِ هذه الأحوال ، فإنْ رَأَوْا منه فضلا ، كان لكلِّ مكرمةٍ أهلا ،
فرفعوه إلى العُيُوق^(٣٩) ، وَكَانَ الْمُعْظَمَ المرموق ، إنْ أعطى قليلاً استصغروا حاتمًا
عنده ، وأطنبوا بلسان الثناء في شكرهم رفده ، وإنْ بخل قالوا مدبرٌ لا يضيِّعُ ماله ،
وإنْ كذب صدَّقوا قِيلَه وقاله . وفي الجملة حركاتُ الغنيِّ مستصوبة ، وكلما تـ

مر شفةٌ مستعذبة ، وقد قيل :

إِنْ حَسَرْتُ الْمَوِيرَ فِي مَجْلِسِ	قِيلَ لِي بِرَحْمَتِكَ اللَّهُ
أَوْ عَطَسَ الْمَغِيرُ فِي مَجْمَعِ	سَبُّوا وَقَالُوا فِيهِ مَا سَاءَ ^(٤٠)
فَمَحْزَرْتُ الْمَوِيرَ عَرِينَهُ	وَمَعْطَسَ الْمَغِيرَ مَفْسَاهُ ^(٤١)

وكما قيل :

(٣٥) العُدُّ : الاستعدادات .

(٣٦) تناقص : أحجم وتراجع ، ونقص .

(٣٧) المَلْدُ : الوقت .

(٣٨) الخَلْبُ : السحاب يومض برقُه حتى يرحى مطره ، ثم يظلم ويتفتت .

(٣٩) العُيُوق : بهم آخر مضى في طرف الهجرة الأيمن .

(٤٠) ما ساءه .

(٤١) عرنيه : ما صَلَبَ من عظم الأنف حيث يكون الشَّمَم .

الْفَقْرُ يَزِي بِأَقْوَامِ ذَوِي حَسَبٍ وَقَدْ يُسَوِّدُ غَيْرَ السَّيِّدِ الْمَالُ

ولقد رَشَقْتُ من أَقْوَامِ الْحُكَمَاءِ ، وَنَصَائِحِ الْبُلْغَاءِ ، بَلْ شَاهَدْتُ من النَوَائِبِ ، وَتَلَقَّيْتُ من ذَوِي التَّجَارِبِ ، وَتَحَقَّقْتُ في الدَّهْرِ أَبِي الْعَجَائِبِ ، أَنَّ الْفَقْرَ شَيْبَ الْفَتْيَانِ ، وَسَقَمَ صَحِيحِ الْأَيْدَانِ ، وَمَبْعَدُ الْأَقْرَابِ ، وَجَاعِلُهُمْ أَجَانِبَ ، وَقَاطِعُ الْأَرْحَامِ ، وَمَانِعُ السَّلَامِ ، وَمِغْضُ الْأَحْبَابِ ، وَمَفْرَقُ الْأَتْرَابِ ، وَمَشْتَتٌ شَمْلُ الْأَصْحَابِ .

وَبِالْجُمْلَةِ فَالَّذِي يَجِبُ عَلَى وَلِيِّ الْأَمْرِ ، التَّأَمُّلُ فِي قِصَارِ هَذَا الْأَمْرِ ، وَالتَّفَكُّرُ فِي عَاقِبَةِ هَذِهِ الْحَرَكَةِ ، وَمَا يَحْدُثُ فِيهَا مِنْ شُؤْمٍ وَبُرْكَاتٍ ، وَأَنْ يَجْمَلَ قِدَاحُ التَّنْبِيهِ ، وَالتَّبَصُّرِ وَالتَّصَبُّرِ ، وَيَتَبَيَّنَ فِي صِلْرِ هَذَا الْمَوْرِدِ الْمَضِيقِ ، وَمَا فِيهِ مِنْ مَحَالٍ أَوْ ضَيْقٍ ، وَلَا يَعْتَمِدُ فِيهِ عَلَى الْقُوَّةِ وَالْحَوْلِ ، وَأَسْبَابِ الطُّوْلِ وَالطُّوْلِ ، وَكَثْرَةِ الشُّوْكِ وَالْعُدَّةِ ، وَإِمْدَادِ الْعُدَّةِ وَالْمَدَدِ ، مَعَ عَدَمِ الْإِكْرَارِ بِالْإِنْخِصَامِ ، وَقَلَّةِ الْمَبَالَاةِ بِكُلِّ أَسَدٍ ضَرْغَامٍ ، فَإِنَّ الْأَسَدَ سُلْطَانُ السَّبَاعِ ، وَمَلِكٌ عَظِيمٌ كَثِيرُ الْجُنْدِ وَالْإِتْبَاعِ ، شَجَاعَتُهُ مَشْهُورَةٌ ، وَشَهَامَتُهُ مَأْتُورَةٌ ، بِهِ يَضْرِبُ الْمَثَلَ ، وَيُشَبِّهُ كُلُّ بَطْلٍ . وَنَحْنُ وَإِنْ كَانَ لَنَا عَسَاكِرُ كَالْجِبَالِ ، تَهْدُمُ الْحِصُونَ وَتَدَكُّ الْقِلَالُ^(١٧) ، لَكِنْ مَا جَرَيْنَا مِصَارِعَةَ الْأَسُودِ ، وَلَا مَارَسْنَا مِقَارِعَةَ النَّمُورِ وَالْفُهُودِ ، وَلَا نَعْرِفُ طَرِيقَ بِلَادِهِمْ ، وَلَا طَرِيقَةَ جِدَالِهِمْ وَجَلَادِهِمْ ، وَأَنْ لَمْ فِي الْخُرُوبِ أَسَالِيبُ ، وَفِي الْفَرَّاسِ الْفَرَّاسِ أَنْيَاباً وَمَخَالِيبُ ، فَأَخْشَى أَنْ لَا تَنْتَمِ هَذِهِ الْأُمُورُ ، وَتَقْصُرَ خَيَالُنَا عَنْ مِصَادِمِ مَا لَمْ مِنْ قِصَاصٍ ، فَيَرْجِعَ وَيَبَالُ هَذِهِ الْأُمُورُ عَلَيْنَا ، إِذَا ابْتَدَأُوهُ أَوَّلًا مَنْسُوبٌ إِلَيْنَا ، وَلَا نَحْصِلُ إِلَّا عَلَى النَّدَامَةِ ، وَالتَّوْبِخِ وَالْمَلَامَةِ ، وَيَخَاطِبُنَا الْحَدُّ الْوَبِيلُ ، بِمَا قِيلَ :

تَبَيُّ بِالْقَاضِي دَوْرَ النَّاسِ مَجْتَهِدًا دَارًا سَتَقْضَى يَوْمًا بَعْدَ آيَسَامٍ

(١٧) الْقِلَالُ : قَلَّةٌ كُلُّ شَيْءٍ قَلَّتْهُ وَاعْلَاهُ (الْفَلَاح) .

وقال المدبر : ولا شك إنَّ جوهرَ هذا النظام ، وعقودَ هذا الكلام ، صادرٌ عن فكرٍ بعيد ، ورأيٍ سديد ، وأمرٍ رشيد ، وتأملٍ في العواقبِ مفيد ، أصلُهُ الحكمة ، وفرعُهُ الشفقة ، وزهرُهُ المعرفة ، وثمره القنطة . ولكن من حين استولى على المُلْكِ كيومرث ، ومَرَّتْ^(١٧) على سريرِ التحكُّمِ أصبحَ الولايةَ أبلَسَ مَرَّتْ ، وسنَّ قواعدَ السياسة ، وأسسَ بنيانَ الرياسة ، وذلك زمانُ الابتدا ، وأوَّلُ ما مملَكَ على الدنيا ، وإلى هذا اليوم ، لم يزل القوم ، من الملوك في رَومَ ، وطلبُ الزيادةِ والسوِّمَ ، ولا عتبَ في ذلك ولا لوم ، وقل لي أيُّ مَلِكٍ مالِك ، تحكَّم في الممالك ، وسلك فيها المَسالِك ، ولم يقصدَ فيها الولاياتِ الشاسعة ، ولا الأقاليمَ الواسعة ، ولم يطلب الترفُّعَ على الأقران ، وعلوَّ المكانِ بقدرِ الإمكان ، والمَلِكُ عقيم ، والعاجزُ سقيم .. وكيف يُتصوَّر ، أيُّها المَلِكُ الأكبر ، أن تكونَ همَّةُ المَلِك ، أدنى من همَّةِ تاجرٍ في البحرِ ينهمك ، فإنَّ التاجرَ إذا افتكرَ في لذَّةِ القائدة ، وما يعودُ عليه العائلة ، وغرَّتُهُ كما يقال "التسع أواق"^(١٨) الزائدة ، ه يضعُ جميعَ مالِهِ ، وما تصلُّ إليه يَدُهُ من خَلْمِهِ ورجاله ، في الفلَكِ المشحون ، ولا يرهبُ رَبِّبَ المتون ، ويركبُ وهو أيضا فيه ، ولا يَتلِفُ إلى عجائبِ دواهيهِ ، ولا يفتكرُ في الغرق ، ولا في جَبْرِ السفينة ولو انخرق ، ويسلِّمَ قيادَهُ إلى متصرفِ الهواء ، ونفْسُهُ ومالُهُ إلى حاكمِ الماء ، ودونك يا ذا الخشمة ، والوافرِ الحرمة ، ما قاله العاشقُ العاليُ الهمة :

ابنُ الخليفةِ ذى السريرِ	إنَّ تَهَوَّ بَدراً فليكنْ
أو ذى الوزارةِ أو أميرِ	أو ابنُ سلطانِ السورى
وذا القلندرِ الخفيرِ	وتجنبِ الأوغادَ والغوغبا

^(١٧) يقال مَرَّتْ إصبهه : مَضَى .

^(١٨) أواق : مفردُها أوقية ، وهى جزء من اثني عشر جزءاً من الرطل المصرى والجملة عبارة مثلية تشير إلى الرغبة فى الاستراحة إلى حدِّ الطمع والغفارة ..

إن الخطير هو الذى قد قسام بالأمير الخطير

وأما قولكم : عساكرنا أغمار ، لا دراية لهم بتلك الديار ، ولا معرفة لهم بمصادمة الأسود ، ومقاومة تلك الجنود ، فاعلم أيها الوزير ، الفاضل الكبير ، أن الأسد ملك كاسر ، وعلى سفك الدماء حاسر ، وأن في رعيته من أذاه وأنكاه ، في ذويه وأبكاه ، وكسر جبراً واستعراه قسراً ، واستولى عليه قهراً ، فهو متفطر تنفس الزمان ، مترقب انقلاب الحدثان ، متوقع أيها الفضيل ، معنى ما قيل :

إذا لم يكن للمرء في دولة امرئ نصيب ولا حظ فمضى زوالها

فإذا سمع بأحد خرج على الأسد ، ولو كان أقل الأعوان فضلاً عن ملك الأفيال ، بل قيل الأفيال^(٤٥) ، الفاضل في ذاته ، الكامل في صفاته ، العادل في رعيته ، البار بأهل ولايته ، المحسن إلى أهل مملكته ، المشفق الخليم ، الرؤوف الرحيم ، فيالضرورة يبادر إلى اللقاة ، ويسارع إلى ما كان يتمناه ، ويغتنم عبودية الملك ويعدها غاية مرتجاه ، فيسدل على عورات العدو ومظان عثراته ، ويرشد إلى طرائق نكباته ونكباته ، وينادي في النادي : نلتُ مُراي ، على رغم الأعادي ، ويعلن بإنشادي ، للحاضر والبادي :

إذا كان للإنسان في دولة امرئ نصيب وإحسان فمضى دوائها

وأيضاً في ذلك الإقليم ، من هو متشبث بامرٍ جسيم ، وهو ما له من مال وأولاد ، وإقطاعات وعقار وبلاد ، وسوائم ومواش ، وأثقال وحواش ، فلا يمكنه التحول عن طريقنا ، ولا التحمل لرعودنا وبروقنا ، ولا قوة المقاومة ، ولا طاقة المصادمة ، فيالضرورة يصانع عن تعلقاته بالطاعة ، ويتشبث بذيل سنيته مع الجماعة ، فنستمد بآرائه ورؤاه ، ونستفيد فيما نحن بصدد دوائه لدائه . فقال الملك للمقبل^(٤٦) : ما

(٤٥) ملك الملوك .

(٤٦) المقبل : اسم الوزير الذى يعارض الغزو والمعنون .

الجواب ، عن هذا الخطاب ؟ فقال : هذا المقال ، وإن كان لا يخلو عن الاحتمال ، ووقوعه غير محال ، لكن الأقرب إلى النهن أن هذا لا يقع ، لأنه أمر مبتدع ، ولأن طبائعا مخالفة لطباعهم وأوضاعنا غير أوضاعهم ، وناهيك ، أن كلاب الحارة ، في النهب والغارة ، يمزق بعضهم بعضا ، ويتناحرون فيما بينهم حرصاً وبغضا ، حتى إذا دخل بينهم ذيب ، أو حيوان غريب ، توجهوا إليه ، واتفقوا عليه ، فمزقوا أديمه^(٤٧) ، وهتكوا حرمة ، وجعلوا لحمه لجماعتهم وليمة . وعند الأسد من الوحوش أنواع ، ما بين سباع وضباع ، وغور وذئب ، قروذ وذباب ، وفهود وكلاب ، كلهم على طباعه ، متفقون على اتباعه ، وإن اختلفت عليهم الثياب ، لكن الكل كلاب أولاد كلاب ، وكل من هؤلاء ، على ما هم عليه متفقو الأهواء ، له على خصمه ، في مجادلته وخصمه^(٤٨) ، دربة في المساورة ووثبة في المغاورة ، وأنواع في الكر والفر ، وروغات في الخير والشر ، ومداخل ومخارج ، ومدارك ومعارك ، وليس في عساكرنا سوى الصدمات ، والخطم^(٤٩) بقوة النهضات والعزمات ، فإن أفاد هذا الاصطدام ، وإلا فما ثم إلا الانهزام .

فلما بلغ المقبل في الكلام ، إلى هذا المقام ، وكان رسخ ، في قلب الملك من كلام المدير^(٥٠) الوسخ ، فما أثر نصيح المقبل وما أفاد ، لأن النفس بطبعها مائلة إلى الفساد . فشرع الملك واعتمد ، على التوجه إلى بلاد الأسد ، وأمر رؤساء فيلة الهنود ، بجمع العساكر والجنود ، وأشيع ذلك في أطراف الممالك . فاطلع على هذه الأحوال ، غراب يكتي أبا المرقال ، كان له وطن وولد ، وسكن في ممالك الأسد ،

(٤٧) الأديم : الجلد .

(٤٨) الخصم : الجدل .

(٤٩) التراحم في الحرب .

(٥٠) المدير : الوزير الذي يدعو إلى الغزو والمعاون .

لكنه قديم جزيرة الأفيال للتنزه ، على سبيل التفرُّج والتفكُّه ، ففسرع يتأمل في هذه الأمور ، ويستتج من قضاياها ما يتولَّد من سرورٍ وشورٍ ، فانهى سابق أفكاره ، في ميدان مضماره ، إلى أنَّ هذه القضايا ، تُسفر عن بلايا ورزايا ، وإراقة دماءٍ وخرابٍ أماكن وهلاكٍ رعايا ، سواء تمت للأفيال ، أو رجعت عليهم بالوبال . فحاف على سكنه ، ودمارٍ أهله ووطنه ، فأدَّى فكره الأسد^(٥١) ، أن يُطلع على ذلك الأسد ، ليتداركه بحسن آرائه ، ويعترف للغراب بحسن وفائه ، فيكرُّ بكوره ، وقصد دوره ، فوصل في أقرب زمان ، ونادى الريال^(٥٢) أبا الزعفران ، وقال : الله الله ، إني أنا النذيرُ العريان ، وأطلع الأسد ، على هذا النكد ، وقرر معه حقيقة الأحوال ، وما عزم عليه ملك الأفيال . فتشوّشت لذلك الخواطر ، وتصدَّعت لخوفه الأكابر والأصاغر . ثم أمر السباع ، وطوائف الوحوش بالاجتماع ، مع رؤساء مملكته ، وأساطين خاصته ورعيته ، وذكر لهم هذا الأمر المهول ، وما عزم عليه ملك الفيول ، وأذن لكل واحدٍ منهم في ذلك بما يقول . فوقع الاتفاق ، من أولئك الرفاق ، أن يتفق أعيان ، كل جنسٍ من الحيوان ، على رئيسٍ من جنسهم ، يقيمونه مقامَ أنفسهم ، يرضون بأقواله ، ويقتفون آثارَ أفعاله ، وليكن من أهل الخصافة والكفاية ، واللطافة والدراية ، والشفقة العامة والمعرفة التامة ، يعقد معهم للمؤامرة^(٥٣) ، مجلس رأي ومشاورة ، فمهما وقع عليه الاتفاق ، وأجمع عليه الرفاق ، واستصوبه الأسد وارترضاه ، أتبعوه وعملوا بمقتضاه . فتقدَّست طائفة الأسود ، إلى نأج^(٥٤) منها نهاد ، سبع يسود ، على طوائف الأسود ، طالما افترس

(٥١) الأسد : السديد .

(٥٢) الريال : مختلف الرجال ، وهو الأسد .

(٥٣) المؤامرة : للمؤمر (للتلؤؤى) .

(٥٤) نأج : الأسد .

الأقران ، وانغمس في دماء الشجعان ، وأضاف جوارح الصيد ، فضلات ما افترسه
من عمرو وزيد ، كاسر جاسر ، باسل باسل ، حاسر قاسر ، ظاهرة أبي ، وباطنة
بالمكر غني :

أسد يسود على الأسود زليخة رعد وعيناؤه بروق تحطف
فقدّموه واختاروه ، واستشاروا رأي رأيهم وامتاروه .

واختارت النمرور نمرور ، سريع الوثبة ، بديع الضربة ، لطيف الحركات ،
خفيف النهضات ، قوي الشمس^(٥٥) ، خفي الاختلاس ، كثيراً ما كمنر
أسامه^(٥٦) ، وسامى أسود خفان فأسر ضربه غامه^(٥٧) ، كما قيل :

نور قحاف الأسد من وثابه وتحار في حركاته وثابه^(٥٨)

وقدّمت الثعالب ثعلباً لطيف الروغان ، ظريف الزوجان ، خفي الحيل ، قوي
الميل ، طالما فر من طيل وأهال ، على الصيادين من أهوال ، وأحرق السلوقيات^(٥٩)
سلاحه^(٦٠) ، ونفذ في غالب الأسود بالمكر سلاحه :

يعزلني سلوق من قفاه فيخلص من مخالبها سليما

واعتمدت الذئاب ، في هذا الباب ، على ذئب فعلة عجيب ، وأمره غريب ،

^(٥٥) الشمس : الإباء ، وشمس : قابى واستعصى ، وهم بالأذى .

^(٥٦) الأسد .

^(٥٧) الأسد .

^(٥٨) قفزاته .

^(٥٩) السلوقيات : كلاب جيدة تنسب إلى قرية سلوق باليمن .

^(٦٠) سلاحه : ما يخرج من البطن من الفضلات .

سديدُ الختلِ^(١١) والختَرُ^(١٢) ، شديدُ المكرِ والكسر ، طللاً أفسد ثلّة^(١٣) ، ودخل في قطع ماشيةً فقطعه كلّهُ ، يُعجزُ الأسودَ والنمورَ والفهود ، شيمتهُ الغدرُ والخديعةُ ، ودأبهُ المكرُ وسوءُ الطبيعةُ :

وَلَقَدْ جَمَعَ الضُّلَيْنِ تَوَّماً وَيَقْظَةً يَخَافُ الرِّزَايَا فَهُوَ يَقْظَانُ نَائِماً

فاختلني أبو الأشبال ، وشاورهم فيما دهمه من الأحوال ، وتوجّه بالخطابِ إلى الأسد ، وقال ما رأيك في هذا النكد ؟ فقال : لا تطلبُ النصر ، في هذا الحصر ، إلّا من مالِكِ العصر ، ومصرفِ أحوالِ الدهر ، بين الفرج والقسر ، وهو الله سبحانه وتعالى ، وعز شأنه وجلّ جلاله . فإنّا مظلومون وهم ظالمون ، ونحن ما اعتدنا عليهم ، ولا تقدّمنا بالظلم إليهم ، فسيردُ الله كيدهم في نحركم ، وسيحقُّ بهم عاقبةُ مكرهم . وهذا أمرٌ مقرر ، وأظنه هو المقدر . وأمّا ما يتعلقُ بنا وبهم ، من الفرارِ والصلحِ أو حربهم ، فأذكره على التفصيل ، وأخيرُ في ذلك الرأي الجميل . أما الفرارُ فلا سبيلَ إليه ، ولا معولٌ أبداً عليه ، وأنّى ذلك وهو عيبٌ ما وُصِفَتْ به الأسود ، ولا لهم به وصفٌ معهود ، وبنا يُضربُ المثلُ في الشجاعةِ والبُبالَةِ ، وتشبّه بنا الأبطالُ في الإقدامِ لا محالة ، وكيف نتركُ بلادنا ، وأهلنا وأولادنا ، من أوّلِ وهلةٍ ، ونعزمُ على الرحلة ، ولا صادمناهم ، ولا واقفناهم ! ولو فعلنا ذلك فهربنا ، وتركنا ما لنا وذهبنا ، لفسدت أمورنا ، وغربت ممالكنا ودورنا ، ولانقرط نظامنا ، وتعوّج قوامنا ، واستمرّت هذه الملامة ، إلى يومٍ

(١١) الختلُ : الخداع والمراوغة .

(١٢) الختَرُ : الإفساد والغدر .

(١٣) الثلّة (بفتح التاء) : جماعة الغنم .

القيامة ، ولتدام علينا هذا العار ، ولا يقرّ لنا بعد ذلك قرار . واعلم أيها الملك ،
نور الله وَجْهَ السَّريِرِ^(٦٤) بك ، أن العمرَ السَّني ، ما مرّ في العيشِ الهنيّ وقد قيل :
ما العمرُ ما طالَ به البُفسورُ الثُّمُرُ ما طابَ به السُّرورُ .
والعمر الذي يمرّ في نكد ، لا يَحْتَسِبُهُ مِنْ ذوي الكفايةِ أحد ، وحسبك ما ذكره
المترجم ، من حكاية الملك المعزول مع المنجّم ، فسأل أبو الأشبال ، سرّ هذا
المثال .

[٣/٧] حكاية الملك المعزول مع المنجم

فقال الأسد : ذكر القاتل ، أن أهل بابل ، كانت عاداتهم في دينهم ، وسلوكِ
طريقهم مع سلاطينهم ، أنهم إذا اعتنوا بشخصٍ مَلَكُوهُ ، واتَّبَعُوا طريقَ أمرِهِ
وسَلَكُوهُ ، وبنلوا في طاعته ما مَلَكُوهُ ، فإذا أرادوا عَزْلَهُ تركوه ، ونشزوا^(٦٥) عنه
وفرَكوه^(٦٦) ، وأهملوا إحسانه وفَلَكُوهُ^(٦٧) ، وسكَنُوا غيره في سريِرِ المَلِكِ
وحرَكُوهُ . فاتفقَ أنهم وَلَّوْا واحداً وأعزَّوه ونصروه ، ثُمَّ خَلَلُوهُ ، وأقبلوا عليه أوْلاً
ثُمَّ قَتَلُوهُ^(٦٨) . وكانت مُدَّة ما بين ذلك يسيرة ، وعمرُ أبيايه في ولايته قصيرة ،
فحصلَ لَهُ أوْلاً السُّرور ، ثُمَّ تَرَاكَمَتْ عَلَيْهِ بالعزلِ الشُّرور ، فاحتوشته الفُكر ،
وبات يصارعُ القضاء والقدر . ثُمَّ قال : لو راقِيتُ في أوَّلِ الجلوس ، ما في الطالِع
من سعوي ونحوس ، ثُمَّ احترتُ لساعةٍ ارتقائِي ، وقتاً يطولُ في بقائِي ، وذلك يكونُ

^(٦٤) السريِر : العرش .

^(٦٥) نشزوه : خرجوا عليه وتفرقوا عنه .

^(٦٦) فرَكوه : كرهوه وأبغضوه .

^(٦٧) فَلَكُوهُ : فرغوا منه وأنهوه .

^(٦٨) بمعنى قَرَّرُوا قتله .

نَحْمِي فِي بَرْجٍ ثَبَتَ ، لَمَّا انْقَلَبْتُ كَوَاكِبُ سَعْدِي عَنِ الاسْتِقَامَةِ وَلَا نَبَتْ^(١٩) ،
وَلَكِنْ حَيْثُ فَاتَ ذَلِكَ فِي الْإِبْتِدَاءِ ، فَأَتَدَارَكُهُ فِي الْإِنْتِهَاءِ ، فَلَعَلَّ ذَلِكَ يَفِيدُ ،
وَيُرْدُنِي إِلَى سِرِيرِ السَّرُورِ وَيَعِيدُ . ثُمَّ طَلَبَ مَنْجَمًا حَازِقًا ، مَاهِرًا فِي صَنْعَتِهِ فَاتَّقَا ،
وَقَالَ : انْظُرْ فِي طَالِعِ خَدِّي ، وَتَأَمَّلْ بُرْجَ نَحْسِي وَسَعْدِي ، وَاخْتَرْ لِي سَاعَةً يَصْلُحُ
فِيهَا النُّزُولُ عَنِ السَّرِيرِ ، وَيَكُونُ الْعَوْدُ إِلَى السَّرِيرِ ، بِوَسْطَةِ النَّاطِلِ إِلَيْهَا غَيْرَ عَسِيرٍ ،
فَإِنَّ النَّاطِلَ إِلَى الطَّالِعِ ، هُوَ الْجَالِبُ وَالْمَانِعُ .

فَامْتَثَلَ الْمَنْجَمُ مَا رَسَمَ ، وَشَرَعَ فِي وَضْعِ الْأَشْكَالِ وَالْقَسَمِ ، ثُمَّ قَالَ : أَحْسَنُ مَا
نُظِرَ فِي الطَّالِعِ الْمَسْعُودِ ، مِنْ حِينَ الْمِيلَادِ فَإِنَّهُ أَوَّلُ الْوُجُودِ ، فَإِذَا أُخِذَ الطَّالِعُ مِنْ
سَاعَةِ الْمِيلَادِ ، تَرْتَبَ عَلَيْهِ مَا يَصْدُرُ عَلَى ذَلِكَ الْمَوْلُودُ مِنَ السَّعْدِ وَالْإِسْعَادِ ، وَمِنْ
الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ فِي عَالَمِ الْكُونِ وَالْإِفْسَادِ ، فَهَلْ أَطَّلَعَ الْمَلِكُ فِي أَيِّ سَاعَةٍ وَجَدَ ،
وَكَمْ أَتَى عَلَيْهِ مِنْ حِينَ وُلِدَ ؟ قَالَ : نَعَمْ أَعْرِفُ مَدَّةَ عُمُرِي جَزْمًا^(٢٠) ، وَهِيَ اثْنَانِ
وَعِشْرُونَ يَوْمًا . فَتَعَجَّبَ الْمَنْجَمُ مِنْ مَقَالِهِ ، وَلَمْ يَقِفْ عَلَى حَقِيقَةِ هَذِهِ الْأَسْرَارِ .
فَقَالَ : مَدَّةَ اسْتِيلَايَ عَلَى السَّرِيرِ ، هُوَ هَذَا الْقَدْرِ الْيَسِيرِ ، وَأَنَا لَا أَحْسِبُ الْعُمَرَ ،
وَلَا أَعْتَدُ بِوَصَالِ بَيْضٍ وَلَا سَمَرٍ ، إِلَّا هَذِهِ الْأَيَّامُ وَاللَّيَالِي ، وَلَا أَحْسِبُ سِوَاهَا عُمَرًا
وَلَوْ بِيَعُ بِاللَّاتِلِي ، وَقَدْ قُلْتُ :

وَعُمْرُ قَضَى بِالْهَجْرِ لَسْتُ أَعْدُهُ . وَلَكِنِّي الْقَضِي فِي زَمَنِ الْوَصْلِ

وَلَمَّا عَرَضْتُ يَا بَظْلَ ، عَلَى رَأْيِكَ السَّعِيدِ هَذَا الْمَثَلَ ، لَتَعْلَمَ أَنَّ أَيَّامَ الْخُسَةِ لَا تَعْدُ
عُمْرًا ، وَلَوْ قَضَى الْإِنْسَانُ فِيهَا زَمَانًا طَوِيلًا وَدَهْرًا . وَأَمَّا الصِّلْحُ يَا ذَا الرُّكُونِ ،
فَعَلَى أَيِّ وَجْهِ يَكُونُ ؟ وَمِنْ أَيْنَ يَقَعُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ اتِّفَاقٌ وَسُكُونٌ ، وَلِيَسْبُوا مِنْ

^(١٩) اِهْتَدَتْ وَتَحَلَّتْ عَلَى .

^(٢٠) يَقِينًا .

جلدتنا ، ولا على مَلَّتِنَا ؟ وفي أيِّ عصرٍ وأوان ، ذلَّ الأسدُّ واستكان ، وخضع
 للفيل ودان ؟ أو أعطى الغضنفر^(٧١) النَّبَاجَ^(٧٢) ، والضَّرْغام^(٧٣) الصَّعْبَ النَّبَاجَ^(٧٤)
 لغيره الجزية والخراج ؟ وهو في الحقيقة سلطانُ الوحوشِ وواهبُ التَّاجِ ، فلم يبقَ إلَّا
 الاستعدادُ للمصادمة ، والتَّأَهُبُ للمقاومة ، ولنا من ذلك في البين ، إحدى
 الحسنيين : إمَّا الظَّفَرُ بهم وهو المرام ، وإمَّا الشهادةُ فنموتُ ونحْنُ كرام . وقد قال
 السيِّدُ السديد "مَنْ قُتِلَ دُونَ مَا لَهُ فَهُوَ شَهِيدٌ" ، وقيل يا حاتمَ طيٍّ ؛ حُسْنُ النَّسَاءِ
 على المبتِ خيرٌ من سوءِ النَّسَاءِ على الحيِّ ، والموتُ في مقامِ العزَّةِ ؛ مع النشاطِ
 والهزَّةِ ، أرفعُ من الحياةِ بذلَّةٍ ووَحْزَةٍ ، وكسرةٍ ونَغْزَةٍ ، وقد كنتُ أنشدتُ ، وقديما
 أرشدتُ :

هو الموتُ إنْ لم تَلَقَّ ضَاحِكًا فَمَتَّ غَيُوسًا بِوَجْهِ أَقْوَى اللَّوْنِ أَغْبَرَا
 وَمَنْ لَمْ يَمُتْ فِي مُلْطَفِي الْحَبْلِ مُقْبِلًا عَزِيمًا يَمُتْ تَحْتَ السَّنَابِلِ مُذْبِرَا

فأقبل الريال ، على أبي مرسال ، وقال أيُّها النمر ، وصاحبُ الخُلُقِ الزُّمَيْرِ^(٧٥) ،
 ماذا تشير في هذا المهم ، والمشكل الذي دهم ؟ فقال : إنَّ الأفيالَ أكبرُ جسوما ،
 وأعظمُ حلوما ، وأقوى في الضرب ، وأعدى في الحرب ، وقد استعلتوا وأقبلوا ،
 وأتقنوا أمورهم وأعملوا ، وأنا أخشى ، أن يكونوا أقوى بطشا ، وأن نعجزَ عن
 المقاومة ، في المصادمة ، فإنَّ فينا العاجزَ والضعيف ، والذميمَ الجثَّةَ والخفيف ، وَمَنْ
 لا عرف الأفيال ، ولا رأى تلك الأشكال ، فينفر من مصادمة الجبال ، فيطوئنا

(٧١) الغضنفر : الغليظ الجثة (من أسماء الأسد) .

(٧٢) النَّبَاج : قويُّ الصوت (الزفير) .

(٧٣) الضَّرْغام : الأسد الضاربي الشديد .

(٧٤) لَقْوَتُهُ وسرعته رشدة بطشه ..

(٧٥) الزُّمَيْر : الحسن الوجه ، الشديد القوى .

تحت أخفافهم ، وتنكسر شوكتنا في أوّل مصافهم ، فلم يبقَ إلّا الفرار ، ولا يقرُّ لنا بعد ذلك قرار ، فيستولون عنوةً وقسراً على هذه الديار ، وينفرط النظام ، ونرضى عند ذلك بالسلامة والسلام ، ونقع في البلاء العريض الطويل ، وانظر يامولاي إلى ما قيل :

هل للحوائر من صَوْنٍ إذا وصلتْ أيدي الرُخَاءِ إلى الخَلْجَالِ والْحَقْدَمِ^(٧٦)
فعندي الرأي ذو الأصالة ، أن ينتخبَ الملكُ مَنْ يصلُحُ للرسالة ، ويحسنُ السفارة ، ويحسنُ العبارة ، فيسكن من فَوْرَةِ شغبهم ، وثورة لهبهم ، وسوْرَةِ غضبهم ، ويَهْلِئَهُمْ وَيُمْنِيَهُمْ ، ويحسن التّقریبَ ويُقْصِيَهُمْ ، وفي ضمن هذه الأوقات ، وأثناء هذه الحالات يراقبُ أوضاعَهُمْ ، وَيَغْيُرُ جَمْعَهُمْ وَأَجْمَاعَهُمْ ، ويتوصّلُ إلى أسرارهم ، ويواصلنا بأخبارهم ، ويطالئنا بما خَافَرَ أفكارهم ، ويكتبُ ما قدموا وآثارهم ، ونستمرُّ على المراسلة ، والمقاولة والمطاولة ، فإن تيسّر رجوعهم ، وانكشف بالهويّنا جموعهم ، وإلّا فنكون قد استعددنا عن الاستبصار ، فتعاطى أمور قتالهم بعد التأمّل والاختبار ، وإن أمكننا أن نأتيهم بالليل ، ونخل بهم الدواهي والويل ، بعد أن يركنوا إلى جانبنا ، ويأمنوا من نوابِ مصائبنا ، فرمّا نصلُ إلى بعض القصد ، أو يوافق بعض حركاتنا السعد .

فالتفت الدوكس^(٧٧) ، إلى العمّلس^(٧٨) ، وقال : أيّ سيد^(٧٩) ، وذا الأمر الرشيد ماذا ترى ، فيما طرا ؟^(٨٠) ، وكيف طريق القوم فيما جري ؟ قال السّمسم^(٨١) ،

(٧٦) الخُلْجَال ، والحلقّة تُشدُّ في الرُّشْع ، والقيد .

(٧٧) الدوكس : صفة من صفات الأسد ، لأنه كثير الشعر ملتفّ اللبّة .

(٧٨) العمّلس : الذئب الماكر .

(٧٩) السّيد : الذئب القوي .

(٨٠) عثفت طراً .

(٨١) السّمسم : الذئب الخفيف اللطيف السريع .

يا مولانا الضُّرغام ، الذي سمعته من أولي التجارب ، وتلقفته من الأصحاب والأجانب ، إنه من التوفيق ، إذا ابتلي الشخصُ بعداوةً مَنْ لا يطيق ، أن يدافعه بالهدايا والتحف ، وبجاييه بشيء من الفرائد والتنف ، فإنه قيل في الأمثال "إن خير الأموال ، ما أذخر لدفع البؤس ، ووقيت بنفائسه النفوس" .

فَأَهَبَ^(٨٢) النّهاب ، بابي وثاب : يا أبا الحصين ، ما رأيك في البين ؟ وأي آراء الأصحاب ، أقرب إلى الصواب ؟ فتقدم الثعلبان ، وتكلم فأبان ، وقال : أسعد الله الأحد ، مولانا الأسد ، وجعل رأيَه الأسدَ ، وفعله على أعدائه الأشدَ ، اعلم أيها الدلهات^(٨٣) ، أن أمورنا لا تخلو عن إحدى ثلاث : إما المقاتلة بالمقاومة^(٨٤) ، وإما المهادنة والمصالحة ، وقد تقرر ، فيما تقدم وتحرر ، بيان كل منهما ، وما يصدر فيهما وعنهما . وأما الفرار وتولية الأديار ، وترك الأوطان والديار ، فأف لذلك من عار ، وسب وشنار ، فما بقي إلا الحالة الثالثة ، وهي بعساكرهم عابسة ، ولقلوبهم كارثة ، وهي طريقة الاحتيال ، والتوصل إلى إلقاءهم بطريق المكر في حُب^(٨٥) الرمال ، فإن صائب الأفكار ، يعمل ما لا يعملُه الصارم البتار ، فبشباك الخيلة ، تُصاد كل فضيلة ، وتهون كل حيلة . وأنا أفصل ما أجملت ، وأبين ما فصلت .

أما المقاتلة ، والأحد في أسباب المقاتلة ، فلا طاقة لنا به ، ولا باب لدخول قبابه ، لأننا عاجزون عن المصادمة ، قاصرون عن المقاومة ، محتاجون إلى الطعام والشراب ، وبعض عساكرنا لا يعيش إلا باللحم والكباب ، وجيشهم الذي قد ملا ، وسد الوهْدَ والفلا ، يقنعون بالخشيش والكلأ ، فلا يتكلفون لحمل زاد ، ولا

(٨٢) أهَب : صاح .

(٨٣) الدلهات والدلهام : الأسد .

(٨٤) المقاومة : الغارة والمقاتلة .

(٨٥) حُب : البئر الواسعة .

يحتاجون إلى عدة وعتاد ، وأيضاً أحوالُ عساكرنا المفرقة المضمومة ، لاختلافِ
أجناسِها وأنواعِها غيرُ معلومة ، فلا اعتمادَ عليهم ، ولا يتحققُ الركونُ اليهم ،
فإنهم أجناسٌ مختلفة ، وطوائفٌ غيرُ مؤتلفة ، وبينهم معاداة ، وفي جيلتهم النفرةُ
والمنافاة ، وبعضهم غذاءٌ بعض ، وفي قلبه منه عداوةٌ وبغض ، لو ظفر به كسره
وأكله ، وإن استنصر به خذله ، فهم كالقفلِ المجمع ، ولو نُتِ اتفاقهم ملمع ، وأما
عساكرُ الأفيال ، فبينهم اتفاقٌ على كلِّ حال ، لأنهم جنسٌ واحد ، وما بينهم
مخالفةٌ ولا مناكدة ، ولهم اعتمادٌ على قوتهم ، وعلى اتفاقهم وشوكتهم . والمعتمدُ
على مثلِ عساكرنا ، إن لم يضبط بطريقه كلبيةَ أمرِ عشائرينا ، ينفرط أمره ويخمدُ في
إيقاده نارُ الحربِ جمره ، ويعلوه من بحرِ النوائبِ غمره ، ويظفر به من أعدائه زيده
وعمره ، ويصيبه من الحطة ، ما أصاب الصيَّادَ من القطة . فسأل أبو الحارث ، عن
بيان هذا الحادث .

[٤/٧] حكاية القط والصيَّاد

قال الثعلب : ذكر أن رجلاً ذا كيد ، كان مغرمًا بالصيد ، وكان عنده قطٌّ
صيَّاد ، يجترىء على النمسي والقياد^(٨٦) . فكان يوماً بين يديه ، فمرَّ عصفورٌ عليه ،
فظفر كالنمور ، وحصل من الهواء العصفور ، فأعجب به صاحبه ، ثم قصد الصيَّادَ
وهو مصاحبه ، وحمله تحت إبطه ، وبالف في حفظه وضبطه ، وركب جواده ،
وتوجّه يرومُ اصطِيَّاده^(٨٧) ، فرقي سفعَ جبل ، فخرج من وراء صخرة طائفةً من
الحَجَل^(٨٨) ، فتوجّه إليه ، وألقى القطُّ عليه ، فطار الطيرُ ونحاف القط ، وقصد

(٨٦) القِيَاد : جمع قُوْد ، وهو الثَّعْلاب .

(٨٧) صَيْدَه .

(٨٨) الْحَجَل : طير في حجم الحمام (من رتبة الدجاجيات) .

رجوعه إلى تحت الإبط ، فطفر إلى جبهة الجواد ، وأنشَب فيها مخاليصَه الحديد ، فجفلت الفرسُ من القطعة ، وخبطت بفارسِها الأرضَ شَرَّ خبطة أزهقت منها نفسَه ، وأبطلت حسَه .

وإنما أوردتُ هذا المثل ، لِيُحَرِّزَ أَيُّهَا البطل ، في هذا الأمرِ من وقوع الخلل ، ويُفَكِّرَ في أمر هؤلاء الجماعة ، وكيف ثباتهم في دعواهم السمع والطاعة ، فإنهم لا يصلحون للقتال ، خصوصاً مصادمةَ عساكرِ الأقبال . فالملكُ لا يعتمد على مثل هذا العسكر ، اللهمَّ إلا أن يقررَ أمرهم على صِدْقِ اللقاءِ ويتحرر . وأما ما ذكره مولانا أبو سهيل ، في تبيين^(٨٩) عساكرِ الأقبال بالليل ، فهو رأيٌ معتبر ، ولكن فيه نظر ، لأن ذلك إنما يكون ، إذا كان العدوُّ في سكون ، وعن توقُّعِ النكبات في ركون ، فبينما هم في غفلتهم ذاهلون ، جاءهم بأسنا بيّاتا وهم قائلون^(٩٠) . وأما إذا كانوا مستعدين ، يقظين مجذّين ، وقد توجهوا للقتال ، وانتصبوا للمناضلة على هذه الحال ، فلا شكَّ أنَّهُم أنقنوا أمرهم ، وأخذوا أسلحتهم وحذَرهم ، فأعدوا لكلِّ نائبةٍ نأبا ، ولكلِّ نائفةٍ^(٩١) بابا ، ولكلِّ حربٍ حربا ، ولكلِّ ضربٍ ضربا ، ولكلِّ شدّةٍ شدّةً ، ولكلِّ عِدّةٍ عِدّةً ، لكلِّ جزوٍ جَمَزةً^(٩٢) ، ولكلِّ فِرّةٍ^(٩٣) كَرّةً ، ولكلِّ أزمَةٍ حزمةً ، ولكلِّ كسرةٍ حزمةً ، فربما يكونوا افتكروا منا هذه المكيدة ، وأعدوا في مقابلتها داهيةً نصبوا لها مصيدةً ، فتوجهَ إليها غافلين ، فتنشب في

(٨٩) مهاجمتهم ليلاً .

(٩٠) نائمون في حصونهم أو كهوفهم .

(٩١) النائفة : البلوى ، النازلة .

(٩٢) جزّة : وئبة .

(٩٣) الرفرة : العجلة .

شَرَكِهَا ذَاهِلِينَ ، فُبَيْسِيْنَا مِنَ النَّكَالِ ، مَا أَصَابَ الْجَمَلَ مِنَ الْجَمَالِ . فقال الريسَال :
هَات يَا أَبَا الزُّهَات ، أَعْبِرْنَا يَا أَبَا نَوَافِل ، أَجْبَارَ الْجَمَلَ الْمَغْفَلَ .

[٥/٧] قصة الجمل والجمال

قال : كَانَ جَمَّالٌ ، فَقَبَّرَ ذُو عِيَالٍ ، لَهُ جَمَلٌ يَتَعَيَّشُ عَلَيْهِ ، وَيَتَقَوَّى هُوَ وَعِيَالُهُ بِمَا
يَصِلُ مِنْهُ إِلَيْهِ ، فَرَأَى صَلَاحَهُ ، فِي نَقْلِ مَلَحٍ مِنَ الْمَلَاخَةِ ، فَجَدَّ فِي تَثْقِيلِ الْأَحْمَالِ ،
وَمُلازِمَتِهِ بِأَثْقَالِ الْأَثْقَالِ ، إِلَى أَنْ آلَ حَالُ الْجَمَلِ إِلَى الْهَزَالِ ، وَزَالَ نَشَاطُهُ وَحَالُ ،
وَالْجَمَّالُ لَا يَرِقُّ لَهُ بِحَالٍ ، وَيَجِدُّ فِي كَدِّهِ بِالْأَشْتِغَالِ . فَبَعِثَ بَعْضُ الْأَيَّامِ ، أَرْسَلَهُ مَعَ
السَّوَامِ ، فَتَوَجَّهَ إِلَى الْمَرْعَى ، وَهُوَ سَاقِطُ الْقُوَّةِ عَنِ الْمَسْعَى . وَكَانَ لَهُ أَرْنَبٌ
صَلِيقٌ ، فَتَوَجَّهَ إِلَيْهِ فِي ذَلِكَ الْمَضِيقِ ، وَدَعَاهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ ، وَبَثَّ عَظِيمَ اشْتِيَاقِهِ إِلَيْهِ .
فَلَمَّا رَأَى الْخَزَزَ^(١٦) هَزَالَهُ ، تَأَلَّمَ لَهُ وَسَالَهُ أَحْوَالَهُ . فَأَخْبَرَهُ بِحَالِهِ ، وَمَا يَقَاسِيهِ مِنَ
عَذَابِهِ وَنَكَالِهِ ، وَأَنَّ الْمَلَحَ^(١٧) قَدْ قَرَحَهُ ، وَجَبَّ^(١٨) سَنَامُهُ وَجَرَحَهُ ، وَإِنَّهُ قَدْ أَعْيَتْهُ
الْحِيلَةُ ، وَأَضَلَّ إِلَى الْخِلَاصِ سَبِيلَهُ . فَتَأَلَّمَ الْأَرْنَبُ وَتَأَمَّلَ ، وَتَفَكَّرَ فِي كَيْفِيَّةِ عَصْرِ
هَذَا الدُّمَلِ . ثُمَّ قَالَ : يَا أَبَا أَيُّوبَ ، لَقَدْ فَوَّزَ بِالْمَطْلُوبِ ، وَقَدْ ظَهَرَ وَجْهُ الْخِلَاصِ ،
مِنْ شَرَكِ هَذَا الْاِقْتِنَاصِ ، وَالنَّجَاةُ مِنَ الْاِرْتِهَاصِ^(١٩) وَالْاِرْتِصَاصِ^(٢٠) ، تَحْتَ جِمْلٍ
كَالْرِصَاصِ ، فَهَلْ يَعْرِضُكَ يَا ذَا الرِّيَاضَةِ ، فِي طَرِيقِ الْمَلَاخَةِ غَخَاضَةً ؟ فَقَالَ :
كَثِيرٌ ، وَكَمْ مِنْ نَهْرٍ وَغَدِيرٍ ، فَقَالَ : إِذَا مَرَرْتَ فِي خَوْضٍ ، وَلَوْ أَنَّهُ رَوْضٌ ، أَوْ

(١٦) الْخَزَزُ : ذِكْرُ الْأَرْنَبِ .

(١٧) الْمَلَحُ : أَحْوَالَةُ الْمَلَحِ الَّتِي يَحْمِلُهَا الْجَمَلُ فَرَقَ ظَهْرَهُ ، يَنْقُلُهَا مِنْ مَكَانٍ لَأَسَرِ .

(١٨) جَبَّ : قَطَعَ سَنَامَهُ .

(١٩) الْاِرْتِهَاصُ : الْأَحْمَالُ الثَّقِيلَةُ .

(٢٠) الْاِرْتِصَاصُ : ضَمُّ الْأَحْمَالِ إِلَى بَعْضِهَا .

حوض ، فأَبْرَكَ فيه وتمرغ ، وتَصَلَّ من حملك وتفرَّغ ، واستمر فيه يا أبا أيوب ،
فلما للملح في الماء يذوب ، وكرر هذه الحركة ، فإنك ترى فيها البركة . فلما أَنهَم
يُغَيِّرُون حِمْلَكَ أو يَخَفِّقُوهُ ، أو تَسْرِيح بَلْوِيهِ من الذي أضعفوه ، فتحمَّل الجملُ
للأثرَنِيبِ اللَّيْنَةِ ، وشتف بدرُّ هذه الفائدةِ أَذَنَهُ .

فلما حَمَلَهُ صاحِبُهُ الجِمْلَ المَعهود ، ودخل به في طريقه للورود ، ووصل المخاضَةَ
برك ، فضرَبوه فما قام ولا احْتَرَك ، وتحمَّل ضربه وعسَفَه ، حتى أَذاب من الحملِ
نصفَه ، ثُمَّ نهض انتهازَه ، وخرج من المخاضة ، ولازم هذه العادة ، إلى أن أَقصر
صاحِبُه وأباه ، فأدرك الجمالُ هذه الحيلة ، فافتكر له في داهيةٍ وَيَلَّةٍ ، وعمد إلى
عِيْنٍ^(٩٩) منقوش ، وغَيَّر في مقارنتِه شَكْلَ للنقوش ، وأوسق للحمل منه جِمْلًا ،
بالغ فيه تعبِيَةً وثَقْلًا ، وسلط عليه الظما ، ثُمَّ دخل به إلى الماء ، فلما تَوَسَّط الماء ،
برك ، وتغافل عنه صاحِبُه وترك ، فتشرب الصوفُ من الماءِ ما يملأُ السِرْكَ ، ثُمَّ أراد
النهوض ، فناء به الرِّبُوضُ^(١٠٠) ، فقاسى من المشاق ، ما لا يُطَاق ، ورجع هذا
الفكرُ الوييل ، على الجملِ المسكين بأضعافِ التثْقيل ، فساء مصيرُه ، وكان في
تدبيره تدميره ، وما استفاد إلاَّ زيادةَ النَّصَبِ^(١٠١) ، وأمثال ما كان يجده من التعب
والوَصَبِ^(١٠٢) .

وإنما أوردتُ هذا المثل ، عن الجمل ، ليعلمَ الملكُ والحَضَّار ، أنَّ العبدَ الغنَّار ،
والخسودَ المكار ، يتفكرُ في أنواع الدواعي ، ويفرِّغُ أنواعَ الالايَا والرزايا كما هي ،
ويبذلُ في ذلك جَدَّه وجهَّه ، ولا يقصُرُ فيما تصلُّ إليه من ذلك يده ، فتارة تُدركُ

^(٩٩) عِيْن : الصوف المصبوغ كالأنا .

^(١٠٠) الرِّبُوض : الحمل الثقيل الضخم .

^(١٠١) النَّصَب والإعياء .

^(١٠٢) الرجوع والمرض والفتور في البدن .

مكايده ، وتُعرفُ مصاديقه ، وتارةً يغفلُ عن دواهيها ، فلا يشعرُ الخَصْمُ إلا وقد تورَّطَ فيها ، وعلى كلِّ حال ، لا بدُّ للشخصِ لهُ وعليه من الاحتيال . وأمَّا طلبُ الصلحِ وإرسالِ الهدايا ، فمن أعظمِ المصائبِ وأكبرِ الرزايا ، فإنَّ ذلكَ يدلُّ على عجزنا والخور ، وينادي على هواننا في البدنِ والحضر ، ويمرِّئُ علينا الغريب ، ويُذهبُ حُرْمَتنا عند القريب ، ودونك يا أبا العباس ، ما أنشدتك في المقياس :

وما أنا مِن قَوْمٍ نَارٍ خَصِيهِ لَظِلُّ حَسُودٍ أَوْ إِلَى قِيَمٍ شَامِتِ

ولكنَّ الرأيَ الأنور ، أيها الورُدُ الغضنفر ، أن تُرسلَ إليهم رسولا ، عاقلاً فصيحاً جميلاً ، بصيراً بعواقبِ الأمور ، قد مارسَ تقلباتِ الدهور ، وقد ربي وتربي ، وعن الرذائلِ تآبى ، وبأنواعِ الفضائلِ تعبى ، وأحرمَ إلى كعبةِ محاسنِ الشيمِ ولبي ، ولولا إن بابَ النبوةِ استندَ لَتَبَي (١٠٣) برسالةٍ فحله ، تسفرُ عن بسالةٍ جزله ، تتضمنُ سؤالهم ، عما أَوْجَبَ ارتحالهم ، وسببَ قصدِهِم لبقعتنا ، وتوجهِهِم لدخولِ رقعتنا ، وما موجبُ هذا الاعتداء ، ولم يصلدْ منا لهم إلا المحبةُ والولاء ، وحسنُ الجوار ، والإحسانُ إلى الكبارِ والصغار ، ومعاملةُ الغريبِ والقريب ، بالفضلِ المحيِّب ، والكرمِ الذى لا يخيب ، ويذكرُ لهم بسالتنا وشجاعتنا ، وفي معاملاتِ المضاربةِ بضاعتنا ، ويكشفُ لهم في ملابسةِ الحربِ والضربِ صناعتنا ، ويحققُ عندهم ما عندنا ، من أسودِ الحرب ، وفوارسِ الطعنِ والضرب ، وأجناسِ الوحوشِ الكواسر ، والسباعِ الجواسر (١٠٤) ، وأصنافِ الفراعِلِ (١٠٥) والعسايرِ (١٠٦) . ويتكلمُ بكلام ، يراه مقتضى المقام ، ومناسبٌ للحال ، ويوسِّعُ في ذلكَ المجال . ويميزُ

(١٠٣) ادعى النبوة .

(١٠٤) الجواسر : جمع حاسر وهو الشجاع .

(١٠٥) الفراعِل : الضباع وأرلادها .

(١٠٦) العساير : أولاد الذئاب ، والنمور أيضا .

أوضاعهم وعساكرهم ، ويسير عسبار العقل^(١٠٧) أموره وأوامره ، ويسمع الجواب ، وما فيه من خطأ وصواب ، ويورده إلينا ، ويعرضه علينا ، فنعمل بمقتضاه . وينظر الرأي السديد فيه ما ارتضاه ، ونبي على ذلك الأساس ، ونفصل على ذلك القياس .

فاستصوبوا هذا الرأي من الآراء ، وطلبوا له كفواً من الأكفاء ، فوجدوا ذنباً هو من خواص الحضرة ، ومن ذوي النباهة والشهرة ، له في ميدان الفضائل كبر وقر ، وفي مظان النفع والضرر ، خير وشر ، قد جرب في المصايد ، ودرب في المكائد ، وهذب في المصادر والموارد ، ورتب في المطارد والمطارد . أدنى فضائله حسن السفارة ، وإحدى فوائده ترتيب العبارة ، حلل المشكلات ، كشف المضلات ، فوقع عليه اختيارهم ، ورضي به كبارهم وصغارهم ، فحمله الأسد كلامه . وجعل البسلة ميداه ، والحسيلة^(١٠٨) ختامه ، ومن مضمونها بعد إبلاغ التحية ، والأكنية^(١٠٩) السنية : إلى الحضرة العلية ، ملك الأفيال ، أبي مزاحم الفضال ، ألهه الله هداه ، وصرف عنه رده ، وبصره مواقع الخير وهداه ، ولا شمت به أعداه ، وحفظه بالعشي والغداة ، وجعل عقبه خيراً من مبتداه ، تحيط علومه الكريمة ، وآراءه العلية الجسيمة ، أن قوتنا من قديم الزمان ظاهرة ، وهيتنا باهرة ، وصولتنا قاهرة ، لم نزل نفرس الفوارس ، ونكرم أصناف الأضياف من الوحوش والطير بالفرائس ، ويضرب بنا في الشجاعة والكرم الأمثال ، ويفر من بين أيدينا أسود الأبطال ، ولا عار على من فر من بين يدي الريال^(١١٠) . وقد اتصل بنا أن ملك

^(١٠٧) عسبار العقل : ما يعرف به عوز الرأي ونهايته . ويسير : يتفر .

^(١٠٨) الحسيلة : منحوتة من حسنا الله ونعم الوكيل ، ومثلها البسلة منحوتة من "بسم الله الرحمن الرحيم" .

^(١٠٩) الأكنية جمع كناية وهو الأدعية .

^(١١٠) الريال : تخفف الرهبال ، وهو الأسد .

الأفيال ، توجه إلينا بجنوده ، وهباً في ذلك أجلسَ عساكره وبنوده^(١١١) ، وما علمنا
لذلك موجبا ، ولا تقدّمنا بعداوة تنشي حرباً وحرباً^(١١٢) ، بل ولا تعرضنا لأحدٍ في
ملكه وملكه^(١١٣) ، وعدّلنا بحمد الله تعالى جاري في بحار الملك وفلكه ، والرعابا
شاكراً منا ، ولم يُنشر سوى الذكر الجميل عنا . فانعموا برّد الجواب ، وميّزوا
الخطأ من الصواب ، قبل أن يكثّر الشرّ نابه ، ويفتح حرابه ، ويحرّش للمهرّير
كلاّبه ، ويسلّخ ليله إهابه ، ويكسر رائد الفتنة بابه ، فتتفاقم الأمور ، وتتعاظم
الشور ، وتتلاطم بحارها وتمور ، عند التهاب شواطئ الفيض من الأسود والتمور ،
مع أنّ اعتمادنا على الله العظيم ، وتوكّلنا على العزيز الرحيم .

فلما بلغ الذئب الرسالة ، وأدّى ما فيها من شجاعة وبسالة ، وتبين للملك
الأفيال ، ما تضمنته من عظمة وجلال ، استشاط ملك الأفيال ، وتغيّرت لاضطرابه
الأحوال ، ونظر من تلك القيول ، إلى فيلٍ ظلوم جهول ، ويسر إليه^(١١٤) من غير
تدبر ، ولا تأملٍ في الأمور وتفكر ، وقال : اذهب إلى هذا المعتمد على كلامه ،
الراقد في غفلة منامه ، وقل له متى مارست معركة الشجعان ؟ أو صارعت رجال
الميدان ؟ وأنى لك طاقة بمصادمة الجبال ؟ ومن أين تعرف مقاومة الأفيال ؟ فاستيقظ
لنفسك ، فَنَ قريصٍ تحمل برميك^(١١٥) ، واستعد لجنود لا يُقِل لك بها ، فستشاهد
ما لم تسمعه من ضربها في حربها ، فلقد أذاك عسكرُ القضاء وبنوده ، وليُحطّمتكم
سليمان الأفيال وبنوده ، فليريقن الدماء ، وليستأيرن الحرائر كالإماء ، وليدوسن

(١١١) بنوده : أعلامه الكبيرة (فارسية معربة) .

(١١٢) الحُرب : الويل والمهلك والدمار .

(١١٣) في ماله أو في حكمه .

(١١٤) أشار إليه وأمره .

(١١٥) قورق .

الأطفال ، ولترين منه الأُنكاد والأُنكال ، ول يظهر آثار الدمار والبوار ، بما لك من ممالك ومساكن وديار ، وليفعلن بولاياتك اما فعله بممالك الإسلام التار ، وأنت بين أمرين ، وبخير النظرين : إما أن تطيع لأمرنا وتنفاد ، وتسلم إلينا ما بيدك من بلاد . وإما أن تختار ، طرق القراق والفرار ، وتنجر منا منجى الذباب ، وتنحى عن طريقنا بما معك من كلاب وذئاب . وقد بالغنا في النصيحة ، بعبارتنا الصريحة ، وأقولنا الفصيحة ، قبل إفشاء الفضيحة .

فوصل القيلُ الرسول ، وأدّى هذا المقول . فتشوش الأسد ، وداعله الغيظُ والنكد ، فأراد الإيقاع بالرسول الظلوم الجهول ، ثم ممالك ، وعن ذلك تماسك ، وقال : لولا أن عادة الملوك ، ودرج السياسة السلوك ، أن لا تُهاج^(١١٦) الرسل ، ولأُضيق عليهم السبل ، لقابلتُك على كلامك الفج ، بما يجب من العج والشج^(١١٧) . ثم التفت إلى الثعلب وقال : يا أبا الحصين ، ماعندك في جواب هذين النحسين^(١١٨) ؟ قال الثعلب ، أنت الأغلب ، هذا القيل ، أقوى دليل ، وأوضح سبيل ، على عدم عقل القيل ، وأن فكره وبيل ، وبصيرته قد عميت ، وطرق هدايته قد خفيت ، وإنه غوى وأضلّ قومه وما هدى . وكلُّ من اعتمد على قواه وحوله ، واستحلى غرور فعله وقوله ، فقد زال وزلّ ، وفي عقد البلاء حال وحلّ ، وهذا الجاهلُ السعيفُ الكثيف ، الثقيلُ الخفيف^(١١٩) ، وقد استحقنا في عينه ، فسيرى منا حلول حينه^(١٢٠) . وكلُّ من استحق واستغف بعلوه ،

^(١١٦) لا تعاقب ولا تؤذى .

^(١١٧) الشدة والغرة عليك ، بما في ذلك الضرب والقتل .

^(١١٨) يقصد ملك الأفيال ورسوله .

^(١١٩) الخفيف القتل .

^(١٢٠) موته ، أجله .

فسيعلم حلاوة هدوة^(١٢١) ، وسيُحرم مواصلة مرجوه . وقد قالت الحكماء الأخيار ، والعقلاء ذور الاعتبار ، وأولو التجارب والاستبصار : لا تستحقن السقم والنوم والدين والعدو والنار . فالملك أعز الله نصره ، وأعلى مناره وقلبه ، وسلط على الأعداء قهره ، لا يلتفت إلى هذا الكلام ، ولا يتزعزع لهذه الأوهام ، ولا يخف من جهامة الأفيال ، فكل ما هم فيه باطل ومحال ، بل يعتمد على الله العزيز الجبار ، ويصفي يثته بالعدل والخير مع الكبار والصغار ، ويقوي جثاته^(١٢٢) على الملاحاة ، وقد وافاه النصر وآتاه ، ولأغاه السعد ولآقاه ، فإن هولاء اعتدلوا على ولايته وأتوها ، فسينزل الله تعالى عليهم جنوداً لم يروها ، فكم من مستضعف حقير ، صدر منه بالحيلة أمر خطير ، وبحسن التدبير ، ومساعدة من هو على كل شيء قدير ، ثم له أمر كبير ، وناهيك قصة الفارة ، مع رئيس الحارة ، وما فعلته ، إذ عثته^(١٢٣) إلى أن قتله . فسأل حيدرة^(١٢٤) ، عن تلك المأثرة .

[٦/٧] قصة الفارة مع رئيس الحارة

فقال بلغني أيها النفيس ، أنه كان رئيس ، ضيق العطين خسيس ، له زوجة ذات صيانة ، ودين وأمانة ، لم تزل تنجب الحيانة ، وتتعاطى العفة والزناة ، وله دجاجة تبض على الدوام ، فيسرق يبضتها أبو راشد^(١٢٥) وهم نيام ، فإذا اقتقد الرئيس يبضته ، طالب بها زوجته ، فتحلف إنها ما رأتها ، ولا تعرف يداً أخذتها ، فيولمها

(١٢١) الهدوء : الهدوء .

(١٢٢) قلبه .

(١٢٣) خدعته بالمكر .

(١٢٤) من أسماء الأسد .

(١٢٥) كنية الفار هنا .

سبّا ، ويوجعها ضربا ، ولا يصدّق قولها ، أولا يرحم عولها . ففي بعض الأحيان ، رأت المرأة الجرذان ، وهو يجرّ البيضة إلى جحره ، وقد بلغ بها باب وكره ، فدعت بقلها ، لئلا يفارها ، فعلم براءة ساحتها ، وعمل على راحتها ، واعتذر إليها ، وطلب الفارة وحقّق عليها ، وأعمل المكيدة ، ونصب للفارة دون البيضة مصيدة . فلما رأت الفارة الشرك ، علمت أن وراءه الدرك ، فشعرت بما وضع عليه ، فلم تتقدّم إليه إلى أن زار الجرذان ، أخذ أقاربه من الفيران ، فلم يجد شيئا يضيفه ، فاعتذر إلى الضيف بما هو خفيه ، وأراه من البيضة سعاد ، وأن دونها حرط القتاد^(١٢٦) . وكان الضيف الغرّ ، لا يعرف هرا من برّ ، فحمله السفه ، والحرص والشره ، على أن قال : أنا أخوض هذه الأهوال ، وأرد من الموت حوضه ، وأصل إلى هذه البيضة ، ثم قصد المصيدة ، فقبضت وريدته ، وفجعت به وليده ووديدته^(١٢٧) . فتكدت الفارة وتكدت ، والتظت أحشاؤها وتسعرت ، وتألت لموت ضيفها ، وبلغ حيراتها حديث ضيفها ، فخلجت منهم ، واختفت عنهم ، وشاعت قضيتها ، وذاعت بليتها ، فلم تجد ليرد النار ، سوى أخذ النار .

فأخذت تفكر في وجه الخلاص ، فرأت أنها لا تخلص من عتب الجيران إلا بالقصاص . فشعرت في تعاطي أخذ النار ، من صاحب الدار ، وكان لها صاحبة قديمة ، عقرب حبيبة ليمه ، معدن السموم في زبّان إيرتها ، وطعم المنايا مودع في شوكتها ، فتوجهت إليها ، وترامت عليها . وقالت : إنما تدخر الأصحاب للشدائد ، ولدفع الضرر والمكائد ، وإنزال الداء ، بساحة الأعداء ، ولأخذ النار والانتقام ، من المعتدين اللام . وقصت عليها القصة ، وطلبت منها إزاحة هذه

(١٢٦) دونه حرط القتاد : مثل يضرب للأمر العسير .

(١٢٧) وديده : من يجه .

القصة ، وأن تأخذ لها بضربتيها القصاص ، ليحصل لها بين جيرانها من العتير
الخلاص . فأجابتها إلى ما سألت ، وأقبلت إلى وكر الفارة بما اقتبلت ، وأخذت في
إعمال الحيلة ، قادت أفكارهما الويلة ، إلى أن تخدعا صاحب البيت بالذهب ،
وتلقياه بذلك في اللهب . ثم أمهلاه إلى أن دخل الليل ، وشرعا في إيصال الويل ،
فأخرجت الفارة ديناراً وألقته في صحن الدار ، ووضعت آخر عند جحر الفار ،
وأظهرت نصف دينار من ذلك النهر ، وسرت النصف الآخر عند العقرب ،
واسترت العقرب بجانب السكون ، تحت ذيل الكمون ، وقد عيت في زبائنها ريب
المنون^(١٢٨) . فلما أصبح الصباح ، نودي بالفلاح ، وجد صاحب الدار ، في وسطها
الدينار ، فتفاعل بسعد نهاره ، ولم يعلم أنه علامة دماره ، ففتح عينيه ، ونظر
حواليه ، فرأى عند جحر الفار ، أحداً لدينار ، وفرح وطار ، ونشط واستطار ، وزاد
في الطلب ، على بقية الذهب . فرأى نصف دينار ، داخل جحر الفار ، فمد يده
إليه ، وأعمى القضاء عينيه ، عما قدره الله عليه ، ففرضه العقرب ضربة ، قضى
منها نجه ، فبرد مكانه^(١٢٩) ، ولاقى هوانه . وأخذت الفارة ثارها ، وقضت من
عنوها أوطارها .

ولما أوردت هذه الأخبار ، ليعلم الملك أن حيلة صائب الأفكار ، تفعل ما لا
يفعله العسكر الجرار ، بالسيف البتار ، والرمح الخطار ، وبقليل الحيلة ، يتم الأمور
الجلية ، فلا يهتم الملك بمشئ الأفيال ، ويشرع فيما هو بصدده من دقيق
الاحتيا . وأنا أرحم من الله تعالى الظفر بعدونا ، وحصولنا على غاية مأمولنا ،
ونهاية مرجونا . فأول ما نعاملهم بالوهم وإظهار الصولة ، والتخويف والإرهاب

(١٢٨) ريب المنون : حوادث الدهر ، والمعنى هنا : الموت العاجل .

(١٢٩) برد مكانه : كنى المؤلف بذلك عن موته .

بقوة الدولة ، فإن الوهم قتال ، والعقل المدبر يحال . وطائفة الفيول ، عديمة العقول ، وبالوهم يبلغ الشخص مراده ، كما بلغ الحمام من الأسد ما أراده . فسأل ملك الأسد ، بيان حكاية أبي زياد .

[٧/٧] حكاية الحمام والأسد

فقال أبو الحصين : أخبرني أبو الحسين ، ذو المفاعر ناصر ، أنه كان في بعض الأعصار والمعاصر^(١٣٠) ، حمام في مدار ، يستعملونه بالليل والنهار ، إلى أن حصل له الكبير ، ورُمي بالعبر ، وأبلى باطناً بالجوع ، وظاهراً بالدُّهر ، وعجز عن العمل ، وانقطع منه الأمل ، فزكه أصحابه واعتقوه ، وفي بعض المراعي أطلقوه . فصار يرح ، وفي تلك المروج يسرح ، إلى أن خرج إلى الصحرا ، وانفرد في رياض الفلا ، فوصل إلى بعض الآجام^(١٣١) ، وحصل له النشاط التام ، إلى أن صحَّ بدنه وسمن ، وبرأ دبره وأمن . وأخذ البطر ، واستولى عليه الأشر ، واستخفه الطيش ، وطيب العيش ، وصار في تلك المراعي ، يتردد ذهاباً وإياباً كالساعي ، فيسدي ويلحم في شقيها ، ويفصلُ مها اختار من مُزهرٍ خرقها ، وينهقُ على عادة الحمير ، فيملأ تلك الأماكن من الشهيق والزفير . وكان في تلك الآجام أسد متخيس^(١٣٢) ، يسمى الشيل ابن المتانس ، كان أبوه ملك تلك الأماكن ، قد نشأ بها وهو فيها ساكن ، شاب غريب ، لم يكن يعرف الحمير ، ولا طرق سمعه شهيق ولا زفير ، بل ولا خرج من تلك الآجام ، ولا عرف تصرفات الأيام ، وكان أبوه قتل في الاصطياد ، وتفرقت عنه العساكر والأجناد ، فنشأ وحيداً يتما ، واستمر

(١٣٠) الأعصار جمع عصر ، والمعاصر جمع معصرة .

(١٣١) الشجر الكثير المتلف .

(١٣٢) ذليل لا يقادر عيسه أى مروضه .

فيها مقيماً . فلما سمع صوتَ الحمار ، أخذته الرعدةُ والاقشعرار ، واستولى عليه
الهلح ، فقعده عن الاصطيادِ وانقطع . وصار كلُّما نهق ، هرب واختفى من
الفرق^(١٣٣) ، وغلب عليه الدهش ، إلى أن كاد يموتُ من الجوع والعطش .

وصار الحمارُ يتردّدُ إلى عينِ ما^(١٣٤) ، كان الأسدُ يُسكنُ منها سورَةَ الظما ، فما
اجترأ بعد ذلك على الورود ، وأضرَّ به الخوفُ والانقطاعُ والقعود ، فلما كاد
العطشُ أن يقتله ، توجهَ إلى العينِ مخوفاً بالخيرةِ والولَه ، فوجدَ الحمارَ واقفاً
عندها ، وأدرك الحمارُ خوفه منه بالدها ، فتقدّمَ إليه ، وصوبَ نحوه أذنيه ، وحلّقَ
عينيه ، فبدرَ من الأسدِ صرخة ، اتبعها من بؤله شخّة . وقال للحمار : إيش أنت ،
ولايّ شيءٍ ها هنا سكنت ؟ وجعل يرحف ، وفي قيد الخوفِ يرسف . فعلم
الحمار ، أنَّ الأسدَ خار فقال : بجنانٍ جري ، وبيان قوي : أنا في هذا المكان ، أفرّقُ
رزقَ الحيوان ، وقد أقمْتُ أحوش ، أرزاقَ الوحوش ، ثم أقسّمها بينهم ، وأملأُ
خوفهم وعينهم . فقال الأسدُ : إني جيعان ، ولي مدة عطشان ، فاعطني من الأكلِ
رزقي ، وافرزّ لي من الماءِ حقي . فقال بوجهٍ مقطب ، أذنُ إلى الماءِ واشرب ، فدنا
وشرب ، وهو خائفٌ مضطرب . ثم قال : أنا جائع فاطعمني ، وعجّلْ ولا
تحرمني ، فلي مُدّة من الجوع ، لا قرارَ لي ولا هجوع . فقال الحمار : تعالِ معي
إلى موضعي ، لتعرف مكاني ، وتقرّر جرايتك في ديواني . فذهبا في طريق ، حتّى
وصلا إلى نهرٍ ماءٍ عميق ، فأرادا العبور ، فقال الأسدُ المصور ، هذا الماءُ عميق ،
وكَمْ فيه من غريق ، فاحملني في النهاب ، وأنا أحملك في الإياب ، فأجابَه الحمار
وحمله ، وخاض به ونقله ، فأنشَب الأسدُ الأظفار ، في كاهلِ الحمارِ ونَقَلَ عليه ،

(١٣٣) الخوف .

(١٣٤) عين ما : عين ماء .

فلم يتأثر له ولم يلتفت إليه ، فزاد وَهْمُهُ من الحمار ، وقال هذا رأسُ الدُّعَارِ (١٣٥) . ثم سارا ساعةً أخرى ، فرأيا في طريقهما نهرا ، فطلب الحمارُ الوثوب ، وقال هذه نَوْبِي في الركوب ، ثم طَفَرَ على الأسد ، وَثَقَلَ عليه الجسد ، وَتَمَكَّنَ عليه ، وأرعى يديه ورجليه ، فنَضِرَّ من ثقله ، وابتلى بشرَّ عمله ، ثم تَوَرَّكَ عليه ، وأنشَبَ في كاهله مساميرَ نعليه ، فماجَّ الأسدُ ومار ، وقد أثَّرت فيه حوافِرُ الحمار . فقال له : أثبتْ وإِلَيْكَ (١٣٦) ، فما حَوَّلَكَ تحتي وأحَالَكَ . فقال : يا أخِي حِرْتُ في أمري ، لقد أرجعتني وقصمتَ ظهري ، فكان يكفيني جوعي ، وقَلَّتي وخضوعي ، وما أدري هذا الضرَّ والبلاء ، من أين أقبلا ؟ قُلْ لِي ما الذي أنشبتَه في كاهلي ، ونزلتَ به من حافرك في ساحلي ؟ فقال : هذه مَسَامِيكُ (١٣٧) ، لِطُلَّابِ الجراياتِ والجوامِكِ (١٣٨) ، وهي أربعون مسماك ، لا بُدَّ أَنْ تثبتَ كُلُّها في قفاكَ ، حتى يصرَّحَ لك اسمُ في الديوان ، وإلَّا فالرزقُ لا يحصلُ بالهُوَيْنَا بل بالهُوان . فقال : يا أخاه ، اتركْني لوجهِ الله ، وأرفقْ بي رفقا ، وما أريدُ منك رزقا ، ودعني بالأمانة ، ووَقِّرْ الجرايةَ على الخِزَانَةِ ، ولا رأيتُك ولا رأيتُني ، ولا عرفْتُكَ ولا عرفْتُني ، فإني أَتَقَوُّ من حشيشِ الأرض وخُشائِها ، واستَعَدَّ لمعادِ نفسي بالرفق في معاشِها . فنزل عنه الحمار ، وتركه وسار ، فهرب منه بعدما ودَّعه ، ووَلَّى يلتفتُ يمينا وشمالاً لعلَّا يتبعه .

وإنَّما صَوَّرْتُ هذا النقش ، لتعلمَ يا ملكَ الوحش ، أنَّ الوهمَ يصدرُ كالسهم ، وهو عند بَراهمَةِ الهند ، وحكماءِ السند ، أحدُ طرقِ العلم ، رقاكَ اللهُ إلى سُلَمٍ

(١٣٥) الدُّعَارُ جمع دُحْر وهو القوي الشديد الفاجر .

(١٣٦) إِيْلَيْكَ ، تَحْمِلُ .

(١٣٧) مَسَامِكُ ومَسَامِيكُ ، واحدها مَسَامِكُ ، وهو عود للعباء ، بمعنى عمود يكون في الخباء يسلك به البيت .

(١٣٨) جوامِكُ : رواقب .

السُّلَم . والوهمُ غالبٌ على الأفعال ، بل سَهَمُ الوهمِ يقتلُ كثيراً من الرجل ، فترجو من الله أن يُلغنا مقصودنا ، وننالَ من طالعِ الجَدِّ والحِطِّ مسعودنا ، وأن يُرَجَّعَ أعدائنا بالخيبة ، وفراغِ العيبة . وهذا المثلُّ الذي ضربته ، والتقريبُ الذي قرَّبته ، إنما هو مثلُ العاجِزِ الضعيفِ ، مع القويِّ العسوفِ^(١٣٩) لا العسيفِ^(١٤٠) . وأمَّا نحن بقوةِ الله وحِزِّه ، ومساعدةِ نصْرِهِ وطَوْلِهِ ؛ ففَوَّضْنَا قاهرةً قائمةً ، وصدمتنا بعونِ الله دعائمها داعمةً ، لم يحصلْ منا خوفٌ ولا حورٌ ، ولا فزعٌ ولا جزعٌ ولا جورٌ ، ففينا بحمدِ الله قُوَّةً لمصادمتهم ، وقدرةً لمقاومتهم ، فأمضِ لأمرِكَ ، فكأنِّي بك ، وقد رجعتُ فائزاً بنصرك ، مجبوراً بكسرِ عدوك ، مجبوراً بيسرك .

ثم إنَّه اقتضى رأي أبي الضراغم ، إعادةَ الذَّنبِ إلى أبي مزاحم ، برسالةٍ مضمونها : بَصَرَكَ اللهُ بِعيوبِ نفسك ، وأراك عاقبةَ غَدِكَ في صبحِ أمسِكَ ، وجعلَكَ مَنْ اتَّبَعَ الهدى ، وامتنَعَ عن موارِدِ الرَّدَى ، اعلمَ أنَّ علماءَ الهند ، وحكماءَ البراهمة والسند ، امتازوا عن حكماءِ الأقاليم ، ووضعوا رقعةَ الشطرنجِ للتعليمِ ، وأنَّ واضعَ ذلك ، صَوَّرَ الرقعةَ بصورةَ الممالك ، وقسَّمَهَا بالسوية ، وجعل لكلِّ قسمٍ جنساً من الرعية ، ووضعَ لَهُ نوعاً من السيرِ لا يتعداه ، ويَبَيِّنُ لكَ منهم مكاناً لا يتخطاه ، وأنا أخافُ أن تتعدى مكاناً هو مقامك ، وتقصدَ بيتَ الشاهِ ويفوت مرأىكَ ، ويناديك فرزين^(١٤١) العقل ، وأنتَ راحِلٌ في النقل : يا ذا الهوس ، ماذا بيتُ الفرسِ ؟ فتقعَ وأنتَ تصرخُ ، في لعبِكَ بالنفسِ مع الرُّخْ ، فلا يفيدُكَ الندم ، وقد زلَّتْ بِكَ القدم ، وخرجتَ في لعبةٍ من رفعةِ الوجودِ إلى العدم ، وترى

(١٣٩) العسوف : العنيف .

(١٤٠) العسيف : الأجر المستهان به .

(١٤١) فرزين العقل : من فرزان الشطرنج معرب فرزين ، وهو إحدى قطع الشطرنج في منزلة الوزير والمقصود بفرزين العقل صواب الرأي وحسن المشورة في تدبير الأمر .

تلاقي الموافقة فات ، ويقول خَصْمُكَ ، وقد رأى كَلَاخَةً وجهك : شاة مات . فلا تعتمد على جهامة جسدك ، وكُفَّ عن حقدك وحسدك ، ولا تقصد حَرَمَ كعبة غيرك بالفكر الويل ، فَيُصِيبَكَ مثل ما أصاب أصحاب الفيل ، حين أرسل الله عليهم طيراً أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل^(١٤٧) ، وتصير بعد وقوع الملاحم^(١٤٨) وصدور المقاحم ، أبا حرمان بعد كنت أبا مزاحم .

فلما قرأ الفيل هذه المطالعة ، غطت حمية الجاهلية منه الباصرة والسماعة ، فأراد أن يأمر بإبطاء الرسول ، تحت أخفاف الفيول ، لكن راجع عقله ، وأحضر وهله ورد الذيب ، بجواب مخيب ، وسهم غير مصيب . وقال : استعدوا للقتال ، ومصادمة الأبطال ، ومقارعة الأفيال . ثم أمر بالعاكر فتجهزت ، وبأمر الحرب فتتجرت ، وثار بغضب أحمى من حجر الغضى^(١٤٩) ، وسار بالعاكر الجرازة فملأ الفضا . فبلغ الملك للظفر ، أبا الحارث الغضنفر ، ما فعله الأكلب ، فاستشار الثعلب . فقال : اعلم أيها الملك ، وقاك الله شر المنهمك ، أن الأفيال لا يعرفون إلا المصادمة ، والاندفاع مرة واحدة في المخاصمة ، وليس لهم في الحرب حِرَاب ، إلا الخراطيم والأنياب ، لا يعرفون الكرّ والفرّ ، ولا يفرقون بين النصيب والجر . ولكن بعض العساكر ، له في ذلك معارف ومناكر ، منها اللواجة والمشافهة ، والمصارعة والمقارعة ، والمدافعة والممانعة ، والمخاتلة والمخادعة ، والمناوشة والمهاوشة ، والمعانسة^(١٥٠) والمهارشة ، والمكافحة والملاطحة^(١٥١) ، والمطارحة والمراحة ،

^(١٤٧) سجل : الطين اليابس المتحجر .

^(١٤٨) الملاحم : للمارك الكبرى التي تلحم فيها الجيوش .

^(١٤٩) الغضى : شجر من الأثل عشب من أصلب الخشب ، وجره يبقى زماناً طويلاً لا ينطفئ .

^(١٥٠) المعانسة : الاستفزاز والمطاردة .

^(١٥١) الملاطحة : المضاربة حتى الموت .

والمرافسة والمراساة^(١٤٧) ، والممارسة والمعاكسة ، والثوبُ والمسورة ، والروغانُ والمصادرة ، والاحتياالُ والكيد ، والاعتياالُ للصيد ، والربوضُ في الكمين ، والنهوضُ من ذات الشمال وذات اليمين ، وكلُّ أربابِ هذه الملاعب ، وأصحابِ هذه المخارقِ والمذاهب ، في عساكرنا موجودون مجتدون ، ومن أبطالنا معدودون مُعدّون ، فلا بُدَّ من ترتيبِ كلِّ في مكانهِ ، وإيقافهِ بين أضرابهِ وأقرانهِ ، وتعبيتهم^(١٤٨) ، ثم تخبيتهم . وكان بالقربِ من ميدانِ النطاح ، وموضعِ جَوَلانِ الكفاح - وهو بَرِيَّةٌ فقراء ، وأَرْضٌ غبراء - أنْهَرُ مِياهُ جارِيَةٌ ، وعليها جَسُورٌ وقناطرٌ عالية ، فافترضى رأيُ الأسد ، والفكرُ الأسدُ أنْ يَطلِقوا نغورَ المِياهِ على البرية ، ويتركوا فيها لعساكرهم طُرْقاً ودورياً خَفِيَّةً ، ثم إنهم عبروا تلك المِياهِ ، وصَفَوْا العساكرَ للملاحقة ، فقدموا أمامهم الثعالبَ والكلابَ ، وكلُّ سَريعِ المَجيءِ خَفِيفِ الزَهابِ ، وصَفَوْا ورائعهم الذئابَ والنمورَ والفهودَ والبيورَ ، ووقف الأسدُ بين الأسود ، في قلبِ الجنود ، بعد أن عبَّ الأُطْلابُ^(١٤٩) ، وعرف مقام كلِّ من القرائصِ^(١٥٠) والأجْلابِ^(١٥١) . ثم إن الثعالبَ ونظرائَها ، ودخلت من الأفيالِ ورائِها ، وصارت تروغُ بينها ، وتلاعبُ على عَينِها حَينَها ، وتعلّقُ بأذُنِها ، وتشتبُّ بعراقيبِها وكِبابِها ، فزاد حَنَقُهم ، وثار قلقُهم ، وتقدّموا واصطدموا ، وحطّموا واضطرموا ، وبنارِ الحربِ اصطلموا ، فناوشهم البيورُ البواسرَ ، وهاوشهم النمورُ الجواسرَ ، وهاوشهم الأسودُ الكواسرَ ، ثم ولوا أمامهم مدبرين ، وقصدوا

^(١٤٧) المراساة : المعايبة وفعل السوء .

^(١٤٨) التعبئة : الاستعداد وإعلان التعبئة العامة .

^(١٤٩) المطلوب (أخذ أُمّة الاستعداد) .

^(١٥٠) القرائص : فرقة من المماليك القدامى .

^(١٥١) الأجْلاب أو الجليان : فرقة من المماليك الجُدُد .

الطريق المخفية عابرين . فتصور الأفيال أن جيش الأسديّ فرّ ، وجنّده انخبطم وانكسر ، وأن عسكريهم غلب وانتصر ، فحطّموا^(١٠٢) بدأ واحدة ، بهمة متعاضدة ، ونهمة متعاقدة ، وصدمة متأكدة ، ففي الحال ارتدموا ، وفي الأوحال ارتطموا ، وقطّع دابر القوم الذين ظلموا . ثم كرّرت عليهم الأسود والنمور والفهود ، وسائر السباع ، والذئاب والضباع ، فوقعوا في تلك الفرائس ، وقوع الجلياع على الهرائس^(١٠٣) ، وعانقوهم معانقة الأحباب للعرائس ، وأكلوا وادعروا ، وحمدوا الله تعالى وشكروا ، ومن بعد ما ظلموا انتصروا ، وأظهر العدل للحقّ مناره ، وظهر سرّ قوله عليه الصلاة والسلام "مَنْ آذَى جَارَهُ وَرَعَى اللَّهَ دَارَهُ" والله لا يهدي القوم الظالمين .

والحمد لله رب العالمين ، وطلّى الله على

سيدنا محمد خير خلقه وآله

وصحبه أجمعين .

^(١٠٢) تلافوا واندفعوا .

^(١٠٣) الهريس مطبوخا ، أو نوع من الحلوى يصنع من اللبني والسمن والسكر .

الباب الثامن

فِي حِكْمِ الْأَسَدِ الزَّاهِدِ وَأَمْثَالِ الْجَمَلِ الشَّارِدِ

قال الشيخ أبو المحاسن ، مَنْ هو لجرعة الفضل أحسنُ حاسن : فلماً وعى الملكُ
الجليل ، والقيل^(١) الفضيل ، ما جرى بين الأسدِ والفيل ، من القالِ والقيل ، وانجرارِ
ذلك إلى الضربِ الويل ، وعلم أنَّ عاقبةَ الظلمِ وخيمة ، وخاتمةَ التعدي والطمع
مشومة ، أمرُ رؤساءِ المملكة ، وزعماءِ السلطنة ، بالكفِّ عن الطمع ، وتجنبِ الجبنِ
والهلع ، ومعاملةِ الأهلِ والجار ، بحسنِ الخلقِ والجوار ، وانتشارِ ذلك بالإشهار ، في
الولاياتِ والأقطار . فالعاقلُ مَنْ اعتبرَ بغيرهِ وكفَّ كفَّهُ عن أذاهِ وضيرهِ ، ونشر
مهما استطاع من موافقِ إحسانهِ وخيرهِ ، وعدى عن التعدي والعدوان ، لاسيماً إذا
كان ذا قدرةٍ وإمكان ، وتحكَّم في الفقراءِ والضعفاءِ وسلطان . فنهض الحكيمُ
حسيب ، وقبِلَ أرضَ العبوديةِ بشفاهِ التأديب ، وقال :

بلغني أيُّها الملكُ المفضل ، ممَّا يطابقُ هذه الأحوال ، أنَّه كان في بعضِ الأزمان ،
وأنزله الأسكان ، سلطانُ الحيوان ، أسدٌ عظيمُ الخلقة ، جسيمُ الشفقة ، جليلُ
المكارم ، سليلُ الأكارم ، قد بلغ في الزهدِ الغاية ، وفي الورعِ والعفةِ النهاية ، مع
حُسْنِ الأوصافِ والشمائل ، وكرمِ الأعطافِ والفضائل ، قد جمع بين الهيبةِ
والشفقة ، والصدقِ والصدقة ، وسورةِ^(٢) الملكِ وسيرةِ العدل ، وسيمةِ الفصل ،

(١) القيل : الملك .

(٢) سورة : سطوة .

وشيمة الفضل . هيئته مزوجة بالرافة^(١) ، وعاطفته مدموجة في الصولة والظرافة ،
قد عاهد الرحمن ، بالكف عن أذى الحيوان ، وأن لا يريق دما ، ولا يتناول دما ،
ولا يرتكب محرما ، يتقوت بنبات القفار ، ويقوم الليل ويصوم النهار ، يرعى في
دولته الذئب مع الغنم ، وينام في كنف ضمائه وكفالة مأمته الثعلب والأرنب ، بعد
حر الحرب والحرب ، في ظل الصال والسلم . كما قيل :

ولمي البرية عدله لعمازجت أحسدأدما من كفرة الإنساس
تحمو على ابن الماء أم الصقر بل يحمي أخو القضاة أخت كناس

وفي جواره دوحة كثيرة الثمار ، غزيرة الأنهار ، نضيرة الأزهار ، رائقة الماء
والكلا ، خائقة النشو والنما^(٢) ، شائقة النشور والهوا ، رياحينها طرية ، ومروجها
بهية ، ومقاصفها شهية ، فكان الأسد ذو الزهادة ، إذا أطال اجتهداه ، وأراد أن
يريح نفسه من مشاق العباد ، يتوجه إلى ذلك الروض الأريض^(٣) ، والمرج البهي
الغريض^(٤) ، والمرعى الطويل العريض ، فينتزه في نواحيه ، ويسرح سوائم طرفه^(٥)
فيه ، ويشغل صادق لسانه بتسييح خالقه ومنشيه . فبينما هو في بعض الأوقات ،
يتمشى في تلك الخضروات ، صادف دبا عظيما الجسم ، مليح الوسم ، فقبل الأرض
بين يديه ، وذكر أنه أقبل لينتمي إليه ، وأنه قد سمع بأوصاف عدله ، ومكارم شيمه
وفضله ، فقصده ليتشبث بأذياله ، ويتظلم في سلك خيله ورجاله ، ويزجي في
خدمته باقي عمره ، ممثلا بارزا مرسومه وناقذا أمره ، فلقاه بالقبول والإقبال ،
وشمله بالفضل والإنصال ، وقال له : طِبْ نَفْساً وَقَرَّ عَيْنَا ، لقيت زينا ووقيت

(١) الرافة : الرافة .

(٢) النشو والنما : النشو والنماء .

(٣) الأريض : كثير النبات .

(٤) الغريض : الدائم الخضرة .

(٥) سوائم طرفه : شارد نظره ، حيثما نظر .

شَيْئًا . فَانْتَظَمَ فِي سَلَكِ خِدْمَةِ ، وَانْغَمَرَ فِي بَحْرِ كَرَمِهِ ، وَاشْتَزَطَ عَلَيْهِ أَنْ يَحْتَمِيَ^(٨) عَنْ لَحْمِ الْحَيَوَانِ ، وَلَا يَتَعَرَّضَ لِإِيذَاءِ طَائِرٍ وَلَا إِنْسَانٍ ، فَامْتَلَأَ ذَلِكَ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ ، وَسَارَ عَلَى سُنَنِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ . ثُمَّ بَعْدَ مَلَقَةٍ يَسِيرَةٍ ، قَصَدَ الْأَسَدُ مَسِيرَهُ ، وَخَرَجَ يَسِيرُ عَلَى بَاكِرٍ ، وَحَوْلَهُ طَائِفَةٌ مِنَ الْعَسَاكِرِ ، فَلَقِيَ جَمَلًا ضَلَّ الطَّرِيقَ ، وَتَأَنَّ عَنْ الصَّاحِبِ وَالصَّدِيقِ ، وَنَسِيَهُ الْجَمَالَ وَتَرَكَهُ الرَفِيقَ ، فَبَادَرَ إِلَيْهِ جَمَاعَةُ الْأَسَدِ ، وَهَمُّوا بِتَبْضِيعِهِ بِالنَّابِ وَالْيَدِ ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا لَشِدَّةِ الْقَرَمِ^(٩) ، أَلْهَبَتْ أَحْشَاءَهُمْ بِالضَّرْمِ ، فَنَادَاهُمُ الْأَسَدُ : وَيَلَّكُمُ كُفْرًا ، وَعَنِ التَّعَرُّضِ إِلَى إِيذَائِهِ عَفْوًا ، لَعَلَّأَ بِصِيَّتِهِ مِنَ الْكَيْدِ ، مَا أَصَابَ صَاحِبَ كَسْرَى ذِي الْأَيْدِ^(١٠) ، مِنْ كَسْرَى لَمَّا خَرَجَ صَبَاحًا إِلَى الصَّيْدِ . فَقَبَّلَ الْجَمَاعَةُ الرِّغَامَ^(١١) ، وَسَأَلُوا الْإِمَامَ عَنْ بَيَانِ ذَلِكَ الْكَلَامِ .

[١/٨] قِصَّةُ كَسْرَى مَعَ الْأَعْوَمِ

فَقَالَ ذُكِرَ أَنَّ كَسْرَى أَرَادَ يَوْمًا الْأَصْطِيَادَ ، فَرَكِبَ فِي جَمَاعَتِهِ وَأَهْلِي طَاعَتِهِ ، وَسَارَ عَلَى الصَّبَاحِ ، وَهُوَ فِي نَشَاطٍ وَمَرَاحٍ ، وَانْبَسَاطٍ وَانْشِرَاحٍ ، فَصَادَفَ رَجُلًا كَرِيهَ الْمَنْظَرِ ، مُشَوَّهَ الْخِلْقَةِ أَغْمُورَ . فَتَشَاعَمَ بِطَلْعَتِهِ ، وَتَعَوَّذَ مِنْ رُؤْيَتِهِ ، وَتَطَيَّرَ مِنْ صَبَاحِهِ ، وَتَكَثَّرَ صَفْوُ انْشِرَاحِهِ . ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَضْرِبَ ، وَلَوْلَا تَدَارُكُهُ الشَّفَاعَةُ لَصُيِّبَ . ثُمَّ تَرَكَهُ وَسَارَ ، نَحْوَ صَيْدِ الْقِفَارِ ، فَحَاشَ الصَّيْدَ ، وَاقْتَنَصَهُ مِنْ عَسْكَرِهِ عَمْرُو وَزَيْدٌ ، وَرَجَعَ مَسْرُورًا ، فَرَحًا مَجْهُورًا . وَأَدْرَكَهُ الْمَسَاءُ ، فَصَادَفَ ذَلِكَ

^(٨) يَحْتَمِي : يَجْتَنِعُ .

^(٩) الْقَرَمُ : الْجُوعُ .

^(١٠) الْأَيْدِ : الْقُوَّةُ وَالسُّلْطَانُ ، وَالنِّعْمَةُ وَالْإِحْسَانُ .

^(١١) الرِّغَامُ : الْغَوَابُ .

الرجل ملتفاً بكساء ، وكان ذا لبٍّ صحيحٍ وعقلٍ رحيح ، ولسانٍ فصيح ، فأبدي كسراً ، ونادى كسرى ، فاستوقفه بعد ما استلطفه ، وقال : أيها الملك العادل ، والمالك الفاضل ، أسألك يا الله الذي ملكك رقاب الأمم ، وحكمتك في طوائف العرب والعجم ، أنعم عليّ برّد الجواب ، وبين لي الخطأ من الصواب ، فإنك عادل حكيم ، فاضل كريم .

فوقف بمسكره ، واستنصت لخيرهِ ، وقال : هاتِ مقالكَ ، وقُلْ ما بدا لك . فقال : يا ملك ذا الأيد ، كيف كانت أحوالك اليوم في الصيد ؟ فقال : على أنّم ما نريد ، لقد حصله السادات والعبيد . فقال : هل حصل في أمور السلطنة وهنّ أو خلل ، أو في الخزائن المعمورة نقصٌ وقلل ؟ قال : لا بلّ أحوال السلطنة مستقيمة ، ويديم الخزائن دارةً مقيمة . قال : فهل وردّ اليوم من الأطراف ، غير يؤذّن بتشويش واختلاف ؟ قال : لا بل الجوانب مطمئنة ، والثغور من الأعداء والمخالفين مستكنة . قال : فهل أصاب أحد من الخدم والأصحاب الخول^(١) والحشم مصاب ؟ قال : بل كلهم بخير آمنون من الضرر والضير . قال : فلم ضربتني وأهنتني ، وعلام كسرتني وطردتني ؟ قال : لأنّ التصبّح بك مشوم ، وهذا أمرٌ مشهورٌ معلوم . قال : سألتك يا الله الذي تتقلب في مواهبه ، أينما كان أشأم على صاحبه ؟ أنا تصبّحت بك وأنت تصبّحت بي ، فأنت أصبت الذي ذكرت وقد علمت ما حلّ بي ، ومع هذا فإنما عيّت وعيّت على الصانع ، وذهلت عمّا أوّده في من أسرار وبدائع ، فإنه لا اختيار لي فيما فطرتني عليه ولا مدافع ، ولا حيلة فيما قدره علي ولا ممانع ، واسمع ما قلت ، بعد ما وصلت ، في إهانتني وجلّت :

لَقَدْ كَانَ قَصْدِي أَنْ أَسُودَ عَلَى الْوَرَى بَقْدَ وَطُوفٍ كَامِلٍ الْخَلْقِ بَارِعٍ

(١) الخول : العبيد والإماء وغيرهم من الاتباع والحشم .

لما كسني تقيديز رُئي وصالي

ووجه يفوق البدر والشمس بهجة

ثم خطّر بالبال ، هذا المقال فقلتُ :

وأكمل من نثر السُما وفؤ طالغ

وذذت لَو أني أحسن الخلق صورة

ولا صنّع لي فيما بي الله صانع

فأبدعني نقش المصوّر هكذا

فتنبّه كسرى لكلاميّه ، وأمر بإعزازه وإكراميه ، وتدارك ما فرط منه بإحسانه

وإنعامه .

وإنما أوردتُ هذا المثل ، لتلا يكونَ هذا الجمل ، مثلَ ذلك الرجل ، لأنّه قد
تصبّح بي ، فلا يرى أبداً مكروهاً بسببي ، بل يرى الخير ، ويكفّي أذى الغير ،
وكذلك كلُّ مَنْ هو عندي ، ومنسوبٌ إليّ من خوّلي وجُندي . ثم عاد^(١٧) ذلك
البعير ، وسأله عن جليل أمره والحقير . فأخبره أنّه تآه عن أصحابه ، وأنّه من بعد
يتعلّق بغرز ركابه ، ويلتزم بحبّته بابّه كأصحابه . فأكرم مشواه ، وأحسن متبوّاه
وماواه ، إلى أن صار من أكبر الخدم ، وذا خولٍ وحشَم ، ورأس الندماء ، ورئيس
الجلساء ، وأمين النكّة والبوس ، وسمن حتى صار كالعروس . فحسّنه الدبّ ، لعدم
اللبّ ، وعزّم بمكره على إلقائه في الحبّ ، واشتدّ بذلك التبرّم^(١٨) ، إلى أكل لحم
الجمل القرم^(١٩) ، فأخذ يضربُ في ذلك أحساساً لأسداس ، واحتوشه في قضيته ،
لسوء طويّته ، القلق والوسواس ، فلم يرَ أوفّق من إفسادِ صورته ، وإظهارِ سوءِ
سريره ، فيهلكه ويكيّده ، ويفتته ويبيده ، فيصلُّ منه إلى ما يريد ، ويتمرُّ بمكره
الحسد ، ويصلح من شره ما فسّد ، ويروجُ منه ما كسّد ، فأذى فكره إلى أن
يُغري به الأسد .

(١٧) عاد : زار .

(١٨) التبرّم : التفتّل .

(١٩) القرم : السيّد ، والقرم من الفحول الذي يوك من الركوب والعمل .

فاحتلى بالجليل ، وابتدى بالعمل ، وقال له لي معك كلام ، على كُتْمِهِ منك
أَلَامٌ ، وَلَكِنَّكَ لَسْتَ مَوْضِعاً لِلسَّرِّ ، لَأَنَّكَ لَا تَعْرِفُ هَرَأَ مِنْ بَرٍّ ، وَأَنْتَ سَادِجٌ
سَاكِنٌ ، سَلِيمٌ الْفِكْرِ وَالْبَاطِنُ ، وَقَدْ قِيلَ "الْحِمَاقَةُ فِي الطَّوِيلِ" وَلَوْلَا وَفُورُ شَفَقَتِي ،
وَحُتُوتِي عَلَيْكَ وَمَوَدَّتِي ، مَا فَهْتُ لَكَ بِكَلِمَةٍ ، وَلَتَرَكْتُكَ مِنَ النَّبِيِّ فِي ظُلْمَةٍ . وَقَالَتْ
الْحِكْمَاءُ ذَوُ الْمَعَارِفِ ، لَأَتَفَشَّ سِرُّكَ إِلَى طَوَائِفَ ، مِنْهَا سَلِيمُ الْفِطْرَةِ ، وَمِنْهَا مُذْمِنُ
الْخِمْرَةِ ، وَمِنْهَا الْكَثِيرُ الْكَلَامِ ، وَمِنْهَا الْمَرْأَةُ وَالْغَلَامُ ، فَإِنَّهُمْ لَيْسُوا حُلَّ الْأَسْرَارِ ،
وَأِنَّهُمْ يَفْشُونَهَا بِلَا اخْتِيَارٍ . وَقَدْ قِيلَ "كَمْ إِنْسَانٌ أَهْلَكُهُ اللِّسَانُ ، وَكَمْ حَرْفٍ
أَذَى إِلَى حَتْفٍ" . قَالَ الْجَمِيلُ ، وَقَدْ أَثَّرَ فِيهِ مَكْرُهُ وَدَخَلَ : يَا أَخِي أَنَا أَتَحَقَّقُ
شَفَقَتَكَ ، وَصَدَقَكَ وَصَدَّقْتُكَ ، وَأَعْرِفُ مَحَبَّتَكَ ، وَنَصَحَكَ وَمَوَدَّتَكَ ، وَأَنْتَ لَا
تَحْتَاجُ فِي تَجَرُّبَتِي إِلَى دَلِيلٍ ، فَلِي فِي صَحِيحَتِكَ زَمَانٌ كَقَدِّي^(١٦) طَوِيلٌ ، وَأَنَا أَوْكَدُ
قَوْلِي بِالْإِيمَانِ ، وَأَعْقُدُ عَلَى مَا تَلْقِيهِ إِلَى الْجَنَانِ ، وَلَا أَتَفَوُّهُ بِهِ لَجْمَادٍ وَلَا حَيَوَانَ .
وَالشَّخْصُ إِذَا لَمْ يَعْرِفْ مِنْهُ مَا يُرَادُ ، فَلَا فَرْقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَمَادِ ، وَاذْكُرْ مَا قُلْتُ
لَكَ ، فِي دَرْبِ ابْنِ تِلْكَ :

وَمَنْ كَانَ ذَا عَيْنٍ وَلَا يُبْصِرُ الَّذِي أَمَامَهُ فَهَذَا وَالضَّرِيرُ مَسَوَاءُ
وَذُو الْجَهْلِ خَيْرٌ مِنْ عَقُولِ عُلَمَائِهِ سَرَاجٌ وَلَكِنْ لَيْسَ فِيهِ ضِيَاءُ

ثُمَّ أَنْشَأَ ثَمَانًا غِلَاطًا ، إِنَّهُ يَبَالُغُ فِيمَا يَسْمَعُ مِنْهُ احْتِفَاطًا ، وَلَا يُؤَدِّي مِنْهُ لَامًا وَلَا
وَفَاءً وَلَا ظًا^(١٧) .

فَلَمَّا وَقَفَ الدُّبُّ عَلَى جَوَابِهِ ، وَرَبَطَهُ بِزِمَامِ تَدْبِيرِهِ اِخْتَلَى بِهِ ، وَقَالَ : تَعْلَمُ أَيُّهَا
الصَّدِيقُ الْمَيِّينُ ، إِنَّ مَلِكَنَا فِي غَايَةِ الْعَفَّةِ وَالِدِينِ ، وَأَعْلَى دَرَجَاتِ الْعِبَادِ وَالزَّاهِدِينَ ،

^(١٦) الْقَدَّ : الْقَوَامُ ، الْقَامَةُ .

^(١٧) بِمَجْمُوعِ الْحُرُوفِ - لَفْظٌ .

قد فَطَمَ نَفْسَهُ عن الطعوم ، خصوصاً عن الدماء واللحوم ، ولكنه في ذلك كَلَّهَ غيرُ معصوم ، فإنه قد تَرَبَّى بِلَحْمِ الحيوان ، وَتَغَذَّى بِافْتِرَاسِ الأقران ، وتعودُ رضع الدماء ، وَقُطِعَتْ سُرَّتُهُ على هذا الغذاء ، وَتَزَهَّدَهُ إِنَّمَا هُوَ تَكْلُفٌ ، وَتَعَسُّفٌ وَتَصْلُفٌ ، وَتَعَفُّفٌ مُكَابِرَةٌ ، وَتَوَرُّعٌ مُصَابِرَةٌ ، وَلَا بُدَّ لِلنَّفْسِ أَنْ تَفْعَلَ خَاصِيَّتَهَا ، وَتُجَذِّبَ شَهَوَاتَهَا إِلَيْهَا نَاصِيَّتَهَا ، وَتَطْمَحَ إِلَى مَارِزِهَا^(١٨) ، وَتَجَمَّحَ إِلَى مَرْكَزِهَا ، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿فَطَرَهُ اللَّهُ الَّذِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾^(١٩) وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ ، فَاحْتَفِظْ لِنَفْسِكَ ، وَاحْفَظْ نَصِيحَتِي وَأَمْسِكْ^(٢٠) ، وَتَفَكَّرْ أَحْوَالَ غِيكِ فِي أَمْسِكَ ، فَإِنَّكَ فِي صَحْبَةِ الْأَسَدِ عَلَى خَطَرٍ عَظِيمٍ ، وَخَطْبِ جَسِيمٍ ، فَلَا تَغْفُلْ عَمَّا قُلْتُ لَكَ ، وَلَا تَطْلُنَّ أَنَّهُ لَنْ يَقْتُلَكَ .

فَدَاخَلَ الْجَمَلَ مِنْ هَذَا الْكَلَامِ الْخَوَرُ^(٢١) ، وَلَمْ يَبْقَ لَهُ طَاقَةٌ وَلَا مُصْطَبِرٌ ، ثُمَّ كَبَّهَ التَّوْفِيقَ ، وَنَحَلَ فِي هَذَا الْأَمْرِ الْجَلِيلِ فِكْرَهُ الدَّقِيقَ ، وَاسْتَحْضَرَ رَأْيَهُ فِي أَمْرِهِ ، وَأَجَالَ قِدَاحَ فِكْرِهِ ، وَقَالَ لِلدُّبِّ الْمَشُومِ : يَا أَخِي فَأَيُّ ضَرُورَةٍ دَعَتْ الْأَسَدَ الْغَشُومَ ، حَتَّى تَغْفَ عَنْ أَكْلِ اللَّحْمِ ؟ قَالَ : أَنَا لَا أَشْكُ فِي دِينِهِ ، وَلَا أَرْتَابُ فِي حُسْنِ يَقِينِهِ ، وَلَكِنْ رِمَا تَعُودُ الْمَيَاءُ إِلَى مَجَارِيهَا ، وَتُعْطِيَ الْقَوْسَ بَارِيهَا ، وَتُتَحَرِّكَ النَّفْسُ الْأَيُّبَةُ ، وَالشَّهْوَةُ الَّتِي طَالَمَا أَلْقَتْ صَاحِبَهَا فِي بَلِيَّةٍ ، لِأَنَّ الْإِنْسَانَ ، بَلَى سَائِرِ الْحَيَوَانَ ، عَلَى مَا يَقْتَضِيهِ الْكُوْنُ وَالْمَكَانُ ، دَائِرٌ مَعَ اخْتِلَافِ اخْتِلَاقِ الزَّمَانِ ، فَإِنَّ الزَّمَانَ كَالْوَعَاءِ ، وَالشَّخْصَ فِيهِ كَالْمَاءِ ، فَيُعْطِيهِ مِنْ أَخْلَاقِهِ مَا يَقْتَضِيهِ ، مِنْ كُدْرِهِ وَصِفَائِهِ ، وَلِهَذَا

^(١٨) مَارِزُهَا : طَبْعُهَا وَأَصْلُهَا .

^(١٩) قرآن كريم ، سورة الروم : ٣٠ .

^(٢٠) أَمْسِكْ : احْفَظْ وَتَمَسَّكْ .

^(٢١) الْخَوَرُ : الضَّعْفُ وَالسَّادُّ وَالشُّكُّ .

قيل "لَوْ لِلْمَاءِ لَوُنَّ إِنَائِهِ" . وقد قيل "النَّاسُ بِزَمَانِهِمْ" ، أَشْبَهُ مِنْهُ بِآبَائِهِمْ" . وناهيك يا ذا الكرامات ، ما قيل في المقامات (٢٢) :

وَلَمَّا تَعَامَى الدُّغَرُ وَهُوَ أَبُو الْوَرَى عَنْ الرُّشْدِ فِي أَلْحَائِهِ وَمَقاصِدِهِ
تَعَامَيْتُ حَتَّى لَيْلٍ إِنِّي أَخُو هَمَى وَلَا غُرُوَّ أَنْ يَحْدُو الْفَتَى حَلْدُو وَاللَّهِ

والأسدُ في هذا الأوان ، ماشٍ على ما يقتضيه الزمان ، وإنَّ الزمانَ يتحوَّل ،
وسيرجع الأسدُ إلى خُلُقِهِ الأوَّل ، أَمَا بَلَّغَكَ إِذَا الْفُطْنَةُ الْحَيَّةُ ، قِصَّةُ الْحَائِكِ مَعَ
الْحَيَّةِ ، قَالَ لَا وَرَبَّ الْبَرِيَّةِ ، فَأَعْبِرْنِي عَنْ كَيْفِيَّةِ تِلْكَ الْقِصَّةِ .

[٢/٨] قصة الحائك مع الحية

قال الدبُّ الأفاك ، ذُكِرَ أَنَّ حَائِكًا مِنَ الْحَيَّاتِ ، كَانَتْ لَهُ زَوْجَةٌ تَخْجُلُ شَمْسَ
الْأَفْلَاكِ ، صَوْرَتُهَا مَلِيحَةٌ ، وَسَوْرَتُهَا قَبِيحَةٌ ، فَشَمَّ زَوْجُهَا رَوَائِحَ ، مَا هِيَ عَلَيْهِ مِنْ
الْقَبَائِحِ ، وَخَافَ أَنْ يُوْدِيَ إِلَى الْفُضِيحَةِ ، فَطَلَبَ تَحْقِيقَ ذَلِكَ ، لِيُوصِلَهَا إِلَى
الْمُهَالِكِ . فَقَالَ لَهَا : أَرِيدُ ضَبْعَةً ، لِأَجْلِ بَيْعَةٍ ، فَأَغِيبِ أَيَّامًا يَسِيرَةً ، لِفَائِدَةٍ كَثِيرَةٍ ،
فَارْصُدِي بَابِي ، وَاسْتَلْطِي حِجَابِي ، وَاحْفَظِي مِنَ الشَّرِّ جَنَابِي . فَقَالَتْ : بَيْتُ
أَنْتِ رَئِيسُهُ ، وَمَثَلِي قَعِيدَتُهُ وَعُرُوشُهُ ، أَنَّى يَحُومُ حَوْلَهُ فَسَادٌ ؟ فَأَدْرِكْ سَوْقَكَ قَبْلَ
الْكِسَادِ ، وَجَهِّزْتِهِ أَسْرَعَ جِهَازٍ ، كَالْتَوَجُّهِ إِلَى الْحِجَازِ ، فَسَافِرٍ مِنْ غَيْرِ مَرِيَّةٍ . ثُمَّ
رَجَعَ إِلَى الْبَيْتِ فِي خَفِيَّةٍ ، وَاخْتَبَأَ تَحْتَ السَّرِيرِ ، لِيَنْظُرَ مَا يَجْرِي مِنَ الْأُمُورِ .
فَبَادَرَتْ إِلَى النَّارِ وَنَفَعَتْ ، وَأَسْرَعَتْ إِلَى الطَّعَامِ وَطَبَخَتْ ، وَخَرَجَتْ تَدْعُو
مَرَامَهَا ، وَقَدْ هَيَّأتْ طَعَامَهَا ، فَخَرَجَ زَوْجُهَا مِنَ الْمَنَاجَا ، وَأَتَى عَلَى الطَّعَامِ الْمُهَيَّأِ ،
وَرَجَعَ إِلَى مَكَانِهِ وَنَامَ ، بَعْدَ أَكْلِهِ الطَّعَامِ ، فَجَاءَتْ الْمَرْأَةُ بِحَرْفِهَا (٢٣) ، وَقَصَدَتْ

(٢٢) للمقامات : الأحاديث العرفلية .

(٢٣) الحريف : العشيق .

الطعام لمضيقيها ، فصادفت يدها الحصر ، فعرفت أن البلاء تحت السرير ، فأخذت تطلب المخلص ، من ذلك المقتص .

واتفق أن الملك رأى مناماً هاله ، ولكن نسي هيبته وحاله ، فقصد من يخبره برؤياه ويعبرها له ، فنادى في الوري ، يطلب لمنامه خيراً ومعيراً^(٢٤) . وبينما تلك الفاجرة ، على حيلة الخلاص دائرة ، وفي بحر الأفكار حائرة ، سمعت المنادي ، في كل نادي : مَنْ يَدُلُّ الْمَلِكَ الْهَمَامَ ، على معبر المنام ، فله مزيد الإكرام ، والانتعاش العام ، فسارعت المرأة إلى باب الأمير ، وقالت : قد سقطت على الخبير ، إن لي زوجاً حكيماً ، بتعبير المنامات عليما ، لكنه يتعزز ، وعن تعبيرها يتحرز ، فلا يفوه بالتعبير ، إلا بعد ضرب كثير ، وإنه ليس له في ذلك نظير .

فأرسل وراءه ، وأكرم لقاءه ، ثم قال له ، بعد إكرام أوصله ، ووعده بانتعاش وصلة : رأيت مناماً راعني ، وفي الخيرة والفكر أضاعني ، فدع عنك الاحتشام ، وأخبرني عن ذلك المنام ، ثم عبّر لي ، فقد أخبرت أنك حبيب لله ولي . فقال : يامولانا الملك : أنا في الجهل منهمك ، حائك فقير ، ليس لي من العلم نقير^(٢٥) ، ولقد كذبت علي ، من نسب العلم إلي ، والعين تعرف العين ، أنا من أين ، وتعبير الرؤيا من أين ؟ فما صدقه ، ولا في كلام استوثقه ، وصدق قول المرأة فيه ، وأمر بإيصاله ما يُنكيه ، ثم طلب المقارع ، وشلوا منه الأكارع ، وضربوه ضرباً أعسفه ، إلى أن كاد أن يلقه ، فنادى : الأمان الأمان ، أمهلني ثلاثة أيام من الزمان ، فتركوه وأمهلوه ، وقبّذه أطلقوه .

^(٢٤) المعير : مفسر المنامات أو الرؤيا .

^(٢٥) نقير : ما نقر من الحجر والخشب ونحوهما ، والمعنى : لم يتعلم ، أو ليس له من العلم نصيب .

فصار يدور في الخرائب ، ويتضرّع تضرّع التائب . ففي ثالث الأيام ، وقد أيقن بحلول الحِمام ، دخل إلى مكانِ حراب ، وأخذ في البكاء والانتحاب ، فنادته حَيَّة من الشقوق : ما لكَ تتحبُّ ياذا العقوق ؟ فأخبرها بحاله ، وما جرى عليه من نكاله . فقالت : ماذا تجعل لي من الأنعام ، إذا أخبرتك بما رآه الملك في المنام ، ثم فضضت عن تعبيره مسك الختام ؟ قال : أكونُ لك عبداً وصيفاً ، وأعطيك مما أُعطى نصيفاً . قالت : إن الملك رأى في منامه ، إن الجوَّ يمطرُ من غمامه ، أسوداً وغموراً ، وفهوداً وبيور^(٢٦) ، وأنَّ السماء في ذلك تمور . وتعبيرُ هذا المنام ، والله العالم ، أنه يظهرُ في هذا العام ، للملك أعداءٌ كواسير ، وحسادٌ جواسير ، يقصدون هلكه ، ويريدون ملكه ، وسيطفيء نارَ كيلهم بمياه سيوفه ، ويسقيهم من رحيق فتوحه ، كاساتٍ حتوفه . فكشفت غمته ، ثم أصلح لباسه وعمته ، وقصد بابَ الملك ، ونادى غيرَ مرتبك ، وذكر المنامَ وعبره ، ووعدَ السلطانَ بالنصرِ وبثَّره . فتذكرَ المنامَ وحققه ، واعتمد عليه وصلَّقه ، وأمر له بالفر دینار ، وصار له عند الملكِ بذلك اعتبار . فأخذ الذهبَ مجبوراً ، وانقلب إلى أهله مسروراً ، ثم افكر ما اشترطه مع الحية ، فأبى عن الوفاءِ نفسه الشقية ، وخاف أن تطالبه بمحصتها ، أو تفضحه بقصتها ، فلم يرَ أوفقَ من قتلها ، وسدَّ ذريعة سبيلها ، فأخذ عصا ، ورام بذلك مخلصاً ، وقصد مأواها ، ووقف فناداها ، فخرجت مسرعةً إليه ، وأقبلت بالودادِ عليه ، فرأت العصا يمينه ، فعلمت أنه ناكثٌ يمينه ، فولت هاربة ، فضرَبها ضربةً خائبةً ، لكنه جرحها ، وعمد إلى نفسه ففضحها ، وتركها وذهب ، فانزلاً بالذهب .

(٢٦) بيور : جمع يور ، ولم تنصب للدواعي السجع .

فاتفق أن في العام الثامن^(٢٧) ، رأى السلطان ، مناماً ألقاه ، وعن نومه أرقه ، ومن شدة أهواله ، محاه الوهم عن لُوح خياله . فدعا المعبرَ المعهودَ إليه ، وقصَّ حاله عليه ، وطلب منه صورة المنام ، وما يترتبُ عليه من كلام ، فاستمهله الأيامُ المعبودات ، وقصدَ رئيسةَ الحيات ، وناداهَا عَجَلاً ، ووقف في مقامِ الاعتذارِ خَجَلاً . فقالت : أيُّ عُذْرٍ ، وأيُّ غدرٍ ، وكيف استحلَّيتَ ما مضى من فعلك ومَرَّ ؟ بأيِّ وجهٍ تقابلني وتخطب ، وقد قصدتَ عطبي بعد ما خلصتُك من المعاطب ، وقابلتَ إحساني بالسوء ، ولكنَّ غدرَكَ بك يُؤو ؟ فقال : عَفَا اللهُ عما سلف ، والصداقةُ بيننا من اليومِ تُؤتَف^(٢٨) . ثم أنشأ أثنان ، إنه يُبدلُ الإساءةَ إحساناً ، وإنه لا يخونُ ولا يمين^(٢٩) ، فيما يقعُ عليه العهدُ واليمين ، بل يعودُ إلى العهد ، ومهما وقع عليه الاتفاق ، لا يمازجُه خُلفٌ ولا نفاق . فقالت : أريدُ جميعَ الجائزة ، لأكونَ بها فائزة ، ولها حائزة ، فأجابها إلى ما سألت ، وعاهدتها على ذلك فقبلت . وقالت : رأى الإمامُ في هذا المنام ، أن السماءَ تُمطرُ قردهً وفيراناً ، وتعالِبَ وجرداناً ، وتعبيرُ هذه الرؤيا ، وكلمةُ الله هي العليا ، أنه في هذا العام ، والشهورِ والأيام ، يكثرُ اللصوصُ والعيارون والمكرَةُ والطُغَرارون ، ويظهرُ في العساكر ، كبُلٌ حُسوِدٌ ماکر ، وشيطانٌ داعر ، ولكنَّ صولةَ الملِكِ تمحقُهم ، وصواعقُ سيوفه تصعقُهم . فأسرع إلى السلطانِ وخبره ، بما رآه في منامه وعبره . فقال : بالحقِّ أثبت ، هذا الذي كنتُ رأيت . ثم أمرُ له بمجازفةٍ سنِيَةٍ ، وخلعةٍ بهيَّة ، فصار في عيشةٍ مرضِيَةٍ ، وحياةٍ هنيئة ، وسلك طريقته الدنِيَّة ، فلم يلتفت إلى عهوده

(٢٧) الثامن : الثاني .

(٢٨) تؤتف : تستأنف .

(٢٩) يمين : يكذب .

القوية ، ونبذ عهد الحية الحية . وقال : يكفيها مني كُفِّي عنها ، فلا تطلبُ مني ولا اطلبُ منها .

ثم إن السلطان رأى في المنام ، في ثالث الأعوام ، مناماً آخر ونسيه ، فارسل إلى المعبرِ فغشيه ، من يَمِّ الهمِّ^(٣٠) ما غشيه ، وسأله عما رآه ، وطلب منه تعبير رؤياه ، فطلب المهلة كما كان ، وأحاط به موجُّ الهمِّ من كلِّ مكان ، ولم يرُ بدءاً من معاودة الحية ، فأتاها وبه من الحياءِ كَيْةً ، وناداهَا بصوتٍ خاشع ، ووقفَ في مقامِ الليلِ الخاضع . فخرجتْ فرأته ، فزجرته وزارته ، وقالت : يا عائنُ يا كذاب ، يا ناقضَ العهدِ يا مرتاب ، يا قليلَ الحياءِ ، يا كثيرَ البذاء ، يا صفيقَ الوجه ، يا حقيقَ النَجْه^(٣١) ، ترى بأيِّ لسانٍ تخاطبني ، وبأيِّ وجهٍ تقابلني ، وقد خلتِ وقتلتِ ، وفعلتَ فعلتَكَ التي فعلتَ ؟ فقال : لم يبقَ للاعتذار مجال ، ولا للاستقالة مقال ، وما ثم طريقٌ إلا معاملتك بالإفضال ، فإنَّ أفضلتَ أعممتَ الإحسان . وإن رددتَ فعلمرك واضعُ البيان . وهذه المرةُ الثالثة ، لا تكنَ يمينها حائنة ، ولا عهدُها ناكثة ، وأشهدُ اللهَ وكُفِّي به شهيدا ، أني بعد لا أنقضُ لك عهدودا ، ولا أحِلُّ مما بيننا عقودا . فقالت : لا أخبرك بشيٍّ ، إلا أن تعهدَ إليّ ، أن تعطيتني جميعَ ما تُعطى ، وتكفَّ عما وقع منك من الخطأ ، فسمع مقالها ، وأجاب سؤلها . فقالت : رأى الملكُ في منامه ، كأنَّ الجلوَّ أمطرَ من غمامه ، وأملأَ الفضاءَ من جرافه وأغنامه ، وتعبرُ هذا المنام ، أنه يكونُ في هذا العام ، من الخيراتِ والأنعام ، ما يشملُ الخاصَّ والعام ، فتطيبُ الأوداءَ ، وتتصالحُ الأعداءَ ، وتطيعُ العصاة ، وتذعنُ البغاة ، ويوافقُ المخالف ، ويكثرُ المحبُّ والموالف ، فاحفظ ما قلتُ لك ، فقد حلَّتْ مُثْنِكَلْكَ .

(٣٠) يَمِّ الهم : بحر المعلوم .

(٣١) النجھ : الرد القبيح .

فتوجهً بصدرٍ منشرح ، وخاطرٍ مطمئنٍ فرح ، وقصَّ المنام ، وعبرَ ما فيه من الأحلام . فطار الملكُ بالفرح ، وتمَّ سروره وانشرح ، وأمر بالجوائز فصبت عليه ، وبالأموالِ فانهالتُ إليه ، فتعِمَّ بتلك العطية ، والخلعِ السنية ، وقصدَ وكرَّ الحية . ثم وقفَ وناداهما ، وقدمَ إليهما كل ذلك وأعطاهما ، وشكرَ لها إحسانها ، وتحملَ جميلها وامتنانها . فقالت له الحية : اعلمْ يا أبلَم^(٣٢) ، أنه لا عتبَ عليك ولا ملام ، فيما جنته أولاً من الآثام ، ولا ما ارتكبته من العداوة والميئس^(٣٣) ، في العامين الأولين ، ولا فضلَ لك في هذه السنة ، على ما فعلته من الحسنة ، فإنَّ ذنبك العامين ، كانا مشتملين ، على قرآنِ النحسين ، فكان مقتضى حالهما فسادَ الزمان ، والعداوة بين الأصدقاء والإخوان ، ووقوعُ البغضاءِ والشرور ، والحنثُ والخلفُ وقولُ الزور ، فجرئت على مقتضاهما ، حسب مرتضاها ، والناسُ في طباعِهم وأبيائهم ، أشبه بزمانهم منهم بآبائهم . وهذا الأوان ، قد انصلحَ الزمان ، واستقام الطالع ، وزال الحسدُ والتقاطع ، واقتضى الزمانُ الصلحَ والصلاح ، والموافقةَ والفلاح ، فمشيت على موجه ، وتشبثتْ بذيلِ مذهبه ، فعُذَّ مَالِكُ وانصرفَ به ، بارك الله لك فيه ، فلا حاجةَ لي به ، ولا يد لي لتقليبه .

وإنما أوردتُ هذا المثل ، أيها الجمل ، لتعلمَ أنَّ الزمان ، لتقلبه في الدوران ، يدفع بين الأصحابِ والإخوان ، ويباينُ بين الأصدقاءِ والخلان . والأسدُ المجتهد ، وإن كان قد زهد ، وترك من أخلاقه ما عهد ، فيمكنُ عودَهُ إلى حاله الأولى ، فالاحترارُ منه في كل حالٍ أولى ، وها أنا قد أخبرتُك ، ومن سوءِ العاقبة حذرتُك ،

(٣٢) الأبلَم : غليظ الشفتين .

(٣٣) الميئس : الكذب .

وعلى ما وصل إليه فكزري أطلعتك ، وفرطُ عجبتي وشفقتي عليك ، اقتضى إفشاء هذا السرِّ إليك ، ومن أنذر ، فقد أَعذر ، ومن بَصَّر ، فما قَصَّر .

قال الجمل : يا أخي فلننتشرُ هذا المقام ونروح ، ونخدم مَنْ في خدمته نستريح . قال الدبُّ الجاحد ، إذا كان هذا العابدُ الزاهد ، والراكمُ الساجد ، الذي قد تعفَّفَ عن أكلِ اللحوم ، وليس له دأْبٌ إلا إغائَةُ المظلوم ، قد عفَّ عن الدماء ، وقنع بأكلِ الحشيشِ وشربِ الماء ، لا تؤمنُ غائلته ، ولا تعتمدُ خاتلته ، فإلى أين تتحول ؟ وعلى مَنْ يكونُ المعولُ ؟ وأنى نذهب ؟ وفيمن نرغب ؟ قال الجمل : فكيف يكونُ العملُ ؟ فلقد ضاقت بنا الحيل ، وتقطعت بنا السبل ، لا طريق للمفرِّ ، ولا قرار للمستقرِّ . فأفكر الدبُّ طويلاً ، ثم رأى رأياً وببلاً ، وقال : أرى الرأيَ السديد ، والفكرَ المفيد ، أن نبادرَ إلى الأسد ، قبل وقوع النكد ، فنقصده بما يقصده ، ولا نوصله إلى ما يعتمدُه ، فالعاقلُ يفتكرُ في عواقبِ الأمور ، وقيسُ بفكره السرورَ والشرور ، ويستعملُ الحزم ، وإذا قصدهُ أمرٌ يصمُّ العزم ، ونأهيك قضية الثعبان ، مع ذلك الإنسان . قال الجمل : أخبرتني عن تلك القضية ، ومَنْ ذلك الإنسانُ وما تلك الحية ؟

[٣/٨] قصة الصياد والثعبان

قال أبو حميد^(٣٤) الخبيث ، بلغني من رُوَاة الحديث ، أن شخصاً من الصيادين ، كان مغرماً بصيدِ الثعابين ، يتسبَّب^(٣٥) بصيدها ، ولا يبالي بكيلها ، فبينما هو يسعى ، إذ صادفَ أفعى ، شرها ناجز ، كما قال الراجز :

(٣٤) أبو حميد : كنية الدب هنا .

(٣٥) يتسبَّب : يجعل من صيدها سبباً لمآته .

أَرْقَسُ ظِمَانٍ مَنَى عَصَى لَفَظَ أَمَرَ مِنْ صَبْرٍ وَتَقْوَى^(٣٦) وَحَفَظَ

وقد أثر فيه الحرُّ بالحرق ، وهو نائمٌ في مكانٍ منطبقٍ ، فاستبشر الحوائِءَ^(٣٧) برؤيته ، وقبضته من عقصته ، فلم يفتق الثعبانُ من رقلته ، إلّا وهو من الحاروي في قبضته ، قَمَاوَتَ وَامْتَدَّ ، وارنحى فأَسْبَلَ بَعْدَ مَا كَانَ اشْتَدَّ ، فظنَّ الصيادُ أنه مات ، وأن مراده منه فات ، فحرقَ للذِّكِّ وتألَّم ، وتأسَّف عليه وتضرَّع ، وحرَّق عليه الأُرُمَ^(٣٨) ، ورماه من يديه ، ثم دار في خليله ، أن في بطنه خرزةً بهيمةً ، مشرقةً مضيةً^(٣٩) ، فأخرج الشفرةَ وقصده ، ومد لتبضيعة يده . فلما تحقَّق الأُرُم ، ما عزم عليه وصمَّ ، خلدعه وختله ، وضربه فقتله .

ولما ذكرتُ يا أبا أيوب ، هذا المثلَّ المضروب ، لتحقِّق أن المبادرةَ إلى إهلاك العدو ، أقرُّ للعينِ وأجلبُ للهنو ، وَمَنْ فَوَّتَ الْفُرْصَةَ ، وَقَعَ فِي غُصَّةٍ ، وَأَيُّ غُصَّةٍ ، وهذا الأسدُ إنْ غَفَلْنَا عَنْ أَنْفُسِنَا أَبَادَهَا ، وقصدَ دمارَها وفسادَها ، ولا يفيدُنَا إذ ذاك الندم ، بعد ما زَلَّتْ الْقَدَمُ ، وَتَحَكَّمَ فِي وَجُودِنَا مِنْ مَخَالِيهِ الْعِلْمِ .

فقال الجمل : اعلم أيُّها الرفيق ، الصديقُ الشفيق ، أن هذا الملكَ آوانا ، وأكرمَ مثوانا ، ولم نشاهدْ منه سوءاً ، ولا من ظلمة باطنه آتسنا ضوءاً ، ولو قصد أذانا ما وجد دافعاً ، ولا شمانعا ، وقد علمنا أنه ترك الأذى ، وكفَّ عن الشرِّ والبذا ، تعفُّفاً لا تخوفاً ، وتكرماً لا تكلفاً ، واختياراً لا اضطراراً ، وجيراً لكسرنا لا إجباراً ، وأما أنا على الخصوص فلم أرَ منه إلا الجميل ، والفضل الجزيل ، والإحسان العريض الطويل ، فلاكِي شَيْءٍ أَشْرَعَ فِي أَذَى نَفْسِي ، وَأكثَرَ صَافِي

(٣٦) القِر : الصِّبَار ، الخنظل .

(٣٧) الحوائِء : الحاروي ، صائد الحيات .

(٣٨) الأُرُم : يحرق عليه الأُرُم : يحك أضراره بعضها ببعض من القنط .

(٣٩) مضية .

حدسي ، ولم يظهر لي منه أماره ، لا بمقتضى ولا بدلالة ولا بإشارة ، فضلاً عن سابق أو سياق عبارة ، وأنا لو مت كمتدا ، ما قصدته بأذى ، ولا رديته براء ردى ، والصوفي ابن الوقت ، لا يتقيد بنكدر ولا مقت . فإن قصدني بعد ذلك بشر ، أو تعرض لي بهلاك وضرر ، ولا يسعني معه إلا التفويض والتسليم ، والتوكل على العزيز العليم ، مع أنني لا أقدر على مقاومته ، ولا قوة لي في دفع مصادمته ، ولا طاقة لكسر أنيابه وغاليه ، ولا خلاص من أشراك أساليه ، غير أنني وإن كنت منسوباً إلى التغفل ، لا أدع من يدي ذيل التوكل . فبالتفويض يحصل النجاح ، وبالتوكل يُظفر بالفلاح ، كما جرى لذلك الفلاح ، مع الذئب والشجاع ، حال التوكل على الله تعالى والانقطاع . فسأل أبو سلمة ، إيضاح هذه الكلمة .

[٤/٨] قصة الفلاح والذئب

قال أبو صابر ، بلغني من أحد الأكابر ، إن شخصاً فلاحاً ، توجه إلى ضرورة صباحاً ، من غير رفيق ولا حامل سلاحاً . فبينما هو في البداء سائر ، صادفه ذئب داعر^(١٠) ، خاتل خاتر^(١١) ، فقصده ليكسره ، فقر وصعد إلى شجرة ، فترصد نزوله ، وانتظره تحتها لينوله ، فانعصر ، وعن ضروريته انحصر . وبينما هو في تلك البلية ، وقعت عينه على حبة ردية ، ذات قرون صاعدة ، وهي على بعض الفروع راقدة ، فازداد همّه ، وأحاط به لولهمه غمّه ، فاستمر بين يئس ، وانحصر في ديوان داهيتين داهيتين ، فلم ير أوفق من التوكل على الله ، والإعراض عما سواه ، فاعتمد متوكلاً عليه ، وفوض أمره إليه ، وبينما هو في تلك الشدة ، وقد بلغ ضرة حده ، وإذ برجل مقبل من الفلا ، وعلى عاتقه عصا ، فقصده الذئب ، من قريب ،

(١٠) فاجر : ذو دهاء ، فاجر .

(١١) خاتل خاتر : خادع مراوغ .

فلما رأى السلاح ، قرّوله كلاح ، فنزل الفلاح من الشجرة ، وأزال الله تعالى همه وضرره .

وإنما أوردت هذا المثل ، لتعلم أن الله نعم للتكل . فأخرج هذا الوسواس ، من القلب والراس ، ولا تبتك سلفا ، ولا تعجل تلقا ، ولا تخلع الحذاء يا ذا الرياضة ، قبل أن تصل إلى المخاضة ، ولا تهتم لأمر ما وقع ، فإن ذلك من شر البدع ، فإن قصدنا بسوء فالله يكافيه ، ويكفينا بحوله وقوته فيه . قال الدب ذو الضرر ، هذا رأي القاصر في النظر ، العاجز في الفكر ، فأما ذو الفكر الثاقب ، فلا يغفل عن العواقب ، فكل من قصر عن العواقب نظره ، ولم يسد في الأمور فكره ، فهو كمن تعلقت النار بأهدابه ، والتهبت لإحراق ثيابه ، وهو مشغول عن إطفائها ، متساهل في كشف أنبائها ، فلم يفق إلا وقد نشبت ، وأعضاؤه بالنار التهبت ، فما تفيده الإفاقة ، وقد صار حراقة .

قال الجمل : يا أحمي أيقن من مُحالك ، وعالج فسادَ تصوورك وخیالك ، وانظر قوة جلدك وكيفية حالك ، أنا لحمي من صدقات الأسد نبت ، وحبّه في دمي وعظامي نبت ، كيف أجد نعمة ، أو أريق دمه ، وأنا غرس صدقاته ، وبنائ نفاقه ، ورفيق حضرته ، وعتيق ميتته ، مع أنني لو نبذت عهده فقطعت ما قطعت ، وعزمت على مناوشته ما استطعت ، أما وعيت في معاني ما رويت :

هِيَ الْفَنَاءُ تَكْثُرُ إِنْ تُصَادَا فَعَابِدُ مَنْ لَطِيفُ لَهُ عَادَا

تريد صيد العقاب ، بفرخ الغراب ، أم تقتنص الذئب ، بجزر الكلاب ، وتبغي بالقرود ، كسر الفهود ، أم بالسنانير تصيد الأسود . ولا والله لا أقصده بأذى ، ولا يطاوعني قلبي على ذلك أبدا . ولو فعلت ذلك لسعيت في دماري ، وخراب ديار ، وجلعت أنفي بكفي ، وبختت عن حنفي بظلفي ، وجززت يدي رأسي ،

وقطعتُ قَدَمَيَّ بفأسي ، قَلَعْتُ بأصبعي مُقَلَّتِي ، واستحفظتُ ملكَ الموتِ مُهَجَّتِي ،
وَأَصْرَيْتُ من أكبرِ المعتدين ، وَأَفْسَدْتُ ديني وديناي والله لا يجبُ للمفسدين ، فَاطُورِ
عَنِّي هذا الكلام ، وارجعْ عن مفاوضي بسلام ، ولا تَشْكُكْ به جَنَانُكَ ، ولا تَحْرُكْ
به لسانَكَ . وكانَ بالقربِ منهما وَكْرُ فارة ، وقد سمعتُ ما جرى بينهما من
عبارة ، ووعت كلامهما ، وما دار بينهما ، من كُلِّ منهما . فلما رأى الدبُّ
المريد ، أن كلامه للجمال لا يفيد ، أَمْسَكَ واحتشم ، وأخذَه في ذلك الندم . ولكن
حَالَ من الجملي الحال ، وأثر فيه هذا المقال ، واستولى عليه من الأوجال^(١٢) ، ما
أَدَّاهُ إلى الهزال ، وصيَّره من الالتحال كالحال ، وَذَهَبَ ما كان عليه من النشاط ،
وداخله الهمُّ والاحتباط ، وصارَ كُلُّ يومٍ في الخطاط ، ولم يزل بين نَضْوٍ^(١٣)
ورَازِحٍ^(١٤) ، ورَازِمٍ^(١٥) ونَازِحٍ .

فتعجَّب الأسدُّ من حاله ، ولم يَقِفْ على سببِ هزاله . وكان عند الأسدِ
غراب ، مقدَّمٌ على الأصحاب ، هو وزيره ومعتمده ، وصاحبُ أخباره وعضده ،
فعرض عليه حالَ الجملي ، وما شهدَه منه من وَجَل . وقال : أَنَا عَفَفْتُ عن
أَكْلِ اللحوم ، ورضيتُ من العيشِ بأدنى الطعوم ، وهذا أمرٌ قد عُرِفَ واستقر ،
فما بال هذا الجملي لا يأخذه مقر ؟ فأريد أن تعرفَ حاله ، وتخبرني صدقه
ومُحالَه . فتوجَّهَ الغرابُ إلى منزلِ الجملي ، وقد أخلصَ في القولِ والعمل ،
وسأله عن حاله ، وموجبِ هزاله واثتاليه ، وما سببُ هذا الرزوح^(١٦) ،

(١٢) الأوجال ، مفردُها وجَل ، وهو الخوف والفرع .

(١٣) النضو : المهزول من الحيوان .

(١٤) رَازِح : أصابه الإعياء والهزال ، فلا يتحرك .

(١٥) رَازِم : أصابه الإعياء والهزال ، فترك مكانه .

(١٦) الرزوح : الإعياء .

والرزوم^(١٧) للودّي إلى النزوح ؟ فما أحرار جوابا ، ولا ذكر خطأ ولا صوابا .
فصار الغراب يرتقبه ، وحشما توجهه يعتقبه . ففي بعض الأيام ، كان الغراب على
بعض الآكام ، رأى الجمل قد أقبل إلى الماء ، ليطفيء بشره سورة الظماء ، فتخفى
الغراب واتقى ظهره ، إلى أن قاربته وكمن خلف صخرة ، فسمعه يقول بعد ما
شرب ، وقد رأى السميكات في اللعب : لك الحمد يارب ما أرحمك ، وطوبى
لكن يا سمك ، لا بين رئيسكن تخفن ، ولا من هيته ترجفن ، لا ملك يهولكن ،
ولا سلطان يغولكن ، ولكن البكاء على الجمل ، الذي ضاقت به الحيل ، قد وقع
في ذرذور^(١٨) البلاء ، ولا يهتدي إلى طريق النجاء ، بل ولا يدري عاقبة أمره
المهول ، إلى ماذا تؤول ، إلى الفرق والندامة ، أم إلى النجاة والسلامة . ثم أخذ في
الانتحاب ، إلى أن أبكى الغراب .

فلما رأى أبو القعقاع ، هذه الأوضاع ، قضى من الأمر العجاب ، ما يشيب منه
الغراب . ثم توجه إلى الأسد الشرى ، وعرض عليه ما جرى ، بتخبير المشتري .
فتشوش فكره ، وتشور أمره ، وضاق بالهم صدره ، وقال : أنا كففت عن الشر
والشره ، وعففت عن ذلك كأن لم يرني ولم أره ، وتركت القرم والأذى ،
وقطعت نفسي عن لذيذ الغذاء ، ليأمنني أصحابي ، ويأمن بي أحابي ، فإذا لم
يستقر خاطرهم ، ولم تطمئن على محبي سرائرهم ، فأى فائدة لي في الحياة ؟ وكيف
أخلص في حرّم المودة من كثر العيش إلى صفاء ؟ وكل ملك لا تصفو له رعيته ،
ولا ترسخ في قلوب جنده محبته ، كيف يثبت سلطانه ، أو يساعده عند الشدائد
أعرأته ؟ أنا بذلت جهدي وطاقتي ، وتشبنت بأذيال الصلاح على قدر استطاعتي ،

(١٧) الرزوم : المزال .

(١٨) ذرذور : دوامة البحر التي يخشى فيها الفرق .

ولم يبقَ إلَّا التضرُّع ، والاستكانةُ والتخشُّع ، إلى مُقَلَّبِ القلوبِ ، وعلَّامِ الغيوب ، ليكشفَ هذه الغُمَّةَ ، ويصلحَ لي هذه الأُمَّةَ ، ويجلِّو عن جبينِ الحقِّ بهيمَ هذه الظُّلُمَةِ . ثم تضرُّع إلى عالمِ الأسرار ، ليطلعه على حقيقةِ هذه الأخبار . ثم أمرَ باجتماعِ جماعته ، المقيمين على محبته وطاعته ، وعرض عليهم هذه الأحوال ، وطلب منهم استكشافَ ما فيها من الأحوال ، وقال : اَعْلَمُوا أَنِّي أَمْتَكُمُ مِنْ غَافَتِي ، وبلدتُ لكم بَدَلًا غُفَني لَطَافَتِي ، وقد حَقَّقْتُ مَرَامِي ، وصدَّقْتُ كَلَامِي ، وعَرَفْتُمُ أَخْلَاقِي ، وشَدَّدْتُ أَعْلَاقِي ، كُلُّ ذَلِكَ لَتَطْيِبَ خَوَاطِرُكُمْ ، وتصفوا لي سرائِرُكُمْ ، ولم أَفْعَلْ ذَلِكَ عَجْزًا وَلَا خَوَرًا ، وَلَا تَهَانًا وَلَا ضَجْرًا .

وَأَنَا الْآنَ أَمُرُّكُمْ بِوَاحِدَةٍ ، هِيَ أَجَلٌ فَائِدَةٌ ، أَنْ لَا تَكْتُمُوا عَنِّي ، شَيْئًا تَكْرَهُونَهُ مِنِّي ، بَلْ أَوْفِقُونِي عَلَيْهِ ، وَأَرْشِدُونِي إِلَيْهِ ، ثُمَّ أَجْهَدُوا أَنِّي أَمْنَعُهُ عَنِّي ، فَإِنَّا فِيكُمْ أَجَلٌ مَحْبُوبٍ ، مَنْ أَهْدَى إِلَيَّ عِيُوبِي . وقد قال سيِّدُ الأَنْبَاءِ ، عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ ، اللَّهُمَّ أَبْلِغْهُ أَفْضَلَ التَّحِيَّاتِ عَنَّا "مَنْ عَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا" وَإِنَّمَا أَوْرَدْتُ هَذَا الْكَلَامَ ، فِي هَذَا الْمَقَامِ ، بِمَحْضِ الْخَوَاصِّ وَالْعَوَامِ ، عَلَى سَبِيلِ التَّحْذِيرِ ، وَالْإِعْلَامِ وَالتَّنْذِيرِ . وَأَقْسَمُ بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ، اللَّطِيفِ الْخَبِيرِ ، الَّذِي مِنْهُ الْمَبْدَأُ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ، لَمْ يَكُنْ فِي خَاطِرِي مِنْ أَحَدٍ حَقْدٌ وَلَا حَسَدٌ ، وَلَا هَجَسٌ بِخَاطِرِي لَهُ إِيْذَاءٌ وَلَا نَكْدٌ ، وَهَذَا أَنَا قَدْ أَخْبَرْتُكُمْ ، وَبَاطِلًا عَيَّيْ أَمْرُكُمْ ، فَلَمْ يَسِقْ لِي ذَنْبٌ يُسْتَغْفَرُ مِنْهُ ، وَلَا لَكُمْ فِي الْإِعْفَاءِ مَا يُعْتَذَرُ عَنْهُ ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَعْذِبُ بِضَلَالِ الْأَسْفَلِ ، بَلْ يَهَبُ لِلْأَعَالِي الْأَرَادِلَ ، فَإِذَا فَسَدَ الرِّاسُ ، تَغَيَّرَتِ النَّاسُ ، فَحَلَّ الْبَاسُ . وَلَقَدْ قَالَ خَالِقُ الْعَرِيَةِ وَبَارِيهَا ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾^(١٤) فَقَامَ الْحَاضِرُونَ فِي مَقَامِ الْعُبُودِيَّةِ وَالْوَلَاءِ ، وَبَسَطُوا أَلْسِنَتَهُمْ بِأَنْوَاعِ الثَّنَاءِ وَالِدَعَاءِ ،

^(١٤) قرآن كريم ، سورة الإسراء : ١٦ .

ونادوا بكلمة واحدة ، متفقين متأكدة : حاشا لله ما علمنا عليك من سوء^(٥٠) ، ولم نزلْ نُطَيِّبُ عِلَلْ تَقْصِيرِنَا ونأسوا ، وتسترُّ بذيلِ عَفْوِكَ كُلَّ عَارٍ مِنَّا وتكسو . وكان هذا الكلامُ للأكابر ، وقد اجتمع البادي والحاضر . وأبو حميد^(٥١) الملقب فيما بينهم حاضر ، فأدرك بهذا العمل ، أن الأسدَ شعرَ بشيءٍ من جهةِ الجمَل ، فاستدرك فارطه ، وسلك سبيلَ المغالطة .

ثم احتلى بالأسد ، ولم يكنْ معهما أحد ، وقال : كأَنَّ مولانا الملك ، وقاه الله شرَّ المنهمك ، أحسنَ بشيءٍ أوجبَ تقريرَ كلاميه ، لطائفةٍ جنديه وخدايمه ، وأنا عندي كلام ، لم يطلعْ عليه أحدٌ من الأنام ، ولم أتبه للملك بحضرة الجماعة ، لأنه ربما لا يقصدُ الملكُ به الإذعة ، ولا يمكنني إخفاؤه ، وقد كان إبدائه ، فاعلم أيها الملكُ الهمام ، كفاك الله شرَّ اللام : أَنَّهُ كما يستحقُّ العالمُ الجاهل ، كذلك يزدرى الجاهلُ العاقل ، وذلك لقصورِ فهمه ، وعدمِ علمه ، ومهما أحاط الخادمُ بمرتبةِ غلومه ، وزاد غُلُوَ قدره في معلومه ، ازداد في قلبه وجوارحه ، مقداره تعظيمه ، واستقرت هيئته في قلبه وروحه ، وصارت ككوسٍ تحشيتُه تناديه في غبوقه وصوبحه . وقد قال ربُّ الأرضِ والسماءِ : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾^(٥٢) وقولُ النبي عليه الصلاة والسلام : "أَنَا أَعْرِفُكُمْ بِاللَّهِ وَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ" إشارةً إلى هذا المقام ، وكلما ضعفتُ معرفةُ الخادمِ بالخدوم ، قلَّتْ قيمته عنده وهذا أمرٌ معلوم . ثم اعلم ، يا ملكاً أعظم : أن الجمَل ، الطويلَ الأمل ، قد اغترَّ بالملك ، حين كان في ذُرَى أُمْنِيهِ سلك ، وأحسن إليه غايةَ الإحسان ، وصار في

(٥٠) سو : سوء .

(٥١) كنية اللدب هنا .

(٥٢) قرآن كريم ، سورة فاطر : ٢٨ .

عدم الوفاء كالإنسان ، وحصل له من سؤره غضبه الأمان ، فجعل قدره ، وتعدى طوره ، وقد قيل :

إذا أنست أكرمت الكريم ملكته وإن أنست أكرمت اللئيم تمردا
فوضع اللئيم في موضع السيف بالغل (٥٢) مضرب كوضع السيف في موضع النداء

وقال الله تعالى ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ﴾ (٥١) ، أن رآه استغنى ، وكل نفس لا تحتمل الجميل ، وحوصله العصفور لا تسع لقمة الفيل ، ونهايك ما قد قيل ، في الأقاويل ، عن حماقة كل طويل ، فلا جرم فسد دماغه ، حين حصل فراغه ، وتناولت نفسه في مسراها ، إلى أشياء لا يمكن إفشائها ، ولا يتفوه بها مسلم ولا يرضاها ، لأن ذكرها قبيح ، والكتاية أبلغ من التصريح .

فلما سمع الأسد هذا المقال ، علم بيديها العقل أنه زور ومحال . ثم أرسل إلى الغراب ، وذكر له هذا الخطاب ، ليميز خطاه (٥٣) من الصواب ، ويبين القشر من اللباب . فلما أتى الغراب إلى حضرته ، وجلا صورة هذا القول على مرآة فكرته ، قال له : ضميرك المبارك ، في حل هذا المشكل لا يشارك ، فإنه خلل المشكلات ، موضحة للمعضلات . وأما أنا فلا أسمع هذا الكلام ، ولا أقبل في الحمل الملام ، فإني أعرف تواضعه ومسكنته ، وصبره وطاعته ، وإخلاصه وقناعته ، وأنه صادق في محبته ، مخليص في عبوديته ، وأعرف أن خوفه من الملك غالب على رجائه ، وأنه مع ذلك مقيم على سنن وفائه ، وعقود عهوده وصفائه ، ولو أراد الذهاب لذهب بسلام ، ولا في وظيفته قيد ولا في وتيرة خطام . ثم قال الغراب : والغالب على ظن ذوي اللب ، أن هذه الفتن أصلها وأصلها الدب ، لأنه قد تقرر وتحقق ،

(٥٢) الغلا : الرفعة والشرف .

(٥٣) قرآن كريم ، سورة العلق : ٦ ، ٧ .

(٥٤) خطاه : خطاه .

واتفق كلُّ حكيمٍ موفّق ، أنّه إذا نَقَلَ نَائِلَ عَمَق ، عن عاقلٍ ابتدئ بالإحسان إساءةً فلا يُصَدِّق ، فالملك لا يبادرُ في هذه القضية ، حتى يتبصّر الأمر عن جلّية ، وحاشاه أن يفرطَ في خدمة المخلصين ، من غير أن يتدبّر أمورهم يقيين ، ويختلى بعبيده الجمل ، ويتحقّق منه أصلَ هذا العمل ، بعد استحلابِ مخاطره ، وتطبيبِ سرائره وضمائره .

فاستصوب الأسدُ هذا الفصل ، واختلى بالجملٍ ليَقِفَ منه على هذا الأصل ، وسكّن حاشته ، وأزال بطيفِ الكلامِ استيحاشه ، وشكّر في خدمته مساعيه ، وطلب بملاطفته مرضيه . ثم طلب من الجمل ، تفصيلَ ما بلغه من جُمَل ، وأكدّ قوله بالأيمان ، أنّه لو صدرَ منه تقصيرٌ ونقصان ، ولو كان مهماً كان ، فإنّه قد عفا عما هفا ، ولا يكثرُ من عيشه ما صفا ، ولا يمزقُ رقيقَ حاشيةٍ وفائيه بالجفا ، ولا يتقيّدُ بهفواته ، ولا يطالبه ابدأً بزلاته ، فليُطْلِعْهُ على جلّية الحال ، وليذكّرْ ما وقعَ منه من أقوالٍ وأفعال . فافتكر الجملُ في معاهدته مع الدبّ ، وأنّه لا يفشي سرّاً ذلك العديم اللبّ ، وكيف ينقذه من غصّا جمره شبّ ، وقضا غمره صبّ . فقال : **إِنْ قُلْتُ أَصْنَعْتُ صَاحِي ، وَإِنْ سَكَتُ قَصَرْتُ فِي جَانِي .** ثم اختار كتم الأسرار ، وسلوك طريق الأحرار ، والوفاء بالعقود ، وعدم نكث العهود . وقال : **أَسْعَدَ اللَّهُ** مولانا ، الذي بوجوده أحيانا ، إنّي اتفكرُ في عواقب الأمور ، وأنظرُ في تقلبات الدهور ، وأخشى سطوات السلطان ، وأخاف من حوادث الزمان ، فلا أزال من هذا الخيال ، في انتحالٍ وهزال ، إلى أن صيرتُ إلى هذا الحال ، فإن كان هذا ذنباً يُوجبُ العقوبة ، فإن إزالته عن خاطري فيها صعوبة ، وهذه أوهامٌ لا يمكنُ دفعُها ، ولا يكلفُ الله نفساً إلا وسعها .

قال الأسد : فهل اطلّعت على ما يوجب ذلك ، أو يدلّ على الإلقاء في المهالك ، وتضييق المسالك ، من حركات أفعالي ، أو من فلتات أقوالي ، أو تقلبات أحوالي ، أو نُقِلَ إليك ناقل ، من جاهلٍ أو عاقلٍ ؟ فأفْجِمَ الجملُ عن الجواب ، وأطرقَ فلم ينطقَ بخَطأٍ أو صواب . فقال الغرابُ : لا ينحكُ إلا الصّدق ، وكشفُ أَسْتارِ الرّيبِ عن جبين الحقّ . وكان قد حضر هذه الفحوى ، خُلدٌ^(٥٦) أعمى ، وَهُمْ عنه غافلون ، وعن استماعه ذاهلون . ففي الحال ، توجهَ إلى الدبّ وقال ، صورة ما جرى ، بتعبير المشتري .

فعلّم الدبّ أنه افتضح ، وأمره اتضح . فنهضَ وما قعد ، ودخل على الأسد ، فرأى الجملَ مُطْرِقاً ، لا يلوك منطقاً . فَمَدَّ صَوْلِحَانِ اللسان ، وخطفَ كُرّةَ البيان ، وسابقَ بالكلامِ خوفاً من اللام ، وقال بلسانٍ طلق ، كلامَ فاجرٍ غثلق : اعلمُ أيّها الطويلُ الألبَمُ^(٥٧) ، أنّك لو أمسكتَ عن كلامِكَ القبيح ، في وقتِكَ الفسيح ، لكانَ أصوب ، وأحسنَ وأعجب ، لكنّ لَمَّا فَهَتَ بالعر ، وأنثيتَ بِإحدى الكبر ، وصدمتَ القضاء والقدر ، وخنّنتَ وليَّ نعمتِكَ ، وقصدتَ إهلاكَ الملكِ بقيّيح شيمتك ، أزالَ اللهُ سَتْرَكَ ، وأبدى أَمْرَكَ ، وفضحكَ وقبحك ، وبلحامَ الخزي كبحك ، لا جَرَمَ جُرْمَكَ حَبْسَكَ ، وإلّك العظيمُ أحرسك . فأبهت الضرغام ، من هذا الكلام ، وشاب الغراب ، من هذا الأمرِ المشاب ، ووقعوا في الاضطراب ، والشكِّ والارتياب ، واشتبه الخطأ بالصواب ، وقالوا : إنّ هذا الشيءَ عَجَاب . فقال الجمل للذب : يا قَيْدَ اللَّبِّ ، يا قَلِيلَ النّصْفَةِ ، وعديمَ المعرفة ، وأنحسَ أَفَاك ، وأنحسَ سَفَاك ، وأنحسَ بَنّاك^(٥٨) ، أنظرنِي خائفاً من كلامِكَ وخطابِكَ ، عاجزاً عن

^(٥٦) الخُلد : الفار الأعمى .

^(٥٧) الألبم : ذو الشفتين الغليظتين ، يعنى الجمل .

^(٥٨) البَنّاك : قاطع طريق .

ملايك وجوابك ؟ أما كفى أني قصدتُ سترَ عوارِك ، وإطفاء نارِك ؟ ومفتكرٌ في تلافي قضيتك ، وإحمادٍ لِهيبِ فتيتك وإهمادٍ شرارِ مصيبتك ، وعلى تقديرِ التسليم ، وإني فُهِتُ بالكبرِ والأمرِ العظيم ، أكنْتُ معك منفردا ، أم رأيتَ بيننا أحدا ، فإن كانَ بيننا أحد ، فأحضِرْهُ إلى حضرةِ الأسد ، فإنني أرُضى به وبما بينَ ، ولا دافعَ لي فيما يشهدُ به ولا مطعن ، وإن كنتَ أنتَ وحدك ، فما منعك عن نُصْحِ الملِكِ وصدِّك ؟ فأنتَ إذا إما خائن ، وإما مائن ، وهذا أمرٌ محقُّ بائن ، ولولا أيمانِي ، التي ربطتُ بها لساني ، لكُنْتُ أظهرتُ البريءَ والجاني ، ولكنَّ تخليفي إلى الكُفْمِ والسكوتِ الجاني^(٩٩) ، وسيظهرُ الله الحقَّ ويفصل ، وللباطلِ صولةٌ ثم يضمَحِل . ووالله ما لكَ مثَل ، مع المسكينِ الجمل ، إلّا امرأةُ النحَّار ، لما أغلقتُ بابَ الدار . قال أبو الحارث الغضوب : أخبرتُنا يا أبا أيوب ، كيف كان هذا الحديث ، لتطلع على هذا الفعل الخبيث .

[٥/٨] قصة امرأة النجار

قال ذكر رُواة الأخبار ، أنه كان رَجُلٌ نجار ، له زوجةٌ تُخجِلُ الأقمار ، وتكسِفُ شمسَ النهار ، كأنها الدنيا تخذعُ بعلامِجِ صورتها ، وتصرعُ بروائعِ سيرتها . فكانت كلما رقدَ زوجها وهو تعبان ، انسابت إلى الأخدان^(١٠٠) ، انسيابَ الثعبان ، فتفضي الليلَ بانسراح ، في عناقٍ وشربٍ راح ، إلى أن ينفجرَ الصُّباح ، ثم تنثني عائدة ، فلا يستيقظُ الزوجُ إلّا وهي عنده راقدة . ففَطِنَ في بعضِ الأوقاتِ لِفِعْلِها ، وراقبَ ليلةً خيَالُ خَيْلِها ، فتراقَدَ في الفراش ، وذهبت لطلبِ المعاش ، فنهض وراءها النجار ، وأوصدَ لَمَّا خرجتْ بابَ الدار ، واستمرت هي وصاحبُها

^(٩٩) الجاني مخفف : الجاني .

^(١٠٠) الأخدان : رفقاء السوء .

وزوجها مستيقظ يراقبها ، فلما عادت راجعة ، وجدت الأبواب ماعة ، فطوقت الباب ، من غير اكتراث واكتساب ، فناداها : يا عائنة ، اذهبي حيث كنتِ كامنة . فقالت : استر هذه الذنوب ، فاني من بعدُ أتوب . فقال لها : لا والله الرحمن ، حتى تُفَضِّحِي بين الجيران . فقالت : الموتُ أهونُ من الفضيحة ، فاعفُ لي هذه القبيحة ، وأنا أحلفُ ياودود^(١١) ، باللهِ الربِّ المعبود ، إنني أتوبُ ولا أعود ، ثم ألحَّت عليه ، وتضرَّعت لديه ، فلم يفتحْ لها بابا ، ولا ردَّ عليها جوابا . فقالت : واللهِ اللطيفُ الخبير ، لئن لم تفتحْ البابَ لألقيَنَّ نفسي في هذا البئر ، ولأرْمِيَنَّكَ بقتيل ، بين الحقيِر والجليل ، ثم عمدتُ إلى حجرٍ كبير ، وطرحته في تلك البئر ، ثم اختفتُ عند الباب ، لتتطرَّ ما يبرِّزه القضاءُ من الحجاب . فلما سمع زوجها خبطةَ الحجر ، تصوَّر أنها تلك البغيُّ فابتدر ، وفتح البابَ وإلى نحو البئر طَفَّر ، ولم يشكْ أنَّ تلك البغي ، ألقتْ نفسها في الطوي ، فما وَصَلَ إلى البئر ، ذلك الرجلُ الغرير ، إلا وقد دخلت ، ونفى وَسَطُ الدارِ حصلت ، ثم أوصدتُ الباب ، واستغاثتُ بالجيران والأصحاب ، وأحكمتُ الرَّجَاج ، وأوقدتُ السَّراج ، وملأتُ الدنيا بالمياط^(١٢) ، وأخذتُ في المياطِ والمياط ، فاجتمع الجيران ، لينظروا ما هذا الشأن . فقالت : هذا الرجلُ الظلام ، يتركُنِي كلَّ ليلةٍ حتى أنام ، ثم يتوجَّه إلى الزَّواني^(١٣) ، ويدعُنِي أقاسى القلقِ وأعاني ، وأتقلبُ في أَرْقي وأشجاني . فأخذَ الرجلُ يحلفُ باللهِ ذي الجلال ، ويذكرُ للحاضرين حقيقةَ الحال ، قاترةٌ يصدِّقُ وأخرى يكذِّبُ ، وهو بين مصدِّقٍ منهم ومذبذب ، فلم يزالا في عويلٍ وصياح ، إلى أن ظهر تباشيرُ الصباح ، فحضرا إلى القاضِي واختصما ، وشهدَ بعقبةِ الرجلِ

(١١) الودود : الحب الصادق الود .

(١٢) المياط : الصباح والصراخ .

(١٣) الزواني جمع زانية ، وهي البغي هنا .

الصِّلَحَاءَ والعُلَمَاءَ ، وأظهرَ اللهُ الحقَّ ، وثبتَ على المرأةِ الخيانةَ والفسقَ ، ولولا ذلك لذهبَ البريء غلطا ، وانقلبَ صوابُ الحقِّ الصادقِ خطأ^(١٤) .

ولمَّا أوردتُ هذا المثلَّ ، لتعلِّمَ أيُّها الملكُ البطلُ ، خيانةَ الدُّبِّ وبراءةَ الجملِ . والرجلُ إذا عجزَ عن فعلِ الشجعانِ ، يتشبَّهُ بمبائِلِ الشيطانِ ، ويستعملُ مَكْرَ النسوانِ . ونظيرُ هذا الكَيْدِ ، ما وقعَ بينَ صادقٍ دمشقيٍّ وفاسقيٍّ بغدادٍ ، وهى قضايا جليلةُ الأبوابِ ، طويلةُ الذيلِ والأذنانِ ، قد دُوِّنتُ فى مُحَلَّدَةٍ لا يسعُها هذا الكتابُ . ففكَّرَ الرِّبَالُ^(١٥) ، فى هذه الأحوالِ ، ثم أمرَ بهما إلى الاعتقالِ . وكان للملكِ سَجَانٌ ذكيٌّ ، كنيته أبو الحصينِ واسمه ذكيٌّ ، فتسلمَهما واحتفظَ بهما . فلَمَّا استقرا فى قبضةِ الحبسِ ، واستمرَّ أمرُهما تحتَ أذيالِ اللَّبِيسِ ، توجهتُ الفارةُ التي كانت سمعتُ سِرَّ مناجاتِهما ، وأطلعتُ من أوَّلِ الأمرِ على حكاياتِهما ، إلى السجَّانِ ، وهما فى أضيقِ مكانٍ ، وسألتهُ عَمَّاذا آلَ إليه أمرُهما مِنْ شَأْنٍ ، فأخبرها بحالهما ، وجهلِ عاقبةِ مآلِهما ، وأنه ليسَ بعالمٍ مِنَ المظلومِ منهما والظالمِ . فقالت الفارةُ ، أسألكَ يا ذا الشطارةِ ، والذكاءِ والمهارةِ ، إذا ترجَّحَ لأحدهما الجانبُ ، وتبيَّنَ الصادقُ والكاذبُ ، وتعيَّنَ المرضيُّ عنه والغضوبُ عليه ، تطلعني على ذلك لأنظُرَ إليه .

قال السجَّانُ للفارةُ : لقد فهمتُ عنك بالإشارةِ ، وأدركتُ من فحوى العبارةِ ، أنَّ لك إطلاعا على هذا الأمرِ وفرقا جليا بينَ عمره والجرمِ ، فإن كنتِ شَمَمْتِ من ذلك روائحَ ، فبادري بِإدَاءِ تلكِ النصائحِ ، فإنَّ قولكُ مقبولٌ ، ولكلُّ الفضلِ لا الفضولِ ، ولا تقصدي بهذا الإرشادِ ، إلا مصلحةَ العبادِ ، وكشفَ الغمَّةِ ، وبراءةَ

(١٤) خطأ : خطأ .

(١٥) الأسد الرِّبَالُ .

الذمة ، وردع الظالم ، وخلص ذمة الحاكم . قالت الفارة : وأنا لا أقصد إلا إصلاح ذات البين ، وشمولها بعاطفة الملك بحيث يصيران كالحبين ، ويرتفع النكد ، ويحصل رضا الأسد ، ويحسم الضرر والضر ، وتختم عاقبتهما بخير . وأيضاً فإنني سمعت من العلماء ، وضبطت من نصائح الحكماء ، ومقالات ذوي الآراء ، أنهم قالوا : إياك والتكلم في أمور الملك ببيضاء أو سوداء ، وأين بنت الجرذ^(١٧) ، من ملك الوحوش الأسد . قال السجان : لا تقولي ذاك ، ولا تستحقري جدواك ، وما ترين في ضواك ، ودونك القول الصادر ، من نظم الشاعر الماهر ، وهو :

لا تحقرن الرأي وهو موافق حكم الصواب إذا أتى من ناقص
فاللئ وهو أجل شيء يقتنى ما حط قيمته هو أن الغايص

وإن النصيحة كالعسل ، والحق يصدع كالأسل ، فالعسل يعطي حلوة ذوقه ، سواء كان في صحاف الذهب أو في زقه^(١٨) . وقاصد الصواب والنصيحة ، ومن أغراضه لدفع الفساد صحيحة ، يخاطر بنفسه وماله ، ويراقب ما فيه حسن ماله . وأفضل المعروف ، إغاثة الملهوف ، سمعت في المثل السائر : "أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر" . وهذا الطور ، عند ملوك الجور ، فكيف وملكنا أعدل الحكام ، وناصر دين الإسلام ، مثياف بمكارم الأخلاق والشيم ، ومعاملة الكبير والصغير بالمراحم والكرم ، فإن كنت تدرين بجهة الانتفاع ، أو للعلو قضايا الدب والجمل اطلاع ، فقومي وانصحي ، وقولي تفلحي . كما فعل الوزير المنتخب ، مع كسرى في حالة الغضب ، فسألت الفارة ، هذا المثل وأخباره .

^(١٧) الجرذ : الجرذ ، وذلك لضرورة السجع .

^(١٨) فرق : وعاء من جلد للشرب وغيره ، مثل زق العسل هنا .

[٦/٨] قصة كسرى مع ولده وأمه

قال أبو الحصين السجّان : ذُكِرَ أنه كان لأنوشروان ، زوجة فاقَتُ النسوان ، يَجْلُ قُلُها الأَغصان ، وخالها البدر حيث لا نقصان ، كان أبوها من السلاطين ، وملوكِ الأساطين ، وكان أوشروان قَتَلَ أباهَا وأخاهَا ، واتخذها لنفسه واصطفاهَا ، وكان مشغولاً بِحُبِّها ، متخوفاً من قَرِبها ، لئلاّ تتذكر قَتْلَها ، فيستولى طلبُ النارِ عليها ، فلم يزل متحرّزا من أفعالها ، مراقباً تَقَلُّبَ أحوالها ، فاتفق أنه كان جالساَ معها على السرير ، وحولهما من الجوّاري الحسانِ كلُّ بدرٍ منير ، وظبي غرير . فتأثتْ نفسُ إليها ، فَمَدَّ يَدَهُ ووضعها عليها ، فنظرت إلى الجوّاري فرأت أعينهن إليها ناظرة ، فصارت بين طَرَفَي الانقيادِ والامتناعِ حائرة ، وكانت قد سمعتُ من أبيها ، ما رآته من أقاربها وذويها ، معنى ما قيل :

وإني لأستحي من الترجسِ الذي يراينا أنسى أَلْبِلُ مَنْ أَهْوَى

فخطر ببالها أنه إذا استحيا من عيونِ الترجسِ وهي جامدة ، فكيف لا أستحي من عيونِ إنسانٍ في مراقبتنا غير راقدة ، فغلبت عليها الحيرة ، وإن جَدَعَ الحلالُ أَنْفَ الغيرةِ . فانكششتُ من كسرى ، وزادها الحياءُ والهيبَةُ انقباضاً وكسراً ، فجذبها بقوته إليه ، فانفلتتُ منه لما استعصتُ عليه ، فوقع عن سريرهِ العالى ، وعلا حلقه الثمر الغالى ، وتبسم بعض تلك الجوّاري ، من غير اختيار . فاضطرب لما اضطرب فيه النار ، وتذكر ما كان تَوَهُّمُهُ من أخذِ النار ، وَقَارَ دَمُ قَلْبِهِ لما غار ، فدعا وزيره الكبير ، ودفع إليه رُبَّةَ السرير ، وأمره بإزهاقِ نفسها ، وإسكانها في رَمْسِها ، من غيرِ مراجعة ، ولا شفاعة ولا مدافعة . فحملها إلى منزله ، ووقع فى صعب الأمرِ ومُشْكِلِهِ ، ولم يَرَّ بُدّاً من إمضاءِ مرسومِهِ وامتنالِ أوامرِ مَخْدومِهِ . ثم تَدَبَّرَ فى المآل ، ونادته رُبَّةُ الحجال : مهلاً أيها الوزير ، الناصحُ المشير ، ذو الرأي والتدبير ، هَيْتِي

أنى أعطأت ، وعن مرضاة الملك أبطأت ، فما ذنب الذى فى بطنى ، المودع من الملك ولم يحن فلا بأس أنك تستشير ، فإنك ناصحه ومشيرة ، وإن كان لا بد من قتلى ، واستقر الرأي على نبلي^(٢٨) وتبلي^(٢٩) فاستمهله إلى أن أضع ، ثم تهلك الأم وتبقى التبع ، فإنه كان يُعطى النذور والأموال ، ويطلب الولد فى ظلمات الليال ، ويدعو بذلك ربّه ذا الجلال ، فعرض الوزير على الملك ذلك فأبى ، واستعمل فى ضروب ضربته أحد عبارة وترفق فنبأ ، فعرف أن أخلاقه نائرة ، وأنه لا بُدَّ أن تُطفأ تلك النائرة ، فإذا برد قلبه ، وهمد كربه ، يطالبه بالفرع إن لم يطلب الأصل ، وبعد القطع لا يمكن الوصل ، كما قيل :

طوى الموت ما بينى وبين أجرتي وليس لما تطوى النية ناسر

فراى الوزير ، الرأي فى التأخير ، فأودعها عند الخريم ، وسلك فى الحزم الرأي القويم ، وجعل نفسه لها وقاية ، إلى أن أخذت مدتها النهاية ، فوضعت وكذا ذكرا ، غصن بان مشمرا قمرا . فقام الوزير بزييته ، وإصلاح رضاعه وأخذيته ، إلى أن بلغ سبع سنين ، وهو كبدر الأفق المبين ، مرتب بالدلال ، مغدّى بالكمال ، فكانه فيه قيل :

جبين تحار الشمس من لماعه	وقد يغار الفصن من حركاته
وخدّ تعالى الله لست مشبها	ولا مشركا أضداده فى صفاته
رمى فهجة المضى بأشهم كخطيه	فنام حليلا وهو فى مسكراته

فركب كسرى فى بعض الأوقات ، وخرج يصطاد فى بعض الجهات ، فتبدد العسكر ، وصار كالخبيج إذا نفر ، ووقع كسرى فى ناحية عن العسكر منفردا ،

^(٢٨) البيل : القتل بالنبال .

^(٢٩) البتل : فصل الرأس عن الجسد .

فصادف غزالين يسوقان ولدا ، ويذكران فى ذلك القاع ، ما قاله عديُّ ابنُ
الرقاع

تُزجى أَغْنَى كَأَنَّ إبْرَةَ رَوَقِهِ قَلَمَ أَصَابَ مِنَ اللُّوَاةِ مِلَادَهَا
فهجم عليهما ، ودنا إليهما ، فلما قصصهما ، تركا وكَلَمَا ، ففوقَ السَّهْمِ
الخفيف ، نحوَ الخَشْفِ^(٧٠) الضعيف ، فلما رأتُ أمُّه السهم ، دَاخَلَهَا الوَلَّةُ والوَهْمُ ،
فقصدتُ للسهم دونَ ولدها ، واستقبلتُ نَصْلَ كَبِدِ القوسِ بكبديها ، فأراد إطلاقَ
السَّهْمِ من الكبدِ ، ليصيبَ به نَحْرُ أمِّ الولدِ ، فاعترضته الفَحْلُ بصدريه ، وتلقاه دونَ
نحرِها بنحرِهِ ، وجعل نفسه وقايةً لأمِّ ولده ، وقَدَّاهُما بروحه وجسديه .

فقدَ كَرَّ كسرى ولَدُهُ وأمُّه ، وضاعفَ حزنه عليهما همَّه وغمَّه ، وتذكَّرَ ما
سلفَ منه فى حقِّ زوجتِهِ ، وما عاملَها به حين وقعَ به من الغضبِ فى سورته ،
وتأمَّلَ ما قالته فى حقِّ قُرَّةِ مُهَجَّتِهِ ، وما أجابَ فى ذلك ، إلى أن وَرَدَتْ إلى
المهالكِ ، وقال : إذا كَانَ هذا الحيوانُ الباغِمُ المائق ، حَمَى حَقِيقَتَهُ برمحه كَحُمَاةِ
الحقائِقِ ، فَلِمَ لَمْ يفعلْ ذلكَ الحيوانُ الناطق ، ثم فاضتُ دموعُ عينيهِ ، فرمى القوسَ
والسهمَ من يديه ، ورجعَ متفكرا ، وعلى ما فَرَطَ منه متحسِّرا . ودعا الوزير ،
الناصحَ الجيِّرَ والمستجير ، وذكرَ له ذلكَ النكد ، وما رآه من الغزاليِّينَ والولَدِ ،
ومَحَرَّقَ على قَفْدِ حَظِيَّتِهِ ، وتألَّمْ لمصابِ فلذَّةِ كِبِدَتِهِ . فدعا له الوزير ، وقال :
الصبرُ نِعَمُ النصير ، كان قد سبقَ منى إشارة ، ولكنَّ المفرطَ أَوَّلَى بالخَسَارَةِ ،
الصديقُ الصادق ، والرفيقُ المواقف ، يقولُ ما أصنع ، نَصَحْتُ قَلَمَ يسمع ، والخبيثُ
المنافق ، والحسودُ المماذق ، يقولُ أردتُ أَنْ أقول ، ولكنَّ تركتُ الفضول ، ولا
حيلةَ للملكِ والوزير ، فيما جرى به قَلَمُ التقدير ، ثم دعا له وانصرف . وعبى

(٧٠) الخشَف : ولد الفظية أول ما يولد .

جَمَلًا من الهدايا والتحف ، وألبسَ ابنَ الملكِ أنفخرَ ملبوس ، وجَهَّزَ أمَّهُ كما يَجْهَزُ
العُرُوس ، وأضافَ إلى ذلك من المراكبِ للملوكية ، والخدماتِ السلطانية ، وأقبل
بهما إليه ، وعرضَ كُلَّ ذلك عليه . وقال : ياملكَ الزمان ، أنا رأيتُ هذا اليومَ فنى
ذلك الأوان ، وعلمتُ أن الندم ، سيعمُّ من الرأسِ إلى القدم ، وها قد قدَّمتُ إليك
من التُّحفِ الدُّرَّ مع الصدف ، والوردِ والزهر ، والغصنِ والتمر ، والفرعِ والشجر ،
والشمسِ والقمر ، مَنَعَكَ اللهُ بهما وَمَتَّعَهُمَا بك ، وحرسَ من الأسواءِ منيعَ حرمك
وجنابك . فانجبرَ بذلك كسرى ، ونال بشرى ويسرى ، وطاب سيراً ومسرى ،
وسرَّ صدره وانشرح ، وأغشى عليه من شدَّةِ الفرح ، وأنشد :

طَفَحَ السَّرُورُ عَلَيَّ حَتَّى أَنَّهُ مِنْ عِظَمِ مَا قَدْ سَرَّيْنِي أَنْكَالِي
يَا عَيْنُ قَدْ صَارَ الْبَكَاءُ عَادَةً تَبْكِينَ مِنْ فَرَحٍ وَمِنْ أَحْزَانِ

ثم أمرَ بيساطِ السرور ، وجلسَ فى النشاطِ والخبور ، وأنشد :

أَفْلَأَ وَسَهْلًا بِأَلْيَ جَادَتْ عَلَيَّ بِمُهْجَتِي
أَهْلًا بِهَا وَبَوَئِلِهَا مِنْ بَعْدِ طُولِ الْهِجْرَةِ
أَيُّزُ الْمَدَامِ وَغَنِيَّتِي أَفْلَأَ وَسَهْلًا بِأَلْيَ

ثم أفاضَ خِلَجَ الإِنْعَام ، والرِّضَا والإكرام ، على الوزير ، وشكر له حُسْنَ التدبير ،
وارتفعتْ عنده منزلته ، وتضاعفتْ فى الارتقاءِ مرتبته .

وإنما أوردتُ هذه الأمثال ، لتحذى على هذا المثال . فإن كان عندك ما يزيلُ
الشكَّ والأغاليط ، ويُحقِّقُ الحقَّ ويُمَيِّزُ الأخاليل ، فإنَّ فى إبدائها مِنَّةٌ عظيمة ، ونعمةٌ
على الملكِ حسيمة ، وستبليغينى بذلك العيشَ الهَنِي ، وترقيينى به إلى المقامِ السَّمِي
السَّيِّ ، وإنْ أَحْرَتِ النصيحة ، فقد شاركتِ الخاتن ، فى الأفعالِ القبيحة .

قالت الفارة : ما أدقُّ ما نظرت ، وأحقُّ ما أشرت ، لا تردَّد للعقل ، فى صحَّةِ
هذا النقل ، ولكن مَنْ أنا فى الرُّقعة ، وَمَنْ يَقْبَلُ للفارة حتى تَطْلُبَ الرُّقعة ، فلا أنا

في العير ، ولا في النفير . ولأني من مبدأ أمري ، وطول عمري ، في زوايا الخمول ،
 انحرزُ من فضلات الفضول ، لا لصحبة الملوك لي صورة جميلة ، ولا في طريقة
 السلوك صورة نبيلة ، لا أمانة ولا ثقة ، وأصدق أسمائي الفؤيسقة ، فكيف أصير
 مُصدقة ؟ وقد أباح سيد العرب والعجم ، معدن اللطف والكرم ، والمبعوث بمكارم
 الأخلاق والشيم ﷺ قتلى في الحيل والحرم . فلو طلبت مصاحبة من فوقني ،
 لخرجت عن دائرة طوقني ، وصيرت نفسي ضحكة للناظرين ، وهزأة للساخرين ،
 حصوصاً ملك الأسود ، وسلطان الوحوش من النمر والفهود ، ورجم الله امرءاً
 عرف قدره ، ولم يتعد طوره . ومن أعجب العجب ، أن يُحتى من الشوك العنب ،
 ولو فعلت ذلك ، لكت كتفرد حالك ، ذميم هالك ، ادعى رئاسة الممالك .

ومن أحسن الأمثال ، ما يقال : إن السلطان للأنام بمنزلة الحمام ، البعيد عنه
 يطلب قرينه ، والداخل فيه يشكو كرتيه ، فالأقرب بحالي ، أن لا أشغل بالي الخالي ،
 بما لا يليق بي ولا بأمثالي ، وحيث أشرت عليّ بأداء النصيحة ، وبيان الحالة
 الفاسدة من الصحة ، طلباً لمرضاة الملك ، وصوناً لحاظره عن الأمر المشتبه
 المشتبه ، والفكر المريب المرتبك ، فانا أمتثل مرسومك ، وأودع ذلك معلومك ،
 بشرط أن لا تذكرني بشفة ، ولا تشير إلى اسمي بنكرة ولا معرفة . فاعلها على ما
 اشترطت . فعمدت لسان القول وبسطت ، ثم ذكرت ما جرى بين الدب والجملي
 من فصول ، وقررت براءة ساحة الجملي بالمعقول والمنقول .

فلما اتضح لأبي الحصين السحان نزاهة عرض الجملي ، وأن الدب هو الذي
 أغراه على قصد الأسد وحمل ، وتحقق ذلك بالبرهان القاطع ، والدليل الساطع ،
 توجه إلى حضرة الأسد ، وأخبره بما صلح من الأمر وما فسد ، وأنه إنما تأخر عن
 خدمة مخلومه ، ليصل إلى ما في جيب الغيب من مكومه . فلما تحقق الليث ، ما في

هذا الأمر من صلاحٍ وغيث ، ومن هو الصالح ، من الدبِّ والجمال والطالح ، أرسل إلى الغراب ، وعرض عليه هذا الأمر العجيب ، وطلب منه الإرشاد ، إلى هدم ما بنىه الدبُّ من الإيقاع وشاد . فقال الرأي عندي أن تجمع العساكر ، وتنادي للبادي والحاضر ، ويحضر الدبُّ والجمال ، ويُعرض على الجميع هذا العمل ، فإذا ظهر الحق ، وانكشف سِخاف^(٧١) الباطل عن جبين الصدق ، وتبين الظالم من المظلوم ، وتعين الصحيح من المثلوم ، يرى رأيك السعيد ما يقتضيه ، ويسلك ما يأمرُ به ويرتضيه ، ويجري على كلٍّ منهما ما يُحكم بتنقيذه ويمضيه ، بحيث لا يتطَّح في ذلك عَنزَان ، ولا يختلِف عليك فيه اثنان . فلما كان ثاني يوم ، أمر الأسدُّ بجميع القوم ، وإحضار الجمال البري ، والدبِّ المفترى ، فحضر الكبير والصغير ، واجتمع الأمير والوزير ، ثم علا الملكُ على السرير ، وأثنى على الله العليِّ الكبير ، وصلى على البشرِ النذير ، الشاهدِ السراج المنير ، ثم ذَكَرَ ما أَمَعَهُ ، فى هذه القضية المغمّة ، وذكر فضل هذه الأئمة ، وما لها من رَقّة وجلالة ، وإنها لا تجتمعُ على ضلالة . ثم قال : ما تقولون في رفيقين ، شفيقين صديقين ، لم يكن بينهما سَبَبٌ مُكالحة^(٧٢) ، ولا موجبٌ منازعةٍ ولا مُجالحة^(٧٣) ، سوى المحبةِ المليحةِ والمالحة ، والمودّةِ الصافيةِ الصالحة ، يبيتان في فراش ، ويستعينان على حُسنِ المعاش ، حَسَدَ أحدهما رفيقه ، وخان من غيرِ سببٍ صديقه ، وسعى في إراقةِ دمه ، وعدمِ وجودِهِ بوجودِ عديمه ، فماذا يجبُ على هذا الحاسد ، المتنافقِ في عمله الفاسد ، الطالبِ ترويجِ باطلِهِ الكاسد ، وقصدهُ ذلك البري ، الصالحُ الغافلُ

(٧١) السخاف : السور .

(٧٢) للمكالحة : المحاربة والخسومة الشديدة .

(٧٣) المجالحة : المكابرة والمُشادة ، والمكاشفة بالعلوّة .

السري ، والسعيُّ به إلى الحكام ، وإلقاءهم بسببه في الآثام ، وارتكاب هذه الجرائم ، وتحمل مثل هذه العظائم .

فأجاب الجمهور : إن من أكبر الكبائر قولُ الزور ، وقد قال ربُّ الكائنات ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(٧٤) وإن مرتكبه الأثيم ، استوجب العذاب الأليم ، ومن هو هذا الجري^(٧٥) ، الكذبُ المفزعي ، الذي يرتكب مثل هذه الأمور الهائلة ، والكبائر الوعيمة القاتلة ، والعظائم المؤذية الفائلة ، خصوصاً في مثل هذه النولة العادلة ، ولأي شيء يؤخر جزاؤه ، ولا يحسم دواؤه ، ولا يضرب ولا يُشهر ، ولا يؤمر بالمعروف في هذا المنكر . قال الأسد : فاكثبوا بما قلتم عاضير ، وليعلم الغائب الحاضر ، حتى إذا وقع الاتفاق ، بين الأصحاب والرفاق ، وارتفع في ذلك النزاع والشقاق ، وأجمع على ذلك العقل والسمع ، فَعَلْنَا فيه ما يقتضي السياسة والشرع ، فأتبعوا شروطهم ، وكتبوا بذلك خطوطهم . فعند ذلك طلب الأسدُ أم راشد^(٧٦) ، وأقامها في ذلك المحفل الخاشد ، واستنطقها بما تعلم ، واستشهدها على الدُّبِّ بما أجرم . فشهدت في وجهه بما سمعت ، ورَقَمَتْ بذلك خطها ووضعت ، وزكاه الحاضرون ، وشهدت بعفتها وزُفديها الناظرون ، واتفقت الكلمة ، من الكَمَلَة على صِدْقِهَا ، وحقيقة نطقها . قَتَلَهُ وَجْهُ الْجَمَل ، بهذا القول والعمل ، وظهرت على صفحات وَجْهِ الدُّبِّ ، العديم الدين واللب ، علامة الانكسار والفضيحة والخسار ، ولم يسعه إلا أنه أذعن ، واعترف أن لا دافع له في الشاهد ولا مطعن ، وأنه قد اجترم ، وطلب العفو والكرم .

(٧٤) قرآن كريم ، سورة النور : ٢٣ .

(٧٥) الجري : الجريء .

(٧٦) كنية الغارة التي سمعت تحريض الدُّبِّ للجمال على معيضة الأسد .

ف عند ذلك غَضِبَ الريال ، ولم يبقَ للعِفْرِ مجال ، فَوَارَ وَزَفَرَ ، وغضب الغضنفر ،
 وهمر^(٧٧) وزجر ، وتطأير من أشدِّه الزبد ومن عينيه الشرر ، ومن شمائلِ حركاتِه
 محمضاتِ القضاء والقدر ، ونعوذُ الله من غضبِ الملوك ، خصوصاً على الفقير
 الصعلوك ، ومن أحاطتْ به أوزارُه ، وقلَّتْ أعوانُه وفيتْ أنصارُه . ثم أمر الأسدُّ
 بالدبِّ ، أن يُلقَى من البلاءِ في حُبِّ ، وأن السباعَ تحتوشه ، والضباعَ تنوشه . ففي
 الحال ، من غير إهمال ، ولا توانٍ ولا إهمال ، نهشته الذئب ، واقتسته الكلاب ،
 وتحاطفته النمر ، وتناقتة الببور ، والتقمته السباع ، والتهمته الضباع ، فقطعوه
 وبضعوه ، ووزعوه ومزعوه ، وحزقوه وحزقوه ، وخرقوه ومزقوه ، ولم يكتفوا
 بِعَظْمِهِ وإِهَابِهِ^(٧٨) ، حتى لَحَسُوا من دِمِهِ يابِسَ ترابِه ، وكان قد اشتدَّ بهم
 القرم^(٧٩) ، فأطفأوا بلحمه ودمه بعضَ الضرم ، وزال عن أبي أيوب الضر ،
 وارتفعت منزلة ذلك الحرِّ ، وضاعف الله تعالى عن براءة ساحته أنواع الحمدي
 والشكر .

وفائدة هذا المثل الجاري بين الدبِّ والجمل ، معرفة فضيلة الأمانة ، ووَحَامَةِ
 المكرِّ والخيانة ، فإن الله تعالى غير مُضِيعِ أهله ، ولا يحيقُ المكرَّ السيِّءُ إلاَّ بأهله ،
 كما قيل :

وَصَرَبُ خِيَانَاتٍ وَطَفَنُ مَكِيدَةٍ	لَأَنْبَاءِ هَذَا الدُّخْرِ فِي الْقَدْرِ أَسْهُمٌ
سَبْوَى تُرْمِ تَفْوِضٍ لِرَبِّ الْبَرِيَّةِ	وَمَا لِلْفَتَى مِنْهَا طَرِيقُ سَلَامَةٍ
كَفَالَةٍ مَا يَبْوِي وَمَا فِي الْعَقْدَةِ	وَكُلُّ أَمْرٍ زَهْنٌ يَبْئِثُهُ وَفِي

(٧٧) همر : دمدم بغضب .

(٧٨) إهابه : جلده .

(٧٩) القرم : شدة الجوع .

وليكن هذا آخرُ بابِ الأسدِ الصالح ، والجملِ الأمينِ الناصح . والعاقبة للمتقين ،
والله الموفقُ والمعين .

والحمدُ لله ربِّ العالمين ، وطلّى اللهُ على سيدنا محمدٍ
خيرِ الخلائقِ أجمعين ، وحسبنا اللهُ ونعمَ الوكيل ،
ولا حولَ ولا قوةَ إلا باللهِ العليُّ العظيم .

الباب التاسع

ففي ذكر ملك الطير العقاب

والحجلتين الناجيتين من العقاب

قال الشيخ أبو المحاسن ، مَنْ هُوَ لَفَوْبِ الْفَضْلِ كَاسٍ^(١) ، وَلَكَاسِ الْظُرْفِ حَاسٍ^(٢) ، وَفِي حَدَاقِ الْأَدَبِ أَزْكَى آسٍ^(٣) ، وَلَأَحْدَاقِ الْأَدْبَاءِ أَذْكَى آسٍ^(٤) ، وَفِي عِيُونِ الْأَعْدَاءِ أَنْكَى آسٍ^(٥) :

فَلَمَّا أَنْهَى الْحَكِيمُ حَسِيبَ ،، كَلَامِهِ الَّذِي اسْتَعْبَدَ دُرَّ النَّسِيبِ ، وَذَكَرَ مِنَ النَّصَائِحِ وَالْحِكَمِ ، عَنْ مَلُوكِ الْعَرَبِ وَالْعَرَبِ وَالْعَجَمِ ، وَمَنْ مَبَاحِثِ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ ، مَا حَصَلَ لِلْسَامِعِينَ بِهِ النَّشَاطُ وَالْأَنْسُ ، ثُمَّ اسْتَطَرَدَ إِلَى فَوَائِدِ الْبَهَائِمِ وَالْوَحُوشِ ، وَرَقَمَ فِي دَارِ ضَرْبِ الْبَلَاغَةِ مِنْ حُسْنِ الصِّيَاغَةِ وَالرَّقُوشِ^(٦) ، مَا قَعَدَ لَهُ مِنْ زَوَاهِرِ كَلَامِهِ عَلَى سَكَّةٍ دِينَارِ الْفَصَاحَةِ أَجْسَنَ النَّقُوشِ ، وَعَقَدَ بِجَوَاهِرِ نِظَامِهِ لِمُفْرَقِ الْعَدْلِ فِي دَارِ الْمُلْكِ إِكْلِيلَ الْعُرُوشِ ، افْتَخَزَ أُنْحُوهُ الْقَبْلُ بِوُجُودِهِ ، وَقَدَّمَهُ عَلَى جَمِيعِ خَوَاصِّهِ وَجُنُودِهِ ، وَأَقْفَاضَ عَلَى حَدَاقِ آمَالِهِ زَلَالَ إِحْسَانِهِ وَجُودِهِ ، وَقَالَ لَهُ : يَا نَدِيمَ

(١) مَنْ كَسَا يَكْسُو : يَرْتَدِي ، وَتَقَرَّرَ بِالْتَّنَوِينِ لِلدَّوَاعِي السَّجْعِ مَعَ أَبِي الْمَحَاسَنِ .

(٢) مَنْ حَسَا يَحْسُو : يَشْرِبُ ، وَتَقَرَّرَ بِالْتَّنَوِينِ لِلدَّوَاعِي السَّجْعِ .

(٣) آسٍ : شَجَرُ الْأَسَى ، وَهُوَ شَجَرٌ مَزْهَرٌ دَائِمٌ الْخَضِرَةِ .

(٤) آسٍ : طَلِيبٌ .

(٥) آسٍ : مِنَ الْمَوَاسَاةِ : الْعَوَاءِ .

(٦) الرَّقُوشُ : الْكِتَابَةُ : الْحَسَنَةُ الْمُرْتَبَةِ وَالْخَطُوطُ الْمُرَعَفَةُ الْجَمِيلَةُ .

الدير ، وعديم الضير ، وقديم المير^(٧) ، ومديم الخير ، وقد أفدت حِكْمَ سائر
الحيوانِ فَكَرَّرَ علينا من حِكْمِ مَنْطِقِ الطير . فابتهج الحكيمُ في الساعة ، وانهض
ملياً بالسمع والطاعة . ثم إنه قال : أدامَ الله ذو الجلالِ أيامَ مولانا الإمام ، وشمل
بذيلِ رافته الخاصَّ العام :

بلغني أنه كان ، في ممالكِ آذربيجان ، جبلٌ يسامي السَّمَاءَ في السَّمَوِّ ، ويعالي
الأفلاكَ في العلَوِّ ، غزير المياه والأشجار ، كثير النبات والثمار ، وفي ذيله شجرةٌ
قديمة ، منابتها كريمة ، أغصانها مهدلة ، ومأزها مسيلة ، كما قيل :

وفي أصلها وكثر لزوج من الحجل^(٨) كأن ربّ رضوان ألبسها الحلل

هو وطنها المؤلف ، ومقرهما المعروف ، ورثاهُ من أسلافهما ، وهو في الشتاء
والصيف مرجعُ إيلافهما ، يُدعى الذكرُ منهما النجديّ ، والأنثى غرغرة بنت
السعديّ ، ولذلك الجبلُ جبلٌ مبقّر ، من جهة الشرقِ يسمّى القارن ، لو قصد
البدرُ دورهُ ، أو رفع رأسه لينظرَ سورهُ ، أو يحلّ فيه شعاعه ونوره ، لوقع عن قمّة
رأسه طُرطوره ، في قلّته^(٩) سرير^(١٠) عَقَاب ، منيع الجنب ، هو ملكُ الطيورِ
والجوارح ، وسلطانُ السوانح^(١١) والبوارح^(١٢) ، وصفاتُ تلك القلال^(١٣) ،
وكواسرِ هاتيك الجبال ، كلّها تحت أمره العادلِ العال ، متوجّ فوق رأسه بإكليل ما

^(٧) المير ، أو الميرة : الطعام الذي يجمع للسفر وغره .

^(٨) الحجل : طير في حجم الحمام من الفصيلة التدريجية من رتبة الدجاجيات ، ومنه عدة أنواع ، أحمر المنقار
والرحلين ، طيب اللحم .

^(٩) قلته : قمة الجبل .

^(١٠) سرير : عرش .

^(١١) السوانح : الطيور تمر من اليسار إلى اليمين ، والعرب يسمون به :

^(١٢) البوارح : الطيور التي تمر من اليمين إلى اليسار ، والعرب تشاءم به .

^(١٣) القلال : القمم ، أو أعالي الجبال .

يبرزه من مثال . فكانت الحَجَلَتَانِ كلما فرختا وقاربت أفراخهما الطيران عزم أبو
الهيثم الكاسر ، بما معه من عَقَائِنِ كواسر ، وجوارح الطيور ، وَمَنْ تحت أمره من
الجمهور ، على التنزه والاصطياد ، فتحيط عساكره بتلك النواحي والبلاد ، فكانوا
كلّما وطئوا رِثْوَةً مُهُودِها ، وسلكوا ما بين أَكْنافِها وبطُونِها ونهودِها ، تصلُّ
طَرَاثُ^(١٤) العساكر إلى الجبل ، الذي فيه وَكُرُّ الحَجَلِ ، فتذهبُ أفراخُهما تحتَ
السنابك ، وتضمحلُّ تحت أقدام أولئك ، فتقعُ الحَجَلَتَانِ ، في النكدِ والأحزان ،
وبالجهدِ والمشقةِ البالغة ، يخلصان هما من تلك الداهيةِ الثالثة^(١٥) ، والناتيةِ البامقة ،
فَلَمْ يَزَالَا في نكدٍ ، على فَقْدِ الولدِ .

فافتكرنا في بعض الأيام ، وقد أثر فيهما هذا الإيلام ، فيما هُم فيه من النكدِ ،
لفقد الولدِ ، المتجدِّدِ على طولِ الأمدِ . فقال النجديّ ، لبنتِ السعديّ : قد اكبرنا ،
وضاعَ العُمرُ وحرثنا ، وقاربتُ شمسُ عمرنا للأفول^(١٦) ، وأقدامُ بقائنا أن تَزِلَّ
وتزول :

وَلَيْسَ لَنَا مَنْ يَذْكُرُ اللَّهَ بَعْدَنَا إِذَا مَا اتَّخَشْنَا فِي مَخَالِبِ فَقَلْبِنَا

ولا مَنْ يُحْيِي نَشْرَ آثَارِنَا ، إِذَا طَوَى الْمَوْتُ بِسَاطِ أَعْمَارِنَا ، وقد قضينا العُمرَ في
الأنكاد ، بفراقِ الأولاد ، ثم بعدَ الحياةِ ينمحي اسمُنا ، ويندرسُ بالكَلْبَةِ رُسْمُنَا ، فلا
حياةَ هُتَيَّةَ ، ولا أخرى رَضِيَّةَ ، وأَيُّ هِنَاءٍ مع فِرَاقِ قُرَّةِ الْعَيْنِ ، خصوصاً على وَجْهِ
المذلةِ والشُّنَنِ ، وما لنا نظير ، في هذا الدهرِ الملبِئ^(١٧) ، إِلا مَنْ جَمَعَ الْمَالَ مِنْ حِلِّهِ
وغيرِ حِلِّهِ ، وتركه بعدَ النكدِ البليغِ والحرصِ إلى غيرِ أهْلِهِ ، فيصيرُ كما قيل :

(١٤) طراثة : حركة الجيش الثقيلة ومقدمته (كما في ذلك الخيل والدواب) وذلك حين يخرج للمعركة أو غيرها .

(١٥) الثالثة : الشاذعة ، من تلغ الرأس ونحوه ، أصابه وأسقطه فشدعه .

(١٦) للمغيب .

(١٧) الملبئ : للهلك .

تُؤَدِّيهِ مُذْنُومًا إِلَى غَيْرِ حَايِدٍ فَيَأْكُلُهُ عَفْوَاً وَأَنْتَ ذَلِيلٌ

ولا طاقة لنا في دَفْعِ جَيْشِ الْعُقَابِ ، ولا حيلة إلى الخلاصِ من عِقَابِ هذا الْعُقَابِ ،
فذهبَ أَكْثَرُ الْعُمَرِ في هذا اللَّيْلِ ، وَأَشْبَهْنَا النَّائِمَ على طَرِيقِ السَّيْلِ ، وإنْ غَفَلْنَا عن
أَنْفُسِنَا ربما اجتاحونا ، وطرحونا إلى مهلكةٍ تُدِيرُ عَلَيْنَا من العدمِ طاحونا ، فنالرأيُ
عندي أن نتركَ هذا الوطنَ ، ونرحلَ إلى مكانٍ لا نرى فيه هذه المحنَ ، فَإِنَّهُ لم يبقَ لنا
طاقةٌ على فِرَاقِ الْوَلَدِ ، ولا قلبٌ يحتمِلُ هذا الْحُزْنَ والنكد :

ذَابَ قَلْبِي بَيْنَ دَفْعٍ وَضَرْمٍ فَارْحَمُونِي أَنَا مِنْ لَحْمٍ وَدَمٍ

وذاك لِأَنَّ الْمَرْءَ يحيا بلا رَجُلٍ وَيَدٍ ، ولا تلقاهُ يحيا بلا كَبَدٍ . قالت : لقد أعرِبتُ عَمَّا
في فكري ، وشرحتُ ما كان يحوِلُ في صدري ، وهذه محنةٌ قد أعياني في دائِها
الدواءُ ، بلاءٌ عَمَّنَا فَكَلَّمْنَا فِيهِ سَوَاءً .

المرءُ يحيا بلا ساقٍ ولا عَقْدٍ ولا يعيشُ بلا قَلْبٍ ولا كَبَدٍ

وقيل :

* بِي وَفَلَّ مَا يَلِكُ يَا حَمَامَةَ فَاذْنَبِي *

وقد قلت :

وَلَمْ يَعْرِفْ حَرَارَةَ مَا أَعَانِي سَبَوَى قَلْبِي كَوَاؤُهُ مَا كَوَّانِي

وَأَنَا لَمْ أَخْلُ قَطُّ فِي وَقْتٍ ، من هذا الْفِكْرِ الذي أَوْجَبَهُ الْحَمُّ والملقُتُ . واعلمْ أنَّ
سِيهَامَ آراءِ الْعُقَلَاءِ ، ونبالَ أَفْكَارِ ذَوِي النُّظَرِ من الْحُكَمَاءِ ، إِنَّمَا تَصْنَعُ من قوسٍ
واحدةٍ ، وتوجُّهُ إلى غَرَضٍ طَرِيقَتُهُ غَيْرُ مُتَعَدِّدَةٍ . وقال الْعُقَلَاءُ ، وأولو التَّجَارِبِ من
الْحُكَمَاءِ ، بل أَطْبَقَ أَرْبَابُ الْعُقُولِ وأئمَّةُ الدِّينِ وأصحابُ الْأَصُولِ : إِنَّ قَضَايَا
الْعَقْلِ كُلَّهَا صَادِقَةٌ ، وَالسُّتُهَا فِيمَا تَحْكُمُهُ بِالصَّوَابِ والأَصَالَةِ نَاطِقَةٌ ، غيرَ أنَّ كَثِيرًا
مَا تَشْتَبِهُ الْقَضَايَا الْعَقْلِيَّةُ ، لسوءِ التَّصَوُّرِ بالقَضَايَا الْوَهْمِيَّةِ ، فيقعُ الْخَطَأُ بوساطَةِ
الْوَهْمِ في الْفَهْمِ ، ويُنسَبُ إلى الْعَقْلِ ذلك السَّهْمِ ، وإلَّا فَاتَّفَاقُ الْعُقَلَاءِ جَمْعًا ، أن

القضايا العقلية لا يقع فيها الخطأ قطعاً ، وأن قضايا الحس ، لوقوع الاشتباه واللبس ، يُتصور أنها حق ، ويُقضى لها وعليها بالصدق ، وإذا وقع الخطأ للحصول الاشتباه ، وعدم التأمل والانتباه ، في القضايا الحسية ، والقضايا التي هي بحاسة البصر مَرئية ، كما وقع ذلك في حادثة الطريقة البغدادية ، فوقوع الخطأ باللوهم أو كلى في القضايا العقلية ، لأن طرقها أخفى وأحكامها معنوية ، فسأل الذكر عن تلك البغدادية وما هذا الخير ؟

[١/٩] قصة المرأة البغدادية مع زوجها وحرقاتها الأربعة

قالت كان في مدينة السلام بغداد^(١٨) ، امرأة من المتحدثات أخذان^(١٩) ، اسم زوجها زيد ، وهى أم عمرو وذات كبد ، لها عدة أخذان ، تدعو لكل بالإخوان ، وكل ينشد في السر والإعلان ، قوله
دَعْنِي أَخَاهَا أَمْ عَمْرُو وَلَمْ أَكُنْ أَخَاهَا وَلَمْ أَرْضَعْ لَهَا بِلْتَانِ
فاتفق أن زوجها زيد ، دعاه أمير البلد إلى الصيد ، فركب معه وسار ، وعملت منه الديار ، فتسامع بذلك بعض أخذانها ، فتوجه منهم طائفة إلى مكانها . فَأَوَّلُ مَنْ سبق ، تاجر ذو شبق ، فدخل بثياب بيض ، وشاش رحيض^(٢٠) ، وهيئة نظيفة ، وصورة ظريفة ، فأسرع في الدخول ، ومعه ما يليق من المأكول ، فلقته بالرحاب ، وأخذ في لذيذ الخطاب . فما استقر به القرار ، حتى قرع قارع باب الدار ، فظنته زوجته ، وحققته بوجهها ، فنهض خائفاً ، وتحير راجفاً ، وطلب

(١٨) بغداد : بغداد .

(١٩) أخذان : مفردا عيذان : وهو صديق سرّي (الذكر والأنثى) أو بالأحرى عشيق .

(٢٠) رحيض : مغسول .

مكاناً يخفيه ، وكَيْتَا يَأْوِيهِ ، فلم يَكُنْ فى دارها ، مخبأة زَوَّارها ، سوى طقيسى^(٢١) لطيفة ، يُصْعَدُ إِلَيْهَا مِنْ سَقِيْفَةٍ ، فأرشدته إليها ، فَرَقِيَّ عَلَيْهَا . وبادرت إلى الالتحاف ، فإذا هو حريف^(٢٢) صرَّاف ، ففتحت الأغلاق ، وتعانقا تَعَانَقَ الْمُشْتَقَّ ، فدخل بهيئة زهراء ، بلباسٍ أخضر وعمامة خضراء ، ومعه من الخُلُوى جمع ، ومن الزجاج أربع . فجلسا يتذاكرانِ الحوادث ، إذ طرق الباب ثالث ، فقالت . هَبْطَ أَوْجِي ، وجاء زَوْجِي ، فَوَثَبَ فى وجْفة ، كأنه ورقة سَعْفَةٍ ، فسأل عن غبابة ، وسرَّ يغشاه ، فأرشدته ربة الكريسى إلى طريقِ الطقيسى ، فصعدَ اللَّاحِقَ ، ولحقَ السابق . وبادرتُ الرتاج ، ربة التاج ، وأُمُّ الأزواج ، فإذا هو أخذُ الطرفاء ، وثالثُ الحرفاء ، رجلُ زِيَّات ، ومعه مجمعُ سكرِ نبات ، فنلقته بالتكريم ، وأجابته بالتسليم ، فدخل بثوبٍ أصفر ، وشاشٍ معصفر ، فشرعا فى الملاعبة ، والملاطفة والمداعبة ، فَذَقَّ الباب ، رابعُ الأصحاب ، فبادر الزِيَّاتُ الفرار ، وطلب مُخْتَفَى للقرار ، فَذَلَّتْهُ فى المفر ، إلى المعهودِ والمقر ، فصعد إليه ، ولحق بصاحبيه . وتوجَّهَتْ إلى الباب ، فإذا هو أخذُ الأحباب ، وهو رجلٌ قصاب ، وعليه ثيابُ سود ، وخُفُّه المعهود ، وعلى رأسه مِزْزَرٌ ثمين ، ويديه بحروف سمين ، فقالت : أهلاً وسهلاً ، وأرفع محلاً ، بالحبيبِ النحيب ، والبعيدِ القريب ، فدخلا واشتغلا بالخطاب ، والتهيا عن رتاج الباب .

وكان فى تلك الحيلة ، شَخْصٌ أَحْدَبُ أَهْلَهُ ، يدخلُ البيوتَ ويتمسَّحُ ، فلا يُمْنَعُ من ذلك ولا يُزَجَّرُ ، ويلاطفه الأكابرُ والأعيان ، ولا تحتجبُ منه النسوان ، فَمَرَّ على بابِ زيد ، فرآه لا أغلاق ولا قيد ، فدخل على غفلة ، ولم يستأذن أهله ،

(٢١) طقيسى : غرفة أو مقعد ينام فيه أهل البيت صيفاً لمودة تهرته .

(٢٢) الحريف : العاشق السرى ، لأنه ينحرف إلى النساء خفية .

فلم يشعر به ، إلا بعد حلول ركابه ، فوجم لرؤيته القصاص ، وخاف من حلول مُصَّاب ، وتَشَوَّرَ وانحرف ، فقالت له المرأة : لا تَحْفَ ، إنما هو أبله ، مسخرة فى الحِجْلَة ، فأخذوا يتلاطفون ، ويتملحون ويتطارفون ، إلى أن قَرُبَ الليل ، وفات النيل . فطرق الباب ، ووصل الزوجُ بلا ارتياب ، فلم يشعرُوا إلا والبلاء قد أقبل ، ومصائبهم الأعظم فى أكثافهم قد نزل ، فاحتبطوا والتبطوا ، وانحلت قواهم وارتبطوا ، وطلب القصاصُ غيًّا^(٣٣) ، فارتته للطقيسى ذُربًا ، وطلب الأحَدَبُ ، من شرِّ زيدٍ المهرب ، فكان فى أرضِ البيتِ تنور ، فنزل فيه وهو مضرور ، وغطته بغطائه ، وسترته ببعضِ وطائه . ثم توجهت إلى الباب ، وهي فى اضطراب ، فدخل زيدٌ وهو سكران ، ومن تأخيرِ فتحِ البابِ غضبان ، وكان قد تناول مع خديميه ، ولعبت بشيخِ عقله بنتُ كروميه . فلما نزل عن السروج ، رأى الزوجة فى هرجٍ ومرجٍ ، فأنكر حالها ، وسألها ما لها ؟ فقالت : كرهتُ فُقدَكَ ، وحاطري عندك ، فلا ذقتُ بُعدَكَ ، ولا عَشِيتُ بُعدَكَ . فقال : تكذبين أَيْ دَفَار^(٣٤) ، بل تسخرين بى أَيْ فجار^(٣٥) ، إنما أنست فى حركة ، فلا طرح الله فيك بركة . فقالت : أنت مجنون ، وأَيَّ حركةٍ عندى تكون ، فشرع فى حرِّبها ، واستطرد من سبِّها إلى ضربِها ، وعزم على تفتيشِ البيت ، والاطلاع على ما فيه من كَيْتٍ وكَيْتٍ . فخشيت أن يخرج أمرُها عن دائرة السرِّ إلى "لَوْ كَانَ وَكَيْتٌ" فتداركت التفریطَ قبل وقوعه وبادرت إلى تلافي التلافِ بالهَيْتِ^(٣٦) ، فتشككت من الإذى ، وقد تناولها بالضربِ والبذاء . ورفعت يدها إلى الدعاء بالندا ، وقالت : إلهى

(٣٣) غيًّا : غيًّا .

(٣٤) دَفَار : آفة داعية ، يقال لها إذا شمت أَيْ دَفَار : يا منته .

(٣٥) فاجرة .

(٣٦) الهَيْت : الصراخ والصياح ، يقال هَيْت به أى صاحت عليه .

وسيدى ، وسندى ومعتمدى ، إن كنت تعلم أنى مظلومة ، وبراءة ساحتي عندك معلومة ، فأنزل إلى أميتك ملكاً من ملائكة رحمتك يخلفها من هذا الظلوم ، ويكشف ستر هذا السر الموهوم . فبادر التاجر بالانتهاض ، ونزل بشايه الياس ، ودخل عليه ، وقبض على أذنيه ، وصغعه على عنديه . وقال : أتركها يا ظالم ، فإنك معتد أنم ، وهي بريئة^(٢٧) ، وشماثلها زكية ، وضربه ضربتين ، ولكمه لکمتين ، ثم أم الباب ، وترك الأضحاب ، وشرع فى النهاب .

فلما رأى هذا زيد ، عرف أنه خديعة وكيد ، وقال : يا أفحش الفواحش ، وأنهش النواش ، تريدن عهدي وسحري ، وخذلي وخترى ، وتبغين بما تبغين ختلي ومكرى ؟ أو لست بعريف ، أنه لك حريف ؟ ثم زاد فى سبها وماد إلى كبتها وضربها . فقالت : يا الهى ، وسيدى وجاهي ، إن كنت تعلم ، أن هذا الأظلم ، أنكر الحق ، وراه وما صدق ، فأنزل عليه ملكاً آخر ، ذا جناح أخضر ، يأخذ بحقي منه ، ويكشف سترك عنه . فقال الحرفاء ، وكانوا ظرفاء ، للصيرفى : قم غير خفي ، وشدد عليه ، وأوصل الأثم إليه . فنهض فى ذلك المعلم ، وبادر إلى السلم ، ونزل إليه ، ودخل عليه ، وقال : اكشف يا ذا العار ، عن عفيفة الأستار ، فإنها بريئة ، وعمّا تظنه عريّة ، ومدّ يده بلكمه ، وبالف فى سبه وشتمه ، ثم خرج من الدار ، وبالف فى الفرار . فقال : يا للدريّة ، من ذي القحّة ، الناس بواحد وأنت باثنين ، وقد جعلت زوجك ذا القرنين ، ثم أخذ العصا ، وضربها ضرب من عصى .

(٢٧) بريئة : بريئة .

فَقَالَتْ : يَا إِلَهَ الْعَالَمِينَ ، تَعَلَّمُ أَنَّ هَذَا مِنَ الظَّالِمِينَ ، أَمَدَّنِي بِالْمَلِكِ الْأَطْفَرِ ،
صَاحِبِ الدَّرْعِ وَالْمِغْفَرِ^(٢٨) ، وَالثَّوْبِ الْمُعْصَفَرِ ، يَبْرَأُ سَاحَتِي ، وَيَهْدِي رَاحَتِي ،
فَأَنْتِي مَظْلُومَةٌ ، وَقَصَّتِي مَعْلُومَةٌ . فَقَالَ الْجَزَارُ لِلزِّيَاتِ : قُمْ أَرِنَا الْكَرَامَاتِ ، وَقَدِّمِ
صِنَعَتَكَ وَهَاتِ . فَنَهَضَ الزِّيَاتُ ، وَنَزَلَ إِلَى ذَلِكَ الْمَفْتَاتِ^(٢٩) ، وَقَالَ : أَيُّهَا اللَّيْمُ ،
كُفَّ عَنِ الْحَرَمِ ، وَارْجِعْ عَنِ كَوْنِ الْبَرِيِّ^(٣٠) ، وَاقْصِرْ أَيُّهَا الْجَحْزِيُّ لِلْفَقْرَى ، ثُمَّ
تَنَاوَلَهُ بِعَصَاهُ ، إِلَى أَنْ أَلَمَ قَفَاهُ ، ثُمَّ تَرَكَهُ ، فِي الْحَرَكَةِ ، وَخَرَجَ هَارِبًا ، وَقَصَدَ
جَانِبًا . فَقَالَ زَيْدٌ : يَا أَوْسَخَ الْقِحَابِ ، وَأَوْسَخَ ذَوَاتِ السَّبَابِ ، تَعْلُدِينَ حُرْفَاءَكَ
وَاحِدًا وَاحِدًا ، وَتَعْرِضِينَ عَلَيَّ صَادِرًا وَوَارِدًا ، ثُمَّ نَهَضَ بِالعَصَا ، وَتَنَاوَلَهَا مُغْلِيًا
وَمُرْغِيًا ، فَمَادَتْ وَآدَتْ ، وَبَادَتْ وَنَادَتْ : إِلَهِي هَذَا لَمْ يَعْتَرِ مَلَأَكِيكَ الْكَرَامَ ،
وَلَمْ يَنْزَجِرْ بِهَذَا الضَّرَمِ وَالْإِيْلَامِ ، فَاْمَدَّنِي بِمَلِكِ النِّهْرَانِ ، الزَّيْنِيِّ^(٣١) الْأَسْوَدِ
الْغَضْبَانِ ، يُخَيِّرُهُ بِصِنْعَتِي ، وَيَأْخُذُ مِنْهُ حَقِّي ، وَيَفْعَلُ مَعَهُ مَا يَجِبُ ، فَإِنْ رَاجَيْكَ لَمْ
يَجِبْ ، فَمَا عَتَمَ الْقَصَابُ ، أَنْ زَمَحَرَ كَرَعِدِ السَّحَابِ ، وَأَخَذَ فِي الاضْطِرَابِ
وَالِاضْطِعَابِ ، وَأَسْرَعَ فِي السَّلَمِ الْأَنْصِيَابِ ، فَلَمَّا سَمِعَ زَيْدَ الْعِيَاطَ وَالْخِيَاطَ ،
وَزَمَاجِرَ الْهِيَاطِ وَالْمِيَاطِ ، بُهِتَ وَأَخَذَهُ الضَّرَاطُ ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ فِي بَغْثَةٍ^(٣٢)
وَعُدْمَةٍ^(٣٣) ، وَتَزَيَّا بِصُورَةٍ بِشَعْرَةٍ مُنْكَرَةٍ ، وَخَطَفَ مِنْ يَدِهِ الْعَصَا ، وَضَرَبَهُ بِهَا

(٢٨) الْمِغْفَرُ : زُرْدٌ يَنْسُجُ مِنَ الدَّرْعِ عَلَى قَلْبِ الرَّاسِ ، يَلْبَسُ تَحْتَ الْقَلَنْسُوَةِ .

(٢٩) الْمَفْتَاتُ : الَّذِي يَنْقُصُ بِرَأْيِهِ وَيُخَلِّقُهُ . (وَالْعُمَرَةُ خُلْفَةُ) .

(٣٠) الْبَرِيُّ : غُفَّافُ الْبَرِيَّةِ .

(٣١) الزَّيْنِيُّ أَصْلُهَا الشَّرْطِي ، وَجَمْعُهَا زَيَانِيَّةٌ ، أَيُّ الشَّرْطِ ، وَسَمِيَ بِهَا بَعْضُ الْمَلَائِكَةِ لِذُنُوبِهِمْ أَهْلُ النَّارِ إِلَيْهَا .

وَالْفَعْلُ زَيْنٌ يَعْنِي دَفَعَ وَرَمَى بِالشَّيْءِ .

(٣٢) الْبَغْثَةُ : الْكَلَامُ السَّرِيعُ الْغَاظِبُ عَلَى غَيْرِ نَقْلٍ .

(٣٣) الْعُدْمَةُ : الصَّحْبُ وَالْغَضَبُ وَاتِّخَالُطُ الْكَلَامِ وَالصَّبَاحُ .

حتى شصا^(٣٤) ، وقال : أَيُّ أَنْحَسَ دَمِيم ، وَأَتَعَسَ زَنِيم^(٣٥) ، أَمَّا زَجْرَكَ وَنَهَاكَ ، وَكَفَّاكَ وَكَفَّاكَ ، مَنْ تَقَدَّمَ مِنَ الْأَمْلَاك ، أَيْمُ اللَّهُ لَيْنٌ لَمْ تَرْكُهَا ، وَفِي مَالِكَ وَمَنَالِكَ تُشْرِكُهَا ، لَتُدْمَرَنَّ دِيَارُكَ ، وَلَتَمُحُوَنَّ أَثَارُكَ ، ثُمَّ تَرْكُهُ وَذَهَب ، وَأَوْدَعَهُ جَمْرَ اللَّهَب .

فلما رأى الحال نَسِجَتْ عَلَى هَذَا النُّوَال ، اسْتَكَانَ ، وَطَلَب الْأَمَانَ ، وَمَجَّكَ^(٣٦) عَيْنِيهِ ، وَضَمَّ يَدَيْهِ وَرَجَلِيهِ ، وَجَعَلَ يَتَأَوَّه مِنْ أَلَمِ الضَّرَاب . وَقَالَ كَأَنَّ الدُّعَاءَ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ مُسْتَجَاب . ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ كَرْبِهِ ، وَخُرْقَةِ قَلْبِهِ : إِلَهِي وَمَوْلَايَ ، كَمَا اسْتَجَبْتَ دُعَائَهَا اسْتَجِبْ دُعَايَ ، وَكَمَا أَنْزَلْتَ مِنَ السَّمَاءِ لِنَصْرِهَا مُلُوكَهَا ، فَأَخْرِجْهَا مِنَ الْأَرْضِ عَفْرِتًا]^(٣٧) وَلْيَكُنْ ذَلِكَ بِمَرَأَى مِنْ عَيْنِي وَأَمَامِي ، حَتَّى يَسْكُنَ قَلْبِي وَيَبْرُدَ أَوَامِي^(٣٨) . فَمَا صَدَّقَ صَاحِبُ التَّنُورِ ، حِينَ سَمِعَ الدُّعَاءَ الْمَذْكُورَ ، وَالنَّدَاءَ الْمَقْبُولَ الْمَشْكُورَ ، حَتَّى طَفَرَ مِنْ مَحْشِيهِ كَالْقِسَاطِ الْمَسْجُورِ^(٣٩) ، وَأَقَامَ أَمَامَ لُحُوهِ الْمَصَابِّ ، وَاسْتَعْمَلَ مِنْ قَوَاعِدِ النُّحُوحِ الرِّفْعَ وَالْجُرْأَ وَالِانْتِصَابَ ، وَرَفَعَ الْعُمُودَيْنِ ، وَأَوَّلَجَهُ الْمَحْرَابَ ، وَلَا زَالَ ذَلِكَ الْإِمَامَ ، يَبْرُدُّ فِي الْبَيْتِ الْحَرَامِ ، وَقَدْ نَالَ فِي الْحَرَمِ أَمْنًا ، حَتَّى رَمَى الْجُمُعَاتِ وَأَمْنَى ، ثُمَّ قَبَّلَ فَاها ، وَخَرَجَ مُسْرِعًا مِنْ ذَرَاهَا ، وَخَلَّى الدَّارَ تَتَعَيَّ مَنْ بَنَاهَا . فَفَتَحَ زَيْدٌ عَيْنِيهِ ، وَحَمَلَنِي حَوَالِيهِ ، ثُمَّ قَالَ : يَا أَفْظَرَ الْقِحَابِ ، هَكَذَا يَكُونُ الدُّعَاءُ الْمُسْتَجَاب !

(٣٤) شصا : انتفخ وارتفعت يده ورجلاه .

(٣٥) زَنِيم : اللص المَعْرُوف بِشَرِّهِ .

(٣٦) مَجَّكَ عَيْنِيهِ : دَخَلَ كَوْ ذَلِكْ عَيْنِيهِ فَلِكَاشِدِيدَا ، غَيْرَ مُصَلِّقٍ مَا تَرَاهُ عَيْنُهُ مِنْ أَمْرٍ وَاقِعٍ .

(٣٧) كَلِمَةٌ مُعَادِشَةٌ لِحَيَاءِ الْبَعْضِ .

(٣٨) الْأَوَامِ : حَرَارَةُ الْعَطَشِ (النَّارُ الْمُتَقَدَّةُ فِي قَلْبِهِ) .

(٣٩) الْمَسْجُورُ : الْمُتَقَدِّدُ .

وإنما أوردتُ هذا الكلام ، والتمثيلَ لك يا إمام ، ليتبينَ لكلِّ عالمٍ همام ،
وليتبصرَ أولو العقل والأفهام ، الفرقَ ما بينَ قضايا الحسِّ والعقلِ والأوهام ، وقد
شُبِّهَ العقلُ بجبلٍ عالٍ ، عزيزِ المثال ، وكلُّ مَنْ قَصَدَ الصعودَ إليه ، والارتقاءَ عليه ،
لا يصعدُهُ إلاَّ من طريقٍ واحدةٍ ، منها يوصلُ منه إلى الفائدة . وسلوكُ طريقِ المعاشرةِ
مع العقلاء ، وذوي الآراءِ والأذكياء ، في العداوةِ والصدقةِ ، والكندورةِ
والرياقة^(١٠) ، واللطافةِ والكثافةِ ، والخوفِ والرجاءِ ، والابتداءِ والانتهاءِ ، إنما هو
من بابِ مُتَّجِدٍ ، لا من طريقٍ متعددٍ . ولأجلِ هذا يا مُتَبَصِّرُ ، سلوكُ مثلي هذه
الطريقِ معهم مُتَبَسِّرٌ ، لا مُتَعَوِّجٌ ولا مُتَعَمِّسٌ ، ورأسُ خيطِ هذا السُّمُوطِ^(١١) ،
بالاستقامةِ والسلاحِ مضبوطٍ ، بخلافِ الجهالِ والخلعاءِ ، والحمقى والسُّفهاءِ ، فإنَّ
أمورَهم منفرطةٌ ، وأفكارَهم وآراءَهم غَيْرُ مُنَضَّبَةٍ ، فتكدرُ خُوارُ^(١٢) العقلاءِ في
تعليمهم ، وبما طيبُ الفكرِ في تَهْدِيهِ أَحْمَقِهِم وتأديبِ سَفِيهِهِم ، وقيل :

إني لَأَمَنُ مِنْ عَدُوِّ عَاقِلٍ وَأَخَافُ خِيَلًا يَعُودِي جُنُونُ
وَالْعَقْلُ لَنْ وَاحِدَةٍ وَطَرِيقَةٍ أَذْرَى وَأَرْصَدُ وَالْجُنُونُ فَنُونُ

ولهذا قيل : معاداةُ العاقلِ ، خيرٌ من مُصَافَاةِ الجاهلِ . ثم قالت غرغرة في أثناءِ هذه
القرقرة : وأما ما ذكرتُ من البيان ، من مفارقةِ الأوطان ، وتركِ هذا المكان ، أما
سمعتَ حديثَ أَشْرَفِ جنسِ الإنسانِ "أَنَّ حُبَّ الْوَطَنِ مِنَ الْإِيمَانِ" وقد أَلْفَنَّا وَطَنَنَا
وَحُبَّهُ ، وَقَلَّعَ أَصُولَ حَيَّتِهِ مِنْ قُلُوبِنَا صَعْبَهُ ، وهو في معزلٍ عن طُرُقِ الجوارحِ ،
وَمَكْمَنٍ عَنِ السَّوَانِحِ وَالْبَوَارِحِ ، وإنما تعرض لأولادِنَا تلكَ الآفةَ ، من تراكمِ
العساكرِ المصافاةِ ، وما يحصلُ من أقدامها من كثافةٍ ، وأنا أخافُ إِنْ اتَّقَلْنَا مِنْ هَذَا

^(١٠) الرياقة : الترتين والاحتفال والصفاء .

^(١١) السُّمُوطُ : مفردُها سُمُوطٌ ، وهو الخيطُ بما دام الحُرزُ ونحوه منظوماً فيه .

^(١٢) خُوارُ : صيحاتُ وأصواتُ المعلومين في تلاميذهم .

الوطن ، يخرجُ من أيدينا هذا السكن ، ولا نحصلُ على ما نؤى يليق ، أو لا توافِقنا الغربةُ أو يمنعُ مانعٌ في الطريق ، فنقصدُ الرِّيحَ فيلحِب رأسُ المال ، فنحسر ما في أيدينا في الحال ، ولا يحصلُ المأمولُ في الاستقبال ، وكيف وهو مسقطُ رأسنا ، ومحلُّ أنسنا وأناسنا ، فالأولى بنا الرضا ، والانقيادُ لأوامرِ القضا ، وملازمةُ الوطنِ القديم ، والسكونُ تحت تقديرِ يدِ العزيزِ العليم . وقد قيل : إنما يشقى العليلُ إذا تركَ مشتهياتِ نفسه ، وقيدَ مُتَمَنِّيَّاتِهِ في قيدِ حسيه ، ولا بدَّ للمُرِيدِ من تركِ المراد ، وللقانعِ من قطعِ النظرِ عن الازدياد ، والحريةِ في رفضِ الشهوات ، وكلُّ ما هو آتٍ .

وأما وقائعُ الأولاد ، وحصولُ الأنكاد ، وما يقعُ منها بسببهم في كلِّ أوان ، فنحسبُها إحدى ما يحدثُ لنا من نوائبِ الزمان ، ونحن بل كلِّ المخلوقات ، عرضةٌ للنوائبِ والآفات ، وطُعمَةٌ لسنابلِكِ المقدور ، ونَهْبَةٌ لحوادثِ الدهور ، ولو انتقلنا عن وطننا ، وتحولنا عن سكننا ، وبُعَدنا عن هذا الجانب ، ونزغنا عن الأهلِ والأقارب ، وجاورنا الأبعدَ والأجانب ، لا يطيبُ لنا مقام ، وتتكدَّرُ أوقاتنا على مرِّ الأيام ، فلا نزالَ بين تذكُّرِ للوطنِ المألوف ، ونحننِ إلى الصاحبِ المعروف ، فيسهلُ عند هذه الأنكال ، مفارقةُ الأطفال . ثم اعلم ، أيها الصاحبُ الأعظم ، أنه لو تيسرَ لنا مع الانتقال ، وانتظامُ الأمور واستقامةُ الأحوال ، وحفظتِ الأولاد ، وزالتِ الأنكاد ، وصفا الوقت ، وزال المقت ، فإنَّ الخاطرَ يشتغل ، ونار القلبِ بسببهم تشتعل ، فإنه من حين وجودِ الولد ، يتقيدُ بتعهده القلبُ والجسد ، وتُصرفُ الهمةُ إلى القيامِ بمصالحِ معاشه ، إلى حين ترعرعه وارتياشه ، ويزدادُ القلبُ تعلقاً بحبته ، ويتقيدُ الخاطرُ بالالتفاتِ إلى عمَلِ مصلحته ، ويتضاعفُ ذلك يوماً فَيَوْمًا ، وشهرًا فشهرًا وعمامًا فعمامًا . فإنَّ نابهَ والعياذُ باللهِ نحوَ ألم ، أو أصابهَ ضرٌّ

أو سَقَمَ ، التَّهَيَّبْتُ عَلَيْهِ الْجَوَارِحَ ، :وانقلبتُ الممومُ على القلبِ والجوانحِ ، فإنَّ آلَ ذلكِ إلى مَوْتٍ ، واستحال وجودُهُ إلى عدمٍ وقُوَّتٍ ، فهو المصيبةُ العظمى ، والطامةُ الكبرى . وإنَّ سَلِمَ من هذه العاهاتِ ، وبلغَ سِنَّ الإدراكِ سلماً من الآفاتِ ، ونجا إلى بَرِّ الشبابِ من بَحْرِ المخافاتِ ، إزدادتْ كَلَفَتُهُ ، وتضاعفتْ مَوْتُهُ ، وركبَ والداهُ في ذلكِ كلَّ صعبٍ وذلولٍ ، وزهدا من مسالكِ الكَدِّ والكَدْحِ في كلِّ بَعْضٍ وطولٍ ، وتحملا أنواعِ المشاقِّ والآثامِ ، وارتكبا فيما اكتسبا أصنافاً من الحلالِ والحرامِ ، وهذا إذا كان مُطيعاً ، ولأَوْبَرِهِمَا مُنْقَاداً سَميعاً . وأما إذا ركبَ جُمُوحَ العُتُوقِ ، ونسي ما لهما عليه من حقوقٍ ، فهي مصيبةٌ أخرى ، وداهيةٌ كبرى ، ويصيرُ كما قيل :

وَيَنْ كَكِدِ الدُّنْيَا عَلَى الْحُرِّ أَنَا يَرَى غَدَاؤُا لَهُ مَا مِنْ صَدَاقَتِهِ بُدُ

وعلى كلِّ تقديرٍ ، وأنتَ بهذا خيرٍ ، وبقائِقِهِ عليمٌ ، إن الأولادَ بين الأبوين وبين الآخرةِ سدٌّ عظيمٌ ، ما يخلصُ مع الالتفاتِ إليهم اللهُ طاعةً ، ولا على الانقطاعِ منهم إلى طريقِ الآخرةِ استطاعةً .

وناهيكَ إذا الذكاءِ والفطنةِ ، إِبْخَارُ مَنْ أَنْقَذَكَ مِنْ هَذِهِ الْحَنَةِ ، إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ . فاسمِعْ هذا الكلامَ بأذُنِ التحقيقِ ، واسئَلْ في سَبْرِ معانيه أَوْضَحَ طريقٍ ، وحَقِّقْ إذا الإرشادَ ، أنَّ وجودَ الأولادِ ، عند ذوي البصيرةِ من النقادِ ، نقدٌ مُرِيْفٌ ، ومتاعٌ مُزْخَرَفٌ ، وسُمٌّْ تحتَ حُلُوى ، وسُرُورٌ فوقَ بَلُوى ، وعاريةٌ مُرْثُودَةٌ ، بعد أوقاتٍ معدودةٍ ، وأيامٍ معدودةٍ ، بل لُغْبَةٌ مِنْ غَضَبٍ ، مُوَهَّاةٌ بِالذَّهَبِ ، وطلاءٌ مِنْ نُضارٍ ، على كُوبٍ مِنْ فُخارٍ ، وقد نُبِّهَ على هذا ربُّ العبادِ ، بقوله ﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ . وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ

وَالْأَوْلَادُ^(٦٦) وكما أنَّ الأطفال الصغار ، الغافلين عن دقائق الأسرار ، إذا نظروا إلى اللعبة المزيّنة ، والحُشِيِّاتِ الْمُصْبَغَةِ الْمُسْتَحْسَنَةِ ، التَّهَوَّأَ بها عن اكتسابِ الآداب ، وملازمة العلماء والمشايخ والكتاب ، فيبلغون وهم جاهلون ، وعن طرقِ اكتسابِ الكمالِ ذاهلون ، ويشيرون وهم أخذاث ، ويتصورون أنَّهم طاهرون وهم أحيات ، كذلك كلُّ مَنْ التفتَ إلى غيرِ اللهِ خاطِئُهُ ، والتَّهتَّ بِأُمُورِ الدُّنْيَا مِنَ الْمَالِ وَالْوَلَدِ سرائره وضمائره ، وحُرِّمَ من الاطلاع على دقائق الملكِ والمَلَكُوتِ^(٦٧) ، وفاته لذاتِ الوقوفِ على دقائق الرغبات والرغبات ، فهو عن الله تعالى محجوب ، وفي عساكرِ الأمواتِ وإن كان حياً محسوب ، كما قيل :

وَيَا الْجَهْلَ قَبْلَ الْمَوْتِ مَوْتُ لَأَهْلِهِ وَأَجْسَادُهُمْ ذُونَ الْقُبُورِ قُبُورُ
وإن أفرأ لم يُخَيِّ بِالْعِلْمِ قَلْبُهُ فَلَيْسَ لَهُ حَتَّى النُّشُورِ نُشُورُ

قال الله تعالى وكلمته العليا ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾^(٦٨) وهذا صريحٌ بالشهادة على ما نقلته ، وحلّوتِ صدأ قلبك بتقريره وصقلته ، فَلَا تَكُونَنَّ لَاهٍ^(٦٩) ، وَلَا تُغْلَقَنَّ قَلْبَكَ بِغَيْرِ اللَّهِ ، قَوْلًا وَاعْتِقَادًا وَعَمَلًا ، فالباقيات الصالحات خيرٌ عند ربك ثواباً وخيرٌ أملاً ، واجهذ يا حبيبُ في إصلاحِ قلبك الكريم ، واصغِ لما قاله الحكيمُ الحلِيم ، متحرِّزاً من نكايَةِ العذابِ الأليم ، عاملاً بما يُرضي السميعَ العليم ، ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾^(٧٠) وإذا علمتَ هذا وحقيقته ، وحرورته وصدقته ، فاعلم أنَّ الأولى بحالنا ، والأحسن للنظرِ في مآلنا ، أن

^(٦٦) قرآن كريم ، سورة الحديد : ٢٠ .

^(٦٧) الملكوت : عالم الغيب المختص بالأرواح والنفوس والمعانيب ..

^(٦٨) قرآن كريم ، سورة الكهف : ٤٦ .

^(٦٩) الصواب : لاهيا ، (من ضرورات السجع) .

^(٧٠) قرآن كريم ، سورة الشعراء : ٨٨ ، ٨٩ .

نعدّ ما نحن فيه من جُمْلَةِ النّعم ، وأنّ هذا الذي قُسمَ لنا من القِسَم ، فى القِدَم ،
وأنّ لا ننقل عن دائرة الرضا والتسليم قدماً عن قَدَم ، وننظر ما يتولّد من حوادث
الزّمان ، ولا نرخي في ميدان الطمع العنان ، ونعرض على جامع الخاطر ، ما قال
الشاعر :

كم نارِ باديةٍ شُبّتَ لغيرِ فرى على بقاعٍ وكم نورٍ بلا قمرٍ
هونَ عليكِ أموراً أنت تُكرّها فالنّهرُ يأتي بأنواعٍ من العبرِ :

قال النجديّ : جميعُ هذا المقول ، صادرٌ من مواردِ العقول ، موافقٌ لما ورَدَ به
المنقول ، لقد غُصّت في بحرِ الفِطنة ، على جواهرِ الحكمة ، فما تركت في ميدان
المسائل ، مقالاً لقائلٍ ، ولا مجالاً لجائل ، ولكن لا ينبغي للعاقل ، أن يغفل عن
حوادثِ الدهر ، ولا يستدّ ظهراً لكواذبِ العصر ، فإن طوارقَ الآفات ، وخوارقَ
العادات ، ومحنَ الزّمان ، وفنّ الدوران ، محتجّة وراءَ أستار ، ومستورة في أنواع
أطوار ، من الفلكِ الدوّار ، له فى عِلْمِ الأدوار ، لُعيّساتٌ أبكار ، يبرزها للنظّار ،
قتلعبُ بالأمكار ، ويذهبُ فى سنا برقٍ غاويرها إبصارُ الأبصار ، ويخطئُ فى
حركاتها الرأى المصيب ، ويُدْهَشُ فى دُجى جنديسها^(٤٨) الفطين الأريب ، وقد
بادتُ الفكرَ ، وعجزتُ القوى والقدر ، وحارت عقول البشر ، دون إدراكِ ما
يبرزه كلُّ وقتٍ من الصُّور ، من وراءِ سترِ الغيبِ مستعداً للقضاء والقدر ، ولم
يعهد من الدهرِ الحنون ، والزمانِ المحنون ، إذا استقام أو قزل^(٤٩) ، أوجد أو هزل ،
أو أمرَ بنازلٍ فنزل ، أو ولى أو عَزَل ، أو أقبل أو اعتزل ، أو نقض أو غول ، أن
يُرسَل قبل ذلك مُنذراً ، أو مُبصراً أو مُحذراً ، ليستيقظ النائم ، أو ينهض الجاثم ،

(٤٨) الجنيس : الليل الشديد الظلمة .

(٤٩) قول : مشى مشية المقطوع الرجل .

أو يتحرك القائم ، وإنما يحطمُ بهتة ، ويهجمُ في سكتة ، ويأخذُ على بهتة ، فلا يُفْلِتُ منه فتنة ، ولا يعمل إلى لحظةٍ ولا لَفْتَةٍ ، وقد قيل :

يا راقدة اللَّيْلِ مُسْرُوراً بِأَوَّلِهِ إِنَّ الْحَوَادِثَ لَذَلِكَ يَطْرُقْنَ أَسْحَاراً
لَا تَرْتَكِنُ لِلْجَلِيلِ طَابَ أَوَّلُهُ قُرْبُ أَخِيرِ كَيْلٍ أَوَّلُهُ النَّارُ

وعلى هذا لو وقع منا غفلة أو ذهول ، عند قدومِ هذا الجيشِ المهول ، فاحترق^(٥٠) والعياذُ بالله واحداً منا ، ونحن أحسنُ ما نكونُ سكوناً وأمناً ، فكيف تَرَيْنَ يبقى حالُ الآخر ، وهل يصيرُ إلا كما قال الشاعر :

ما حالٌ مَنْ كَانَ لَهُ وَاحِدٌ يُؤْخَذُ مِنْهُ ذَلِكَ الْوَاحِدُ

وإذا بقي أحدنا منفرداً ، وانزل متوحداً ، ماذا يقيده الوطن ، والجيران والسكن ، وهل تقي لَذَّةَ وصالِ أَلْفِي سَنَةٍ ، بِأَلَمِ فِرَاقِ تِلْكَ السَّاعَةِ الْخَشَنَةِ ، كما قيل :

إِنْ كَانَ فِرَاقُنَا عَلَى الْبَحْثِيقِ هَذِهِ كَيْلِدِي أَحَقُّ بِالْعَمْرِيقِ
لَوْ دَامَ لَنَا الْوِصَالُ أَلْفِي سَنَةٍ مَا كَانَ يَلْقَى بِسَاعَةِ الْفُتْرِيقِ

وقال أيضاً :

لَا كَانَ فِي الدُّهْرِ يَوْمٌ لَا أَرَاكَ بِهِ وَلَا بَدَتْ فِيهِ لَا شَمْسٌ وَلَا قَمَرٌ

وكلُّ مَنْ لم يفتكر في العواقبِ قبلَ حُلُولِهَا ، ويتأمل في تَدَارُكِهَا بِقَدْرِ الطَّاقَةِ أَقْبَلَ نَزْوِهَا ، ويطمئن إلى سكونِ الزمان ، ويسند ظهره إلى مَسْنَدِ الحَدَثَانِ ، ويحيل الكوائنَ على القضاءِ والقَدَرِ ، ويرفع يَدَ التَّدْبِيرِ عن تعاطي أسبابِ الخذلانِ كَانَ كَمَنْ تَرَكَ إِحْدَى زَامِلَتَيْهِ^(٥١) فارغة ، وحشا الأخرى من الأحجارِ الثقيلةِ الدامغة ، فأني يستقيمُ محمَّله ، أو يُلَغُ منزله ، فلا يزالُ حِمْلُهُ مائلاً ، وخطْبُهُ هائلاً ، فالعاقلُ

(٥٠) احترق : يقال احترمت المنيّة : أخلته . واحترق الجيش أحدهم : قضى عليه وقته .

(٥١) الزاملة : ما يحمل عليه من الإبل ونحوها .

يسعى فيما يظنُّ نفعه ، ويبذلُ في ذلك غايةَ جهدهِ وُوسعيه ، ولا يتركُ الطلبَ ، ولا يغفلُ عن السببِ ، ويعملُ بموجب ما قيل :

فَلَا وَابَيْكَ لَا أَذْغُ اخْتِطَاطِي وَمَا لِي فِي قَضَاءِ اللَّهِ حِيَلَه

وعلى كلِّ حال ، يارثةُ الحيحَال ، تعاطي الأسبابِ لا يقدحُ في الاتِّكَال ، وناهيكُ يا مليحةُ العمل ، حكايةُ الحمارِ مع الجمل . فسألتُ غَرْغَرَةَ ، أن يبينَ ذلك ويذكره .

[٢/٨] حكايةُ الحمارِ مع الجمل

قال : بلغني ، أنه تراقفُ في المسير ، غيرٌ^(١٢) مع بعير ، فكان الحمار ، كثيرَ العثار ، مع أنَّ عينيه ، تراقبُ مواطئَ رجليه ، وكان الجملُ على عِظَمِ هامتهِ ، وعُلُوِّ قامتهِ ، ويُعَدُّ عينيه ، عن مواطئِ يديه ورجليه ، لا تَزِلُّ له قَدَمٌ ، ولا يصلُ إليه ألم . فقال الحمارُ للبعير : أيُّها الرفيقُ الكبير ، ما بالي في المسير ، كثيرَ التمشيز ، دائمِ الوقوعِ والزَل ، والعتارِ والخطل ، لا أخلو من حَجَرٍ يذْسي مِنِّي الحافر ، أو عثرةٍ ترميني في حفرةٍ حافر ، مع أنَّ عيني ، تراقبُ يدي ، ولا تنظرُ سواهما إلى شيء ، وأنتَ لا تنظرُ مواطئَ أخفافِكَ ، ولا تعرفُ على ماذا تقعُ رؤوسُ أطرافِكَ ، لا حَجَرٌ يصيبُ خُفَّكَ ، ولا شوكةٌ تخْرِقُ كَفَّكَ ، ولا حَوْرَةٌ تقعُ فيها ، ولا تَحْتَلُّ عن طريقِ تمشيها ، ولا أدري هذا مِمَّاذا ؟ قال أبو صابر : يا أخي نظركُ قاصر ، وفكرُك غيرُ باصر ، لا تراقبُ ما بين يديك ، ولا تنظرُ ما أمامك أَلَيْكَ أم عليك ، فإذا دهَمَكَ ما دهاك ، عَجَزَ عنه نُهاك ، فلا تشعرُ إلا وقد وَقَعْتَ ، وانخرق ما رَقَعْتَ ، فلا يَمَكُنُكَ التدارُكُ والتلاف ، إلا وأنتَ رهينُ التلاف ، وأما أنا فأراقب ، ما يصيرُ من العواقب ، وأنظرُ أمامي الطريقَ على بُعد ، فأميزُ المسلوكَ من قبلُ ومن

(١٢) البهر : الحمار .

بَعْدَ ، فلا اَصْلُ إلى صَغِيرٍ إلا وقد أَذْلَلْتَهُ ، ولا إلى وَغَرٍ إلا وقد سَهَّاتَهُ ، ولا إلى وَهْدَةٍ إلا وقد عَرَفْتُ طَرِيقَهَا ، ولا إلى عَقَبَةٍ إلا وقد كَشَفْتُ وَاسِعَهَا وَمُضِيقَهَا ، فَأَسْتَعِيدُ لِلأَمْرِ قَبْلَ نَزْوِلِهِ ، وَأَتَأَهَّبُ لِلخُطْبِ قَبْلَ حُلُولِهِ ، وَأَحْتَالُ لِقَطْعِهِ قَبْلَ وَصُولِهِ ، وَأَحْلُهُ قَبْلَ أَنْ يُعْقَدَ ، وَأَقِيمُهُ دُونَ أَنْ يُقْعَدَ ، وهذه قَاعِدَةٌ لِلْفُقَهَاءِ ، وَأَصْلُ كَبِيرٍ لِلْحُكَمَاءِ مِنَ الْعُلَمَاءِ ، إِنَّهُمْ قَالُوا : إِنَّ الدَّفْعَ أَهْوَنُ مِنَ الرَّفْعِ . وَمِنْ كَلَامِ الْأَلْبَاءِ ، وَأَصُولُ حُذَاقِ الْأَطْبَاءِ ، قَوْلُهُ :

الطِّيبُ جَفِظَ صِيحَةً بُرْءَ مَرَضٍ مِنْ سَبَبٍ فِي بَدَنِ إِذَا عَرَضَ

وإنما أوردتُ هذا المثلَّ ، عن الحنَّانِ والجَمَلِ ، لتعلمي يَاسْتُ الْحَجَلُ ، أَنَّهُ لَا بَدَّ لَنَا مِنْ أَخْذِ الْأَهْبَةِ ، قَبْلَ النُّكْبَةِ ، فَمَا كُلُّ مَرَّةٍ ، تَسْلَمُ الْجُرَّةُ ، وَقَدْ قَرَّبَ وَقْتُ وَضْعِ الْبَيْضِ ، وَبَعْدَهُ يَنْهَضُنَا مِنْ سَبِيلِ الْعَسْكَرِ الْفَيْضِ ، فلا بدَّ مِنْ إِعْمَالِ الْفِكْرِ الْمَصِيبِ ، فِي وَجْهِ الْخِلَاصِ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ الْعَصِيبِ ، كَمَا قِيلَ :

* مَهَذِّبُ نَفْسِكَ قَبْلَ النَّوْمِ مُضْطَظِّمًا *

قَالَتْ غُرْغُرَةٌ ، الْحَكِيمَةُ الْمُدَبِّرَةُ : جَمِيعُ هَذِهِ الْأَخْبَارِ ، لَا تَخْلُو عَنْ دَقِيقِ الْأَنْظَارِ ، وَتَحْقِيقِ مَصِيبِ الْأَفْكَارِ ، وَغَامِضِ مَعَانِي الْأَسْرَارِ ، وَكُلُّ عَاقِلٍ يَقْبَلُهُ وَيُقْبَلُ بِهِ ، وَمِمْتَلَّةٌ وَيُقْبَلُ عَلَيْهِ ، وَكُلُّ فَكْرٍ مَصِيبٍ يَجْشُو لِلْإِقْتِبَاسِ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَلَكِنْ طُلَّابُ الْأَغْرَاضِ الدُّنْيَوِيَّةِ ، وَالْمَسَارِعُونَ إِلَى إِنْتِالِ الْمُرَادَاتِ وَالْأُمْنِيَّةِ ، عَلَى فِرَاقِ شَتَّى ، وَأَنَا أَفْصَلُهُمْ حَتْمًا ، مِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ الْأَمَالَ ، بِقُوَّةِ الْجَنْدِ وَبِذَلِ الْأَمْوَالِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَسَاعِدُهُ الدَّهْرُ ، وَيُعَايِدُهُ مُعَاوِنُ الْعَصْرِ ، وَيَنْهَضُ لَهُ مُسْعِدُ التَّقْدِيرِ ، فَيَقُومُ مَعَهُ كُلُّ كَبِيرٍ وَصَغِيرٍ ، كَمَا قِيلَ :

وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ نُصْرَةَ عَبْدِهِ كَانَتْ لَهُ أَعْدَاؤُهُ أَنْصَارًا

فَيَقِضُ لَهُ الْمُسَاعَدَ ، وَيَعُضِدُهُ الْقَرِيبُ وَالْمُبَاعَدَ ، فَلَا يَحْتَاجُ إِلَى كَبِيرٍ سَعَى ، وَلَا فِي اسْتِمَاعِ النَّصِيحَةِ وَنَفْعِهَا إِلَى وَغَى ، بَلْ يَصِلُ إِلَى قُصْدِهِ ، بِدُونِ كَدِّهِ ، وَبِغَيْرِ جَهْدِهِ

وَجَدَهُ ، فَمَهْمَا فَعَلَ أُنْجَحَ ، وَمَهْمَا قَصِدَ أَفْلَحَ ، وَحَيْثَمَا تَوَجَّهَ أَرْبَحَ ، وَأَيْنَمَا مَالَ أَرْجَحَ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَحْتَاجُ إِلَى جَهْدٍ جَهْدٍ ، وَسَعْيٍ مَدِيدٍ ، وَكَدٍّ طَوِيلٍ عَرِيضٍ ، وَجَدٍّ عَرِيضٍ ، غَيْرِ غَرِيضٍ^(٢٧) ، مَعَ مَسَاعِدٍ نَاصِحٍ ، وَمَعَاوِنٍ صَالِحٍ ، وَتَعَاوِيِ اسْبَابٍ ، وَفَرْعِ أَبْوَابٍ ، وَفِكْرِ دَقِيقٍ ، وَمَسْعَرٍ رَفِيقٍ ، حَتَّى يَبْلُغَ مُرَادَهُ ، وَيَصِلَ إِلَى مَا أَرَادَهُ . وَمِنْهُمْ مَنْ تَغَلَّبُ عَلَيْهِ الْعَجَلَةُ وَالطَّمَعُ ، وَشِدَّةُ الْحَرْصِ وَالْهَلَعُ ، فَيَسَارِعُ إِلَى نَيْلِ مَا يَرُودُهُ ، فَيُلْقِيهِ فِي هَوَاةِ الْحِرْمَانِ حَرْصُهُ وَشَوْمُهُ ، فَيَقْعُ مِنَ التَّعْبِ وَالنَّصَبِ فِي هَوَاةٍ ، وَيُحْرَمُ لِكَوْنِهِ اعْتَمَدَ عَلَى مَا لَهُ مِنْ حَوْلٍ وَقُوَّةٍ ، فَيَصِيرُ كَمَا قِيلَ :

الْجِرْصُ قُوَّتِي ذَهَبِي قُوَّةَ الْبَدَاةِ فَكَلَّمَا زِدْتُ جِرْصًا زَادَ قُوَّتِيَا

وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَمَنَّى تَمَنًى يَتَكَاسَلُ ، وَيَرْجُو وَيَتَرَقَّبُ وَيَتَسَاهَلُ ، فَيُحْرَمُ مَقْصَدَهُ ، وَيَرَدُّ عَجْزُهُ عَنْ مَرَادِهِ يَدَهُ .

وَقَدْ قِيلَ فِي الْمَثَلِ " تَزَوَّجَ التَّوَانِي بِنْتَ الْكَسَلِ ، فَأَوَّلَدَ الزَّوْجَانِ ، الْفَقْرَ وَالْجِرْمَانَ " فَانْظُرْ يَا ذَا الرُّكُونِ ، وَالْوَقَارِ وَالسَّكُونِ ، نَحْنُ مِنْ أَيْ هَذِهِ الْفِرْقِ نَكُونُ ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّا لَا نَقْدِرُ عَلَى مَقَاوِمِ الْعُقَابِ ، وَلَا أَنْ نُدْفِعَ عَنْ أَنْفُسِنَا مَا يُنْزِلُ بِنَا مِنْ عِقَابٍ ، فَإِنَّهُ إِذَا طَارَ الْعُقَابُ ، يَبْلُغُ الثَّرِيَا السَّحَابُ ، وَنَحْنُ إِذَا تَحَرَّكْنَا فِي الْهَوَا ، فَلَا نَقْدِرُ أَنْ نَرْتَفِعَ عَنْ وَجْهِ الثَّرَى ، وَقَدْ قِيلَ فِي الْمَثَلِ كَمَا تَرَى : أَيْمَنُ الثَّرِيَا مِنَ الثَّرَى^(٢٨) . وَقِيلَ مَنْ تَعَلَّقَ بِخَصْمٍ هُوَ أَقْوَى مِنْهُ فَقَدْ سَعَى فِي هَلَاكِ نَفْسِهِ بِرَجْلِهِ ، وَوَضَعَ تَرَابَ الدَّمَارِ عَلَى رَأْسِهِ بِيَدِهِ ، وَكَتَبُ يَا بَدْرِي ، أَنْشَدْتُكَ مِنْ شِعْرِي :

وَمَنْ يَتَشَبَّثْ فِي الْعَدَاوَةِ كَهْةً بِأَكْبَرِ مَنْهُ فَهُوَ لَا شَكَّ هَالِكٌ .

(٢٧) غريض : طري ، ضعيف .

(٢٨) الثريا : مجموعة من النجوم ، والثرى : الأرض .

وكان مثله مثل النملة الخفيفة ، التي نبئت لها أجنحة ضعيفة ، فتحرّكها دواعي الطيران ، فتصوّر أنها صارت كالنسور والعقبان ، فبمجرّد ما ترتفع عن الثرى ، إلى الهواء ، التقمها عصفور ، أو يحطفها أصغر الطيور ، ولهذا قيل :

إِذَا مَا أَرَادَ اللَّهُ إِهْلَاكَ نَعْلَمِ أَطَالَ جَنَاحُهَا فَمِيقَتْ إِلَى الْعُطْبِ .

ونحن ما لنا اطلاع على مكّامين الغيب ، فنزّه نفسك عن هواجس الرّيب ، وليس لنا مساعد ، من الأقارب والأبعد ، ولا لنا مال ، ولا خيل ولا رجال ، ونحن أقلّ من أن يساعدنا زمان ، أو يعيننا على العقاب أعوان ، فلم يسق إلّا الركون ، والالتكّال على حركات السكون ، فماذا ندرى غداً ماذا يكون . واعلم أن حركاتنا مع العقاب ، والجامع لنا معه من الأسباب ، متحدة في الحقيقة ، وطريقتنا معه من جنس ما له من طريقة ، وهي الطيريّة ، وكلنا فيها سوّية ، وهو منها كأعجاز القرآن من الفصاحة في الطرق الأعلى ، ونحن منها كأصوات الحيوان في الطرق الأدنى ، فالأولى بحالنا الاصطبار ، إلّا أن يصلّ لكسرنا من عالم الغيب انجبار ، كما قيل :

مَهْلًا أَبَا الصَّبْرِ فَكَمْ نَطَائِرٌ خَسِرَ صَرِيحاً بَعْدَ تَخْلِيْقٍ :
زُوْجَتْ نَعْمَى لَمْ تَكُنْ كُفَاهَا أَذْنَهَا اللَّهُ بِتَطْلِيْقٍ .

وقيل :

الْأَمْرُ يَخْذُلُ بَعْدَهُ الْأَمْرُ وَالْعُسْرُ مُقْفَرٌ بِهِ الْيُسْرُ
وَحَلَاوَةُ الصَّبْرِ مِنْ عَسَلٍ تَلْهِي وَإِنْ حَلَاوَتِي الصَّبْرِ
وَالصَّبْرُ يَغْقُبُ بَعْدَهُ شُكْرٌ مِنْ يَغْمَةِ تَأْتِيكَ أَوْ أَجْرُ

فقال الذكر : هذه الفكر ، من الصواب قريب ، وسهّمها عند أولي البصائر والتجارب مصيب ، ولكن من يتكلّل بوفاء العمر الغدار ، والإيصال إلى الأوطار ، ويقوم بالأمن من حوادث الليل والنهار ، وأنسى إنشادي ، في الوادي ، يا زين النادي ، وجمال الحاضر والبادي :

لَيْسَ بِمَادُونُ فِي تَسْلِيمِ رُوحِي آتَانِي مِنْ وَرَائِي مَنْ يَحُوقُ
وَأَنْ أَسْرَعْتَ نَحْوَ الْمَوْصِلِ غَدْرًا فَعُمُورِي مِنْ وَرَا ظَهْرِي يَسُوقُ

ثم قال النحدي : والرأي السليدُ عندي ، والذي أعيدُ فيه وأبدي ، أن تتوجهَ إلى حضرة العقاب ، ونكشفَ عن وَجْهِ مرادنا لديه النقاب ، ونطلبَ منه الأمان ، من عوادي الدهر ونكبات الزمان ، ونستظلَّ بِجناح عاطفته ونتنظمَ في سلكِ جماعته ، وخدمته ، فإنه ملكُ الطيور ، وَيَبْدُو أَزْمَةٌ^(٥٥) الجمهور ، وهو وإن كان سلطانَ الجوارح والكواسر ، وشيئته سفكُ الدماءِ والتمزيقُ بمخاليبه النواصر ، لكنه ملكٌ عالى الهمة ، ومن شَيْمِ الملوكِ الشفقةُ والرحمة ، ولا تقتضي هِمَّتُه العالية ، إلا الشفقة الوافية ، خصوصاً على مَنْ يرمي لديه ، ويتنمي إليه ، ولا تدعُه شيمته الآبية ، وهِمَّتُه العاليةُ الحمية ، وشبائلُه الشهمةُ الملوكية ، أن يتعرضَ إلينا بضرر ، أو أن يطرأَ إلينا منه شرر .

قالت غرغرة ، بعد الاستغراب في الكركرة : العجبُ كُلُّ العجب ، من رأيك المنتخب ، أنك تخلطُ منه الغثَ بالسمين ، وتسوقُ فيه المحنَّ^(٥٦) مع المحين ، فتارة تصيبُ خَدَقَةَ الغرض ، وأخرى تصرفُ السَّهْمَ حيثُ عَرَضَ ، فتصيرُ كما قيل :
تَلَوْتُ حَتَّى لَسْتُ أَذْرِي مِنَ الْهَوَى أَرِيحُ جُوبَ أَنْتِ أَمْ رِيحُ شَمَالٍ

هذه المصائبُ التي نشكوها ، والنوائبُ التي نقرأ سُورَها وتتلوها ، هل هي غيرُ ما نقاسيه من العذاب ، ونعانيه من أليم العقاب ، في لحظةٍ من ملاقاتِ عسكرِ العقاب ، ثم إنك أنتَ تحرَّكت ، في آرائك وسكتك ، وشرقتَ في أفكارك وغربت ، وتباعدتَ وتقربت ، وارتفعتَ وحطَّطت ، وامتنعتَ وسقطت ، وجلتَ وحمت ،

(٥٥) أزمَةٌ : قيادة .

(٥٦) المحنَّ ، من الأشياء : أجودها وأكرمها أصلاً ، وعكسها المحين .

وقعدت وقُمت ، ثم أسفر رأيك السديد ، وفكرك الرشيد ، وأمرُك السعيد ، عن أن تجرنا بسلاسل الحديد ، إلى العذاب الشديد ، وتخلدنا فيه الدهر اللديد ، ولا والله بل تريد ، أن نمشي بأرجلنا إلى الشبكة ، ونلقي بأيدينا أنفسنا إلى التهلكة ، وقد أشبهت في هذه الحركة ، مالك الحزين والسمكة . فقال النجدي ، لابنة السعدي ، أرحمي وغي :

* شكوى الجريح إلى العقبان والرُخم^(٥٧) *

فقال له أزل الغصة ، بقص هذه القصة .

[٣/٩] قصة مالك الحزين والسمكة

فقال : كان في بعض المروج ، من قرى سروج ، نهْرٌ كثيرُ الحيتان : شديدُ الجريان ، وفي مكانٍ منه مصون ، مأوى للمالك الحزين البلشون . فكان يتصرف في السمك ، تصرف المالك فيما ملَّك ، قضى في ذلك عمره ، وزجى أوقاته في طيب عيشٍ ومسرة ، إلى أن أدركه المشيب ، ورحل عنه العمرُ القشيب ، وكساه خياطُ الدهر دلق^(٥٨) ، ومن نعمه ننكسه في الخلق ، ورأي من الكبر ، أصناف العبر ، إلى أن ضَعُفَتْ قُوَّتُهُ عن الاصطياد ، وجرى عليه من الآلام والأنكاد ، ومن نوائب الدهر ما للزمان به معتاد ، فصار يُمرُّ عليه برهة من الأوقات ، وهو عاجزٌ عن تحصيل الأوقات ، فتوجَّه في بعض الأحيان ، وقد علَّته كآبةُ الأحزان ، ووقف على النهْر ، متفكراً في تصرفات الدهر . فمرَّت به سمكة ، لطيفة الحركة ، فرآته في ذلَّ الانكسار ، سابحاً في بحرِ الافتكار ، لا قدرةَ له ولا حركة ، ولا نهضة

^(٥٧) الرخم : طائر غزير الريش ، أبيض اللون مبقع بسواد ، ذو غلاب متوسطة الطول . وله جناح طويل يبلغ نحو نصف متر .

^(٥٨) دلق : نوع من الثياب البالية المهلهلة .

لاخِطَافِ السَّمَكَةِ ، فلم يلتفتْ إليها ، ولا عَوَّلَ عليها ، وقد أوطأته الحوادث ، أقدامُ الممومِ الكوارث ، وبَدَلَ ربيعٍ شِبابِهِ بخريفِ المهرم ، وحرارةَ حربه ببرودةَ السلم . فوفقتُ لديه ، وسلّمتُ عليه ، وسألته عن موجبِ تفكّره ، وسببِ تحزّنه وتحيرِهِ . فقال : تفكرتُ ما مضى من الزمانِ الناضر ، وما تقضى فيه من طيبِ العيشِ وانسراحِ الخاطر ، وقد تبدّل وجودُهُ بالعدم ، ولم يحصلْ من ذلك سوى الذنوبِ والنّدم ، وقد هنت العظام ، واستولى على الجسدِ السَّقَام ، وقزّزلت أركانُ الأعضاء ، وتراكمتْ فنونُ الأدوية ، واشتعل الشيبُ واتّقد ، وخبرُ الآلامِ وقَد :

عَزَمْتُ عَلَى إِخْلَاءِ جِسْمِي رُوحَهُ مِنْ خَرَقٍ شَبِيبٍ كُلِّ غَنَةِ الرَّابِعِ
قُلْتُ اسْكُنِيهِ بِأَعْمَارِهِ قَالَتْ فَكَيْفَ يَتَيْتُ جِسْمِيكَ وَأَقِيعَ

ثم قال : ولم أفقُ من هذه السُّكْرَةِ ، ولا وقعتُ في هذه الفِكْرَةِ ، إلا وسفينَةُ العُمُرِ بالساحلِ أَرَسَتْ ، وأَصِيلُ شَمْسِ الْعَيْشِ عَلَى قَلْبِي^(٩) الْفَنَاءُ أَمْسَتْ ، فما أمكنتني إِلَّا التَّلَافِي بِالتَّوْبَةِ وَالنَّدَمِ ، قَبْلَ حُلُولِ نَوَائِبِ الْأَجَلِ وَزَلَّةِ الْقَدَمِ ، وَالتَّنَطُّهُرُ مِنْ جَنَابَةِ الْمَظَالِمِ بِمِيَاهِ الْاسْتِعْبَارِ ، وَالِاتِّخَاءِ إِلَى جَانِبِ الْحَقِّ بِالْإِلْطَافِ^(١٠) فِي الْاسْتِغْفَارِ ، وَغَسَلِ أَوْسَاخِ الذَّنُوبِ وَالْمَظَالِمِ بِدُمُوعِ الْإِنَابَةِ وَالْاعْتَذَارِ :

وَمَا أَقْبَحَ التَّقْرِيطِ فِي زَمَنِ الصَّبَا فَكَيْفَ بِهِ الشَّيْبُ لِلرَّاسِ شَامِلِ

فَاغْلَمِي أَنَّ جَامِحَ هَوَايَ قَلَعَ ، ضَيَّرَسَ الْأَمَالِ وَالطَّمَعِ ، وَجَارَحَ مُتَمَنِّيَ نَزْعِ ، خَوَافِي الشَّرِّ وَالْهَلَعِ ، وَقَدْ قَدِمْتُ إِلَى هَذَا الْمَكَانِ ، لِأَتَحَلَّلَ مِنَ الْأَسْمَاكِ وَالْخَيْتَانِ ، فَإِنِّي طَالَمَا أَغْرَرْتُ عَلَى عِشَائِرِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ ، وَخُضْتُ فِي دِمَائِهِمْ قُلُوبَهُمْ وَكَبَادِهِمْ ، وَشَتَّتْ شَمْلَهُمْ ، وَخَوَّفْتُ جُلُومَهُمْ وَقُلُومَهُمْ ، وَأَرَغَبْتُهُمْ وَأَرَهَبْتُهُمْ ، وَأَقْلَقْتُهُمْ وَفَرَّقْتُهُمْ ،

(٩) قَلْبِي : قَمَةِ .

(١٠) الْإِلْطَافُ : الْإِحْسَانُ وَالْمَلَامَةُ .

وخرَّبَتْهُمْ وبالدماءِ شَرَّتُهُمْ ، فرأيتُ براءةَ الذَّمةِ في الأولى أُولَى ، والمبادرةَ بالتوبةِ قبلَ
المصيرِ إلى الأخرى أخرى ، فَفَعَلْتُ أَجْمَالَ الذُّنُوبِ تَحَفًّا ، وسحائبَ الغفرانِ تَكْفًّا .

فلَمَّا سمعتُ السمكةَ هذه الخديعةَ ، وَرَعَتُ ما فيها من حَرَكَةٍ بديعةٍ ، تشنَّرتُها
أضلاعُها ، ودعاها الخداعُها ، إلى أَنْ قالتَ : فما ترى أَيُّها العبدُ الصالحُ أَنْ أتعاطأُ
من المصالحِ ؟ فقال : أبلغني السَّمَكُ هذا الكلامَ ، بعدَ إبلاغِ التحيةِ والسلامِ ، وأنْ
يكونَ القومُ ، من بعدِ اليومِ ، آمنينَ من سطواتي ، سالمينَ من حملاتي ، ساكنينَ إلى
حركاتي ، بحيثَ تَحْلِي الظُّلُماءَ ، ويعودُ بيننا الحربُ سَلَمًا وبنامُ السمكِ في الماءِ .
قالتَ : لا بُدَّ من أَخْذِ العهودِ ، على الوفاءِ بهذه العقودِ ، وأقلُّها المصافحةُ ، على
المصالحةِ ، ثم تَأْكِيدُ الأيمانِ ، بِخالفِ الإنسِ والجانِ ، ولكن كيفَ أَصافيكِ وأنا
طُعْمَتُكَ ، وأنتِ أَتَخَلَّصُ من فيكِ إذا وضعتَ فيه لُقْمَتَكَ ؟ قال لها : أهرُبي هذا
العَلْفَ ، وأربطي به حنكي لِتَأْمَنِيَ التَّلَفَ ، فأخذتَ قبضةً من الحشيشِ وَقَلَّتْ ، وإلى
رَبِّطِ فَكَّهَ أَقبلتَ ، فعندما مَدَّ منقسارهَ إلى الماءِ ، وقربتَ منه السمكةَ العمياءَ ، لم
يَقْتَرِ^(١١) أَنْ اقتلَعها ثم ابتلعها .

ولَئِنما أوردتُ هذه اللطيفةَ ، يا ذا الحركاتِ الظرفيةَ ، لَتَعَلَّمَ أَنْ قُرْبَنَا مِنَ الْعُقَابِ ،
أَلْفَى بنا أَنْفُسنا إلى أَلِيمِ الْعُقَابِ ، وأَينَ عَزَبُ^(١٢) عَنْكَ نُهْاكُ^(١٣) ، حتى تسعى بنا
إلى عَيْنِ الهلاكِ ، ونحن قوتُ الْعُقَابِ وغذاؤه ، ولداءِ جوعه شفاؤه ودواؤه ، وهل
يُرْسِكُنْ إلى الْعُقَابِ ، وَيُؤَمِّنُ منه ضَرْبُ الرِّقَابِ ؟ وقد قيلَ :

أَنفاسُهُ كَلِيبٌ وَخَشَوْ ضَمِيرِهِ دَغَلٌ وَقُرْبَتُهُ مَقَامُ الرُّوحِ^(١٤) ١

^(١١) لم يقر : لم يتردد أو يتأخر .

^(١٢) عذب : يُمَدُّ وَخَفِيَ وَغاب .

^(١٣) نهاك : عقلتك .

^(١٤) الدغل : حيب في الأمر يفسده مثل الحياة والاختيال .

وقد قيل :

أَنَّهُ لَا أَلُوكَ^(٦٥) مغلورة
عن نومة بين ناب الليث والظفر

قال النجدي : اسلمي ، ياقرينة الخيرِ واعلمي ، أن الرِّيحَ وقتَ الربيعِ تكسو
أكثافَ الأشجار ، من أنواع الأزهار ، ووجهَ الصحاري والقفار ، من أنوارِ
الأنوار ، ما يُدهشُ البصائرُ ويروقُ الأبصار ، ويُنعشُ الأجسام ، ويشفي الأسقام ،
ويردُّ الغليل ، ويرى العليل ، لاسيما وقتَ السَّحر ، ونسيمُ الصُّبَا في ضوءِ القمر ،
يربي القلبَ والروح ، ويحيي الصَّبَّ المجروح ، وكذلك المَعْرِفَاتُ^(٦٦) النَّشْرُ
واللواقيح ، والمعطرات بطيب الروائح ، ودونك قولُ الحقِّ في كلمته ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ
يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ لِّتُذْهِقَ كُفْرَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾^(٦٧) وفي المصيفِ ، الحرور
العسيف^(٦٨) ، والسُّمُومُ^(٦٩) العصيف ، المذنب المذيف^(٧٠) ، وفي الشتاءِ وأيامِ
الخريف ، الصرصر^(٧١) المخيف ، يصفرُّ اللونُ ، ويغيَّرُ الكونُ ، ويعرِّي الأشجار ،
ويسقطُ الثمار ، ويثيرُ الغبار ، وربما كانت إعصاراً فيه نار ، وتسقمُ الصَّحاح ،
وتطيرُ المهشم في الريح . ومنها الأعجاز^(٧٢) للموحشات ، والأيامُ النحسات ،

^(٦٥) لا ألك : لا أقصّر ولا أفر ، بل أبلل جهدي في تفكيرك . ومن ثم ليس لك عذر لي عدم الانتهاء عن
الإلقاء بنفسك إلى التهلكة .

^(٦٦) من العرف ، وهو الراحة مطلقاً ، وأكثر ما يستعمل في الطيبة منها .

^(٦٧) قرآن كريم ، سورة الروم : ٤٦ .

^(٦٨) الشديد الحرارة ، القوى العنيف .

^(٦٩) للسموم : ريح السموم الحارقة .

^(٧٠) المليلب : الحارق للميت .

^(٧١) الصرصر : ريح صرصر : شديدة البرد ..

^(٧٢) الأعجاز أو أيام العجز عند العرب ، سبعة أيام تأتي في عجز الشتاء ، يشتد فيها البرد ، وهي توافق أربعة

من آخر فبراير (شباط) ، وثلاثة من أول مارس (آذار) .

والقواصفُ والعواصفُ ، والخواصبُ^(٧٣) والخراجف^(٧٤) ، والصرصر^(٧٥) والنكباء^(٧٦) ، والزعرع^(٧٧) والرخاء . وقد قال فيها العزيز العليم ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ مَا تَلْتَمِزُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرِّيمِ﴾^(٧٨) .

ثم اعلمي يا ربةَ الحَجَّال ، وفئةَ الرجال ، أنَّ النارَ تحرقُ مَنْ يقربها ، وتذهبُ ما يصحبُها ، وتنشفُ الطراوةَ ، وتشوِّهَ الطلاوةَ ، وتلتقم ما تحبُّه ، وتلتهمه وتزدوده ، وتسوِّدُ بُدْحَانِها ، وتوَلِّمُ الأحسادَ بقربانها ، وتمحو الآثارَ ، وتهدمُ الديارَ ، مع أنها تنضجُ الأطعمةَ وتصلحُ الأغذيةَ ، وتهدي النورَ ، وتدفي المَقْرور^(٧٩) ، وترشدُ الضالَ ، في القفارِ رؤوسَ الجبال . قال مَنْ يقولُ للشيءِ كُنْ فيكونُ ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ، أَنَّكُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ، نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ﴾^(٨٠) وكذلك الماء ، يا ذَاتَ الشَّغْرِ الْأَلْمَى^(٨١) ، يذهبُ الظلما ، ويجلب النِّمًا ، ويردُّ الصدورَ ، ويطفيئُ الحرورَ ، ويُبثِّثُ الزروعَ ، ويدبرُ الضروعَ ، ويعمل المراكبَ ، وما فيها من مركوبٍ وراكب . قال القادرُ على كُلِّ شَيْءٍ ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾^(٨٢) وإذا طغيتِ المياهُ ، والعياذُ بالله ، أغرقتِ المراكبَ ،

(٧٣) الخواصب : الريح الشديدة تحمل الغراب والمحبياء (صغار الحجارة) .

(٧٤) الخراجف : مفرد ما حرجف : الرياح الباردة الشديدة المبرِّب مع حفاف .

(٧٥) الصرصر : انظر هامش رقم ٦٨ .

(٧٦) النكباء : ريح الخريف وقعت بين ريحين كالصَّبا والشَّمال .

(٧٧) الزعرع ، وجمعها زعازع : لريح الشديدة .

(٧٨) قرآن كريم ، سورة الباريات : ٤١ ، ٤٢ .

(٧٩) تدفي للمقور : تدفئ مَنْ أصابه البرد .

(٨٠) قرآن كريم ، سورة الواقعة : ٧١ - ٧٣ .

(٨١) نغز ألى : رقيق به صخرة مستحسنة .

(٨٢) قرآن كريم ، سورة الأنبياء : ٣٠ .

وَحَفَّتْ الرَّاجِلُ وَالرَّاكِبُ ، وَاقْتَلَعَتِ الْأَشْجَارُ ، وَاقْتَبَعَتِ الْأَحْجَارُ ، وَاتْلَفَتْ
الزَّرُوعُ وَالثَمَارُ . وَإِنْ تَرَاكَمَتِ الْأَمْطَارُ ، قَطَعَتْ سَبِيلَ الْأَقْطَارِ ، وَهَدَمَتْ الدِّيَارَ ،
وَوَدَمَتِ الْآبَارَ . وَسَلَّ عَنْ ذَلِكَ مَلَابِسُ^(٨٦) الْأَسْفَارِ ، وَجَالَسَ الرَّثْبُ مِنْ أَهْلِ
الْأَمْصَارِ . وَإِذَا تَكَاثَفَ الرَّشُّ^(٨٧) ، غَرَقَتْ مِصْرَ وَأَذَى أَهْلَهَا الْعَطَشُ ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ
مِنْ هَجُومِ السَّيْلِ ، فِي ظِلَامِ اللَّيْلِ .

وَكُنْكَ الْغَرَابُ يَازِينَ الْأَحْبَابِ ، يَنْبُتُ الْحِصْرُ^(٨٨) وَالْعَنْبُ ، وَالتَّمْرُ وَالْجَطْبُ ،
وَالشُّوكُ وَالرَّطْبُ ، وَيَسْرُعُ سَنَانُ الشُّوكِ الْمَحْدَدِ ، وَغُصُونُ السَّهْمِ الْمُسْتَدِّ ، وَيُرِي
الْوَرْدَ وَالْأَزْهَارَ ، وَالرِّيَّاحِينَ وَالْأَنْوَارَ ، وَالْأَقْوَاتَ وَالثَمَارَ ، وَالرِّيَاضَ الْبُضْرَةَ ،
وَالْفَيَاضَ الْخَضْرَى . ثُمَّ إِذَا تَارَ ، وَهَاجَ الْغُبَارُ ، خَرَجَ مِنْ تَحْتِ الْحَوَافِرِ ، فَأَعْمَى
النَّوَاطِرَ ، فَفِيهِ الْخَلْوُ وَالْمَرُّ ، وَالزُّوَانُ^(٨٩) وَالْبَرُّ ، وَالتَّاعْمُ وَالخَشْنُ ، وَالْقَبِيحُ وَالْحَسَنُ .
وَالْأَرْضُ مَهَادٌ وَفَرَّاشٌ ، وَفِيهَا أَسْبَابُ الْمَعَاشِ ، وَهَذِهِ الْمَضَرَّةُ وَالْمَنْفَعَةُ ، مُرَكَّبَةٌ فِي
هَذِهِ الْعُنَاصِرِ الْأَرْبَعَةِ^(٩٠) ، الَّتِي هِيَ أَصْلُ الْكَائِنَاتِ ، وَسَنَنْخُ^(٩١) مَا نَشَاهِدُهُ مِنْ
الْمَخْلُوقَاتِ .

وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ ، وَقَالَ اللَّهُ شَرُّ الْمَهَالِكِ ، وَأَوْضَحَ لَكَ أَوْضَحَ الْمَسَالِكِ ،
فَاعْلَمْ بِالْتَّحْقِيقِ ، بِإِصْحَابَةِ الشَّعْرِ الْعَقِيقِ ، أَنَّ هَذَا الْمَلِكَ الْأَعْظَمَ ، بَلْ كُلُّ أَوْلَادِ بَنِي

(٨٦) مَلَابِسُ ، كَثِيرُ السَّفَرِ بَيْنَ الْبِلَادِ .

(٨٧) الرَّشُّ : الْمَطَرُ .

(٨٨) الْحِصْرُ : الثَّمَرُ قَبْلَ أَنْ يَنْضَجَ ، وَخَشَفَ كُلُّ شَيْءٍ .

(٨٩) الزُّوَانُ ، أَوْ الزُّوَانُ : عَشَبٌ يَنْبُتُ بَيْنَ أَحْوَادِ الْخَنْطَةِ غَالِبًا ، حَبِّهِ مِثْلُ حَبِّهَا إِلَّا أَنَّهُ أَسْوَدُ أَوْ أَصْفَرُ ، وَهُوَ يَخَالِطُ
(الْبَرَّ) فَيَكْسِبُهُ وَرْقَةً .

(٩٠) وَهِيَ الْمَاءُ وَالْغَرَابُ وَالنَّارُ وَالْهَوَاءُ ، وَقَدْ تَحَدَّثَ الْمُؤَلِّفُ عَنْهَا طَوِيلَ الصَّفَحَاتِ السَّابِقَةِ .

(٩١) سَنَنْخُ : الْأَصْلُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ .

أدم ، مركَّبون من الرِّضا والغضب ؛ والحلم والصعب ، والرفع والخط ، والقبض والبسط ، والقهر واللطيف ، والظرافة والعنف ، والخشونة واللين ، والتحريل والتسكين ، والبخل والسخاء ، والشدَّة والرخاء ، والوفاء والجفاء ، والكنورة والصفاء . واغْلَمِي يا نَعَمَ العَوْن ، وقرينة الصَّوْن ، أن هذا الكون ، سروره في شروبه مُنْذِمَج ، ووروده في صُدُورِهِ مُنْذِرَج ، وصلاحه مع كدره مُزْدَوَج ، وجفاؤه بوفائه مُتَمَزَج . فيمكن أن العُقَاب - لكونه ملكاً مالك الرقاب ، مع وجود هيبته القاهرة ، وسطوته الباهرة ، وخلقه الشرس ، الصَّغْبِ الشَّكْسِ^(٨٩) - إذا رأى ضعفنا وذُلنا ، وانكسارنا وقلنا ، وترامينا لديه ، وتعلنا عليه ، يَضْمُننا إلى جناح عاطفته ، ويُسَبِّل علينا خَوَائِ مَرَحْمَتِهِ ، ويعاملنا بالالطاف ، ويسمح لنا بالإسعاف ، دون الإسعاف ، ويعمل بموجب ما قيل :

لِكُلِّ كَرِيمٍ عَادَةٌ يَسَعِدُهَا
وَأَنْتَ لِكُلِّ الْمَكْرُمَاتِ إِمَامٌ .

والقادر على الكسر والجبر ، لاسيما إذا كان من ذوي النباهة والقدرة ، لا يعامل ذوي الكسر بالكسر^(٩٠) ، لأننا في مقام الأبناء وهو في مقام الأبوة ، والتقوى على الضعيف ضَعْفٌ في القُوَّة ، وقالوا : المصغر لا يصغر ، وسجدة السُّهُو لا تكرر .

قالت غرغرة ، ذات التبصرة : هذا وإن كان ، داخلاً في حَيِّزِ الإمكان ، لكن الخاف ، يا ذا اللطاف ، أنا محجَّرُ الوقوف ، بين يديه في الصفوف ، لا نُمَهِّل لأداء الكلام ، ولا للنبات في المقام ، بل نُعَامَلُ بالتمزيق والتخريق ، ونُتَحَرَّ بِعُدُوِّ الطريق ، ونَهْوِي بنا خواطِفُ الطير في مكان سحيق ، فيفوتنا هذا المطلب ، إذا قيل الطَّيِّعُ أَغْلَبَ ، وهذا إذا وصلنا إليه ، ومثلنا بين يديه . وأما إذا اعترضنا دونَه

(٨٩) شكس : ساء خلقه وعسر في معاملته .

(٩٠) لا يواجه أصحاب الضعف بالقوة أو العنف .

عارض ، وجرحنا من جوارح الطير مُعارض ، ولا حَوْلٌ يَحْمِينَا ، ولا قُوَّةٌ تُنَجِّنَا ،
 فينتِفِ ريشنا كُلُّ باغ ، ويتجاذب لحمنا كُلُّ طاع . فيصيرُ مثلنا مثلَ النمسي
 والزاغ . فسألَ يعقوب^(٩١) ، تلك الرُّقوب ، كيف هذا المثل ؟ أخيريني يا ستُّ
 الحجل .

[٤/٩] حكاية النمسي والغراب

قالت : كان في بعض البساتين العاطرة ، والرياض الناضرة ، مأوى زاغ^(٩٢)
 ظريف ، حسن الشكل لطيف ، في رأس شجرة عالية ، أغصانها سامية ، وقطوفها
 دائية . فاتفق لِنَمْسِي^(٩٣) من النُّمُوس ، في وكرِه ضررٌ وبوس ، فانزعج عن وطنِه ،
 واحتاج إلى مفارقة سكته ، فقاده الزمان ، إلى هذا المكان ، فراقه منظرُه ، وشاقه
 نوره ، وزهره ، وأعجبه ظله وثمره ، وأطربَه بخيرِ نهرِه ، فعزَمَ على السُّكْنَى فيه ،
 وتوطنَ إلى أن يتوطنَ في نواحيه ، إذ رآه أحسنَ منزل "وإذا أعشبت فانزل" ووقع
 اختيارُ ذلك الطاع ، على وكرٍ في أصلِ شجرة الزاغ ، فسَوَّى له وكرًا وحفرَه ، في
 أصلِ تلك الشجرة ، وألقى عصا التسيار ، واستقرت به هناك الدار .

فلَمَّا رأى الزاغُ هذه الحال ، داخَلَ الهمُّ والأوجالُ^(٩٤) ، وخشي أن يسُلُوجَ من
 أدناها ، ويتَدَخَّرَجَ إلى أعلاها ، وينشدُ الأصحاب ، في هذا الباب :
 ولَمَّا مَضَى الشُّوقُ إلى نَحْوِ أَبِي طَوُوقِ

^(٩١) يعقوب : ذكر الحجل .

^(٩٢) الزاغ : من أنواع الغربان ، يقال له الغراب الزرعي ، وغراب الزرع ، وهو صغير نحو الجمجمة ، أسود ،
 برأسه غرة وميل إلى البياض .

^(٩٣) النمسي : جنس حيوان من الثدييات اللواحم ، بينه وبين الغراب الزرعي عداؤٌ غريزي .

^(٩٤) الأوجال : المألوف .

تَدَخَّرْتُ وَلَكِنِّي - مِنْ تَعَتَّرَ إِلَى فَوْقَ

فِيصَلُ إِلَى وطنه القديم ، ويذيقه العذاب الأليم ، فليس له خلاص ، من هذا
الافتتاص ، إِلَّا مُفَارَقَةُ الوطن ، والانتزعاج بالتحول عن السكن ، وكيف يفارق
ذلك النعيم ، يسمح بالبعد عن الوطن القديم ، وهو كما قيل :

بِلَادَ بِهَا يَطِئُ عَلَيَّ قَهْمِي^(٩٥) وَأَوَّلُ أَرْضٍ مَسَّ جِلْدِي تُرَابُهَا

فَقَلَّبْتُ مَحَبَّةَ وطنه على قلبه ، ولم يطاوعه على فراقه لِشِدَّةِ حُبِّهِ . ثم اعتراه في ذلك
الوسواس ، وأخذ يضربُ أحساساً لأسداس ، في وَجْهِ الخِلاصِ من هذا البأس ، فرأى
المدافعةَ أَوْلَى ، والممانعةَ عن جوارحه لخطأه أَجْلَى . ثم افتكر في كَيْفِيَّةِ المدافعة ،
وسلوكِ طريقِ الممانعة ، فلم يرَ أَوْفَقَ مِنَ المَصَانَعَةِ ، وتعاطي أسبابِ المخادعة ،
ليَقِفَ بذلكَ أَوَّلًا على حَقِيقَةِ أمرِهِ ، ويعرفَ مَعْيَارَ خِيَرِهِ وشرِّهِ ، ويصلَ إلى مَقْدَارِ
قُوَّتِهِ وضعفه ، ورسائِةِ عقلِهِ وفهمِهِ وسخفه ، ويسرَ خَالَتِي غَضَبِهِ ورضاه ، ويدركَ
غَوْرَ أحواله ومتتهاه ، ثم يبنى على ذلك أساسَ دَفْعِهِ ، وهَدَمَ ما بينه من قلعته
لقلعه .

فهبط إلى النَّعْسِ من الهواء ، وحفظ شيئاً وغابت عنه أشياء ، وسَلَّمَ عليه سلامٌ
المحبِّ على الحبيب ، وجلس منه بمكانٍ قريب ، ومخاطبه خطابٌ ناصحٌ لا مريب ،
وابتهج بجواره ، واستأنس بقرب داره ، وذكر له أنه كان وحيداً ، وعن الجليسِ
الصالحِ والأنيسِ الناصحِ فريداً ، وقد حصلَ له الأُنْسُ ، بمجاورةِ النَّعْسِ ، وإنه صدق
مَنْ قال في هذا المَقَالَ :

أَنْفِرَاذُ الْمَرْءِ خَيْرٌ مِنْ جَلِيسِ السُّوءِ عِنْدَهُ
وَجَلِيسُ الْخَيْرِ خَيْرٌ مِنْ جُلُوسِ الْكَرَمِ وَخَدَهُ

^(٩٥) نطت التمام عليه في مسقط رأسه : كتابة عن تربته ونشأته هناك منذ كان طفلاً رضيعاً فصغيراً حتى كبر
واستقر به .

فاستمع التمسُّ حديثَ الزاغ ، وما طغى بصرُ بصيرته عن مكائده وما زاغ . ثم
افتكرَ في نفسه ، ونظرَ في مرآةِ حَدْسِهِ ، فرأى أن هذا الطيرَ بِخُبِّ السيرةِ مشهور ،
وبِسوءِ السَّيرَةِ مذكور ، لا أصلُهُ ذكي ، ولا فرغُهُ على ، ولا غائلتهُ مأمونة . ولا
صحبتهُ ميمونة ، ولا خيرٌ عنده ولا مِير ، بل يُخشى منه الضررُ والضرير ، وكأنه فيه
قيل :

وَهُوَ غَرَابُ الْبَيْنِ فِي شَوْبِهِ لَكِنْ إِذَا جِئْنَا إِلَى الْحَقِّ زَاغُ

ولم يكن بيننا وبينه قطُّ علاقة ، ولا واسطةٌ حبةٌ ولا صداقة . وأما العداوةُ فإنها
مُسْتَحْكَمَةٌ ، وكلُّ مِنَّا لِلآخِرِ مَأْكَلَةٌ وَمَطْمَعَةٌ ، ولا أشكُ أنه إنما قصد ، طريقةً سوءٍ
ومكيدةً نكد ، فإن أَضَعَّتْ فيه الفرصة ، أَطْلَتِ الغُصَّةُ ، ووقعتُ من الندامةِ في قصَّةٍ
وحصَّة ، ولا يفيدني إذ ذاك الندم ، أتى وقد فات المطلوبُ وَزَلَّتِ القدمُ :

* وَأَحْزَمَ الْحَزْمُ سُوءَ الظَّنِّ بِالنَّاسِ *

فالذي يقتضيه الحزم ، والرأي السديدُ والعزم ، القَبْضُ عليه ، إلى أن يظهرَ ما لديه ،
ثم وَتَبَ من مرضيه ، وأنشَبَ في الزاغِ غَالِبَ مِقْبَضِهِ ، وَقَبْضَهُ قَبْضَةً أَعْمَى ، لا
كالقاضي على الما^(١٦) .

فلما رأى الزاغُ هذا النكد ، وأنه قد صارَ كالفرسةِ في غاليبِ الأسد ، ناداه يا
كريمَ الخير ، وما أيتها الجارُ الحليمُ عن الضرير ، أنا رَغِبْتُ في مصادقتك ، وجئتُك
مُحِيًّا في موافقتك ومرافقتك ، وأردتُ إِزَالََةَ وَخَشَتِكَ ، وموانستك بإبعادِ
دهشتك ، وحاشاك أن تُحَيِّبَ ظَنِّي فيك ، وتعاملَ بالجفاءِ مِنْ يوافيك ، وأنشده :

وَحَاشَاكَ أَنْ تَمَشِيَ بِوَجْهِكَ مُعْرِضًا وَمَا يَخْشَنُ الْإِعْرَاضُ عَنْ وَجْهِكَ الْحَسَنِ

والكرام لا يعاملون الجلُساء ، إلا بالموانسة وحُسنِ الوفاء ، والإبقاء على خير .
 وأبعد من الضَّيّر ، وأنا قد صيرتُ جليستك ، وجارك وأبيستك ، وقد قيل :
 وَكَنتَ جَلِيسَ قَفَّاعِ بْنِ شُبْرٍ وَلَا يَثْقَى لِقَعْقَاعِ جَلِيسُ
 مع أنه لم يسبقْ مني سببُ عداوة ، ولا ما يوجبُ هذه الفظاظة والقساوة ؛ وهذه
 أوّلُ نظرّة ، فما موجبُ هذه البذرّة ، وما سببُ هذه النّفرة ؟

قال النّمس : أيّها الزاغ ، الكثيرُ الرّواغ ، وأنحسَ باغ ، وأنحسَ طاغ ؛ اسمك
 ناطق ، إنك مُناقق ، وهو خبرٌ صادق ، إذ هو في الخارجِ للواقعِ مُطابق ، ورؤيتك
 شاهدة ، أنك تنقضُ المعاهدة ، وعينُ منظرك ، دالٌّ على مخبرك ، وقد قيل :
 وَالْعَيْنُ تُعْرِفُ مِنْ عَيْنِي مُحَلِّهَا إِنْ كَانَ مِنْ حِزْبِهَا أَمْ مِنْ أَغَاذِيهَا
 من أينَ بيننا صداقة ؟ ومتى كان بين النّموسِ والزاغِ علاقة ؟ وكيف تنعقد بيننا
 صحابة ؟ وأني يتصل لنا مودةٌ أو قرابة ؟ يبيّن لي كيفيةَ هذا السبب ، ومن أين هذا
 الإخاء والنسب ؟ أما أنت فلي طُعْمَة ، وأما أنا فَلَخْمِي لِسَدِّ غِذَائِكَ لُحْمَة ،
 يسوءني ما يسُرُّك ، وينفعني ما يضرُّك :

اللّهُ يَعْلَمُ أَنَا لَا نَحِبُّكُمْ وَلَا تَلُومُكُمْ إِنْ لَا نَحِبُّوْا

أنا واقفٌ على ما في ضميرك ، وعالمٌ بسوءِ فكرِكَ وتدبيرِكَ ، قد اطلعتُ منك على
 الهواجس ، كما اطلعَ ذلك الماشي على ما في مخاطِرِ ذلك الفارس . قال الزاغ : يبيّن
 لي بلا جدل ، كيف هو هذا الثّل ؟

[٥/٩] قصة الفارس والراجل

قال النمسي : ذكر رواية الأخبصار ، ونقله الآثار ، أنه ترافق في بعض السباسب^(٩٧) ، راجل وراكب ، وكان مع الراجل من البضائع رزمة ، وقد جعلها كارة^(٩٨) وحزمها أوثق حزمة ، وقد أعياه حملها ، حتى أعجزه نقلها . فقال للراكب ، أيها الرفيق الصاحب ، لو ساعدتني ساعة ، يجمّل هذه البضاعة ، لكنت أرحتي ، ونفست عني وشرحتني .

كَلَيْدِي الْجِدِ يَحْمِلُ أَتَقَالَهُ قَوِي الْعِظَامُ حَمُولَ الْكَلْفِ

قال الفارس لا أكمل فرسي ، ولا أتعب نفسي ، فإن مرّكوبي لم يقطع البارحة عليه ، وأنا خائف أن لا يقطع بني طريقه ، وإذا خفت تخلفني في سيري ، فإني أتكلف حمل أنقال غيري . فبينما هما في هذا الكلام ، إذ لاح أرنب في بعض الآكام ، فأطلق العنان وراء الأرنب ، وذهب وراءها كراي الزنادقة كلّ منذهب ، فوجد فرسه قوية النهضة ، سريعة الركضة ، فرأى أنه أضاع حزمه ، في عدم أخليه الرزمة ، وما ضربه لو أخذها وساق^(٩٩) ، وذهب إلى بعض الآفاق ، وأقام بها أوده ، وانتفع بها وولده ، وترك الماشي ، بلاء شي ، ثم رجع بهذه النية الضارة ، ليحمل عن الماشي الكارة ، وقال له : أعطني هذا الحمل المتعب ، لأريحك من حمّله في هذا المنهب ، وأبلغ ريقك ، واقطع طريقك . فقال له : قد علمت بتلك النية ، وما أضمرت من بلية ، فاتركني بحالي ، فلي حاجة بحالي . ثم إن النمسي كسر الزاغ وحصل له بأكله الفراغ .

(٩٧) السباسب : المقازات ، الصحارى الشاسعة .

(٩٨) الكارة : ما يجمع ويشد ويحمل على الظهر من طعام وثياب وأغراض أخرى .

(٩٩) عطفها وهرب .

وإنما أوردتُ هذا المثال ، لتعلمَ يا فحلَ الرجال ، أن العُقَابَ لا يؤمن ، ولا يقطع فيه بالظنِّ الحسن ، ولا يركنُ إلى عطفِة بوارقه^(١٠٠) ، بمخاليبِ صَوَائِعِهِ^(١٠١) وصَوَائِقِهِ ، ولا إلى غوائله وبوائقه ، وهذا إن سَلِمَتْ شَقَّةُ حَيَاتِنَا مِنْ تَشْقِيقِ غَوَاشِيهِ^(١٠٢) ، وتخلَّصَ بُرْدُ^(١٠٣) وجودنا من تمزيقِ حواشيه . وإنَّ بينك وبين هذا المراد ، خَرَطَ القنَاد ، والموانعَ التي هي دون سُعاد ، فما الوصولُ إلى ملكِ الطير ، قريب التناولِ في السير ، ولا سَهْلُ المأخِذ ، ولا سريع المنفذ ، وأين الجَحَل من العُقَاب ، ذاك في نعائم النعيم . وهذا في عِقَابِ العِقَاب ، قَتْدِيرُ عَاقِبَةِ هذا الأمر ، وتَأَمَّلْ في الفَرْقِ بين الثمر والجُمر . والظاهرُ عندي ، وما أدَّى إليه فِكْرِي وجهدي ، أنَّ عَاقِبَةَ هذه الأمور ، ليس إلا القُطوعُ والقُصور ، دون الوصول ، إلى الملكِ في القُصور . قال الذكر : لقد كررتُ عليك مرارا ، وأسندتُ إلى سمعِكَ إنشاءً وإخبارا : أنَّ عُلُوَّ هِمَّةِ هذا الملك ، وفضله الخالي عن شرك ، وكرمِ نِجَارِهِ^(١٠٤) ، وأمنِ خادِمِهِ وجارِهِ ، وفَيْضِ إحسانِهِ ، وبَسْطِ كَرَمِهِ وامْتِنَانِهِ ، وانتشارِ صِبْغِ حشَمِيَّتِهِ ، واشتهانِ رَافَتِهِ ورحمته ، لا يقتضي حرمانَ مَنْ قَصَدَهُ ، وأمَّ جنبَاهِ واعتمَدَهُ ، ولجأ إلى جناحِ عَاطِفَتِهِ ، وتشبَّثَ بِذَنَبِ مَلاطِفَتِهِ ، وحاشاهُ أنْ يَصِرَ مَصُونٌ هِمَّتِهِ بِاتِّدَالِ دُئَاءَةٍ ، وَيُشَوِّهُ جَمَالَ وفائِهِ ، لِمَنْ تَرَقَّقَ لَهُ بِنَكْتَةٍ جَفَاءٍ تَحْيِبُ رجاءَهُ ، مُخْصِوصاً إِذَا رَأَى مِنْهُي خُضُوعَ العُبودِيَّةِ ، والقِيَامَ بِمَراسِمِ الخِدْمَاتِ الأدبية ، والمقامَ بِمَراكِزِ مرضِيَّةِ ، والوقوفَ عند كُلِّ ما يعجبه ويرضيه ، فلنَّيَّ بِحَمْدِ

(١٠٠) البوارق : مفردُها بارقة وهي التهديد والوعيد .

(١٠١) الصوائع : أصوات التهديد والقتل عند الحيوان والطير .

(١٠٢) غواشيه : المحيطون به ممن يغشون مجلسه .

(١٠٣) البرد : الثوب الخارجي .

(١٠٤) النِّجَار : الأصل .

الله تعالى أعرفُ مداحلِ الأمورِ ومخارجِها ، وعندِي الاستعدادُ الكاملُ لصعودِ معارجِها ، وأَعْلَمُ طُرُقَ الجوازِ إلى حقائقِها ، وسلوكِ دروبِها وطرائقِها ، فالأَوْلَى أَنْ نَقْتَصِرَ عن المحاروة ، ونكتفي بهذه المساورة^(١٠٥) في المشاورة ، وتَوَكَّلْ على مُقَلِّبِ القُلُوبِ ، وتتوجَّه نحو هذا المطلوب ، بعزمٍ شديد ، وحزمٍ شديد ، فإنَّ تيسَّرَ لي ملاحظةُ حضرته ، والتَّمَثُّلُ في مراكزِ خدمته ، وحصلتُ لي مشاهدته ، واففقتُ غايبته ومعاهدته ، أنشأتُ خطبةً تدفعُ الخطوب ، وتجمعُ القلوب ، وتولِّفُ بين الحبِّ والمحبوب ، وأرجو أن تكونَ نافعة ، لمصالحِ الدينِ والدنيا جامعة ، فإنَّ كلامي ، في مقامي ، كما قيل في المثل :

فَأَوْجَسَ لَكُنْهَ لَا يَلَلْ وَأَطْنَبَ لَكُنْهَ لَا يَمَلْ

وآخرُ الأمرِ سَلَمَتْ غرغرةُ زِمَامٍ انقيادِها إليه ، وعَوَّلْتُ في عملِ المصالحِ عليه . ثم قالت : له عش واسم ، وَتَيَقَّنْ واعلم ، أنك إذا قصدتَ خدمةَ الملوك ، وأردتَ في طريقِ مصالحتهم السلوك ، فإنَّكَ مُحتاج ، في ذلك المنهاج ، إلى نور وسراج ، يهديك إلى صفاتٍ جميلة ، وتلبسُ بمخاضاتٍ نبيلة ، تنحلي بجمالها ، وتعلو بكمالها ، وتنحلي في شمائلِ جلالها :

الأولى : أَنْ تُقَدِّمَ في جميعِ مصادركِ ومواردِك ، مُرادَ الملِكِ على جميعِ مقاضدك . الثانية : أَنْ تتلقى أموره بالتعظيم ، وتقيمَ أوامره بالاحترام والتفخيم . الثالثة : أَنْ تُحَسِّنَ أقواله ، وتزَيِّنَ أفعاله ، بوجهٍ لا يطرُقُ إليه تشويه ، ولا يحتاجُ فيه إلى إنبهيه . الرابعة : أَنْ تجتهدَ في صيانة عِرْضِكَ عن الخنا ، وإياك أَنْ تقولَ في حضرته أنا ، فتقع في العنا . الخامسة : أَنْ تعدَّ على الدوام ، ومرور الأيام ، خدمتِكَ الوافرة ، وحقوقك المتكاثرة ، عن حقوقِ يَمِّعِهِ قاصرة . السادسة : إذا وقعت منك زَلَّةٌ ، فلا

^(١٠٥) المساورة : المجادلة .

تتعدّ بها جَمْعُ القِلَّةِ ، بل اطلبْ لتلك المفقوة ، في الحال مَحْوَه ، واقصدْ مُراجِمَه وعفوَه ، فإنَّ الذنوبَ إذا تراكمتْ ، وتجمعتْ وتزاحمتْ ، أشبهتْ للزيلة الملمنة ، وفاحتْ روائحُها المنتنة ، والإنسانُ غيرُ معصوم ، والآدميُّ بالخطأ موسوم .
السابعة : احفظْ وَجْهَكَ في حضرته عن التقطيب ، وكلامَكَ أَنْ يفوحَ منه غيرُ الطيب . الثامنة : يَبْأَكَ ومصادقة أعدائِهِ ، ومعاداة أوليائِهِ . التاسعة : كَلِّمًا زَاذَكَ رفعةً وتقريبًا ، مِلْ إلى التواضع وإعظامِهِ تَصُونِيَا . العاشرة : لا تَدَّخِرْ عنه نصيحة ، وأنصحْهُ في الخلوة لئلاَّ يُوَدِّي إلى الفضيحة ، وإذا أقامَكَ في أَمْرٍ ، ولو أنه المشيُّ على الجمر ، لا تَطْلُبْ منه أجرا ، ولا تُبْدِلْ لذلك ذكرا ، فإنَّ الطمعَ يورثُ العقوق ، والمَنَ يُسَوِّدُ وَجْهَ الحقوق .

واعلمْ أَنَّ حضرةَ الملوكِ عظيمة ، وبجالتهم حسيمة ، تنزهْ عن الكذبِ والغيبةِ والنميمة ، والأقوالِ الوخيمة ، والأفعالِ الذميمة . وإيَّاكَ أَنْ تتعدَّى القواعدِ الكسروية ، وتتخطى القوانينَ السلطانية ، فإنَّ أعظمَها كان ، أَنْ يعرفَ كُلُّ إنسانٍ ، تقصيرَ نفسه في خدمةِ مَخْدومه ، ويعترفَ له من إحسانِهِ بعمومه ، ويقبِلَ واجبَ هِمَّةٍ ملكِهِ ومقامَ مرسومِهِ . قال النجدي ، أخيريني يا دعدي ، وحظي وسعدي ، وابنة السعدي ، ومزينة القواعد ، بشيءٍ من تلك القواعد .

قالت من القواعد الكسروية ، الدائرة بين البرية ، ما وضعها بعضُ الملوك ، وحمل رَعِيَّتَهُ فيها على السلوك ، وكان مشهوراً بالعدل والإحسان ، مذكوراً بإقامة البرهان ، مُتَصِفًا بالصفات الحميدة ، مُكْتَنِفًا بالشمالِ السعيدة ، من الدِّينِ - والعفة ، وعدمِ الطيشِ والخفة ، بعقلٍ راجحِ الكفة ، والعلمِ الوافر ، والحلمِ العاطر ، وذلك أنه في بعضِ الأيام ، أَمَرَ أَنْ يَجْتَمَعَ الخواصُّ والعوام ، ما بين أميرٍ ووزير ، وكبيرٍ وصغير ، وغنيٍ وفقير ، وجليلٍ وحقيير ، وعالمٍ وجاهل ، ومفضلٍ

وفاضل ، ومذكورٍ وحامل ، وناظرٍ وعامل ، وحالٍ وعاطل ، وحاكمٍ وقاض ،
وساطعٍ وراض ، وجنديٍّ وتبع ، وأحرقٍ وصنع^(١٠٧) ، ووضعٍ وشريف ، ولطيفٍ
وكثيف ، وثقيلٍ وخفيف ، وقريبٍ وبعيد ، ومقبولٍ وطريد ، وشقيٍّ وسعيد ،
وسوقٍ وتاجر ، وسفيهٍ وفاجر ، ودانٍ وقاص ، وطائعٍ وعاص ، وصالحٍ وطالح ،
وضاحلٍ وكالح ، ومصيبٍ ومخطئ ، ومسرّعٍ ومبطئ ، وصيادٍ وملاح ، وسياحٍ
وسباح ، وبلديٍّ وفلاح ، ومسلِكٍ وسالكٍ ومملوكٍ ومالك ، بحيث لا يتخلفُ عن
الحضور أحد ، ولا يجزي في التقاعد والدُّ عن ولد . ثم مهد لهم في روضٍ أريض ،
ومرجٍ طويلٍ عريض ، تصفُّقُ مياهُ أنهاره طرباً ، وتتناغى بأطيبِ الألحانِ فُصْحَاءُ
أطياره الخطباء^(١٠٨) ، وتزاقصُ بزهرِ الوقتِ أغصانُ أشجاره ، ويَلْتَدُّ بفواكهِ الجنانِ
جاني ثماره ، فهو كما قيل :

يَلْتَدُّ جَنَابِيهِ بِأَنْعَمِ مُقَطَّعٍ مِنْهُ وَمَا كُنْهُ بِأَكْرَمِ مَعْطَفٍ
وَالْوُرُقُ بَيْنَ مُخَلَّقٍ فِي جَوْهِ طَرَبًا وَمُنْخَطٌ عَلَيْهِ مَرْفَعٍ

وأمرَ بفرشِ ذلك المكان ، بالفُرُشِ الحسان ، من الديباجِ والحرير ، وأطلقَ بحمارِ
النَّدِ^(١٠٩) والعير ، وبين لكلِّ مقاماً معلوماً ، ومجلساً مقسوماً ، وأحلَّ كلَّ منهم
محلَّهُ ، وأسبغَ عليهم ذِيلاً إحسانه وظلَّهُ . ثم أمرَ بأنواعِ الأطعمةِ المفتخرة ، وأصنافِ
الملاذِّ الطيبةِ العطرة ، فأحضرتْ في أوانيِ الفضةِ والنُّصَار ، ووُضِعَتْ بين يَدَيِ
أولئك الحُضَرَاء ، بحيثُ ، عَمَّتْ الجميع ، ووَسِعَتْ الشريفَ والوضيع ، وجلس
الملكُ في مجلسِ السلطنة ، واكتنفه من العساكرِ الميسرةِ والميمنة ، وأخذَ كُلُّ مكانه ،
ورَتَّبَ أصحابَه وأعوأته . ثم أقامَ عليهم أربابَ الديوان ، وأدخلَ جميعَهم في دفاترِ

(١٠٧) الصَّنْعُ : البليغُ الماهر .

(١٠٨) الخطباءُ : خلفُ الخطباء .

(١٠٩) بحمارِ النَّدِ : ميانر النار التي يوضع فيها النَّدُ ، وهو ضرب من الشجر يتبخر بعوده ويتطَّيَّب به .

الحسبان ، وأمر مناديا سيّدا ، يرفعُ بصوته النداء ، في ذلك الجمع ، بحيث شملته من الجميع النظرُ والسَّمْعُ :

يا أهلُ هذا المكان ، برزَ مرسومُ السلطان ، إنَّ كُلَّ مَنْ هو في مرتبة ، من مرضاةٍ أو معتبة ، لا يلاحظُ مَنْ فوقه ، ولو أنه من أميرٍ أو سوقيه ، بل يلاحظُ حالَ مَنْ هو دونَه ، فائزةٌ كانت منزلته أو مغبونة ، فإنَّ ذلك أجمعُ للقلوب ، وأدعى للشكرِ المطلوب ، وأجلبُ للرضا ، بحوادثِ القضا ، فإنَّ مَنْ رأى نفسه في مقام ، ونظرَ غيره في أدنى من ذلك للمقامِ استقام ، وكانت عنده منزلته عليّة ، وعُدَّ لنفسه على غيره مزيّة ، فتَوَطَّنتْ نفسه على الرضا ، واستقبلت بالشكرِ وارد القضا . مثالُ ذلك الرئيسُ النازلُ في الصّدر ، إذا رأى مَنْ هو دونَه في القدر ، لم يشكَّ في أنَّ علّه عملُ البذر ، وباقِي الرؤساءِ كالنجوم ، فلا يأخذُه لذلك وجْوم ، وقد قال الحَيُّ القيوم ، في ذرِّ كلاميه المنظوم ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾^(١٠٩) وكذلك النائب بالنسبة إلى الحاجب ، والدوادار^(١١٠) بالنسبة إلى اليزدار^(١١١) ، والخزندار^(١١٢) بالنسبة إلى حجابي^(١١٣) الدراهم والدينار ، والمهتار^(١١٤) بالنظر إلى السائس والسرقدار^(١١٥) ،

^(١٠٩) قرآن كريم ، سورة الصافات : ١٦٤ .

^(١١٠) الدوادار : هو الذي يحمل دواة السلطان ، ويقوم بنقل الرسائل والمكاتبات عن السلطان وإليه .

^(١١١) اليزدار أو البازدار : هو الذي يحمل الطيور الجوارح المعدة للصيد على يده ، مثل الباز والصقر والشاهين .

^(١١٢) الخزندار : وهو كاتب يتولى حزن الغلات وصرفها ، وهو أيضا الذي يتولى أعمال خزانة السلطان من مال وغلال .

^(١١٣) الحجابي : جامع الخراج أو المكوس .

^(١١٤) المهتار : كل طائفة من غلمان البيوت ، يمثل مهتار الشراب بحانه وغيره .

^(١١٥) السرقدار : لفظ تركي . بمعنى العلم أو الرأية ، والسرقدار هو حامل البيروق .

وكذلك السائسُ بالنسبة إلى الحارس ، و كاتبُ السر المرتفع ، بالنسبة إلى المدبّر^(١١٧) والموقع^(١١٨) ، والزّمام^(١١٩) بالنظر إلى سائر الخدام . وأيضاً القاضي مع الفقيه ، والفقيه مع التاجر النبيه ، والتاجر مع السوقي السفيه ، والغني والأسير ، بالنسبة إلى المأمور والفقيه ، وعلى هذا القيس ، أوضاعُ جميع الناس ، من أرباب الصنائع ، وجُلّاب البضائع ، وأهل المدن والقرى وذوي البيع والشرا ، والوَهْد والذّرا ، وأولي الوضاعة والشرف ، من أنواع المكتسبات والجِرَف ، إلى أن ينزلوا في المراتب ، ويتدرجوا من اليفاع إلى الحضيض في المناصب ، ويتعاونوا في المناصب والمناقب ، ويصل قنُرتهم ونظرهم في ذلك ، إلى كلّ ذي فعلٍ سيّئٍ حالك ، كأرباب العظام ، وأصحاب الذنوب والجرائم ، فينظرُ المعتبُ حاله بالنسبة إلى المضروب ، والمشتوم حاله بالقياس إلى حالِ المكلّوم ، والصحيح بالنسبة إلى حالِ الجريح ، ويلاحظُ مضروبُ العصي حالَ السلوخ بالمقارع ، ومضروبُ المقارع أحوالَ مقطوع الأكارع ، وكذلك المقطوعُ بالنسبة إلى مصلوب الجذوع ، والمصابُ بالمالِ بالنسبة إلى مُصاب البدن ، والأعرجُ بالنسبة إلى المُقعَد المزمَن ، وكذلك العُوران بالنظر إلى مصاب العميان ، وليتأملُ الناظر ، ما قاله في ذلك الشاعر :

سَمِعْتُ أَعْمَى مَرَّةً قَائِلًا يَا قَوْمُ مَا أَصْعَبُ فَقَدْ أَبْصَرَ
أَجَانَهُ أَغْشَوْا مِنْ خَلْفِهِ عِنْدِي مِنْ ذَلِكَ بِصَفِ الْخَبَرِ

(١١٧) المدبّر : هو الذي ينظر في الأمر ويديره. عاقبة ، وهو من ألقاب الوزراء وكتاب السرّ . مثل مدبر أسور السلطنة ، ومدبر الجيوش ، ومدبر الدولة ، ومدبر الملك .

(١١٨) الموقع : هو الذي يكتب المكتبات والولايات في ديوان الإنشاء السلطاني ، ويعرف باسم كاتب التّرج .

(١١٩) الزّمام أو الزمام دار : لقب للذي يتحدث على باب ستارة السلطان من الخدام والخصيان . وهو أيضا الذي يتولى إدارة عداام القصر والإشراف على أعمالهم .

وَلَكِنَّ هَذِهِ الْقَوَاعِدَ ، مُسْتَمْرَّةُ الْعَوَائِدِ ، بَيْنَ الصَّادِرِ وَالْوَارِدِ ، لِيُعْلَمَ أَنَّ مَصَائِبَ قَوْمٍ عِنْدَ قَوْمٍ فَوَائِدُ ، فَاسْتَمَرَّتْ هَذِهِ الْقَوَانِينُ مُسْتَعْمَلَةً ، غَيْرَ مُنْسِيَةٍ وَلَا مُهْمَلَةٍ ، مِنْ زَمَانِ ذَلِكَ السُّلْطَانِ ، إِلَى هَذَا الزَّمَانِ . وَانْظُرْ أَيُّهَا الْفَضِيلُ ، إِلَى مَعْنَى مَا قِيلَ ، فِي هَذَا الْقَبِيلِ ، وَهُوَ :

عَلَى كُلِّ حَالٍ يَبْهِي الشُّكْرُ لِلْفَيْ فَكَمْ مِنْ شُرُورٍ عَنْ شُرُورٍ تَجَلَّتْ
وَكَمْ يَقْمَةُ عِنْدَ الْقِيَاسِ بِغَيْرِهَا تُرَى نِعْمَةً لَا شُكْرٌ لَدَى كُلِّ يَقْمَةٍ

وَإِنَّمَا أوردتُ هَذِهِ الْأَمْثَالَ ، وَأَطْلَعْتُ النَّفْسَ فِي بَيَانِ هَذِهِ الْأَحْوَالِ ، لِتَأْخُذَ مِنْهَا حِفْظًا ، وَتَكْتَرِّهَا فِيهَا أَوْدَعَتَهُ حِفْظُكَ ، وَتَجْرِي بِهَا لَيْلًا وَنَهَارًا لَفْظُكَ ، حَتَّى تَصْلَحَ لِمُنَادِمَةِ الْمَلِكِ ، وَلَا يَعْلُقُ بِذِيْلٍ مَكَاتِيكَ مِنَ الْحَسَادِ مُرْتَبِكٌ ، وَتَرْضَى بِأَيِّ مَقَامٍ أَقَامَكَ فِيهِ ، وَتَعْلَمُ أَنَّهُ أَغْلَى مَقَامٍ تَرْضِيهِ ، حَيْثُ هُوَ لَكَ يَرْضِيهِ ، وَتَجْعَلُ مُورِدَ لِسَانِكَ ، وَمَقْعَدَ جَنَانِكَ ، فِي طَلِبِكَ رِضَاهُ ، مَا كُنْتُ أَنْشُدُكَ إِياهُ ، مِنْ قَدِيمِ الزَّمَانِ ، وَأَنَا عَلَيْهِ الْآنَ وَهُوَ :

وَأَعْلَنِي مَقَامِي وَأَسْنَى وَطَائِفِي وَأَحْسَنَ أَمْعَانِي الَّذِي أَنْتَ تَرْضَاهُ :

فَقَالَ الذِّكْرُ ، مَا أَحْسَنَ عَقْدَ هَذِهِ الدُّرَرِ ، لَقَدْ أَفْصَحْتَ إِذْ نَصَحْتَ ، وَزَيَّنْتَ بِمَا بَيَّنْتَ ، فَجَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا ، وَكَفَاكَ ضَيْرًا ، فَحَقِيقٌ عَلَيَّ أَنْ أَقْتَدِيَ بِأَثَارِكَ ، وَأَهْتَدِيَ بِأَنْوَارِكَ ، فَمَا أَرْجَحُ مِيزَانَكَ ، وَأَغْزَرَ حُسْنَكَ وَإِحْسَانَكَ ، لَقَدْ جَمَعْتَ بَيْنَ فَصَاحَةِ النُّقْلِ ، وَرِجَاحَةِ الْعَقْلِ وَمَزَجْتَ رَوْحَ الْخِصَافَةِ ، بِبَدَنِ الظَّرَافَةِ ، وَجَلَوْتَ صُورَةَ النُّصِيحَةِ فِي غِلْمَةِ اللَّطَافَةِ .

ثُمَّ إِنَّمَا تَوَكَّلَا عَلَى الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ، وَقَصِدَا حَضْرَةَ مَلِكِ الطَّيْرِ الْعُقَابِ ، فَوَاصِلَا السَّيْرِ بِالسَّيْرِ ، وَاسْتَبَدَلَا السَّهْرَ بِالْكُرَى ، وَلَمْ يَزَالَا فِي سَيْرٍ مَجْدٍ ، وَطَلَبِ مَكْدٍ ، بَيْنَ الْإِدْلَاجِ وَالْدَّلْجَةِ مِقَارِنَ ، حَتَّى وَصَلَا إِلَى جَبَلِ قَارِنَ ، وَكَانَ عِنْدَ

العُقاب ، أحدُ المقرَّبين من الحُجَّاب ، يُؤيِّسُ^(١١٩) نفسي الجَوْجُو^(١٢٠) ، نفسي اليؤيُّ^(١٢١) ، أحسنُ منظراً من اللؤلؤ ، صورته مسعودة ، وسيرته محمودة ، وهو بين أولئك الطير ، مشكورُ الأحوالِ مشهورُ الخير ، وفيه من المعرفة والدين ، والعقل الرصين ، والرأي المتين ، ما يصلحُ أن يكونَ به مُقتدى السلاطين ، وعنده من الوقوفِ على دقائق الأمور ، ما فاقَ به الجمهور ، وساد به على سائرِ الطيور ، وكان صيته قد اشتهر ، حتى ملأَ البدو والحضر . فترك النجدي ، بنت السعدي ، في مكان ، وقصد اليؤيُّ ليعرضَ عليه ما له من شان ، فوصل إلى جنبه ، وأتى بيتَ مقصده من باب ، حتى دخل عليه ، وقبلَ يديه ، وثقل لديه ، فتوجه اليؤيُّ إليه ، وأشار بتفريجه منه ، وأزال دواعي الوحشة عنه ، وأقبل عليه بكلَّيته ، وزاد في إكرامه وتحيته ، وسأله عن مَحْتَدِهِ^(١٢٢) وجرثومه^(١٢٣) ، وما سببُ تجشُّمِهِ في قدومه ، ومن أين حلَّ ركبهُ ، وما قصده وطلابه ؟ فأنشده بديها ، ولم يقلْ إليها ، مفصيحاً معلناً ، مستعيناً مضمناً :

لَقَدْ قَصَّ رَيْشِي الدُّهْرُ عَنْ كُلِّ مَطْلَبٍ وَأَهْمَنِي سَعْدِي بِأَنَّكَ رَائِشٌ
فَفِي سَمَرِي مَدَّ كَهَجْرِكَ مُفْرِطٌ وَفِي قَصْصِي طَوْلٌ كَصَدِّكَ فَاحِشٌ

ثم قال : أعلمُ أيها الرئيس ، المحتشمُ النفيس ، أن مولدي في جبلٍ من جبال آذربيجان^(١٢٤) ، في مكانٍ يُضاهي الجنان ، ويباهي روضة رضوان ، أنزله من عنصرِ الشباب ، وأفكَّه من معارقة الأتراب ، وأزفَّه من منادمة الأحباب ، على رفيقِ

(١١٩) اليؤيُّ : طائر من جوارح الطير ، كالباشق ، وهو طائر صغير قصير الذنب .

(١٢٠) الجوجو : الصدر .

(١٢١) اليؤيُّ : الأصل . وأيضا : إنسان العَيْنِ والعَيْنان جازان ، على سبيل المجاز .

(١٢٢) المحتد : الأصل .

(١٢٣) جرثومه : أصله .

(١٢٤) آذربيجان : منطقة في إيران على حدود القوقاز وروسيا وتركيا والعراق .

الشراب ، نشأت فيه مع قريبة ، جميلة أمينة ، ففضيت فيه غصن^(١٢٥) العمر ، وزجيت فيه بضّ الدهر^(١٢٦) ، قانعاً بما تيسّر من الرزق ، فارغاً عما في أيدي الخلق ، متمسكاً بذيل العزلة ، أعدّ الانفراد نعمة جزلة ، مكرراً درس : ثلاثة تحمّ النفس ، القرينة الصالحة ، والجار المونس ، والكفاف من القوت ، ومما كنت أنشدت ، وفي مبدأ أمرى أرشدت :

وَحَسْبُ الْقَتَى قُوْتُ وَجِلٍّ وَزَوْجَةٌ لِيَتَاخَ فِي الدُّنْيَا وَيَكْتَسِبَ الْآخِرَى

و كنت من الدهر على هذا اقتصرت ، ومن لذيل العيش على القناعة اختصرت ، ولكن كان مارأنا ، ومصيفنا ومشتاننا ، محلّ الحوادث ، وممرّ العواث والعواث^(١٢٧) ، ومعبراً لمصائب الصيد ، ومورداً لمواطئ عمرو وزيد . فكنا كلّما وُلِدَ لنا مولود ، وتجدّد لنا بالبهجة والابتهاج عهود ، وحصل للعين قرة^(١٢٨) ، وللروح مسرة ، نقول هذا يبغي ذكرنا بعدنا ، ويحيى آثارنا عند حلولنا لحدنا^(١٢٩) ، فلم يكن أسرع من هجوم خاطف ، أو هبوب ريح نكبة عاصف ، يخطفه من بيتنا ، ويجذبه من قلبنا وعيننا ، فإن سلّم من تلك المكائد ، وتخلّص من سهم المصائب والمصائد ، حطّمت عساكر الملك المتصورة ، وملأت الأقطار الجنود الموفورة ، فلا يخلو منها مكان قدّم ، إلا وقد غصّ بمواطئ تلك الأمم ، فتذهب منّا قرة العين ، وتدهك^(١٣٠) غلظاً تحت الرجلين ، وهذا هو البلاء الطام^(١٣١) ،

^(١٢٥) غصن : يقال غصن النبات وغره أي صار طرياً رقيقاً ناعماً . وغصن العمر : أوّل شبابه .

^(١٢٦) بضّ : يقال بضّ بضاً أي رقيقة نضرة ، وبضّ الدهر : أجمل أيامه وأسهلها .

^(١٢٧) العواث والعواث : ما يفسد ويدمر ويخرب ويهلك .

^(١٢٨) القرة : ما تقر به العين ، لما يرضى ويُسّر .

^(١٢٩) الحد : الحفرة أو القبر .

^(١٣٠) دحك الشيء طاحته ، كسره ، داسه ..

^(١٣١) الطام : الغلظ .

والمصاب العام ، ولا بُدَّ منه في كلِّ عام ، فكانه أُنْبِئها النبيُّ النبيل ، في شأننا قد قيل :

أَيَا ابْنَ آدَمَ لَا يَغْرُوكَ عَافِيَةٌ عَلَيْكَ شَائِلَةٌ فَالْعُمُرُ مَمْدُودٌ
مَا أَنْتَ إِلَّا كَزَرْعٍ عِنْدَ خَضْرَوِهِ بِكُلِّ شَيْءٍ مِنَ الْأَقَاتِ مَقْصُودٌ
فَمَا سَلِمْتَ مِنَ الْأَقَاتِ أَجْمَعِهَا فَانْتَ عِنْدَ كَمَالِ الْأَمْرِ مَحْصُودٌ

فضاق منا لهذا العطن^(١٣٧) ، فلم أرَ أَوْفَقَ من مُفَارَقَةِ السَّكَنِ ، وللمهاجرة من الوطن ، فعرضتُ على القرينة هذه الحال ، وأشرتُ عليها بالارتحال ، وقلتُ لها المرءُ من حيث يُوجد ، لا من حيث يُولد ، فَأَبَتْ وَكَبَتْ^(١٣٨) ، وشاقت^(١٣٩) في ذلك وَبَّتْ^(١٤٠) ، فلا زلنا نتحاورُ ونتشاور ، ويرمي كلُّ منا سهمَ رأيهِ إذ يساور^(١٤١) ، حتى لَأَنْتَ أَخْلَقُهَا الصَّعْبَةَ ، بعدَ أَنْ ثَلَّتْ^(١٤٢) ما في الجعبة . ثم أعطتُ القوسَ باريها ، وسلَّمت الدارَ بانيها ، وأدركتُ من ملامح مقاصدي معانيها ، وسمحتُ بالانتقال من تلك البلاد ، وسلَّمتُ إلى يَدِ تدهيري زِمَامَ الانقياد ، فرحلنا من شَقَّةٍ^(١٤٣) بعيدة ، وقاسينا شِدَّةً شديدة ، وقصلنا هذا الحرم ، إذ رأيناه مشتملاً على اللطيفِ والكرم ، وقطعنا شباكَ مصائد ، وخلصنا من إشراكِ كلِّ صائد ، وفطمنا أنفسنا عن حَبَاتِ الطمع ، وتجرَّعنا من كَأْسَاتِ الجزع ، وأقْداحِ الفزع ، جُرْعاً بعد

(١٣٧) العطن : ميرك الإبل ، أو مريض الغنم أو مكان العثِّ للطيور ، خاصة حين يكون قريبا من الماء .

(١٣٨) كَبَتْ : رفضت ، وَقَلَّتْ الأمر على وجوهه .

(١٣٩) شاقت : هاجت وثارت .

(١٤٠) وَبَّتْ : لم تستقر على رأى ، بل رفضته في بادئ الأمر .

(١٤١) يساور : يواكب الآخر في رأيه ، ويغالبه أو يضارعه والمساورة : المحادثة .

(١٤٢) ثَلَّتْ : أخذت . هلمت ، تراجمت وتنازلت .

(١٤٣) الشَّقَّةُ : الناحية البعيدة ، والسفر البعيد ، والمسألة يَشُقُّ قطعها .

جُرْع^(١٣٩) ، فوصلنا بحمدِ الله إلى جنابك الأمين ، وبَشَرْنَا مُبَشِّرُ الإقبالِ آنسَكَ لِكُلِّ
خيرٍ ضمين ، فحملنا عند صباح الفلاح السُّرى وأنشدنا لسان السَّعدِ مُبَشِّرًا :
وَجَدْتَ مِنَ الثَّغَا كَرِيمًا تَوْفَهُ لِنَفْعِ مُلِمٍّ أَوْ لِنَيْلِ جَزِيلِ

وإن لم يكن بيتنا سابقة خدمة ، لكنَّ تَعَارُفَ أرواحنا له قَدَمَةٌ ، مع أنَّ كَرَمَ
ذاتِكَ الجميلة ، وما جَبَلَتْ عليه من صفاتٍ نبيلة ، يُغني قاصدَ صدقاتِكَ عن
واسطةٍ ووسيلة . وَوَاللهُ إِنِّي لَوَاقِقُ ، بِأَنَّ ظَنِّي لوفاءٍ مكارمِكَ صادق ، فأسأَلُ
إحسانَكَ يا ذا الخير ، لإيصالي إلى خدمةٍ مِلكِ الطير ، وإن كانت رِفْعَةُ مكانه في
العِوَقِ^(١٤٠) ، ودون الوصولِ إليه ييضُ الأُنُوقِ^(١٤١) ، لكنَّ بواسطة الوسيلة ،
يحصلُ هذا الشرفُ والفضيلة ، ولا زالتِ الرؤساءُ والأكابر ، يأخذون بِبَيْدِ الضعفاءِ
والأصاغر ، ولرَأْيِكَ العُلُوّ ، والشرفُ والسُّموّ ، والعطفُ والحنو . فاهْتَرَّ اليَويؤُ لهذا
الكلامِ وارتاح ، وظهر في وجهه تباشيرُ المسرَّةِ والارتياح ، وأنشد :

قَدِمْتُ بِأَنْوَاعِ الْمَسْرَةِ وَالْهَنَاءِ عَلَيَّ خَيْرٌ مَنَزُولٍ وَأَيِّمَنَ طَائِرِ
فَاهْلاً وَسَهْلاً ثُمَّ أَهْلاً وَمَرْحَباً وَبَشْرَى وَبَشْرَى بِالْغُلَا وَالْبَشَائِرِ
أَعْلَمُ أَنَّ قَدُومَكَ قَدُومُ صِدْقٍ ، ومِرافَقَتِكَ^(١٤٢) سَبَبُ الرِّفْقِ ، ورُؤْيَاكَ فَتَحُ بابِ
الفتح ، وروايتُكَ غِذاءُ القلبِ وراحةُ الروح . أبشِرُ بِكُلِّ ما تَوَسَّلَ وتَخْتار . فقد
ذهَبَ العنار ، وجاء الأمنُ واليسار ، أصبَتْ مرامِكَ ، وزينتَ مقامَكَ ، وأنستَ
منزَلَكَ ، وأوتيتَ مأمَلَكَ . فَطِيبَ خَاطِرَكَ ، وبَشِّرْ أَهْلَكَ وعشائِرَكَ ، وأخْبِرْ غَائِبَكَ
وحاضِرَكَ . ولقد قاذَكَ الرَّأْيُ المسديد ، والأمرُ الرشيد ، والفألُ السعيد ، حتى

^(١٣٩) الجُرْع ، مفردُها جرعة ، والمجرعة من الماء : حَسَوَةٌ منه ملءُ القم .

^(١٤٠) العِوَق : نجم أحمر مضئ في طرفِ المجرَّة .

^(١٤١) الأُنُوق : العقاب أو الرخمة ، حيث الوطن العالی والوكر المرتفع ، البعيد الخال .

^(١٤٢) المرافقة : زوجة الحجل التي ترافقه .

أَوَيْتَ إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ، وَمَلِكٍ كَرِيمٍ ، خَلَقَهُ عَظِيمٍ ، وَفَضْلُهُ جَسِيمٍ ، وَجُودُهُ عَمِيمٍ ، وَنَظِيرُهُ عَدِيمٍ ، رُؤُوفٌ بِرِعَّتِهِ رَحِيمٍ ، لَا يَخْجِبُ أَمْلُهُ ، وَلَا يَرِيبُ سَائِلُهُ ، وَلَا يَقْطَعُ وَاصِلُهُ ، وَلَا يُجْنَعُ حَاصِلُهُ ، لَقَدْ أَتَيْتَ مَسَاعِيكَ أَزْهَارَ الْأَمَنِ وَالْأَمَانِ ، وَتَفَتَحْتَ لَوْرُودِكَ فِي رِيَاضِ سَعْدِ الزَّمَانِ ، نَوَاطِرُ نَرْجِسِ النِّعْمَةِ وَشَقَائِقُ فَضْلِ النِّعْمَانِ . فَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا الْمَلِكَ ذُو جَنَانٍ مَنِيْعٍ ، وَقَدَرٍ رَفِيعٍ ، وَبَيَانٍ مَعَانِيهِ بَدِيعٍ ، عَزِيزُ الْمَنَالِ ، جَامِعٌ لِصِفَتِي الْجَمَالِ وَالْجَلَالِ ، قَدْ اخْتَارَ الْعَزْلَةَ فِي رُؤُوسِ الْجِبَالِ ، فَلِلْمَلِكِ طَبْعُهُ لَا يَخْلُو مِنْ جَسَاوَةٍ^(١٤٧) ، وَقَلْبُهُ مِنْ قَسَاوَةٍ ، وَإِنْ غَذَاهُ مِنَ اللَّحُومِ ، وَمِنَ الْحَيَوَانَاتِ مَشْرُوبُهُ وَالْمَطْعُومُ^(١٤٨) ، مَخَالِيْبُهُ كَالْأَسَلِ ، وَيَلْجَأُ إِلَى اللَّهِ إِذَا نَسَرَ مَنْقَارُهُ وَنَسَلَ ، وَحَقِيقَةُ أَمْرِهِ إِنَّ كُنْتَ عَنْهُ تَسَلُ :

مُتَقَرَّرٌ مُرٌّ عَلَى أَغْدَائِهِ وَعَلَى الْأَذْنَانِ حُلُوٌّ كَالْقَمَلِ^(١٤٩)

فَإِذَا التَّجَأَ إِلَيْهِ فَقِيرٌ ، أَوْ آوَى إِلَيْهِ أَضْعِيفٌ أَوْ كَسِيرٌ ، أَوْ قَصَدَهُ مَحْتَاجٌ ، أَوْ سَلَكَ إِلَى بَابِ مَرَضَاتِهِ مِنْهَاجٌ ، فَلَا يُمْكِنُ أَلْطَفُ مِنْهُ وَلَا أَشْفَقُ ، وَلَا أَقْرَبُ مِنْ عَطْفِهِ عَلَى مُؤَمِّلِيهِ وَلَا أَرْفَقُ ، فَهُوَ كَمَا قِيلَ :

* يَبْضُ قَطًّا يَحْضُنُهُ أَجْدَلُ^(١٥٠) *

وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ ضَمِيرَ الْمُنِيرِ ، خَالٍ مِنَ الْمَكْرِ طَاهِرٌ مِنَ التَّزْوِيرِ ، لَا يَعْرِفُ خَتْلًا وَلَا عَدِيْعَةً ، وَلَا خِيَانَةً وَلَا وَضِيْعَةً ، وَلَا كَلْبِيًّا وَلَا قَطِيْعَةً ، وَلَا فِي مَخَاطِرِهِ فُسَادٌ ، وَلَا عِنْدَهُ سُوءُ اعْتِقَادٍ ، وَلَا يَعْرِفُ غَيْرَ الْحَقِّ ، وَلَا يَقُولُ إِلَّا الصَّادِقَ ، وَذَلِكَ لِثَبَاتِهِ عَنْ مُخَالَطَةِ النَّاسِ ، وَغُرُوبِهِ عَنْ كُلِّ ذِي وَسْوَاسٍ^(١٥١)

^(١٤٧) جَسَاوَةٌ : صِلَابَةٌ وَخَشَوَةٌ .

^(١٤٨) مُتَقَرَّرٌ : صَارَ مُرًّا ، وَالْأَذْنَانِ : الْأُفْرَيْنِ .

^(١٤٩) الْقَطْلُ : وَاحِدُهَا قَطْلَةٌ ، وَهُوَ نَوْعٌ مِنَ الْبِمَامِ يُوَثِّرُ الْحَيَاةَ فِي الصَّحْرَاءِ ، وَيَتَعَذَّ الْأَنْحُوصَةُ فِي الْأَرْضِ ، وَيَبْضُهُ مَرْقَطٌ . وَالْأَجْدَلُ : الصَّبْرُ .

^(١٥٠) الْوَسْوَاسُ : الشَّيْطَانُ .

وختاس^(١٤٧) . فلقد اتفق العالم ، أن صحبة بني آدم ، سم قاتل ، وهم باطل^(١٤٨) ، فإن ذابهم المكر والتليس ، والخذاع والتدليس ، وحسبك قول شاعرهم ، في كشف ضمائرهم ، وشرح حقيقة سرائرهم :

كُنْ مِنَ النَّاسِ جَابِياً كَيْ يَظُنُّوكَ زَاهِياً
قَلْبُ النَّاسِ كَيْفَ أَتَيْتَ تَجِدُهُمْ عَقَابِياً

ولقد أرشد من أشد :

تَبَوَّأَ آدَمُ إِنْ زَمْتَ مِنْ خَيْرِهِمْ جَنَى فَأَخْلَى الَّذِي تَخِيهِ مِنْ وَصْلِهِمْ صَبْرُ^(١٤٩)
مَكَارِهِمْ فَكَّرَ وَزَوَّيْتُهُمْ رِيَا وَوَدُّهُمْ مَوَدَّ وَخَبَرْتُهُمْ كَسْرُ^(١٥٠)

فإن كان فيهم صالح أنسلوه ، وإلى سبل الضلال أرسلوه ، والكلام في هذا المقام ، لا يبلغ التمام ، فيكتفى بالقليل ، عن الجليل ، وشمس النهار لا يحتاج في وجودها إلى دليل . فانهض الآن ، فقد آن التوجه إلى خدمة السلطان فما كل زمان يحصل هذا الإمكان ، فإن الاجتماع به كل وقت مشكل ، فتوكل على الله يا أحسن متوكل ، فإذا دخلت عليه ، وتمثلت بين يديه ، فاعرف ، كيف تقف ، وانظر يا ذا الكمال ، ماذا يناسب الحال ، ويقتضيه المقام ، من فعل وكلام ، فاسلك طريقته ، وراع مخارج حقيقته ، وادخل معه من ذلك الباب ، ومثلك لا يدل على صواب ، فما أسرع اللطف ، وأقرب العنق ، من حركات الملوك والكبراء ، وأبعد الرفق ، وأشد الخرق ، من ملكات السلاطين والخلفاء ، وأقصى مدايتهم إذا غضبوا ، وأوحش مؤانسهم إذا صخبوا ، وأقرب مباعدتهم إذا عطفوا ،

^(١٤٧) الختاس : الشيطان .

^(١٤٨) باطل : قاطع .

^(١٤٩) الصبر : نيات الصبر أو المر .

^(١٥٠) رياء : رياء .

وَأَعْجَبَ مُنَادِهِمْ^(١٠١) إِذَا لَطَفُوا ، وَيَكْفِيكَ يَا ذَا الْعَقْلِ الْمُتَيْنِ ، مَا قِيلَ فِي شَأْنِ
الْمُلُوكِ وَالسَّلَاطِينِ :

إِنَّ الْمُلُوكَ بِلَاءٌ إِيْنَمَا حَلُّوا فَلَا يَكُنْ لَكَ فِي أَكْثَانِهِمْ ظِلُّ
مَاذَا تَوَمَّلْ مِنْ قَوْمٍ إِذَا غَضِبُوا جَارُوا عَلَيْكَ وَإِنْ أَرْضَيْتَهُمْ مَلُّوا
وإِنْ مَلَّحْتَهُمْ ظَنُّوكَ تَخَلَّضَهُمْ وَاسْتَظْلُوكَ كَمَا يُسْتَظَلُّ الْكَلُّ^(١٠٢)
فَاسْتَعْنِ بِاللَّهِ عَنْ أَوْبَائِهِمْ كَرَمًا إِنَّ الْوُقُوفَ عَلَى آبَائِهِمْ ذُلُّ

وقال سيّد الأنعام طرّاً : لا تجاور ملكاً ولا بحراً ، فإن رَضُوا رَفَعُوا فوقَ الأفلاك ،
وإن غَضِبُوا والعياذُ باللهُ فهو الهلاك . وناهيك من تقلباتِ الملوك ، يا ذا الإرشادِ في
السُّلُوكِ ، أطفأ اللهُ غَضَبَهُمْ عنكَ ، قَضِيَّةٌ صدرت من تيمورلنك . فَسَالَ فَحُلُّ
الحَجَلِ ، الوزيرُ الأَجَلِ ، بيانُ ذلك المثل ، الصادر من الأعرج الأشَلِّ .

[٦/٩] حكاية تيمور وغضب الملوك

فقال الدستور ، مما حُكي عن تيمور ، من وقائع الأمور ، وشدة عزمه وحزمه ،
وثباته على ما يقصده وحزمه ، وحلولِ يَقْمَتِهِ بِمَنْ يعارضه ويعاكسه ، فيما يرسمُ
به ويناقضه : أَنَّهُ لما توجهَ بالجنود ، إلى بلادِ الهند ، وذلك في سنة ثمانمائة ، وصل
بجيشه الطاغية ، إلى قلعة شاهقة ، أقرأَ الدَّرَّاري بِأَذَانٍ مراميها عاققة ، والرُّجُومُ
المارقة ، من النجومِ الخارقة ، تتعلَّمُ الإصابة من رشاقة سهامها الراشقة ، كان
هُزَامُ في مَهْوَاهُ أَحَدَ سَوَاطِيرِهَا^(١٠٣) ، وكيوانٌ في مَسْرَاهُ خَادِمَ نَوَاطِيرِهَا^(١٠٤) ،

^(١٠١) المناد : الناشر ، والمباعد الشارد .

^(١٠٢) الكَلُّ : الكليل الضعيف الفقير .

^(١٠٣) سَوَاطِيرُهَا .

^(١٠٤) حراسها .

والشمسُ في استوائها غُرَّةٌ جبينها ، وقطراتُ السحابِ في الانسكابِ ترشُّعٌ من قعرِ
مَيعِنِها ، وشُقَّةُ الشَّفَقِ الحمراء على آذانِ مرامِها وأنوفِ أبدانها سُراذِقُ ^(١٥٥) ،
وكُرِّيَّاتُ النُحُومِ في القُبَّةِ الخضراءِ لعيونِ مكاحيلها وأنفواهِ مدافِعِها طَابَاتُ ^(١٥٦)
وبنادق ^(١٥٧) ، وكَاكُ الثُّرَيَّا في انتصابِها ، قنديلٌ مُتعلِّقٌ على بابِها ، لا يهُومُ طائرُ
الوَهْمِ عليها ، فأنِّي يصلُ طائشُ السَّهْمِ إليها ، ولا يتعلَّقُ بِقَدَمِ خدمِها خَلْخالُ
خَيَالٍ وافئكار ، فَضْلاً عن أن يُحَلِّقَ على مِعْصَمِ عِصْمِها من عساكرِ الأساورِ ^(١٥٨)
سيوار . وفيها من الهنودِ طائفةٌ ، ثابتةُ الجنانِ غَيْرُ خائفة ، جهزتُ أهلها وما تخاف
عليه إلى الأماكنِ المعجزة ، وثبتتُ هي في القلعةِ حافظةً لها متحرزة ، مع أنها
شِرْذِمَةٌ قليلة ، وطائفةٌ ذليلة ، لا حَيزَ عندهم ولا مَيزَ ، ولا فائدةً سيوى الضررِ
والضَّيْر ، ولا للقتالِ عليها سبيل ، ولا حوالِها مبيتٌ ولا مَقِيل ، بَلْ هي مُطِلَّةٌ على
المقاتلةِ ، مستمكئةٌ على المقاتلةِ . فأنِّي تيمورُ أن يجاورَها ، دون أن يجاورَها بالحصارِ
ويناجزَها ، واللييبُ العاقل ، لا يتركُ وراءَهُ لُخْصِيه معاقل ^(١٥٩) . فجعلتُ للمقاتلةِ
تناوشَها من بعيد ، ويصبُ كُلُّ من أهلِها عليهم من أسبابِ المنايا ما يُريد . كما
يُريد ، وكان كُلُّ يومٍ يُقتل من عسكرِهِ ما لا يُحصى ، والقلعةُ تُزادُ بذلكِ إباءً
واستِغْصاء ^(١٦٠) ، وهو يأبى الرحيلَ عنها ، إلا أن يصلَ إلى غرضِهِ منها .

^(١٥٥) السُّراذِقُ : كل ما أحاط بشيء من حائط أو يطرِب ، وأيضا : القسطاط (على سبيل المجاز هنا) .

^(١٥٦) طابَات : مفردُها طابِه ، وهي الكرة ، تصنع هنا من طين ثم تحرق ، وترمى على العدو .

^(١٥٧) بنادق : كتل من الطين تكون كالبندي ، تجفف بالشمس أو تشوى على النار ، وتوضع في وسط وتر القوس ، ثم تشد مع الوتر وترمى إلى مكان بعيد بدل النبل .

^(١٥٨) الأساور : الرُّمَّة ، والأصل أساورُ الفرس ، أى قوادِها ، وكانوا مشهورين برماية الحنق والسهم وغيرها .

^(١٥٩) معاقل : حصون .

^(١٦٠) استغصاء : استعصاء .

ففي بعض أيام المحاصرة مُطِرُوا ، وبواسطة المطر انحصروا ، وصار يُحْتَمُّهم على القتال ، ثم ركب لينظر ماذا يصنعون في تلك الحال ، فلم يَرْتَضِ أفعالهم ، كما عكست أحوالهم أحوالهم ، فدعا رؤوس الأمراء ، وزعماء العساكر والكبراء ، وأخذ يمزق أديم عصمتهم بِشْفَارِ شَتْمِهِ ، ويشقّق سِتْرَ خُرْمَتِهِمْ بِمَخَالِبِ لَعْنِهِ وَذَمِّهِ ، ونفخ الشيطان في خيشوميه ، وألهب فيه نارَ غَضَبِهِ وَشَوْمِهِ ، وقال : يا لئام ، وأكله الحرام ، تتقلبون في نعمائي ، وتتوانون عن أعدائي ، جعل الله نعمتي عليكم وبالا ، وألبسكم بكفراؤها خيبةً ونكالا . يا نابذي اللحم ، وكافري اللحم ، وساقطي الهمم ، ومستوجي النقم ، ألم تطبّوا أعناقَ الملوك بأقدام إقدامي ، ألم تطهروا إلى الآفاق بأجنحة إحساني وإكرامي ، ألم تفتحوا مُغْلَقَاتِ الفتح بحسام صولتي ، أما سرحتم في منتزهات الأقاليم سوائِلَ تَحْكُمِكُمْ بزعية دولتي ، يبي ملككم مشارق الأرض ومغاربها ، وأذبتهم جامتها وأجذمت ذائبها :

أَلَمْ أَلَا تَارَا يَصْطَلِيهَا عَذُوبُكُمْ وَجِرْزَا لَمَّا أَلْجَفْتُمْ مِنْ وَرَائِيَا
وَبَاسِطَ خَيْرِي لِيَكُمُ يَمِينِيَا وَقَابِضَ شَرِّ عَنكِمْ بِشِمَالِيَا

ولا زال يُهَمِّهِمْ وَيُعَمِّقُهُمْ ، وَيَهَنِّرُهُمْ^(١٦١) وَيُزِيلُهُمْ ، وهم مُطَرِّقُونَ لا يحيرون جوابا ، ولا يملكون منه خطابا . ثم ازداد حنقا ، وكاد أن يموت حنقا ، فاحترط السيف بيده اليسرى ، وهَمَزَ به على قَمَمِ^(١٦٢) أولئك الأسرى^(١٦٣) ، وَهَمَّ أَنْ يَجْعَلَ رِقَابَهُمْ قَرَابَةً^(١٦٤) ، ويسقي من دماهم غل فرنده وذبابه^(١٦٥) ، وَهَمَّ على تلك الحال ، في الحزني والإذلال ، بإذلو أنفسهم ، ناكسوا رؤوسهم . ثم تراجع وتماسك ، ومَلَكَ

^(١٦١) يهزم : يصدر كلاما سريعا ، صاعيا ، غاضبا غير واضح .

^(١٦٢) قَمَم : رؤوس القادة العسكريين .

^(١٦٣) الأسرى : بمعنى المحاضنين من قواده وكبار عساكره .

^(١٦٤) قراب سيفه ، غمده .

^(١٦٥) الفرند : السيف ، وغملة وذبابه : مشاركة أو حدة الصقيل الحاد .

نفسه قليلاً أو تَمَالَكَ ، فَأَعْمَدَ عَنْ تَشْرِيقِهِمْ^(١٦٦) حُسَامَهُ ، ولم يُلقِ لأمْرِه دَبْرَةً ولا قَيْلَةً أمامه^(١٦٧) ، فغلف غريبه وشامه ، ثم نزل عن مركبه ، واستدعى الشَّنْطَرَنَجَ الكبيرَ ليلْقَبَ به .

وكان عنده ، مِيَمَنٌ فاقَ جندَه ، شخصٌ يُدْعَى "محمد قاجين" ذو مكان مكين ، ومقام أمين ، وهو مقدمٌ على كلِّ الوزراء ، مُبْجَلٌ دون سائرِ الأمراء ، وافرُّ الطَّوْلِ ، مقبولُ القول ، مسعودُ الزَّاي ، ميمونُ الفصل ، مرغوبُ الفضل ، محبوبُ الشكل ، فَتَشَفَّعَ الوزراءُ إليه ، وترأسوا في حَلِّ هذا الإشكال عليه ، وقالوا : ساعدنا ولو بلفظة ، وراقبنا ولو بلحظة ، واعمل معنا ، بهذا المعنى ، وهو :

سَاعِدْ بِجَاهِكَ مَنْ يَهْتَكَ مُفْتَقِرًا فاجودُ بالجاءِ فوقَ الجودِ بالئالِ

فاجابههم والتزم ، أن يردّه عما نأزم به وأزم ، وراقب مجالَ المقال ، وراعى فُرْصَ المجال ، وشرعت أفكارُ تيسور ، تغورُ في أمرِ القلعة وتفسور ، وجعل يستصوي أضواءهم ، ويستوري آراءهم ، ولا يسعُ كلُّ منهم إلا القبول ، لما يستصوبه رأيه ويقول . فقي بعضُ الأحايين ، اتفق أن قال محمد قاجين ، وقد زلَّ به القضاء ، وأحاطت به نوازلُ البلاء : أطالَ اللهُ بقاءَ مولانا الأمير ، وفتح عفتايح آرائه ورايائه حصنَ كلِّ أمرٍ عسير ، هَبْ أَنَا فَتَحْنَا هَذِهِ الْقَلْعَةَ ، بعد أن أُصيبَ مِنَّا جانبٌ من أهلِ النجدةِ والمنعة ، هل يفي هذا بهذا ؟ ، أم هل يوازن هذا النفع بهذا الأذى ؟ فما احتفل بخطابه ، ولا اشتغل بجوابه ، بل استدعى شخصاً من الرقديارية^(١٦٨) ، قبيحَ المنظرِ إلا أنه في هيئة ذرية ، يُدْعَى "هراملك" ذَا عُرْفٍ سَهْكَ^(١٦٩) ، ووجوه في

^(١٦٦) تشریق الحسام : صبغه باللون الأحمر (الدم) كتابة عن القطع والقتل .

^(١٦٧) الدبيرة : ما يُستدبر ، نقیض القيلة . ويقال : ليس لهذا الأمر دَبْرَةٌ ولا قَيْلَةٌ : لا يعرف له وجه .

^(١٦٨) الرقديارية : حاملو البندود والرايات .

^(١٦٩) سهك : ذو راحة كريمة .

السَّوَادِ سَدَكُ^(١٧٠) ، أَوْسَخُ مَنْ فِي الْمَطْبَخِ ، وَأَسْنَخُ^(١٧١) مَنْ فِي الْمَسْلَخِ ، لَعَابُ الْكَلْبِ طَهُورٌ عِنْدَ عَرَقِهِ ، وَغُصَّارَةُ الْقَبْرِ^(١٧٢) حَلِيبٌ بِالنَّسْبَةِ إِلَى مَرْقِهِ ، فَعِنْدَ مَا حَضَرَ لَدَيْهِ ، وَوَقَعَ نَظَرُهُ عَلَيْهِ ، أَمَرَ بِثِيَابِ مُحَمَّدٍ قَاوَجِينَ فَتَزَعَّتْ ، وَبَخِلَقَانِ هِرَامَلِكٍ فَخَلِيعَتْ ، ثُمَّ أَلْبَسَ كُلًّا ثِيَابَ صَاحِبِهِ ، وَشَدَّ وَسَطَهُ بِجَبَابِيَّتِهِ^(١٧٣) وَدَعَا دَوَاوِينَ^(١٧٤) مُحَمَّدًا وَمُبَاشِرِيهِ^(١٧٥) ، وَضَابِطِي نَاطِقَهُ وَصَامَتَهُ^(١٧٦) وَكَاتِبِيهِ ثُمَّ نَظَرَ مَالَهُ مِنْ نَاطِقِي وَصَامَتِ^(١٧٧) ، وَنَامٍ وَجَامِدٍ ، وَمِلْكٍ وَعَقَارٍ ، وَأَهْلٍ وَدِيَارٍ ، وَخَسَمٍ وَخُدَمٍ ، مِنْ عَرَبٍ وَعَجَمٍ ، وَأَوْقَافٍ وَأَقْطَاعٍ ، وَبَسَائِينَ وَضِيَاعٍ ، وَخُؤُولٍ وَأَتْبَاعٍ ، وَبَخِيلٍ وَجِمَالٍ ، وَأَحْمَالٍ وَأَنْقَالٍ ، حَتَّى زَوْجَاتِهِ وَسِرَارِيهِ ، وَعَصِيدِهِ وَجَوَارِيهِ ، فَأَنْعَمَ بِذَلِكَ كُلَّهُ عَلَى ذَلِكَ الْوَسِيخِ ، وَأَمْسَى نَهَارُ وجودِ مُحَمَّدٍ قَاوَجِينَ الزُّنْخَ ، وَهُوَ مِنْ لَيْلِ تِلْكَ النِّعْمَةِ مُنْسَلَخٌ .

ثُمَّ قَالَ تَيْمُورٌ ، وَهُوَ كَالنَّمُورِ يَمُورُ ، أَقْسَمُ بِاللَّهِ وَأَيَّاتِهِ وَذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ ، وَوَحْيِهِ وَكَلِمَاتِهِ ، وَأَرْضِيهِ وَسَمَوَاتِهِ ، وَكُلِّ نَبِيٍّ وَمُعْجَزَاتِهِ ، وَوَلِيِّ وَكَرَامَاتِهِ ، وَبِرَاسِ نَفْسِيهِ وَحَيَاتِهِ ، لَنْ أَكُلَّ مُحَمَّدًا قَاوَجِينَ أَحَدًا أَوْ شَارِبَهُ ، أَوْ مَاشَاهُ أَوْ صَاحِبَهُ ، أَوْ كَلَّمَهُ أَوْ صَافَاهُ ، أَوْ آوَى إِلَيْهِ أَوْ آوَاهُ ، أَوْ رَاجَعَنِي فِي أَمْرِهِ ، أَوْ شَفَعَ عِنْدِي فِيهِ أَوْ وَفَاهُ بَعْدَهُ لَأَجْعَلَنَّهُ مِثْلَهُ ، وَلَأَصِيرَنَّهُ مِثْلَهُ . ثُمَّ طَرَدَهُ وَأَخْرَجَهُ ، وَقَدْ سَلَبَهُ نِعْمَتَهُ

(١٧٠) سَدَكُ : مَلَازِمُهُ السَّوَادُ .

(١٧١) سَنَخَ : تَنَنَ ، زَنَخَ .

(١٧٢) الْقَبْرِ : الْقَارِ أَوْ الزُّفْتِ .

(١٧٣) حِجَابَةٌ : الْحِزَامُ .

(١٧٤) دَوَاوِينَ : كِتَابُ دَوَاوِينِهِ الْخُصُوصِينَ .

(١٧٥) مُبَاشِرِيهِ : مَوْظُفِيهِ الْمُشْرِفِينَ عَلَى أَعْمَالِهِ الْخَاصَةِ .

(١٧٦) ضَابِطِي نَاطِقَهُ وَصَامَتَهُ : لِلْمُشْرِفِينَ عَلَى ذِخْلِهِ مِنْ ذَهَبٍ وَفُضَّةٍ .

(١٧٧) مِنْ نَاطِقِي وَصَامَتِ : مِنْ ذَهَبٍ وَفُضَّةٍ .

وأخرجَه ، فصار مسلوب النعم ، قد حلت به في لحظة نوائب النقم ، فسحبوه بالولق^(١٧٨) ، ورأى نعمته على أقبل الخلق ، واتصل غيره بالخلق ، وقُطع منه الخلق ، فَقَلِقَتْ حَبَّةُ قَلْبِهِ أَشَدَّ قَلْقًا ، ولم يزل على ذلك في عَيْشٍ مُرٍّ وَعُصْرٍ حَالِكٍ . وحاشا أن تشبه قضيته قصة كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ ، فكان يستحلي مرارة الموت ، ويستبطئ إشارة الموت ، وكل لحظة من هذا الخيف ، أشد عليه من ألف ضربة بالسيف . فلَمَّا هَلَكَ تيمورُ أحياء ، ورد عليه "خليل سلطان" ما كان سلبه جده إياه .

ولمَّا أوردت هذه السيرة ، يا زكي السيرة ، لتقيس على هذا المثل نظيره ، وتعرف أخلاق الملوك ، ومعاملاتهم الغني والصلوك ، وأنظرهم نصار ، وإغراضهم يوارٍ ودمار ، ومن أراد أن يطلع على سير القضاء والقدر ، فليقرأ قب شفتي الملك إذا أنهى وأمر ، وقال ، مَنْ أَحْسَنَ الْمَقَالَ :

قُرْبُ الْمُلُوكِ يَا أَخَا الْقَدْرِ السَّمِيُّ حِطٌّ جَزِيلٌ بَيْنَ شِدَائِي ضَيْقِي

واعلم يا أبا الفضائل ، أن هذا الملك له شمائل ، وصفات وفضائل ، يُسْتَدَلُّ بظاهرها على باطنها ، ويُتَوَصَّلُ بظهورِ باديها على حركات كامنها ، فإيَّاكَ أَنْ تَغْفَلَ عن مراقبتها ، وتهمل حال عاقبتها ، بل اجعل شواهدا نصب عينك ، لتقرب من حياتك وتبعد عن حزنك^(١٧٩) .

منها إذا رأيته رجع من الاصطياد ، ظافراً منه بالمراد ، وقد اقتنصه وحصله ، وملأ منه الحوصلة ، وسكنت منه بواعث الشره ، التي هي منفخ لواصي الطيش والسفة . ومنها إذا رأيته جلس في مجلس السرور ، ويسط لجهة الكرم جناح النشاط والخيور ، وضَمَّ عن مطامح الخرص القوائد والخوافي ، وطلب من رؤساء

(١٧٨) سحبوه بالولق : أى دفعوه دفعاً سريعاً متلاحقاً بالضرب والطمع .

(١٧٩) الحين : الموت .

المملكة الأنيس المصافي ، ومن ندناء الحضرة الجليس الصافي ، ومن مطربي الأطيّار ،
 البلبل والحَزَار ، ومن رقص بلغوف الأزهار ، وصفق من ذي عود وطار ، فاستمع
 لهذا وباسط ذاك ، وطفق جلساؤه ما بين منصت وحاك ، فإن هذه الأوقات ، لما
 فيها من علامات ، هي الانبساط ، وأيام الفرح والنشاط ، فاعمل فيها ما يدلك ،
 واطنب مقالك ، وكرز جوابك وسؤالك ، فإنك في كعبة الأمن فاستلّمها ، وقد
 هبت رياحك فاغتنمها ، والعيب بساطيك ، وصفق بجناحيك ، واهدر في
 تقفّتك^(١٨٠) واسجع في بقبقتك^(١٨١) ، فإن الوقت لك لا عليك ، والسعد الطالع
 ناظر إليك .

ومنها إذا رأيته جالسا صامتا ، أو إلى الأرض باهتا ، أو مخمرة عيونه ، أو
 مضطربا سكوته ، أو أفعاله على غير استواء ، أو أقواله دائرة مع الهواء ، فإياك
 والدخول عليه ، والمثول بين يديه ، فإنه إذ ذاك يجعل ديار جسدك بلاقيع ، ولو أنك
 النسر الطائر فتصير في مخاليبه أعمس واقع . وعلى كل حال ، فليكن عندك لكل
 مقام من هذه المقامات مقال ، وإن كان السكوت أصلح ، فاغلق باب الكلام قطعاً
 ولا تفتح ، فكثيراً ما تخلص الساكت من البلاء وأفلح ، وناهيك النصيح ، بقوله
 الفصيح ، وهو :

وراقب مقام القول في كل مجلس
 فكم من بلغ فوق ذروة منبر
 خصوصاً مقامات الملوك الأكابر
 رمتها الهاعي النطير تحت المقابر

قال المفلح النجدي ، للمرشد المجدي ، جرى الله مولانا عن صدقاته أوفر
 صلاته ، وواصله بموائد إكرامه في عشية وغداته ، فما أشمل إحسانه وحسناته ،

(١٨٠) تقفّتك : حركتك أثناء الكلام ورفع الصوت .

(١٨١) بقبقتك : كلامك الكثير ، أو ألقه جواً دون خوف أو اضطراب .

وأَسْعَدَ حَرَكَاتِهِ وَسَكَنَاتِهِ ، وَأَوْفَرَ شَفَقَتَهُ عَلَى قَاصِدِي عَتَبَاتِهِ ، طَالِبٌ أَنْتَ دَلِيلُهُ ،
 كَيْفَ لَا يُفْتَحُ إِلَى الْخَيْرِ سَبِيلُهُ ، وَيَرْجِعُ إِلَى حَصُولِ الْمَقَامِ مَبِيتِهِ وَمَقِيلِهِ ، ثُمَّ إِنَّ الْيُؤْيُؤَ
 الشَّفُوقِ ، تَرَكَهُمْ وَطَارَ إِلَى الْعِيُوقِ ، ثُمَّ رَجَعَ عَلَى الْفُورِ ، وَوَجَّهَهُ يَرْفُ كَالنُّوْرِ ،
 فَدَعَا الْيَعْقُوبَ^(١٨٢) ، وَتَوَجَّهَ وَهَبُو مَعَهُ مَصْحُوبٌ ، وَأَخْذًا فِي السَّيْرِ ، إِلَى خِدْمَةِ
 مَلِكِ الطَّيْرِ ، وَفَرَعَا^(١٨٣) فِي جَبَلٍ ، يُسَامِي فِي الْمَثَلِ ، قُبَّةُ الْفَلَكَ ، أَوْ مَرْكَزُ الْمَلِكِ ،
 يَسْتَمِدُّ السَّحَابَ مِنْ مَاءِ وَادِيهِ ، وَتَسْبُحُ سِيْمَاكَ السَّمَاءُ فِي بَحْرِ نَادِيهِ ، يَغْرِقُ جَبِينَ
 الْوَهْمِ مِنْ صَعُودِ عَقِبَاتِهِ ، وَيَقْصُرُ صَاعِدُ الْفِكْرِ فِي سُلْمِ الْهَوَاءِ عَنِ التَّرْقِيِ إِلَى أَدْنَى
 دَرَجَاتِهِ ، وَيَسْتَرْيِضُ رَاقِي الْخِيَالِ فِي عِدَّةِ مَوَاضِعٍ عِنْدَ قَصْدِهِ فُرُوعَ هَضْبَاتِهِ ، فَهُوَ
 كَمَا قِيلَ :

وَطَوْدٌ تَلُوحُ الشَّمْسُ مِنْ تَحْتِ ذَيْلِهِ إِذَا هِيَ فِي كَيْدِ السَّمَاءِ اسْتَقَرَّتْ

فَلَا زَالًا يَسِيرَانِ ، وَفِي الْجَوِّ يَطِيرَانِ ، الْيُؤْيُؤُ إِمَامٌ ، قَائِدُ الزَّمَانِ ، وَالْحَجَلُ وَرَاءَهُ
 يَنْشُدُ هَذَا الْكَلَامَ :

لِكُلِّ إِمَامٍ أَسْوَةٌ يُقْتَدَى بِهِ وَأَنْتَ لِأَهْلِ الْمَكْرُمَاتِ إِمَامٌ

فَوَصَلَا مِنْ تِلْكَ الْمَدَارِجِ ، إِلَى أَعْلَى الْمَعَارِجِ ، وَاتَّقَلَا فِي تِلْكَ الْمَسَالِكِ ، عَنْ
 دَرَكَاتِ الْمَهَالِكِ ، وَانْتَهَيَا إِلَى أَوْجٍ رَأْيَا مُلْكَةَ النَّيِّرَاتِ^(١٨٤) جَارِيَةً فِي حَضِيضَةٍ ،
 وَدُرَرِ الدَّرَارِي رَاكِدَةً فِي قَعْرِ مَغِيضِهِ ، يَشْتَمِلُ عَلَى مَرْوَجٍ وَرِيَاضٍ ، وَمِرَاعٍ
 وَغِيَاضٍ ، وَبَحَارٍ وَحِيَاضٍ ، تَنَادِي خَيْرَاتُهَا سُكَّانَ الرِّبْعِ الْمَسْكُونِ ، انْصِبَابُهَا عَلَيْهِمْ
 وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعِدُونَ ، رِيَاضٌ تَلَوَّنَتْ ، وَمَرْوَجٌ بَازُهَا يَرِيهَا تَحْسَنَتْ ،
 وَأَرْضٌ قَالَتْ لَهَا صَانِعُ الْقُدْرَةِ إِذْ تَمَكَّنْتَ ، تَكُونِي كَأَخْلَاقِ الْكِرَامِ فَتَكُونُتْ ،

(١٨٢) النُّوْرُ : الزَّهْرُ . وَالْيَعْقُوبُ كَتَبَهُ ذَكَرُ الْحَجَلِ .

(١٨٣) فَرَعَا : أَخَذَا طَرِيقًا صَاعِدًا .

(١٨٤) النَّيِّرَاتُ ، وَاحِدَةُ النَّيْرِ : الْمُنْضِي ، الْحَسَنُ اللَّوْنُ الْمَشْرِقُ .

وأخذت زُحرفها من رضوانِ خازنِ الجنانِ وأزيتتُ ، فَوَلَجَا دارَ سلطنة العُقَاب ،
بعد مفاصةٍ عِقَابِ العِقَاب ، كما قيل :

مَكَانًا فِيهِ مُلْطَنَانِ الطُّيُورِ تَصَبَّرَ بِالشُّرُوبِ عَلَى التَّوْبِ
أَطَافَ بِهِ صَنُوفُ الطَّيْرِ طُرًّا عَكُوفًا بِالْحُضُورِ وَبِالْخُيُورِ
لِكُلِّ فِي مُبَاهَرَةٍ مَقَامُ يَغُومُ بِهِ جَلِيلٌ أَوْ حَقِيرُ

قد اكتنفت اليمينُ والميسرة ، وأحلفت به الملقمةُ والموخرة ، كلٌّ واقفٌ في
مقابله ، شاهيته مع كرميه وبازيه مع حمامه ، فالأنيس^(١٨٥) صاحبُ العُرفِ
والكيس ، حاملُ القبزِ كالأوزان ، يترنمُ في مقابلةِ الإيوان^(١٨٦) ، ويمدحُ ملكَ
الطُيَار ، والأمراءُ والحضار ، والبكراءُ والنظار ، وينشدُهم جليلُ الأوصافِ وورقيقُ
الأشعار ، فَمِمَّا أنشدهُ من الأوزانِ في مناقبِ السلطان ، وقد وجَّه به الخطَّابُ ، إلى
العُقَاب ، قوله :

مَقَامُكَ أَعْلَى أَنْ يَقُومَ بِوَصْنِهِ يَبْسُتُ بِلَيْعٍ أَوْ لِسَانٍ فَصِيحِ
أَجَلَّتْكَ عُنُقًا مُغْرِبٌ^(١٨٧) لَمَّا تَلَوَّحَ لَطْرَفٌ فِي الْبِلَادِ طُمُوحِ

والنسرُ الطائرُ المقدمُ على العساكر. قد أظله بالجناح ، وليس عليه في طلبه سيادةُ
الطيرِ جُنَاح ، رابعُ اللواء ، صافٍ في جو السماء ، رئيسُ الديارِ حَامِلُ القُبَّةِ^(١٨٨)

(١٨٥) الأنيس : الديك .

(١٨٦) الإيوان ، ومنه إيوان كسرى مجلس كبير على هيئة صُنَّة واسعة ، لها سقف محمول من الأسام على عقد ،
يجلس فيه كبار القوم وعليه الحضور .

(١٨٧) عنقاء مغرب ، وهي طائر خمراني .

(١٨٨) القبة : ما يسمى في عصرنا بالظُلَّة أو الشمسية ، غير أنها أكبر منها بنحو ثلاث مرات . فماشتها من حرير
مزركش وعمود بخيوط من ذهب ، وكانت القبة من عصابات السلاطين وحدهم ، خاصة في المراكب .

والطير^(١٨٩) ، كما قيل :

وَنَسَرَ تَغِيرُ الطَّيْرِ مِنْ قُرْبٍ ظَلَمَهُ وَفِي ظِلِّهِ لِلْسَّعْدِ مَاؤَى وَمَنْزِلُ
والسنقر^(١٩٠) في ثوبه الفهري ، وخلقه النُمري ، أمير سلاح الجوارح ، ورأس
عساكر السوانح والبوارح ، كما قيل :

هُوَ السَّنْقَرُ الْعَالِي بِهَيْئِهِ الَّتِي تَعَلَّتْ عَلَى أَيْدِي الْمُلُوكِ بِهَا يَدُهُ
والشاهين^(١٩١) الدَّوَادِرِ^(١٩٢) ، عليه لمصالح المملكة المدار ، قد تصدَّى لقضاء
الحوائج ، لِكُلِّ دَاخِلٍ وَخَارِجٍ ، ينظرُ في الولاية والعزل ، ويتعاطى الأمورَ بالجدِّ لا
بالهزل ، فيقضي المآرب ، ويوصلُ المطالبَ إلى الطالب ، كما قيل :

طَوِيلُ الْعُنُقِ رَحْبُ الصَّدْرِ ضَخْمُ لَهُ فِي آلِ قُسْطَنْطِينٍ ضَبْطُ
تَغَشَّى مِنْ مَوَادِّ الْعَيْنِ تَوْبًا عَلَيْهِ مِنْ دَمِ الْأَحْشَاءِ نَقْطُ
والكُرْكِي^(١٩٣) ، الراطن بالتركي ، يتجلى في ثوبه المسكي ، كاتب الأسرار
وصحاب الأختار ، لسان المملكة ، وحوار الفلكة ، مُسْتَعْدِمُ السيفِ والقلم ، وفي
الفضائل والفواضل ناز على علم ، كما قيل :

وَكُرْكِيٌّ بِحَيْدِ الصَّفْرِ عَنْهُ هَيْئَةً بِطُشِيِّهِ وَتَلْبِيلِهِ بِاسِهِ

^(١٨٩) الطير : الفأس . وحاملها يسمى الطيردار ، ويعنى الشخص الذى يحمل الطير حول السلطان عند ركوبه فى
المراكب أو المراكب ، أو غيرها .

^(١٩٠) السنقر : من الطيور الجارحة التى تشبه الباشق .

^(١٩١) الشاهين : طائر من جوارح الطير وسباعها ، من جنس الصقر .

^(١٩٢) الدوادار : هو الذى يحمل دواة السلطان ، والدواذرية : وظيفة موضوعها نقل الرسائل عن السلطان أو
عرضها عليه .

^(١٩٣) الكُرْكِيّ : طائر كبير أغبر اللون طويل البنتق والرجلين ، أبهر الذهب .

والتَّمُّ المشهور ، ناظر الجيش المنصور ، صدر الديوان ، وقاضي الجند والأعوان ،
كما قيل :

وَكَمْ تَمَّ ذَمُّ الطَّيْرِ مِنْهُ كَقَاضِي زَانِ أَرْنَابِ الْكِتَابِ^(١٩٤)
عَلَيْهِ مِنَ الْمَهَابَةِ تَوْبٌ مَجْدٌ كَوَجْهِ الطَّائِعِينَ لِذِي الْحِسَابِ
والطاووس ، كأزهي عروس ، في أفخر ملبوس ، مقدّم على الخواص كالناظر
الخاص ، ناشر مروحة الارتفاع ، يتجلى بجمال هيئته الفائق على الوجوه الملاح ،
كما قيل :

تَوْبَةٌ قَدْ حَارَ فِيهِ كُلُّ صَبَاغٍ عَلَيْهِم
وَلِسَانُ الْحُسْنِ نَادَى مِنْبَغَةُ اللَّهِ الْحَكِيمِ
فَيَرُوقُ الْعَيْنُ مِنْهُ فَوْقَ أَوْصَافِ الْكَلِيمِ
والبازي^(١٩٥) الأمير الكبير ، صاحب الرأي والتدبير ، أمير الميمنة ، قد رتب صفه
وزينه ، كما قيل :

وَبَازٍ أَشْهَبَ غَيَاةَ جُمْرٍ يُضِيءُ وَلِيَّ جَنَاحَيْهِ النَّجَاحُ
وَالصَّقْرُ الشَّهْمُ السَّابِقُ فِي الطَّيْرِ أَمِيرُ الْمَيْسَرَةِ ، قَدْ فَاقَ بِشَهَامَتِهِ
عَسْكَرَهُ ، كما قيل :

وَصَقْرٌ إِذَا يَلَحَّ فِي الْقَفْرِ ظَنِّي أَتَيْحَ لَهُ مِنَ الْجَوِّ الصَّبَا
أَقَامَ بِمَخْلِبٍ عَنْ شَهْمِ سَهْمٍ وَكَسَرَ عَنْ قَوِي النَّابِ نَابَا

^(١٩٤) الدست : في الأصل يتكون من أربعة كراسي لكتاب يكتبون بما يريد السلطان ، ويسمون كتبة الدست
ولهم حق التوقيع نيابة عن السلطان .

^(١٩٥) البازي : نوع من الصقور ، ينشئ إلى الفصيلة الصقرية وله مهارة فائقة في الصيد .

والباشق^(١٩٦) الجاوروش^(١٩٧) ، ورأسُ نَوْبَةِ العساكرِ والجِيوشِ ، كما قيل :
 انْظُرْ إِلَى الباشِقِ فِي صَيْدِهِ يَنْقُصُ كَالسَّهْمِ مِنَ الرَّاشِقِ
 يَقْفُو هَاماً مِثْلَ مَعْشُوقَةٍ أَتْبَعَهَا حُبَّ حَشَا العاشِقِ
 والبيغاءُ تتَحَلَّى فِي الحُلَّةِ الخضراءِ ، وَتَنْثُرُ مِنَ الخاتمِ الياقوتِ دُرَرَ النِّسَاءِ ، وَتُخَبِّرُ
 بِعَجَائِبِ الهِنْدِ ، وَتَسْرُدُ غَرَائِبَ رَغَائِبِ السُّنْدِ ، كما قيل :
 تَسْمَعُ ذُرَّةً لَكِنْ كَسَاها حَكِيمُ الصَّنْعِ قُوْباً مِنْ زَبَرْجَدِ
 وَمَنْ هَا بِمِنْقَارِ عَقِيْقِي وَخَاطَ شِعَارَهَا مِنْ عَيْنِ عَسْجَدِ
 والهُنْدُ لَا يَسُ التَّاجُ ، يَنْهِي إِلَى مَوْجِعِ الدِّيرَاجِ^(١٩٨) ، الْأَخْبَارَ المَارَةَ ، والأَحْوَالَ
 السَّارَةَ ، كما قيل :
 وَهَلْ هُنْدُ أَلَيْسَ قُوْبُ البَهَا^(١٩٩) قَعَمَ إِذْ خَصَّ بِصِلَقِ النِّبَا^(٢٠٠)
 أَغْرَبَ إِذْ شَرِقَ فِي حُسْنِهِ فَفَاقَ أَهْلَ التَّاجِ خُفَى سَبَا^(٢٠١)

والْحَمَامُ مُقَلِّمُ البَرِيدَةِ ، يَتَرَدَّدُ فِي مَوَاقِفِ العَبُودِيَّةِ ، وَالْعَصَافِيرُ كَالْمَمَالِيكِ
 الْأَجْلَابِ^(٢٠٢) فِي الكِتَابِ ، يَدْرُسُونَ العِلْمَ وَالْآدَابَ ، وَالْبَلْبَلُ وَالْمُزَارُ ، وَمُطَوِّقَاتُ
 الْأَطْيَارِ ، وَسَاجِعَاتُ الْأَسْحَارِ ، مُسَبِّحَاتُ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ، يَتَنَاشَلُونَ الْأَشْعَارَ ،

^(١٩٦) الباشق : نوع من جنس البازي ، من فصيلة العقاب النسرية ، وهو من الجوارح ، يشبه الصقر ، ويتميز
 بجسم طويل ، ومقار قصير ، بادي القوس .

^(١٩٧) الجاوروش : رتبة عسكرية ، وفي الأصل بمعنى صاحب ، وهو أيضا الدليل في الحروب ، ومما يميز
 واستعير ، وهو رئيس العشرة .

^(١٩٨) الدِّيرَاج : كِتَابُ الدُّرُجِ أَوْ الْإِنْشَاءِ . ويعبر عنهم في عصر المؤلف بالمرؤَّع .

^(١٩٩) البَهَا : البهاء .

^(٢٠٠) النِّبَا : الثَّيَابُ .

^(٢٠١) سَبَا : سَبَا (ملكة سبأ) .

^(٢٠٢) المَمَالِيكُ الْأَجْلَابُ : فرقة من المماليك الجُندُ يشرفُ السلطان جنودها لنفسه .

ويردُّذُن نغماتِ الأوتار ، ومطرباتِ رَنَاتِ الأوتار ، وضروبَ ضُروبِ الموسيقى
من جُنكِ المنقار^(٢٠٣) ، والشحورُ والرزور . وذواتُ الهديلِ من الطيور ، حتى
جناح الزنبور ، تُغرَّد فتُجَلِّ العودَ والطنبور . وزواجِرُ الطير ، تُبشِّرُ بالفرح
والخير ، وأنواعُ الجوارح في الحافات ، والطيرُ في الجوّ صافات ، كلٌّ يقْدِي للملك ،
ويقْدِم جسده وروحَه ، ويسبح مَنْ آتاه الملكُ ، كلٌّ قد علمَ صلاحه وتسيّحه .

فقدَّم البيوُّ إلى الحضرة ، والمليك في أبهى نضرة ، وقَبَل مواطئَ سلطانه ، ووقَفَ
من مكانِ خدمته في مكانه . وقال شخصٌ عارِفٌ بطرائقِ السلوك ، يليقُ لخدمة
الملوك : واقفٌ بالباب ، يرومُ تقبيلَ الأعتاب ، يطلبُ لذلك الدستور^(٢٠٤) ، والإنعام
بإذنِ الحُضور ، ليشمَلَه النظرُ الشريف ، ويحظى بِحُظٍّ وريقٍ وريف ، هلْ يرجعُ
كالمصروفِ عن خدمته ، أو يدخلُ كالدولة والإقبال ؟ فعطف بالقبول ، وأذن له
بالدخول ، وسمع بالثول . فتوجَّه البيوُّ على عَجَل ، فدخل إلى الحَجَل ، وهو من
الحَيَاءِ متأثر ، وفي ذيلِ اللَهْشَةِ والهَيْبَةِ مُتَعَتِّر ، وعليه غلالةٌ سابورية ، وخِلْعَةٌ
نيسابورية ، مُشتملاً بِشَمْلَةٍ كافورية ، كأنه شيخُ الصوفية . فلما وقع نظره على
العُقَاب ، قَوَى جأشه ورفَعَ الحجاب ، وحَلَّ عُقْدَةً لسانه من لَكَنَةِ الحُطاب ، ثم
قَبَل الأرضَ ووقف ، وأنشدَ بديهاً وما وقف :

وَلَوْ أَنَّ فُفْصُورَ أَوْ كَسْرَى وَكَبَعَا رَأَوْكَ حَرُّوْا بَيْنَ أَيْلِيكَ سَجَدَا
وَمَا أَنَّ وَقَوْا حَقًّا عَلَيْهِمْ وَإِنَّمَا عَلَى قَلْبِ مَا فِي الْوُضْعِ مَدَّةُ الْقَتْلِ يَكْدَا
فاهتدَى البيوُّ ، بلفظٍ يُحجِّلُ اللؤلؤ ، وَقَالَ لِلحَجَل ، يريد إزالةَ اللَهْشَةِ والحَجَل ،
وطيبَ المقام ، ببسطِ الكلام : أيها الغريبُ الأريب ، والأديبُ النحيب ، رأيتُك

(٢٠٣) أي أنواع الألحان الموسيقية التي يضربها العازفون على الطبل الكبير ، أو الطنبور ، والجنك هو الطنبور ،
من آلات الطرب البوترية (معربة) .

(٢٠٤) الإذن بالدخول أو المرور .

روحاً مُلَخَّصاً ، وعقلاً مُشَخَّصاً ، صُحْبَتُكَ مرغوبة ، ومنادتُكَ مطلوبة ، لقد
 حَلَلْتَ مَحَلَّ الأَمَنِ والأَمَانِي ، وعقدة السَّعْدِ والتهاني ، فَدَخَّ دَهْشَتَكَ ، وَذَرَّ
 وَخْشَتَكَ ، وَأَفْصَحَ بِكَلَامِكَ عَنْ كَمَالِكَ ، وَعَنْ مَقَامِكَ بِمَقَالِكَ ، فَعِبَارَتُكَ عَقِيلَةٌ
 الْعَقْل ، وَوَاسِطَةُ عُقُودِ النُّقْلِ ، فَإِنْ كَانَ عِنْدَكَ نَصِيحَةٌ تَصْلُحُ لِلْمُلُوكِ ، أَوْ وَصِيَّةٌ
 تَرشُدُ أَهْلَ السُّلُوكِ ، يَبِينُ الْعَدْلُ بِنُورِهَا طَرِيقَهُ ، وَيُزَيِّنُ الْعَقْلُ بِمَحَازِيهِ حَقَائِقَهُ ،
 وَتُسْتَقِيمُ بِهَا الْأُمُورُ ، وَيُسْتَفِيدُ مِنْهَا الْجُمْهُورُ ، أَوْ تُورَعُ رُفَعُ مَظْلَمَةٍ ، أَوْ حُطُّ مَأْثَمَةٍ ،
 أَوْ كَشْفُ بَلَوَى ، أَوْ بَثُّ شَكْوَى ، أَوْ حَاجَةٌ فِي نَفْسِكَ ، وَمَا قَاسَمْتَهُ فِي يَوْمِكَ
 وَأَمْسِكَ ، أَوْ لَطِيفَةٌ تَشْرَحُ بِهَا الصُّدُورُ ، وَتَبْسِطُ بِإِيرَادِهَا الْحُضُورُ ، فَهَذَا وَقْتُ
 تَشْنِيفِ الْمَسَامِحِ بِجَوَاهِرِهَا ، وَتَثْرِيبِ دُرَرِهَا ، عَلَى بَادِي الْحَاضِرِينَ وَحَاضِرِهَا ، فَإِنَّ
 الْحَلَّ قَابِلٌ ، وَعِنْدَكَ الْإِصْفَاءُ إِلَى أَطْوَاقِ لَطَائِفِكَ مِثْلُ ، وَبِحَالِ الْحِلْمِ لِلذِّكْرِ وَاسِعٌ ،
 وَسِحَالِ الْكَرَمِ دَاسِعٌ (٢٠٥) ، وَفَاعِلُ الصَّنِيعَةِ صَانِعٌ ، وَكَفُّ اللَّطْفِ مُعْطٍ لَا مَانِعٌ .

فَقَالَ الْحَجَلُ ، بَعْدَ أَنْ زَالَ الْحَجَلُ وَحَالَ الْوَجَلُ ، وَجَالَ الرَّجُلُ (٢٠٦) ، مِنْ غَيْرِ
 رَيْثٍ وَلَا عَجَلٍ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي آسَى جِرَاحَنَا ، وَأَحْيَا بَعْدَ التَّلَفِ أَرْوَاحَنَا ، قَدْ
 كُنَّا فِي بَيْدَاءِ الْحَيَاةِ وَالْهَلَاكِ ، وَظُلُمَاءِ الضَّرِّ وَالْخَوْفِ فِي أَنْهَامِكَ وَمَرَّتْ عَلَيْنَا سُنُونٌ ،
 وَغَنَى فِي الْخُسَارِ وَالْغَبُونِ ، وَنَارُ الْإِشْتِيَاقِ تَضْطَرِمُ ، وَبَوَاعِثُ تَقْيِيلِ الْأَعْتَابِ الشَّرِيفَةِ
 السُّلْطَانِيَّةِ فِي الْفَوَادِ تَزْدَجِمُ ، إِذْ قَدْ انْتَشَرَ جَنَاحُ عَدْلِكَ ، وَبَجَاحُ ظِلِّكَ ، وَسَمَاحُ رَأْفَتِكَ
 وَظَلْمَا ، وَكَرَّرَ كُلُّ لِسَانٍ عَمَادَةَ فَضْلِكَ ، وَاشْتَهَرَ لِكُلِّ حَيَوَانٍ مَآثِرُ نَيْلِكَ ، فَهِيَ أَمَانُ
 كُلِّ مَخُوفٍ ، وَمَلْجَأُ كُلِّ مَلْهُوفٍ ، لَكِنْ كَانَتْ الْعَوَادِي تَقْرَعُ تِلْكَ الدَّوَاعِي ، وَغَوَاشِي
 الْخَوَافِ تَعْتَرِضُ دُونَ الْمَسَاسِي ، تَارَةً بِاِكْتِسَابِ الْمَخَافِ ، وَطَوْرًا

(٢٠٥) داسع : دافع .

(٢٠٦) الرجل : الصوت الموقع للنغم العالي .

باحتراف الخواطف ، وحيناً يضعف المباني ، وأونة بعدم المعاون والمعاني^(٢٠٧) .
والآن ياتيك الزمان ، بحمد الله المنان ، أرحنا المهالك والمهاوي ، واسترخنا من
ضرب المسالك والسواي ، إذ قد طرنا بجناح النجاح ، من جُرح الجناح ، وصرنا
إلى محلّ السماع والرياح ، فزالت العلل ، وانسدّ الخلل ، وحلّلنا في عقوة^(٢٠٨)
منيفة ، وسُدّ^(٢٠٩) شريفة ، فأمنّا شرك المكائد ، وشرّر المصايد ، وتوسّدنا مهاد
الدعة ، واستظلّلنا جناح الأمن والسعة . وإنه قد قيل "عذل السلطان ، خير من
حُصّب الزمان" وقيل : الملك العادل ، والإمام الفاضل ، كالأب الشفيق ، والوالد
الرفيق ، يعامل بالسوية ، ويحفظ الرعية ، ويحرّسها من برد الماء وحرّ النار ، كما
يحرّس الوالد الولد من هبوب الهواء وشمّ الغبار ، وقلت :

نزلنا في فؤي ملك كبريم	يرانا مثل أولاد الكسرام
أضلّ نواب الأيسام عفا	فلّم ترنا ولا في الاخلام
ولا مطر السماء يصبّ منا	كأنّ مقامنا فوق الغمام

فقال الملك : أهلاً وسهلاً ، وناقّة ورَحلاً ، طيب قلباً ونَفْساً ، واهناً مَعْنَى
وجسّاً ، لقد حلّت بساحة الاستراحة ، وباحة للأمن مباحة ، وقاحة^(٢١٠) ليس
لصائد بها وقاحة ، ولا لجراحة جارح بها جراحة ، وقد خلصت من جواسر
الكواسر ، ومتاسر التواسر ، ونزلت بوادي الخير ، ونادي ملك الطير ، فأكرمت
صنّ منرك ، ونزلت غاية أمملك ، فاذهب بسلام ، وآت بما لك من خادم وغلّام ،

(٢٠٧) المعاون والمعاني : المساعد والمعين .

(٢٠٨) عقوة : المكان للتنصع أمام الدلو أو الحلة أو حولهما .

(٢٠٩) سُدّ : سرير العرش .

(٢١٠) قاحة : ساحة .

وأهلي وثقل^(٢١١) ، وفرس وجمال . وأثاث وقماش ، ومعاش ورياش ، وتخيير مكاناً تختار ، وجاراً حسن الجوار .

فقال : أيها الملك السعيد ، أنا شخص فريد ، فقير غريب فقير ، لا إبريق لي ولا حصير ، وقلت :

أَنَا لَوْلَا الْحَيَا وَخَوْفَ الْعَارِ لَمْ أَكُنْ فِي الْأَنَامِ إِلَّا عَارِ^(٢١٢)
مَنْ رَأَى فَقَدْ رَأَى وَيَتَّقِي وَدَّارِي وَمَرْكَبِي وَفِقَارِي^(٢١٣)

غير أن لي قرينة ، مثلي فقيرة مسكينة ، صابرة على السراء والضراء ، قضيتنا معاً ماضي الصباح والمساء ، لم يترك عقيل الحوادث لنا داراً ، ولا يد العواشب عقلاً ولا عقاراً ، ولا مطلب العوائث جواراً ولا جواراً ، ولا ناب الكوارث ولداً ولا قراراً . والويل كل الويل ، لمن كان مستقره في طوارق الليل ، ومن حوادث الدهر على طريق السيل ، وقد طال الكلام في كَيْتٍ وَكَيْتٍ ، وقضايا ذَيْتٍ وَذَيْتٍ ، إلى أن لم يبق في البيت سوى البيت . ولما بلغ سيل العرم الزبي^(٢١٤) ، وجزامهم الطي^(٢١٥) ، وما حال من يرى أفلاذ كبده تنقطع ؟ ويشاهد كل وقت قرّة عينه بمخاليب الجوارح تبضع^(٢١٦) ؟ ولا يد للمدافعة تمتد ، ولا نهضة للممانعة تشتد ، فينشد :

كَلَى حَوْلَنَا أَتَى أَرَى مِنْ أَجْهٍ زَهَيْنِ الرَّدَى يَرُونُو إِلَى بَطْرِفِهِ

(٢١١) الثقل : البطيء من الدواب .

(٢١٢) عار : عارياً .

(٢١٣) الشعار : ما ولي جسد الإنسان دون ما سواه من الثياب .

(٢١٤) الزبي ، جمع زبية ، وهي الرابية لا يعلوها الماء .. وفي المثال بلغ السيل الزبي ، يضرب للأمر إذا اشتد حتى جاوز الحد .

(٢١٥) الطي : حكمة الضرع ، والمعنى أن الهم قد بلغ الغاية .

(٢١٦) تبضع : تنقطع وتمزق .

أَوْدُ بِمَالِي لَوْ يَفْدَى وَمُنْجِي وَلَكِنْ يَدُ الْقَدِيرِ خَالَتْ بِخَفِيِّهِ

ولما تكرّر ضرُّ أيوب ، وتضاعفَ حزنُ يعقوب ، تركنا تلك الديارَ بالاضطرار ،
وعلى أبوابك الشريفة وَعَمَّ الاختيار ، فرصدنا للتحويلِ لئَمَنَ الساعات ، واعتزنا
للرحيلِ أحسنَ الأوقات ، ثم صَمَمْنَا العزيمة ، ونادانا هاتفُ السعدِ : أسرعاً نَدِيمِي
جَدِيمة ، فقطعتنا المهامية^(٢١٧) والقفار ، وسَرَيْنَا الليل والنهار ، فكَمَّ رُغْنَا عن أبي
الحُصَيْن ، ولقينا ما لآخِي الحُسَيْن ، بكرِلاء ، من الكربِ والبلاء ، وكَمَّ لجأنا من
بني زغار ، إلى كهفٍ وأحَمَّ وغاز ، واحتزنا من قنافت ، وأفعوانٍ ذي سمٍ نافذ ،
ونَفَرْنَا من حَبَاتِ إشراك ، وحِذْنَا عن أَوْهَاقِ^(٢١٨) شيباك ، واعتزنا الجوع ، وعدم
المجوع ، على الحبِّ للبذور ، لاصطيادِ الطيور . كلُّ ذلك ، في المسالك ، والسعد
قائلنا ، والفلاحُ رائدنا ، واليَمْنُ دليلنا ، وظلالُ أُمَيْكَ ظليلنا ، وفي تهاني سعدك
مبيتنا ، وكنفِ فضلك مقيلاً ، حتى حللنا بدارِ الأمان ، ونزلنا بحرمِ مولانا
السلطان ، فنادانا فَضْلُ خالقِ الورى : لا تخافا إني معكما أسمع وأرى ، أَلْقِيَا عَصَا
التَّسْيِير ، وانزِلا عندَ حَيرِ جار ، ففركتُ القرينة ، في منزلةِ حصينة ، وكلُّ بلادك
أمنية ، وأَمَمْتُ مقامك الشريف ، وجنّانك اللئيف ، مقاماً عظيماً ، وجناباً كريماً ،
ومجلساً عالياً ، وباباً سامياً ، فتوحيت ، ثم نوذيت :

هَذَا هُوَ الْمَلِكُ الَّذِي مِنْ بَابِهِ يُعْطَى الْمَخُوفُ أَمَانَهُ لِرِزْمَانِهِ
عَمَّ الْوَرَى إِحْسَانَهُ فَكَأَنَّمَا أَرَزَّاهُمْ كُتِبَتْ عَلَى إِحْسَانِهِ

ثم نهضَ يعقوبُ من مكانه ، وقَبِلَ الأرضَ بين يدي سلطانِه ، وتَوَجَّهَ فائِزاً
بأمنيته ، حتى وصلَ إلى حَلِيلَتِهِ ، فأخبرها بما جرى ، بتخبيرِ المشقرى ، وكيف رأى

(٢١٧) للمهامة : الصحارى الشاسعة ، المقازات .

(٢١٨) الومق : الجبل فى أحد طرفه أنشوطه .

البؤيؤ والملك ، وصورة ما فعل به وسلك ، وكيف تلقى مَقْدِمَهُ ، وأكْرَمَهُ الملك بما أكرّمه ، وقرّر كيف كان خطابه ، وعلى أيّ صورة حسناء رَدّ جوابه . فسُرّ صدرها وانشرح ، وطارَت بهذا الأمر من الفرح . ثم توجّهًا إلى حضرة السلطان ، وحصل لهما من الإنعام والإحسان ، ما نسيا به الأوطان ، وسلكا بنفس مطمئنة ، في خِدْمَةِ الملك مع الجماعة وأهل السنة . وعُوْطِبَ يعقوبُ من الملك : اسْكُنْ أَنْتَ وزوجكُ الجنة .

فلَمَّا استقرّت بهما الدار ، وتبدّل انكسارُهما بالانجيار ، أفيضَ عليهما من الصدقات ، والإذْكَارات والتفقات ، ما لم يخطرُ ببالهما ، ولا دار على خيالهما ، وحصل لهما الأمن والأمان ، والسلامة والاطمئنان ، وانشرحت خواطرهما ، وابتهجت بالسكون سرائرهما . واستمرّ النجدي ملازم الخدمة ، وتوفّرت عند الملك واتباعه له الحرمة ، وسُجِعَتْ كلمته ، وتزايدت حشمتُه ، ولم يزل صبيح الطلبة ، ينجح السعي والنجعة ، وضيّ المنظر ، مَقْضِي الوطر ، يرتع على بساط النشاط ، ويظهر في رياض الأمن والانبساط ، مودياً شرائط الخدمة على الوجه الأحسن ، قائماً بمواجِب العبودية مهما أمكن ، إلى أن تميّز على سائر الخدم ، وتقدّم على السابقين في القِدْمَةِ وثبات القَدَم ، ناشراً ألوية النصيحة ، ناثراً الأئنية الصريخة ، منادماً باللطائف الصحيحة ، والنوادر المليحة ، بالعبارات الفصيحة ، والإشارات الرجيحة ، حافظاً زمام الاحتشام ، مراعيًا مقامات الكلام ، على مرّ الأيام ، وكرّر الشهور والأعوام . ثم ختم الكلام ، في هذا المقام ، بأعظم ختام . وهو : حَمْدُ اللَّهِ الملكِ العالِم ، وشُكْرُهُ المستندي لمزيد الإنعام ، والصلاة والسلام ، على سيّد الأنام ، وآله وأصحابه السادة الكرام عليه وعليهم أفضل التحية والسلام .

وحسبنا الله ونعم الوكيل ، ولا حول
ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

الباب العاشر

فِي مَعَامِلَةِ الْخَادِمِ وَالْأَحْبَابِ وَالْإِعْدَاءِ وَالْأَصْحَابِ

وبه تمت أبواب الكتاب

قال الشيخ أبو المحاسن ، الراوي من الأدب الأحاسين : فلما أبان الحكيم ، عن هذا الفضل الجسيم ، وكشف نقاب البيان ، عن مخدرات^(١) هذا التبيان ، فتلاً من وراء سحف^(٢) ألفاظه وجوه معانيه الحسان ، وعظم في أعين الأعاضيم ، وكبر لدى الأعراب والأعاجم ، ورفع أخوه ، وعظمه ذوه ، فأضاء مناره ، وعلا مقداره ، وملا الآفاق أنواره ، ووقع من الملك على الاعتماد عليه اختياره ، ثم استزاده من فيض هذا اليعسوب^(٣) ، واستقصاه من حوض هذا الشؤبوب^(٤) ، واستطعمه من أخبار العُقَابِ واليعسوب^(٥) ، إن كان ثم بقية ، تجلو القلوب الصدية . فامتثل الإشارة ، وحسن العبارة ، وقال :

(١) المخدرات : حناوات ، وهو تعبير مجازي يعني به ما هو مستور من حكم وكشال ، وقصص وأقوال .

(٢) سحف : ما هو مستور من لفظ ، شرع في إرساله وقوله .

(٣) اليعسوب : الثُباب ، ويعني به هنا : هذا الكمّ الهائل من القصص والحكايات والعر والأفعال .

(٤) الشؤبوب : الدفعة من الطر ، وهي هنا - على سبيل المجاز - بمعنى طلب المزيد من القصص (حلقات

جديدة) .

(٥) كنية ذكر الحجل في الباب السابق .

ثم إن أبا الحجاج^(١) ، دعا أبا الدجاج^(٢) ، واختلى به دون أصحابه ، وقال له :
 أعلم يا جليس الخير ، وأئیس الطیر ، ورئيس الدير ، أنني تحملت^(٣) من اليؤیؤ المنة
 العظيمة ، والجميلة الجسيمة ، حيث أرشدك إلى بابي ، ونظمتك في بسلك
 أصحابي ، ولا حرم إنه قام بما يجب عليه ، وعرف مقدار إحساني وميلي إليه ، وإنه
 لأوثق أعواني ، وأصدق خيالاتي ، وصاحب قديم ، ومخلص عديم النظر نديم ،
 وصديق كافي ، وناصح مصافي ، وإنني لأتيمن بطلعه ، وأتسرك بمشاهدته ،
 وأستحج بأرائه ، وأستصيح في المهمات المظلمة بلامع ضيائه ، ولقد حصل منك
 على عضد معاضد ، وساعد مساعد ، وكهف وذخر ، وسند وظهر ، فإياك أن
 ترك ذيل مؤدته ، أو ترغب عن صحبته وعقبته ، وأن تقتصر يا ذا الوقوف ، في
 صدقاته على الوقوف ، فأفضل المحبة ، وأكمل المؤدة ، ما تزايد على مر الدهور ،
 وترادف على كر العصور ، وثبت أصله ، غورت فروعه ، وفاض من سويداء
 القلب على مجاري الجوارح نبوغه ، بحيث يقع الاتحاد ، وينمزج بالصفاء البوداد ،
 فقد قيل لا تصح المحبة بين اثنين ، حتى يصيرا كالعينين ، حيثما نظرت إحداهما
 شئرا ، مالت معها تابعة الأخرى ، بل يصيرا كالنفس الواحدة ، لا كل واحد على
 حدة ، ولا كما تقول الملاحدة ، بل يكمل لكل واحد بالآخر الهناء ، ويحصل له
 بوجوده السناء ، وإذا خاطبه قال "يا أنا" ولا تعمل يا أكمل ، كما قيل :
 ثلاث حشاشني شوقاً وخباً فإن ترم الزيادة هات قلباً .

(١) كنية العقاب ، ملك الطير في الباب التاسع .

(٢) كنية ذكر الحجل في الباب التاسع .

(٣) تحملت : اعتزلاً بفضلته وإقراراً بمعروفه وجهله .

فإنَّ الفَتَاحَ عنده الفَتوح ؛ وبَابَ الفضلِ والزيادةِ مفتوح ، وَكَرَّمُ اللهُ لَا يَضَاهِي ، وَفَضْلُهُ كَعِلْمِهِ لَا يَنْتَاهِي ، وَانْظُرْ يَا فَضِيلَ ، وَذَا الْعِلْمِ الْعَرِيزِ الطَّوِيلِ ، إِلَى مَا قِيلَ ، وَهُوَ :

أَنَا مَنْ أَهْوَى وَمَنْ أَهْوَى أَنَا	أَيُّهَا السَّائِلُ عَنْ قَعْبُعِنَا
مَنْ رَأَى لَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَنَا	نَحْنُ رُوحَانِ خَلَلْنَا بَدَنَنَا
تُضْرِبُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ بِنَا	نَحْنُ مُذْ كُنَّا عَلَى هَهَذَا أَهْوَى
وَإِذَا أَبْصَرْتَنِي أَبْصَرْتَنِي	فَإِذَا أَبْصَرْتَنِي أَبْصَرْتَنِي

وَالطَّفُّ مِنْ هَذَا وَأَرْصَنُ ، مَا قَالَهُ الْقَائِلُ وَأَحْسَنُ ، وَهُوَ :

أَنَا وَالْمَحْبُوبُ كُنَّا فِي الْقِدَمِ	لِقِطْعَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ غَيْرِ مَعِينِ
فَبَرَأْنَا اللَّهَ إِذَا أَظْهَرْنَا	مُهِجَةً وَاحِدَةً فِي بِلَاكَيْنِ
فَإِذَا مَا الْجِسْمُ أَمْسَى قَابِلَا	تَلَعَقَيْنَا وَاحِدًا مِنْ غَيْرِ بَيْنِ

وَلَقَدْ ذَكَرْتُ عِنْدِي بِأَنْوَاعِ الْفَضْلِ ، وَبِوُفُورِ التَّجَارِبِ وَالْعَقْلِ ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى نَصِيحِهِ وَقُوَّةِ دِينِهِ ، وَصَدِيقِهِ فِي الْمَحَبَّةِ وَحَسَنِ يَقِينِهِ ، وَلَمْ يَذْكُرْ غَيْرَ الْوَاقِعِ ، وَلَا حَازَفَ فِيهَا أَنْهَاءَ إِلَى السَّمْعِ ، بَلْ قَالَ قَلِيلًا مِنْ كَثِيرٍ ، وَقِطْرَةً مِنْ غَدِيرٍ ، وَلَمْ يَخْرِجْ بِذَلِكَ غَيْرَ خَبِيرٍ ، فَإِنِّي أَعْرِفُكَ كَمَا عَرَفْتُ ، وَوَقَفْتُ عَلَى فَضَائِلِكَ كَمَا وَقَفْتُ ، ثُمَّ أَنْتَ عِنْدِي فَوْقَ مَا وَصَفْتُ ، فَأَرِيدُ مِنْكَ نَصَائِحَ ، بِالْخَيْرِ لَوَائِحَ ، تَتَضَمَّنُ فَوَائِدَ ، وَعَوَائِدَ وَفَوَائِدَ ، تَكُونُ لِنَهْمِ الْحِكْمَةِ مَوَائِدَ ، وَلِنَشْهَمِ^(١) الْحُكْمِ قَوَائِدَ ، وَلِنَحْوَرِ أَلْيَابِ الْمَعْقُولِ وَأَرْبَابِ النُّقُولِ قَلَائِدَ ، وَلِنَضْبِطِ أَسَاسِ الْمُلْكِ وَالَّذِينَ قَوَاعِدُ وَعَقَائِدُ .

(١) الشَّهْمُ : الذِّكْيُ السَّيِّدُ الرَّأْيَ .

فَتَلَقَّى مِثَالَهُ بِالْإِمْتِثَالِ ، وَقَبِلَ الْأَرْضَ فِي مَقَامِ الْعُبُودِيَّةِ وَقَامَ وَقَالَ : لِنُحِطَ الْعِلْمَ الشَّرِيفَ^(١٠) ، وَالْأَرَاءَ الْعَالِيَةَ الْمُنِيفَةَ ، أَنْ صَانَعَ الْعَالَمَ ، تَعَالَى وَتَعَاظَمَ ، بَنَى أُمُورَ الْمَبْدَأِ وَالْمَعَادِ ، وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ مَبْعَاشٍ مُسْتَفَادٍ ، عَلَى دَلِيلَيْنِ عَظِيمَيْنِ جَلِيلَيْنِ ، أَحْكُهُمَا : الْعَقْلُ الَّذِي هُوَ مَنَاطُ التَّكْلِيفِ . وَثَانِيَهُمَا : قَوْعُدُ الشَّرْعِ الشَّرِيفِ . فَبِإِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَكُونَ سَعِيدَ الدَّارَيْنِ ، فَاسْتَمْسِكْ بِأَذْيَالِ هَذَيْنِ الدَّلِيلَيْنِ . أَمَّا الْعَقْلُ فَهُوَ الدَّلِيلُ الْقَاطِعُ ، عَلَى وَجُودِ الصَّانِعِ ، وَهُوَ مُسْتَقِلٌّ بِالْقَطْعِ ، غَيْرُ حَاجٍ إِلَى السَّمْعِ ، وَكَمَا هُوَ مُسْتَقِلٌّ بِالدَّلَالَةِ عَلَى وَجُودِ ذَاتِهِ ، كَذَلِكَ هُوَ مُسْتَقِلٌّ بِالدَّلَالَةِ عَلَى تَحْقِيقِ صِفَاتِهِ ، ثُمَّ وَرَدَ بِذَلِكَ الشَّرْعُ ، فَتَأَكَّدَتْ فِي وَجُودِ الصَّانِعِ دَلَالَةُ الْعَقْلِ بِالسَّمْعِ . وَأَمَّا وَحِدَانِيَةُ الصَّانِعِ ، فَكُلٌّ مِنَ الْعَقْلِ وَالنَّقْلِ دَلِيلٌ عَلَيْهَا قَاطِعٌ ، وَقَدْ تَقَطَّعْنَا^(١١) بِالْإِسْتِثْبَاقِ إِلَيْهِ ، وَتَظَاهَرَا فِي الدَّلَالَةِ عَلَيْهِ ، بِقَوْلِ الْكَافِرِ يَوْمَ الْمَصِيرِ : لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ . وَبِالْعَقْلِ وَالسَّمْعِ يَسْتَقِيمُ أَمْرُ الْمَبْدَأِ وَالْمَعَادِ ، وَبِالسَّمْعِ فَقَطْ مَيِّتُ الْمَعَادِ عَاشَ ، لِأَنَّ أُمُورَ الْمَعَادِ ، مِنْ الشَّرْعِ تُسْتَفَادُ ، وَالْعَقْلُ فِي ذَلِكَ تَابِعٌ سَامِعٌ ، لِأَوَامِرِ الشَّرْعِ طَائِعٌ ، وَالْمَسْمُوعُ فِي ذَلِكَ دَلِيلٌ قَاطِعٌ .

وَعَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ أَيُّهَا الْمَلِكُ الْكَبِيرُ ، فَاجْعَلِ الْعَقْلَ وَزِيْرًا ، تَجِدُهُ لَكَ فِي ظُلُمَاتِ الْمَشْكَلَاتِ سِرَاجًا مُنِيرًا . وَاتَّخِذِ النَّقْلَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ، يَكُنْ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مُسْتَوْرًا . وَعَايِلِ الرِّعْيَةَ بِالْعَدْلِ ، يَعَايِلُكَ اللَّهُ بِالْفَضْلِ . وَاعْلَمْ أَنَّ الدُّنْيَا فِي مَعْرِضِ الزَّوَالِ ، وَأَنَّهُ لَا بُدَّ عَنْهَا مِنَ الْإِنْتِقَالِ ، وَأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، وَجَلَ سُلْطَانُهُ جَلَالًا ، اقْتَضَتْ حُكْمَتُهُ ، وَجَرَتْ بَيْنَ عِبَادِهِ سُنَّتُهُ ، أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ عَلَى خِلَافِ مَا فَطَرَهُ الرَّحْمَنُ ، فَإِنَّهُ خَلَقَهُ لِلْعِبَادَةِ ، وَرَكَّبَ فِيهِ

(١٠) العلوم الشريفة : يعنى إحاطة ملك الطيور علما بما لدى الحكيم من موضوعات وقصص .

(١١) تَقَطَّعْنَا : تَعَارَفْنَا .

عِيَادَهُ ، وإقامته للعمل وجبَّله على الكسل ، فأمره بالصلاة وهو كسلان ، وبالصوم وهو شهوان ، وبالزكاة وحسب إليه المال ، وبالحج وكره إليه الانتقال ، وبالرضا وركز فيه الغضب ، وبالتسليم والصبر وخمره بالضجر والصعاب ، وبالتواضع ووضع فيه الثَّيِّه ، وبالتخلق بأخلاق خالقه وفيه ما فيه ، وحكم عليه بالموت ، وقد تحقَّق أنه ليس له منه قُوَّة ، وهو يكره عن الدنيا التحويل ، وأقلُّ أقسامه أنه يحبُّ العُمَرَ الطويل ، وعلى هذا قد تعود ، أن يفعل في المكان المتزوِّد ، أفعال المقيم المؤبد ، والدائم المخلد ، وبني بناء مَنْ لا ينتقل ، وعن قليل يتركه ويرجُل ، لا سيمًا مَنْ تعلق بالدنيا قلبه ، وتشبَّث بالمال والولد والجاه والتَّحَكُّمُ حُبُّه ، وقد أخبر العزيز الوهاب ، في أصدق كتاب ، وأوثق خطاب ، فقال ﴿زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنْ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْخَرْبِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾^(١٦) فالنفس مائلة إلى الإقامة ، رغبة في دوام السلامة ، تحبُّ طولَ العمر في الزمان ، وإن أحوجت الثمانون^(١٧) السمع إلى تُرُجُمَان ، وقد قيل :

وَأَحْسَنُ مَا كَانَ الْفَتَى فِي زَمَانِهِ
مَعَ السُّعْدِ وَالْجَاهِ الْعَظِيمِ مُعَمَّرًا .

وأشهى ماسمع الحاكم ، وألذ ما تلقاه من قول الناظم ، قوله :

فَلَا زِلْتُ بَيْنَ الْوَرَى حَاكِمًا
بِجَاهٍ عَرِيضٍ وَغَمْرِ طَوِيلٍ

ولقد بلغني يا ملك الزمان ، أن الملكَ العادلَ أنوشروان ، كان بَنَى أساسَ مُلْكِهِ على العدل ، وعامل رعيَّته بالإحسان والفضل ، وبكفيه من الفضائل ، وحُسنِ الشمال ، قولُ سيد الأواخر والأوائل : "وُلِدْتُ فِي زَمَنِ الْمَلِكِ الْعَادِلِ" وقال

^(١٦) قرآن كريم ، سورة آل عمران : ١٤ .

^(١٧) الثمانون : الثمانون علما من عمر الإنسان .

الرحمن ، فى محكم القرآن : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾^(١٤) وقد قيل ، فى الأقاويل : " لا مُلْكُ إلا بالرجال ، ولا رجالٌ إلا بالمال ، ولا مالٌ إلا بالعمارة ، ولا عمارةٌ إلا بالعدل " فلا مُلْكُ إلا بالعدل ، ومن أقوى الصفات العدلية ، عمارة بلاد الرعية ، وبذلُ الجهد فى العمارة ، ليكثر الربح وتقل الخسارة ، فإذا عُمِّرت البلاد ، وترمم الطريف والتلاد ، حصلت الأموال ، وكثرت الرجال ، وانتظمت الأحوال .

[١/١٠] حكاية أنوشروان مع الفلاح الهرم

فلقد بلغني يا ملك الزمان ، أنَّ الملك أنوشروان ، كان ماراً فى سواته ، بين جنده وأعوته ، فرأى شيخاً كأنه قوس قطان^(١٥) ، تَرَ على رأسه قرعاً أقطان^(١٦) ، وهو فى بعض البساتين ، يغرُس نَصَب^(١٧) تين ، فتعجب من الخناء قامته ، وبياض هامته ، مع شدَّة حره ، وتعبه على نصب غرسه ونصبه^(١٨) . فقال له : يا ذا التجارب ، ومن هو من شرك الفناء هارب ، إلّا م ترثع فى ميادين الأمل ، وقد تطوقت بأوهاق^(١٩) الأجل ، تبني وأركان جسدك واهية ، وتغرس وقوائم بدئك كأعجاز نخيل خاوية ، وبيع شبابك قد استولى عليه عريف الهرم ، وصيف وجودك قد أدركه شتاء العدم ، ومحت نسيم طراوتك عواصف الذهبول ، ومسيحت قوى

(١٤) قرآن كريم : سورة النحل : ٩٠ .

(١٥) قوس قطان : يعنى منحني كاللندف الذي يستعمل ، فى ترقيق القطن .

(١٦) قرع أقطان : يعنى بقايا شعر متفرقة فوق رأسه (أصلع) .

(١٧) النَّصَب : مساحة معلومة من الأرض ، أو النصاب .

(١٨) النَّصَب : الجهد وبضم النون : الشقاء .

(١٩) أوهاق ، واحدها وهق ، وهو الأنشوطه .

عَبَّالَتِكَ^(٢٠) ، بقواصفِ النحول ، وقد أَنَّ أَنْ تَغْرِسَ لِلآخِرَةِ ، فإِنَّكَ قد صِيرْتَ عَقْلاً نَاقِرَةً .

فقال : يا مَلِكُ الزَّمانِ وعادلُ الأوانِ ، قد تسلمتَها عامرة ، فلا ننسَلِمَها غابرة ، قد غَرَسُوا وَأَكَلْنَا وَنَغْرِسُ وَيَأْكُلُونَ ، وفي الحقيقة كُلُّنا زارعون وغارسون : لَقَدْ غَرَسُوا حَتَّى أَكَلْنَا وَإِنَّا لَنَغْرِسُ حَتَّى يَأْكُلَ النَّاسُ بَعْدَنَا وَأَبْعَدُ فَلَّاحٍ ، عن الرُّشيدِ والفَلَّاحِ ، مَنْ يَتَسَلَّمُ المَعْمُورَ ، وَيَتْرَكَهُ وهو بور ، فَأَعْجَبَ أَنُوشِرَوانَ ، وَفُورَ عَقْلِ الشَّيْخِ الفانِ ، وَحُسْنُ خُطابِهِ وسرعةِ جوابِهِ ، فقال : زه . يعني أَحَسَّنْتَ وهي كلمةٌ تحسِّنُ ، وَلَفْظَةُ إِعْجَابٍ وتزيينٍ ، وكانت علامةً للإحسانِ ، إذا تَلَفَّظَ بها السلطانُ يُعْطَى المَقُولُ في حقِّه ، أربعةَ آلافِ درهمٍ لرفقهِ ، فَأَعْطُوا الشَّيْخَ المَهِرَ أربعةَ آلافِ درهمٍ . فقال : أيها السلطانُ ، إنَّ الغراسَ يُثْمِرُ بَعْدَ زَمانٍ ، وأنا غراسي لحسنِ طَلْعِهِ ، أُمِرَ من ساعته . فقال : زه . فَأَعْطُوهُ أربعةَ آلافِ أُخْرى ، ورفعوا منزلتَهُ قَدْرًا . فقال : وَأَعْجَبُ من هاتينِ القَضِيَّتَيْنِ ، أَنَّ الغراسَ يُثْمِرُ مَرَّةً وأنا غراسي يُثْمِرُ مرتينِ . فقال زه . فَأَعْطُوهُ القَدْرَ العُلُومِ ، وزادوه في التَّكْرِيمِ ، والتَّعْظِيمِ والتَّفْخِيمِ . وقال له أَنُوشِرَوانُ ، إنَّ أَمَهُلَكَ الزَّمانَ هِ حَتَّى تَأْتِيَنِي بِبَاكُورَةِ هذا البستانِ ، فإنا أَقْطَعُكَ خَرَّاجَهُ ، وأَقْضَى ما لَكَ من حاجِهِ . فَأَمَهَلَهُ اللَّهْرُ وطالَ به العُمُرُ ، وأدرك ما نَصَبَهُ ، ولم يُعْجِبِ اللهُ تَعَبَهُ ، فَحَمَلَ إلى المَلِكِ الباكورةَ ، وَوَفَّى لَهُ المَلِكُ نُؤُورَهُ .

وإنما أوردتُ هذ المثلَ ، ليعلَمَ مولانا المَلِكُ الأَجَلُ ، أن الدنيا وإن كانتْ ظِلًّا زائلاً ، وحائِطًا مائلاً ، فهي مزرعةٌ لِلآخِرَةِ ، وأنَّ الآخِرَةَ ، هي الدارُ الفاعرةُ ، وأنَّ اللهَ تعالى ، وجلُّ جلالاً ، ولَاكْ هذه المزرعةُ ، وعلَّقَ بِأَوامِرِكَ العَلِيَّةِ ما بها من

(٢٠) عَبَّالَتِكَ : تَقْلِكَ ، يقال لَقِيَ عليه عِبائَهُ أَى تَقْلَهُ ، وعِبِلَ الذَّرَاعِينَ : ضَحَمَ الأَعْضاءَ ، أَرِ الخِلْفَةَ .

مضرة ومنفعة ، وحكمك في البلاد ، وملكك رقاب العباد ، وإياك أن تغفل عن عمارتها بالزراعة ، أو أن تسلم زمام تدبيرها إلى يد الإضاعة ، فإنك منقول منها ، ومسئول عنها . وإن مصالح عساكرك بها منوطة ، وأحوال مملكك بالعساكر مربوطة . فكلما تعمرت الضياع والقرى ، ترفهت الأجناد والأمراء ، واستراحت الرعية ، واستمرت مناظم الملك مرعية ، وتوفرت الخزائن ، واطمأن الظاعن والسكن ، وقلت للظالم ، وكفت أكف الظالم ، وملاك هذا كله العدل والاستواء ، ومجانبة الأغراض الفاسدة والهوى ، وهذا الذي يقتضيه مقامك ، ويتم به مرامك ، فإن الملك إنما هو ملك الأجناد ، فلا بد له من عمارة البلاد ، والنظر في مصالح العباد ، ليتنظم بنظره مصالح العالمين ، ويستقيم أمر العالم إلى الحين ، الذي قلته أحكم الحاكمين ، فإن سنة الله جرت على هذا السنن ، وما رآه المؤمنون حسناً فهو عند الله حسن . ولهذا قال سيّد سكّان الخيف^(٢١) : "أنا نبيّ السيف" والجهاد فرض عين على الملوك ، لا على الفقير والضعفوك ، فالملوك في نوع من السيادة ، تقتضى من المال ازدياده ، ليقموا من الإسلام عمادته ، ويقتفوا من الشرع مبراده ، ويقصموا الكفر وعناده ، ويبسّدوا أهله وأولاده ، وينهبوا طرافه^(٢٢) وتلاده^(٢٣) ، ويوطنوا سنابل الإيمان ببلاده ، وواجب على كل حاكم أن يبذل في ذلك اجتهاده ، ويجعل الجهاد إلى الآخرة زاده وعناده ، ويصون عن الكفر ببلاده الإسلام وعباده ، إلى يوم يلقى معاده ، فيجازيه الله الحسنى وزيادة .

هذه طريقة الملوك ، ومن يهجم في الاقتداء والسلوك . وإياك أيها الملك العظيم ، وصاحب الملك الجسيم ، وأخذ المال من غير حله ، ووضعه في غير محله ،

(٢١) سيد سكّان الخيف : محمد ﷺ .

(٢٢) طرافه : الحديث المستحدث من المال ونحوه .

(٢٣) تلاده : القديم الموروث من المال ونحوه .

ولو كان موضع الخير ، وقَصِدَ به نفعُ الغيرِ ، فإنه لا يفي ذاك بلذا ، ولا يقومُ نفعُهُ بما فيه من أذى ، فذلك كإنشاء المغارس ، وبنیان المدارس ، وتنوير المساجد ، وتعمير المعابد ، وسد الثغور ، وعمارة القبور ، وإقامة القناطر والجسور ، وعمل مصالح الجمهور ، وإطعام الطعام ، وكفالة الأيتام ، والحج إلى بيت الله الحرام ، وإعطاء السائل ، وإغناء الأرامل ، وصرف النفقات ، وإخراج الزكوات والصدقات ، ومثله الربيل كما قيل :

بَنَى مَسْجِدًا لِلَّهِ مِنْ غَيْرِ جِلْدٍ فَصَارَ بِحَمْدِ اللَّهِ غَيْرَ مُوَلَّقٍ
كَمُطْعِمَةِ الْيَتَامَى مِنْ كَدِّ فَرْجِهَا لَكَ الْوَيْلُ لَا تَزِينِي وَلَا تَتَصَلَّقِي

قال مَنْ لم يَخَفْ عليه إختفائها ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا﴾^(٣٤) ، ثم أخبر بخبر ما يصدر عنكم ، فقال ﴿وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾^(٣٥) فإن طَلِبَ من هذا أجر ، فهو خُسْرَانٌ وكفر ، لأنه في صورة الاستهزاء ، وهل يُطَلَبُ بقبیح الحرام حُسْنُ الجزاء ! بل الواجبُ في هذا ، على كلِّ من أذى ، رُدُّ المظالم ، وخلّصُ ذِمَّةِ الظالم ، ورجعُ الحقوقِ إلى أهلها ، وإيصالُها إلى محلّها ، أما يَرْضَى ظالمٌ غوى ، وتحملُ الحرامَ هوى ، أَنْ يَتَخَلَّصَ سواءٌ بسواءٍ ، وشرُّ الناسِ ، يا ذا البأسِ ، مَنْ اتَّبَعَ قضيةَ إبليس^(٣٦) . فسأل العُقَّابُ ، عن بيانِ هذا الخطاب .

^(٣٤) قرآن كريم ، سورة الحج : ٣٧ .

^(٣٥) قرآن كريم ، سورة الحج : ٣٧ .

^(٣٦) مناسبة إِبليسَ هنا هو استدعاءُ صفةِ الذكاءِ فيه ، تمهيداً للحديثِ عن القاضي الذي استخدم ذكاءه في غير

محله ، في القصة اللاحقة مباشرة .

[٢/١٠] قصة قاضٍ ليلى

فقال : كَانَ فِي الشَّامِ ، شَخْصٌ مِنَ الْعَامِ ، تَصَدَّقَ لِفَصْلِ الْأَحْكَامِ ، وَمَشَى مِنْ الظُّلَمِ فِي ظِلَامٍ ، وَشَرَعَ فِي اخْتِذِ الْأَمْوَالِ ، عَلَى سَبِيلِ التَّعَدِّيِّ وَالْوَيْبَالِ ، فَكَانَ إِذَا اخْتَذَ^(٢٧) مِنْ أَحَدٍ أَلْفًا ، ادَّخَرَ لِنَفْسِهِ مِنْ ذَلِكَ نِصْفًا ، وَتَصَدَّقَ بِالْخُمْسَمِائَةِ الْآخَرَى ، عَلَى أَوْلَى الضَّرَرِ وَالضَّرَاءِ ، كُلُّ وَاحِدٍ دَرَاهِمًا ، وَعَدَّ ذَلِكَ مَقْنَمًا ، وَقَالَ هَذِهِ فَائِذَةٌ ، عَلَيْنَا بِالرَّيْحِ عَائِدَةٌ ، الْحَسَنَاتُ خُمْسَمِائَةٌ وَالسَّيِّئَةُ وَاحِدَةٌ ، وَوَاحِدٌ يَدْعُو عَلَيْنَا ، وَخُمْسَمِائَةٌ يَتَوَجَّهُونَ بِالنَّيِّءِ وَالِدَعَاءِ إِلَيْنَا . ثُمَّ قَالَ ذَلِكَ الْجَسَّادُ ، وَلَا تَعَجْزُ الْخُمْسَمِائَةُ عَنْ الْوَاحِدِ . هَذَا وَإِنْ كَانَ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ ، صَرَفَ ذَلِكَ الْحَرَامَ فِي الْفِسْقِ وَالْمَلَاءِ ، وَتَبَلَّى الْأَغْرَاضِ الْفَاسِدَةِ وَإِقَامَةِ الْجَاهِ ، فَهُوَ أَشَدُّ فِي التَّكَالِ ، وَأَعْظَمُ فِي الْوَيْزِ وَالْوَيْبَالِ . وَهَذَا الْمَقَامُ ، يَطُولُ فِيهِ الْكَلَامُ ، وَأَقْلُ مَا فِي الْبَابِ ، أَنَّ الْحِلَالَ حِسَابٌ ، وَالْحَرَامَ عِقَابٌ . وَقَدْ سَمِعْتُ يَا جَلِيلُ الْقَدَرِ ، مَا نَطَقَ بِهِ السَّيِّدُ الصَّدْرُ ، الَّذِي أَخْجَلَ نُورَ طَلْعِهِ الشَّمْسُ وَالْبَثَرُ ، سَيِّدُ الْأَنْامِ ، وَمَصْبَاحُ الظُّلَامِ ، وَحَبِيبُ الْمَلِكِ الْعَلَامِ ، عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ ، يَوْمًا لِأَصْحَابِهِ السَّادَةِ الْكَرَامِ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ ، وَجَمَعَنَا فِي مُسْتَقَرٍّ رَحِمَتِهِ وَإِيَاهُمْ : "أَتَذَرُونَّ مَنْ الْمَفْلِسُ ؟ قَالُوا : الْمَفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ . فَقَالَ : إِنَّ الْمَفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا ، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا وَسَفَكَ دَمَ هَذَا ، وَضَرَبَ هَذَا فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ فَمَنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يَقْضِيَ مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ عَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ" وَهَذَا إِذَا كَانَتْ هَذِهِ الطَّاعَاتُ ، مِنَ الصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ وَالزَّكَاةِ ، وَاقْعَةً فِي جِلِّهَا ، وَمَصَارِفَهَا فِي جِلِّهَا ، فَإِنَّهَا لَا تَقْدِرُ الظُّلَامَ ، إِلَّا فِي وَفَاءِ الْمَظَالِمِ . وَأَمَّا إِذَا كَانَتْ

(٢٧) اخذها على سبيل الرشوة .

من الحرام ، ومنشأ غراسها من مياه الآثام ، فهي وبأل على ربال ، وثبور فوق
نكال ، وهن على كسر ، ونقصان فوق خسر .

وقال أيضا ، أفاض الله عليه سبحانه صلواته فيضا "تَوَدَّدَ الْحَقُوقُ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ
الْقِيَامَةِ حَتَّى يُقَادَ"^(٢٨) للشاة الجلهاء^(٢٩) مِنَ الشاةِ القرناء" فاستعذ بها الله يا مولى
الطير ، ومولى الخير ، من نار هذا الشرر ، أن تتفرق طاعتك شذر مذر^(٣٠) ،
واصيدك ياسلطان الصافات ، وما اكتسبته من الطاعات والخيرات ، أن يُنقل إلى
ديوان غيرك ، أو يفوز بخمرك سوى طمرك ، اللهم إلا أن يكون ، يا ذا الوصار
والسكون ، على وجه ما قال ، مَنْ أَحْسَنَ الْمَقَالَ :

وَيَكْتَسِبُ الطَّاعَاتِ دُخْرَ الْعُلَمَا يَجُودُ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامِ^(٣١) عَلَى الْعَاصِي

أو على وجه ما قيل ، وأحسين به من وجه جميل :

يَجُودُ بِمَا ضَنَّ الْجَوَادُ بِمِفْلِهِ	مِنَ الْوَفْرِ بَلْ لَوْ أَنْكَتَهُ هَمَائِلُهُ
لَعَادَ عَلَى الْمُرْتَضَى بِصِخَةِ جِسْمِهِ	وَجَادَ عَلَى الْمَوْتَى بِعُمْرٍ يُطَاوِلُهُ
وَمَنْ عَلَى التَّوَكُّي ^(٣٢) بِوَالِجِ عَقْلِهِ	وَقَسَمَ فِي الْحَقْمَى مِنَ الرَّأْيِ كَامِلُهُ
وَقَلَّ مِيزَانُ الْمُخَفِّ بِأَجْسَرِهِ	لَدَى الْوِزْنِ كَمَا آذَ ^(٣٣) بِالْوِزْرِ كَاهِلُهُ
وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي كَفْلِهِ غَيْرُ نَفْسِهِ	لَجَادَ بِهَا فَلَمِيقِ اللَّهِ مَائِلُهُ

ولأجل هذا الخطر العظيم ، والخطب الجسيم ، تورع عن الحلال الزاهدون ، وشمر
عن التلوث بالدنيا ذيل الرغبة العابدون . قال سيّد البشر ، والشفيع المشفع في

^(٢٨) يقاد ، من قود : أى يُقتض لها .

^(٢٩) الجلهاء : التي لا قرن لها .

^(٣٠) تفرق شذر مذر : أى ذهب مغالب حتى غلقة .

^(٣١) القيام : القيامة .

^(٣٢) التوكي : الحمقى ، العاجزون الجاهلون ، وبهم عي في الكلام .

^(٣٣) آذ : انتنى وصرج وثقل .

الحشر : "لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَرْتَدُّ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بِعُوضَةٍ مَاسَمَىٰ مِنْهَا كَافِرًا شَرِبَةً مَاءً" وقال عليه الصلاة والسلام ، والتحية والإكرام "اللَّهُمَّ ارزُقْ آلَ عَمَلٍ قُوتًا" .

ومع هذا كله فالملك والرعية أمانة ، وَمَنْ تَقَلَّدَ ذَلِكَ فَقَدْ أَوْجَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ضَمَانَةً ، فَلْيَتَحَنَّبْ حَيَاتِهِ ، وَلَا يَشِينُ بِهَا أَمَانَتَهُ . قال صفوة الله تعالى وخيرته من بَرِيَّتِهِ : "كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ" ومصدقاه قولُ ربِّ العالمين ، وَمِلْكُ الْمُلُوكِ وَالسُّلَاطِينِ ، وَهُوَ أَصْدَقُ الْقَائِلِينَ ﴿وَإِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾^(٣٤) فاعلم يا ملكاً أعطى الزمان أمانته ، أَنَّ هَذَا الْمُلْكَ الَّذِي بِيَدِكَ هُوَ مِنْ جُمْلَةِ الْأَمَانَةِ ، الَّتِي أَشْفَقَ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَالْجِبَالُ ، وَأَبَيْنَ أَنْ يُحْمِلْنَهَا خَوْفًا مِنْ النُّكَالِ وَالْوَبَالِ ، وَخَشِيَةَ أَنْ لَا يَفِينَ بِحَقْقِ حَمْلِهَا ، أَوْ يَضَعْنَهَا فِي غَيْرِ حَمْلِهَا ، فَيَعَاثِينَ ، أَوْ بِالْعِتَابِ يَخَاطِبِينَ ، فَتَعَفَّفْنَ عَنِ الرِّغْبَةِ فِي الثَّوَابِ ، خَوْفًا مِنَ الْعِتَابِ وَالْعِقَابِ ، وَعَمِلْنَ بِمَوْجِبِ مَا قِيلَ :

رَأَيْتُ بَقَاءَ وَدَّكَ فِي الصُّدُودِ	هَجَرْتُكَ لَا قَلْبِي مَنَىٰ وَلَكِنْ
رَأَتْ أَنَّ الْمَنِيَّةَ فِي السُّرُودِ	كَهَجَرِ الْحَائِمَاتِ الْوُرُودِ ^(٣٥) كَمَا
حَمَامًا ^(٣٦) فَهِيَ تَنْظُرُ مِنْ بَعِيدِ	تَقِيضُ نَفْسُهَا ظَمًا وَتَخْشَى
وَكَرْتَفُ بِالْعَاطِ السُّودُودِ	تَصُدُّ بِوَجْهِ ذِي الْبَعْضَاءِ عَنْهُ

ثُمَّ حَمَلَ هَذِهِ الْأَمَانَةَ بَنُو آدَمَ ، لِمَا قَدَّرَهُ وَقَضَاهُ الْعَلِيُّ الْأَعْظَمُ ، فِي سَابِقِ الْقَدَمِ ، وَلِمَا فِيهَا مِنْ أَحْكَامٍ وَحِكَمٍ ، وَإِنَّ الصَّادِقَ الْمَصْدُوقَ أَخْبَرَ ، فِيمَا رَوَى عَنْهُ أَبُو

^(٣٤) قرآن كريم ، سورة الأحزاب : ٧٢ .

^(٣٥) الحائِمَاتِ الْوُرُودُ : العطشانات من الحيوان وغيره إلى موارد المياه .

^(٣٦) الحمام : قضاء الموت وقدره .

ذر ، قال : قلت : يا رسول الله ألا تستعملني^(٣٧) ؟ قال : فَضَرَبَ يَدَهُ عَلَى مَنْكَبِي ، ثُمَّ قَالَ : يَا أَبَا ذَرٍّ إِنَّكَ ضَعِيفٌ وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، نِيزِي وَنَذَامَةٌ ، إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا ، وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا . فَمَنْ جَمَلَتْهَا الصَّلَاةُ ، وَالصَّوْمُ وَالزَّكَاةُ ، وَالْوُضُوءُ وَالْإِغْتِسَالُ ، وَمِرَاقَبَةُ ذِي الْجَلَالِ ، فِي السِّرِّ وَالْإِعْلَانِ ، بِقَدْرِ الطَّاقَةِ وَالْإِمْكَانِ ، وَعَلَى هَذَا جَمِيعِ الطَّلَاعَاتِ ، وَأَنْوَاعِ الْعِبَادَاتِ ، هِيَ فِي رِقَابِ الْعِبَادِ أَمَانَاتٌ ، وَمِنْ أَعْظَمِهَا ، وَأَهْمُهَا وَأَحْكَمِهَا ، الْإِمْرَةُ وَالْحُكُومَةُ ، وَالتَّصَدُّي لِفَصْلِ الْخُصُومَةِ ، وَالسُّلْطَنَةُ الْعَلِيَّةُ ، وَأُمُورُ الْمُلْكِ الْبَهِيَّةُ ، وَالْقِيَامُ بِأُمُورِ الرِّعْيَةِ .

فيجبُ على السادة الحكماء ، ومالكي أزمَةِ الأَئِمَّةِ ، أَنْ يُرَاقِبُوا اللَّهَ تَعَالَى فِي كَيْفِيَّةِ أَدَائِهَا ، وَيَطْلُبُوا أَنْفُسَهُمْ عَلَى مَعْرِ الْأَنْفَاسِ بِالْقِيَامِ بِوَفَائِهَا ، وَيَرَاعُوا أُمُورَ سُلْطَانِ السُّلَاطِينِ ، فِي أُمُورِ عِيَالِهِ الْمُسْتَضْعِفِينَ ، خُصُوصاً الْمَظْلُومَ وَالْفَقِيرَ وَالضَّعِيفَ وَالْمُسْكِينَ ، فَلِذَا عَامَلُوا عِبَادَ اللَّهِ بِالْعَدْلِ ، عَامَلَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِالْفَضْلِ . قَالَ اللَّهُ الْمُنَّانُ فِي مُحْكَمِ الْقُرْآنِ : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾^(٣٨) وَقَالَ السَّيِّدُ الْكَامِلُ ، وَالسَّنْدُ الْفَاضِلُ ، أَشْرَفُ الْأَوَائِلِ وَالْآخِرِ وَالْأَوَائِلِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ صَلَاةً تُغْنِي الْبَوَاكِرَ وَالْأَصَائِلَ : سَبْعَةٌ يَظِلُّهُمْ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ ، يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ ، إِمَامٌ عَادِلٌ بَدَأَ فِي هَذَا الْفَصْلِ ، مِنْ ذِكْرِ الصِّفَاتِ بِالْعَدْلِ . وَالْعَدْلُ يَا ذَا الْوَجْهِ الْمُنِيرِ الْوَسْطَ ، وَالْوَسْطُ هُوَ الْخَيْرُ . قَالَ مَنْ أَمَرَهُ قَهْرٌ ، ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ﴾^(٣٩) أَيِ لِلْأَيُّمَاءِ ، تَشْهَدُونَ لَهُمْ ، عَلَى أَعْمَلِهِمْ ، لِعَدَالَةِ فِيكُمْ ، وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ، أَيِ يَرْكَبُكُمْ ، أَيِ وَكَمَا جَعَلْنَا نَبِيِّكُمْ إِمَامًا الْقَبْلَتَيْنِ ، حَائِزَ الْفَضِيلَتَيْنِ ، جَعَلْنَاكُمْ حَائِزِينَ خِصْلَتَيْنِ ، بَالِغِينَ مَرْتَبَتَيْنِ ، وَهَمَا : كُونُكُمْ

^(٣٧) تستعملني : توليني منصباً أو ولاية .

^(٣٨) قرآن كريم ، سورة النحل : ٩٠ .

^(٣٩) قرآن كريم ، سورة البقرة : ١٤٣ .

عَدُولًا شُهَدَاءَ ، عَلَى النَّاسِ لِلْأَنْبِيَاءِ ، مَقْبُولِي الشَّهَادَةِ فِي الْأَدَاءِ ، وَكَوْنُ الرِّسُولِ مُعَدِّلِكُمْ ، وَتَزَكِيَّتِهِ عَلَى الْأَسْمِ مُفَضِّلِكُمْ . وَقَالَ ﷺ وَشَرَفَ وَكَرَّمَ ، وَفَضَّمْ وَعَظَّمْ ، "عَدْلُ السُّلْطَانِ يَوْمًا يَغْدِلُ عِبَادَةَ سَبْعِينَ سَنَةً" وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَالتَّحِيَّةُ وَالْإِكْرَامُ : "وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنَّهُ لَيَرْفَعُ لِلْسُّلْطَانِ الْعَادِلِ إِلَى السَّمَاءِ مِثْلَ عَمَلِ جُمَلَةِ الرِّعْيَةِ" وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّهُ السُّلْطَانُ قَالَ "ثَلَاثَةٌ لَا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ : الْإِمَامُ الْعَادِلُ ، وَالصَّائِمُ حَتَّى يَفْطُرَ ، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ" وَرَوَى كَثِيرٌ مِنْ مَسْرُوعٍ ﷺ قَالَ : قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : "السُّلْطَانُ ظِلُّ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ يَأْوِي إِلَيْهِ كُلُّ مَظْلُومٍ مِنْ عِبَادِهِ فَإِذَا عَدَلَ كَانَ لَهُ الْأَجْرُ ، وَعَلَى الرِّعْيَةِ الشُّكْرُ ، وَإِذَا جَارَ كَانَ عَلَيْهِ الْإِثْمُ وَعَلَى الرِّعْيَةِ الصَّبْرُ" . وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ يَرْفَعُهُ : "لَعَمَلُ الْإِمَامِ الْعَادِلِ فِي رِعْيَتِهِ يَوْمًا أَفْضَلُ مِنْ عِبَادَةِ الْعَابِدِ فِي أَهْلِهِ مِائَةَ سَنَةٍ أَوْ خَمْسِينَ سَنَةً" . وَقَالَ قَيْسُ بْنُ سَعْدٍ : "سِتِينَ سَنَةً" . وَاعْلَمْ ، أَيُّهَا الْمَلِكُ الْأَعْظَمُ وَاسْلَمْ ، أَنَّ الْعَدْلَ مَبِيزَانُ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْأَرْضِ ، بِهِ يَتَنَصَّفُ بَعْضُ الرِّعْيَةِ مِنَ الْبَعْضِ ، وَبِهِ يُؤْخَذُ لِلضَّعِيفِ مِنَ الْقَوِيِّ ، وَيُعْبَدُ اللَّهُ عَلَى السَّرَاطِ السَّوِيِّ ، وَيَتَمَيَّزُ الْحَقُّ مِنَ الْبَاطِلِ ، وَالْحَالِي مِنَ الْعَاطِلِ ، وَهُوَ مِنْ صِفَاتِ الذَّاتِ ، وَأَعْظَمُ الصِّفَاتِ ، بِمَعْنَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا عَزَّ وَجَلَّ جَلَالًا ، لَهُ أَنْ يَفْعَلَ فِي مُلْكِهِ مَا يَشَاءُ ، فَيُؤْتِي الْمَلِكَ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَسْزِعُ الْمَلِكَ مِمَّنْ يَشَاءُ ، وَيَعُزُّ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَذِلُّ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَحْكُمُ مَا يَرِيدُ ، وَالْخَلْقُ كُلُّهُمْ لَهُ عِيْدٌ ، وَجَمِيعُهُمْ بَعْضُ مُلْكِهِ ، نَافِذٌ فِيهِمْ سَهْمُ أَمْرِ مُلْكِهِ ، فَلَا اعْتِرَاضَ عَلَى فِعْلِ الْمَلِكِ ، وَلَا فِيمَا يَسْلُكُ بِمَمْلُوكِهِ مِنْ الْمَسَالِكِ ، وَلَا جِمَالَ لِعِزَاضِ عَبْدِهِ عَلَى ذَلِكَ ، لَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ مَوْلَاهُ كَرِيمًا ، وَفِي أَعْمَالِهِ مَدِيرًا حَكِيمًا ، فَمَنْ عَرَفَ أَنَّ اللَّهَ عَدْلٌ ، وَأَنَّ أَعْمَالَهُ جَارِيَةٌ بَيْنَ الْعَدْلِ وَالْفَضْلِ ، يَتَلَقَّى نِقْمَتَهُ بِالصَّبْرِ ، وَيَقَابِلُ بِقَمَتِهِ بِالشُّكْرِ ، وَيَطْمَئِنُّ خَاطِرُهُ ، وَتَسْكُنُ إِلَى مَوْلَاهُ سَرَائِرُهُ ، فَلَا يَسْتَقْبِحُ مَوْجُودًا ، وَلَا

يستهنُّ مفقوداً ، ولا يستتفلُّ حُكماً ، ولا يرى في الكون ظُلماً ، بل يستقبل الأحكام بالرضا ، ويستسلم لموارد القضا ، ويقابل العوارض ، بما قاله ابن الفارض :
وَكُلُّ آدَى فِي الْحَبِّ مَلَكٌ إِذَا بَدَأَ جَعَلَتْ لَهُ شُكْرِي مَكَانَ شَكْرِي .

وأعدلُ المخلوقات ، وأوسط الكائنات ، الأنبياء عليهم السلام ، فإنهم أعدلُ الخلقِ مزاجاً وطبيعة ، وأقومُ الناسِ منهاجاً وشرعة ، وأوسطُ البشرِ أفعالا ، وأقسطهم أعمالاً وأقوالاً ، وإنما يَعرِضُ على أقوالهم ، وَيَتَعَرَّضُ لأفعالهم ، مَنْ هو عَنِ الصَّوَابِ منحرف ، وعن حَادَّةِ الْحَقِّ منصرف ، وَمَنْ عَيْنُ بَصِيرَتِهِ عمياءُ عن مراقبةِ التحقيق ، كَالْأَعْمَى الَّذِي خَرَجَ وهو ماضٍ عن سَوَاءِ الطريق ، فيعثرُ في شوكِ أو حجر ، أو يصدُمه حيوانٌ أو شَجَرٌ ، فيقول نَحْنُوا هذا عن الطريق ، فإنَّه يحصلُ للمارة تعويق ، ويعيبُ على واضِيعه ، وإنما العيبُ في طبائعِهِ ، والجهلُ منسوبٌ إليه ، لعمى قلبه وعينيه . كما قال ذو الخويرة ، لسيِّدِ الرُّسُلِ البررة لما قَسَمَ الغنيمه ، قِسْمَةً مستقيمة : اغْلِلْ ؛ فأجابهُ الكاملُ المكْمَلُ ، بأنه إن لم يعدِلْ فَمَنْ يعدل ، وإنه - أي ذا الخويرة ، الذى أعمى الله بصره ، حباب وخسر ، ولأقضى اليوم العسير - إن لم يعدل ، ذلك المفضَّلُ ، وكيف يقال هذا الكلام ، لمثله عليه الصلاة والسلام ، وقد أمره الله تعالى بالعدل ، ونشر سِرِّ هذا النقل ، وأقرَّ عينكم بقوله ﴿وَأَمِرْتُ لَأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾^(١٠) .

قال الأسدُ الغالب ، عليُّ بنُ أبى طالب ، كَرَّمَ اللهُ وجهه ، وجعل إلى رضوانه له أحسن وجهه : "إمامٌ عادل ، خيّرٌ من مطرٍ وإبل ، وأسَدٌ حَطُومٌ"^(١١) خيرٌ من سلطانٍ ظلوم . وقيل : الملكُ يذومُ مع العدلِ ولو كان الملكُ كافراً ، ولا يدومُ مع

^(١٠) قرآن كريم ، سورة الشورى : ١٥ .

^(١١) حطومه : حطمه الكبير أو المرض .

الظلم ولو كان الملك مُستليماً . وما تعاطى حاكمٌ ذو فضل ، فصلَ قضيةٍ في فصل ، أحسن من سلوكٍ طريقةِ العدل ، ولذا بقي اسمُ أنوشروان ، مُخلداً بالعدل على مرِّ الزمان ، وإلى يومٍ يُنصبُ الميزان ، مع أنه كان مجوسياً يعبدُ النيران ، والسنة التي اختزَعها ، بالسلسلة التي وضعها^(٤٢) ، باقية في ممالك الصين ، مَعْمُولٌ بها إلى آخر حين . وقيل إنَّهُ كانَّ شديدَ الودادِ للاصطبياد ، وكان يعشقُ البازي والزُرَق^(٤٣) ، والصقرَ والباشقَ والبيدق^(٤٤) ، فسأل يوماً من البازدار^(٤٥) ، لِمَ كانت هذه الأطيَّارُ قصَّارُ الأعمار . قال : لأنها تَظْلِمُ الطيور ، والظالمُ عمرُهُ قصيرٌ ، فتنبه بهذه الكلمة واتَّعظ ، وكفَّ يده عن الظلم واحتفظ . ثم أسَّس قواعدَ العدل ، فانتشرَ ذكره إلى يومِ الفصل ، ويكفيه من الفضائل ، قولُ السَّيِّدِ الكامل "وُلِدْتُ فِي زَمَنِ الْمَلِكِ الْعَادِلِ" ورؤي أن بعضَ الملوكِ العادلين ، والحكَّامِ الفاضلين ، استولي عليه الكثير ، ووَقَّرَ^(٤٦) في أَذنيه وِقْرَ وَقَرَّ^(٤٧) ، وكان قبلَ الصَّمم ، في العدلِ والجَرم ، كما قيل :

وَأَنَّهُ مَظْلُومٌ وَغَنَّةٌ سَائِلٌ على أَذنيه أَخلى من الشَّهْدِ في الفم .
فَحَزَنٌ لِفَقْدِ سَمْعِهِ وَتَأْسَفٌ ، وتَأَرْقَ وبكى ، وتَأَوَّه واشتكى ،
وقال : ما أَتْلَهفُ من عَدمِ سَماعِ الحديث ، إلَّا على فَقْدِي صوتِ المُستغِيث . ولا

(٤٢) عن هذه السلسلة التي احدثها أنوشروان ، لتحقيق العدل بين الرعية ، وسماع دعوة المظلوم ، انظر :

الباب السادس من هذا الكتاب ، حكاية رقم [١١/٦]

(٤٣) الزُرَق : ضرب من الطيور من فصيلة العقاب النسرية ، من رتبة الصقريات .

(٤٤) البيدق : طائر من الجوارح في حجم الباشق .

(٤٥) البازدار : هو الذي يحمل الطيور الجوارح المعدة للصيد على يده .

(٤٦) وقَّرَ بضم القاف : كَبَتَ .

(٤٧) وقَّرَ : بكسر الواو : الحمل الثقيل ، وبفتحها : الصمم .

كنتُ أتلذذُ من متكلّم ، إلا بالإضغاءِ إلى عخطابِ المتظلم . ثم قال : ولئن جرّمتُ ذلك من طريقِ الإخبار ، فلا تَوَصِّلَنَّ إليه من طريقِ الإبصار .

ثم أمر بإشهارِ النداء ، في الأطرافِ والأرجاء ، أنه مَنْ كانتْ له ظُلامَةٌ فَلْيُظْهِرْ له علامة ، وهي أن يلبسَ ثوباً أحمر ، ويقفَ فوق ذلك التلّ الأخضر ، لتعرفَ علامته ، ونكشفَ ظُلامته . وقيل : إنّ السلطانَ السعيد ، نورَ الدين الشهيد^(٤٨) ، لما أمرَ ببناءِ دارِ العدل ، وعزمَ أن يقيمَ فيها للحكوماتِ الفصل ، أدركَ الأمير الكبير ، صاحبَ الرأي المنير ، أسد الدين شيركوه ، ما يعتمدُه السلطانُ ويرجوه ، وما يحمله على ذلك ويدعوه ، وعَلِمَ أنَّ ذلك الأسد ، لا يُسامَحُ عنده أحد ، وإنه لا يراعي في الحقِّ أمراً ، ولا كبيراً ولا صغيراً ، فإنه مع الحقِّ وبالحقِّ قبائمه ، لا تأخذه في الله لومةُ لائم ، فجمع مباشرة ديوانه ، وأكد ما قاله لهم بأيمانه ، لئن شكّا منهم أحد ، أو بلغه عن أحدٍ من حاشيته ظلمٌ أو نكد ، ليدبِقته أشدَّ العذاب ، ولينزلنَّ به أنكى عقاب . وقال ما برز هذا الأمرُ العزيزُ الغالي ، ببناءِ هذا المقعدِ العامِّ العالي ، إلا لأجلِي ولأجلِ أمثالي ، فما رَسَعَهُمْ إِلَّا طلبُ الخصوم ، واسترضاءُ العادل والمظلوم .

وروي أنَّ أحدَ الصدور ، غَصَبَه بعضُ عُثمَالِ المنصور ، وأخذ منه كُفراً من الكفور^(٤٩) ، فتوجّه إلى الخليفة ، وضربَ له أمثالاً ظريفة ، وقال : أصلحَ الله أميرَ المؤمنين ، وأقام به شعائرَ الدين ، ونصرَ به المظلومين ، على الظالمين ، أذكُرُ ظُلامتي أولاً ، أم أضربُ أمامَ حاجتي مثلاً . فقال : دَعْ الجدَلَ واضربْ المثل .

(٤٨) يعني نور الدين زنكي (ت ١١٤٦ م) .

(٤٩) الكفر : القرية الصغيرة .

[٣/١٠] قصة المنصور مع الرجل المظلوم

فقال : أَلْهَمَكَ اللهُ العَدْلَ ، وَأَقَامَ بِكَ قَوَاعِدَ الْفَضْلِ ، إِنْ الطُّفْلَ إِذَا نَابَهُ مَا يَكْرَهُهُ ، أَوْ قَرَعَهُ خَطْبٌ يَجِبُهُ ، فَرَّ إِلَى أُمِّهِ ، وَأَجْهَشَ إِلَيْهَا مِنْ هَمِّهِ ، فَأَتَى إِلَى حَضَنِهَا ، وَأَتَسَّ تَحْتَ بَطْنِهَا ، لِأَنَّهُ لَا يَعْرِفُ سِوَاهَا ، فَيَسْتَكْشِفُ بِهَا عَنْ نَفْسِهِ مَا ذَهَابَ ، وَلَا يَظُنُّ أَنَّ غَيْرَهَا ، يَدْفَعُ عَنْ نَفْسِهِ ضَرَرَهَا . فإِذَا عَرَفَ أَبَاهُ ، بَسَّ إِلَيْهِ شَكْوَاهُ ، وَاسْتَدْفَعَ بِهِ مَا عَرَاهُ ، لِأَنَّهُ قَدْ وَفَّرَ فِي وَهْمِهِ ، أَنَّ أَبَاهُ أَقْوَى مِنْ أُمِّهِ ، وَأَنَّ غَيْرَهُ مِنَ النَّاسِ ، لَا يَقْدِرُ عَلَى دَفْعِ الْبَاسِ ، فَيَلْجَأُ ، إِلَيْهِ فَيَتَرَامَى فِي دَفْعِ شِدَائِدِهِ عَلَيْهِ ، وَلَا يَقْبَلُ عِزَّهُ ، إِنْ تَرَكَ نَصْرَهُ ، أَوْ قَصَرَ فِي مَبْتَغَاهُ ، أَوْ تَهَاوَنَ فِي مُتَعَنَاهُ ، وَلِهَذَا قَالَ بَلَدُ الْحَيِّ : إِنْ التَّسَاءُ وَالصَّبِيانَ يَظُنُّونَ أَنَّ الرَّجُلَ يَقْدِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ . فإِذَا اشْتَدَّ وَاسْتَوَى ، وَأَصَابَهُ مِنْ أَحَدٍ جَوَى ، تَقَدَّمَ إِلَى الْوَالِي ، لِأَنَّ مَقَامَهُ عَالِي ، وَهُوَ أَقْوَى مِنْ أَبِيهِ ، فَيَسْتَكْشِفُ بِهِ مَا وَقَعَ فِيهِ . فإِذَا صَارَ رَجُلًا ، وَأَصَابَهُ مِنْ أَحَدٍ نَكْدٌ وَبَلَاءٌ ، اسْتَعْجَلَ بِتَأْيِيدِ السُّلْطَانِ ، فَوَجَدَهُ لَهُ أَحْسَنَ مَعُونٍ ، فَأَشْكَاهُ ، وَرَفَعَ بِلَوَاهُ وَكَفَاهُ إِذْ دَعَاهُ ، مِنْ عِدَاهُ مَا ذَهَابَ ، وَرَعَاهُ ، عَمَّا عَرَاهُ ، فَإِنَّهُ أَقْوَى مِنْ الْوَالِي ، وَأَقْدَرُ عَلَى دَفْعِ الظُّلَامَةِ مِنْ كُلِّ مَنْهَكٍ غَالِي ، وَهُوَ السُّلْطَانُ الْحَاضِرُ ، وَالْعَامِلُ وَالنَّاظِرُ ، عَلَى الْبَادِي وَالْحَاضِرِ .

فإِذَا ظَلَمَهُ الْوَالِي وَالْعَامِلُ ، وَنَقَصَهُ حَقَّهُ ذُو الْحُكْمِ الْكَامِلُ ، تَعَلَّقَ بِأَذْيَالِ عَدْلِ السُّلْطَانِ ، وَاسْتَكْشَفَ بِمَرَا حِمِّ نُصْرَتِهِ مَا ذَهَابَ مِنْ عَدْوَانٍ ، إِذْ قَدْ تَحَقَّقَ ، وَرَأَى وَصَدَّقَ ، أَنَّهُ أَقْوَى مِنَ الْكُلِّ ، وَإِلَى مَرْسُومِهِ مَرْجِعُ الْجَلِّ وَالْقَلِّ ، وَلَا يَدُّ فَوْقَ يَدِهِ ، وَأَنَّهُ قَدْ انْتَهَى حَدِيثُ رَفْعَتِهِ لَعَلُّوْ سَنَدِهِ ، وَبَلَغَ فِي التَّسَلُّطِ وَنَفْوَذِ الْأَمْرِ إِلَى أَقْصَى أَمْتِهِ ، إِذْ هُوَ ظِلُّ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ ، وَخَلِيفَتُهُ فِي إِقَامَةِ نَفْلِهِ وَإِحْيَاءِ فَرْضِهِ ، وَقَابِضُ أَرْزَمَةِ الْمَخْلُوقِينَ ، وَمَنْصَفُ الْمَظْلُومِينَ مِنَ الظَّالِمِينَ . فإِذَا لَمْ يَنْصَفْهُ السُّلْطَانُ ، مَعَ الْقُدْرَةِ

الكاملة والإمكان ، توجه بشكواه إلى سلطان السلاطين ، وطلب رفع ظلامته من رب العالمين ، لعلمه أنه الحكم الذي لا يجوز ، والحكيم الذي يبيده مقاليد الأمور ، والحاكم الذي يعلم حادثة الأعين وما تخفي الصدور ، وأنه أقوى من السلطان ، ولا يحتاج في الشكوى إلى بينة ولا بيان ، ولا إلى دليل ولا برهان .

وقد نزلت بي حادثة للقلب كارثة ، وبالفكر عابسة ، وللسر عاتية . وهي أن العامل الفلاني ظلمني وأخذ مكاني ، فأنا أشكوه إليك ، وقد تراميت عليك ، وعرضت قصتي بين يديك ، لأنك نعم السند ، وليس فوقك أحد ، ولا في الحكام ، إلا من هو لك بمنزلة الغلام ، وما بعدك إلا الله ، مولى لا يخيب من رجاه ، ويجب المضطر إذا دعاه ، فإن وعيت قصتي ، وكشفت غصتي ، ولأرفعها إلى الله ، وقطعت النظر عما سواه ، وهذا أو أن الموسم^(٥٠) ، وإعمال للنسيم^(٥١) ، وأنا متوجه إلى حريمه ، ومتزام على باب إحسانه وكرمه . فلما وعى المنصور خطابه ، أرسل من سحاب جنه عباة ، وقال حبا وكرامة ، يا ذا الزعامة ، بل أنصفك ، وبالفضل أسعفك ، وأضعف كرامتك ، وأكشف ظلامتك ، وأوصلك حقك ، وأعطيك مستحقك ، وأمر فكتب إلى واليه ، يضع من معاليه ، ويأمره برّد أراضيه ، وطلب مراضيه ، والتحلي من ظلم أياديهِ ، وإكرام محله وناديه .

[٤/١٠] قصة النبي موسى والرجال الثلاثة

وروي أنّ موسى الكليم ، عليه الصلاة والتسليم ، في بعض مناجاته ، وسأله حاجاته ، سأل الله من فضله ، أن يرّيه نكّة من عدله ، فأمره أن يتوجه إلى مكان ،

(٥٠) الموسم : موسم أداء فريضة الحج .

(٥١) للنسيم : الطريق إلى مكة .. والتوجه إليها للحج .

ويختفى فيه عن العيان ، فامتثل ما به أمر ، واختفى فى ذلك المكان على شط نهر ، فما كان بأسرع من قدوم إنسان ، إلى ذلك المكان ، فمجرّد ما وصل إليه ، نزع من ملبوسه ما عليه ، وكان معه كيس ، فيه مالّ نفيس ، فأودعه ثيابه ، ورام فى الماء انسيابه ، فدخل فى ذلك النهر ، وغلغل فيه إلى أن غاب عن النظر . فأقبل فارس ، فوجد ثياباً بلا حارس ، فنزل عن الدابة ، وفتش ثيابه ، وأخذ كيس الذهب ، وركب فرسه وذهب ، وأسرع فى الذهاب ، إلى أن زال شخصه غاب . ثم أقبل شخص ذو شجب^(٥٢) ، وعلى ظهره خيزمة خطب ، فانتهى إلى الماء ، وقد برح به الظما ، وأمضه التعب ، وأخذ منه التصب ، فطرح عن ظهره الخطب ، وقصد الراحة ، وقد ظهر الذى كان فى السباحة ، فوجد عند ثيابه ، شخصاً من أتراه ، فاستأنس به ، وتآوه لمكتبيه ، وما يُقاسيه من نصبه ، ثم اشتعل ملبوسه ، وتقدّ كيسه ، فما وجده ، فعضّ يده ، فسأل الخطاب ، عما كان فى الثياب ، وطلب منه الكيس ، بالتعبيس ، فقال : ما رأيته ، ولا حويته . فقال : هل كان معك أحد ؟ فقال : لا والواحد الأحد . قال : فهل كان هناك سيواك ؟ قال : لا والذى سواك ، قال : يا أخي أنا وضعتُ الهيّان^(٥٣) ، بيدي فى هذا المكان ، ولم يطل على ذلك زمان ، ولاحض سيواك حيوان ، ولا طيئ عذراء هذا الموضع إنس ولا جان ، فلا أشك أنك أخذته ، ولنفسك اغلذته . فأقسم بعالم الحقيّات ، وكاشف البليّات ، المطلع على الضمائر والنيات ، إنه ما رأى له هيّانا ، ولا يعرف لذلك مكانا . فقال : لو شهد لك الكوّن والمكان ، ونطق بهرائتك جوامد الزمان ، وزكّاهم الكرام الكاتبون ، لما شككت أنهم كاذبون ، لأنّ إنكار المحسوس مكابرة ، والمثابرة على الباطل للحقّ مُدابرة ، ولكن خذْ لك منه يا فقير ، الثلث والثلث

(٥٢) ذو شجب : ذو جمل .

(٥٣) الهيّان : البتّة ، كس لفظ النقود والأموال ، يُشدّ فى الوسط .

كثير ، وارْزُدْ عَلَيَّ الثَّلَثِينَ ، وإنْ أَتَيْتَ فَاجْعَلْهُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ نِصْفَيْنِ ، فما زاد ذلك على اليمين ، وما شك هذا أنه يمين^(٥٤) . فقال : ارْزُدْ عَلَيَّ مَالِي ، وإِلَّا قَتَلْتُكَ فَلَا لَكَ وَلَا لِي ، فقال : ما رَأَيْتُ مَالَكَ ، فافْعَلْ ما بَدَأَ لَكَ ، فَشَرَعَ فِي تَفْيِيشِهِ ، وبَالَغَ فَحْصَهُ وَتَنْبِيشَهُ ، فَلَمْ يَهْتَدِ إِلَى شَيْءٍ ، سِوَى الضَّلَالِ وَالْغَيِّ ، فَأَخَذَهُ الْحَنَقُ ، وَاشْتَدَّ بِهِ الْأَرْقُ ، وَثَارَتْ نَفْسُهُ الْأَبِيَّةُ ، وَاتَّقَدَّتْ ثَوْرَتُهُ الْغَضَبِيَّةُ ، فَضَرَبَهُ بِمِخْدَدٍ فَقَتَلَهُ ، وَجَدَّ لَهُ ، بِالْإِلَهَالِكِ فَجَدَّ لَهُ ثُمَّ تَرَكَهُ وَذَهَبَ ، وَلَمْ يَحْظَ مِنَ الذَّهَبِ ، بِغَيْرِ اللَّهَبِ .

كُلُّ هَذِهِ الْأَحْوَالِ ، وَمَوْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَشَاهِدُ مَا فِيهَا مِنْ أَفْعَالٍ وَأَقْوَالٍ ، ثُمَّ نَاجَى فَقَالَ : يَا ذَا الْجَلَالِ أَنْتَ عَالِمٌ بِحَقَائِقِ الْأُمُورِ ، وَسَوَاءٌ عِنْدَكَ الْبُطُونُ وَالظُّهُورُ ، وَسَأَلْتُ فَضْلَكَ ، أَنْ تُرِيَنِي عَذَابَكَ ، فَأَرَيْتَنِي هَذَا الْمَغْرَمَ^(٥٥) ، وَأَنْتَ أَعْلَى وَأَعْلَمُ ، ففِي ظَاهِرٍ مَا أَمَرْتَنِي ، وَبِكِرَامَتِهِ غَمَرْتَنِي ، مِنَ الشَّرِيعَةِ الْمُطَهَّرَةِ ، وَنَصِّ التَّوَارَةِ الْحَرَّةِ أَنَّ هَذَا الْحَكَمَ ، جَوْرٌ وَظُلْمٌ ، فَأُطْلِعْنِي عَلَى الْحَقِيقَةِ ، وَيُزَيِّنْ لِي سُلُوكَ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ . فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى ، وَجَلَّ جَلَالًا : يَا مُوسَى ، الْمَقْتُولُ قَتَلَ أَبَا الْقَاتِلِ ، وَالْقَاتِلُ سَرَقَ الْكَيْسَ مِنْ أَبِي الْفَارِسِ الْخَاتِلِ ، ففِي الْحَقِيقَةِ الْفَارِسُ النَّبِيَّةُ ، وَصَلَّ إِلَى مَالِهِ الْمُخْلَفِ عَنْ أَبِيهِ ، وَالْقَاتِلُ إِنَّمَا اسْتَوْفَى قَوْدَهُ^(٥٦) ، مِمَّنْ قَتَلَ وَلَدَهُ ، وَهَذِهِ الْأُمُورُ ، إِنَّمَا تَتَضَحُّ يَوْمَ النُّشُورِ ، يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ، وَتُكْشَفُ الضَّمَائِرُ ، وَيُنَادَى يَوْمَ التَّنَادِ ، لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنْ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ .

وَنظِيرُ هَذِهِ الْقِصَّةِ ، مَا ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَقِصَّةَ ، فِي رَوْضِ كَلَامِهِ النَّضَرِ ، عَنْ مُوسَى وَالْخِضْرَ ، عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ، وَالتَّحِيَّةَ وَالْإِكْرَامَ ، إِذْ رَكِبَ السَّفِينَةَ وَخَرَقَ ، خَرَقًا مُؤَدِّيًا إِلَى الْغَرَقِ ، وَقَتَلَ النَّفْسَ الزَّالِمَةَ ، وَأَقَامَ بِغَيْرِ أَجْرِ أَرْكَانَ الْجِدَارِ

(٥٤) يمين : يكذب .

(٥٥) المغرم : المأزق الذي غرم فيه الرجل ماله وقتل غيره .

(٥٦) قوده : قصاصه .

الواحية ، وبعض ذلك مخالفٌ لظاهرِ الشريعة ، تنفرُ عنه النفسُ السليمةُ والطبيعة ، ولكنه موافقٌ للحِكْمَةُ والإلهية ، ومقتضياتِ العقلِ الحَقِيقَةِ ، الذى لا يطلعُ عليه إلا عَالَمُ الأسرارِ الخفيةِ ، ولهذا قال جَلُّ واحدًا أحدا ، وتعالى فَرْدًا صمد ﴿عَالَمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾^(٥٧) . ثم استثنى من هذا المَقُولِ ﴿إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾^(٥٨) . وإنما الشريعةُ الزاهرةُ ، وردت بما تقتضى من الحِكَمِ الظاهرة ، فتَعَبَّدْنَا اللهَ فى الشرائع ، بظاهرٍ ما بَيَّنَّ . فى الوقائع . قيل مَنْ أَتَقَنَ بِحَقِيقَةِ أَرْبَعَةٍ ، كَانَ مِنْ ضَبِيقِ أَرْبَعَةٍ فى سِعةٍ ، وَأَمِنَ وَدَعَةَ : مَنْ أَتَقَنَ أَنَّ الصَّانِعَ ، الضَّارَّ النَّاسِعَ ، لم يُخْطِئْ وَلَمْ يغلُطْ ، آمِنَ مِنَ الْعَيْبِ وَالشُّطْطِ . وَمَنْ أَتَقَنَ أَنَّ الْخَلْقَ ، وَمُقَسَّمِ الْأَرْزَاقِ ، لم يَجِفْ فى خَلْقِهِ ، ولم يَمَلْ فى رِزْقِهِ ، آمِنَ مِنَ الْحَسَدِ ، واستراحَ من النُّكْدِ . وَمَنْ أَتَقَنَ بوقوعِ المَقْدُورِ ، وأنه لا يُنْجِيهِ مِنْهُ عَذُورٌ ، آمِنَ مِنَ الْغَمِّ ، ولم يتسلَّطْ عليه الهمُّ ، كما قيل :

مَا قَلَدَ قَضَى يَا نَفْسُ فاصْطَبِرِي لَهْ وَلَكَ الْأَمَانُ مِنَ الَّذِي لَمْ يَفْسُدْ

وَمَنْ عَرِفَ أَصْلَهُ ، آمِنَ مِنَ الْكِبَرِ نَصْلَهُ . وَكُتِبَ فى قَضِيَّةٍ ، إلى أعدلِ خُلَفَاءِ بَنِي أُمِّيَّةٍ ، مِنْ عَامِلِهِ بِجَمْنَصَ ، أَنَهُ هُدِيمَ النَّمَصِ^(٥٩) ، وَغُمِكَ النَّمَصِ^(٦٠) ، وَأَنْ رُبَّضَهَا^(٦١) رَابِضُ^(٦٢) ، وَمَرَعَى رِياضِهَا بِأَرْضِ^(٦٣) ، وَأَنَّهَا محتاجةٌ إلى عِمَارَةٍ وَزِرَاعَةٍ ، وَحِرَاسَةٍ وَمَنَاعَةٍ ، فَكُتِبَ إِلَيْهِ عَمْرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ ، هَذَا الْجَوَابُ الْمَفِيدُ

^(٥٧) قرآن كريم ، سورة الجن : ٢٦ .

^(٥٨) قرآن كريم ، سورة الجن : ٢٧ .

^(٥٩) النمص : فزول الجبين فى غير أرائه ، مما يعرضه للموت .

^(٦٠) النمص : القصار من الريش ، وأول ما ييلو من الثب .

^(٦١) الربض : الناحية أو الإقليم .

^(٦٢) واربض : ساكن ، لا حركة فيه ولا نماء .

^(٦٣) يارض : يباهى ، قليل محمود .

الوجيز ، وهو "حصنُهَا بِالْعَدْلِ وَنَقَّ طُرُقَهَا مِنَ الْجَدَلِ يُثَبِّتُ الْبِنَا ، وَيُنْبِتُ الْكَلَا ، وَالسَّلَام . وقيل : أميرٌ بِلَا عَدْلٍ كَبَغِيمٍ بِلَا مَطَرٍ ، وَعَالِمٌ بِلَا وَرَعٍ كَشَجَرٍ بِلَا ثَمَرٍ ، وشَابٌ بِلَا تَوْبَةٍ كَمِشْكَاةٍ بِلَا مِصْبَاحٍ ، وَغَنِيٌّ بِلَا سَخَاءٍ كَقَفْلٍ بِلَا مِفْتَاحٍ ، وَفَقِيرٌ بِلَا أَدَبٍ كَطَائِفٍ بِلَا حَطَبٍ ، وامرأةٌ بِلَا حَيَاءٍ كَطَعَامٍ بِلَا مِلْحٍ ، وَقَاضٍ جَائِرٌ كَمِلْحٍ عَلَى جُرْحٍ . وقيل : العَالَمُ بَسْتَانٌ سِيَاحُهُ الشَّرِيعَةُ ، وَالشَّرِيعَةُ سِيَاحٌ يَحْدُثُهَا الْمَلِكُ ، وَالْمَلِكُ رَاعٍ يَعْضُدُهُ الْجَيْشُ ، وَالْجَيْشُ أَعْوَانٌ يَكْفُلُهَا الْمَالُ ، وَالْمَالُ رِزْقٌ يَقْعُمُهُ الرِّعْيَةُ ، وَالرِّعْيَةُ أَحْوَارٌ يَسْتَعْبِدُهَا الْعَدْلُ ، وَالْعَدْلُ سُلُوكٌ بِهِ نَظَامُ الْعَالَمِ ، وَكَيْفَلَمُ أَنْ الْمَلَّةَ الْأَحْمَدِيَّةَ ، وَالشَّرِيعَةَ الْمَحْمَدِيَّةَ ، هِيَ أَعْدَلُ الْحَيْلِ ، وَأَقْوَمُ النَّحْلِ .

مثلا النصارى لا يتحامون الحائض أيام إقرايها^(١١) ، ولا فرق بين الحائض وغيرها من نسايتها ، واليهودُ يَحْتَنِبُونَهَا ، فَلَا يُؤَاكِلُونَهَا وَلَا يُشَارِبُونَهَا ، وَلَا يَقْرُبُونَهَا وَأَسَا ، ويعتدونها رجساً وركساً^(١٢) ، فَسَلَكْتُ الشَّرِيعَةَ الْمَحْمَدِيَّةَ فِي ذَلِكَ ، أَعْدَلُ الطَّرِيقِ وَأَفْضَلُ الْمَسَالِكِ ، فَتَعَاشَرُ كَالْأَطْهَارِ ، وَحُرِّمَ قُرْبَانُ مَا تَحْتَ الْإِزَارِ . وفي بعضِ المللِ عَلَى الَّذِي قَتَلَ الْقَوْدَ^(١٣) وَالْقَصَاصَ ، وَلَيْسَ فِي الدِّيَّةِ خَلَاصٌ ، وَفِي بَعْضِ الدِّيَّةِ لَا غَيْرَ ، وَمَا لِلْقَصَاصِ فِيهَا سِرٌّ . وَدِينُ الْإِسْلَامِ الْمَرْفُوعُ ، كُلُّ فِيهِ مَشْرُوعٌ ، وَالْعَدْلُ فِي الْإِعْتِقَادِ ، بِمَا مِلَكَ الْبِلَادَ ، تَرَكُّ التَّخْلِيطِ ، وَسُلُوكٌ مَا بَيْنَ الْإِفْرَاطِ وَالتَّفْرِيطِ ، وَالْقَوْلُ بِالتَّقْدِيسِ وَالتَّنْزِيهِ ، وَإِثْبَاتُ الصِّفَاتِ مِنْ غَيْرِ تَعْطِيلٍ وَلَا تَنْشِيهِ ، وَاقْتِبَاسُ النُّورِ مِنْ حَمْرَيْنِ ، وَسُلُوكُ أَمْرَيْنِ أَمْرَيْنِ ، وَالْعُدُولُ عَنِ الْمُنْهَبِ الْبَغِيضِ ، وَهُوَ مُنْهَبُ الْجَبْرِ وَالتَّفْوِيزِ .

(١١) الإقراء : أيام الحيض .

(١٢) ركسا : رجسا وكل مستقذر .

(١٣) القود : القصاص .

والعدلُ فى الفقيهات^(١٧) ، يامعشوقَ المخدرات والحذاريات^(١٨) ، الذى قام عليه النص دليلا ، ولا تَجْهَرُ بصلاتك ولا تُخَافِتْ بها وأَبْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا : فمن العدلِ الوضوءُ المعتاد ، ثلاث مراتٍ وَمَنْ نَقَصَ أَوْ زَادَ ، فقد تعدَّى وظلم ، كذا قال النبيُّ المكرمُ ﷺ أَيُّ تَعْدَى إِنْ أَسْرَفَ ، وظَلَمَ إِنْ أَجَحَفَ . والعدلُ فى الصلاة أَنْ تَكُونَ عَلَى مَرْتَضَى الشَّرْعِ وَمُقْتَضَاهُ ، وهى أداؤها فى أَفْضَلِ الْأَوْقَاتِ مُؤَدَّاةً ، مع الجماعاتِ فى الصفِّ الأولِ ، على الوجهِ الأكمل ، عن يَمِينِ الإمام ، من الاقتتاعِ إلى الاحتتام ، مع تعديل الأركان ، بل التعديلُ فرضٌ عند بعضِ الأعيان ، لا نَقْرًا كنفَرِ الطَّيْرِ ، ولا تطويلاً يضرُّ بالغير . والعدلُ فى الزكاةِ ، أَنْ لَا يَتَيَمَّمُوا^(١٩) الخبيثَ منه ينفقون ، ولا يجعلوا لله ما يكرهون ، وليسوا بآخِلِيهِ ، إِلَّا أَنْ يَغْمُضُوا فيه ، ولا يكلف جابى المال ، أَنْ يُعْطَى كرائم الأموال . والعدلُ فى الصوم ، ياسيدَ القوم ، أَنْ لَا يَتَنَاوَلَ فَوْقَ الْغَدَاةِ المعتاد ، ولا يصلُّ بِالْوَسَالِ إِلَى دَرَجَةِ الإجهاد ، ويعجلُ الْفُطُورَ وَيُوَخِّرُ السُّحُورَ .

والعدلُ فى الحجِّ أَنْ لَا يَمَارَى فى الإنفاق ، ولا يضارِرَ الرفاقَ بالشقاق ، كما يفعله أُنَاءُ الزَّمانِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ خَسْرَانٌ ، والازديادُ من ذلك نقصانٌ ، ولقد بلغَكَ يا قمر ، ما قاله عُمَرُ لخدمته يَرْفَعُ ، وذا لَا يَخْفَى : كَمْ بَلَغَتْ نَفَقَتُنَا مَقْدَارًا ؟ قال : ثمانيةَ عَشَرَ دينارًا ، يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، قال : وَيْلَكَ أَجَحَفْنَا بَيْتَ مَالِ الْمُسْلِمِينَ . وَإِيَّاكَ وَالْأَشْرَ^(٢٠) ، وَقَالَ اللَّهُ كُلُّ شَرٍّ ، فقد بلغَكَ قِيَمَةُ راحِلَةِ سَيِّدِ الْبَشَرِ ، ليدلُّ

(١٧) الفقيهات : علوم الشريعة وأصول الدين . والفقه الإسلامى .

(١٨) الوصايا البليغة الذكية غير المباشرة (الوصايا التحذيرية) .

(١٩) يتيمم : يقصد ، يتوجه ، يعنى أنه يعمد إلى دفع زكاته من حيث ماله وحرامه عمدًا وقصدًا .

(٢٠) الأشر : البطر والاستكبار والغرور .

ذلك على ترك البطر والأشر ، ولا يقصر فى نفقته ، بحيث يصير كلاً^(٧١) على رفقته . وكذلك فى كل الإنفاق ، يملك الآفاق ، قال من عز كلاما ، وجل مقالا ومقاما ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾^(٧٢) .

والعدل فى النكاح ، ياحبيب الصباح ، لمن عليه يقوى ، فهو أقرب للتقوى ، وهو يا أبا حسن ، واجب عند التوقان ، سنة عند القلوة عليه ، مستحب عند استواء طرفيه ، مكروه عند العجز عنه ، وهذا بحث قد فرغ منه . وقس ياذا الكرامات ، على هذا سائر العبادات ، وجميع العادات ، وعقود المعاملات ، ولا تتعد الحدود ، فى الحدود ، فإن ذلك مردود ، وعلى قانون العدل وردت الشريعة المطهرة ، وجرت قدما شرائع الأنبياء البررة ، وكذلك مقادير الملة المحمدية ، عليه أفضل صلاة وأزكى تحية ، محررة على القواعد العدلية ، وفيها من الحكيم الإلهية ، ما يعجز عن إدراكها القوسى العقلية ، قال الله تعالى ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾^(٧٣) .

وحاصل الأمر ، ياذا النهي والأمر ، أن العدل هو قوام كل فضيلة ، كما أن الصبر هو أساس كل خصلة جميلة ، وإن أردت بسط هذا البيان ، فتوكل القول والبيان ، فى تفسير القرآن المنزل على أشرف إنسان ﴿وَإِنْ أَلْفُ رُسُلٍ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾^(٧٤) فقد أشبع التقرير ، ودقق التحرير ، فى روضه النضير ، فارس

(٧١) الكل : العلة .

(٧٢) قرآن كريم ، سورة الفرقان : ٦٧ .

(٧٣) قرآن كريم ، سورة الحديد : ٢٥ .

(٧٤) قرآن كريم ، سورة النحل : ٩٠ .

ميدانهِ الإمام الخطير ، فخرُ الدين الرَّازي^(٧٥) في تفسيرهِ الكبير : والعدلُ يجري في الصفات ، كما يمشي في الذوات ، ومرتبته في العلو ، أن يكونَ بين التَّقصيرِ والغلو ، كالكرمِ الذي يكونُ بين الإسرافِ والتبذير ، والشحِّ والتقتير ، والتواضع الذي بين الضَّعة والتكبر ، وبين التَّصغُرِ والتَّصغُر ، والشجاعة التي بين التهورِ والخفة ، والجنُّ الطائشِ الكَفَّة ، والقناعة التي بين الحرصِ والطمع ، والندالة والمُلح ، وبين العُجبِ والتَّصُلُّف ، والاحتشامِ والتَّقشُّف ، والإخلاصِ الذي بين الشركِ والهوى ، وبين الأعجابِ والرِّيا ، والعفة التي بين التَّهافتِ على المشتبهات ، والزَّفجَع عن تناولِ المباحاتِ والطيبات ، والحزمِ الذي بين سوءِ الظنِّ والوهمِ والوسَّواس ، وبين إذاعةِ السرِّ والاستخفافِ وعدمِ المبالاة بالناس ، والحلمِ الذي بين الغضبِ ، بلا سبب ، وبين التفاضلي عن اللِّثام ، عند موجبِ الانتقام ، والشفقة ولينِ الجانب ، للأقارب والأجانب ، الذي بين القسوة والاستكبار ، وبين الرخاوة واللينِ المستلزمِ لتضييعِ حقوقِ الأهلِ والجار ، وحفظِ الحقوقِ الذي بين التَّكَلُّفِ والعُقوق ، يراعى فيها الخُلود ، ولا يخرجُ فيها عن الحدِّ المعهود ، فالخروجُ عنها يسمى عنادًا وقساوة ، والتَّقصيرُ فيها يُدعى ركاسةً ورخاوة ، مثلاً مَنْ يَسْتَحِقُّ العفوَ لا يضرب ، ومَنْ يَسْتَهِلُّ الضربَ لا يُقطع ولا يُنكَب ، ومَنْ استوجبَ القُطْعَ لا يُقتل ، ومَنْ وَجَبَ عليه حدٌّ لا يُهمل ، وتجري أمورُ الشرعِ الشريف ، على ما وَرَدَ به الأَمْرُ المنيف ، فما نَمَّ أحدٌ أكرم ، من الله ولا أرحم ، ولا أعلمُ بأمورِ مخلوقاته ولا أحكم ، قال السميعُ البصير ﴿لَا يَغْلُمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾^(٧٦) .

^(٧٥) للتوفى سنة ١٢٠٩ م .

^(٧٦) قرآن كريم ، سورة المُلْك : ١٤ .

وروي أن الإمام المسند ، جعفر بن محمد ، دخل على الرشيد ، وهو في أمر شديد ، قد استولى عليه الغضب ، واستخفه الطيش والصخب . فقال : يا أمير المؤمنين ، إن كان غضبك لرب العالمين ، فلا تغضب له أكثر من غضبه لنفسه ، وقد حدث لكل شيء حداً من نفسه وبأسه ، فلا تتعد حدوده ، فإنه قد ملكك عيبه ، فتذكر من وقوفهم بين يديك ، واقتدارك عليهم إذا تمثلوا قياماً لديك ، قدومك يوم القيامة عليه ، ووقوفك خاضعاً منفرداً بين يديه ، ومن انتقامك منهم ، سؤاله إياك عنهم ، فسكن من غضبه واقتدى بأدبه .

وقال الحكماء للأسكندر : عليك بالاعتدال في كل الأمور ، فإن الزيادة غيب ، والنقصان عجز ، وفي الحديث : "خير الأمور أوسطها" ولهذا قيل ، في الأتواريل : ينبغي للإنسان ، الراجح العقل في الميزان ، أن يحصل من كل علم مقدار ما يحتاج إليه ، ويعول في مشكلاته عليه . مثلاً من علم الأدب ، ما يُنال به عند أربابه الرتب ، كاللغة والنحو والصرف ، ولو أنه أدنى حرف ، ليقوم بذلك لسانه . ومن علم المعاني ما يُبلغ به بيانه . ومن العروض والقوافي ، المقدار الوافي ، والمعيار الكافي . ومن الطب ما يعرف به مزاجه ، ويصلح به علاجه ، ويقوم به اعوجاجه . ومن علم التفسير والقرآن ، ما يقتدر به على بيان كلام الرحمن . ومن علم السنة والحديث ، ما يميز به الطيب من الخبيث ، ويضبط به أقسامه ، وصحته وسقامه والأنساب والرجال ، وما لهم من صفات وأحوال ، إن لم يكن مفصلاً فعلى الإجمال ، ويندرج فيه علم التاريخ ، العالى الشماريخ . ومن علم الكلام ما يصحح به دينه ، ويقيم به اعتقاده وبقينه . ومن علم الأصول ، وما اشتمل عليه من معقول ومنقول ، ما يقدر به على استنباط الأحكام ، ومعرفة أدلة الحلال والحرام . ومن علم الفروع ما يُحكم به أصناف العبادات ، وأنواع العادات ، وطرائق العقود ،

ورقامة الحدود . ومن عِلْمٍ مكارِمِ الأخلاقِ ، ما يصيّدُ به قلوبَ الرفاقِ ، ويكتسِبُ به الذكرَ الجميلَ ، والثناءَ الجليلَ . ومن الحرفِ ما يحصلُ به القوتُ الحلالُ ، ولا يصيرُ على الناسِ كلاًّ ذا إِمْنالٍ . وقد قيل : خالطُوا الناسَ مُحالِطَةً إِنَّ غَيْبَتَهُمْ حَنُوا إِلَيْكُمْ ، وَإِنَّ مَتَمَّ بِكَوًّا عَلَيْكُمْ . ومن عِلْمِ الرِّكوبِ والرَّميِ والسِّباحَةِ ، والخطِّ ولَعِبِ الرُّمَحِ والسِّياحَةِ ، وعِلْمِ الفرائضِ والحسابِ ، وطرائقِ المِبايعاتِ والكتابِ ، ما يقدرُ به على الدخولِ إليه ، إذا تكلّموا فيه بين يديه ، بحيث يكونُ له فيه مشاركةٌ وإِلّامٌ ، ولا يَكونُ بين الخواصِّ كالعوامِ . وكلُّ ما ذُكِرَ فسلوكُهُ عَدْلٌ ، والتَّبَسُُّّ به كَمالٌ وفضلٌ ، ورأسُ مالِ الجميعِ التَّقْوَى ، فإنَّ الإنسانَ الضعيفَ بِالتَّقْوَى يَقْوَى ، قال اللهُ تعالى ﴿وَلَكِنَّ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ (٣٧) .

وبالجُبُلَةِ فالعَاقِلُ العادلُ ، بل الكاملُ الفاضلُ ، لا يستنكفُ عن نوعٍ من العلومِ ، ولا تتردُّ هِمَّتُهُ عن اقتباسِ منطوقٍ ومفهومٍ . قَالَ مُعَلِّمُ الْخَيْرِ ، وَتَحَذَّرُ الشَّرَّ : تَعَلَّمُوا حَتَّى السَّحَرِ .

وقيل :

عَرَفْتُ الشَّرَّ لَا لِلشَّرِّ لَكِنْ لِتَوْقِيهِ

وَمَنْ لَمْ يَعْرِفِ الْخَيْرَ مِنَ الشَّرِّ يَقَعَ فِيهِ

وكلُّ صافي السَّريَّةِ ، وذِي بصيرةٍ منيرةٍ ، يتوجَّهُ إلى التعلُّمِ والاستفادةِ ، ويجعلُ مرادَهُ مرادَهُ ، أي عِلْمٌ كان خُصُوصاً إذا كان ، مِنَ الشَّرِّ بِمَكَانٍ . قال بعضُ الوزراءِ لابنتِهِ : يَا بُنَيَّ تَعَلَّمِ الْعِلْمَ وَالْأَدَبَ ، وَلَا تَسَأَمْ فِيهِمَا مِنَ الطَّلَبِ ، فَلَوْلَا الْعِلْمُ وَالْأَدَبُ ، لَكَانَ أَبُوكَ فِي السُّوقِ حَمَلاً ، وَلِلنُّوقِ جَمَالاً . فبالْعِلْمِ وَالْأَدَبِ رَكِبْنَا أَعْنَاقَ الْمُلُوكِ ، وَأَخْرَجَ النَّاسُ بِأَ ذَا الْإِفْضَالِ ، إِلَى اكْتِسَابِ الْفَضْلِ وَالْعِلْمِ

(٣٧) قرآن كريم ، سورة الحج : ٣٧ .

والكمال ، السلاطين والملوك ، ومن تبعهم في السلوك ، فإنهم بين خلق الله تعالى هم المرموقون ، والسابقون بجلال النعم لا المسبقون ، ويحفظ بلادهم وعبادته المستوثقون ، وبالسؤال عنهم موثقون ، فهم التحملون لأعباء العدل ، المكلفون بالحاسبة عنه والفضل .

قال من يقول للشيء كُنْ فيكون : ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٧٨) فهم أقدر على التحصيل من غيرهم ، والزمان والمكان تابعان لسيرهم ، والخاص والعام يتمنى قربهم ، ويسلك في التوصل إلى جنابهم درجتهم ، ويبدل في ذلك ما وصلت إليه يده ، ويجعل تحصيل ما يروونه غاية تمتناه ، فيبذل جهته في إيصالهم إليه ، ويكد قلبه وقالبه في إطلاعهم عليه ، قال الشاعر :

وَلَمْ أَرِ فِي غُيُوبِ النَّاسِ نَقْصًا كَنَقْصِ الْقَادِرِينَ عَلَى التَّمَامِ

وقال بعض الملوك لأولاده : يا بني اكسبوا العلم والفضل ، وادعروا الحلم والعدل ، فإن احتجتم إلى ذلك كان مالا ، وإن استغنيت عنه كان جمالا . وقال بعض الحكماء ، العلم ملك ذو أعضاء ، رأسه التواضع ، ودماغه المعرفة ، ولسانه الصدق ، وقلبه حسن النية ، ويده الرحمة ، ورجلاه مشاورة العلماء ، وسلطانه العدل ، ومملكته القناعة ، وسيفه الرضا ، وقوسه المساعلة ، وسهمه المحبة ، وحيوشه مشاوراة الأدياء ، وزينته النجدة ، وحكمه الورع ، وكنزه البر ، وماله العمل الصالح ، ووزيره اصطناع المعروف ، ومستقره جودة الرأي ، ومأواه الموادة ، ورفيقه مودة الأخيار ، وذخيرته اجتناب الذنوب .

والحاصل يا ملك الطير ، يا مالك عنان الخير ، أن قوام العالم ، ونظام بني آدم ، سيف الملوك والسلاطين ، وقلم العلماء الأساطين . فمهما حدث من شر محاه سيف

^(٧٨) قرآن كريم ، سورة الزمر : ٩ .

الملوك ، ومهما وُجدَ من خَيْرٍ أثبتته قَلَمُ علماءِ الإرشادِ والسلوك . وفي الحقيقة
ياشيخُ الطريقة ، العالمُ عبارةٌ عن هِوَاءٍ ، وبصلاحيهم تصلحُ الأشياءُ ، وبفسادهم
والعياذُ بالله تفسدُ الدنيا ، إذ هُم لَزَوَالِ الفسادِ ، وطهارةُ العبادِ ، وعمارةُ البلادِ ،
مَنْزِلَةُ الصابونِ للأَوْضَارِ ، والاستغفارُ للأَوْزَارِ ، فإذا فسدَ هِوَاءُ ، فما لفسادهم
دواء ، كما قيل :

الذَّنْبُ صَابُونُ الاسْتِغْفَارِ يَفْسِلُهُ كَالْفُؤْبِ يَنْظِفُ بِالصَّابُونِ إِنَّ وَسِيحًا
فَمَا الَّذِي يَفْسِلُ الصَّابُونُ مِنْ دَنَسٍ إِذَا رَأَيْتَهُ صَارَ الذَّنْبُ وَالْوَسْخُ

وناهيك يا ملكَ العقبان ، ما فَسَدَ مِنَ الزَّمَانِ ، وَجَرَى مِنَ الدَّمَاءِ مِنْ
طُوفَانٍ ، وَانْحَى مِنْ أَهْثَاتِ الْبِلْدَانِ ، عِنْدَ اسْتِيلَاءِ الْكَافِرِ جَنْكِرْخَانَ^(٧٩) . فسأل
العُقَابُ ، عَنْ كَيْفِيَةِ هَذِهِ الْمَصَابِ وَالْعِقَابِ ، وَمَنْ هُوَ جَنْكِرْخَانُ ، الَّذِي أَفْسَدَ
وِخَانَ ، وَمَا أَصْلُهُ وَفَصْلُهُ ، وَكَيْفَ كَانَ قِطْعُهُ وَوَصْلُهُ ، حَتَّى نَفَذَ فِي كَيْدِ الْعَالَمِ
بِالْفَسَادِ تَصْلُهُ ؟

[٥/١٠] قصة ظهورِ جَنْكِرْخَانَ ، وَحَرْبِهِ الْوَحْشِيَّةِ

فقال : هذا رجلٌ من بَقَايَا التَّتَارِ ، السَّاكِنِينَ مِنْ بِلَادِ الشَّرْقِ فِي قِفَارٍ ، وَهُمْ مِنْ
بَقَايَا يَأْجُوجَ وَمَآجُوجَ ، عَنِ الْإِسْلَامِ مَنْحَرِفُونَ وَعَنِ الْإِيمَانِ حُوجَ ، سُمُّوا بِالْثُرْكِ
لأنهم تركوا عن دخولِ السُّدِّ بِالْخُرُوجِ ، فَكَانُوا قَبْلَ جَنْكِرْخَانَ ، مُبَدِّدِينَ فِي

^(٧٩) جَنْكِرْخَانَ أَوْ جَنْكِرْخَانَ ، كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي التَّارِيخِ : هُوَ مُؤَسِّسُ دَوْلَةِ الْمَغُولِ ، وَقَدْ وَلَدَ فِي قَرْيَةٍ
قَرَالُومَ لِرَجُلٍ يُدْعَى "بِسُوكَايَ" الَّذِي كَانَ خَانًا (رَبِيسًا أَوْ زَعِيمًا) لِقَبِيلَةِ الْمَغُولِ . وَجَنْكِرْخَانَ هُوَ اسْمُ
مَكْتَسَبٍ لَهُ مِنَ اللُّغَةِ الْوُكِيَّةِ tengiz اخذته سنة ١٢٠٦ م ومعناه بحر أو محيط . أما اسمه الأصلي - كما
سُيِّدَ فِي الْمَن - فَهُوَ "تيموجين" وَتَعْنِي الْحَيَاةَ . وَقَدْ ذَاغَ صِبْغُهُ فِي مَنغُولِيَا كُولَا ، ثُمَّ غَزَا الْبِلَادَ الْمُحِيطَةَ
حَوْلَهُ ، ثُمَّ اسْتَوْلَى عَلَى الصِّينِ ، وَقَدْ قَامَتِ ذُرِّيَّتُهُ بِغَزْوِ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ ، تَوَفَّى سَنَةَ ٦٢٤ هـ / ١٢٢٧ م .

صحاري لا يتفقُ منهم اثنان . مسيرةً أماكيتهم ، ومدى مساكنهم ، شرقاً بغربٍ نحو ثمانية أشهر ، وشمالاً بجنوبٍ لا ينقصُ عن هذا المدى ولا يقصر ، حدُّها من الشرق حدودُ ممالك السِخط^(٨٠) ، وأقصاها خان بالق^(٨١) وهي مدينةٌ عظيمةٌ ، ووراءها شرقاً ، يا مَنْ يرقى ، ينتهى الحد ، بعد السير الجدد ، إلى بلدةٍ عظيمة ، ولاياتها جسيمة ، تدعى غيسار^(٨٢) ، وأهلها كفار ، وهي مبدأ مملكة الصين ، يا ذا الجدد الرّصين . ومن الشّمالِ نواحي قرقير وسلنكاي^(٨٣) . ومن الجنوب بلاد تدعى تنكّت^(٨٤) ، وتبت هذه يا ذا النّسك ، هي التي يتولّد من غراها المسك . ومن الغربٍ وهي جهةٌ قبلة تلك البلاد ، إذا صلبى المسلمون منهم والعباد ، حدود بلادٍ ، أو يغور ، وما والى تلك البُكور من بلاد تركستان^(٨٥) ، يا ذا الإحسان ، ويسيرُ الجدد منها ، إذا انفصل عنها ، كذا وكذا شهر ، حتى يصلَ من جهةٍ غربها إلى ما وراء النهر^(٨٦) .

ثم هؤلاء التتار ، كانوا في تلك القفار ، بين هذه الحدود الأربعة ، في بَمَضِيعةٍ وأي مضبعة ، يتوالدون في ذلك السر ، ويتَهَارجون^(٨٧) في ذلك السهل والوعر ،

(٨٠) ممالك السِخط : منغوليا ، وهي - قديماً - مملكة متاخمة لبلاد الصين ويسكنها جنس من الترك .

(٨١) خان بالق : قاعدة الصين القديمة وهي مدينة من أقاصى الشرق عند بلاد الخطا .

(٨٢) غيسار : من مدن الثغور التي بين غزنة وهرات .

(٨٣) قرقير وسلنكاي : من مدن آسيا الوسطى (على حدودها) .

(٨٤) تنكّت : مدينة من المدن التي تقع على نهر شاش من وراء سيحون ، وهي من أشهر مدن سمرقند . أما مدينة تبت فهي أيضاً من بلاد ما وراء النهر .

(٨٥) تركستان : منطقة واسعة في آسيا الوسطى بين سيبيريا وبحر قزوين وتشمل اليوم جمهوريات أوزبكستان وتاجيكستان ، وتركمانستان ، وقرغيزيا ، وكازاخستان ، وتمتد إلى إقليم سين كيانج الصيني .

(٨٦) ما وراء النهر : اسم أطلقه العرب قديماً على البلاد الواقعة شمالي نهر جيحون ، بتركستان الروسية ، وأهم مدنها بخارى وسمرقند وطشقند .

(٨٧) يتهارجون : يتهالطون ويضطربون ويتنازعون .

كالحيوانات السائبة في البر والبحر ، لا حاكم يردعهم ، ولا دين واعتقاد يجمعهم ، وهم فيما بينهم قبائل وشعوب ، وأصناف وضروب ، وخلاشق وأسم ، لا يعرفون الإسلام والسلام ، بل كل أمّة تلعن أختها ، وتنهب تحتها ، وتأكل رختها^(٨٨) ، وكل طائفة تبع غارتها ، وتقصد جاريتها ، وكل من قوي على غيره كسره ، إمّا قتله وإمّا أسره ، لم تزل للكافة بينهم قائمة ، والمناطحة بين ثيرانهم وكباشهم دائمة ، وعيون الرشد والاعتداء عنهم قائمة ، وضواري الظلم والاعتداء في مسارج سوارح أحلامهم سائمة ، يعثون النهب غنيمة ، والنسق والفجور والنميمة ؛ أجهل صنعة وأكمل شيمه ، يأكلون الكلاب والفار ، وما وجوده من صيد القفار ، والميتة والدم والموا ، لا يعرفون الحلال منها والحرام ، ويلبسون جلودها وأوبارها ، وأصوافها وأشعارها ، كما كان مشركو العرب في الجاهلية ، قبل إشراق شمس الملة الحمديدية ، لا زرع لهم ولا ثمر سوى نوع من الشجر ، يشبه شجر الخلاف^(٨٩) ، هو ثمرهم في الشتاء والاصطياف ، اسمه قسوق .

وهم على ما هم عليه من الفسوق ، يعثون الأوثان والأصنام ، ويسجدون للشمس ، إذا بزغت من الظلام ، ويعظمون النجوم ويعبدونها ، وتحاطبهم الجن ويرصدونها ، وفيهم كهنة يعتقدونها ، وسحرة ومكرّة ، وسواجع وزجرة ، يُجسّي خراجهم إلى ملك الخطا ، وهم على أشد كفر وخطا ، قد تركّب الكفر في أحشائهم ، وإن الشياطين ليؤخّون إلى أوليائهم . وأعلى من فيهم ، من أكابرهم

^(٨٨) التعت : العرش أو سرير ملكها . والرحبت : بالفارسية أيضا اسم للتمش والأثاث والريش له ومن معانيها - وهو المقصود هنا : اللحوم تنهبها القبائل من بعضها البعض . أي أن القبائل تاكل لحم بعضها بعضا .

^(٨٩) الخلاف : صنف من الشجر اسمه قسوق ، وهو يشبه شجر الصفصاف ، غير أن له ثمرا في الصيف وفي الشتاء .

وذويهم ، علامة رياسته ، وانفراذه بسياسيته ، وأنه فيهم ذو بأسٍ شديد ، ورأيٍ
يديد ، ومالٍ مديد ، كَوْنُ رُكائِهِ من حديد ، وباقِي أَعْيَانِهِمْ ، وذوي مَكَائِنِهِمْ
وإِمكَانِهِمْ ، إنْ كانوا ذَوِي حَدٍّ ، فَرَكَائِبُهُمْ قَضِيْبٌ مَلَوِيٌّ أَوْ قَد . وَعِنْدَهُمْ أَفْخَرُ
مَلْبُوسٌ ، جُلُودُ الْكِلَابِ وَالنَّمُوسِ ، وَالذَّنَابِ وَالْتِيُوسِ ، وَقَسٌّ عَلَى هَذَا جَمِيعَ
تَجَمُّلاتِهِمْ ، وَمُفَاخِرِ آلَاتِهِمْ .

فهم من قديم الزمان ، وبعد الخلدان ، من حين بلغ ذو القرنين بين السدَّين ،
وساوى على ياجوج ومأجوج بين الصدفين . إلى آخر وقت ، كانوا في قِلَّةٍ
ومقت ، وضيق حال ، وسوء بال ، لا دنيا رَحيَّة ، ولا آخره رَضيَّة ، حتى نبغ
منهم هذا اللعين ، الطاغية تموجين^(١٠) ، الذي تسمَّى بجنكيزخان ، وساعده قضاء
الديان ، فأَمَدَه الزمان ، وأعطاه المكان ، لأمرٍ يزيده الرحمن ، وقضاءِ قَلْبِهِ عَلَى
عبيده فى سالفِ الأزمان . فَطَمَّ^(١١) الْعَالَمَ بِالْفَسَادِ ، فَأَهْلَكَ الْعِبَادَ وَالْبِلَادَ ، وَأَخْلَسَ
الدِّيارَ وَالْدَارَ ، وَعَمَّ غَالِبَ بِلَادِ الْإِسْلَامِ بِالْفُتْنَانِ وَالْبُورَانِ ، فَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِ بَنِي
عَدْنَانَ ، بَلْ أَشْرَفَ جَنَسِ الْإِنْسَانِ ، الَّذِي قَالَ : يُخْرِجُ فِى آخِرِ الزَّمانِ ، رَجُلٌ
يُسَمَّى أَمِيرَ الْعَصَبِ ، أَصْحَابُهُ مَخْسُورُونَ مُحْقَرُونَ مَقْصُونَ عَنْ أَبْوابِ السُّلْطانِ ،
يَأْتُونَهُ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ، كَأَنَّهُ فَزَعُ الطَّرِيقِ ، يورُثُهُمُ اللَّهُ مَشَارِقَ الْأَرْضِ
وَمَغَارِبَهَا . فَاتَّبَعَهُ مِنْهُمْ النِّسَاءُ وَالرِّجَالُ ، أَتْبَاعَ الْيَهُودِ وَالْكُفْرَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ ، أُمَّتٌ
لَا يَحْصُرُهَا حَسَابٌ ، وَلَا يَحْصِيهَا دِيْوَانٌ وَلَا كِتَابٌ ، وَمَا يَعْلَمُ جُنُودُ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ،
فَارْشَدُوا إِلَى طَرِيقِ الضَّلَالِ بَعْدَ مَا تَاهَوْا ، فَصَارَ كُلُّ مَنْ أَوْلَتْكَ الطُّغَاةُ ، الْكُفْرَةَ
وَالْفُجْرَةَ وَالْأَوْغَادِ الْفَاسِدَ ، وَكُلُّ أَكْلَابِ خَادِمِ كِلَابِ الصُّيُودِ ، يَجْرِي سَيْفُهُ الْكَالِ

(١٠) تموجين : الخلدان ، انظر الهامش رقم (٨٠) .

(١١) طَمَّ : كثر حتى غمَّ .

الكود ، من أشراف الملوك وملوك الأشراف وفي أعضاء الأسود ، وفي رقاب النمر والفهود ، وكل ماضغ شبح وقيصوم ، وعلج^(٩٦) من أولئك العلوج وعلجوم^(٩٧) ، يتفكك في أنواع المستلذات من المشروب والمطعم ، وكل صعلوك معلوك^(٩٨) من تركي متروك ، أو خدام مملوك ، يتجكم في رقاب أكابر الملوك ويستعبدون أحرار أولادهم ، ويستقرشون زوجاتهم وبناتهم في بلادهم .

على رأس غنبل ساج يزينه وفي رجل خرق قنيد ذل يشينه :

ومن لا يعرف البطائن المروية ، ولم يسمع بالرقاع الكرباسية^(٩٩) ، يستوطئ الاسترق^(١٠٠) والدياج^(١٠١) ، ويتقلب على نخوت الصندل^(١٠٢) والساج^(١٠٣) ، ويرقى إلى سرر الأنوس والعاج ، ويعامل التجار ، والمضاربين في البر والبحار ، بالوف الألف من الدرهم والدينار ، فيجبي إليهم نفائس المضارب ، من المشارق والمغرب ، ومكامن المعادن ، وذخائر الخزائن ، كل ذلك بواسطة ذلك الطاغية ، واستيلاء القبة الباغية^(١٠٤) .

(٩٦) علج : الرجل الضخم من كفار العجم .

(٩٧) علجوم : الأتان الكثيرة اللحم (من الحمير الوحشية) والتصير مجازي هنا .

(٩٨) معلوك : مستخدم عند الكثيرين ، صفة ذم ، فهو مُتَمَنَّنٌ بمضوغ لرج (كالمملك) .

(٩٩) الكرباسية ، نسبة إلى الكرباس ، وهو ثوب غليظ من القطن .

(١٠٠) الاسترق : الدياج الغليظ .

(١٠١) الدياج : الثياب الحريرية .

(١٠٢) الصندل : شجر عشب طيب الرائحة ، وعشبه ذو ألوان متعددة .

(١٠٣) الساج : شجر ذو عشب صلب جداً .

(١٠٤) والمؤلف في هذه الفقرة كلها وما قبلها يسخر من بربرية المغول الممجد الذين استولوا على معظم منطقة آسيا

من المسلمين وغير المسلمين . وقد استعبدوا أحرارهم ، وسبوا نساءهم ، ونهبوا ثرواتهم .. ومن العجيب

أن المؤلف نفسه سبق أسيراً إلى أن غزو تيمورلنك - من ذرية جنكيز خان - لبلاد الشام ، على نحو نسا رأينا

في ترجمته في مقدمة الكتاب ، نقلاً عن بعض المصادر التاريخية .

وكان من أمرِ هذا المصاب ، الذي بدّل حلاوة العيشِ بمرارِ المصاب ، وحلّد في الدهرِ قواعدَ البلايا والأوصاب ، أن الله القاهرَ فوقَ عباده ، الذي لا يُسألُ عمّا يفعلُ من مراده ، بل له المرادُ في عبادِهِ وبلايِهِ ، المتصرّفُ في مُلكِهِ ، تصرّفَ المالكِ في مِلْكَه ، لما أرادَ اجتذالَ الصون ، وعمومَ الفسادِ في عالمِ الكون ، واستتصالَ غالبِ أهلِ الأرض ، وإذاعةَ بعضِ عبادِهِ بمأسَ بَعْض ، وإظهارِ آثارِ غضبِهِ على صفحاتِ الشهود ، إبرازِ أسرارِ قهرِهِ على وَجْهاتِ الوجُود ، ولحسَ سطُورِ صدورِ علماءِ العالمِ على لوحِ الورود ، بلسانِ نارِ السخطِ ذاتِ الوقود ، ونقصِ أرضِ العلمِ من أطرافِها ، وإخلاءِ ربوعِ المحاسنِ من ألأفْها ، أُنِيعَ هذا التمساح^(١٠١) من أفواجِ أمواجِ هذه البحار ، ونَبِعَ هذا التَّشِينُ المبِينُ^(١٠٢) من أَوْعَارِ تلك القفار ، وأغوارِ أوغادِ هاتيك التتار ، فكانَ مُمتازاً على أقرانه ، بِوُفُورِ عقله وحُسْنِ بيانه ، ذا فكرٍ مصيب ، ورأيٍ صائب ، وحزمٍ مجيبٍ وعزمٍ ثاقب ، وهمّةٌ تُبارِكُ الأفلاك ، وثباتٌ يُجاري السَّمَاك ، كَسَرَ بصلدَمَتِهِ الأكاسِرَةَ ، وقصَّ بسطُوأَتِهِ القياصِرَةَ ، وقرعَ بعزمَاتِهِ على قِمَمِ الفراعنةِ والجبابِرَةِ ، وقَهَرَ بِحملاتِهِ قهَارِمَةَ^(١٠٣) خَوَاقِينِ^(١٠٤) القياصِرَةِ .

وكان أُمياً لا يقرأ ولا يكتب ، أعجمياً عُجْرياً لا يحسب ولا ينسب ، لا طالعَ الأخبار ، ولا اقتفى في سياسةَ الممالك والآثار ، بل قرّع ما قرّعه من القواعدِ في صحيفةِ تفكيرِهِ ، واخترعَ ما ابتدعه من تدبيرِ الملُكِ من مُطالعةِ هواجسِ ضميرِهِ ، فأسّسَ قواعدَ لو أدركه اسكندر ودار لَما وَسِعَهُما إلا اقتفاءً أثرَهُ ، وشيّدَ مبانيَ لو

(١٠١) التمساح : جنكيز خان .

(١٠٢) التشين : يقصد المؤلف جنكيز خان أيضاً .

(١٠٣) قهارة : واحدها قهرمان : أمين الملك أو وكيله الخاص بتدبير دخله ونخرجه .

(١٠٤) خواقين : مفردُها : خاقان : الرئيس أو الزعيم عند التتر ، ويختصر إلى خان أو قان .

بلغتُ ثَمُودَ^(١٠٤) وشَدَّادَ^(١٠٥) كَبَيْبًا قُصُورَ قُصُورِهِمَا عَلَى أَرْكَانٍ خَيْرِهِ وَخَيْرِهِ ، وَرَتَّبَ تَجْهِيْزَ السَّرَابَا وَالْجُنُودَ ، وَرَبَطَ عَقْدَ الْجِيُوشِ وَالْبُنُودَ ، بِطَرَائِقَ يَعْمُرُ عَنْهَا مِهْنَدُسُ الْحِكْمَةِ ، وَيَتَقَاعِدُ عَنْ حَلِّ رَمُوزِهَا مُعَزِّمُ الْفِطْنَةِ . وَغَايَةُ مَا يَتَعَانَاهُ ، وَيَسْتَعْمَلُهُ وَيَتَعَاطَاهُ ، جِيُوشُ الْأَتْرَاكِ فِي بَسِيطِ الْأَرْضِ ، مِنْ إِبْرَامِ طَرَائِقِ عَسَاكِرِهِمْ وَالتَّقْضُ ، إِنَّمَا هُوَ مِنْ قَوَانِيْنِ مَا رَبَّهَ ، وَأَفَانِيْنِ مَا هَذَبَهُ وَرَكَّبَهُ .

وله في ترتيبي حُرَابِ الْحُرُوبِ ، وَمَا فِي فَنِّ الضَّرْبِ وَالضَّرَابِ مِنْ ضُرُوبَ ، وَطَرَائِقِ الْأَصْطِلَاحِ غَزَعَاتٍ دَقَائِقَ ، لَمْ يُسَبِّقْ إِلَيْهَا مِنْ لَدُنْ كَيْخِسْرُو وَكَيْقَبَاد^(١٠٦) ، أَحْكَمَ بِهَا الْمُرَافِقَ ، وَنَصَرَ الْمَصَادِقَ ، وَكَبَّتِ الْمَعَادِي ، وَكَسَرَ الْأَعَادِي ، وَاسْتَطَالَ مَعَ كَثْرَةِ غِثَالِفِيهِ عَلَيْهِمْ ، وَأَنْفَذَ سَهْمَ تَحَكُّمِهِ وَتَحْكِيمِهِ فِيهِمْ وَإِلَيْهِمْ ، وَصَالَ فِيهِمْ حُسْبِيَا أَرَادَ وَجَالَ ، وَاتَّسَعَ لَهُ فِي التَّضْيِيقِ عَلَى الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ الْمَجَالَ . فَكُلُّ مَنْ عَامَلَهُ بِالْمُحَامَلَةِ ، وَتَلَقَاهُ بِالْعُبُودِيَّةِ وَحُسْنِ الْمَعَامَلَةِ ، أَبْقَى عَلَى نَفْسِهِ وَأَهْلِيهِ وَمَالِهِ ، وَحَصَّنَهُمْ مِنْ أَلِيمِ خِيَلِهِ وَرَجَالِهِ ! وَمَنْ قَابَلَهُ بِالْمُقَاتَلَةِ ، وَقَاتَلَهُ بِالْمُقَابَلَةِ ، وَتَلَا فِي صَفِّ قِتَالِهِ سُورَةَ الْمُجَادَلَةِ ، عَمَّا سَطُورَ كَرَمِهِ مِنْ لَوْحِ الْوُجُودِ ، وَأَوْطَأَ سَنَابَكَ خِيَلِهِ مِنْهُ الْجَبَاةَ وَالْخُلُودَ ، فَغَرَّبَ دِيَارَهُمْ ، وَمَسَحَ آثَارَهُمْ ، مَعَ شِرْكِيهِ وَإِسْلَامُهُمْ ، وَتَبَدَّدَ عَسَاكِرِهِمْ وَنَظَامُهُمْ . وَمَعَ أَنَّ أَكْثَرَ الْمُلُوكِ وَالسَّلَاطِينِ ، وَحُكَّامَ الْمَمَالِكِ الْإِسْلَامِيَّةِ مِنَ الْأُمَرَاءِ وَالْأَسَاطِينِ ، لَعَدِمَ أَكْثَرَاتُهُمْ بِالْأَتْرَاكِ وَالتُّرْ ، وَشَلَّةٌ مَا هُمْ فِيهِ

^(١٠٤) الثَمُودُ : الْمَلِكُ الثَمُودِيُّ بَنَ كَعْنَانَ بَنَ كَوْشَ ، وَقَدْ وَرَدَ ذِكْرُهُ فِي سِفْرِ التَّكْوِينِ ، وَفِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، وَهُوَ أَوَّلُ حَيَّارٍ فِي الْأَرْضِ ، كَمَا تَقُولُ الْكُتُبُ الْمُقَدَّسَةُ .

^(١٠٥) شَدَّادٌ : يَعْنِي - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - مُحَمَّدُ بْنُ شَدَّادٍ رَأْسُ الْأَسْرَةِ الشَّنَكَايَةِ فِي أَوْرَانَ وَشَرْقِي أَرْمِينِيَا ، حَكَّمَ سَنَةَ ٣٤٠ هـ / ٩٥١ م .

^(١٠٦) كَيْخِسْرُو (غِيَاثُ الدِّينِ) وَكَيْقَبَادُ (عَلَاءُ الدِّينِ) مِنْ مُلُوكِ أَوْ سُلَاطِينِ سَلْجُوقِيَّةِ الزُّرْمِ ، اِسْتَدَّ حُكْمَهُمْ مِنْ أَوَاخِرِ الْقَرْنِ الثَّانِي عَشَرَ حَتَّى النِّصْفِ الْأَوَّلِ مِنَ الْقَرْنِ الثَّلَاثِ عَشَرَ الْمِيلَادِي .

من النخوة والبطر ، ولاعتمادهم على حصونهم الحصينة ، وتعويلهم على معاقلهم المكيّة ، ولكثرة العدد والعُدَد ، ومساعدة الممدد والمُدَد ، ولوفور العمائر ببلادهم وغراب بلادِهِ ، وبسطة استعدادهم وضيقُ استعداده ، لم يعاملوه إلا بالمكافحة^(١٠٨) ، ولا ردّوا جوابَ خطاباته إلا باللّعنِ والمكالحة^(١٠٩) ، والسبُّ والمقابحة ، ولا قابلوه الا بالمراوحة ، والمراوسَة والمناطحة ، فقتلهم وأبادهم ، واستصفى طارِفهم وتلاذهم ، وتوطّن ديارهم وبلادهم ، وأبادهم عن آخرهم ، وأطفأ قبائلَ عشائريهم ، فمدّ لأكابرهم أسطة الرّزايا ، ووضع في أفواه أصاغريهم أنديّة المنايا ، واضافهم في لائم الدّمار ، وأطافهم على نجاب^(١١٠) الانكسار ، في ملابس البوار ، فاستأصل شأفتهم بالكليّة ، وحكّم فيهم صوائِلَ المنية ، فلم يبقَ من مائة ألف إنسان ، مثلاً مائة إنسان ، وذلك أيضاً إمّا على سبيلِ التغافلِ أو على سبيلِ النسيان ، وسيدكّر على سبيلِ الإجمال ، ما يثدّل على تفصيل ما له من أحوال ، وشواهد ما قرّعه من أهوال ، واستمر ذلك في ذريته ، وإن كانوا رجعوا عن ميلّته .

وأصلُ هذه الأصلّة^(١١١) ، التي أضحت بخلفانِ اللّعن أكسى من بصلة ، قبيلةً من تلك التتار ، الساكنين في تلك القفار ، تسمى "قتات" أى "ظلمة عتاة" ، غيرُ أمناء ولا ثقات ، منها أبائهم وأجدادهم ، وفيها أقاربهم وأحفادهم ، وأخوتهم وأولادهم ، فنشأ كما ذكر بطلاً بأسلاً ، وشجاعاً كاملاً ، سهاًمُ أفكساره في عمره مصيبه ،

(١٠٨) للمكافحة : إعلان الحرب والكفاح .

(١٠٩) المكالحة : العدوان .

(١١٠) أطالهم على نجاب : فضحهم وشهر بهم فوق نجاب أو بجناب الإبل وعيها .

(١١١) الأصلّة : حبة عظيمة قوية ، سامة شرسة .

ورِهَام^(١١٢) آرائه في مكره خصصية ، ثم اتصل بعد ما أختى وخان مملك الخطا يسمى بأونك خان^(١١٣) ، وأظهر من أنواع الفراسة ، والفروسة والكياسة ، ما فاق به أناسه ، وفات من العقل قياسه ، فقربه الملك وأدناه ، ولمهامته اصطفاه ، ولأزال يترقى عنده^(١١٤) ، إلى أن ملك جنده ، وصار عضده وزنده ، ودستور ممالكه ، ومسلك مسالكة ، وحاكم أمراه ، وناظم أمور وزرائه ، وناظر جمهور كبرائه ، وعين أعوانه ، وعون أعيانه ، وأعز من أخوته وأولاده ، وأبر من حقدته وتلبده ، وكثفت حواشيه ، وعظمت غواشيه ، وملأت السهل والوعر فواشيه^(١١٥) ومواشيه .

فقل على الوزراء ، وصعب على الأمراء ، إذ مدار الملك صار عليه ، ومرجع الأمير والمأمور إليه . فحسده أولاد الخان وأخوته ، وأجناده وأسرته ، وأعملوا له المكائد ، ونصبوا له المصائد ، وتعاطوا إفساد صورته ، وتواطفوا على إخماد سيرته ، فصاروا يتناوبون على ذلك في غيبته ، ويمزقون أديم عرضه عند الخان ، ويشقون ستر عصمته بمخالب البهتان ، ويراقبون للكلام أوقات القبول ، ويواظبون في السعاية عليه بدلائل المعقول ، حتى أوغرؤوا صدر الملك عليه ، وأخذ يفكر في كيفية إيصال الإساءة إليه ، ولم يقدر على مواجهته ، لوفور جماعته ، وكثرة حاشيته ، فإن أوتاده كانت ثابتة ، وغراس هيته كالأرزنة ثابتة ، وفروع دوحه عصباته ، قد

^(١١٢) رِهَام : المطرة الضعيفة الدائمة .

^(١١٣) أونك خان أو طغول أحد رؤساء قبيلة كرايت في منغوليا ، وقد أفلح جنكيز خان برعايته وأمدّه بتأييده ، غير أن جنكيز خان أو تيموجين آنذاك ما لبث أن اختلف معه وهزمه فسي إحدى المعارك سنة ٥٩٩ هـ ، بزغ بعدها نجم تيموجين ، كما سرد في ذين الكتاب .

^(١١٤) عند أونك خان أو طغول . انظر الهامش السابق .

^(١١٥) فواشيه : كثرة الأنعام .

أحاطت بالملك من كل جهاته ، حتى قيل ، إنَّ ذلك الثقيل ، كان له من القربات ، وذوي الأرحام والعصابات ، والأولاد والأحفاد ، ما جاوز في التعداد ، عشرة آلاف نسمة ، كلُّ له حرمة وكلمة . فاضمر له السلطان البيات^(١١٦) ، وانتخب لذلك من عسكريه أولى الثبات ، والإثبات الثقات ، ولم يختلف عليه في ذلك اثنان ، لأنه كان قد استحكم فيهم منه الشنان^(١١٧) ، وعلموا أنَّ سهم مكرهم نفذ ، وحسام فكرهم في قطعه فلذ ، وراوا من الرأي أرسنه ، أن يراقبوا لحتفه مكمنه ، فتواعدوا على ليلة معينة ، يلهمون فيها مأمته . وكان عند الخان^(١١٨) ، صبيان مجرمان لا يؤبه إيهما ، ولا يعول في الأمور عليهما ، يُدعى أحدهما كلك ، والآخر بادة ، فانسلّا من بين أولئك القادة ، وسلكا طريقاً غير العادة ، أتيا تموجين ، الطاغية اللعين ، في خفية ، وتبها وعية ، وأخبراه وبصره ، وأنذاره وحذاره ، بما تمالاً عليه الملك ، مع عسكريه المنهيك ، وقالوا : أيها العفريت ، قد طبخت لك قسدر التبييت^(١١٩) ، فتنبت من النوم ، وارقب في الليلة القلانية هجوم القوم ، فإنه قد سرج مارج الفتنة فأمرج ، وعن وهاد غفلتك أخرج ، إن الملأ يأمرون بك ليقتلوك فاخرج ، وباعاه من السر ما جرى ، بتخيير المشتري ، وقصاً عليه القصص ، فخلصاً طير حياته من القفص ، وظني بجاته من القنص . فشكر لهما فضلهما ، واستكتمهما قولهما . ثم تثبت في أمره ، وأخفاه عن زليده وعمره ، وجمع تلك الليلة رجله وخيله ، ولم يسد تلك

(١١٦) البيات : الممارسة تحاك باليل .

(١١٧) الشنان : عتف شتان : وهو شدة البغض والكرامة .

(١١٨) انظر الماشي رقم ١٠٧ .

(١١٩) قسدر التبييت : للممارسة ، التامر باليل

الحال ، لأجل من الرجال ، بل أعلَى بيوتَه ، ولازَمَ سكوتَه ، وقصدَ أحدَ الجوانبِ ،
بمن معه من راجلٍ وراكبٍ ، وأقامَ في كمينٍ ، ينظرُ أَيُصَلِّدُ الواشي أم يمين^(١٢٠) .

فما مضى هزيعٌ من الليل ، إلّا وقد هبطتُ الخيلُ ، فوجدوا البيوتَ خاليةً ،
والأطلالَ غاويةً ، فتحقَّقَ صِدْقُ الناقلِ ، وأنه ناصحٌ عاقلٌ . فعملَ مصلحتَه ، وأخذَ
حذرَه وأسلحتَه ، وتقرَّرَ وقوعُ النكدِ ، فتقدَّمَ أمامهم واستعدَّ ، فقصده ، وبالأذى
رصدوه ، ولا زالوا يتبعونه ، حتى التقوا بمكانٍ يُسمى ببالجونه ، وهو عينٌ ما^(١٢١) ،
في حدودِ بلادِ الخطا ، فاشتعلتُ بين الفريقينِ نارُ الحربِ ، وقصدَ كلٌّ منهم الآخرَ
بالطعنِ والضربِ ، فأعانه الله ونصره ، فكسرَ الخانَ وعسكره ، وفرَّ بمن معه من
فئةٍ ، وذلك في سنةٍ تسعٍ وتسعينٍ وحمسمائة^(١٢٢) ، وغنمَ مُوجِحينَ من الأموالِ ،
والمواشي والأثقالَ ، وذخائرَ الخزائنِ ، ونفائسَ البحارِ والمعادنِ ، ما فاتَ الحدَّ
والحصرَ ، خارجاً عن سعادةِ النصرِ ، وهربَ الخانُ ، وتهلَّمتُ منه الأركانُ .:

فجمعَ جنكزخانَ عسكره ، وضبطَ أسماءَ مَنْ حضره ، ومَنْ كانَ شاهداً للقتالِ ،
ومواقفَ الحربِ والجدالِ ، من النساءِ والصبيانِ والرجالِ ، ومن خدامٍ ومخلومٍ ،
وخاصمٍ ومخصومٍ ، ومأمورٍ وأميرٍ ، وكبيرٍ وصغيرٍ ، حتى السائسَ والجمالَ ،
والطباخَ والبغالَ ، والطفلَ والرضيعَ ، والنذلَ والوضيعَ ، ومَنْ شهدَ تلكَ الغارةَ ،
أو كانَ في تلكَ الدائرةِ ، ولو حاضراً للتفرُّجِ مع النظارةِ ، واستبشَّرَ بوجودهم ،
وتيمَّنَ بؤرودهم ، فأثبتهم في الديوانِ بأسماءِ آبائهم وجودهم ، وفرَّقَ عليهم ذلكَ
الفيءَ ، ولم يُرفَعْ إلى خزائنه منه شيءٌ ، بل وزَّعَ ذلكَ المغنمَ الوافرَ ، العظيمَ

(١٢٠) يمين : يكذب .

(١٢١) عين ما : عين ماء .

(١٢٢) للهجرة .

المتكاثر ، على الحاضرين معه من العساكر ، وضبط أسمائهم في الدفاتر ، وفرّق ذلك العرض العريض الطويل ، على قسائر الحقير منهم والجليل ، وَوَعَثَهُمْ بِكُلِّ جميل . وأما الغلامان اللذان أخبراه ، وعلى ما كان أضمره الخائن أظفراه ، وكانا سببَ حياتِهِ ، وخلاصِهِ من الموتِ ونجاتِهِ ، فإنه جعلهما ترخان^(١٢٣) ، فصارَ السهمُ مقاصدَهُ كأنهما شرخان ، والترخان عبارة عن المعافى المطلق ، يستوفي حقوقه ولا يقوم بما عليه من حقّ ، لا يُؤاخذُ بقصاصي إن قُتل ، وقَسَ على هذا ما يوجبهُ القولُ والعمل ، مُقْضِيُ المآرب ، موصولُ المطالب ، لا يكلفُ بخدمةٍ ومباشرة ، ولا بحضورٍ ومعاشرة ، مهما طَلَبَ أعطي ، ويُعَدُّ مصيباً ولو يُخطئ ، وأعلى مراتبِهِ ، في مراعاةِ جانبِهِ ، أَنَّهُ يدخلُ على السلطان ، من غيرِ استئذان ، وهو قائمٌ مع سراريهِ ونسائِهِ وجواريهِ ، فيذكرُ لَهُ من مآربٍ تُقْتَضَى ، ومن شفاعَةٍ تُقْبَلُ وتُقْضَى ، ويُعطى بذلك مناشير ، وتواقيعُ وبقاير ، تبلغُ التاسعَ من أولادِهِ ، وتشملُ أحكامها جميعَ أسباطِهِ وأحفادِهِ . ولَمَّا انتصر ، وحصلَ أَمْنُهُ واستقر ، وتعاظَمَ أمرُهُ واشتهر ، وعظُمَ صيتهُ وانتشر ، قررَ كُلُّ مَنْ حضرَ تلكَ الوقعة ، فيما يليقُ بِهِ من مَنَاصِبٍ ورفعةٍ ، فأقبلتِ القبائلُ إليه ، وانهالتِ الرؤوسُ والوجوهُ عليه .

ورجع الخائن واستعد ، وأعد ما وصلت إليه يَدُهُ من عُدَد ، واستعان عليهم بالمَدَدِ والعُدَد . ثم تلاقيا كَرَّتَيْنِ وتصارولا مرَّتَيْنِ ، انكسر الخائن في الأولى ، وَفُيْضَ عليه بعد الكسرة في الأخرى ، فقتله وأبادَه ، واستملكَ بلادَه ، واستولى على عساكرِهِ ،

(١٢٣) الترخان أو الطرخان : هو المتقاعد أو المبال على المعاش ، أو المعافى المطلق بتعبير المؤلف فيما بعد . وكما يقول القلقشندي في صبح الأعشى (١٢ : ٤٨) كان الواحد من الطرخانات لا يسلمون إقطاعاً وإنما يمنحون مبلغاً معلوماً من المال ، ويصدون لهم بذلك تقليد من السلطان يعدد فيه مزاياهم . وحيدٌ يكون لهم الحق في أي مكان يشاؤون دون التقيد بوجودهم بجوار السلطان أو في العاصمة . والترخان هنا - في النص - له امتيازات أخرى استثنائية ، كما سنرى .

واستحوذَ على ذخائره وعشائره ، وهربت أولادُ الختان ، ولجأت إلى أطرافِ تركستان . ثم راسَلَ سلطانُ الخطا والصين ، بكلامٍ رصين ، يَدُلُّ على عقلِ حصين ، واسم ذلك السلطان "التون حسان" وطلب المهادنةَ والموافقةَ ، والمصافاةَ والمصادقةَ ، فلم يلتفتْ إلى كلامِهِ ، فضلاً عن إعزازهِ وإكرامهِ ، اتكالاً على حسبه ، واستناداً إلى نَشَبِهِ ونسبه ، واعتماداً على سِعةِ ممالكه ، وكثرةِ ملوكه ، ومناعةِ حصونه ، وعمارةِ بلادهِ ووفرةِ مملوكِهِ^(١٢٤) ، فإنَّ ممالكَ جنكزخان ، بالنسبةِ إلى ولاياتِ الخاقان ، لا شيءٌ وأقلُّ من لاش ، وعساكرُهُ وقبائلُهُ بالنظرِ إلى أهلِ الصينِ أو شاب^(١٢٥) أوباش . فرجعَ قَصَادُ^(١٢٦) جنكزخان بالخيبة ، وذكرُوا بما رأَوْا للملكِ الصينِ من عظيمةٍ وهيبة ، فلم يلتفتْ إليه ، ثم قَصَدَ التوجُّهَ عليه ، بعددِ كالرمال ، ومددٍ كالجبال ، وأوقعَهُ فكسَرَهُ ، وناقَفَهُ^(١٢٧) فَحَصَرَهُ ، وقبضَ عليه وأبادَهُ ، واستصَفَى ولايَتَهُ وبَلاَدَهُ ، وكانت هذه الكِسْرَةُ والنُصْرَةُ ، في سنة إحدى وستمائة من الهجرة . فاستقلَّ من غيرِ منازع ، ولا مُمانِعٍ ولا مُدافع .

فلما خَلَصَتْ له الممالك ، وانتَقَذَ له المملوكُ والممالك ، أخذَ في ترتيبِ الأمور ، وتهذيبِ الجمهور ، وطَيَّرَ أجنحةَ مراسيمِهِ ، إلى أطرافِ ممالكِهِ وأكنافِ أقاليمِهِ ، فرفعَ جميعَ ما هُمُّ عليه من النُهْبِ والغارات ، والتحزُّباتِ وطلَّابِ الثَّاراتِ ، فهدمَ قواعدَ الظلمِ والتعدي في ممالكِهِ ؛ فلم يُرَ أَمِنٌ من ولايَتِهِ ولا آمِنٌ من مسالكِهِ ، وهي ممالكُ المُغُلِّ والخطا ، وإلى الصينِ شرقاً وولاياتُ المغلِّ والجتا ، وبلادُ التركِ

(١٢٤) مملوكه : ممالكه ..

(١٢٥) الأوشاب واحدها الوشِب : وهم الأوباش وأخلاط الناس .

(١٢٦) قصاد : سفراء .

(١٢٧) ناقفه : ضربه بالسيف على رأسه فأصابه وأسره .

وإلى حدود أترار ما وراء النهر غرباً^(١٢٨) . فَجَرَى بِعَدِ النَّهْبِ وَالْإِسَارِ ، فِي مَمَالِكِ
 الْمَغْلِ وَالتَّارِ ، وَالبَغْيِ وَالعُدْوَانِ ، الْعَدْلُ وَالْأَمَانُ ، وَالسَّلَامَةُ وَالْإِطْمِئْنَانُ ، وَبَعْدَ
 السَّرِقَةِ وَالْخِيَانَةِ ، الْوَفَاءُ وَالْأَمَانَةُ . وَأَمَرَ بِوَضْعِ الْبُرْدِ^(١٢٩) وَالْمَنَارَاتِ ، وَالْعَلَامِ
 وَالْإِشَارَاتِ ، وَغُمِرَتِ الْمَفَاوِزُ وَالْمَنَاهِلُ ، وَشُكِنَتِ الصَّحَارَى وَالْمَنَاهِلُ ، وَغُرِفَتْ
 طُرُقُ الْمَهَامِيهِ وَالْجَاهِلِ ، وَانْتَقَلَتْ تِلْكَ الطَّوَائِفُ وَالْأَسْمُ ، وَانْتَشَرَ صَيْتُ عَدْلِهَا فِي
 الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ .

وَاخْتَرَعَ كَمَا ذُكِرَ أَنْوَاعَ سِيَاسَاتٍ ، وَقَرَّرَ لِلْمَمْلَكَةِ قَوَاعِدَ بُنْيَانٍ وَأَسَاسَاتٍ ،
 أَلْفَ بِهَا بَيْنَ تِلْكَ الطَّوَائِفِ ، فَلَمْ يُرَ بَيْنَهُمْ مُخَالَفٌ ، وَلَا غَيْرُ مُوَالِفٍ ، عَلَى سِعَةِ
 مَمَالِكِهِمْ ، وَاخْتِلَافِ مَسَالِكِهِمْ ، وَتَعَدَادِ أَدْيَانِهِمْ ، وَتَفَاوُتِ كَيْلِ أَخْلَاقِهِمْ
 وَمِيزَانِهِمْ ، فَانْهَمَ كَانُوا مَا بَيْنَ مُسْلِمِينَ وَمُشْرِكِينَ وَمَجُوسٍ ، وَأَرْيَابٍ نَاقُوسٍ ،
 وَيَهُودٍ ، وَمَنْ لَا يَدِينُ لِمَعْبُودٍ ، صِبَاةً^(١٣٠) وَغَوَاةَ عِبَادِ الشَّمْسِ وَالنَّجُومِ ، وَمَنْ
 يَسْحَدُ لَهَا أَوَانَ الرَّجُومِ . وَكُلٌّ مِنْهُمْ يَتَعَصَّبُ لِلْمِلَّةِ ، وَيَفْضُ مِنْ مَنَهِبِ صَاحِبِهِ .
 فَلَمْ يَتَعَرَّضْ لِأَحَدٍ فِي دِينِهِ ، وَلَا وَقَفَ لَهُ فِي طَرِيقِ اعْتِقَادِهِ وَبِقِينِهِ . وَأَمَّا هُوَ فَلَمْ
 يَتَّقِدْ بِلَدِينٍ ؛ لَا كَافِرٍ مَعَ الْكَافِرِينَ ، وَلَا مُلْحَدٍ مَعَ الْمُلْحَدِينَ ، وَلَا يَتَعَصَّبُ بِمِلَّةٍ مِنْ
 الْمَلَلِ ، وَلَا يَمِيلُ لِنِخْلَةٍ مِنَ النَّحْلِ ، بَلْ يُعَظِّمُ عِلْمَاءَ كُلِّ طَائِفَةٍ ، وَيَحَرِّمُ زُهْبَادَ كُلِّ
 مِلَّةٍ عَلَى دِينِهَا عَاكِفَةً ، وَيَعِدُّ تِلْكَ الْخِصْلَةَ قَرِيبَةً ، حَيْثُ يُعَظَّمُ كُلُّ دِينٍ وَحِزْبِهِ ،
 وَكُلُّ مَنْ اخْتَارَ مِنْ أَوْلَادِهِ ، وَأَسْبَاطِهِ وَأَحْفَادِهِ ، وَأَمْرَائِهِ وَرَعِيَّتِهِ وَأَجْنَادِهِ ، دِينًا مِنْ
 الْأَدْيَانِ ، لَا يَعْزُضُ عَلَى أَيِّ دِينٍ ، كَانَ فَبَعْضُهُمْ كَانَ مُسْلِمًا حَنِيفًا ، وَبَعْضٌ كَانَ

^(١٢٨) انظر هامش رقم ٨٧ .

^(١٢٩) البُرْدُ ، وَاحِدُهَا بَرْدٌ ، وَأَصْلُهُ اللَّيَابَةُ تَحْمِلُ الرِّسَالَةَ ، وَتَعْنِي هُنَا الْمَنَزِلَ أَوِ الْمَسَافَةَ بَيْنَ كُلِّ مَتَرَتَيْنِ حَسَنِ مَنَازِلِ
 الطَّرِيقِ ، وَهِيَ أَسْمَالٌ اخْتَلَفَ فِي عِدْدِهَا .

^(١٣٠) الصِّبَاةُ أَوِ الصَّابِغَةُ : قَوْمٌ يَبْدُلُونَ الْكِرَاطِيبَ ، وَيَرْعَمُونَ أَنفُسَهُمْ عَلَى مِلَّةٍ نَوْحِ .

يهودياً ، وبعض نصرانياً ، وبعض مجوسياً ، إلى غير ذلك من الإلحاد ، والزندقية وعدم الاعتقاد . وحيث لم يتعرضوا إلى دنياءه ، ولا نازعوه مُلكه الذي تولاه ، لم يُشاققهم في دينهم ولم يواقعهم في يقينهم .

واخترع هو لنفسه في الملك قواعد ، حمل عليها المقارب والمباعد . ثم لما لم يكن لهم كتاب ولا خط ، ولا لأولئك الحروف قلم يعرفون به قط^(١٣١) ، أَمَرَ أذكِياءَ قبيلته ، وعقلاء مملكته ، أن يضعوا له خطاً وقلماً ، يكون لهم علماً وعلماً . فوضعوا له قَلَمَ المغل ، واشتغلوا به أَهَمَّ شغل ، ونسبوه إلى قبيلته ، ليدلّوا به على فضيلته ، فقالوا "قوتا تقرر" يعني قلم قتات ، وهي قبيلة ذلك القتات ، فوضعوا مفرداته ورتبوها ، ثم حملوها وركبوها ، وهي أربعة عشر حرفاً ، ظاهرة بينهم لا تخفى ، وهذه صورة مفرداتها (١٣٢) فأمر أولاده وأحفاده ، وجماعته وأجناده ، ومهرة الرجال ، والأذكِياء والأطفال ، أن يتعلموا هذا الخط وينشروه ، ويتداولوه ويشهروه ، فانتشر بينهم ، حتى ملأ رأسهم وعينهم ، فرسموا به المراسيم والمناسير ، ورصعوا بجواهره جبّة المساطير^(١٣٣) ، ووضعوا الرسومات الديوانية ، والتوقيعات السلطانية ، وابتدع لهم تواريخ وحساب ، كل ذلك بهذا الكتاب . ثم لما تقرر أمره ، وانتشر في الآفاق ذكره ، مهدّ قواعد أسسها ونصب في دَوْحَةِ مُلكه أصولَ خلافِ غرسها ، ووضع على ما اقتضاه رأيه التعيس ، وفكره الخسيس ، طرقات وأفانين ، ودرب في أمور الحكومات أساليب وقوانين ، فجعل لكل حكومة حكماً ، وفوق لكل حادثتي سهما ، وفرع

(١٣١) كانت اللغة المغولية في هذا الوقت لغة شفاهية غير مكتوبة ، فصار لها "قلم مرغولي" في عهده كما يقول المؤرخون .

(١٣٢) هكذا في النسخ التي بين أيدينا .

(١٣٣) المساطير : المكاتب والمراسلات المسطورة .

لكلِّ حسنةٍ مثوبة ، ولكلِّ سيئةٍ عقوبة ، وقرر لكلِّ معصيةٍ حداً ، ولكلِّ بنيةٍ مخالفةً هذا ، ولكلِّ فرعٍ أصلاً ، ولكلِّ سهمٍ من الوقائع نصلاً ، وبين كيفية الصيد والحرب ، وسلك في كل ذلك الطريق والدرب ، وألقى دروس ذلك على أولاده وحفدته ، وجيوشه ورعيته ، بحيث إنهم حفظوها ورعوها ، وفي سير سيرهم هرجاً ومرجاً وعوها .

فمن أحكامها المظلمة ، وفروعها المعتمدة ، صلبُ السارقِ وخنقُ الزاني ، وإن شهد بذلك واحدٌ فلا يحتاجُ إلى ثاني . ثم فصلَ حدَّ السارقِ ، بهذينِ فارقِ ، فقال في السرقةِ من "جرگاه" أى بيتِ شجرٍ واه ، بوجوبِ الصلب ، وبقطعِ اليدِ إن كان بالنقب ، ثم كلا السارقين ، يؤخذ ما لهما من مالٍ وعين ، ويُسترقَّ ما لهما من أولاد ، ويُقتلُ إلى السلطنةِ ما لهما من طريقٍ وتلاد . ومنها أحقيةُ دعوى مَنْ سبق ، سواء كذبَ أو صدق . ومنها استعبادُ الأحرار ، وتوارثُ الفلاحِ والأكار^(١٣١) . ومنها توريثُ نكاحِ الزوجةِ لأقاربِ الزوج ، وتداولهم إياها فوجاً بعد فوج ، فإن تزوجها أحدُ منهم ، كان أحقَّ بها ولا تخرج عنهم ، وإلاَّ زوجوها بمن شاعوا وأخذوا مهرها وباعوا . ومنها عدمُ العدة ، وعدمُ انحصارِ الزوجاتِ فى عِدَّة . ومنه الأخذُ بقولِ الجوارى والصبيان ، وبما يتقوله على الرجال العبيد والنسوان . ومنها امتثالُ أمرِ السلطان ، على الفورِ من غيرِ توان . ومنها لزومُ ما لا يلزم من العطايا ، وإيجاب^(١٣٢) ما يتبرعُ به الإنسانُ من التحملاتِ والهدايا ، حتى لو أعطى شخصٌ شخصاً ، من ماله هديةً أو شقفاً^(١٣٣) ، فإن ذاك يلزمه ، في كلِّ عامٍ يفرمه . ومنها الجثوُّ بين يديِّ الحاكم ، على الركبِ وقتَ التحاكم ، ومنها

(١٣١) الأكار : الخزائن .

(١٣٢) إيجاب : وجوب .

(١٣٣) شقفا : نصيباً ، ولو كان يسيراً .

مطالبة الجار بالجار ، ومعاقبة البرئ بجرمة مرتكب الأوزار ، وذلك لأذنى مناسبة ، من معرفة أو مصاحبة ، فضلاً عن أكبر أصحابه ، أو شديد قرابه . ومنها أن لا يتقدم الوضع على الشريف ، ولو كان ذا مالٍ عريضٍ وجاهٍ كثيف . ومنها العمل ، بما يقتضيه العقل ، والكف عما لا يدركه ولو ورد به النقل . ومنها منع عفر الحاكم ، وإن عفا المظلوم عن الظالم . ونحو هذه الخرافات الباطلة ، والهلديات العاطلة .

ومن أسخفها وأوسخها وأحسفها ، أنه لو أخذ أحد أبله^(١٣٧) ، عن قواعدهم ذو غفلة ، من ثوب أحدهم قملة ، فإن دفعها إلى صاحبها ، خلص من تبعه عواقبها ، وغرامة مطالبها ، فإن شاء قصعها ، وإن أراد وضعها ، وربما اختار عودها ، إلى مكانها فرجعها ، وإن قتلها أو رماها ، وإلى صاحبها ما أداها ، فإن صاحبها يخاصمه ، وإلى حاكم التتار يحاكمه ، ويدعي عليه بين يديه ، بأن هذا الإنسان ، عمد إلى حيوان ، ربيته بين سحري ونحري ، غنيت به بدم صلدري وظهري ، فقتله قصداً ، وأضاعه عمداً ، من غير سبب تقدم إليه ، ولا إثناء اجترأ به عليه ، فينسبه إلى الاجترام ، يأخذ دينها منه بالاغترام . وقس على هذا اليسير ، أنواعاً من الكثير ، ومن تن هذه البعرة على خرافة البعير^(١٣٨) . ومن هذا القواعد ، أمر الأقارب والأبعد ، بما يستصوبه العقل ويستتجده النقل ، من سلوك طريق الفتوة ، ومعاملة الخلق بالمروءة ، والكرم والإحسان ، والمداواة مع كل إنسان ، والكف عن الظلم والغارات ، اللهم إلا في طلب الثارات .

(١٣٧) أبه : أحق .

(١٣٨) فساد عقله .

ثم وضع طرقَ المكاتباتِ والمراسلات ، والمشافهاتِ والمخاطبات ، فكان في المكاتباتِ طريقةً رسمه ، أن لا يزيدَ على وضع اسمه ؛ كأن يقولَ في أوَّلِ الكتاب ، وبراعةٍ استهلالِ الخطاب ، عند ابتداءِ المقال ، بعد عدةِ أوصال : جنكزخان كلامي ، ثم يكتب تحته من نصف السطر الثاني : إلى فلان ليفعل كذا ، ولا يتعلل بأنَّ وإذا . ثم يذكر مخ المقصود^(١٣٩) ، بطريقٍ معهود ، بين العبارات ، من غير مجازاتٍ واستعارات ، ويختتم بذكرِ الزمان^(١٤٠) ، واسمِ المنزلِ والمكان . وإذا استدعى أحداً إلى الطاعة ، وسلوكِ السُّنةِ أَسْوَأَ الجماعة ، فإنه يتجنبُ التهويلَ والتهديد ، ويتحاشى عن التشريد والتشديد ، ويرغب بالوعد ، ويترك الوعيد . ثم يقول : إن سمعتم وأطعتم ، فزتم وغنمتم ، وإن أبيتم وعماديتم ، فليس أمرُ ذلك إلينا ، ولا درك علمه علينا ، يرى فيكم الخائفُ القديمُ رأيَه ، فإنَّ في تقديره وتدبيره كفاية . فهذه القاعدةُ باقيةٌ ، في تلك الفعَّةِ الباغية ، مستمرةٌ على الدوام ، وإلى هذه الأيام ، جاريةٌ على هذا النمط . يكتبون اسمَ الخانِ أو الخاقانِ فقط . وكذلك الأمراءُ والوزراء ، والمباشرون والكبراء ، يكتبون في أوَّلِ الكتاب ، فلان لا أكتفي ولا حَتَاب ، وهكذا إلى الأكابرِ من الأداني ، يذكرون اسمَ الكبيرِ ووظيفته . فلان لا الفلاني .

ولما فرغ من ترتيبِ هذه القواعدِ الملعونة ، وخرج بها على خلافِ الشريعةِ الميمونة ، وقرَّر عليها الأمورَ الديوانية ، والأحكامَ السلطانية ، أمر بها فكُتِبَتْ ، وبهذا الخطُّ رُبِّيت ، ورسمت في طوامير^(١٤١) ، ولُقِّت في شَقَقِ الحرير ،

^(١٣٩) المَخ : خلاص كل شيء ، وفي الحديث الشريف "الدعاء مخ العبادة" ويقال هذا مخ الأمر : خياره ..

والنقى هنا "صلب" المعنى المقصود أو بيت القصيد من موضوع الرسالة أو المكاتبة .

^(١٤٠) الزمان : تاريخ كتابة الرسالة أو المكاتبة .

^(١٤١) الطوامير ، واحدها طومار أو طامور ، وهو الصحيفة .

وَزُكَّتْ^(١٤٣) بالذهب ورُصِّعت بالجواهر ، كما فعل ماني النقاش الكافر ، واضحٌ مذهبِ المحسوس ، ومصوَّره على صفحاتِ الطروس ، وميرز المعقول بطريقِ المحسوس ، ليكونَ أقربَ إلى تفهيمِ النفوس ، في كتابه المسمَّى بزند-أوستا^(١٤٣) ثم أمرَ باحترامها وتوقيرها ، والحفاظة على ضبطها وتحريمها ، والعمل بها والاقتداء بها فيها ، وتعلّق أهلُ ملّته بقواديمها وخوافيها . ثم رُفعت إلى خزائنه ، وهي عندهم أعزُّ من الكيريتِ الأحمر في معادنه ، واسمها بالمغلي "التورة" وتفسيرُها المِلَّةُ الماثورة ، فإذا جلس منهم سلطانٌ على سرير ، وذلك بما للرؤساء من اتفاق وتدير ، وعادتهم في ذلك أنهم إذا رفعوا عليهم سلطانا ، وأرادوا أن يبنوا لدار الملكة خِائناً^(١٤٤) ، اجتمع الأمراء من الأطراف ، واستدعوا أركانَ الثغور والأكتاف^(١٤٥) ، واشتوروا فيما بينهم مدَّةَ أيام ، واستمروا في ذلك ما بين نقضٍ وإبرام ، ورعا أقاموا في ذلك الجَمْع العام^(١٤٦) ، حولاً جميعاً أو ضعيفي عام ، ويسمّون تلك الجمعية "قورلثاي" وهي مستمرة الحكم في الغل والجفائي ، وسببُ ذلك تدافعُ الإمرة ، والفراؤ من

^(١٤٣) زُكَّتْ : تداحل بعضه في بعض ، والمقصود : تآطرت أو زهرت أطراف الرسالة .. بماء الذهب ، ووصعت فراغاتها بالرسوم .

^(١٤٤) زند وإستا : أو الزند - أقيستا وهو الكتاب المقدس لروادشت في الديانة الفارسية القديمة (الزورادشتية) . وقد وهم المؤلف حين نسيه إلى ماني الذي ألفاد منه في تعاليمه (وزند معناها : تفسير ، وأقيستا معناها : القانون) . ومن اللافت للنظر أن المؤلف وصف ماني بأنه النقاش ، أي النقيّ الرسام ، وأن كتابه مُزَّين بالرسوم ، إشارة إلى أن ماني عندما اختفى كان قد ذهب إلى الصين ، وتعلم فن الرسم الصيني المعروف بفن الميناتور ، ثم عاد إلى إيران زاعماً أن لوحاته مرسومة من السماء واسمها أوجنك بالقاف الفارسية ، على نحو ما هو معروف .

^(١٤٥) يتوا : يتنصروا سلكاً أو سلطاناً عليهم .

^(١٤٦) أركان الثغور والأكتاف : رؤساء الثغور وللدن الكبرى وزعماء الأقاليم .

^(١٤٧) الجمع : الاجتماع ، والحول : العام .. أي غل الاجتماع العام مفتوحاً لمدة عام أو حول كامل ، وقد

تلك السلطنة الحُلوة المُرّة ، كما كان الصحابة الكرام ، يتدافعون الفتاوي خوفاً
الآثام . فإذا وقع الاتفاق ، بين الرفاق ، وأمراء الجند ورؤساء الآفاق ، على واحدٍ
من أولاد الخان ، وأن يكونَ عليهم الملك والسلطان ، وتصوّب الرأي عليه
وتسدد ، وضَعوه على يَدِ أسود ، ثم رفعه من الأرض إلى السرير ، أربعة أنفُسٍ
كُلُّ أميرٍ كبير ، كُلُّ حاملٍ بطرف ، رافعٍ في زعمه راية الشرف ، والخان يصيح ،
بلسان فصيح . يا رؤساء ، ويا أمراء ، ويا ملوك ويا زعماء ؛ أنا ما أقدر أن
أتسلطَ عليكم ، ولا طاقة لي أن أتحكّم لديكم ، ولا قوة لي بهذا الجمل الثقيل ،
والدخول تحت هذا الأمر العريض الطويل . فيقولون : بلى يا مولانا الخان ، تقدر
أن تقومَ بحملِ أعباءِ هذا الشأن ، فيتكرّر الخطاب ، ويتعدّد الجواب ، حتى يجلسوه
على السرير ، ويتهجّ بذلك الكثير والصغير ، والمأمور والأمير ، ثم يأتون بالثوراة
الجنكرخانية الملعونة الشيطانية ، مبحلةً معظمة ، محزّمةً مكربة ، فينهضون إعظاماً
لها ، ويتركونَ عسّتهم أذيالها ، فينشرونها ويشهرونها ، ثم ينصبون فيقرونها ، ثم
يباعون الخان على إقامتها ، وأن يراعى أحكامها حقّ رعايتها ، ويباعهم على
امتنالِ أحكامها ، وإجراءِ نقضها وإبرائها ، فيجيبُ كلُّ منهم الأمر على ذلك ،
وأن يقيمَ شعائرها المملوك والمالك ، ثم يضربون له الجنوك^(١٤٧) ثلاثَ مِرار ، ثم
يتوجّهون إلى الشمس في وجه النهار ، ويضربون لها الجنوك ، ويسجدّ لها مَنْ فيهم
من مالِكٍ ومملوك ، ولا يفعلون هذا الفعلَ الشنيع ، إلّا في أيام الربيع . فإذا تعاقدوا
وتباعوا ، وتعاهدوا وتتابعوا ، رفعوا تلك الكفريات ، وأحضروا الآلات
الخصريات ، فأدار الخان عليهم الكاسات ، واستعملوا الأقداح والطاسات ، وقَتَحَ
الخزائن ، وأظهرَ المكامن ، ونَثَرَ النثار ، من الدرهم والدينار ، وخلَعَ الخِلَع

^(١٤٧) الجنوك ، واحدها الجنك ، وهو آلة ذات لوتار من الأسلاك ، ذات ستة وأربعين ملكاً ، واختصرت

والتشارييف ، وأعاد في دروس النفائس أبحاث التصارييف ، واستمروا على ذلك أياما ، والإنعامات تثيرُ عليهم خاصا وعاماً . ثم يأذن لهم فيتفرقون ، ثم انصرفوا صرَفَ الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون ، وهذه الطريقُ مستعملة ، وإلى آخرِ وقتٍ غيرِ مهمة ، في جميع ممالك الشرق من الخطا ، والدشت^(١٤٨) والصين والمغلي والجننا ، وفي ولايات الجغتاي . والروم قد اعتادوا غالبَ هذه القواعد والرسوم ، فقدموها على القواعد الإسلامية ، والشرائع الأخمدية المحمدية . اللهمَّ ألهِمْنَا الصوابَ ولا تَزُغْ قُلُوبَنَا بعد إذ هدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا من لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ .

وسبب تحريكه إلى ممالك الإسلام ، وتوجهه عنانِ سخطه إلى طلب الانتقام ، هو أنه لما استقرَّ أمره ، وانتشر بعد الجور بالعدل ذكره ، وطابت بلاده وأمنيت ، وحمدت حركات الظلم وسكنت ، توجه من بلاد ما وراء النهر^(١٤٩) فقة ، في سنة ثلاث عشرة ومستمائة ، فيهم ثلاثة أنفار ، من أعيان التجار ، أحثهم يدعى أحمد الخجندي ، والآخر عبد الله ابن الأمير حسن الجندي ، والثالث أحمد بلخيخ ، ومعهم من أنواع المتاجر ، ونفائس الأقمشة والذخائر ، ما يصلح للملوك أولي المفاخر ، فوصلوا إلى بلاده ، الجاري فيها مياه كفره وعناده ، وانتهوا إلى "قوقات والمسيل" ، وهما محل سريره الذليل ، فأكرم نزلهم ، ورفع محلهم ، وأنزلهم في قبابو بيض ، وأفاض عليهم الكرم العريض ، وكان شعار المسلمين في تلك البلدا ، أن ينزلوهم في قبابو بيض من لئد ، وكانوا يقرَّبون المسلمين ، ويمحزونوهم دون الناس أجمعين . ثم إن خنكرخان ، دعا أحد أولئك الأعيان ، واستعرض قماشه وساوومه ، بعدما قرَّبه وأكرمه ، فطلب منه أضعاف ثمنه وسامه ، ما يقضى بغنيته وغبنه ، فما

(١٤٨) الدشت : صحراء القبحاق .

(١٤٩) تمديداً من مملكة خوارزم ، في عهد السلطان قطب الدين محمد بن تكش . انظر الحاشية رقم (١٥٣) .

رَدَّ جوابه ، ولا اعتبر خطابه . ثم طلب رفيقيه واستعرض بضائعهما عليه ، ثم ساورَهُمَا الثمن ، فقالا : يا ملكَ الزمن ، إن صلح هذا القماش ، خذْ مُنَاكَ به بلاش ، فليكنْ لهُ رضاك ، وهديّة في مقابلةٍ ملتقائك ، وتقدمةٌ منا إليك ، بل خدمة الخادم أدخلنا عليك . فأعجبه هذا الحوار ، وقال : بل أنتم تجمار ، إنما جتتم لرجحوا ، وتكسبوا علينا وتنجحوا ، وأنتم ضيوقنا ، فالأولَى أن يشملكُم معروفنا ، ولكن أنا أقولُ قولاً وأدفع إليكم نولاً ، فإن رأيتم فيه فائدة ، وعاد عليكم منه عائدة ، قَبِلْتُمُوهُ ، وإلا فالرأي فيما رأيتموه . ثم ذكر لهما مبلغاً أرضاهما ، وبلغ به منتهى مُنَاهُما ، بحيث ربح درهُمُهما ثلاثة وأربعة ، وتضاعفت لهما مع قربى الملكِ المنفعة . فقالا : رضينا بما رصمت ، وأنعمتَ به وقسمت . فقال لرفيقهما الأول : إن رضيتَ بمثل ما رضيَ به صاحبك فتحول ، وإلا فخذْ متاعك وتحول ، وشأنك وقماشك ، وتَحَسَّنْ مع ذلك رباشك . فقال رضيْتُ بما رَضِيَا به ، وتلطف في خطابه وجوابه ، فأمر في الحال ، وأحضر المال ، ووزن الثمن ، وزاد ومن ، وألبسهم الخلع ، وأفضل في المصطنع ، وأمر ببضائعهم فُرِفِقَتْ ، في خزائنه ووضعت .

ثم أمرَ خواصَّ بطائنه^(١٠٠) ، أن يُنْجِلُوا هؤلاء التجارَ إلى خزائنه . فلما دخلوا إليها ، ووقع نظرُهم عليها ، رأَوْا من نفائسِ الأموالِ والذخائر ، وأصنافِ الأقمشةِ والحرائر ، وأنواعِ الجواهرِ الملوكة ، وأجناسِ الأمتعةِ الكسروية ، وأعلاق^(١٠١) ملوكِ الصين ، ومتحفاتِ الملوكِ والسلاطين ، ما أبْهَتَ نواظرَهم ، وادهشَ أبصارَهم وبصائرَهم ، فَنَزَّهُوا في محاسنها أبصارَهم ، وأودَعُوا محاسنَ غيلايتها

^(١٠٠) بطائنه : بطائنه .

^(١٠١) أعلاق : نفائس .

أفكارهم . ثم أتوا بهم إليه ، وأدخلوهم عليه . فقال : ماذا رأيتم في الخزائن ، من نفائس البحار والمعادن . فقالوا : ما لا يصلح إلا في خزائنك ، ولا يُنثر على فِرَقِ ملوكِ المشرقِ والمغربِ إلا من مكابِرِ معادنك . فقال : ما بايعناكم فأرغبناكم ، ولا أكرمناكم إذ صحبناكم ، بناءً على أننا عادمون ، ولا أننا بقيمة الأشياءِ ونقدِها جاهلون ، وإنما فعلنا ذلك الإحسان ، وجبرنا منكم النقصان ، لِعِدَّةِ معانٍ ، أحدها : إنكم أضيافنا ، وقد شملكم كرمنا وإنصافنا . ثانيها : أنَّ فضلنا الفضيل ، يقتضي إكرامَ النزول ، ثالثها : إنكم مسلمون ، والمسلمون عندنا مكرمون . رابعها : أردنا اشتهارَ اسمنا ، وأن تُذكرَ في الأقطارِ طريقةُ رسمنا . خامسها : أنه إذا سَمِعَ بعمالتنا التجار ، يقصدون بلادنا من الأمصار ، وسائرِ الآفاقِ والأقطار ، فتَقَعُرُ المسالكُ والدروب ، ويرى الطالبُ والمطلوب . سادسها : وهو أعلاها ، وأحسنها وأقواها ، انكم أُمُتُمونا وافدين ، وأننا لا نغيبُ رجاءَ القاصدين ، ثم سرَّحهم شاكرين ، ولما سمعوا ورأوا ذاكرين .

ثم اقتضتِ الآراء ، فأمرُ الأمراء ، وأكابرِ بلاده ، ورؤساءِ أجناده ، أن يجهَّزَ كُلُّ منهم إلى الجهاتِ الغربية ، والولاياتِ الإسلامية ، من جهتهِ أحداً من المسلمين ، ببضائعٍ من أمتعةِ الخطأ والصين ، في صِفةِ التجار ، ليتعاملوا في هذه الدِّيار ، وتفتح المسالكُ ، على السالكِ ، وتُنقلَ إليهم بضائعُ هذه الممالك ، وتكثرِ المعاملات ، وتتحدِ للممالكِ والولاياتِ ، فامتثلوا مراسيمه ، وعدُّوها غنيمَةً ، وجهَّزَ كُلُّ منهم من جهتهِ مَنْ وثقَ بأمانته ، واعتمدَ على كفايته ، وأعطاه من النقودِ والأجناس ، ما يصيرُ به من رؤساءِ الناس ، واجتمعوا قافلة ، وركبوا السابلة ، نحو أربعمائة وخمسين نفراً ، كلُّهم مسلمون كبار ، وكتبَ لهم مراسيمَ وجائزات ، بإكرامِ نُزُلِهِم في الدروبِ والمجازات ، ومعاملتِهِم بالكرامات ، وأن تُهيأَ لهم ولدوايُهُم الإقامة ،

ذهاباً وإياباً ، حضوراً وغياباً . ثم أرسل معهم إلى السلطان قطب الدين ، محمد بن تكش علاء الدين بن رسلان بن محمد بن أنوشتكين^(١٠٢) ، وأنوشتكين هذا هو أتابك^(١٠٣) الملوك السلجوقية . والسلطان قطب الدين هو الفائق من تلك القرية ، رسالة عاطرة ، تستميلُ خاطره ، وتُسيل من سحابِ كرمه مواطره ، وحسن الجوار ، ومراعاة جانب الجار ، وسلوك ما تنتظم به الأمور ، وتطمئن به الصدور ، ويحصل به الأمن للصادر والوارد ، والرفاهية للقائم والقاعد ، وتنعقد به أسباب الحجة من الطرفين ، وأطناب المودة من الجانبين ، وفتح باب المراسلات ، وكشف حجاب المعاملات ، وإن كانت الأديان مختلفة ، فلتكن القلوب مؤتلفة ، وشمول نظير الصدقات السلطانية ، وعواطف مراحمها الملوكية ، على القصاد الوافدين على أبواب مكارمها ، المستمطرين سحاب صدقاتها وزيئها ، وبحيث تسنى مطالبهم ، وتنهى مآربهم ، أو كما قال ، وصدر منه السؤال .

هذا وأما أخبار السلطان قطب الدين فإنه كان من أكبر الملوك والسلاطين ، تملك عراقي العرب والعجم ، وما في ممالك خراسان من أمم ، واستولى على غالب الممالك بالقهر ، وإلى أقصى ولايات ما وراء النهر ، وجعل "جرجانية خوارزم" مأواه ، وتلقب لذلك خوارزم شاه ، ورفع ما بين ممالكه وبين ممالك جنكزخان ، من التتار المسلمين بقرا جغتاي وعباد الأوثان ، واسترقهم قهراً وقسراً واستصحبهم

^(١٠٢) حكم سنة ٥٩٦ هـ / ١٢٠٠ ، وهو من سلالة أنوشتكين الذين كانوا في الأصل حكاماً من قبل السلاجقة ، وحكاماً مستقلين فيما بعد في وسط آسيا وفارس (حكما من النصف الثاني من القرن الحادي عشر حتى النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي) .

^(١٠٣) أتابك : أمير الأمراء أو كبيرهم . ويتألف هذا اللقب من لفطين تركيين ، وهما أطا بمعنى أب ، وبك بمعنى أمير ، ومهمته الأساسية أن يكون وصياً على ولي العهد . ثم ذاع بعد ذلك بمعنى مقدم العساكر أو القائد العام .

جبراً وكسراً ، واستولد من تلك الطائفة المعتدين ، ولسه السلطان جلال الدين ،
 فبواسطة إنه صار له منهم ولد ، صاروا أقربَ عساكره إليه وعليهم المعتمد ، فكانوا
 شعوباً وقبائل ، يخرج منهم سبعون ألف مقاتل ، ومنهم أيضاً كانت أمه وأجواله ،
 وخيله ورجاله ، إلى أن خانوه وبذلوه وما صانوه ، واستدفع بهم طارق البلاء
 فكانوه .

غربة نادمة عجيبة

وكان هؤلاء التار ، متاهمين بلاد أنزار ، وهي حد ممالك السلطان ، وهي سد
 عظيم بين المسلمين وبين جنكزخان ، فغزاهم السلطان وأبادهم ، واستعبد كما ذكر
 أجنادهم ، فارتفع السد من بينين ، وانهدم الفاصل بين الجانيين ، واتصلت
 المملكتان ، كالحيين أعنى مملكة السلطان ، ومملكة جنكزخان ، فسُرت السرائر ،
 وابتهجت الضمائر ، ودُقت في ممالك السلطان قطب الدين البشائر ، وزينت
 الولايات بأنواع الذخائر . وكان في نيسابور^(١٠٤) ، من أكابر الصدور ، شخصان
 من العلماء ، فاجتمعا وأقاما العزاء ، فسُتلا عن موجب هذا البكاء ، وإنما الناس في
 فتوح وهناء . فقالا أنتم تملكون هذا السلم فتحاً ، وتصورون هذا الفساد صلحاً ،
 وإنما هو مبدأ الخروج ، وتسليط العلوج ، وفتح سد يأجوج ومأجوج ، ونحن نقيم
 العزاء على الإسلام والمسلمين ، وما يحدث من هذا الفتح من الحيف على قواعد
 الدين ، وسَعَلَمَن نَبَاهُ بَعْدَ حِينٍ . وأنشد فأرشد :

وَعَلِمْتُ أَنَّ قُرَاقِكُمْ لَا بُدَّ أَنْ يَجْرِيَ لَهُ دَفْعِي دَمًا وَكَذَا جَرَى

^(١٠٤) نيسابور : من أشهر مدن خراسان وأحسنها .

وكان السلطان^(١٠٥) قد دانت له البلاد ، واستولى على أهل البقاع والوهاد ، وأباد ملوك العجم ، وتفرّد بسياسة تلك الأمم ، وتحت ملكه مملكة خوارزم ، وقد صمّم العزم ، بحزم ، وحمل الناس ، على نزاع الخلافة من آل عباس ، ووضعها في آل عليّ ، وقد توجه إلى العراق بهذا القصد الجليّ ، فوصل إلى حدود العراق ، وهو مُجِدّد على هذا الاتفاق ، فوصل أولئك التجار ، إلى أنزار ، من صوب جنكزخان ، وبها من جهة السلطان ، نائبٌ يدعى "قايرخان" . فلما وصلوا إلى البلد ، أخبر بهم النائب الرصد ، فحَسَمَ عنده في مكان ، وأرسل يستأمرُ فيهم السلطان ، وبَشَّعَ العبارة ، وشَنَعَ السفارة ، وذكر أنهم جواسيسُ تسفروا بالتجارة ، وأنَّ معهم من الأموال ، ما يوازي الرمال ، ويوازنُ الجبال :

* وَمَا أَفَقَّ الْأَخْبَارُ إِلَّا رَوَّاهَا *

فأمره بقتلهم ، وأخذ ما معهم وسلبهم ، ففي الحال أبادهم ، وسلبهم طارِفهم وتلادهم ، وأرسل المالَ إلى السلطان ، وأوصله حسبما رَسَمَ به إلى الديوان ، فطرَّحوه على تُجَّار بُخَارَى وسمرقند^(١٠٦) ، كما يُطَرَّحُ على مساكين دمشق القند^(١٠٧) ، واستخلصوا ثمنه بالظلم وزادوا عليهم فيه الغرم . وكان سبب ذلك أن تاجراً عند قايزخان ، أراد أن لا يكونَ عند السلطان تاجرٌ سواه ، فبِعه قايرخان لما أغواه ، فتعددت الأسباب ، وانفتحت للشرِّ أبواب ، وقالوا : "شرٌّ أهرَّ ذا ناب"^(١٠٨) فلم يفِلتْ منهم سيوى رجلٍ واحد ، أنجاه الله من العدوِّ والحاسد ، فاخفى واتصل إلى بلاده ، وأخبرهم بوقوع الأمرِ وفساده فَعَضِبَ جنكزخان ، وتحرك منه باعثٌ

^(١٠٥) خوارزمشاه قطب الدين محمد بن تكش ، انظر الحاشية رقم (١٥٢) .

^(١٠٦) بخارى وسمرقند من أشهر المدن التجارية ببلاد ما وراء النهر .

^(١٠٧) حسل السكر .

^(١٠٨) مثل يضرب في ظهور آمارات الشرِّ وغيايله .

العدوان . ثم تَبَيَّنَ في أمرِهِ ، وتَبَيَّنَ في فكرِهِ ، وأرسلَ إلى السلطانِ رسالةً ، فيها تهديدٌ وبسالةٌ ، وكان السلطانُ حوارزم شاه ، لما أُنْذِرَ هذا الخطأَ وأنهاء ، طَيَّرَ مراسيمَهُ إلى أطرافِ الممالك ، يأمرُهُم بالمحافظةِ على دَرَنَدَاتِ^(١٥٩) المسالكِ ، ويَحْرُضُ وِلَاةَ الأمورِ وأصحابَ الإدراكِ في المضائقِ والثغورِ ، والطلائعِ والأرصادِ ، على منعِ القصدِ ، وكَفَّ مَنْ يَخْرُجُ من تركستان ، إلى صوبِ ممالكِ جنكوزخان . ثم أُرْسِلَ من جهتهِ جواسيسُ ، يختبرُ أحوالَ ذلكِ الإبلِيسِ ، وينظرُ أمورَهُ وأوضاعَهُ ، ومقدارَ عسكرِهِ وأمرِهِ في الطاعةِ ، وما قَصَدَهُ أَنْ يفعلَ ، ليستعدَّ له بحسبِ ما يعلمُ منه ويعملُ . فتوجَّهتِ جواسيسُ السلطانِ ، وطالَ في غيبتِهِم الزمانُ ، وقطعوا الجبالَ والقفارَ ، وسلَكوا المفاوِزَ والأوعارَ ، حتى وصلوا إلى بلادِهِ ، وفحصوا عن أمرِهِ واستعدادِهِ ، وخبروا أمرَ جنديهِ وعتادِهِ ، وأوضاعَ عسكرِهِ وتعدادِهِ ، فرجعوا بعدَ مُدَّةٍ مديدةٍ وأزمانٍ ، وأخبروا بما حقَّقوه السلطانُ ، وأن عدَدَ عساكرِهِ يَفُوتُ الإحصاءَ ، ويَخْرُجُ عن دائرةِ الاستقصاءِ ، وأنهم أطلَّوعُ الرِّيَّةِ للملكِ ، وأُثْبِتَ جَنَانًا من الأسدِ المنهمكِ ، وأصْبُرَ جُنْدًا على القتالِ ، كَأَنَّ أمرَ الهزيمةِ عندهم مُحالٌ ، وأنهم إذا واثبوا أو حاربوا ، أو سالبوا أو لاسبوا^(١٦٠) أو رابضوا أو ضاربوا غابطوا أو خاطبوا ، بقوله :

وَلَحْنُ أَنْاسٍ لَا تَوْسُطُ بَيْنَنَا
لَنَا الصُّنْدُ ذُونَ الْعَالَمِينَ أَوْ الْقَبْرِ

وأنهم لا يحتاجون في الأسفارِ ، ولا عندَ مقابحةِ الأخطارِ ، إلى كثيرِ مؤنةٍ ، ولا كبيرِ معونةٍ ، بل كُلُّ منهم ينهضُ باحتياجهِ ، واحتياجِ مركوبِهِ إلى إيجامِهِ

^(١٥٩) دريند كلمة فارسية الأصل ، ومن معانيها هنا : المضائق والطرق أو المعابر الضيقة للأنهر والبحيرات .

^(١٦٠) تاسبوا : تضاربوا وتلاسعوا بالوسط ونحوه .

وإسراجه ، ويستبدّ بعمل سلاحه ، وجميع ما يستعين به سفرأ وحضرأ في صبلحه وصلاحه ، ونطاحه وكفاحه ، وكذلك ملبوسه وزاده ، وسائر أهيته وعنتاده :

فَنَدِمَ خوارزم شاه ، على ما قَلَمْتُ يده ، من قتلِ أصحابيه ، وَفَتَحَ سَدَّ الثَغْرِ وبابه ، وَأَتَى يُجْدِي النَّدَمَ ، وقد زَلَّت القدم ، وتبدَّل الوجودُ بالعدم ، وغَرِقَ في بحرِ الهُموم ، وَهَمَى عليه غَمَامُ الغموم ، فشاورَ لما لقي "الشهاب الخيوقى" وهو فقيه فاضل ، ونبيّة كامل ، عالمٌ أجلّ ، كبيرُ الحِلّ ، له عنده محلٌّ خطير ، لا يخالفه فيما يشير ، فإنّ رأيه سديد ، وقوّله وفعله رشيد . فقال يا إمام : قد تحرك على الإسلام ، عَدُوُّ اللَّذِّ الخِصام ، بعساكرِ كالرمال ، ذوي صدماتٍ كالجبال ، فما ترى فيما طرأ^(١١١) ؟ فقال : في عساكرِكَ كثرة ، وأنت ذو قُوَّةٍ وَوَفَرَةٍ ، وَزَفَرُ إقْدامِكَ له زَفَرَةٌ^(١١٢) ؛ فكَتَبَ الأطراف ، واجمع عساكرَ الأكثاف ، واذغ أهلَ بيضة الإسلام ، إلى هذا الثغير فإنه عام .. فإذا وفدوا عليك ، ومثلوا بين يديك ، توجه بهم إلى نهرِ سيحون ، واجعلْ ساحله من فُلْكِ الجنودِ مشحون ، واملأ بهم تلكَ المهابة والقفار ، وَحَصَّنْ مَمَالِكَكَ إلى حدودِ أنزار ، فإنّ أقبِلَ العَدُوُّ المَخْذُول ، لم يصلْ إلا وهو من الكِلالِ محلول ، فإنه يأتي من بلادٍ بعيدة ، بجنودٍ عديدة ، وقد أثر فيه النَّصَب ، وأخذ منه التعبُ والوصب ، فتلاقيه على سيحون ، وهم كَالْوَنِ^(١١٣) ، ونحن مستريحون . فجمع بعد ذلك أمراءه ، وزعماءه ، وعرض عليهم ما جاعهم ، وطلب منهم آراءهم ، فلم يرتضوا رأيَ الشَّهاب ، لأمرٍ يريده مُسَبِّبُ الأسباب . وقالوا : بل نتركهم حتى يقطعوا الأوعارَ والمضايق ، ويتورطوا في بلادنا بالعوايق ، فتزدادُ مشقتهم ، وتطولُ في المسير شقتهم ، لاسيما وهم بأرضنا

^(١١١) طرأ : طرأ من الحدثان .

^(١١٢) الزفر : الشجاع ، والكتيبة . وزفرت النار زفرأ : سمع لانتقادها صوت .

^(١١٣) أصابهم الكلال والتعب .

جاهلون ، وعن مداخيلها وخارجها ذاهلون ، فإذا حصلوا في قبضتها ، كان أمكنَ
لنهيئتنا ، فنضيق عليهم واسعَ رحابها ، وأهلُ مَكَّةَ أخيرُ بشعابها ، وذُهلُ أولئك
الجمع ، عما رآه الفقهاء وهو أن الدَّفع ، أولى من الرفع .

وبينما هم في المشاورة والمراودة ، ورد قاصد^(١٦٤) جنكزخان برسالة المناكدة ،
وفيها من التشنيع والتقريع ، التهديد والتبشيع ، العجبُ العجاب ، وما يشيبُ
الغراب . فمن جملة تشنيعاته ، ومضمون تهويلاته ، ما معناه ، في فحواه ، كيف
تَحَرَّأْتُمْ على أصحابي ورجالي ، وأخذتُمْ تجارتِي ومالي ، وهل وَرَدَ في دينكم ، أو
جَازَ في اعتقادكم وبقينكم ، أن تريقُوا دَمَ الأبرياء ، أو تستحلُّوا أموالَ الأتقياء ، أو
تعادوا مَنْ لا عاداكم ، وتكذبوا عيشَ مَنْ صَادَقَكُمْ وصافاكم ، اتَّعَرَّكُوا الفتنَ
النائمة ، أو تنهضوا الشرورَ الجالمة ، أَوْ مَا جَاءَكُمْ عن نبيكم ، أن تمنعوا عن السفاهةِ
غويكم ، وعن ظلمِ الضعيفِ قويكم ، أَوْ مَا أَخْبَرَكُمْ غيْرُكُمْ ، وبلغكم عنه
مرشِدُكُمْ ، ونبأكم محدثُكم : اتَّركُوا السَّرْكَ ما تركوكم^(١٦٥) ، وكيف تؤذون
الجار ، وتسيئون الجوار ؟ ونبيكم قد أوصى به ، مع أنكم ما دقتم طَعْمَ شهادتهِ أو
صايبه^(١٦٦) ، ولا بَلَّوْكُمْ شدائدِ أوصافِهِ ، وأَوْصَايِهِ^(١٦٧) ، أَلَا وَإِنَّ الفتنَةَ نائمةٌ فلا
توقظوها ، وهذه وصايا إليكم فَعُوها واحفظوها ، وَتَلَاَفُوا هذا التَّلَفَ ، واستترِكُوا
ما سلف ، قبل أن ينهضَ داعي الانتقام ، ويتحركَ من الفتنِ حامي الاضطرام ،
ويقومَ سوقُ الفتنِ ، ويظهرَ من البشرِ ما بطن ، ويموجَ بحرُ البلاءِ ويروج ، ويفتح

(١٦٤) قاصد : رسول أو سفير أو مبعوث .

(١٦٥) هذا القول "اتركوا السرك ما تركوكم" يرد في المصادر التاريخية منسوبا مرة إلى النبي محمد ﷺ ، ومرة إلى معاوية بن أبي سفيان .

(١٦٦) الصَّاب : شجر مرّ له عصاة ييضأ كاللبن بالغة للراوة .

(١٦٧) أوصايه : آلامه وأوجاعه .

عليكم سَدُّ ياجوج وماجوج ، وسينصرُ اللهَ المظلوم ، والانتقامُ من الظالمِ أمرٌ معلوم ، ولا بُدَّ أَنْ الخالقُ القديم ، والحاكمُ الحكيم ، يُظهِرُ أَسْرَارَ رُبوبِيَّتِهِ ، وآثَارَ عَدْلِهِ فِي بَرِيَّتِهِ ، فَإِنَّ بِهِ الحَوْلَ والقُوَّةَ ، ومنهُ النصرَةُ مرجوَةٌ ، فَلْتَرْوُنَّ مِنْ حِزَائِهِ أَفْعَالَكُمُ الْعَجَبَ ، وسوف ينساب عليكم ياجوج وماجوج من كلِّ حذب .

وكان اللَّعِينُ جنكزخان ، قد مشى على تركستان^(١٦٨) ، وأخذ منها غَنَوَةً كاشغر^(١٦٩) وبلاساغون^(١٧٠) ، وأصارتنا في حَوْرٍ ذَلِكَ الملعون ، وكانتنا في يَدِ كَوُجْلِك خان ، ابنِ أُونك خان ، المارَّ ذَكَرُهُ فِي أَوَّلِ القِصَّةِ ، لما قَتَلَهُ جنكزخانَ وقِصَّةَ ، وهرب ولَهُ كَوُجْلِك خان المغبون ، واستقرَّ في كاشغر وبلاساغون ، إِلَى أَنْ مَشَتْ العساكرُ عليه ، وأخذتْ تلكَ الأماكنَ مِنْ يَدِيهِ .

فلما وصلَ هذا الخطابُ ، إِلَى ذَلِكَ الأَسَدِ الوَثَابِ ، أَمَرَ بِمُقَدِّمِ القُصَّادِ^(١٧١) ، ورئيسِ أولئك الوُرَّادِ ، فَضْرِبَتْ رِقَبَتَهُ ، وَبَعَثَتْ بَقِيَّةَ فَحْلَقَتِ لَحِيَّتِهِ ، وَسَخِمَتْ بِالسَّوَادِ لَحِيَّتَهُ ، ثُمَّ رَدَّ الجوابَ ، بِأَشْمِعِ خطابَ ، وَمِنْ فَحَوَاهِ ، وَبَارِدِ مَا حَوَاهِ ، إِنِّي سَأَتُّ إِلَيْكَ ، وَهَاجَمْتُ عَلَيْكَ ، بِجُنُودِ الإِسْلَامِ ، وَأَسُودِ الأَكَامِ . وَكُلُّ بَطْلٍ ضَرْغَامَ ، وَلَوْ بَلَغَتْ مَطْلَعُ الشَّمْسِ ، فَمَحَلَّتْ فِي قَعْرِ الرَّمْسِ ، وَجَاعَلْتُ كُذَاهِبَ أَمْسٍ ، فَتَيَقَّنْ ذَلِكَ ، وَاعْلَمْ أَنَّكَ لَا مَحَالَةَ هَالِكَ . وَرَدَّ قُصَّادَهُ عَلَى عَقِبِهِمْ ، وَقَصَدَ التَّوَجُّهَ فِي ذَنبِهِمْ ، فَتَجَهَّزَ وَسَارَ ، بِعَسْكَرِ جَرَّارٍ ، إِلَى صُوبِ التَّنَّارِ ، وَأَوْصَلَ السَّيْرَ ، وَسَابَقَ الطَّيْرَ ، وَأَرَادَ أَنْ يَسْبِقَ الْخَيْرَ ، وَيَكْسِبَ الشَّرَّ ، وَيَرْيَهُمْ عَيْنَ الْعَلَقِ قَبْلَ الْآخَرِ ، فَأَلَوَى مِنَ الْعِرَاقِ ، وَسَارَ وَسَاقَ ، فَقَطَعَ مَمَالِكَ خِرَاسَانَ ، وَوَلَايَاتِهَا .

^(١٦٨) تركستان : اسم جامع لكل بلاد الترك قديماً .

^(١٦٩) كاشغر : من أشهر مدن تركستان .

^(١٧٠) بلاغسون : من أكبر مدن تركستان .

^(١٧١) رئيس البعثة الدبلوماسية بتعييننا المعاصر .

النهر وتركستان ، وهجم بذلك البحر الزخار ، في تلك المهاميه والقيفار ، فوصل إلى حشم في بيوت ، وهم آمنون في بسكون وسكوت ، ليس فيهم غير نساء وصبيان ، ومواشي وبعران ، رجالهم غائبة ، وأمورهم بواسطة الأمن سائبة ، وكانت رجالهم توجهت لأخذ النار ، من بعض البتار ، بواسطة عدوان ، وقَعَ بينهم وبين كونجلك خان ، فقاتلوهم وكسروهم ، ونهبوا أموالهم وهصروهم . ففي غيبتهم ، وصل السلطان إلى بيوتهم ، وفي أمثهم وسكونهم ، وليس فيهم إلا الحریم والأطفال ، والمواشي والأقتال ، ولا يؤتة إليهم ، ولا يعول عليهم ، فاستولى عليهم ونهبهم ، وسلبهم عيشتهم وسلبهم^(١٧٢) ، وأمر العساكر فنهبهم وأسروهم ، وفرقوهم وكسروهم ، وهم الجُم الغفير ، والعند الكثير ، والمال الغزير . ورجع السلطان من فوره ، وابتدأ في حوره بعد كوره^(١٧٣) ، وتصور أنه أعنى وأنكى ، وأنه أضحك ولياً وعدواً أبكى ، فما هو إلا وُضِع على القُرُح كبة ، وداس ذنب الحية .

ثم رجع التار ، وراوا ما حل بأهلهم من بوار ، وأنهم أخرجوا من ديارهم وأولادهم ، ونكبوا في طريقهم وبلاذهم ، وأن نساءهم أسيرت ، وصفقتهم خسرت ، فما وف نصرتهم بكسرتهم^(١٧٤) ، ولا قامت فرحتهم بحسرتهم ، التهبوا واضطربوا واصطلموا . وأخذتهم الحمية ، وعصبتهم العصبية ، وتنادوا بالعارات ، وطلب النار ، وتناخى منهم حمة الحقائق ، وكمة المضايق ، وتعبوا في الحال ، آثار الرجال ، من غير إهمال . ولا إهمال . وسلکوا الآثار ، لأخذ النار ، وأكبوا كالبرق الخاطف ، وزعقوا كالرعيد القاصف ، واندفعوا كالريح العاصف ، واندفقوا

(١٧٢) سلبهم : سلب ما معهم من ثياب وأموال وجواهر .

(١٧٣) حوره بعد كوره : نقص بعد زيادة ، وخسرت بعد ربح . وهزيمة بعد نصر . وعسر بعد يسر .

(١٧٤) ما وف نصرة جنكيز خان على كوجلك خان ، بهزيمتهم أمام السلطان خوارزم شاه ، فعادلت : نصرت بهزيمته في آن .

كالسهم الناقف^(١٧٦) ، ودهموا كاللّيل المدرك ، وهجموا كالسيل المهلك ، فأدركوا عساكره ، بشرور نائرة ، ومراحل صدور بالضعاف فائرة ، فلم يشعروا إلاّ والعدو المضر ، غشيه كالقضاء الميرم ، فألوت عساكره وقابلت ، واستعدت وقاتلت ، والتقت الرجال بالرجال ، وضاعت ميادين الجال ، واستمرت ضروب الحرب بينهم سجال ، وتناولت سهام الموت لقصر الآجال ، وتهللت ثنانيا المنايا لبكاء السيوف ، وتبسّمت نفور الرزايا لفتوح الختوف ، واستمرت ذبم السهام من غمام القتام ، على رياض الصدور تهمي ، ولوامع بروق السيوف ، على قمم تلك الصفوف ، بعد الوابل الوشي^(١٧٦) ، بالصواعق ترمي ، ثم انتقلوا من معاشقة الراشقة ، إلى مراشقة العانقة ، ومن مكالمة^(١٧٧) المضاربة ، إلى ملاكمة الملاية^(١٧٨) ، ومن مخادعة المقارعة ، إلى مسارعة للمصارعة ، وامتدت بهم الحال ، في هذا القتال والجدال ، ثلاثة أيام مع الليال ، لا يسأمون الطعن والضرب ، ولا يملون مباشرة الحراب والحرب ، إلى أن جرى من الدماء طوفان ، وكاد يظهر سير كل من عليها فإن . كل ذلك وكتب البيض والسمر ، يستوفي من أقلام الخط في صحائف الصفائح مستوردات العمر ، ولم يُسمع بمثل هذا القتال ، ولا بتظير هذا الضراب والنضال ، في سالف الأزمنة والأعصر الخوال ، وما أمكن تولي إحدى الطائفتين ، ولا نكوص جهة من الجهتين ، أمّا طائفة المسلمين ، فلحمية الدين ، ولوّ ولّوا الأدبار ، لما أثبتت التار ، لبعد الديار ، وصعوبة القفار ، منهم نافع نار . وأمّا الكفار فللغيرة على ذوات الأستار ، واستخلاص الأطفال والصغار ، من قبس الذل

(١٧٦) يقال نقف السهم رأسه ، أى أصابه حتى خرج دماغه بعد أن شقّه شقا كالسيف .

(١٧٧) الوشي : مطر الربيع .

(١٧٨) المكالمة : الجروح .

(١٧٩) الملاية : يقال تلبى الرجلان أخذ كل منهما بلبه (طوق) صاحبه ، ومنها قولهم : أخذ بتلابيه .

والصَّغَار ، وِرْقُ الإسَار ، فصارتُ الخضراءُ غبراء ، والغبراءُ حمراء ، والصلحراءُ بحرا ، والقَتْلَى تَلًا ، والجَرْحَى تَرْحَى ، ولم يَبْطِطْهُمْ عن استيفاءِ القتال ، غيرُ انْخِلالِ الأعضاءِ والكَلَالِ ، فانفصلوا وما انفصلوا ، وانقطعُوا بعدما اتصلُوا ، وحلُّوا بعد ما كلُّوا ، وتراجعَ كلُّ من صاحبه ، بعد ذوبانِ قلبه وقالبه ، واستفراغِ جهده ؛ بما وصلت إليه غايةُ كدِّه ، ثم استوفى ناظرُ القضاء ، ما أوردَهُ عاملُ الفناء ، من سَهْمِ المنون ، إلى ديونِ بَرْزَخٍ إلى يومٍ يُعْشُونَ ، من أرواحِ الشهداءِ الأبرار ، وأنفسِ الأشقياءِ الكفار ، الوارد من تلكِ المعركة ، الساكن من حركاتِ هاتيكِ التهلكة ، فكان من المسلمين عشرون ألفًا ، ومن الكفارِ كذا وكذا ضعفا ، غير أنه ، لم يُمكنُ حَصْرَهُمْ ، ولم يُعرَفْ قَدْرُهُمْ .

فلَمَّا كانت الليلةُ الرابعة ، وهي الليلةُ الفارقةُ القاطعة ، أُوْقِدَ كلُّ من الفريقينِ في منزله النار ، وأكثرَ من القبائلِ في المنازلِ والآثار ، وتركَها وسار ، فوصلَ السلطان ، من بلادِ تركستان ، وقطعَ سَبْحُون ونهرَ خُجَنْد ، ووصلَ إلى بُخَارَى وسَمَرْقَنْد ، وشرعَ في تحصينِ البلادِ والقلاع ، والاحتفاظِ بمدنِ الممالكِ عن الضياع ، وقد سكنَ أَلَمُ فَوادِهِ ، ونهبَ القلقُ والأرقُ رقادَهُ ، وعِلِمَ المسلمون أَنَّهُ لا طاقةَ لَهُم بالتتار ، فحافُوا حلولَ البوار ، ونزولَ الدمار ، وتيقنوا خرابَ الديار ، لأنَّ السلطانَ عاجزٌ ، ولا بُدَّ من قبومِ بلاءٍ ناجز . وقالوا : إذا كان هذا الخور ، من شزيمةٍ قليلةٍ من التتر ، في طرفٍ من أطرافِ بلادِهِ ، لا فيهم أحدٌ معتبرٌ من أجناده ، ولا رئيسٌ يُشار إليه من أولادِهِ ، ولا ذَرَى ، ولا عِلْمٌ بما جرى ، فكيف إذا دَهَمَ بِطَائِمَتِهِ الكبرى ، وأحشادِ جيوشه العظمى ، فترك خوارزم شاه ببخارى عشرين ألفَ مقاتل ، وفي سمرقند خمسين ألفَ مناضل ، وقرَّرَ معهم أَنَّهُ سيجمُ الجنود ، ويستجيشُ أبطالَ المسلمين ويعود ، وتوجَّهَ بنبات عزم ، وإضاعة حزم ،

إلى سرير ملكه خوارزم ، ثم انتقل إلى خراسان ، وحيّم بضواحي بلخ^(١٧٩) في مكان ، وأقام رخيّ البال كان الشيء ما كان ، ثم لازال يضمحلّ ويذوب ، ويحلّ به ما يحلّه من نوائب الخطوب ، حتى انتقل إلى جوار الرحمن ، في أطراف طبرستان^(١٨٠) ، في سنة سبع عشرة وستمائة ، وكانت ولايته في العشرين من شوال سنة ست وتسعين وخمسمائة .

وكان ملكاً عظيماً ، وسلطاناً جسيماً ، ذا صولة قاهرة ، ودولة باهرة ، وجولة أرقدت الملوك بالساهرة ، فاضلاً فقيها ، عالماً نبيها ، اضمحلّ بأدنى حركة ملكه ، وغرق في بحر الفناء بعد الطغيان فلّكه ، وركن إلى الخطأ فوقّ فيه ، وخانتة عساكره ومخالوه^(١٨١) و "دود الخلّ منه وفيه" . وكان في خزائنه عشرة آلاف دينار ، ومن أجناس الأقمشة والأسلحة ما لا يُحصيه إلا الواحد القهار ، وكان فيها ألف جبل من التماش الأطلس ، وأضعاف ذلك من نفيس النفاس وأنفس ، ومن الخيل المسوّمة عشرون ألف جنّيب^(١٨٢) ، ومن الممالك الملوك عشرة آلاف كلّ له في دار الملك ربع حصيب ، وأوفر حظّ ونصيب ، فما أفاد ذلك ذرة ، بل نيشوا بعد موته قبره ، وقطعوا رأسه ، وفجّعوا به ناسه ، فسبحان من لا يزول سلطانه ، وعزّ وعلا من لا يُذلّ شأنه :

فَمَا كَفَّ دُو كَفَّ لَهُ وَاللَّهِ الرَّدَى وَلَا قَالِ بِالْأَسْوَالِ غَنَةَ جِمَامَةِ
وَلَا يَلِكُ ، كَلَا ، وَلَا تُلْكُ حِمَى حَمَى مَلِكُهُ لِمَا غَرَاهُ أَنْهَادُهُ

(١٧٩) بلخ : من أشهر مدن خراسان (في أفغانستان اليوم) .

(١٨٠) طبرستان : مقاطعة في إيران على بحر قزوين ، وقاعدتها مدينة آمل .

(١٨١) مخلوه : متلبو أموره ومعهدو شؤونه العسكرية .

(١٨٢) جنّيب : الخيل المدربة .

وبسطُ المقول ، فيه شرحٌ يطول . وأما أمرُ الطاغية ، صاحب الفتنِ الباغية ، جنكزخان ، لما وصل قُصَّادُه^(١٨٦) من عند السلطان ، بعد الفناء والشدة ، لحاهم مَحْلُوقَةٌ وُجُوهُهُم مُسْوَدَّةٌ ، وقد قُتِلَ رِئِيسُهُم ، وخلا من نُقِلَ مرادهم كيُسُهم ، ذهب حِفَافُهُ ، والتهب شِوَاهُهُ ، وطُمَّتْ بِحَارُ كُفْرِهِ وتَلَاطَمَت ، وتَوَعَّزَتْ أَطْوَادُ شِرْكِهِ وتَصَادَمَت ، وبينما هو يرغى ويزيد ويقوم من غضبه ويقعد ، إذ جاءه الخير الثالث ، وهو شرُّ الحوادث ، إذ فيه خَيْرٌ مَن قُتِلَ مِنَ الْكُفَّارِ ، وانتقل من دارِ الخسار ، إلى دارِ البوار ، جَهَنَّمُ يَصْلُونَهَا وبِئْسَ الْقَرَارُ ، فَأَعْمَلَ فِي قَلْبِهِ نَصْلَهُ ، وكان أولاً قد زاد على قُرْجِهِ قُرْجٌ مِثْلُهُ ، ثم كان غيرُ هذا الْقُرْجِ ، مِلْحاً مَلُزُوراً على جُحْرٍ ، فقامت قِيَامَتُهُ ، وتَوَجَّحَتْ بِالْحَزَنِ قَامَتُهُ ، وَوَدَّ لَوْ أَحْرَقَ الْكُوفُ بِأَنْفَاسِهِ ، وَهَدَمَ أَسَاسَ الْمَكَانِ بِفَاسِ بَاسِهِ . ثم تَرَوَى وافتكر ، وتهوى من حرِّ هذا الشرر ، ثم قَصَدَ مَذْهَبَ الْإِعْتِزَالِ ، وانزوى عن جماعته في مكان خال ، ودخل إلى مكان خراب ، وَعَقَّرَ وَجْهَهُ فِي التَّوَابِ ، وتَضَرَّعَ إِلَى اللَّهِ الْحَلِيمِ ، وقال : يَا خَالِقُ يَا قَدِيمُ ، أَنَا أَرَدْتُ أَنْ أَعْمَرَ بِلَادَكَ ، وَأَنْعَشَ عِبَادَكَ ، فَظَلَمْتُهُمْ يَا إِلَاهَ ، عَبْدُكَ حَوَارِزَمِ شَاهُ ، وَتَعَدَّى عَلَيَّ ، وَكُرِّرَ الْإِسَاءَةَ إِلَيَّ ، فَاثْتَصَرْتُ لِي مِنْهُمْ وَاتَّقَسَمْتُ ، فإِنَّكَ خَيْرٌ مَن كَسِرَ وَعَوَّنَ مَن ظَلِمَ ، واستمرَّ على هذه الحال ، ثلاثةَ أَيَّامٍ وَلَيَالٍ ، لَا يَأْكُلُ وَلَا يَشْرَبُ ، وَلَا يَفْتَرِّعُ عَنِ الْبُضْرَعِ وَالطَّلَبِ ، يَمْرَغُ رَأْسَهُ وَوَجْهَهُ فِي الثَّرَى ، ويقصد فيما يرومه ربُّ الورى ، وقد قيل :

تَضَرَّعَ جَنْكِزْخَانٌ فِي سَاعَةٍ	وَأَخْلَصَ فِيمَا رَأَى وَهُوَ مُشْرِكٌ
فَمَا خَابَ فِيمَا رَأَى مِنْ قَسَادِهِ	وَمَا زَالَ يَعْشُو فِي الْأَلَامِ وَتَسْنُوكِ
فَمَا بَالَ مَنْ لَّهُ طَوْلُ حَيَاتِهِ	يُوحِدُ بِالْإِخْلَاصِ هَلْ هُوَ يَهْلِكُ

ثم نهضَ نهضةً أنام فيها الأنام ، وقام قومةً أقام بها ساعاتِ القيام ، فتوجّه من مشرّكي التار ، وعساكرِ الكفّار ، بالبحارِ الطامية ، والأمطارِ الهامية ، وجبالِ النيرانِ الحامية ، في شهورِ سنةٍ خمسَ عشرةَ وستمية ، ومَشَوْا على ممالكِ الإسلام ، وسارُوا على بسِيطِ العالمِ سِرَ الغَمَام ، وأرادُوا إطفاءَ نورِ الإيمانِ من إشراكِهِم بظلام ، فوصلُوا إلى البلاد ، وهي جَنَّةُ الارتداد ، آمنةٌ مُطمئنةٌ ، ساكنةٌ مُستكنةٌ ، وليس لها مانعٌ ولا مانع ، ولا لهم عنها دافع ، ولا مدافع ، ولا بها حامٍ ولا بحام ، ولا سامٍ ولا مسام ، فاحتلُّوا على "جند" (١٨٤) وقراها ، ولولاياتها وَمَا والأها ، رابحٌ صفرٍ ، عامٌ ستةَ عشرَ ، وأظهروا فيها علاماتِ الخسر ، فادهشوا وَهَلَّهَا (١٨٥) ، وسبكوا أهلها ، ودكَّروا جبلها ، وملأوا بجبالِ القتلى سهلها ، فقتلوا الخاصَّ والعام ، ومدَّوا إلى ذخائرها النَّهَبَ العام ، فأراحَ بها رَجُلَهُ وَخَيْلَهُ ، وأحاطَ بها ثُبُورَهُ وَوَيْلَهُ ، واستمروا في نهبها ستَ عشرةَ ليلة . ثم تنقلُوا عن "جند" إلى ولايات "أند كان وفناكت وخجند" (١٨٦) فأخذوها وقتلوا ، وفعلُوا كما كانوا فعلُوا ، ثم إلى بلدة "مرغنيان" (١٨٧) وكانت دَارَ مُلْكٍ لِيَلِكِ خان ، ثم إلى أطرافِ تركستان ، ومنها "سرام وتلش كند" (١٨٨) وباقي البلدان ، ثم إلى "تسف وأنزار وسفناق" (١٨٩) وما من أمهات البلاد في تلك الآفاق :

لَمَشَوْا عَلَى سَهْلِ الْبِلَادِ وَوَعَرَهَا مَشَى الْجَوَادِ عَلَى الْقَصَبِ (١٩٠) الْأَخْضَرِ

(١٨٤) جند : من مدن تركستان .

(١٨٥) وهلها : أوائل أهلها الأمنين ، قبل هروب سائر السكان .

(١٨٦) ولايات أند كان وفناكت وخجند : من إقليم فرغانة .

(١٨٧) مرغنيان : من مدن فرغانة .

(١٨٨) سرام وتلش كند : جميعها من فرغانة ، ببلاد ما وراء النهر .

(١٨٩) تسف وأنزار وسفناق : من تغور فرغانة ، ببلاد ما وراء النهر .

(١٩٠) القصيل : الزرع الأخضر الذي يقطع لعلف الماشية .

فَكَانَهُمْ مُوسَى عَلَى شَعْرٍ مَشَتْ أَوْ شَعْلَةً نَارًا أَهْوَا فَتَعَلَّقَتْ
 أَوْ مِنْجَلٌ قَوْقُ الْحَصِيدِ الْأَصْفَرِ قَوْقُ الصَّعِيدِ عَلَى الْهَيْثِيمِ الْأَغْبَرِ
 فَكُلُّ مَنْ أَطَاعَهُمْ ، وَقَصَدَ أَتْبَاعَهُمْ ، صَارَ مِنْ جِلْدَتِهِمْ ، وَدَخَلَ فِي عِدَّتِهِمْ ، وَمَنْ
 عَصَى أَوْ تَوَقَّفَ ، أَوْ خَالَفَ أَوْ تَخَلَّفَ ، سَقَوْهُ كَأْسَ الدَّمَارِ ، وَأَحْلَوْهُ وَقَوْمَهُ دَارَ
 الْبَوَارِ ، وَأَسْرَوْا حَرِيمَهُ وَأَوْلَادَهُ ، وَنَهَبُوا طَارِفَهُ وَتِلَادَهُ .

ثم إن تلك الدواهي المصنمية ، يوم الثلاثاء رابع المحرم سنة سبع عشرة وستمية ،
 وصلوا إلى بخارى^(١٩١) ، بلدة فضلها لا يجارى ، قبة الإيمان ، وكُرسي ملوك بني
 سامان ، مجمع العلماء والعباد ، والصلحاء والزهاد ، ومنبع المحققين من الفقهاء
 الأجداد ، والمدققين من النبهاء والأجداد ، وفيها من الأكابر والأشراف وأوساط
 الأمثال والأطراف ، الجُم الغفير ، والطُم الكثير . فلما رأى العساكر السلطانية ،
 والجيش الخوارزم شاهية ، الذين كان أرضهم السلطان ، لحفظ البلدة من طواغيت
 الحداث ، وهم عشرون ألفا ، أنَّ البلاء زحف إليهم زحفا ، وأن كسرتهم منهم لا
 تخفى ، وأن سيّل الويل حطم ، وموج بحر الدواهي التطم ، ومن لم يدرك من الفرق
 نفسه ارتطم ، شَمَرُوا الذيل ، وخرجوا تحت الليل ، وقصدوا جيحون^(١٩٢) ،
 والعبور إلى خراسان^(١٩٣) ، ومُقَلَّتْهُمْ من أمراء السلطان : كورخان ، وسنخ خان ،
 وحيد النوري وكوجلي خان ، فبينما على نهر جيحون قاصدين العبور ، صادفتهم
 طلائع جنكركخان الكفور ، فوضعوا السلاح فيهم ، ومَحَوْهُمْ عَنْ بَكْرَةِ أَبِيهِمْ ، فَمَا

^(١٩١) بخارى : من أعظم مدن ما وراء النهر (اليوم مدينة روسية في أوزبكستان) .

^(١٩٢) جيحون : نهر في جنوب غربي روسيا ، يترى مياهه تاجيكستان وتركمانستان وأوزبكستان .

^(١٩٣) خراسان : منطقة قديمة في آسيا شمالي إيران وجنوبي بحري نهر جيحون ، من أشهر مدنها نيسابور وهرات
 وبلخ وجوين وطوس ومرو الرود ومرو وسرخس وطالقان ، وما يتخلل ذلك من القرى والبلاد التي دون
 نهر جيحون . وتقع على الحدود الروسية الأفغانية .

أبقوا منهم عينا ولا أثرا ، ولا سمع لهم أحد خيرا ، فوهي أمر البلد ، إذ لم يبق لهم مدد ، فطلبوا الأمان ، وأرسلوا لذلك القاضي بدر الدين بن قاضي خان ، فأجابهم إلى ذلك وأناب ، فاطمأنوا وفتحوا الأبواب ، فدخلوا المدينة يرفلون ، وهم من كل حديد ينسلون ، فعصى بقية العساكر في القلعة ، وتصوّرُوا أن يكون لهم منه منعة ، ففي الحال ، أمر الرجال ، بطم الخندق^(١٩) ، بكل ما وجدوا جلا أو دقا ، فأتوا بنفائس الأقمشة ، والذخائر المدهشة ، والكتب الربعات ، والمصاحف الشريفة والختمات ، وطرحوها في الخندق ، ومشي العسكر عليها وتسلق ، ونقبوا النقب ، وأنفلوا الثقوب ، وكان قد نادى بالأمان ، للقاصي والدنان ، فعجزت القلعة ، وذهب ما بها من منعة ، وكان فيها فتنة ، نحو من أربعمائة ، فباشروا الحرب دوما ، نحو اثني عشر يوما ، فأخذوا غنوة بالإنقاب ، وفتح لهم من جهة باب ، فقتلوا من بها عن آخرهم ، واستولوا على باطنهم وظاهرهم ، ثم مدوا أيديهم إلى المختبرات ، وفجروا ظاهرا بالمسترات ، وجعل الناس ينظرون ويكون ، وهم يفتكرون ويكون ، لا يستطيعون دفعا ، ولا يملكون ضرا ولا نفعا ، فاجتمع من أئمة الدين ، ومن أعلام العلماء المهتدين ، ومن لم يرض بعمل المفسدين ، جماعة غاروا ، وثاروا وفاروا ، وانضموا إلى العلامة القاضي صدر الدين قاضي خان ، وأولاده السادة القادة الأعيان ، والحاكم الشهيد ، الإمام العالم السعيد ، والإمام ركن الدين إمام زاده ، واختاروا الموت على الشهادة ، فحملوا على الفتنة الطاغية ، والطائفة الكافرة الباغية ، وقتلوا حتى قتلوا ، وإلى جوار الله مقبلين انتقلوا ، فاستشهدوا عن آخرهم ، ولحق أصاغرهم بأكابرهم .

(١٩) طم الخندق : غمره وغطاه .

ودخل جنكرخان إلى المدينة ، وطافَ بها على هيئةٍ وسكينةٍ ، حتى انتهى إلى باب الجامع ، مكانَ نَزْوِ ومَوْضِعِ رايح ، وحلَّ شريفو ومعيدٍ واسع ، ولم يكنْ لذلك البلدِ الكبير ، والجَمُّ الغفير ، والجمعُ الكثير ، والمصنرِ الواسع ، من الجوامع سوى جامع واحد ، يجمع الصادرَ والوارد ، ويسع ما شاء الله من الأمم ، وهذا على منهج الإمام الأعظم ، وهكذا كلُّ أمصارِ الخنفية ، في الممالك الشرقية ، والممالك الهندية ، وغالب البلاد التركية . فقال جنكرخان : هذا بيتُ السلطان ؟ فقالوا : بيت الرحمن ، ومأوى عبادة العباد ، والعلماء والزهاد ، وذوي الطاعة والاجتهاد . فقال : إنَّ أولَى ما أقمنا أفراحتنا ، في بيتٍ مَنْ خَلَقَ أرواحنا ، ورزَقَ أشباحنا ، ثم ألوى إليه ، وأقبلَ عليه ، ونزل عن دابته ، ودخل الجامعَ مع جماعته . ثم دعا بأمرائه ، وكبراء جنده وزعمائه ، واستدعى الخُمور ، والطبولَ والزمور ، وهشَّ إلى الكفارِ وعظَّمهم ، وبش فرحاً واحترَمهم ، فسَجَدَ له منهم الملوك ، وضربوا له الجُنُوك ، وعرفوا حقَّه ورِعْوًا ، ورفعوا بالتناء صوتَهم ودَعْوًا ، فأذِنَ لهم بالجلوس ، وأن تَنَازَرُ عليهم الكُوروس ، فجلس كلُّ في مكانه ، بين أضرابه وإخوانه ، وقام بعضٌ في مقامه ، في موقفٍ حدَّه واحتشامه ، فتصدَّر في مجالسِ العلم والأذكار ، ومحارِبِ الصلاةِ الكَفَرَةِ الفُجَّار ، ورؤوسُ المشركين من المغل والتار ، واستبَدَلَت محافلُ العلم والتدريس ، بمحافلِ البُشْرُك والتنجيس . ثم أحضروا العلماء والأشراف والكبراء ، وسادات الأنام ، ورؤساء الخواصِّ والعوام ، وأنزلوا بهم الثُبُورَ والوَيْل ، واحتفظوا بهم واستحفظوهم الخَيْل ، وصارت الناسُ حَيَارَى ، سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى ، وأخذتهم بهتةٌ إذ أتاهم العذابُ بهتةً ، ولم يكنْ بين رحيلِ السلطان ، وبين هجومِ هذا الطوفان ، غيرَ خمسةِ أشهرٍ وأيام ، ساروا فيها سَيْرَ الغمام ، وهجموا على العالمِ هجومَ الظلام ، وكأَنَّ الناسَ كانوا نياما ، ورأوا في منامهم أحلاما ، فلم يوقظْهم من هذا الرقاد ، سوى إبراقِ البلياء بالأرعاد ، فانسَدَّ عليهم

طريقُ الخلاص ، وعانهم المذد في شِدَّةِ الاقتصاص ، وتصادوا ولات حين مناص ، إذ
فارقهم العسكر ، وهم في حال المضطر . وكان من جملة أولئك الأعيان ، شخص
ولي ، يدعى السيّد الشريف جلال الدين عليّ ، بن حسن الزيدي ، وهو المقدّم
والمقتدى ، والمسلك إلى طريق الهدى ، وأعلى سادات ما وراء النهر ، ولتوحه
ساداتها بمنزلة الثمر والزهر ، قد قبض عليه ، وربطوا إلى عنقه يديه . ثم استنظروه
مراكبهم^(١١٥) ، وأنشبوها فيه غاليهم ، وهو واقف بباب الجامع ، في هيئة الذليل
الخاضع ، فرأى الإمام الهمام ، البحر الطام ، علّم العلماء الأعلام ، أفضل علماء
عصره ، وأنبأ فقهاء دهره ، الشيخ ركن الدين ابن الإمام ، بؤهما الله تعالى دار
السلام ، وهو في مثل حاله ، متسربل بسر بال نكاله . فقال أيها الإمام المفضل : ما
هذه الأحوال ؟ ثم أنشد معنى هذا المقال :

أَرَى حَالَةَ بَدَلْتُ^(١١٦) لِسَانِي قَلْبِي لِي طَرِيقٌ إِلَى آلِي أَفْوَةٌ بِلَفْظَةٍ
أَعْضُ مَا كَفَيْ وَأَسْعَكَ مُقْلِي فِي السُّومِ هَذَا أَمْ آزَاةٌ بِبِفْظَةٍ

فاجاب الإمام : ما هذا محلّ الكلام ، كن عبث الإرادة ، وأتبع ما أُراده .

واستمروا يشربون الخمر ، على أصوات الزمور ، ويضربون الطبول ،
ويترقصون رقص التتار والمغول . ثم صعد المنبر ابن جتكرخان الأكبر ، واسمه
توشي^(١١٧) خان ، وتكلّم بكفر وكفران ، ثم غنى ورقص ، ودعا لأبيه ونكص .
ثم صعد بعده أبوه ، وتكلّم بكلام سمعه ، ودعا بالخمر وشرب ، ثم غنى وطرب .
ثم قال : أيها الرجال ، إن خيّلنا هي رأس المال ، وقد رعيتم الوهد واليفاع ،
وحلقتُم شعور الكلا من قيم البقاع ، وقد شبعتم فلا تنسوا الجياح ، ألا فاشبعوا

^(١١٥) أي جعلوا هذا العالم الإمام الجليل حارسا على أحدثهم تحقيراً لشأنه .

^(١١٦) بدلت : غلبت ، فالت .

^(١١٧) أو جوشي ، كما ورد في المصادر التاريخية . وقد توفي في حياة والده جتكرخان .

خَيْلَكُمْ وَلَا تَحْمِلُوهَا نَيْلَكُمْ ، وَحَيْثُ رَعَيْتُمُ الْخُضَيْمَ ^(١٩٨) ، فَابْغُوا لَهَا الْقُضَيْمَ ^(١٩٩) ،
وَامْتَلُوا أَمْرَ سُلْطَانِكُمْ ، تَخْطُوا مِنْهُ بِأَمَانِكُمْ . فَهَضَبُوا قِيَامًا ، وَامْتَلُوا مَرْسُومَهُ
مَرَامًا ، وَتَهَارَجُوا كَالْحَمِيرِ ، وَابْتَدَرُوا طَلِبَ الْقَمْحِ وَالشَّعِيرِ . ثُمَّ طَفَى وَتَكَبَّرَ ،
وَبَغَى وَتَجَبَّرَ ، وَنَزَلَ عَنِ الْمُنِيرِ ، فَلَمْ يَكُنْ بِأَسْرَعَ مِنْ إِيْتَانِهِمْ بِالْحُبُوبِ ، وَالْقُضَيْمِ
الْمَطْلُوبِ ، وَادْخَلُوا الْخَيْلَ إِلَى الْجَمَاعِ ، وَطَلَبُوا لَهَا مَرَابِطَ وَمَوَاضِعَ . ثُمَّ أَفْرَعُوا
عِزَائِنَ الْمُصْحَاحِ وَالْحَتَمَاتِ ، وَظَهَرُوا الْكُتُبَ وَأَوْعِيَةَ الرُّبَعَاتِ ، وَصَبُّوا فِيهَا
الشَّعِيرَ ، وَأَطْعَمُوا فِيهَا الْخَيْلَ وَالْبَغَالَ وَالْحَمِيرَ ، فَتِلْدَتِ الْكُتُبُ الْمُنِيفَةُ ، وَالْمُصْحَاحُ
الشَّرِيفَةُ ، وَالرُّبَعَاتُ الْعَظُمَةُ ، وَالْحَتَمَاتُ الْمَكْرَمَةُ ، تَحْتَ السَّنَابِكِ وَالْخَوَافِرِ ،
وَمَوَاطِئِ أَقْدَامِ كُلِّ كَافِرٍ ، وَصَارَتْ أَبْحَرُ الْقَاذِرَاتِ وَالْخُمُورِ ، عَلَى تِلْكَ النِّفَائِسِ
وَالذَّخَائِرِ تَمُورُ . ثُمَّ إِنَّهُ خَرَجَ مِنَ الْبَلَدِ ، وَأَمَرَ أَنْ لَا يُتْرَكَ فِي الْبَلَدِ أَحَدٌ ، بَلْ
يُخْرِجُونَهُ إِلَى الْمَصَلَّى ، وَوَلَّى حِفْظَهُمْ مَنْ كَفَرَ وَتَوَلَّى ، وَمَنْ تَأَخَّرَ قَتْلُوهُ ،
وَبَتَكُوهُ ^(٢٠٠) وَبَتْلُوهُ ^(٢٠١) ، فَخَرَجُوا كَالْجَرَادِ ، وَاتَّشَرُوا عَلَى الْوَهَادِ ، وَاجْتَمَعُوا فِي
الْمَصَلَّى ، ثُمَّ عَلَى الْمُنِيرِ تَعَلَّى ، وَخَطَبَ خُطْبَةً تَرْكِيَّةً ، كَافِرِيَّةً مُشْرِكِيَّةً ، مِنْهَا
أَنْكُمْ ^(٢٠٢) رَكِبْتُمْ عِظَائِمَ ، وَأَتَيْتُمْ مَائِمَ وَجَرَائِمَ ، فَتَقَدَّمُ رُكْبُكُمْ إِلَيْكُمْ ، أَنْ سَلَّطَنِي
عَلَيْكُمْ ، وَهَذِهِ الْأَوْزَارُ ، إِنَّمَا جَنَاهَا مِنْكُمْ الْكِبَارُ ، فَلَأُجْلِيَ هَذَا عَمَّ الْبِلَاءِ ، وَذَهَبَ
بِجَرْمَةِ الْكِبَرَاءِ ، الْأَصَاغِرُ وَالضَّعَفَاءُ . ثُمَّ ضَبَّطَ أَسْمَاءَ التَّجَارِ ، وَاسْتَخْلَصَ مَا عَنْدهُمْ

^(١٩٨) الخضيم : التبت الأخضر الرطب .

^(١٩٩) القضم : الحبوب كالقمح والشعير ونحوهما من علف الدواب .

^(٢٠٠) بتكوه : قطعه .

^(٢٠١) بتلوه : قطعه .

^(٢٠٢) الخطاب هنا موجه إلى المسلمين من أهل المدينة المفتوحة .

من درهم ودينار ، وقال : هذا ثمن ما لي من نقدٍ وأعيان ، الذي كان مَنَحَكُمُوهُ السلطان .

فلما استخلص الأموال ، أمرَ بقتل الرجال ، وأسَرِ النساءِ والأطفال ، والنهبِ العام ، لسائر الأغنام ، ومَنَ أَخَذَ شيئاً فهو له ، لا يقطعُ أحدٌ سبيله ، ثم أمرَ بهدمَ البلدِ والإحراق وإعدامِ عينها على الإطلاق ، فمهما قال فعلوه ، وكلُّ ما رَسَمَ به امتثلوه ، فساووا بالبلدِ الأرض ، واستوفوا أعمارَ أهلها بالفرضِ والقرض ، فلم يبقَ منهم ديار ، ولم ينجُ من تلك النارِ العظيمةِ نافعٌ نار . وقيل إنه نجا من هذه الواقعة ، رجل باقعة ، فوصلَ إلى خراسان ، فسأله عن هذا الشأن ، كيف كان ؟ فقال لهم بذلك اللسان ، ما صورته :

آمدند وکشدند وسوختند وکشتند وبردند ورفتند

يعني :

هجموا وهدموا وأحرقوا وأرهبوا ونهبوا وذهبوا

ف قيل : لم يوجد في الفارسي في هذا المعنى أحسن ، من هذه الألفاظ ولا أرصن ، ولا أوجز ولا أمتن ، ثم أمرَ الجند ، بالتوجهِ إلى سمرقند^(٢٠٣) ، فتوجهوا بالانتقال ، من الأموال والأسرى من النساء والأطفال مشاة حفاة ، أذلاء عراة ، فلم يتوقف ، كلُّ أعتمى^(٢٠٤) أعقف^(٢٠٥) ، وكافرٍ أغلف ، في ضربِ رقبةٍ مَنَ أعيانٍ أو تَوَقَّفَ ، فوصلوا إليها ، وأخنوا عليها ، وفيها من العساكرِ الأكفا ، مائة ألفٍ وعشرون ألفاً ، سبعون من أهل البلد ، وخمسون من المرصدين للمد^(٢٠٦) ، فتجهز

(٢٠٣) سمرقند : تقع شمالي نهر جيحون بتركستان ، وهي من أكبر مدنها .

(٢٠٤) أعتمى : كل كافر غليظ شديد ، لا رحمة عنده ولا شفقة .

(٢٠٥) الأعقف : ذو قرون معقوفة .

(٢٠٦) يعني : الجيش الرسمي .

عسكرُ البلد للقاء ، وخرجوا من البلد للملتقى ، فكَمِنَ لهم التَّسَارُّ من اليمين واليسار ، في رَوَابِي وتلالٍ تسمى بالإحصار ، فَنَافَشتَهُمْ من عَسَاكِرِ الكِفَارِ شِرْذِمَةٌ ، ثم وَلَّتْ أَمَامَهُمْ مَنَهْزِمَةٌ ، فركب البلديون أعقابهم ، وداسوا أذنانهم ، إلى أن أبعدوا عن البلد ، وانقطع عن البلديين المَدَدُ^(٢٠٧) ، فخرج الكمينُ من خلفهم ، لقطع رجلٍ مَدَدِهِمْ وكَفَّهُمْ ، ورجع عليهم الفارون ، وأحاطَ بهم الغارون ، وتلاحقَ بهم عساكر ، لا أولَ لهم ولا آخر ، فلم يفلت منهم واحد ، ولا صدر عن حياضِ تلك الملاحمةِ وارد . .

فلما شاهد العساكرُ الخوارزمِ شاهيةً ، ما نزل بالجنودِ البلديَّةِ من داهيةٍ ورزيةً ، لم يسعهم إلَّا التَّرامِي عليهم ، والانحيازَ إليهم ، فداروا وداروا ، واللييب من دارى^(٢٠٨) ، فَوَقَّراً بذلك أنفُسَهُمْ وأهلِيَهُمْ نارا ، فلم يركنوا إليهم ، ولا اعتمدوا عليهم ، فرأوا مصلحتَهُمْ ، في سلبهم أسلحتَهُمْ ، فطلبوا منهم عُدَّتَهُمْ ، ثم فرقوا عِدَّتَهُمْ ، كما فعل تيمورُ الغدار^(٢٠٩) ، في بلادِ الرومِ بالتَّسَار ، عند كسر ذلك الخَوَّانِ ، في سنة خمس وثمانمائة "بازيد بن عثمان"^(٢١٠) ، فلم يبقَ لأهلِ البلدِ معينٌ ولا مَدَدٌ ، فاستسلموا للقبْضا ، وَجُرُّوا طَوْعاً وَكَرْهاً في ميادين الرضا ، فأحلَّ

^(٢٠٧) البلديون ، أو الجنود البلديون : الجيش الشعبي .

^(٢٠٨) دارى : استسلم ، والمعنى أن الجيش الخوارزمي الرسمي للدولة الذي كان يدافع عن سمرقند سرعاناً ما بادر بالاستسلام للمغول ، غير أن المغول لم يقبلوا ذلك إلا بعد أن سلَّم الجيش الخوارزمي أسلحته أيضاً ، ثم غدر بهم المغول بعد ذلك .. وباستسلام الجيش سقطت سمرقند في أيدي المغول ، فاستباحوها كما دتْهم ، وعاثوا فيها ذُخْماً وتُحْلاً ونهباً وتدميراً .

^(٢٠٩) تيمور : هو تيمورلنك الفاتح للمغول العتيق المعروف بتيمور الأخرج (١٣٣٦ - ١٤٠٥ م) .

^(٢١٠) بازيد عثمان : سلطان تركيا المعروف ببازيد الأول (١٣٤٧ - ١٤٠٣ م) وقد ألحق به تيمورلنك هزيمة نكراء سنة ١٤٠٢ م بعد أن تغلَّى عنه معظم جنوده وقد أسره تيمورلنك ، ويقال إنه كان يحملُه أينما ذهب في قفص من حديد ، فمات كمدأ .

بهم بَوَارَا ، وأنزل دمارا ، ففَعَلَ بسمِرقند وأهلها ما فعل بيخسارى ، ودور أسوارها ، بدلالة آثارها ، من الفراسخ اثنا عشر ، لا يعتري في ذلك اثنان من البشر ، فقيسُ ما في ذلك من الخلائق والأَمَم ، فالكلُّ برَأَهم سيفُ القلم^(٢١١) ، كما ييري السيفُ القلم .

ثم قَوِيَ العزم ، وسنَدَ الحزم ، وجهز طائفة من العساكر إلى خوارزم^(٢١٢) ، مع ولديه أحدهما المدعو بجغتاي^(٢١٣) ، الآخر المسمى بأوكتاي^(٢١٤) ، وهي تخت^(٢١٥) خوارزمشاه ، وفيها من الأَمَم ما لا يعلمه إلا الله ، معدنُ الأفاضل ، ومقطنُ الأمائل ، محطُ رجالِ أهلِ التحقيق ، ومقصدُ رجالِ الفحولِ ذوي التدقيق ، ولوفور ما بها من الرؤوس ، لم ينفردُ برياستها رئيس ، لكثرة ما بها من الناس ، لم يتعينُ لسياستهم راس ، فاتفق أكابرُها لضبط أمور المسلمين ، على تقديم شخصٍ يُدعى حَمَارَتَكِين . فبعدَ حروبٍ يطولُ شرحُها ، ويهولُ برحُها ، ويُحِبُّ قرحُها ، ويُستَحَبُّ طرَحُها ، أخذوها عنوة ، بعد ما قاسوا جفوة ، فاستصفوا أربابَ الحرف ، ومنَ تعلَّق من صنعةٍ بطرف ، فكانوا نحواً من مائة ألفٍ بيت ، أو يزيدون إن عَدَدْتَهُمْ وعدَّيت ، ثم ميزوا النساء والأطفال ، وكانوا كَعَدَدِ الحصَى والرمال ، فقرَّعُوهم على ذلك العسكرِ الثقيل ، فكفى الخفير منهم والجليل ، ثم فصلوا بالحسام

^(٢١١) القلم : القضاء المكروب .

^(٢١٢) خوارزم : عاصمة الامبراطورية الخوارزمشاهية بوسط آسيا ، بعد أن دخلها الإسلام في القرن الثامن تحت حكم السلاجقة الأتراك حتى غزاها جنكيزخان .

^(٢١٣) جغتاي : الابن الثاني لجنكيزخان (حكم سنة ٦٢٤ هـ / ١٢٢٧ م) مؤسس دولته في بلاد ما وراء النهر وشرقي تركستان (وفي بعض المصادر يكتب جغتاي) .

^(٢١٤) أوكتاي : الابن الثالث لجنكيزخان (حكم سنة ٦٢٤ هـ / ١٢٢٧ م) مؤسس دولته في منغوليا وشمال الصين .

^(٢١٥) تخت : عاصمة الامبراطورية الخوارزمشاهية ، يعني مدينة خوارزم .

المفصال ، مَذَارِعُ^(٢١٦) ذَوَاتِ^(٢١٧) ما بقي من الرجال ، أَرَادُوا حَصْرَ مَنْ قُتِلَ ،
وإِقَامَةَ عَدَدٍ مِّنْ بُتْكَ وَبُتْلٍ^(٢١٨) ، فَكَانَ جِصَّةُ كُلِّ فِتَالِكٍ قِتَالٌ ، عَلَى أَنَّ عَدَدَهُمْ أَكْثَرُ
مِنَ الْقَطْرِ وَالرِّمَالِ ، أَرْبَعَةٌ وَعَشْرِينَ مَقْتُولًا^(٢١٩) ، ثُمَّ فَعَلُوا بِالْبَلَدِ كَعَادَتِهِمُ الْأُولَى ،
فَهَدَمُوا أَسْوَارَهَا ، وَغَوَا آثَارَهَا ، وَأَجْرُوا مِنْ بَحَارِ الدَّمَاءِ أَنْهَارَهَا ، فَانْمَحَى الْعِلْمُ
وَالْعُلَمَاءُ ، وَانْدَحَى الْفُضْلُ وَالْفُضْلَاءُ ، وَاسْتُشْهِدَ الرُّسَاءُ وَالْكِبَرَاءُ ، وَنَاهَيْكَ
بِالْقَطْبِ الْوَلِيِّ ، الشَّيْخِ نَجْمِ الدِّينِ الْعَكْبَرِيِّ .

وَتَوَجَّهَ جَنْكَزَخَانُ ، مِنْ سَمَرَقَنْدَ قَاصِدًا السُّلْطَانَ ، وَمَرَّ مِنْ أَطْوَارٍ عَسْكَرِهِ بِكُلِّ
أَخْشَبِ^(٢٢٠) ، حَتَّى أَتَاخَ عَلَى تَرْمَذِ^(٢٢١) وَخُشْبِ^(٢٢٢) ، فَامْتَنَعَا عَلَيْهِ ، وَلَمْنَاعَتُهُمَا
لَمْ تَلْتَقِا إِلَيْهِ ، وَكَانَتَا كَثِيرَتَيِ الْعَدَدِ وَالْعَدَدِ ، غَزِيرَتَيِ الْمَدَدِ مِنْ مُدَدٍ ، وَهُمَا مِنْ
أُمَهَاتِ الْبِلَادِ ، مَمْلُوعَتَانِ مِنَ آلَاتِ الْجِهَادِ ، وَمَقَاتِلَةِ الْأَجْنَادِ ، فَأَهْلَكَ نَاسَهُمَا ،
وَسَقَاهُمَا مِنْ حَمْرِ التَّشْرِيبِ كَأَسَهِمَا ، فَلَمْ يَبْقَ لهُمَا قِيَا ، وَلَمْ تُغْنِ الْعَدَدُ وَالْعَدَدُ
عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا .

^(٢١٦) مَذَارِعُ ، مَفْرَدُهَا مَذْرَعٌ . وَالْمَذْرَعُ مِنَ الْإِنْسَانِ مَا بَيْنَ رُكْبَتَيْهِ وَابْطِئِهِ . وَالْمَعْنَى نَصْفُوهُمْ بِالسَّيْفِ نَصْفَيْنِ ،
فَأَبَادُوهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ فِي مَذْبَحَةٍ بَشَرِيَّةٍ رَهْبِيَّةٍ .

^(٢١٧) ذَوَاتِ : نَفُوسُ .

^(٢١٨) بُتْكَ وَبُتْلٍ : قَطْعُ نَصْفَيْنِ .

^(٢١٩) يَعْْنَى الْمُؤَلِّفُ أَنَّ حِمَّةً أَوْ نَصِيبَ كُلِّ جَنْدِيٍّ مَغُولٍ مِنْ قَتْلِ الرِّجَالِ الْمُسْلِمِينَ الْأَحْيَاءِ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ كَانَ
أَرْبَعَةً وَعَشْرِينَ مُسْلِمًا ، ذُبَّهِمْ عَنْ آخِرِهِمْ فِي هَذِهِ الْمَذْبَحَةِ الرَّهْبِيَّةِ .

^(٢٢٠) خُشْبِ : الْخَلِيفَةُ الْخَشَنُ الْفَقْطُ .

^(٢٢١) تَرْمَذُ : مَدِينَةُ كَبْرَى عَلَى نَهْرِ جِيحُونِ (فِي أُوزْبَكِسْتَانَ الْآنَ عَلَى حُدُودِ أَفْغَانِسْتَانَ) .

^(٢٢٢) خُشْبِ : مَدِينَةُ عَلَى نَهْرِ جِيحُونِ أَيْضًا ..

ومن غريب ما وقع ، من البدع ، أنه أضمر بأهل ترمذ أن يقتلوا عن آخرهم ، مع أهلهم وعشائريهم ، ولا يُبقى فيها على أحد ، وأرصد على ذلك الرصد^(٢٢٣) ، فاتفق أن امرأة من المخدرات ، تُحجّل الشموس النيرات ، قبضوا عليها ، وتقدموا بإراقه دميها إليها ، فتشفت فما أفاد ، وتضرعت فما زاد إلا العناد . فلما أُسليمت وتلّوها للحيين ، وعلمت أنه جاءها الحق المين ، قالت لأولئك الكفار : لا تقتلوني يا حضار ، وأنا افتدي نفسي منكم بعقود من اللؤلؤ كبار ، فأنهوا القضية إليه ، وعرضوا ما قالته عليه . فقال : اتركوها ، ثم بما قالت طالبوها ، لننظر أصدقّت ، أم اختلقت ؟ فأطلقوها ، ويتقاضى اللؤلؤ ألقوها ، فقالت : لم أفه يزور ، ولا دليتم بغرور ، وإنما اللؤلؤ كان عندي ، وحين استخلصتم مالي كان في يدي ، فخيبت منكم فابتلغته ، وثبّا لفعل صنعته ، فأمهلوني حتى اتبرز ، ويخرج مني ذلك الحرز ، فأنهوا كلامها إليه ، وعرضوا أمرها عليه . فقال : ابتروا بطنها ، وانظروا قطعها ، فإن وجدتم شيئا فهو لكم ، وإن كانت كاذبة فقد استحقت فِعلكم ، فشقوا بطنها البطن ، واستخرجوا منه الدر الثمين . فلما رأوا صدقها وحققوا نطقها ، أمرهم بشق بطون جميع القتلى ، وتفتيش ما طرأوه من جبال الأشلاء^(٢٢٤) ، فلم تنج رؤوس الروس من المثلّة بعد القتل ، ولا بطون الصدور من ظهور التنكيل أثر البتل^(٢٢٥) . ثم أمر بهدم الحصون ، بعد ابتذال المال والعرض المصون ، فمحييت الديار ، ولم يبق فيها ديار .

(٢٢٣) الرصد : الميون والجواسيس والبصاين .

(٢٢٤) الأشلاء : غنغف أشلاء (القتلى) ... وكانوا لكثرتهم كالجبال .

(٢٢٥) البتل : القطع والبقر .

ثم عَبَّرَ من جيحون إلى خُرَّاسان ، وجَعَلَ نُصَبَ عَيْنِهِ مَمَالِكُ السُّلْطَانِ ، وتوجَّهَ إلى بَلُخ^(٢٢٦) وهي أحدُ معاقلِ الإِسْلامِ ، وفيها من أَمَمُ الأَنامِ ، ما لا يدرك ضِبْطُهُ سابقُ الأَقلامِ ، بل يَخْرُجُ عن حَضَرِ الأُرْهامِ ، ولا يُحْصِيهِ إِلَّا المَلِكُ العَلَامُ . وكان السُّلْطَانُ ، قد انشمر^(٢٢٧) عنها كما ذَكَرَ إلى نواحي طيرستان ، فوصلَ بتلك البحارِ الطاميةِ ، في ثَماني عَشْرَةَ وَسْتَمِيَةِ ، فخرَجَ إِلَيهِ الأَعْيَانُ ، وطلبُوا منه الأَمَانُ ، فَأَجابَ سؤالَهُم ، بما يصلحُ حالَهُم . ثم اختشمى^(٢٢٨) من السُّلْطَانِ جلالَ الدين ، ابنَ المرحومِ قطبِ الدين ، فَلَمْ يَرْمِكْ إِلَيْهِم ، ولا عَوَّلَ عَلَيْهِم ، فَأَمَرَ بِإِراقَةِ الدِّمَاءِ ، وهذَمِ البَنايَ ، وإحاطَتِهِم بِدائِرَةِ الفَناءِ ، فَأَقْنَوْهم عن آخِرِهِم ، وسأوُوا بِالْحَضِيضِ بَقاعَ عَمائِرِهِم . ثم أُرْسِلَ وَلَدُهُ "تُولِي خان"^(٢٢٩) إلى مُحاصِرَةِ طالقان^(٢٣٠) ، فَصَصَتْ عَلَيْهِ ، ولم تَسَلِّمْ قِيادَها إِلَيهِ ، فاستمرَّتْ في الحِصارِ مُدَّةً ، وأذاقَها لِبَاسَ البَاسِ والشَّدَّةِ ، إلى أَنْ أَخْلَوْها ، وأبَادُوا عَظَمَتَها ودُكُوها .

ثم إِنَّ جَنكَزخانَ ، الكافِرَ الخَوَّانَ ، معدنَ الكُفْرِ والطُغْيَانِ ، لما اسْتَوْبَلَ^(٢٣١) هَوَاءَ خُرَّاسانَ ، فَأَلْوَى إلى بِلادِهِ ، وترك "تُولِي خان" من أولادِهِ ، وَوَلَّاهُ خُرَّاسانَ ، وهو محاصرٌ طالقانَ ، وأقامَ في مَمالِكِ إِيْرانَ ، من كَفارِ أَمرائِهِ أميرانَ أحَدُهُما يدعى

(٢٢٦) بلخ : مدينة بقطر القندية ، وهي ما تسمى الآن بأكتريا ، وكانت ملتقى الحضارة الهندية القندية . تقع بين إقليمي طخارستان وجوزجان ، وشرق إقليم خراسان ، وجنوبي نهر جيحون ، استولى عليها العرب سنة ٦٥٣ ، ودمرها جنكيزخان سنة ١٢٢١ م . وهي من مدن أفغانستان حاليا ، وهي من أشهر مدن خراسان قديما .

(٢٢٧) انشمر : مشى حافيا مختالا إلى جهة بعينها .

(٢٢٨) اختشمى : غشي العواقب .

(٢٢٩) تولى خان : هو الابن الأصغر والأخير لجنكيزخان ، ويعرف في المصادر التاريخية باسم تولوي .

(٢٣٠) طالقان ، من أشهر مدن خراسان قديما ، قرب قروين .

(٢٣١) استولى : لم يظب هواء خراسان لجنكيزخان ، فأصابه بالوعم في بلدته ، والمرض في جسمه .

"ستاي" وهو من قبيلة الجغتاي ، والآخر يدعى "يما" وهو من الكفار اللوما ، وترك معهما من الكفار الأراذل ، والتار والأسافل ، ثلاثين ألف مقاتل ، فوصلوا إلى روة^(٢٣٢) ، ووضعوا السيف في الأئمة الهداة ، وابتدأ في القتل والنهب ، والفتك والسلب ، والقهر والأسر ، والقسر والكسر ، ثم أخذوا في الإتيان ، طريق الإتيان ، وذهب كل منهما للاختلاف ، في الفساد على خلاف ، فصلاً وجالاً ، وأوسعاً في الدمار والبوار بحالاً ، وخاضاً في دماء المسلمين ، واجتهدوا في إهلاك الإسلام والدين ، وخلاهما الجور قباضاً وصغراً ، وكان السلطان قطب الدين قد أخلى الدنيا ، من الملوك والكبراء ، فلم يثبت لهما مقابل ، فضلاً عن مخالطة أو مقاتلة ، فأهلكا الدين وأبادا ، وتصرفا في نصرة الشرك على الإسلام كيفما أرادا ، فاستخلصا جوين^(٢٣٣) وطوس^(٢٣٤) ، وأخذما ما بهما من نقائس ونفوس ، وحام وخبوشان^(٢٣٥) ، وأسفرايين^(٢٣٦) ومازندران^(٢٣٧) ، وآمل^(٢٣٨) وقومس^(٢٣٩) وتلك البلدان ، فمحووا من كتب كتابها أساطارها ، وأطفأوا منارها ، وأظهروا من صفة الجلال والقهر آثارها ، وأجروا من الفتن كالدماء بحارها ، وأضرموها من الشرور نارها ، كل ذلك قتلاً ونهباً ، وسبياً وسلباً ، وهدماً وإحراقاً ، وصدماً وإزهاقاً ، وردماً وإغراقاً .

^(٢٣٢) روة : من مدن خراسان ، دون نهر جيحون .

^(٢٣٣) جوين : من أشهر أقاليم خراسان .

^(٢٣٤) طوس : من مدن خراسان الكبرى .

^(٢٣٥) حام وخبوشان : من الثغور الحدودية في طبرستان .

^(٢٣٦) اسفرايين : بلدة حصينة من نواحي نيسابور ، من مدن خراسان .

^(٢٣٧) مازندران : مقاطعة تقع على بحر قزوين .

^(٢٣٨) آمل : أكبر مدن طبرستان وقاعدتها .

^(٢٣٩) قومس : ولاية كبيرة تقع بين الريّ ويسابور ، وهي في نهاية جبال طبرستان .

ثم بلغهم أنَّ حريمَ السلطانِ جلالِ الدين ، في قلاعِ آمِلَ آمين ، فقصدها وحاصروها قتلَ ناصروها ، فاستولوا عليها ، ووصلوا كما أرادوا إليها ، فبقروا وفتكوا ، وبروا وبتكوا ، وسبوا وسبكوا ، وسفوا وسفكوا ، وكووا وشووا ، وغورا ولورا ، وعورا وما ارغورا ، ثم إنهم صادفوا لعكسِ الزمان ، وانقلابِ الدهرِ على السلطان ، وسوءِ التدبير ، وشومِ الخطِّ المير ، وهُم في بعضِ المسير ، من غيرِ مُخبرٍ ولا مُعلم ، في سُدْفَةٍ لَيْلٍ مُظْلِمٍ ، حريمَ السلطانِ خوارزمشاه ، لأُمُورٍ قَدَّرَهَا اللهُ ، مع والدَيْهِ وجوارِيهِ ، وبناتِهِ وسرارِيهِ ، وكان لِشِدَّةِ ما نَابَهُمْ مِنَ الزَّمان ، قد ضاقَ عليهم المكان ، وتغيرَ بَلٌّ تَنَكَّرَ لَهُمُ الكَوْنُ ، وفلَّ عنهم النَصيرُ وقَلَّ العونُ ، وخافُوا الابتذالَ بعدِ الصَّونِ ، فتركُوا ما هُم فيه من مكان ، وقصدُوا البُعْدَ عن خراسان ، فتوجهوا إلى أطرافِ أَصفهان ، ومعهم من نفائسِ الأموالِ والجواهر ، وأنواعِ المفاسِرِ والذخائر ، ومصوناتِ الخزائن ، ومكنوناتِ المعادن ، ما لا يعلمُه إلا ما نَحْنُ ، ومن الكَوَازِ ما يتوَّءُ بالعَصْبَةِ مَفاتِحُهُ^(٢٤٠) ، وما لا يجتمعُ لسلطانٍ قط ، ولا ضَبِطُهَا قَلَمُ دِيوانٍ ولا خَطُّ ، فَبَاغَتُوا مُوَاجِهَةً ، وتَوَاجَهُوا مُبَاغِتَةً ، وتَبَاهَتُوا مُشَافَهَةً ، وتَشَافَهُوا مُبَاهِتَةً ، فَوَقَعَنَ فِي شَبَكَةِ الصَّيْدِ ، وأَحَاطَتْ بِهِنَّ دَائِرَةُ الكَيْدِ ، وتَوَرَّطَنَ فِيمَا فَرَرْنَ مِنْهُ ، وَتَرَبَّطَنَ بِأَوْهَاقٍ مَا نَقَرْنَ مِنْهُ ، ونَادَاهُنَّ لِسَانُ الحِفْظِ ، وهَاتِفُ الطَّالِعِ الفَقْطِ :

وَإِذَا أَرَادَ اللهُ أَنْفَادَ الْقَضَا	وُظْهِرَ قَهْرُ اللَّيْصَائِرِ بَابِلَا ^(٢٤١)
جَعَلَ الدَّوَاءَ لِلدَّاءِ مُمَرِّصًا	وَقَوَائِدَ التَّرْيَاقِ سُمًّا قَاتِلَا
وَالْكَوْنُ خَصَمًا وَالْمَكَانُ مُنَافِضًا	وَالْعَيْشَ مَوْتًا وَالصَّدِيقَ مُقَاتِلَا

^(٢٤٠) مفاتيحه : مفتاحه .

^(٢٤١) بابلًا : قاطعًا ، موكبًا .

فَلَمْ يَشْعُرْنَ إِلَّا وَقَدْ وَقَعْنَ مِنْ نَهْرَانِ الْفَعْنِ فِي تَشْوَرٍ ، وَتَوَرَّطْنَ مِنْ بَحَارِ الْحَمْنِ فِي
دَرْدُورٍ^(٢٤١) ، وَتَبَسَّمَتْ إِلَى بُكَائِهِنَّ نُنَايَا الْبَلَايَا ، وَتَكَالَمَتْ^(٢٤٢) عَلَى جِبَاهِ لُصَابِيهِنَّ
عَقُودُ الرِّزَايَا ، فَظَفَرَتْ حَامِيَةَ الْكُفْرِ بِذَلِكَ الْمَغْنَمِ الْبَارِدِ ، وَلَمْ يَصْدُرْ مِنْ حَلَقَةِ صَبِيهِ
شَارِدٌ وَلَا وَارِدٌ ، فَحَازُوا تِلْكَ الْبَسْتَرَاتِ ، وَنَزَلَ إِلَى حَضِيضٍ قَنَصِهِمْ مِنْ سَمَاءِ الْمُنَاعَةِ
الشَّمْسُوسُ النَّيِّرَاتِ ، فَهَتَكُوا أَسْتَارَهُنَّ ، وَخَرَبُوا دِيَارَهُنَّ ، وَضَبَطُوا شِعَارَهُنَّ
وَدَنَارَهُنَّ ، وَأَحْرَزُوا مَا مَعَهُنَّ ، مِنْ كَنُوزِ الْمَعَادِنِ ، وَنَفَائِسِ الْمَكَامِنِ ، وَذَخَائِرِ
الْخَزَائِنِ ، ثُمَّ أَضَافُوهُنَّ إِلَى زِبَانِيَةِ غِلَاطٍ ، وَاحْتَفَظُوا بِهِنَّ أَشَدَّ احْتِفَازٍ ، وَسَاقُوهُنَّ
إِلَى بِلَادِ التَّنَارِ ، مَهْتِكَاتِ الْأَسْتَارِ ، عَارِيَاتِ حَافِيَاتِ ، حَاسِرَاتِ مَاشِيَاتِ ،
وَأَمْرُوهُنَّ أَنْ يَجْتَمِعْنَ كُلُّ لَيْلَةٍ ، عِنْدَمَا يَنْشُرُ الظُّلَامُ ذَيْلَهُ ، فِي كُلِّ مَنْزِلَةٍ ، وَصَبَاحِ
كُلِّ مَرَحَلَةٍ ، وَيَقَعْنَ عَلَى أَنْفُسِهِنَّ الْعَزَا ، وَيُنْحَنَ^(٢٤٣) بِمَا تَقْدَمُ وَيَكِينُ بِمَا جَرَى ،
وَيُعَلِّدْنَ^(٢٤٤) عَلَى خَوَارِزِ مَشَاهِدِ ، وَيَذْكُرْنَ مَا قَدَّرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ وَقَضَاهُ ، وَيَتَعَيَّنُ مَا كُنَّ
فِيهِ مِنَ النَّعَمِ ، وَمَا صَبَرْنَ إِلَيْهِ مِنَ الْهَوَانِ وَالنَّقَمِ ، وَلَيُثْمِنَنَّ عَلَى هَذِهِ الطَّرِيقَةِ ، حَتَّى
يَقْطَعَنَّ مِنْ سَفَرِهِنَّ طَرِيقَةً ، وَيَصْلُنَّ بِمَنْكَزِ خُحَانٍ ، عَلَى ذَلِكَ الْإِمْتِهَانِ ، وَالذِّلِّ
وَالْهَوَانِ ، فَيَرَى فِيهِنَّ رَأْيَهُ ، مِنْ نِكَالٍ وَنَكَايَةٍ ، وَرَحْمَةٍ وَعِنَايَةٍ ، فَاثْمَنَلْنَ مَا أَمَرُوهُنَّ
بِهِ ، فَكُنَّ يُنَبِّهْنَ النَّيَّامَ وَيُكِينَنَّ لِلتَّيْبَةِ ، وَاسْتَمَرَّرْنَ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ ، فِي الْخِزْيِ
وَالْإِذْلَالِ ، وَالْمَشَقَّةِ وَالْإِبْتِذَالِ ، بَعْدَ ذَلِكَ الصَّوْنِ وَالِدَّلَالِ ، يَصْنَعْنَ بَنَحِيْبِهِنَّ
الْجِبَالِ ، وَيَتَفَطَّرْنَ بِالنَّظَرِ إِلَيْهِنَّ أَكْبَادُ الصَّخُورِ وَالتَّلَالِ . ثُمَّ إِنَّ "تُولِي" لَمَّا أَخَذَ
طَالِقَانَ ، وَأَهْلَكَ أَهْلَهَا بِسَيْفِ الطُّغْيَانِ ، وَلَمْ يَدْعُ فِيهَا مَنْ يَتَنَفَّسُ ، وَهَدَمَ إِلَى

(٢٤١) در دور : دوکمه عتیفة .

(٢٤٢) تکالمت : بمجاریحت .

(٢٤٣) ینحن : من التواضع ، البکاء .

(٢٤٤) یعلدن : من العبد علی الملوی (البکایات أو ذکر منال الملوی) .

الأرض بنيانها المؤسس ، توجه إلى جانبيه من بلادِ العجم ، وأهلك ما شاء الله تعالى من خلائق وأسم ، فصار في أحدِ الجوانبِ يعيث ، وكلُّ من "ستساي" الحبيث ، "وبما" الكافرِ العيث . في جانبِ يبيدُ المسلمينَ ولا مُغيث ، فدكُّوا قزوين^(٢٤٦) وهمدان^(٢٤٧) ، وصكَّوا أَرانَ وبيلقان ، وأغاروا على ممالكِ أذربيجان ، وبلغهم أن السلطان ، جلال الدين ، له في سجناس جماعةً مجتمعين ، مقدَّمهم السلاحدار^(٢٤٨) بكنكين ، وفيهم من الأعيان ، كوجيُوغا خان ، فتَّوجه إليهم "بما" فيبدَّ شملَ أولئك الزُعَمَا ، وأبادهم وفرَّقهم ، وشتهم ومزَّقهم . ثم أغاروا على غالبِ عراقِ العجم ، فأوسَّقوا القفار بالضرَم ، وأوسَّعوا البحارَ بأمطارِ الدم ، وملأوا الوجودَ بالعدم .

ثم قصَّدوا أردبيل^(٢٤٩) ، وجعلوا أهلها ما بين أسيرٍ وقتيل ، وكانوا في أولِ المرور ، قد صالَّحوا أهلَ نيسابور ، وانتقلوا إلى مرُز^(٢٥٠) منها ، وراوَدُوا أهلها عنها ، فأغلَقُوا أبوابهم ، وأقلقوا جوابهم ، فَحَطَّمُوا عليها ، ودخلوا إليها ، وحكَّمُوا في أهلها السيوف ، وكان شَهْرُ الصَّيَامِ فَفَطَّرُوهُمْ على كاساتِ الخشوف ، ونقل إلى جوارِ الله تعالى منهم المؤمنينَ والألوف ، فضبطُوا مَنْ أَمَكْنَ ضبطُهُ من القتلى ، واستسعد بنيلِ الشهادةِ من الشُّهَدَا ، فكانَ أَلْفَ أَلْفِ نَسَمَةٍ ، وثلاثمائة ألفٍ

^(٢٤٦) قزوين : مدينة على بحر قزوين ، وهى مدينة حصينة تابعة للإقليم الثالث أَران .

^(٢٤٧) همدان : مدينة غربي إيران اليوم ، وأما أَران وبيلقان ، فهما من الإقليم الثالث (إيران) .

^(٢٤٨) السلاحدار أو السلاحدار : لقب للذى يحمل سلاح السلطان ويتولَّى أمر السلاح عتاة .

^(٢٤٩) أردبيل : مدينة فى شمالي إيران اليوم ، وكانت قديماً تابعة للإقليم الثانى أذربيجان .

^(٢٥٠) مرُز : مدينة فى تركمانستان الروسية اليوم .. ومن أشهر مدنِ عراسان قديماً .

وثلاثين ألفاً مُكرَّمة^(٢٠١) . وكلُّ هذه الفتنة والفتنة ، في سنة ثمان عشرة ، عامت الدنيا في الدماء عَوْماً ، وكانت مدة نَحْوَ تسعين يوماً .

ثم تَوَجَّهُوا إلى شروان^(٢٠٢) ، وأَفَاضُوا من بحارِ الدِّماءِ الطُّوفانَ ، ودخلُوا من البابِ الحديدِ ، واتصلُوا من الدست^(٢٠٣) بذلك الشيطانِ المريد . فَنَقِطَ الناسُ من الفكرة ، وأفَاقُوا مما كانوا فيه من السَّكرة ، وتصوَرُوا أنها سحابةٌ صَيْفٍ انقَضَتْ ، أو نِسْمةٌ أَزْمِنَةٍ هَبَتْ بَارِقَةً أَوْ مَضَتْ ، ولكن احتاطُوا واستعدُّوا ، وتحفَظُوا واستملُّوا ، وحصَّنوا الحصونَ والمعاقلَ ، وجعُّوا الجنودَ والجحافلَ ، فلم يكن بأسرع من إِيابهم ، وتعاطي ما كَانُوا عليه من دَأْبهم ، والشرع في إعمالِ حُرَابهم بَحْرَابهم ، وأَعْلَجهم في ضروبِ ضربهم وضرَابهم ، واستقرَّ "تولي" في ممالكِ العجم ، وهو أبُو هُوَلَاكُو^(٢٠٤) الكافرُ الأَعْثم ، فوصلوا إلى شيراز^(٢٠٥) وقد استعدت للحصار ، واستمدت للمناوشة والنقار ، فأخذوها عُنُوَّةً وزحفاً ، وقتلوا منها مِمَّا أمكَنَ ضبطُهُ سبعين ألفاً . ثم تَوَجَّهُوا إلى طوس^(٢٠٦) ، فأزهدوا ما بها من نفوس .

(٢٠١) أي بلغ عدد الشهداء مليوناً وثلاث المليون خلال ثلاثة أشهر فقط .

وهذه المدن التي مرَّ ذكرها جميعاً كانت تابعة للإمبراطورية الخوارزمية في تركستان القديمة ، وتشمل كل بلاد الترك (السلجقة) .

(٢٠٢) شروان : مدينة فارسية قرب بحر الخزر أو طيرستان في الإقليم الثالث المعروف باسم أَران .

(٢٠٣) الدست ، كما يقول القلقشندي وليفة من أجل الوطائف ، والقائم بها سفير الرعية إلى الملك في حاجتهم . ويرواها كاتب الدست . والمعنى أن تولوي قائد الجيش المغولي قد أرسل يستأذن أباه جنكيزخان في فتح مدينة شروان الفارسية .

(٢٠٤) هولاكو : القائد المغولي الشهير (١٢١٧ - ١٢٦٥ م) حفيد جنكيزخان سقطت بغداد على يديه سنة ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م ، أسقط الخلافة العباسية ، واستولى على الشام حتى لقيه عماليك مصر ، فهزمه هزيمة نكراء في عين جالوت بفلسطين عام ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م .

(٢٠٥) شيراز : مدينة في جنوبي غرب إيران ، أي في إقليم فارس القديم .

(٢٠٦) طوس : مدينة تقع بين الري ونيسابور ، في نهاية جبال طورستان ، من أشهر مدن خراسان .

ثم إلى سائر القلاع بالحضيض واليفاع ، فاستولوا على الكلّ قهراً وأخذوه غنوةً وقسراً ، وسعروا في إحلالِ البوس ، وإزهاقِ النفوس . ثم إلى موقان^(٢٥٧) ولم يبقوا بها أحداً كائناً مَنْ كان ، وعمّ القتلُ المُمير ، كلُّ صغيرٍ وكبير . ثم حلّ أولئك البور ، ببلدة نيسابور ، فكافحت^(٢٥٨) بعدما كانت صالحت ، وتحصّنت بعد أن أذعنّت ، واعتمدتْ على عُدّدها ، واستندتْ إلى عُدّدها ، وبرجالها استعانتْ ، بعد أن كانتْ قد دانتْ ، ولانتْ واستكانتْ ، وكان فيها من آلاتِ الحرب ، ورجالِ الطعنِ والضرب ، ما لا يُحصى ، ولا يُلغى الاستقصا ، فكان فيها من المجانيقِ^(٢٥٩) ، المرسلاتِ الصواعق ، على أسوارِ الحصار ، ثلاثمائة منجنيق أصغرُها كالقضباني في المقدار ، خارجاً عن المكاحلِ والمدافع ، المهلكاتِ بالصواعقِ الصّواعق ، ومن رماةِ القوسِ القصيرِ ، من كبيرٍ وصغير ، المنفذِ حكمةً قاضى التقدير ، ثلاثة آلافٍ يَطلُّ ، كلُّ أرْمَى من بني ثعل . وأما عَدَدُ الضاربِ والنابل ، والقاتلِ والمقاتل ، والرامي والناطح ، والصارع والقارع ، والحاذفِ والجارف ، والحاطفِ والقاطف ، والناهبِ والسالب ، ما الضابطون فيه تاهوا ، وما يعلمُ جنودَ ربك إلا هُو .

فوجّه التّارُ الهمةَ إليها ، وأخذوا كالقضاءِ المبرمِ عليها ، وحمي الوطيس ، وخاطرَ بنفسيه كلُّ غسيس ، وبذلَ مُهَجَّتَه من الغزاةِ كلُّ نفيس ، فَقَتِلَ من أهلِ العُدوان ، طغاجارخان زوجُ ابنة جنكرخان . وكان من عُتاة الكفّار ، المعتمرين بينَ التّار ، فَحَقَّقَ العدوُّ لذلك ، وسدّدوا المسالك ، وسمع بذلك "تولي" ، الكافرُ المغولي ، وكان في بعضِ الجوانب ، مشغولاً بالدّواهي والمصائب ، فقارَ دَمَ قلبه وتأجّجت

^(٢٥٧) موقان : أو مروغان مدينة فارسية قديمة ، على ساحل بحر طبرستان أو بحر الخزر

^(٢٥٨) كافحت : دالعت وحاربت .

^(٢٥٩) المجانيق : آلات قديمة من آلات الحصار كانت ترمى بها حجارة ثقيلة على الأسوار ، فتهدمها .

نيراناً كَرِهَهُ ، وتَأَسَّفَ لِفَقْدِ حَتِّهِ^(٢٦٠) ، ونارَ غُبَارِ إِحْنِهِ . فَتَوَجَّهَ مِنْ فُورِهِ ، بِحَنِيهِ وَجُودِهِ ، ونَزَلَ عَلَى نِيسَابُورَ ، وَحَلَّ بِالْبُورِ عَلَى أَوْلَئِكَ الْبُورِ ، وَزَحَفَ بِالْعَسَاكِرِ ، وَتَقَدَّمَ بِالطَّعْنِ وَالضَّرْبِ كُلِّ كَافِرٍ ، فَلَسَمَ تَمَحُضَ غُلُوةٍ ، حَتَّى أَخْلَدَهَا عُثُوةً ، وَدَخَلَهَا مِنْ كَفَرٍ مِنَ التُّرْكِ ، يَوْمَ السَّبْتِ خَامِسَ عَشَرَ صَفَرٍ ، سَنَةِ تِسْعَ عَشْرَةٍ ، وَسَمَاءُ مِنَ الْمَجَرَّةِ ، وَأَعْطَى "نُوبِي" لِأَخِيهِ ذَلِكَ عِوَضاً عَنْ زَوْجِهَا الْمَالِكِ ، وَقَالَ لَهَا تَسَلَّى عَنْ ذَلِكَ الْمَفْقُودِ ، بِهَذَا الْمَوْجُودِ ، وَتَحَكَّمِي فِي أَهْلِ الْبَلَدِ ، بِمَا تَرْتَضِيهِ مِنْ سُرُورٍ وَنُكْدٍ ، وَتَصَرِّي فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَرْوَاحِ ، فَمَهْمَا تَرْتِيهِ فَهُوَ لَكَ مُبَاحٌ .

فَأَمَرَتْ أَنْ لَا يَبْقَى عَلَى ذِي رُوحٍ ، وَأَنْ تَحْرِي السَّيُولُ مِنَ الدَّمِ الْمُسْفُوحِ ، فَاطْلُقُوا فِي مَيَادِينِ الْخُتُوفِ ، أَعِنَّةَ صَوَارِمِ السِّيُوفِ ، فَجَدَّتْ جِبَاهُ الْجِيَادِ ، وَجَادَتْ بِجُودِ الْجَدِّ عَلَى أَحْيَادِ الْأَجْوَادِ ، وَصَارَتْ كَأَلْسُنِ الشَّعْرَاءِ النَّقَادِ ، تَهَيِّمُ مِنَ النِّظَمِ وَالنُّثْرِ مِنْ كُلِّ وَادٍ . فَمَحَوْا عَنْ لَوْحِ الْوُجُودِ ، بِلِسَانِ شَوَاطِئِ السَّيْفِ ذَاتِ الْوُقُودِ ، سَطُورَ ذَوَاتِ ذَلِكَ السَّوَادِ الْأَعْظَمِ ، وَكُتَابَ كُتَائِبِ تِلْكَ الْخَلَائِقِ وَالْأُمَمِ ، وَزَادُوا فِي الْأَشْتَطَاطِ ، حَتَّى قَتَلُوا الْكَلَابَ وَالْقَطَاطِ .

ثُمَّ أَمَرَتْ أَنْ تُجَمَعَ رُؤُوسُ أَوْلَئِكَ الْجُمْهُورِ ، وَيُمَيَّزَ رُؤُوسُ الْإِنَاثِ مِنَ الذَّكَوَرِ ، فَمَيَّزُوا رُؤُوسَ الرِّجَالِ ، عَنْ قِمَمِ رِبَاتِ الْجِحَالِ ، وَطَرَحُوا كُلَّ كَاشِيَةٍ^(٢٦١) فِي نَاحِيَةٍ ، فَصَارَتْ الرُّؤُوسُ كَرَوَاسِيِ الْجِبَالِ ، وَتِلْكَ الدُّوَرُ وَالْقُصُورُ كَالْأَعْصِرِ الْخَوَالِ ، وَلَمْ يَخْلُصْ مِنْ قَطْعِ الْأُرُوسِ ، سِوَى أَرْبَعَةِ أَنْفُسٍ ، كَانُوا مِنْ ذَوِي الْحِرْفِ ، فَجَذَبَتْهُمْ الْمَهَارَةُ مِنْ سَفْحِ بَحْرِ الْفَنَاءِ إِلَى الطَّرْفِ . ثُمَّ رَكِبَتْ تِلْكَ

(٢٦٠) الحنن : زوج الأخت .

(٢٦١) كاشية : مجموعة هائلة .

البسوس ، ووقفت على تلال الرؤوس ، فلم تنطفئ نارها ، ولا برد أوارها^(٢٦٢) ، وزعمت أنها لم تستوف نارها ، وأن دود ترابها من علق تلك الأمم ما تكفّت ، وعظيمة عظيمها بزواجر السيوف ما تشقت ، واستغاثت بالرجال ، وصاحت بلسان الحال ، وأنشدت :

وَهَبْ أَنْ النِّسَاءَ سَلَلْنَ سَيْفًا فَصَلْنَ وَجَلْنَ كَالْفَخْلِ الْعُيُورِ
فَوَلَّزَلْنَ الْجِبَالَ وَطَرْنَ فَوْقًا يُضَاهِينَ السَّحَابَ عَلَى الطُّيُورِ
وَصَارَ لِسَفْكِهِنَّ الْبَرُّ بَحْرًا أَفْيِيهِنَّ ذَاكَ عَنِ [.....]^(٢٦٣)

فأمرت بهدم البلد ، وإحراق ما فيها من آلات وعُدّة ، فدكوها دكا ، وأعدموها سبكا وسفكا ، وتصرفت أيدي النواصب فيها فتكا وبثكا^(٢٦٤) . ثم إن "تولي" كوي العنان ، وقصد هرة من خراسان ، فأخذها بالأمان ، ولم ينبج من ذلك الطوفان ، سوى تلك الكورة^(٢٦٥) ، واستمرت تحت أواميرهم مقهورة . وأمهات بلاد خراسان ، ومقر سرير السلطان ، كانت أربعة أمصار ، كل ذات اعتبار ، جليلة المقدار : نيسابور ، وقد صارت بور ، وبُلخ قد كُسيّت من البوار ثوب سلخ ، ومرارود ، وقد اتمحت من الوجود ، ولم يَفُزْ بالنجاة ، إلا بلدة هرة . وسائر الأمصار ، شملها البوار ، ولبست من عالج الدثور الدثار ، وكل منها مصّر جامع ، وبحرها بحر واسع ، وبحرها كصدر البر مداه شاسع . وأما القرى والقصبات^(٢٦٦) ، والرساتيق^(٢٦٧) ،

^(٢٦٢) أوارها : حرّ نارها .

^(٢٦٣) حلقت كلمة عادية لحياة البعض .

^(٢٦٤) بثكا : قطعاً وبمزيقا .

^(٢٦٥) الكورة : البقعة التي يجتمع فيها قرى وبحال .. ويعنى بها هنا ولاية هرة وتوابعها (الأقاليم) .

^(٢٦٦) القصبات : المدن الصغيرة ، أو المدن عامة .

^(٢٦٧) الرساتيق أو الرزاديق : القرى أو الضواحي الزراعية حول المدن الكبرى .

والمزدرعات^(٢٦٨) ، فأكثَرُ من أن تُخَصَّرَ ، أو تُضَيَّبَ بحسابٍ دَقَر . فأَيِدَ ذلك كُلُّهُ وأُبَيِدَ ، فالحَكُمُ اللهُ العَليُّ الكَبيِر . كُلُّ ذلك في أَذْنَى مُدَّة ، وأَوْهَى رَقَّة ، وما ذُكِرَ ذَرَّةً من طُور ، وَقَطْرَةً من بِحُور ، فَسُبْحَانَ مَنْ يُسْأَلُ ، عَمَّا يَفْعَل .

ثُمَّ إِنَّ جَنْكِزْخَانَ الهَامَةَ الهامية ، والفتنة الطامَّة الطامية ، لما عَلِقَ به المرض ، وَحَصَلَ له في خراسان أَلْعَرَضَ ، رَجَعَ إلى بلادِهِ ، واستمر مرضُهُ في ازديادِهِ ، ولم يَزَلْ على ذلك ، حتَّى أوردَ سبيلَ المهالك ، وتسَلَّمَ روحَهُ الحَيثَةُ مالِك ، وحينَ أيسَ من الحَيَاةِ وَقَطَعَ من رَحْمَةِ اللهِ ، جَمَعَ المَعْتَمِدَ عليه من أولادِهِ ، المَشارِكِينَ له في عُتُوِّهِ وفسادِهِ ، وَهُمْ جغتاي وأوكتاي ، وأوليغ نوثين وجرجاي وكاكان ، وأورجان ، وأوصاهم بوصايا ، وطرائق في سياسة الرعايا ، حافَظُوا عليها ، وتناهَضُوا إليها ، فَتَبَّتْ لهم من مُلْكِهِمْ ، أساساً لم يَنهدم ، وأقام بنياناً إلى يومنا لم يَنحَرَمْ ، وعروش قواعِدَ أركانها لم تَتَلَيَّمْ ، مع كَثْرَةِ عَدِيهِمْ ، ووفرة مَدَدِهِمْ ، وشكاسَتِهِمْ وشراسَتِهِمْ ، وشماسَتِهِمْ وتعاسَتِهِمْ ، وغلاظَتِهِمْ وفظاظَتِهِمْ ، واختلافِ أديانِهِمْ ، واتساعِ بلدانِهِمْ ، وهلكِ الطاغية جَنْكِزْخَانَ ، وانتقل إلى المَلَكِ الأسفلِ من النيران ، واستقرَّ في لعنَةِ اللهِ وعقابه ، وأليمِ زجرِهِ وعذابِهِ ، في رابع شهرِ رمضان ، الشاملِ بالفضلِ والإحسان ، والبركةِ الناميةِ الهامية ، سنة أربعٍ وعشرين وستمية ، في سُرَّةِ مُلْكِهِ المشوم . وأعْظَمُ أمصارِهِ لِمَيلُ وقوقانُ وقَرَأَروم .

واستمرَّتْ بعَدَهُ الفتَنُ والشرور ، والحنُّ تَغْيِر ، على ممالكِ الإسلام ، وتَبَيَّرَ^(٢٦٩) شعائرُ شرائعِ خيرِ الأنام ، وتَشَيَّرَ غبارُ الإفسادِ والمفسدين ، ففى وجوه سُنَّةِ سَيِّدِ المرسلين ، وَتُخَصَّرُ جنودُ الإسلام ، وَتُقَصُّ جيوشُ العلماءِ الأعلام ، وَتُنْقَصُ أطرافُ

(٢٦٨) المزدرعات : الأراضي الزراعية .

(٢٦٩) تبير : تهلل وتبيد .

الأرض ، وتَنَقَّضُ أركانُ الدِّينِ بعضها على بعض . وَنَاهِيكَ يَا مولانا السلطان ،
بِفَتْحِ هُلاكو تولى بِنِ جَنكِزْخان^(٢٧٠) وبعده أبقا^(٢٧١) ابن هُلاكو الذى تجبَّرَ وطغى ،
وتكبرَ وبغى ، وبعده ابنه أرغون^(٢٧٢) ، وبعده ابنه قازان^(٢٧٣) المفتون . واستمرت
بحارُ الفتن منهم ، تَوَثَّرَ عنهم ، وَمَرَّجَهَا يَمُورٌ إلى أَنْ تَبَعَ الأَعْرَجُ تِيْمُورَ^(٢٧٤) ، فَاهْلَكَ
الحَرْثَ والنَّسْلَ ، واختلط المَبَاحُ بالبِسل^(٢٧٥) ، وحل بالعالم الباس ، وفسدت أحوالُ
الناس ، وإِنَّمَا ذلك كُلُّهُ بفسادِ الراس^(٢٧٦) .

ومن جُمْلَةِ فتنهم ، وطعنهم في ظَعْنِهِم ، جالُوا في معركة ، وصالُوا في دست
بركة ، فقتلوا في مثل حرب البسوس ، وقطعوا في ناحية من الروس ، جملةً أَرَادُوا
ضَبْطَ عَدِيدِهَا ، بعد أن أَبَانُوهَا^(٢٧٧) عن جسدِهَا ، فلمْ يَقْدِرُوا أَنْ يَحْصُرُوهَا ، فَرَسَمَ
لنَلكِ البَغَاةِ سُلْطَانُهَا ، أَنْ يُقَطَّعَ مِنَ الرُّؤُوسِ آذَانُهَا ، يقطعون من كُلِّ رَأْسٍ أذناً ،
وَلَتَكُنْ الآذَانُ اليُمْنَى ، فجدَّعُوا آذَانَ بعضِ الرُّؤُوسِ وشَكَّوهَا ، وفي خِيوطِ
سَلَكُوهَا ، ثم في قِلَاحِدِ رِبْطُوهَا ، وبعده ذلك ضَبْطُوهَا ، فكانت نحو مائتي ألفِ أذنٍ
مجدودة^(٢٧٨) ، وسبعين ألفِ أذنٍ معلودة^(٢٧٩) .

* * *

(٢٧٠) يعنى : هولاكو بن تولوى بن جنكيزخان ، على نحو ما وردت الأسماء فى المصادر التاريخية .

(٢٧١) أبقا أو أبغا هو ابن هولاكو ، وتولى الحكم من بعده سنة ٦٣٣ هـ / ١٢٦٥ م .

(٢٧٢) تولى أرغون الحكم سنة ٦٨٣ هـ / ١٢٨٤ م .

(٢٧٣) يعنى المؤلف به : محمود غازان ، وقد تولى الحكم سنة ٦٩٤ هـ / ١٢٩٥ م .

(٢٧٤) الأعرج تيمور ، أو تيمورلنك ، انظر الهامش رقم (١٨١) .

(٢٧٥) البسل : الحرام .

(٢٧٦) يعنى المؤلف : فساد رأس السلطة السياسية فى دار الإسلام آنذاك .

(٢٧٧) أبانوها : قطعوها وفصلوها .

(٢٧٨) مجدودة : مقطوعة .

(٢٧٩) يعنى المؤلف أن العدد كاملاً كان مائتين وسبعين ألفاً من ثقل المسلمين .

وإنما ذكرتُ يا ملك الطير ، أمثال ما جرى من الشرِّ والخير ، وجَلَوْتُ عن مرآة ضميرك النير ، صورة ما مرَّ في الزمانِ المير^(٢٨٠) ، وما فعله من ملكه زمامِ الاقتدار ، وأمهله سلطانِ السلاطينِ الذي يخلقُ ما يشاء ويختار ، وصرفه في بلاده وعباده ، وبينَ له طريقَ صلاحه وفساده ، وأخبركم أيها الملوك والحكامُ بأموركم ، في دنياكم ، وجلا صورَ أحوالكم ، على أعينِ أبصاركم ، وبينَ مزايكم في مزاياكم ، فقال ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِيهَا أَنَاكُمْ﴾^(٢٨١) فانظر ما في هذه السير ، من الحكيم واليعبر ، لتعلم أنَّ الدنيا محلُّ الغير^(٢٨٢) ، ومحكُّ العقول والفكر ، والحالُ بها هدفٌ لِسَهَامِ القضاء والقدر ، مبتلى بكلِّ خيرٍ وشرٍّ ، ونفعٍ وضرٍّ ، غافلٌ عن مواقعِ الحذر ، آمنٌ وهو على شرفِ الخطر ، مقيمٌ وقد جدَّ به السَّفر ، مُناقشٌ^(٢٨٣) بما مضى من أنفاسه مما حلا ومرَّ ، ومحاسبٌ على ذنائبِ ما اكتسبه ، مُطالبٌ بالفتيل^(٢٨٤) والقِطْيعِ^(٢٨٥) : مما ارتكبه .

فلَمَّا وصل الحجلُّ في الكلام ، إلى هذا المقام ، قَبِلَ الثَّغَابُ بين عينيه ، وزادَ قُرْبَهُ لديه ، وأفاضَ خِلَعَ الإنعامِ عليه ، وقال : صدقَ عليه أفضلُ الصلاةِ والتسليمِ حيث قال "كَلِمَةُ الْحِكْمَةِ ضَالَّةٌ كُلُّ حَكِيمٍ" ، ونُطِقَ بِالْحَقِّ مَنْ قَالَ : " لَا تَنْظُرْ إِلَى مَنْ قَالَ ، انظرْ إلى ما قال " . فأهلُ التحقيق ، وذوو النظرِ الدقيق ، راقبوا المعاني ، ولم

(٢٨٠) المير : الذي مضى وانقطع .

(٢٨١) قرآن كريم ، سورة الأنعام : ١٦٥ .

(٢٨٢) الغير : غير الدهر ، أحواله وأحداثه المتغيرة .

(٢٨٣) للمناقش أو المناقش : المتكبر المغرور الذي يتفاخر بما ليس بملكه ولا عنده .

(٢٨٤) الفتيل : السحاة التي في شق النواة ، ويقال : ما أغنى عنه فتيل أي شيئا .

(٢٨٥) القِطْيع : القشرة الرقيقة على النواة كالقشرة لها . والمراد : الشيء القليل الحقير .

ينظروا إلى القوالب والمباني ، فإنَّ سليمانَ ^(٢٨٦) ~~الملك~~ وهو مَلِكُ الجنِّ والأنام ، والوحش والطيرِ والهواءِ والهوامِ ، نَبِيٌّ مُرْسَلٌ ، وَمَلِكٌ ذو فضل ، وسلطانُ الفضلِ بالعدل ، استفادَ النصائحَ من نَمَلَةٍ ، وَجَمَعَ هُنْهَـهُـ مع مِلْكِهِ سَبَأَ شَمْلَهُ . ويوجد في الأسقاطِ ، ما لا يوجدُ في الأسفاطِ ^(٢٨٦) . ولقد ينطقُ بالقوائد ، مَنْ هو كافرٌ وحاجِدٌ ، فيؤخذُ من أقواله ، ولا يُقْتَدَى بِأَفْعَالِهِ . وقد قيل : إِنَّ الحَسَنَ البَصْرِيَّ رحمةُ اللهِ عليه ، دَخَلَ صَبِيَّ مَسْجِدِهِ وصَلَّى بين يديه ، فرأه لا يتمُّ سجودَه ، ولا يرضى بصلاته معبودَه ، فدعاه ومخاطبه ، وأنكرَ عليه وعاقبه ، وقال له : تَمَّمْ سجودَكَ ، تُرضَ معبودَكَ . فقال : ياشيخَ المتقين ، هذه سَجَدَاتُ شَخْصٍ من المؤمنين ، لو سَجَدَ إحداها إبليسُ لَأَدَمَ لَمَّا كَانَ من الملعونين ، ولو سَجَدَها فراعونُ مرةً لَكَانَ من المسلمين ، وَلَمْ يَصِرْ مِنْ أَهْلِ العِنَادِ المطرودين . ورأى يوماً صبيّاً ومعه سراج ، وهو سَالِكٌ في منهاج ، فسأله عن تارِه ، وما فيها من أنواره ، مِنْ أَيْنَ أَخَذَهَا ، وَكَيْفَ اقْتَنَزَهَا ، فلم يجاوبه [الصبي] إِلَّا بِإِطْفَاءِ السَّرَاجِ ، وسؤاله أَيْنَ ذَهَبَ ذَلِكَ النورُ الوهاج ، حين قال : قُلْ لِي أَيْنَ ذَهَبَتْ تِلْكَ الأنوارُ ، أَقُلْ لَكَ مِنْ أَيْنَ جَاءَتْ تِلْكَ النارُ . ثُمَّ إِنَّ العُقَابَ ، وَلَى الحَجَلَ ما تحتَ يده من رقاب ، وقدَّمته على سائرِ الخدم ، وصنوفِ الطيرِ وأجناسِه من الأُمَمِ ، وجعلَه الدستورَ ^(٢٨٧) الأعظمَ ، والوزيرَ المقدمَ المكرَّم .

وفي هذا المقام ، أَمْسَكَ الحَكِيمُ حَسِيبٌ عن الكلام ، وَحَتَمَ ما افتتحَه من الحِكَمِ والأحكامِ ، بالدُعَاءِ والثناءِ والصلوةِ والسلامِ .

^(٢٨٦) الأسفاط ، واحداً سِطٌّ ، وهو وعاء يوضع فيه الطيب ونحوه . من أدوات النساء ، وهو أيضاً الوعاء توضع فيه الأشياء ذات القيمة كالفاكهة ونحوها .

^(٢٨٧) الدستور الأعظم : الوزير الأول والناقل للحكم .

قال الشيخ أبو المحاسن ، المحجلُ بأديه امرأ القيسِ وأبا فراسٍ : قَلْبًا انتهى
الحكيم في مفرجه ، وما قصده من بيانِ محاسنه ومُلحه ، إلى هذا المحلِّ ، وفصل من
فضله ما أجمل من جمل ، نهضَ الوزيرُ وقبلَ قدميه ، واعترف له بالفضل المنعم به
عليه ، وأنه مالكُ أزيمة الإنشاء ، ومَلِكُ الكلامِ يُصرِّفه كيف شاء ، وذلك فضلُ الله
يؤتيه من يشاء ، وكما أنه شيخُ المنقول ، وأستاذُ المقول ، فعينُ أنوارِ ألفاظه تنيرُ
العقول ، ومن كبوزِ عباراته تُستخرجُ جواهرُ المعقول . وأما أخوُ الملكِ فطارَ
بسروره به عن سريره ، واتخذَه في مهامُ أموره ، مقامَ أميره . ثم أدت آراءُ فكرته ،
أن يستعملَ أخاه ليكشفَ كُربته ، ويمشي في السعي بينه وبين إخوته ليرتق ما انفقت ،
وسدَ ما خرَّقه سئلُ الحسدِ فأنثى .. فامتثل أمره العالي ، ونهضَ بأمرِ الله المتعالي ،
وأنفق من جواهرِ أفكاره في سوقِ المناصحةِ الرخيصِ والغالي ، ورصع ما استخرجَه
من يواقيتِ تلك من عباراته بما يستعيدُ عقودَ اللَّآلئ ، وتعاطي أسبابِ الإصلاح ،
وساعده ليحسِنَ النيةَ ويخلصَ الطويةَ السعدُ والنجاح :

وَرَتَّبَ بِالْفَضْلِ مَا هَدَّبَهُ	وَقَدَّبَ فِي الْفَضْلِ مَا رَتَّبَهُ
فَأَنَنَى عَلَيْهِ بِمَا أَعْجَبَهُ	وَأَعْجَبَ ذَا لُلبَّ مَا شَادَهُ
فَلِيلَهُ ذَا السَّغْدَ مَا أَغْرَبَهُ	وَأَغْرَبَ فِي السَّبْقِ إِشْرَافَهُ
وَلَا شَدَّ خِلْ لِمَا شَدَّبَهُ	فَمَا شَدَّ بِالصَّدْقِ عَنْ نَصِيحِهِ

فاستمال الخواطرَ النافرة ، وأطفأ بزالِ ألفاظه العذبة شواظَ تلك النائرة ،
وسكنَ بنسيمِ مُلاطفاته قَمامَ الأخلاقِ النائرة ، فاطمَأتِ القلوب ، وطهرت من
غشِّ التشاحنِ الجيِّوب ، واتَّصلَ بالمعجبِ المحبوب ، وحَصَلَ الأَمْنُ والأَمَانُ ،
ومساعدةُ الزمان ، ومعاضدةُ الإخوان ، ومصافاةُ الخِلَآن ، وطيبُ العيشِ والمبكان .
وأَفْضَلُ من هذا جميعه شَفَقَةُ السُّلْطَانِ ، والاستقامةُ على الإسلامِ والإيمان ، ونسألُ

الله تعالى إِيْمَانًا نَعْمِهِ ، وَإِسْبَالَ ذُبُلِ إِحْسَانِهِ وَكَرَمِهِ ، وَاللُّطْفَ فِي الْقَضَا ، وَالْعَفْوَ
عَمَّا لَمْ يَنْصُرْ ، وَالْمَعَامَلَةَ بِإِحْسَانِهِ الْجَزِيلِ ، وَحَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَطَلَّى اللهُ عَلَيَّ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ

النَّبِيِّينَ ، وَسَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ ، وَعَلَى آلِهِ الْأَطْهَارِ ، وَصَحَابَتِهِ

الْأَبْرَارِ ، مِنْ الْأَخْتَلَانِ وَالْأَطْهَارِ ، وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْإِنْقَارِ ،

وَسَلَامٌ تَسْلِيمًا يَطِيبُ الْأَعْطَارَ ، وَيَتِمُّسَكُ بِأَذْيَالِ

عُرْفِهِ خِيَاشِيمُ الْأَزْهَارِ ، فِي الْأَسْحَارِ ، مَا دَامَتْ

الْأَعْطَارُ ، وَدَارَتْ الْأَدْوَارُ ، وَتَرَادَفَ اللَّيْلُ

وَالنَّهَارُ ، وَحَشَرْنَا فِي زُمْرَتِهِمْ مَعَ

الْمُظْطَفِّينَ الْأَخْيَارِ ،

إِنَّهُ كَرِيمٌ سِتَارُ ،

حَلِيمٌ غَفَارُ .

تَمَّ الْكِتَابُ

بِعَوْنِ الْمَلِكِ الْوَهَّابِ

فهرس

[٣ - ٣٣]

مقدمة ودراسة بقلم المحقق

- ٣ - ١ - القصّ وتشكيل الوعي
- ٤ - ٢ - العرب والإبداع القصصى
- ٥ - ٣ - قصص الحيوان أو الحكاية / القناع
- ٧ - ٤ - فاكهة الخلفاء .. آخر العنقود
- ٩ - ٥ - موضوع الكتاب وغاياته ووظائفه
- ١٣ - ٦ - البنية القصصية للكتاب
- ١٧ - ٧ - أسلوب الكتاب ولغته
- ١٩ - ٨ - الأصول الأولى للكتاب ، وعرويته
- ٢٣ - ٩ - طبعات الكتاب السابقة
- ٢٥ - ١٠ - منهج التحقيق القصصى
- ٢٨ - ١١ - ترجمة حياة المؤلف ومؤلفاته
- ٣٢ - ١٢ - شكر ووفاء

[٣٥ - ٤٤]

خطبة الكتاب بقلم المؤلف

الباب الأول : فى ذكر ملك العرب الذى كان لوضع هذا الكتاب

[٤٥ - ٨١]

السهب :

- ٥٣ [١/١] لطيفة الملك أنوشروان مع السائس
- ٥٦ [٢/١] قصة الرهى مع الضحك
- ٦١ [٣/١] قصة قابوس بن بشكير
- ٦٤ [٤/١] واقعة الرئيس مع بهرام حور
- ٦٩ [٥/١] حكاية الذئب مع الجدى
- ٧٢ [٦/١] قصة بن آوى مع الحمار

الباب الثاني : في وصايا ملك العجم المتميز على أقوانه بالفصل

[٨٣ - ١٣٣]

والحكم :

- ٨٥ [١/٢] قصة الفلاح مع الحية
 ٨٨ [٢/٢] قصة التاجر المراقب والغلّام الرمزية
 ٩٨ [٣/٢] حكاية الغزالة مع الجرّذ
 ١٠١ [٤/٢] حكاية نديم الملك الظاهر والصدّيق الحاسد
 ١٠٥ [٥/٢] حكاية ابن سلطان بابل مع عمّة الظالم
 ١١٠ [٦/٢] حكاية للمسافر والعفريت
 ١١٤ [٧/٢] حكاية البطة والتعلب
 ١٢٠ [٨/٢] حكاية التاجر والصدّيق ونصف الصدّيق

الباب الثالث : في حكم ملك الأتراك مع ختنة الزاهد شيخ

[١٣٥ - ١٤٧]

النسك :

- ١٤٢ [١/٣] أعيان النصوص الثلاثة

الباب الرابع : في مباحث علم الإنسان مع العفريت جان الجان :

[١٤٩ - ٢١٧]

- ١٦٠ [١/٤] قصة التاجر مع العبد الفاجر (الذي يكذب مرة كل عام)
 ١٦٤ [٢/٤] حكاية صاحب البستان مع غرمائه الأربعة
 ١٦٨ [٣/٤] حكاية المضيف مع ولده الأحول
 ١٧٠ [٤/٤] قصة الفلاح الذي ادعى الطيبة وتعبير الرؤيا
 ١٧٥ [٥/٤] حكاية الفأرة والأفعوان
 ١٨٠ [٦/٤] قصة زبيدة ذات النطاق
 ١٨٣ [٧/٤] قصة الوزير بزرجمهر مع كسرى
 ١٨٦ [٨/٤] من حكايات كيد النساء

الباب الخامس : فى نواحد ملك السباع وتديمه أمير النعالب [٢١٩ - ٢٧٨]

وكبير الضبايع :

٢٢٥	[١/٥] قصة الخراسى مع الطاسر
٢٣١	[٢/٥] قصة الملهد والصبى
٢٤٠	[٣/٥] واقعة ابن سليمان الأسوى
٢٤٧	[٤/٥] قصة ضبايع خاتم كسرى
٢٥٤	[٥/٥] قصة خصم السلطان بين الوزير الكلوب والوزير الصلوق
٢٦٠	[٦/٥] حكاية التاجر البلخى
٢٦٩	[٧/٥] قصة تديم الملك
٢٧٣	[٨/٥] قصة أنوشروان مع بعض الخارجين عليه
٢٧٦	[٩/٥] قصة اللقلق والعصفور

الباب السادس : فى نواحد التيس المشوق والكلب الإفرقى : [٢٧٩ - ٣٥٨]

٢٨٦	[١/٦] نبوة الملك قطز
٢٩٠	[٢/٦] حكاية مالك الخزين والسمة
٢٩٣	[٣/٦] قصة عماد الدولة البيهقى
٢٩٦	[٤/٦] حكاية الراعى والفلاح
٣٠٣	[٥/٦] حكاية الفأر والقط والديك
٣١٤	[٦/٦] قصة زانغة وأنها مع البومة وابنها
٣١٧	[٧/٦] قصة السائح ذى الوجهين
٣٢١	[٨/٦] قصة مفسد فى مدينة السلام
٣٣٢	[٩/٦] قصة تربة بعض الشطار بسبب امرأة بغى
٣٣٥	[١٠/٦] حكاية السلطان محمد بن سبكتكين مع وزيره
٣٤٣	[١١/٦] كسرى أنوشروان مع الحمار المظلوم
٣٤٦	[١٢/٦] قصة قَرَال يرفض الغناء
٣٤٨	[١٣/٦] حكاية فى التقليد الأعمى

الباب السابع : فى ذكر القتل بين أبى الأبطال الرئال وأبى دغفل

[٣٥٩ - ٤٠٣]

سلطان الأفيال :

٣٦٤

[١/٧] قصة تيمورلنك مع نائبه .

٣٦٩

[٢/٧] حكاية كسرى وموت ابنه

٣٨١

[٣/٧] حكاية الملك المعزول مع المنجم

٣٨٦

[٤/٧] حكاية القط والصياد

٣٨٨

[٥/٧] قصة الجمل والجمال

٣٩٤

[٦/٧] قصة الفارة مع رئيس الحارة

٣٩٧

[٧/٧] حكاية الحمار والأسد

[٤٠٥ - ٤٤١]

الباب الثامن : فى حكم الأسد الزاهد وأمثال الجمل النشارد :

٤٠٧

[١/٨] قصة كسرى مع الأعور .

٤١٢

[٢/٨] قصة الحائك مع الحية

٤١٨

[٣/٨] قصة الصياد والضببان

٤٢٠

[٤/٨] قصة الفلاح والذئب

٤٢٩

[٥/٨] قصة امرأة النجار .

٤٣٣

[٦/٨] قصة كسرى مع ولده وأمه

الباب التاسع : فى ذكر ملك الطير العقاب والحجلتين الناجيتين

[٤٤٣ - ٥٠٦]

من العقاب :

٤٤٧

[١/٩] قصة المرأة البغدادية مع زوجها وحرفائها الأربعة

٤٥٩

[٢/٩] حكاية الحمار مع الجمل .

٤٦٤

[٣/٩] حكاية مالك الحزين والسمكة

٤٧١

[٤/٩] حكاية النمس والقرباب

٤٧٥

[٥/٩] حكاية الفارس والراجل

٤٨٩

[٦/٩] حكاية تيمور وغضب الملوك

الباب العاشر : في معاملة الخادم والأحباب والأعداء والأصحاب : [٥٠٧ - ٦٠١]

- ٥١٢ [١/١٠] حكاية أنوشروان مع الفلاح المرم
٥١٦ [٢/١٠] قصة قاضي نعيم
٥٢٤ [٣/١٠] قصة المنصور مع الرجل المظلوم
٥٢٥ [٤/١٠] قصة النبي موسى والرجال الثلاثة
٥٣٦ [٥/١٠] قصة جنكيزخان وحروبه الوحشية

السَّيَّارَةُ الدَّوَّلِيَّةُ لِلطَّبَاعَةِ

المنطقة الصناعية الثانية - قطعة ١٣٩ - شارع ٣٩ - مدينة ٦ أكتوبر

٨٣٣٨٢٤٤ - ٨٣٣٨٢٤٢ - ٨٣٣٨٢٤٠ : 

e-mail: pic@6oct.ie-eg.com



هذا الكتاب



هذا الكتاب - بعنوانه المراءغ (فاكهة الخلفاء ومفاكهة الطرفاء) - لا يفصح عن موضوعه الحقيقي بسهولة ، بل يوارى مضمونه الإنسانى والفكرى والسياسى وراء حيل الحيوان . . ومن ثم فهو ليس كتاب طرائف ونوادر كما توهم البعض ، بل هو - مثل (كليلة ودمنة) - يعكس طبيعة العلاقة بين السلطة والثقافة ، أو السيف والقلم ، ويرصد وقائع الصراع بين السلطين فى عصره ، على نحو يتجلى فى مئات القصص الرمزية التى يحفل بها الكتاب على ألسنة الحيوان . . . لذلك لا غزو أن يكون الكتاب ظاهره لهو وباطنه حكمة ، واللهو هنا ليس إلا السرد القصصى وعجائبيته وغرائبيته وشيوع روح الفكاهة كما ذكرنا ، وهل من عجيب وغريب أكثر من جعل الحكمة تنساب على ألسن البهائم والسباع والطيور ، خلافا للحكمة على لسان الإنسان وقد فقدت دهشتها وإدهاشها . هنا - بين اللهو واللعب - تتجلى الحكمة فنقلها طائعين وتعلمها مختارين . . إنه التعلم من خلال اللعب (الأدبى) والحكمة من خلال اللهو (القصصى) .

الكتاب القادم : معجم أساس البلاغة للزمخشري

